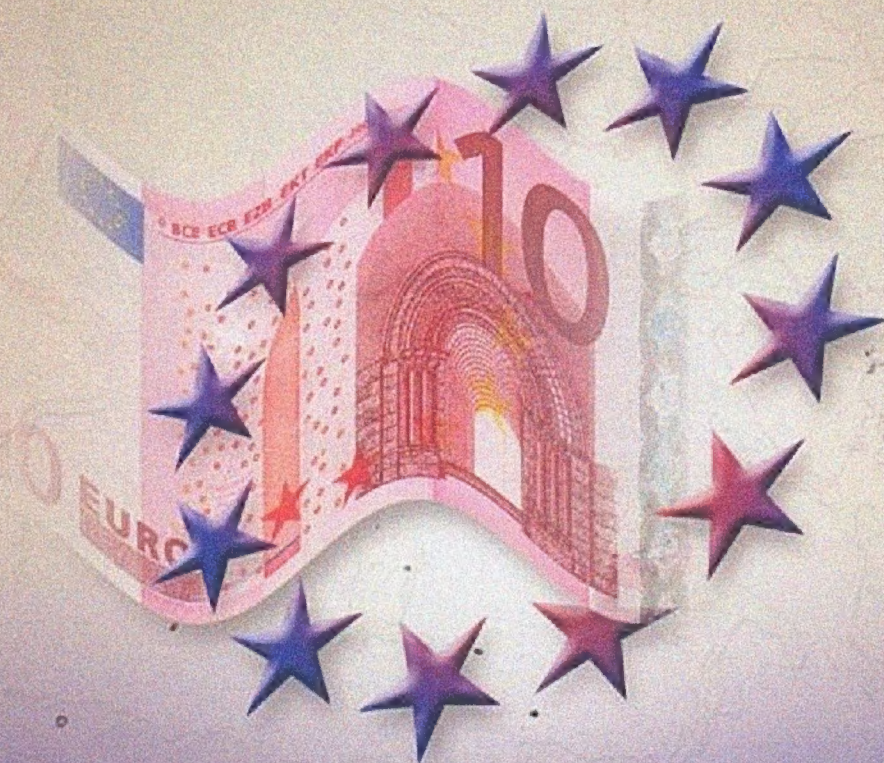


موسوعة
تاريخ أوروبا
الحديث والمعاصر

د. مفيد الزيدي



4-3

موسوعة

تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر

من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الأولى

(١٧٨٩-١٩١٤م)

الجزء الثالث

تأليف

د. مفيد الزبيدي

دار أسامة

للنشر والتوزيع

الناشر

دار أسامة للنشر والتوزيع

الأردن - عمان

هاتف: ٥٦٥٨٣٥٣ - فاكس: ٥٦٥٨٣٥٤ - تليفاكس: ٤٦٤٧٤٤٧

ص.ب: ١٤١٧٨١

**حقوق الطبع محفوظة للناشر
الطبعة الثالثة**

٢٠٠٩م

رقم الإيداع لدى دائرة للمكتبة الوطنية
(٢٠٠٤ / ٥ / ١٠٥٠)

موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر / جمع وإعداد مفيد
الزبيدي. - عمان: دار أسامة للنشر، ٢٠٠٤.
() ص .

ر. | ٢٠٠٤/٥/١٠٥٠.

الواصفات: /تاريخ أوروبا//العصر الحديث/

تم إعداد بيانات الفهرسة و التصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الفصل الأول

قيام الثورة الفرنسية ١٧٨٩

وطلوع نابليون



لولا: الثورة في فرنسا

كانت فرنسا تمتلك الموارد للزراعة والصناعية الكبيرة، وتجارة الخارجية النشطة على الرغم من سوء الحالة المالية والإفلاس للخطير، وكان الأهم من هذا انها دولة تنقصها المساواة الاجتماعية والحرية السياسية والعدالة الضريبية والسلطة التنفيذية الكافية والقادرة، فقد انتشرت الأنظمة الاجتماعية التقليدية من العصور الوسطى، من امتيازات الكنيسة، والنبلاء، وجمعيات الأقاليم التشريعية، والهيئات القضائية، ونقابات العمال، وقد لُتِرت على العدالة والمساواة بين السكان، ولُتِرت بالنقل على كاهل الفقراء، وحرمت الطبقة الوسطى من دخول الجيش والأسطول والكنيسة والقضاء رغم كفاءتها وقدرتها المتميزة.

وقد أصبحت الامتيازات موضع كره من الناس، وأصبحوا لا يحترمون رجال الدين والنبلاء، واهتم الإشراف بجمع الأموال والاقطاعات، وفرض السخرة على الفلاحين، وشكلوا عبئاً ثقيلاً على السكان، وقد كانت بولار مرحلة من التغيير قد لاحت في الأفق بعد ان عجزت الملكية الفرنسية عن حل مشكلات الامتيازات، ولم تكن من القوة بمكان لتبذ بقايا الإقطاع هذا مع ازدياد مشكلة الغذاء وعدم قدرة الحكومات على توفير المواد المعيشية رغم كل ثروة وغنى فرنسا وأراضيها وحالة الترف التي تعيشها الطبقة العليا، إلا أن الطبقة الواسعة وهي الطبقة الدنيا كانت في حالة فقر وجوع كبيرين.

ولن سوء للنظم الزراعية، وتخلف الصناعية منها، وفرض الرسوم الكمركية على الحنطة في الداخل، جعل للطبقات العاملة تسعى إلى رغيف الخبز، وكانت النتائج فاحشة من فتن وسرقة واضطرابات للمطالبة بالخبز.

١ - لويس السادس عشر وسقوط الملكية:

لما تسلّم لويس السادس عشر عرش فرنسا عام ١٧٧٤ كان الاتجاه في أوروبا نحو الحكم المطلق العادل، فقد وُضع ملك بروسيا فردريك الأكبر - مثلاً - موضع الاحترام من قبل ملوك أوروبا، لذلك كانت فرنسا على استعداد لأن ترحب بشارلمان جديد يستطيع بحكمته ان يصلح ما فسد من شؤون الدولة. إلا ان الفتى هذا لم يكن قادراً

على القيام بهذا الدور بتاتاً رغم فضائله الشخصية وورعه وحسن معاشرته، فلم يكن على مقدرة من الحكم، بعيداً عن الذهن المتقد والمثابرة والجد، تلك الصفات الواجبة برجل الدولة، لذا ترك الأمور تسير نحو النهاية بدلاً من أن يوقفها أو يوجهها.

أما زوجته ماري ليطوانيت ابنة ماريا تريزا إمبراطورة النمسا فقد عرفت بالقوة وللشدة، ولكنها بنظر الشعب كريهة ومقينة، وللمساسة مصدر طيش في البلاط وعدم حكمة، وكانت جميلة وذات كبرياء وشموخ، فلم تحاول أن تستميل الخصوم أو تصفح عن الأعداء، وبنت كأنها تقود الملكية نحو الهلولة.

وحاول لويس السادس عشر أن يدعو إلى اجتماع لبرلمانات فرنسا في محاولة للإصلاح والتقرب من الشعب، لكنه في الواقع أعاق فكرة الإصلاح أساساً، لأن أكبر الشخصيات كانت تؤيد رئيس وزراء فرنسا ترجو Turgot (1727-1781) الذي اقترح إلغاء نقابات العمال وإطلاق تجارة الحنطة دون قيود، إلا أن البرلمان في باريس والمقرب من الشعب قد عذّه حائلاً أمام سلطة البلاط الملكي، وحين عزل ترجو وبعد حكم استمر (13) شهراً لم يحقق الشيء الكثير، وأبقى فكرة لدى المفكرين في فرنسا، وهي أن الإصلاح المنفود لن يأتي من العرش، بل يجب أن يبحث عنه من جهات أخرى.

وقد خلفه للوزير نكر Necker (1732-1791)، وهو بروتستانتي جمهوري من جنيف أصلاً، شارك في الحرب الأمريكية وكسب حب الشعب بدفعه نفقات الحرب بالقروض لكونه كان يعمل في أحد المصارف، لكنه خسر هذا الحب حين ألقا مجلس محلية محل مندوبي الملك في تأدية واجباتهم الإدارية، وعزل نكر من منصبه عام 1781.

وكانت المشكلة الجديدة والمتفاقمة هي كيف يتم سد العجز في هذه الميزانية، وعبثاً حاول وزير بعد آخر حمل الأشراف على الموافقة على الحل للوحيد، وهو للتنازل عن امتيازاتهم، وفشلت عدة مقترحات، منها للوزير كالون Calonne بدعوته جمعية من الأعيان عام 1787، وحاول أن يطلع الشعب على أفكاره وهي أن اللعب الأكبر من الضرائب لا تفرض على الطبقات الثرية بل عليهم أقل الضرائب، وإنما

يواجه الفقراء دفع الثمن، ولا تولزن في الامتيازات، ولا يمكن إقامة حكم متوازن دائم لو إدارة جماعية مشتركة، ولذلك ظهرت هذه العيوب والمساوى، ومن للصعوبة ان تحكم حكماً صالحاً في هذا الوقت.

وفي هذه الأجواء من التناؤم وعدم وجود الحل دعا الملك إلى مجلس طبقات الأمة للانعقاد، وأرجع نكر إلى منصبه القديم في الهيمنة على مالية فرنسا.

ولم يصدر إصلاح واضح من ذلك المجلس والذي كان يجتمع فيه رجال الدين والأشراف والطبقة العامة عبر ممثلها، كان أمل نكر في دعوته ان يقر المال اللازم لمعادلة للميزانية، ولم تضع الحكومة قبل الاجتماع خطة للإصلاح الدستوري أو حتى خطة متواضعة للخروج من الأزمة، ولم تقرر الحكومة شيئاً، حتى إنها لم تقرر من هم المجتمعون؟ كل أعضاء الطبقات الثلاث معاً، لم كل طبقة وحدها؟ وبهذا تراكمت الأوضاع سوءاً، وخلفت رلياً سياسياً شديدة الكراهية والهياج في لوساط الشعب.

ورفعت الكثير من الهيئات والشخصيات في شتى أنحاء فرنسا عرائض إلى الحكومة، تطالب جُلها بأن للضرائب يجب الا تفرض من غير موافقة الشعب، وان تلغى ضريبة للبيوت والعقار الثابت، والبعض رسم نظام ملكية دستورية وهو القس ناليران لصفق لوتان، وكان من أحكم الفرنسيين، وهي الملكية التي ظهرت في فرنسا بعد سقوط نابليون.

ولما عقد للمجلس في فرنسا في مايو/أيار عام ١٧٨٩ وقع ممثلو الطبقة العامة تحت تأثير للهياج العام والأمال للواسعة، وعقدوا للعزم على ان يمنحوا فرنسا نظاماً وهيئات تكون مثلاً نمونجياً للعالم كله، ولم يكونوا على استعداد لتلقي معارضة الطبقات العليا، وأعلنوا في السابع عشر من حزيران/يونيو أنهم يكونون (للجمعية للوطنية)، وفي لجمعاع يوم العشرين من للشهر نفسه في (ملعب التتس) بجوار قصر فرساي أقسموا بالآلا ينفضوا حتى يضعوا دستوراً لفرنسا.

وكانت حاشية للعرش ترفض منح الشعب أي إصلاح لو حق، وتسعى لاستخدام القسوة والقوة في وقف أعمال الجمعية، والقضاء على الاضطرابات في العاصمة التي ازدادت بمرور الوقت، وأذن الملك لويس السادس عشر لهذه الجماعة،

وعزل في الحادي عشر من يوليو/ تموز نكر، وأمر بإقامة معسكر قرب فرساي لجند نظاميين تحت إمرة قائد قديم، هو (برجلي)، وسار لويس نحو القسوة والقسوة رغم انه نادى من قبل بالإصلاح.

فكان رد للمعارضين للتاريخي يوم الرابع عشر من الشهر نفسه باجتياح القسوة الحصون، وهو الباستيل، وقتل الحامية بقسوة، وهدم السجن وهو في أطراف باريس، ولقي ترحيب الناس في كل أرجاء فرنسا كنهاية لفترة من اللطفان والسجن والظلم والاستبداد، وبشرى ليوم جديد هو العبد القومي لفرنسا الذي أصبح فيما بعد يوم الحرية والاستقلال والجمهورية.

وبدأت تسير باريس نحو حركة تاريخية جديدة، فصار لها مجلس بلدية وحكومة، وجيش شعبي أهلي، وكان سقوط الباستيل حدثاً كبيراً في فرنسا، وعندما وصل للنبا إلى الملك قال انه فترة كبيرة، ولكن اللوق (دي ليانكور) رد عليه قائلاً: كلا يا مولاي انها الثورة العظيمة.

ولصحت الملكية عاجزة حقيقة عن حماية أصدقائها، أو للقضاء على أعدائها، وأجبر الملك على ان يتجرع الذل، ويعزل عدد من وزرائه، ويستدعي نكر، وان يبارك علانية باستيلاء الرعاع على الباستيل، وان يقبل أمام الناس ذلك، بل الأكثر من ذلك كعلم الأمة بعد تحررها، وهو للشارة المثلثة الألوان، وقد ابتكرها (لافاييت) القائد المنتخب للحرس الأهلي^(١).

ولتفق الثوار على إبقاء الملك في باريس خوفاً من تلاعبه أو جمعه للجنود حوله، وان يقوم للحرس بمراقبته، وكانت صاحبة الفكرة هي مدام رولان، امرأة فصيحة للسان، وجميلة، وكانت قريبة مفتش مناجم، وأدركت باريس خلال هذه الفترة طريقة إثارة الجماهير، واستيعاب أساليب الثورة، وفي الأسبوع الأول من أكتوبر/ تشرين الأول ١٧٨٩ ظهر ما يبرر الانقلاب، فقد دعا الملك فرقة للفاندر إلى فرساي، ورفض توقيع قانون إجازته للجمعية الوطنية، ولته قد يفكر بالهروب، هذا مع قلة الخبز في باريس حينذاك، وكلها كافية لتحرك سريع وزحف شهير إلى فرساي في الخامس من أكتوبر/ تشرين الأول، ومع ظهور للنساء للجائعات، ومجيء الحرس الأهلي بقيادة

لافايت، أحضرت الأسرة المالكة إلى باريس وإلى قصر للتويلري، وأصبح شبه سجن للملك واتباعه.

وقد فر دارتو Dantois الأخ الأصغر للملك بعد أن وجد عدم ضمان الحماية الكافية له، وكانت أولى موجات لقرار المتعاقبة التي مستطلق من فرنسا إلى أوروبا، وسادت روح الغلو والتطرف، وهرب الأشراف والنبلاء وراء الحدود، وتحالفوا مع أعداء بلادهم، وتأمرؤا عليها، وبثوا روح الفتنة، وانتهت فرنسا إلى الثورة أحداث كبيرة، مثل اعدام الملك والمملكة، والإرهاب، وروح الفسك في الآخرين؛ نتيجة حقد للمهاجرين، وقوة حلفائهم في الداخل والخارج، ووجود انصار للملكية غير معروفين في جميع أرجاء فرنسا.

ووجهت الجمعية الوطنية جهودها لوضع دستور لفرنسا، ومساعدتها تنازل الأشراف والنبلاء وأعضاء مجالس المقاطعات والبلديات والشركات والنفقات عن حقوقهم وامتيازاتهم الإقطاعية، وإنهيار النظام القديم، وقد سادت عقب سقوط الباستيل روح الفوضى في كل مكان من الإدارة والجيش والأسطول، وأحرقت للقلاع والحصون، وأفتقد القانون، وانتشر للحرس الأهلي في كل مكان يحملون للثورة وروح مواجهة الأعداء.

وسادت فكرة وهي أن الشعب هو صاحب السيادة، ومصدر كل السلطات وأن الفرنسيون باتوا مواطنين، وأن الجمعية الوطنية تعبر عن إرادة الشعب بصفة شرعية، وأن روح الاتحاد تجعل للمواطنين يشعرون بمسؤولياتهم، ولهم جزء من فرنسا ذات السيادة والسلطان، ولهم من الحقوق والاعتبار ما لأميادهم، ومنحوا حقوق لا يمكن لأحد أن يحرمهم منها، مثل حق الحرية، وحق للملكية، وحق التعبير ومقاومة الظلم والتصف.

وكان هذا هو المنطلق، وتلك هي الأفكار التي استحوذت على عقول للفرنسيين في صيف عام ١٧٩٨، وكان هذا نداء إلى شعوب أوروبا، وذاعت هذه للفلسفة التي لطوت على إعلان حقوق الإنسان، هذا الذي يؤدي به في دستور عام ١٧٩١ بعد المحن والنكبات التي مرت بها فرنسا^(٢).

كان للمجتمع الفرنسي يتكون من عدة طبقات: البرجوازية والوسطى والدنيا من العمال والفلاحين، فضلاً عن المجرمين وقطاع الطرق، واستمتع الملك ووزرائه من توجبه خطى الجمعية، ورفضت الجمعية من جانبها حكم فرنسا أو حفظ الأمن في باريس، ولما انتقل الملك والجمعية إلى باريس انتقل مركز المباداة في فرنسا إلى الأندية السياسية، مثل نادي الليعاقبة، ولم تحاول الحكومة أن تضرب على أيدي الثوار أو تقاوم أفعالهم التي أدخلت للعرب في قلوب أعضاء الجمعية الوطنية، وبذرت بذور الفتنة في الجيش.

وحاول ميرابو Mirabeau المخاطر السياسي والخطيب الشعبي الشهير جاهداً أن يوقف الفوضى والفتن، ولكن دون جدوى بسبب التيار القوي والجارف، وكان لا بد من قيام حكومة قوية لتستطيع أن تخرج من هذا المأزق وتتخذ فرنسا من الأزمة، وتوقف للسقوط، وتقيم حكومة قوية.

وفشلت الجهود بسبب المؤتمرات، وتحطمت خطى إقامة وزارة ملكية قوية، سواء في تعزيز السلطة التنفيذية في الدستور الجديد، أو إنشاء مجلس تشريعي ثان، ومنح الملك الحق المطلق في رفض التصديق على أي مشروع قانون، وتحويل الوزراء حق الحضور في المجلس التشريعي والمشاركة في السلطة التشريعية، ولم يستطيع ميرابو نفسه أن يعتمد على تأييد الأعضاء الملكيين في الجمعية الوطنية، لأن الكثيرين منهم كانوا يميلون إلى عدم تعزيز الديمقراطية، وجعل الدستور شيئاً من حيث التطبيق، وانتهى رأي ميرابو إلى تعذر الاتفاق على شيء في الجمعية، واقترح سراً على البلاط أن يرحل علناً من باريس إلى روان، لكنه كان اقترافاً متأخراً بعد أن صارت فرنسا جمهورية.

وبقي الدستور الذي خرج من المناقشات على الفوضى للناجمة من تشتت السلطة، والذي وجدته الجمعية الوطنية قائماً، ولم تفعل شيئاً لتحسينه، وصارت السلطة الحقيقية في يد أربعين ألف مجلس محلي، وكانت الجمعية تدفع من الضرائب ما تريد، ولها وحدها حق استدعاء حرسها الأهلي الخاص بها واستخدامه، وكان الخوف الكبير

من سلطان الحكومة، وكان هذا الخوف عيباً من أكبر عيوب المحاولة الأولى للثورة في تنظيم فرنسا.

وجاء إخضاع رجال الدين للدستور مدنى مبدأ أساسياً من مبادئ الثورة، وكانت للكنيسة ثروة ومكانة ونفوذ واسع، ولها تعصب واضح، فأخذت للجمعية توجهه للضربات لها، وألغت العشور للكنيسة دون دفع تعويض، وصارت جميع أملاك الكنيسة، وحلت الطوائف من الرهبان والراهبات، وعملت على تخفيض عدد الهيئات والأشخاص الكهنوتيين، ولكن الجمعية لم تمس العقائد والعبادات، وحُرِّم كبار رجال الدين من إيرادات الكنيسة الكبيرة، وجاء قرار للجمعية الأشد قسوة على الكنيسة، وهو من قرارات الدستور الذي بموجبه يُختار الأساقفة بواسطة ناخبي المديرية، والقس بواسطة مجالس المراكز المحلية. وكان لا بد من أن يستنكر البابا هذا الدستور المدني، فهو لم يستقر عند إقراره، والذي جرح ضمير العالم الكاثوليكي، لا سيما أن هذا الانتخاب لرجال الدين بواسطة أشخاص علمانيين، أو بروتستانت أو ربما كانوا ملحدتين.

ولتقسم رجال الدين نتيجة هذا الأمر قسمين أو فريقين: الأول حلف اليمين على طاعة الدستور، واحتفظ بمنصبه وأخذ راتبه، وفريق ثانٍ عصى وتمرد، وخرج من للكنيسة المنشقة عن البابا، وحمل معه ولاء رعية أوفياء. وصار القسم الذي لم يحلف أفرادهم يمين الولاء للدستور، مركزاً منيعاً لمقاومة حكومة الثورة، وكللوا في مقاطعتي فاندني وبريتاني، وفي كل مكان خفقت فيه للشارة البيضاء ذات العلم المثلث الألوان.

وتمثلت أعمال الجمعية بأن هاجمت الامتيازات لا الملكية، وعملت على تأكيد حرية الفرد، ومناهضة نقابات العمال، وإلغاء نظام رق الأرض، ونبتذ نظام الرسوم الإقطاعية على صغار الملاك، والتخفيف من وطأة قوانين الصيد، وحرمان مالك الأرض من حقوقه فوق لتباعه من العامة.

واحتاجت للجمعية في فرنسا إلى الأموال، وسعت للحصول على مطالبها بإصدار لوراق مالية، ضمنت أولاً بأملك الكنيسة، وأملك للعرش والمهاجرين، وأصدرت في بادئ الأمر - في ديسمبر/ كانون الأول ١٧٨٩ - أوراقاً بـ (٤٠٠

مليون) فرنك، وعُتبت مئونة، تُستد مما ينتج من بيع أملاك الكنيسة، ثم وجدت أن هذا المبلغ غير كافٍ، وأخذت تسد حاجاتها بإصدار أوراق جديدة، وحل التضخم المالي مع انحطاط قيمة الأوراق وبيع الأراضي بأثمان بخسة، في حين يعود الربح على فريق آخر، وأدى فقر خزينة الحكومة وأصحاب العقارات وسكان المدن إلى هياج وثورة في باريس، وتضخم ثمار الثورة المتزايدة، وعنف نادي الليعاقبة وتحريض الصحافة على الثورة بقوة، واستسلام الجمعية التي لا تقف عند حد في تلبية أوامر الفوغاء ورغباتهم، وظهر للملك أن الدستور المدني لرجال الدين أشد الأمور إثماً ومقتاً، وشعر أنه لن يستطيع التوفيق بين هذا القانون وبين ضميره.

وحدث تطور هام في عيد الفصح عام ١٧٩١، حيث قصد الملك والملكة إلى سان كلو لتناول العشاء الرباني في كنيستها، ولكن الفوغاء ردوهم عنها، فكانت الإهانة الحاسمة للملكية، وعقدت الأسرة المالكة العزم على الفرار عبر الحدود، وقبل أن يغادر الملك باريس كتب منشوراً يعلن فيه بطلان الأوامر الدستورية التي أرغم على توقيعها وطالب بتعديلها.

ولكن، انكشف أمر الهاربين في فارن في الثاني والعشرين من حزيران/يونيو ١٧٩١، وأعيدوا إلى باريس، فقصي على الملكية من تلك الفترة، وظهر الملك كالخصم العلني للدستور، وكمؤيد للكهنة الذين عارضوا الدستور، وكمحرض على الحرب الأهلية، وكحليف للدول الأجنبية المعادية للثورة، وأوقف عن العمل، ولقيت حكومة جمهورية.

وعندما اكمل وضع الدستور حُلَّت للجمعية الوطنية نفسها في الرابع عشر من سبتمبر/أيلول ١٧٩١، ودلَّ ذلك على عدم الأمانة وحب المصلحة العامة، ولكن هذا لم ينقذ فرنسا، وقُضيَ بتحريم انتخاب أعضائها في الجمعية التشريعية الجديدة، ولكن قضت الظروف بأن تكون للجمعية المنحلة هي صاحبة أفكار الحرية والإخاء والمساواة، وبُنلت الجهود لإقامة الديمقراطية في فرنسا، وللحيلولة دون قيام حكومة استبدادية عسكرية في فرنسا^(٢).

ثانياً: الحرب و"الإرهاب"

أصبحت الجمعية التشريعية بيد مجموعة من الشباب من الطبقة الوسطى من جنوبي غربي فرنسا من إقليم جيرند؛ ولذا عرفوا بـ(الجيرنديين)، ولم يكونوا يعرفون من أساليب الحكم إلا الشيء القليل، ويؤمنون بالجمهورية ونشرها في ربوع أوروبا، ولن ينقلوا ما يحسون به إلى الآخرين من أفكار.

وكان فرينو وأسنار وبريسو ومدام رولان من ضمن هؤلاء، بل أبرز دعايتهم، وقد أكسبهم الانتفاخ والحماس حب وصدقة الآخرين، إلا أنها جلبت عليهم تبعات في نشوب حرب طويلة، تركت فرنسا في حالة ضعف ووهن بين الدول الأوروبية، وفرضت على سكانها الضرائب لفاحشة وللنظام العسكري الإجباري.

وفي أجواء الشك والضجر في باريس حينذاك، كان من أعداء الثورة المهاجرون من الأشراف ورجال الدين وكذلك إمبراطور النمسا، ولذلك ركّز الجيرنديون على هؤلاء الأعداء، على اعتقاد أن ثقب الطريق نحو للجمهورية يكون بمواجهة الملك واتباعه وحلفائه، وإصدار القوانين للصارمة ضد الأشراف ورجال الدين، ثم بإعلان الحرب على أخ للملكة.

كانت أسباب الحرب النمساوية - الفرنسية عديدة، وليس من الصعوبة الإعلان عنها، فكان إمبراطور النمسا ليوبولد (١٧٤٧-١٧٩٢) يمتكي من الفرنسيون وما يقومون به من إشعال النار في بلجيكا الخاضعة له، ومن حرمان للجمعية التشريعية بعض الأمراء الألمان حقوقهم الإقطاعية في الأكراس، ومن انتزاع إقليم أفنيون من البابا وضمه إلى فرنسا، ومن إعلان مبدأ أن لكل شعب حق تقرير المصير.

ولهذا أصدر ليوبولد بالاشتراك مع ملك بروسيا بلاغاً من بلنتر Pitniz في السابع والعشرين من أغسطس/ آب ١٧٩١، وكأنه يتوعد فرنسا بتأليب الدول الأوروبية إذا هي لم تعامل لويس المعاملة لللائقة به، إلا أن ليوبولد في واقع الحال الرجل للذكي ذا العقلية والنظرة البعيدة لم يكن يريد إشعال نار حرب مع فرنسا للديمقراطية، فرغم أنه أسرع في الوعد والتهديد إلا أنه أحجم عن العمل.

إلا أن الضغط ازداد يوماً بعد يوم وشهراً بعد آخر، واتجه للملك نحو للتدخل

العسكري ضد تيار الديمقراطية الفرنسية، بدعم من المهاجرين الذين تجمعوا في
كبلنتر، ومن كاترين فيصرة روسيا، وجوستاف ملك السويد، ومن ملك إسبانيا ثم من
أخته ماري انطواليت التي أرادت بهزيمة فرنسا ان تتخذ عرش زوجها.

ولكن ليوبولد مات قبل ان تنجح هذه الفكرة لتتحول إلى عمل، غير أن خلفه
فرنسيس (١٧٩٢-١٨٣٥) - وكان شاباً قوياً ونشطاً - بادر إلى تحدي الجيرنديين بأن
وجه لهم بلاغاً واضحاً شديد اللهجة بأن على أمير تريف Treves ان يطرد قوة
المهاجرين العسكرية من أراضيه، وكان يقصد بالطبع إعلان الحرب من ورائه، ورغم
اختلال توازن القوى بين الطرفين إلا أن بريسو واتباعه كانوا يتقنون بتحقيق النصر،
وبأن شعوب أوروبا المحبة للحرية مستهض للقتال معهم ضد للحكام الأوروبيين
المستبئين، ومنعز للحرية والإخاء والمساواة.

أما روبسبير أحد خطباء المبالغة فرأى غير ذلك، بأن الحرب ستنتهي بإرجاع
سلطة للتاج الفرنسي إلى ما كان عليه من قبل، إلا أن الجيرنديين جرّوا البلاد إلى
الحرب في العشرين من إبريل/ نيسان ١٧٩٢.

وأدى نشوب الحرب مباشرة إلى انهيار الملكية وتأسيس الجمهورية في الثاني
والعشرين من أيلول/ سبتمبر ١٧٩٢، وتكوين حكومة الإرهاب، وأدت الحرب إلى
الغلاء للفاحش، وقلة للخبز، وانتشار للفوضى والأحزاب في كل مكان، وارتكاب سفك
الدماء، ومن جهة أخرى غدت روح المقاومة مثاراً لوحدة فرنسا كأمة مقاتلة اتحدت
هباتها على موافقة الشعب ورضاء، وتمسكه بقضيته المشتركة ضد العدوان للمصلح،
وعقد الجيرنديون العزم على عزل للنمسا حتى يتمكنوا من اختطاف بلجيكا منها، ومد
الحدود الفرنسية إلى الراين.

إلا أن عدم فطنتهم وسوء تدبيرهم أوقع فرنسا في قتال ضد للنمسا وبروسيا
لكوى دولتين أوروبيتين في أوروبا من دون أن تكون فرنسا مستعدة للحرب بشكل جيد،
وكان للجيش في حالة انحلال مع عدم النظام والضعف، وتبين مقدار الفرق بين
الطرفين منذ بداية الحرب. وتقدم الجيش البروسي نحو فرنسا، مع توعد بالحاق بالتنمير
بباريس إذا ما أصيبت الأسرة المالكة بالأذى، وبرزت شخصية ثورية تسلمت فجأة

الزعامة، إنه دانتون الذي نظم الهجوم على للتويلري في العاشر من أغسطس/ آب ١٧٩٢، ومزق الجنود السويسريين، وسلمَ للملك والملكة إلى الأسر، ودعا لإعلان الجمهورية في مؤتمر خاص، فكان سياسياً وطنياً وواقعياً، وإذا نظرة نافذة ومقدرة على الحسم، ووجهَ اهتمامه إلى جعل فرنسا جمهورية يرضى عنها الشعب مكان ملكية غير وافية لا تمتلك أحقية من الشعب بحكمها، كما اهتم بأن تُشكّل حكومة مركزية مكان الفوضى، وجيش جديد منظم يشبع فيه الإيمان بالثورة مكان جيش الملك المشرنم، ورأى أن فكرة الجيرنديين بشأن حرب صليبية ضد أوروبا محض فكرة من الخيال لا واقع لتطبيقها.

وكان الإرهاب في زمن الحرب في نظر للعامة - ومنهم دانتون - ضرورياً كدأة للسياسة والحكم، وإن المرفوض هو تفرق وحدة الفرنسيين فحسب طالما أن للجيش تحتل بلادهم، وكان دانتون على استعداد بكل وسيلة من أجل استخدام الإرهاب والقوة لكي يلقي الخوف في نفوس أعداء الثورة^(١).

١- للجمهورية الفرنسية الأولى:

أحرزت الجمهورية في أيامها الأولى عدة انتصارات، ووضعت من خلالها سافوي ونيس وولايات الراين والأراضي المنخفضة للمساوية تحت سيطرة الجيش الفرنسي. وتراجع الجيش البروسي الذي كان يعتقد أنه أفضل الجيوش في أوروبا بعد تكبده خسائر كبيرة.

وواجهت فرنسا في هذه المرحلة أمة أوروبية معترزة بنفسها تحكمها الأرستقراطية هي بريطانيا، ولكنها حكومة شعبية سبقت فرنسا بقرون طويلة، وكان وليام بيت Willaim Pitt رئيساً للوزارة البريطانية من عام ١٧٨٣، ذو النشأة الحرة، والموال المالي، والبلاغة البرلمانية، وكان له شأن كبير في أوروبا، حيث عمل على استتباب الأمن لفترة طويلة، وإجراء الإصلاحات الداخلية، ولكنه دخل في أتون حرب انتهت بمعركة واترلو الشهيرة، ورأى فيه الفرنسيون أصلب خصومهم، وهو الذي ينهض يومياً ليثير نفوس وقلوب البريطانيين من أجل المقاومة بشجاعته وبلاغته المعهودة.

ونشبت مواجهة طويلة الأمد بين فرنسا وبريطانيا، لأن الأخيرة لم تقبل التسليم أو القبول بضم بلجيكا وهولندا إلى دولة أوروبية قوية، وما أن طلع عام ١٧٩٣ حتى أظهرت فرنسا الثورة نوابها، فقد دخلت واحتلت بلجيكا، وهددت هولندا، وأخذت تحرض بمرسوم لها في التاسع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٩٢ رعايا ملك إنكلترا في إيرلندا وغيرها على العصيان، ثم أثارت حق الشعب البريطاني بقتل الملك لويس السادس عشر، ورغم ذلك فقد تحذت فرنسا لكبر قوة بحرية في أوروبا والعالم وهي التي لا تملك أسطولاً بحرياً قادراً على المواجهة.

وأدى دخول بريطانيا الحرب ضد فرنسا إلى تركيز المعارضة ضد الثورة بيد واحدة، وكان ما يشغل بال روسيا وبروسيا والنمسا هو بولندا وليس فرنسا في ذلك الوقت بعد أن تعرضت حدودها إلى أكثر من حالة تقسيم، وفي الوقت الذي تنادي فيه فرنسا بمبدأ تقرير المصير، كانت ملكيات شرقي أوروبا منهمكة في محو وجود دولة لوروبية من على الخارطة.

وكان استانسلاس بيناتسكي S. Poinatwski ملك بولندا قد قبل بدستور لبلاده يرجو فيه الإصلاح من الإنهاك والضعف، وذلك في الثالث من أيار/ مايو ١٧٩١، وجعل الدستور الملكية وراثية، وأخضع الأشراف للضرائب، وأعطى الحرية الدينية للجميع، على أساس أن تؤدي بولندا دوراً حيواً في أوروبا بعد هذا الإصلاح.

إلا أن كاترين فيسرة روسيا ورغم اعتراف بروسيا والنمسا بذلك الدستور، فقد أغارت عام ١٧٩٢ على بولندا، وألحقت بها الهزيمة وألغت الدستور، ودعت بروسيا والنمسا إلى اقتسام الغنائم معها، وأبرمت معاهدة خاصة في العاشر من تشرين الأول/ أكتوبر ١٧٩٥ أكدت فيها التقسيم الثالث لبولندا بعد تقسمي ١٧٧٢، ١٧٩٢، حيث مُحيت بولندا من الخارطة الأوروبية، وتحول اهتمام بروسيا والنمسا نحو بولندا بشكل أكبر مقارنة مع فرنسا، فساعد هذا الجمهورية الفرنسية على الثبات والصمود في وجه أوروبا.

٢- عهد "الإرهاب":

إن المؤتمر الوطني الفرنسي الذي نادى بالجمهورية، وقطع رأس الملك

وأرسل الجيرنديين إلى المقصلة، وأقام عهد الإرهاب كان منتخباً بـ ٦% من مجموع الناخبين، أما الأغلبية من الفرنسيين فلم يكونوا في حالة تسمح لهم بإدارة شؤونهم الخاصة، وقد رضوا بترك السياسة والإدارة ولبتعدوا عن ساحة المواجهة.

فإن الأغلبية من أعضاء المؤتمر كانوا ينتمون إلى فريق معتدل من الطبقة الوسطى الفرنسية دعامة الأمة، وكان طبيعياً أن يُستَرشد بالجيرنديين الذين بلغت قوتهم في المؤتمر (١٢٠) عضواً في الدوائر النيابية المعروفة.

وكان الجيرنديون يؤمنون بالحرية الإقليمية والحرية الشخصية واستقرار فرنسا والحياة الهادئة وتسيير شؤون الدستور الجمهوري بما يحقق حياة أفضل للناس، ومع بلاغتهم وخطبهم الساحرة عجزوا أن يوقفوا جرائم عام ١٧٩٢، فهاجموا روبسبير Robespierre، وحملوا على مرتكبي المذابح، وألركوا خطر مواجهة معارضة باريس للثائرة، ولكنهم لم يخلقوا الأندية أو الصحف، ولم ينظر لهم الرجل الفرنسي العادي نظرة احترام وتقدير؛ لأنهم حزب القمع مؤيدوه لقتل الملك فلا يستأهلون احترام الشعب، لأن الجيرنديين ساعدوا وقبلوا بإرسال الملك إلى المقصلة، وقد حكموا على أنفسهم بعداء الشعب في الحاضر والمستقبل.

وقد تألفت في نيسان/ أبريل ١٧٩٣ حكومة لليعاقبة من وزارة قليلة العدد عرفت بلجنة الأمن العام لإدارة السياسة العامة، وهيئة سُميت بلجنة الضمان العام لكبر من اللجنة الأولى تهيمن على الشرطة وحفظ الأمن، ومحكمة ثورية لمواجهة الأعداء، ووضعت خطة لمواجهة للقادة والمندوبين العسكريين والمدنيين يُدْعَوْنَ ممثلين مبعوثين، واختيروا في هذه المناصب لتطرفهم.

واصل المؤتمر الوطني في عقد جلساته للنقاش وسن القوانين، ولكن سلطانه كان قد ذهب عنه، فقد هاريو Henriot في الثاني من حزيران/ يوليو ١٧٩٣ انقلاباً بدون مشاركة الجيرنديين، ولم يلقوا دفاعاً من حزبهم، وإلقاذهم من التشرذم والقتل، ولم تلغ الوزارة الجديدة وتشكيلاتها في وقف هذا الأمر، لا سيما وأن العصر الجديد كان يتطلب طرفاً خاصة، وأوقفت أعمال الحكومة، وأُرسلت تعليمات إلى الجيش الفرنسي من باريس في السابع والعشرين من تموز/ يوليو ١٧٩٣، ووُضع حدٌ لخدمة فرنسا.

وكان رجلُ العصر روبسبير (١٧٥٨-١٧٩٤) المحامي للقائم من أراس، الذي دخل لجنة الأمن العام في الثامن عشر من تموز/ يوليو ١٧٩٣، وفي مدة عام من الإنجازات الداخلية والخارجية أصبح هذا الرجل حاكم فرنسا الحقيقي وروح أوروبا، واستطاع للبعاقبة في عهده إخماد الثورة في ليون، واسترجاع طولون، وهونديوت، وهزموا النمسا في واتيلبي وفلوري، وفتحوا ثانية بلجيكا، وغزوا هولندا، وحرروا فرنسا من كل احتلال، ووضع نظام التجنيد الإجباري، وشرع كارنو في تنظيم الجيش الذي سيصبح أداة بيد نابليون من بعد.

وجعلت بلاغة روبسبير وخطبه المتحدثة عن الحكم السيامي وفنونه، جعلته زعيماً قريباً من الشعب، ويشار إليه من بين للبعاقبة، والمسيطر على الثورة في باريس، ثم على السياسة القومية، وللمظاهر بسلوك فضائل الجمهورية، وكان كل منفي عنه مصيره للمقصلة، فأرسل إليها في آذار/ مارس ١٧٩٤ هير وشومت بتهمة الإباحية والإلحاد، ثم دانتون وديمولان. ثم أصدر في العاشر من حزيران/ يونيو ١ٷ٩٤ قانوناً شديداً على كامل أعضاء المؤتمر، وحرّم المشرّعين من حصانتهم البرلمانية، ونبذ للحماية للأشخاص المتهمين بجرائم سياسية، وعقد رجال شجاعان العزم على مواجهة هذا الرجل، وهما بارا وتالين، وعملوا على تنظيم قواتهم خارج المؤتمر، وحققوا نصراً سريعاً على للبعاقبة في قوات منظمة، واقتحموا للبلدية في الثامن والعشرين من تموز/ يوليو ١٧٩٤، وعثروا على روبسبير، وأطلق عليه النار، ثم لقيت إلى المقصلة لينوق نفسه الكأس الذي أذلق منه خصومه^(٥).

٣- حكومة الإدارة:

وسقط روبسبير، وانتهى عهد المذابح، وانتصر جوردان Jourdan في فليري في الخامس والعشرين من حزيران/ يونيو ١٧٩٤. وقبض المعتون وأنصار دانتون على الحكم، وألقوا الكومون، واغلقوا نادي للبعاقبة، وعفوا عن الفانديين. وسمحوا للجرنديين بالعودة إلى البلاد، وعادت الحياة للسياسية إلى باريس.

وكان الحل الآن هو إيجاد دستور لتشكيل الحكومة مع وجود خطر من عدم إمكانية للتوصل إلى حل لهذه المشكلة، لأن ثوار باريس رغم ما أصابهم من ضعف

وسقوط الكومون في باريس، فإنهم لازلوا مسلحين ولديهم وسائل الثورة، ثم عندما فشلوا في المواجهة قرروا وضع للحرس الأهلي تحت إدارة لجنة من رجال الجيش.

ولإيجاد حل تم وضع هيئة بصيغة دستورية تحت اسم حكومة الإدارة، حيث وضعت السلطة التنفيذية في يد هيئة من خمسة أشخاص ينتخبون لمدة خمسة أعوام، وتم إنشاء مجلسين تشريعيين دفعا لأية معارضة (الشيوخ ومجلس الخمسمائة)، يُختار أعضاؤهما عن طريق انتخاب محدود للنطاق، ونُصّ على وجوب تغيير عضو من أعضاء السلطة التنفيذية الخمسة وثلاث أعضاء السلطة التشريعية كل عام، وصحب هذا أن يتم اختيار ثلثي أعضاء البرلمان الجديد من أعضاء المؤتمر الوطني.

فثار المعتلون والملكيون في باريس على هذا للتدخل في حرية الانتخاب، ولرأوا التخلص نهائياً من السياسيين، ونظمت باريس بأحيائها للثيرة حركة ترمي إلى القضاء على هؤلاء الإرهابيين، وتم حشد زهاء ستة وعشرين ألفاً للقيام بالهجوم في أكتوبر/تشرين الأول ١٧٩٥.

في هذه الأجواء ظهر شاب من قادة المدفعية تميز في حصار طولون عام ١٧٩٣، وتعرف على بارا - وهو أقوى أعضاء حكومة الإدارة - ذي الموهبة، وعهد إليه بالدفاع عن المؤتمر الوطني وبنابته المهددة بالسقوط، واستطاع أن ينقذ الحكومة من المتظاهرين، وتمت ترقيته العسكرية على الفور قائداً للقوات الداخلية، ثم في العام التالي أنيطت به قيادة الحملة الإيطالية ذات الأهمية البالغة، وصعد نجمه في فرنسا^(١).

ثالثاً: ظهور نابليون

١ - الحملة على إيطاليا:

في عام ١٧٩٦ كان قادة حكومة الإدارة قد سعوا إلى جعل فرنسا ذات ثقل كبير في غربي أوروبا، فقد ضمت هولندا وبلجيكا وجميع الأراضي الألمانية حتى حدود الراين وأصبحت أجزاء من فرنسا، ولحقت مافوي بها، ووُجد جيش فرنسي في الريفيرا الإيطالية، وانسحبت بروسيا وإسبانيا وتوسكانيا من الحرب، فأصبح المسرح شاعراً للصراع بين الثورة من جهة وكلاً من بريطانيا والنمسا من جهة أخرى.

لما بريطانيا فقد وقفت تدافع عن هيبنتها والمصالح الأوروبية، لا سيما وأن

الأحوال الجوية العاصفة كسرت حملتها على ليرلندا. أما موقف النمسا فكان يختلف، فقد احتلت فرنسا بلجيكا وهي غير ذات أهمية للنمسا، ورأت في الولايات الإيطالية فرصة للتعويض عنها، وبعضها كان يعترف أساساً بالحكم النمساوي المباشر والآخر موافقاً للمسير في نفس الخطة، ولذلك رأت فرنسا أنه يمكن أن تضاف المملكة هذه إلى أعدائها. هذا فضلاً عن رغبة الشعب الإيطالي في الخلاص من نير الحكم النمساوي، والرغبة في الجمهورية الفرنسية وإيجابياتها.

في حين أن الحكومة الفرنسية المعادية للكليروس كانت لها الرغبة في الحملة العسكرية على إيطاليا، لا سيما أن البابا قد أعلن عداؤه لها، ورفض إقرار الدستور للمدني لرجال الدين، وشجع للتسامحة للذين لم يؤيدوا يمين الطاعة للدستور على المقاومة، وكان الفاتيكان متحاملاً على الثورة ورجالاتها، ويديه - أي البابا - تعملان عملهما في كبلنتر بين المهاجرين والعصاة في فاندو وبريتانيا، وبروشيه في فرنسا حافظت على الولاء للتسامحة للذين لم يؤدوا يمين الطاعة والولاء للدستور، واعتُيل أحد سفراء فرنسا في روما، ولهذا كان لا بدّ من معاقبة البابا وضم أراضي من وجهة نظر رجال حكومة الإدارة.

أما نابليون الذي سار بجيشه فقد عبّر عن أفكار الثورة في الحركة والتقدم في أحد منشوراته إلى للشعب الإيطالي، بأن الجيش الفرنسي جاء ليحطم أغلاله وأن الأمة الفرنسية أمة صديقة للشعوب كافة، فقابلونا بقة تكن أملاككم ودينكم وتقاليدكم محل احترام، وإننا نشن الحرب كخصوم شرفاء، وليس نزاعاً ونضالنا إلا مع اللطافة المستبدين الذين يستعبدونكم.

وأظهرت الحرب عبقرية نابليون بعد أن دخل مملكة سردينيا، ووقع معها هدنة (شيراسكو)، وضرب نابليون الحليفين النمسا وسردينيا، عندما وضع للمردنيين في الشمال الغربي أمامه في حرب جبلية سريعة، وحقق فيها الانتصار، ثم توجه نابليون لكسر شوكة النمسا، وزحف إلى لودي Lodi، وانتصر في ريفولي Rivoli، وسُلمت مانتوا Mantua، وتناقلت المدن الواحدة تلو الأخرى أمامه، وفشلت خطط شارل

الأرشيدوق للنمساوي على ضفة نهر التاليامنتو وارتدّ إلى الجبال، وفضّل الدخول في مفاوضات الصلح التي وقّع شروطها في ليوبن Leoben الثامن عشر من إبريل/نيسان ١٧٩٧.

وهكذا أخذ نابليون يتباهى في انتصاراته على النمسا ودخوله ميلان، وأخذ يشن الحروب ويبرم المعاهدات دون رجوع لحكومة الإدارة بباريس، وكسر الجيش البابوي في أنكونا، واستولى على مقاطعات تعود له في فرنسا، وبعض الولايات البابوية، وحول لمبارديا إلى جمهورية الألب الشمالية، وجنوه إلى ليجوريا، ومنح لكل منهما دستوراً على غرار الدستور الفرنسي، وأصبحتا كقلاع أمامية للجمهورية الفرنسية.

وكان نابليون حكيماً حينما رفض التورط في نابولي على أساس أن الصلح لا يتحقق فيها، بل في شمال إيطاليا وخاصة البندقية، وفي معاهدة كمبورفورميو في أكتوبر/تشرين الأول ١٧٩٧ استطاع أن يحصل من النمسا على تنازل عن بلجيكا وحدود الراين ولمبارديا واستقلال الراين الألماني، في مقابل تنازله جزئياً عن البندقية تلك الجمهورية المتعبة والعاجزة حينذاك.

فكانت المعاهدة انتصاراً لفرنسا ونابليون في الحملة الإيطالية، ووصلت الحدود الفرنسية إلى الراين، وجعل نابليون من فرنسا سيدة على أوروبا، ولم يكن في حملته على إيطاليا في واقع الحال عطوفاً أو رحيماً في معاملته للشعب الإيطالي، فقد نهب المتاحف وفرض الضرائب الفاحشة، وقمع المقاومة بقسوة، ورغم ذلك فقد حاول أن يظهر بصورة المحرّر الذي يحمل رياح الحرية وبعث إيطاليا، وذلك بدعوته للشعب الإيطالي لإقامة دولة عصرية وإدارة منظمة، وألهم الشعراء والكتاب الإيطاليون لينكروه في كتاباتهم بعد أن بعث الروح القومية الإيطالية ليعيدها إلى سالف عهدها.

٢ - الحملة على مصر:

بانسحاب بروسيا والنمسا من الحرب وفتت فرنسا وبريطانيا وجهاً لوجه، وبرزت المشكلة في حدود الراين التي لم تكن تعترف بها بريطانيا لفرنسا، والملكة

التي لم تكن ترضى بها الجيوش الفرنسية. وكان هناك تيار معتدل في فرنسا يقبل بوجود ملكية دستورية، وعقد الصلح مع إنكلترا، إلا أنهم من رجال قليلي العدد في المجالس التشريعية، لم يكونوا قادرين على مواجهة نابليون وتياره للخائق على إنكلترا، وقد جرت حملة لإلقاء القبض على الرجال المشتككين، وأرسلوا إلى المحاكم في كايين، وأصدرت المحاكم العسكرية الأحكام العرفية بالإعدام والنفي ضدهم، وكان من بينهم عدد من أرقى رجالات فرنسا أمثال بشجرو وبرتلمي وكارنو، وجاء الوقت الذي أصبح نابليون بنفسه قادراً على القبض على زمام الحكم.

وفي إبريل/نيسان ١٧٩٧ واجه الأسطول الإنكليزي تمردات خطيرة في اسبتهد وأكنور، واستخدمت سياسة القسوة والحزم ضدها، وأعيدت الأمور إلى نصابها، وتلا ذلك إحراز نصر في كمبردون وأبي فير، ففي الأولى استطاع دنكان Duncan أن يمحى الأسطول الهولندي في أكتوبر/تشرين الأول، وفي الثانية في أغسطس/ آب ١٧٩٨ دمر القائد الإنكليزي نلسن في خليج أبي فير الأسطول الفرنسي الذي حمه نابليون إلى مصر، فحصل الإنكليز بذلك على تفوق بحري في البحر المتوسط، وكسرت الماكينة العسكرية الفرنسية وأحلام نابليون في إقامة مملكة للشرق.

وأدى الانتصار الإنكليزي إلى إقامة تحالف مع إيطاليا ضد فرنسا، وسرت إدارة على خوض الحرب من فينا إلى بطرسمبورغ والقسطنطينية في شكل دعم عسكري وسياسي ومالي لبحر ووقف انتصارات فرنسا، وفي حملة صيف عام ١٧٩٩ فقدت فرنسا جميع ما كان نابليون قد أحرزه في إيطاليا، وأزيلت للجمهوريات الفرنسية في إيطاليا.

وبدخول الدولة العثمانية للحرب تضاملت فرص نابليون في الوصول إلى الهند، واتجه بدلاً عنها إلى سوريا في حملة من ثلاثة عشر ألفاً من المقاتلين، ووصل في مارس/آذار ١٧٩٩ إلى أسوار عكا، حيث أوقفه سدني سميث وفيليبو، وتكبد نابليون خسائر كبيرة، وانسحب خاسراً من سوريا، وعاد إلى بلاده تاركاً جنوده يحاولون للتخلص من المأزق الذي أدخلهم به سيدهم، ولكن الانتصارات التي حققها نابليون في

مصر في يوليو/ تموز ١٧٩٩ خفت من هذه الحقيقة للصعبة^(٧).

٣- القنصلية:

حاولت فرنسا بعد عقدين من الحروب ان تعود إلى السلم، وإقامة حكومة منظمة وحالة الفوضى وعدم الاستقرار، ورأى السياسة في باريس ان ينهوا هذه الحالة بتحرير بلادهم من الصراعات العرقية والطائفية وإنشاء عهد جديد، وكان من هؤلاء الرجال شخص يعمل في السفارة الفرنسية في برلين عام ١٧٩٩ اسمه سيزر Sieyes، وعُيِّن عضواً في حكومة الإدارة، وله ذهن نير، وفكر واضح، يسعى لتقرير شكل الحكومة الثورية، وهو خطيب في الجمعية الوطنية، وصاحب فكرة تقسيم فرنسا إلى مديريات، والمتنشد على الكنيسة والمستنار للجيرونديين.

وجد نابليون بهذا الرجل ضالته المنشودة وحليفه الأوفر، وفي التاسع من نوفمبر/ تشرين الثاني في ١٧٩٩ نقل إلى حديقة سان كلوديا بباريس مقر اجتماع مجلسي الشيوخ والخمسمائة، وأعلن ان المؤامرة قد حكت على أخيه نابليون، وأمر الجنود ان يطردوا الأعضاء من قاعة الاجتماع لإخماد الحرية البرلمانية، وتم تفويض حكومة الإدارة، وإلغاء المجالسين للتشريعيين، وبعد أسابيع قليلة من هذا الانقلاب المسمى (انقلاب بريمر) تمت الموافقة بالأغلبية للكبرى من الأصوات على دستور جديد، أصبح نابليون القنصل الأول من بين ثلاثة فاصل، والسلطان المطلق لفرنسا.

وقرر نابليون الحفاظ على ثمار الثورة، وخاصة لتتوق في أوروبا، وكان معه خبرة رجالها تاليران وزير الخارجية، وفوشيه مدير الشرطة، ومجلس الدولة في فرنسا من لكأ الخبراء بالدراية والسياسة، وتقلد كبار المناصب العليا قيادة الجيش الفرنسي، واتبع نابليون سياسة ذكية في الصراعات والتناحرات للطائفية والمذاهب العرقية، وأعاد حرية العبادة للكاتوليكية، وأبرم عام ١٨٠٢ اتفاقاً مع البابا، وتصلح مع إقليم فاندي، وألغى قوانين لليقوبيين الصارمة، واستدعى جودان المالي الضالع ليضع لفرنسا نظاماً ضريبياً، وأسس بنك فرنسا عام ١٨٠٠، وبدأ عهد الاستقرار السياسي والمالي.

لما في أوروبا فقد ظلت للنمسا وإنكلترا منافستين لنابليون بعد أن انسحب بول فيسر روسيا، ولهذا السبب اختار نابليون للنمسا هدفاً أولاً له باعتبارها الأضعف مقارنة مع إنكلترا، وألحق بها الهزيمة بسهولة، وحقق في مارنجو - في الرابع والعشرين من يونيو/حزيران ١٨٠٠ - نصراً على النمسا، بحيث كان الأول في عهد القنصلية، ثم في الثالث عشر من ديسمبر/ كانون الأول اكتمل النصر في هوهنلندن على النمسا، وتم عقد الصلح بطلب من الأخيرة، وهو (لينفيل) في التاسع من فبراير/ شباط ١٨٠١، ووصلت فيه الحدود الفرنسية إلى ضفاف الراين، واعترف بالجمهوريات الأربعة الفرنسية باتافيا وهلفاتيا والألب الشمالية وليجوريا.

٤- إنكلترا والحصار للقاري:

لما نابليون فكانت مغامرته هدفها الأساس سحق إنكلترا، وقد رأى في فكرة الحصار للقاري خير طريقة لتحقيق ذلك، وإغفال الأسواق الأوروبية أمام البضائع الإنكليزية، ووجه إسبانيا لغزو البرتغال، في الوقت الذي أرغمت فيه حامية فرنسية ملك نابولي على إقرار سياسة تجارية ملائمة لفرنسا.

ولكن نابليون أدرك أن الحصار لا يمكن أن يكون فرنسياً بحثاً، بل يحتاج إلى موقف أوروبي موحد يفرض سياسة الحصار، وقد ساعد في تحقيق ذلك دعم بول الأول فيسر روسيا المعجب بعقوبة نابليون، وكون مع الدانمارك والسويد وبروسيا (عصبة الحياد المسلح) والإضرار بحقوق بريطانيا خاصة، وحماية حقوق المحايدين.

وكان نجاح بول الأول في الحصول على تأييد الدول الأوروبية للشمالية للدفاع عن الحياد المسلح قد حقق ما أراده نابليون الذي سارع للاستفادة منه، إلا أنه في الوقت الذي اتخذ المشروع خطراً على إنكلترا، بدأ ينهار نهياراً تاماً بعد أن اعتُيل في فترة نشبت في القصر الإمبراطوري في مارس/آذار ١٨٠١، وحطم للنس في إبريل/نيسان من العام نفسه الأسطول الدنمركي، ففضت على الجماعة الشمالية التي راحت من قبل تحكم الخناق في الحصار البحري على إنكلترا.

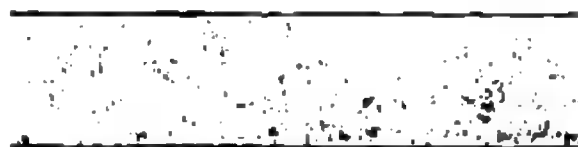
ومهدت هذه للحوادث في عقد صلح أميان Amiens في مارس/آذار ١٨٠٢،

ولكن خطر الحرب وعدم السلام ظل قائماً، طالما أن التجار الإنكليز يعاملون كأعداء وأنه ليس هناك تفاهم حقيقي بين الفرنسيين والإنكليز^(٨).

الفصل الثاني

القنصلية والحصار القاري

والإمبراطورية البابليونية



أولاً: إنجازات نابليون المدنية

أعاد نابليون للحكومة في فرنسا هيبتها واحترامها بعد فترة الفوضى وانعدام الأمن والاستقرار، فخلف نابليون النظام والطاعة والخضوع في المجتمع الفرنسي، في حين انحدرت إلى حد ما القوى الأدبية التي ساعدت في تقوية نابليون ودعمه، وانحدرت روح الدين والتراث والتقاليد في فرنسا والآداب العامة.

كان نابليون غير ملتزم بدين رسمي أو تقاليد معينة، وسار بحسب تقاليد وأخلاق اجتماعية ذات هبة واحترام، مع اتباع القسوة والوحشية عند اللزوم، وقد ولد محباً للقيادة والزعامة، ولذلك وجدته خير معين لكل قوة، فدعّم الدين والتعليم والروح العلمية في إدارة الحكومة لأنها تدعم الحكم والحاكم، وآداب السلوك التقليدية لأنها تردع سخرية الفرنسيين اللاذعة.

وكان عمله للجمع بين فرنسا القديمة وفرنسا الجديدة، وإن يجمع القساوسة والمهاجرين واليهود والبروتستانت والملحدين واليعاقبة لخدمة الدولة وبذل الجهود لرفع شأن الدولة واستقرارها.

كانت حكومته غريبة لم تعرفها فرنسا من قبل، حكومة استبدادية، وقائمة على الانتخابات للتشريعية في أعوام ١٨٠٠ و ١٨٠٢ و ١٨٠٤، ونجح في الحصول على تأييد الأمة، في المرة الأولى جعلته الانتخابات قنصلاً لمدة عشر سنين، وفي الثانية قنصلاً مدى الحياة، وفي المرة الأخيرة أكرمه إمبراطوراً بعد مناداته بنفسه، وإذا كانت حروب نابليون لم تلبث أن ضاعت واختفت فإن أعماله المدنية في فرنسا بقيت وترسخت، في كل إدارة مدنية ومقاطعة ومصلحة لتحسين رفاهية الشعب، واختفت تقاليد النظام القديم للولفة بوجه الإصلاح، والكل يعمل في مجاله ويخضع لمديره.

لم يكن الاتفاق مع البابا عام ١٨٠١ موضع ترحيب لدى رجال الدين والمتقنين، ولهذا حاول نابليون التقرب من الكنيسة عام ١٨٠٢ بعد مفاوضات طويلة أجراها، ووصل إلى اتفاق مع البابا الجديد بيوس السابع.

وقام نابليون بصياغة القانون الفرنسي، وكان من أهم إنجازاته بعد أن كان حلماً منذ القرن الخامس عشر حتى استطاع نابليون تجاوزه بفترة قياسية عام ١٨٠٤،

وتم دمج القانون المدني على أساس النظام القديم الأساسي المائد في القانون المدني،
ومعه قوانين جديدة صدرت زمن الثورة، بحيث خرج قانون جديد نال إعجاب نابليون
ومستشاريه، وهو القانون المدني على أساس مجتمع جديد قائم على القضاء للنزبه،
ومجتمع متمرن قائم على المساواة الاجتماعية والتسامح الديني واحترام الملكية الخاصة
والحياة العائلية المتماسكة، وقدم هذا القانون خدمة لفرنسا وأوروبا كلها بعد ان بسط
نابليون القانون والقضاء على المجتمع للفرنسي بجميع طبقاته، وأذاع هذا القانون شهرة
فرنسا أكثر من أي شيء آخر في النظم الجديدة التي وضعتها الثورة، وانطوى على
جوهر الثورة وفلسفتها، وجمع الابتكار والعرف القديم، والحرية مع النظام.

أما في التعليم فقد وضع نابليون مشروعاً للإمبراطورية أكثر صرامة من نظم
الجزويت، ورأى عكس النظام الإنكليزي أن التعليم لا يمكن أن يترك لجهود خيرية
وأعمال فردية وأوقاف للإتفاق على التعليم، ولكنه كان يرى أن المدارس والتعليم
الخاص يجب أن يخضع للمراقبة والإشراف للحكومي، وأن على الطلبة أن ينخرطوا
في واجبات للدولة، والجيش والخدمة العامة وتقديم النفس فداء للبلاد.

ولهذه الغايات أنشئت في عام ١٨٠٨ جامعة بإدارة الدولة، ومهمتها القيام
بواجب تنظيم جميع فروع للتقافة العامة، وجامعة فرنسا التي أسسها نابليون والمقسمة
إلى كليات أدخلت عليها تعديلات، ووُضعت بذور تهذيب للنظم للمركزية.

ثانياً: الإمبراطورية

وصلت العلاقات بين نابليون وإنكلترا إلى درجة من التوتر لا سيما وأن
الأخيرة كانت تراقب تطورات الأعمال النابليونية بعد أن استقرت حامية فرنسية في
هولندا، وبدأت تريد لاستعادة تفكيرها في أن تكون مستعمرة الرأس تابعة لهولندا،
وحينما تحققت أن بيمونت والفاشية ضُمَّتا إلى فرنسا، وأن سويسرا والألب الشمالية
أعطيتا لمستورين جعلهما أكثر قريباً من الخضوع والنفوذ للفرنسي، شعرت إنكلترا
حقيقةً بالخوف من الطموحات الفرنسية إلى ما بعدها نحو الهند، مما أثار شكوك
الحكومة البريطانية تجاه نوايا نابليون.

وفي هذه الأثناء حيكّت في شتاء عام ١٨٠٣ مؤامرة لوسع امتدت على عدد

من قادة الجمهورية يتواطؤ مع وزراء إنكليز ودعاة الملكية، إلا أن بوليس نابليون كان يقطاً، وكان من المفروض أن المؤامرة تتم في نورمانديا وبريتانيا، وصانف أن الدوق دانجيان من سلالة آل كنديه يقيم في إتهام ببان قرب الحدود الفرنسية، وقرر نابليون قتله بعد أن كان قد قبض على المتأمرين مورو وبشجرو وكدورال قبل ذلك، فزال للخطر، وظن نابليون أن دانجيان مشترك في المؤامرة، ثم أعدم سرّاً في الحادي والعشرين من مارس/آذار ١٨٠٤ بعد محاكمة عاجلة.

واقترح كيريه في الثالث والعشرين من إبريل/نيسان ١٨٠٤ وهو من رجال الثورة المتشددين لفتباس للورثة في انتقال التاج، وأن يتخذ بشكل يررضي نابليون، وتقبله تقاليد شعب ما زال ثورياً ولا يتخوف من شيء مثل عودة الملكية إلى النظام السياسي في فرنسا.

في مايو/أيار من العام نفسه منح مجلس الشيوخ الاستشاري نابليون لقب إمبراطور فرنسا، وحقق هذا التغيير موافقة كاملة من مجلس الشيوخ، والأمة والبابوية، ولقد كان هذا تحدياً للنمسا بشكل خاص بعد أن وضع هذا الإمبراطور تاج لمبادريا في ميلان في مارس/آذار ١٨٠٥ على رأسه، ثم زيارته إلى آخن ودلالاتها، كي يختبر ولاء اللرين وولايتها، وتبين حقيقة أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد قضى عليها نهائياً، ولزبح سقف الإمبراطورية الألمانية، واستعويض بدلاً عنها بعامين قيام إمبراطورية نمساوية ورثية جديدة، والتي ظلت قائمة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨.

وقد واجهت إمبراطورية نابليون تحدياً أوروبياً منذ البداية في حلف لو تحالف دولي في أغسطس/آب ١٨٠٤ بين (إنكلترا والنمسا وروسيا والسويد وناپولي) من جانب، وفرنسا وإسبانيا من جانب آخر.

وكانت خطة نابليون الحربية تقضي بدء الحرب في غزو إنكلترا، وضرب الملك جورج الثالث، وأرسل جيشاً فرنسياً من (٢١٠) آلاف مقاتل في معسكرات رابطة على سواحل بحر الشمال والغال، وانتظروا عامين في حين كان نلسن يراقب اسطول طولون وكورنواليس يحاصر برست، وظل الأمر هكذا دون مواجهة مباشرة.

وفي يوم الحادي والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول ١٨٠٥، وبينما كان نابليون في بافاريا، أحرز نلسن النصر الذي فرض السيادة البريطانية على البحار في معركة الطرف الأغر، حيث هاجم نلسن الأسطولين الفرنسي والإسباني بواسطة (٢٧) سفينة حربية، وحطم الأسطول الفرنسي الإسباني، بحيث أصبحت المستعمرات التابعة لهما تحت الأسطول البريطاني رغم سقوط نلسن صريعاً في المعركة^(١).

ثالثاً: نابليون والحروب الأوروبية:

١- فرنسا ووسط أوروبا:

فشل نابليون في خططه للبحرية، ولكن أعقب هذا الفضل سلسلة من الانتصارات في لوم واسترلتر وفريبلنديين بين (١٨٠٥-١٨٠٧)، وأجبرت هذه الانتصارات النمسا وبروسيا على إبرام صلح وضع في تليست Tiliest بين نابليون واسكندر قيصر روسيا، توطدت فيه قبضة الإمبراطورية على أوروبا الوسطى.

واستمرت الانتصارات الفرنسية على مسرح أوروبا بعد منازلة النمسا وبروسيا لفرنسا، ولحق بالنمساويين ضربة قاصمة في معركة استرلتر في الثاني من ديسمبر/كانون أول ١٨٠٥، بحيث أخرجتهم من الحرب.

حاول تاليران أن يقترح على سيده نابليون أن يقوم بإيجاد حلفاء، مثل النمسا، وأن يتبع سياسة المصالحة، ومساعدة النمسا في توسيع رقعة دولتها في البلقان، كتعويض عن الخسائر التي لحقت بها. لكن نابليون رفض ذلك، ولقد معاهدة برسمبورغ في السادس والعشرين من ديسمبر/كانون الأول ١ٸ٠٥، والتي قطعت أوصال النمسا، وسلبتها ثلاثة ملايين من السكان، وسلمت رعاياها في التيرول إلى بافاريا.

والشيء نفسه حصل لبروسيا التي لحقت بها إهانة كبيرة، فقد طلب إليها نابليون أن تستولي على هانوفر، وتعلن الحرب على إنكلترا طبقاً لمعاهدة شوفيرن في الخامس عشر من ديسمبر/كانون الأول ١٨٠٥، ولما سمعت حكومة فردريك الثالث بأن نابليون اتفق مع إنكلترا على إعادة هانوفر لها، أغضب ذلك البروسيين، وعثوا إهانة لهم، وحدثت مواجهة في بينا ولورشتاد.

وفي معاهدة (تليست) فرض على بروسيا عقوبات كبيرة رغم توصلات للملكة

ماري لويز، فأقام توقيه وارسو خاضعة لحكم ملك سكسونيا في الجنوب، وأنشأ مملكة وستغاليا في الغرب، ونصّب أخاه جيروم بوناپرت عليها، وضم إليها ولايات سلخها من بروسيا، وجنى منها تعويضات حربية باهظة، وبقى جيشاً ثقیل الوطأة على الأراضي البروسية، وعمل على تقليص الجيش البروسي بشكل كبير.

أما القيصر الروسي إسكندر الأول الصديق للحميم نابليون في ظل معاهدة (بكست) وما تلاها، فقد اعترف رسمياً بانتصارات نابليون، وربط نفسه بمولد سرية في المعاهدة المذكورة، بأن ينضم إلى الحصار للقاري في حالة عدم قبول إنكلترا للوساطة للروسية بينها وبين فرنسا، ولن يجبر للدنمارك والسويد والبرتغال والنمسا أن تعلن الحرب على التجارة الإنكليزية.

وهكذا وصل نابليون في وسط عام ١٨٠٧ إلى قمة مجده وانتصاراته، بعد أن أصبحت للنمسا وبروسيا تحت قبضته، وروسيا حليفته في وقت قام جورج كاننج G. Canning وزير للخارجية الإنكليزي - بعد أن علم بصلح تلست - بالاستيلاء على الأسطول الدنمركي في كوبنهاغن في سبتمبر/أيلول ١٨٠٧ قبل أن يقع في قبضة الأعداء، فأنتم عمل من سبقه وهو نلسن وحصل لبلاده على سيادة بحرية واسعة.

توجّه نابليون نحو إيطاليا، وحاول فرض الحصار عليها، ولكنه كان يدرك غضب البابا، وأهمية احترام مشاعر الكاثوليك في إمبراطوريته للواسعة، ولكن نابليون لم يتورع من ذلك، ونفى البابا في مايو/أيار ١٨٠٩ من ولاياته، ولقاه في السجن وضم أملاكه وربطها بالإدارة الفرنسية. ولحق أن نابليون أثار غضب الإيطاليين واستكأرهم، وكانت غلطة كبيرة ارتكبها هزت سلطانه في إيطاليا وأوروبا.

٢- إسبانيا:

سنّ نابليون الهجوم على إسبانيا، وكان الشعب الإسباني في عزلة عن الشعوب الأوروبية وما يجري فيها من عادات ومثل وأفكار مختلفة مع الفقر والجهل والمتفشي فيها، وعدم امتلاكها أسطولاً تجارياً، وبعد موت الملك المستبیر شارل الثالث (١٧٥٩-١٧٨٨) أفضل ملوك آل بوربون في إسبانيا، استعاد أعداء الإصلاح وانتصار للرجعية مكانتهم وسيطروا على البلاط والحكومة، ولم يتخوف الأسبان من الجيوش الفرنسية

وتطورها، وضعف قوتهم الإسبانية الحربية، علماً أن الجيش الإنكليزي كان كقوة صغيرة في إسبانيا، ومع كتائب برتغالية وإسبانية وطنية، ودعم الإنكليز المقاومة الشعبية الأيبيرية ضد الخطر الفرنسي، وكان القائد الإنكليزي هو آرثر ولزلي A. Wellesley المقاتل للقائم من الهند، وأظهر قوة وشجاعة في شبه الجزيرة الأيبيرية ووجه طاقاتها ضد الخطر لو العدو المشترك.

وحقق النصر في فمبيرو في أغسطس/ آب ١٨٠٨، ونجح في استخدام للمشاة في صفوف مقاتلة ألحقت الخسائر بالأعداء.

وفي معركة بينا عام ١٨٠٦ أمر جودوا عشيق ملكة إسبانيا والحاكم الفعلي للبلاد بتعبئة الجيش الإسباني وملاكمة نابليون وجيشه، فما كان من الأخير إلا أن انتقم منه، وأجبر الأسبان على توقيع معاهدة في فنتبلو في أكتوبر/ تشرين الأول ١٨٠٧، تعهدوا فيها بالاشتراك مع فرنسا ضد البرتغال، ضد البلاد للصغير الذي يوجد فيه الأمراء الإنكليز والأساطيل الإنكليزية، والأسواق المفتوحة أمام التجارة الإنكليزية، وتم دخول نابليون الأراضي للبرتغالية بسهولة، وعزم على طرد آل بوربون من إسبانيا، وتدفقت القوات الفرنسية على إسبانيا عبر جبال البرنس، واستولت على الحصون على الحدود، وتقدمت إلى مدريد. وتم خلع ملك وملكة إسبانيا بسبب عدم مقاومة للفزو الفرنسي، وتنازل شارل عن الملك، وارتقى محله ابنه فرديناند، ولكن الجيش الفرنسي بقيادة ميلا زحف إلى مدريد، ورفض نابليون الاعتراف بالملك الجديد، وتم توجه الأسرة المالكة إلى بايون، وكره الملك وولي العهد على التنازل عن العرش، وأصبح يوسف بونابرت شقيق نابليون في مايو/ أيار ١٨٠٨ حاكماً، وجلس على العرش الإسباني، وأصبح ميلا زوج أخت نابليون حاكماً على نابولي في يوليو/ تموز من العام نفسه.

لكن نضال الشعب الإسباني لم يتوقف، فاضطر الأسبان عند خلو العرش أن يهتموا بشئونهم، وأنشأوا مجلساً مركزياً، لتجاً إلى تشيلية، ثم فادس، وفيه عقد (الكورتيز) الذي صاغ الدستور عام ١٨١٢، وتم فيه قبول فكرة الملكية الوراثية، وحق الانتخاب للأسيان الكاثوليك، وإنشاء مجلس نيابي واحد، وتمثيل للمستعمرات وإلغاء

للتعذيب في التحقيق الجنائي ومصادرة الأملاك، وكانت أحكامه أرقى مما يتوقع بالنسبة لإسبانيا.

٣- ألمانيا:

كان النظام الذي وضعه نابليون في حكم ألمانيا قاسياً على الشعب الألماني رغم أنها نظم عملت على إزالة العقبة للرتبة وفتح الآفاق لأفكار جديدة، ولتبع مشروع نابليون السياسة الفرنسية التقليدية، وقد شكل في يوليو/ تموز ١٨٠٦ لاتحاد الراين تحت الإمبراطور الفرنسي وفيلده، ليقوم كعامل توازن في النمسا وبروسيا. ولم يكن في ألمانيا من جيش يستطيع ان يقف بوجه نابليون وجيشه الكبير مع شعور بأفاريا بأن النمسا تشكل خطراً مائلاً، وفي الراين حيث البروسيون غير محبوبين، وكان هذا الشعور ملائماً لأغراض فرنسا.

ولهذه الأسباب لم يتأثر الأمراء الألمان بما حدث على يدي نابليون في النمسا، والإمبراطورية الرومانية المقدسة، أو بروسيا أو مملكة وسغاليا التي ضمت هس وهانوفر وبرونزوك، وضم أهلها بعضهم إلى بعض بالإكراه تحت حكم الملك جيروم أصغر إخوة نابليون. وأصبحت ألمانيا أداة بيد نابليون في حربها ضد إنكلترا، وأجبرت على قطع علاقاتها بالمستعمرات الإنكليزية، وحرمت تجارتها من الدخول إلى الأسواق الفرنسية، في وقت أصبحت ألمانيا موضع للذهب والمسلح والابتزاز، وبدأ شعور الشعب الألماني بالاستياء نحو الفرنسيين والرغبة في نمو الأمة الألمانية وطرده الاستعمار الأجنبي والدفاع عن الراين^(١٠).

الفصل الثالث

نقابة عمال نابليون

وعقد مؤتمر فيينا ١٨١٥

أولاً: بدايات التراجع

بدأت تظهر مغامرات نابليون الإسبانية، وكانها تُضعف من الإمبراطورية الفرنسية، فإن تسليم (٢٣٠٠) جندي فرنسي في بايلن في التاسع عشر من يوليو/تموز عام ١٨٠٨، كان علامة على رقطة القومية الإسبالية وهدم الإمبراطورية، وقد شجع هذا المثال الإسباني للنمسا في استئناف القتال والمقاومة، وتوغل النمساويون في الأراضي البافارية.

وكان نابليون بطارد الجيوش الإسبانية في كورونا، فقد عاد إلى مواجهة التهديد الإسباني في إبريل/نيسان ١٨٠٩ بعدما حقق للتوق في الجانب الإسباني، وأكمل المعارك في آينسبرغ وأكهمل ولاند شوت، ونحر النمساويون إلى هنا في الدانوب الأوسط، وانتصر وجرام في يوليو/تموز ١٨٠٩، ثم حدثت للصدمة التي لقيها في فينا، وقد كلفته هذه الكثير، والصعوبات التي واجهته، وكان الجيش النمساوي أكثر اختلافاً عن ما سبق من حيث التدريب والقيادة والروح المعنوية، وأدرك نابليون هذه الأمور.

هذا فضلاً عن قيام ثورات أخرى في التيرول ضد البافاريين، وبروسيا، رغم أنها أخدمت دون عناء، لكنها أكدت على ظهور الضعف في الإمبراطورية، بل إن فرنسا نفسها حصل فيها نوع من التملل، وفي مؤتمر عقده نابليون مع إسكندر الأول في إرفرت Erfurt عام ١٨٠٨ أدلى تاليدان بهذه الملاحظة، وهي إن فتح بلجيكا والوصول إلى حدود الراين هما من فتوح فرنسا، لما غيرها من فتوح فهي تتبع لنابليون.

ثانياً: الحرب مع روسيا

في هذا الوقت كان نابليون يسير تدريجياً نحو روسيا، والحجة إن روسيا رفضت في ديسمبر/كانون الأول ١٨١٠ إغلاق موانئها في وجه السفن المحايدة، وفرض ضريبة كمركية على واردات المستعمرات الإنكليزية، ولكنها كانت ضارة بالواردات الفرنسية.

ولم يكن نابليون يطيق هذا التحول في الموقف الروسي، وهو الذي أثارته

الشكوك يوماً من الصداقة التي عقدت على عجل عام ١٨٠٧ في ثلست بين البلدين، فهو لم يكن يثق بالقيصر، والأخير لم يغفر له تشجيعه للبولنديين، أو زواجه من ماري لويز النمساوية، كما أن الحصار المفروض في كل مكان كان منه ضرر وإرهاق لتجارة روسيا.

ولهذا عقد العزم على مواجهة روسيا على أمل تحقيق نصر حاسم كما حققه في فريدلند، والظفر به على الحدود الروسية قد يأتي بصلح واضح، وأيضاً حلم نابليون في استخدام روسيا كمحطة بين آسيا وأوروبا، ولكن نابليون لم يظفر بما كان يريد لا الصلح ولا النصر، وما جاء منتصف أغسطس/ آب ١٨١٢ حتى كان نابليون في سمولنسك دون أن يحقق النصر الحاسم، بعد أن فقد مائة ألف من جيشه الكبير، وقرر إلغاء خطته الأولى التي تؤكد على حصار وحملة لمدة عامين، وعزم على التغلغل في قلب روسيا سعياً وراء نصر كاسح قد يدمر القيصر ويحمله على عقد الصلح معه.

لكن ما حصل في إسبانيا، حدث مثله في روسيا فقد ألهمت الحملة الفرنسية روح الوطنية والقومية في نفوس الشعب الروسي، ووصل الأمر إلى إحراق موسكو لمنع العدو من التغلغل في الأراضي الروسية، لمضايقة العدو والذيل منه، ورغم أن نابليون قد حقق بعض النصر لكن إسكندر الأول لم يتوصل معه إلى صلح، فقرر نابليون الانسحاب من الشتاء الروسي، وقضى هذا التراجع على قدرة نابليون في السيطرة على أوروبا، وكان إيذاناً بعصيان الشعب الألماني ضد حكمه، وجر عليه الهزيمة، ثم التنازل عن الحكم والمنفى.

ثلاثاً: الحرب في ألمانيا

وجبت حرب التحرير الألمانية للطريق لهزيمة نابليون في أوروبا، وخاصة وسطها، وشاع في الشعب الألماني عاطفة قومية، وصار تحرير الوطن من الأجنبي هو الأساس، ومواجهة الفرنسيين بكل الطرق، وتضافرت كل القوى الوطنية خاصة في شمال ألمانيا من شعراء وفلاسفة ألهموا مشاعر الناس، ولكن كان لا بد من تضافر جميع القوى الألمانية لقمع نابليون وجيشه، وكانت بروسيا وحدها لا تستطيع أن تحقق هذا وهي التي لا تملك جيشاً قادراً على ذلك، وترتب عليه أن تحرير ألمانيا يتطلب

مساعدة النمسا، ولكنها كانت تهتم أساساً بالسيطرة على شمال ووسط إيطاليا، ومن ثم على الفاتيكان أكثر من اهتمامها بالعمل على مواجهة المخاطر، وهو حماية ألمانيا من الاعتداء الفرنسي في الغرب.

ولم يكن للنمسا مصلحة في قيام دولة ألمانية متحدة، وكان مترنيخ Metternich (١٧٧٣-١٨٥٩) صاحب السياسة النمساوية الآن له وجهة نظر بشأن مستقبل ألمانيا تغاير الأفكار التي تجول في خاطر هارنبرغ وشتين في برلين، للزعيمين البروسيين اللذين أرادا طرد نابليون من ألمانيا، ثم يجعلان دولة ألمانيا دولة متحدة، وكان مترنيخ يرغب في فرض توسطة على الفرق المتناحرة، وإخراج نابليون من ألمانيا عن طريق المفاوضات، وإزالة حكم فرنسا عن اتحاد الراين إذا أمكن ذلك، وبذلك ينجب اتحاداً لألمانياً من ولايات متساوية خاضعة لزعامة النمسا رغم أنه اتحاد واه.

وتغلبت وجهة النظر النمساوية، وتأخرت للوحدة الألمانية إلى عام ١٨٧٠، ويرجع ذلك إلى أن مساعدة النمسا الحربية كانت ضرورية لتحرير ألمانيا عام ١٨١٣، وقد استطاعت النمسا بالتعاون الولايات الألمانية الجنوبية معها طوعاً واختياراً أن تنشئ ألمانيا وفق رغباتها.

ولهذا فإن نابليون في حربه على ألمانيا عام ١٨١٣، لم يولجها شعباً متحداً، بل حكومات دخلت القتال في مراحل مختلفة من الحرب، ولم يكن من اليسير التآليف بينها رغم الأمانى المشتركة لكي تسير معاً طبقاً لخطة مشتركة، وكانت النمسا تغار من بروسيا، وكانت جيوش اتحاد الراين لا تزال تحارب تحت لواء نابليون، وفيما عدا للرغبة المشتركة في التخلص من الفرنسيين لم يكن هناك اتفاق سياسي نهائي بين فيينا وبرلين.

بيد أن روسيا والنمسا كانتا متفقتين معاً على ضرورة إرغام نابليون على التنازل عن فتوحه البولندية والألمانية، إلا أن نابليون رفض هذا، وردّ على مترنيخ في السادس والعشرين من يونيو/ حزيران ١٨١٣ بقوله:

”ما الذي ترومه مني؟ لتقصّد أن أمرغ

شرفي في التراب؟ إن هذا لن يحدث أبداً.
إني أعرف كيف أموت. ولكني لن أنزل عن
شبر واحد من الأرض، فقد يهزم ملوككم الذين
ولدوا على أرائك العرش عشرين مرة، ومع
ذلك يعودون إلى عراصمهم، أما أنا فليس لي ذلك".

لكن هذه الروح القيادية العنيدة التي لا تقبل أية تسوية، واجهت هزائم حربية
أخذت تتعاقب على نابليون، وأرغمته على التنازل عن عرشه، وحتى بعد انتصار
خصومه عليه، عرضوا عليه الصلح في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨١٣ على أساس أن
تحتفظ فرنسا بحدودها الطبيعية، الألب للراين والبرانس، ولكن هذا العرض رُفض.
ولما تمّ غزو فرنسا في عقر دارها، ولوَّع بجيشها المدافع هزيمة منكرة،
كانت شروط الحلفاء أقصى، ورفض نابليون فكرة التضحية بسافوي وبلجيكا وقبول
الحدود القديمة للملكية الفرنسية على أن يحتفظ بعرضه، ولكن رفضه ذلك العرض لم
يُبقي أمام الحلفاء سوى تنازله عن العرش بعد أن أنزل الكثير من ضحاياه الملوك عن
عرشهم.

وتوقفت نتيجة الحرب على التصميم وقوة الإرادة، أكثر من إعداد للجيش،
ووقف نابليون وجهاً لوجه أمام أعداد من قوات متفوقة غربية كبيرة، تحالفت فيها
أوروبا بأسرها تقريباً، وحتى برنادوت ضابطه السابق وولي عهد السويد بعد ذلك،
أرسل جيشاً إلى المعركة ضدّ سيده السابق نابليون من أجل احتلال النرويج، في الوقت
الذي تُطبق فيه جيوش النمسا وبروسيا وروسيا والسود ضد الجيش الفرنسي في
الأراضي الألمانية.

ورغم هذا التفوق الواضح لأدار نابليون المعركة بفن ومهارة أثارت دهشة
وإعجاب خصومه، وكان جيشه أقلّ عدداً، ومنهكاً للقوى، وقليل الخبرة بعد أن قُتل
إعداد كبيرة من أصحاب الخبرة من قائده، ولكن نابليون نجح في إلحاق الهزيمة بجيش
الحلفاء تحت قيادة شفالتر نيرج لمدة يومين من القتال المضاري بين (٢٦-٢٧
أغسطس/ آب ١٨١٣)، ولكنه وقع في حصار من خصومه، وألحقت به منيعة في

ليبتزغ، وقام مع بقايا جنوده في العام التالي بمعارك في السين والمارن ضد جيشي بلوخر وشفارتزنبيرغ، وأدار المعركة في الشمال ضد البروسيين، وبالجنوب في مواجهة النمساويين داخراً أعداءه مرة بعد أخرى.

لكن هذا كله لم يفده، وذهبت جهوده هباء، وواجه القائد البروسي بلوخر، ولم يتراجع، وقرر للصمود في لاون وكروان في قتال شديد، وفتح الطريق إلى باريس، وتراجع نابليون غرباً وعسكر في فنتبلو، وألزم قادة الجيش الفرنسي نابليون على الإقرار بالواقع والتنازل عن الحكم، ومن هناك وفي وداع للحرس جعل من بطلاً رحل إلى جزيرة إلبا Elba، وكان نابليون (١٧٥٤-١٨٢٨) الكاهن والأسقف ووزير خارجية نابليون هو الذي أُلغى إسكندر بوجوب استدعاء بيت بوربون لحكم فرنسا بعد رحيل نابليون.

ولم يكن هناك من بديل في هذا الوقت لعودة لويس الثامن عشر بعد خمسة وعشرين عاماً قضاها في المنفى، فهو على الأقل سيجلب الاستقرار والهدوء ومودة أوروبا، وعودة الأسرة الملكية إلى وطنها رافعة الراية الملكية البيضاء بدل الراية المثلثة الألوان الشهيرة.

ووقعت معاهدة باريس في الثلاثين من مايو/أيار ١٨١٤، ولم تُشر إلى دفع فرنسا لغرامة حربية أو تعويض ما، لو احتلال لأراضيها، بل جُرئت الأراضي التي انتزعها نابليون من أوروبا، ويبدو أن الحلفاء أدركوا أن حليفهم لويس الثامن عشر يجب أن لا يستلم بلداً مقهوراً في ظل صلح غير عادل^(١).

رابعاً: مؤتمر فيينا ١٨١٥

دعي إلى مؤتمر في فيينا في نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٨١٤ لإقامة أوروبا الجديدة على أيدي الملوك والباطرة والأمراء والساسة والنبلاء، ورسمت خارطة أوروبا على أساس تصفية حدود فرنسا الشرقية بمجموعة دول حاضرة لحماية وسط أوروبا من أخطار الثورة، فاقبعت في الشمال مملكة الأراضي المنخفضة، وظل الأمر على هذا حتى عام ١٨٣٠ حينما قُسم الاتحاد بين هولندا (الكاثوليكية) وبلجيكا (الكاثوليكية)، وفي الجنوب أقيمت سردينيا بضم جنوه وسافوي إليها، ووضع للراين

الوسطى تحت وصاية بروسيا وبدعم من إنكلترا.

ومنحت النمسا مركزاً يسيطر على شمال ووسط إيطاليا، ونالوا مملكة لمبارديا والبنديقية، واستعادوا ترييستا ودلماسي، وأعيد فرديناند الرابع إلى عرشه في نابولي بعد اعدام ميرا عام ١٨١٥، وامتد نفوذهم من أقصى شبه الجزيرة الإيطالية إلى أقصاها، وخرجت النمسا من حروب نابليون ظافرة بحصة الأسد، وزاد عدد سكانها إلى (٤,٥) مليون نسمة، وكانت سيطرتها تكون كاملة على إيطاليا، وبرزت كرئيسة لاتحاد جرمانى جديد التكوين.

ولكن الصعوبة الكبيرة التي واجهت سياسة أوروبا هي التسوية في وسط وشرقي أوروبا حول مصير وارسو التي اقتطعها نابليون من ولايات بروسيا البولندية وسلمها إلى ملك سكسونيا لحكمها، وماذا يصنع بمملكة سكسونيا نفسها، فكانت روسيا تريد امتلاك بولندا، وبروسيا تريد امتلاك سكسونيا، ولكن النمسا وفرنسا لا تريدان مثل هذا الحل، فلا تريد الأولى أن تزاحمها بروسيا وتصبح أكبر مساحة وقوة، وكانت الأخيرة تأمل في قيام دولة بولندية محررة، وأخيراً وصل المتفاوضون إلى تسوية تنال بروسيا وفقها نحو ثلثي سكسونيا ومقاطعات الراين، وأقيمت في بولندا ملكية دستورية تحت حكم قيصر روسيا.

وكانت قاعدة الحقوق للشرعية التي نادى بها تاليران هي قوام تسوية مؤتمر فينا والحقوق للمشروعة هي التي أعادت آل بوربون إلى فرنسا، وهي التي أنقذت سكسونيا لآل هفنتز، وثبتت سلطان البيت للمالك في سردينيا، ولم تتم الاستجابة لرغبات قومية للسكان، ولذا فإن مؤتمر فينا في ظل مترنيخ وتاليران وكاسلرية كان يؤمن بأن رخاء أوروبا لا يُنال بالعمل حسب رغبات الشعوب، بل بإطاعة السلطات للشرعية طاعة مطلقة تامة.

وفي الوقت الذي كان الوزراء مجتمعين في فينا، علموا في السابع من مارس/آذار ١٨١٥ بأن نابليون قد وصل إلى الأراضي الفرنسية، وبادروا لإنهاء أعمالهم، وأعلنوا أن نابليون شخص مشبوه خارج عن حمى القانون، ووضعوا شروطاً للتحالف ضده، وحرموه قبل أن يضرب ضربته، ووضع نابليون خططاً لعودة

فرنسا القوية أوروبياً في حملة بوجهها ضد بلجيكا، الدولة الساحرة لدى الفرنسيين على مدى السنين، وإن امتلاكها سبيل للسيطرة على المصب العظيم لنهر الراين، وإن فقدانها كان أعظم ضربة موجة للإمبراطورية، وإن استرجاعها إعادة للروح المعنوية للفرنسيين، فكان نابليون على حق في تسديد ضربته لبروكسل.

وفي نهار أحد أيام يونيو/حزيران ١٨١٥ تقرر مصير هذا الصراع الطويل، بين الأسر الملكية الأوروبية، وبين الثورة والثوار، وكانت واترلو الفصل الختامي من الفصول المفجعة للصراع المرير، ونهاية عصر أوروبي، وبدء عصر آخر.

وقضى على فرنسا أن تتخلى عن دوقية بويون وبعض الأردن إلى مملكة الأراضي المنخفضة، وإن تسلم حصون سارلوي ولندوا لألمانيا، وإن تنفع غرامة قدرها (٧٠٠) مليون فرنك، وإن تخضع لجيش احتلال لفترة من ثلاث إلى خمس سنوات، وإن تعيد الكنوز الفنية التي سمحت لها معاهدة الصلح السابقة بأن تبقىها في يدها.

غير أن الأحداث لكنت أن الحقوق المضروعة التي وضعت في فينا فشلت في الاستقرار والهدوء مع بقاء للثورة، ولم يستطع تحالف أوروبا أن ينفذ فرنسا من الانقلابات وعودة الإمبراطورية من جديد، ورغم ذلك فإن مؤتمر فينا منح أوروبا سلباً لمدة أربعين عاماً.
مقررات المؤتمر:

كان مترنيخ مستشار للنمسا أقوى شخصية سيطرت على مناقشات مؤتمر فينا وأشد الأعضاء تمسكاً بعودة الأمور إلى ما كانت عليه قبل عام ١٧٨٩، وخاصة تعويض المنتصرين إقليمياً والعداء ضد فرنسا، وهي التي سيطرت على للمؤتمر.

لقد أعاد المؤتمر إيطاليا ما كانت عليه قبل حروب نابليون، وأعيد الحكم للمبعدون كالبابا، وملك نابولي، ودوق تسكانيا، وضم جلوه إلى مملكة سردينيا لتقويتها

ضد فرنسا، وضم للبندقية وساحل والماشيا الانرياتي إلى النمسا تعويضاً لها عن فقدان بلجيكا.

وقرر المؤتمر ضم بلجيكا إلى هولندا في دولة واحدة لتستطيع ان تقف أمام أية محاولات فرنسية للتوسع في المستقبل، وسُميت بالأراضي المنخفضة كمملكة، ووضع تاجها في أسرة لورينخ صاحب الحق الشرعي في تاج هولندا.

لما بريطانيا لقد حصلت على مكاسب فيما وراء البحار في الأملاك الهولندية بشكل أكبر، وفي جنوب أفريقيا مستعمرة الكاب وسيلان، وفي مالطا، وجزيرة هلجولاند في بحر الشمال.

وأعيد إلى سويسرا استقلالها الذي فقده عندما خضعت إلى نابليون، أما للسويد التي فقدت من قبل فنلندا عام ١٨٠٩ فقد قرر المؤتمر ضم النرويج إليها نتيجة لوقوفها إلى جانب الحلفاء ضد نابليون عام ١٨١٣ وكمكافأة لها، وخضعت بذلك للنرويج مجبرة تحت الحكم السويدي.

أما قضية بولندا، فقد قرر المؤتمر ان ينضم إقليمها الشرقي بوزن إلى بروسيا، وتحتفظ روسيا بالقسم الغربي باعتباره ملكاً لها، وعادت بولندا إلى أوروبا بعد ان لقتُح جانباً منها، ومنح تاجها لعاهل اجنبي هو القيصر الروسي.

لما ألمانيا ذات الـ (٣٨) ولاية، فقد كانت مقسمة إلى ثلاث مجموعات: الاولى من دولتين للنمسا وبروسيا، والثانية من خمس ولايات هي بافاريا وفورتمبرغ وبادن وسكسونيا وهانوفر، اما المجموعة الثالثة فهي ولايات هامبورغ وبرمن ولوبك، وقرر المؤتمر إعادة ألمانيا كاتحاد ضعيف يضم هذه الولايات وتأسيس مجلس للديت من حكام كل ولاية تحت رئاسة النمسا التي سيطرت في الواقع على الديت الألماني، وكانت بروسيا عضواً في الديت.

وتم تعويض بروسيا عما فقده في منحها نصف ولاية سكسونيا، وأرض على الضفة اليسرى من نهر الراين بقصد إيجاد قوة منيعة ضد فرنسا، وحملت بروسيا لواء إعادة الزعامة الألمانية لتكوين الوحدة الألمانية الكبرى.

وقد دفعت مقررات مؤتمر فينا نحو تقوية الروح القومية الأوروبية، وجاءت

مراحل ما بعد المؤتمر انتقل على ثورات ضد النظم القائمة بين (١٨١٥-١٨٤٨) من فرنسا إلى إيطاليا وبلجيكا وألمانيا^(١٢).

الفصل الرابع

الحلف المقامس في أوروبا

وثورات عام ١٨٣٠م

أولاً: الحلف المقدس

سببت الثورة الفرنسية وحروب نابليون العديد من المتاعب للحكومات الأوروبية، حتى أصبح زعماء ووزراء يفكرون في (التحالف الأعظم) بعد رحيل نابليون إلى جزيرة سانت هيلانة، وتثبيت لويس الثامن عشر على العرش، حتى باتت الفكرة المسيطرة عليهم هي العمل على منع عودة الثورة الفرنسية ونابليون إلى فرنسا بشكل تام ومطلق.

وكان من الطبيعي أن تكون حالة الغضب من الثورة الفرنسية على أشدها في الدول الأوتوقراطية للثلاث التي غزت جيوش نابليون أراضيها، ولم يجد قياصرة روسيا والنمسا وبروسيا صعوبة في تشكيل رأي عام نحو الالتزام بأن يكون لأوروبا حلف ضد روح الثورة، والعمل على سحقها في كل وقت ومكان، وإن تساعدهم الحكومة البريطانية وتؤيدهم في ذلك، إلا أن الأخيرة خيبت آمالهم ولم تساعدهم.

فقد خرجت بريطانيا من الحروب للنابليونية بنظام صناعي جديد، وإمبراطورية جديدة، وظفرت بمالطا ومستعمرة رأس الرجاء الصالح وموريتيوس وسيلان، ودافعت عن كندا دفاعاً ناجحاً في حرب ضد الولايات المتحدة نشبت عام ١٨١٢، بسبب النزاع معها على حق تفتيش السفن في عرض البحار، وبدلت تنمو تجارة عظيمة في المستعمرات الإسبانية والبرتغالية بأمريكا الجنوبية، هذه المستعمرات انتهزت فرصة حرب شبه جزيرة إيبيريا، وخرجت على الدولتين للمستعمرتين لها، ثم إن بريطانيا اختلفت عن نظيراتها في أوروبا بوجود مصالح كبيرة لها خارج أوروبا، وإن نابليون لم يغزُ قط الأراضي البريطانية.

ثم إن بريطانيا حافظت في كل حكوماتها على نظامها البرلماني وحرياتها المدنية، وإذا ما قورن كاسلرية وزير الخارجية البريطاني مع الإسكندر قيصر روسيا، لو مترينخ رئيس وزراء النمسا لبدا الأول ملاكاً للحرية والحكم والتسامح السياسي.

ولكن رغم اختلاف بريطانيا عن بقية الدول الأوروبية، فإنه لم يكن في مقدورها - نظراً للدور الخطير الذي لعبته في الحرب - أن تأبى المساهمة بنصيب رئيسي في إعادة تنظيم أوروبا، ولزمتها الحرب لبذ العزلة وتوثيق العلاقات بين

الإنكليز وكبار رجال السياسة في الأقطار الأخرى، وظهرت روح تحالف دبلوماسي مع احترام متبادل بين مترينخ وكاسلرية مرتبطتين بشعور من الاتفاق والاحترام، ولذلك فإنه رغم رغبة بريطانيا في الاشتراك في الحلف المقدس ذي الصبغة الدينية الذي أنشأه فيصر روسيا، انضمت إلى التضافر الأوروبي لانه الأكثر عملية.

وتعهدت الدول المؤلفة للحلف، وهي (النمسا وروسيا وبروسيا وبريطانيا) باستمرار العمل على إقصاء أسرة نابليون عن فرنسا، وعلى وجوب اجتماع ممثلي الدول للمناقشة في فترات يتفق عليها للبحث في مصالحها المشتركة وفي شؤون سلام أوروبا وأمنها.

وبعد وقت قليل تبين أن تحالف هذه الدول لم يكن حقيقياً، فكان مترينخ يريد جعل الحلف للرباعي أداة فاعلة لقمع الحركات الحرة في جميع أنحاء أوروبا، وكان كاسلرية يرى أنه ليس جزءاً من واجب الدول الأربع أن تتدخل في الحكم للدخلي للدول وسياساتها المحلية.

وكان كاسلرية محافظاً، وفي أعين خصومه الأحرار مثلاً للمحافظ المستبد، وآلة في يد التحالف المقدس رغم رفضه الانضمام إليه وعدو المبادئ الحرة في العالم، رغم أنه في الواقع كان يريد حماية ألمانيا وتقويتها لتقف سداً في وجه فرنسا وروسيا، ويعرف قيمة التحالف مع النمسا كدعامة للمبادئ المحافظة الأوروبية، ولم يكن له رغبة في مشاهدة بريطانيا تُجرَّ إلى التدخل في الشؤون الداخلية الأوروبية، وكان يعرف جيداً أن مواطنيه لن يسمحوا لأنفسهم بالاشتراك في سياسة مترينخ ذات الشدة والقمع.

ولذلكت بمرور الوقت الخلافات بين السياسة لبريطانية الحرة، والسياسة النمساوية المحافظة، وفي الوقت الذي تضافرت فيه أوروبا فقد تكون في السادس والعشرين من سبتمبر/ أيلول ١٨١٥ اتحاد لوثق من الدول الأوروبية الثلاث روسيا وبروسيا والنمسا، استمر حتى عام ١٨٢٦، وكانت سياسته تهدف إلى مقاومة مبادئ الحرية والقضاء على بقايا الثورة، وهذا التحالف سمي (التحالف المقدس)، والذي أوقف وجمد الحياة الفكرية في ألمانيا، وقمع للحركة الدستورية في إيطاليا، وأرجع إسبانيا إلى

الحكم المطلق، ورفض الاعتراف بديمقراطيات أمريكا الجنوبية للثائرة، وقد اصطدم هذا التحالف بشكل عنيف بفلسفة إنكلترا السياسية الأمل إلى الحرية في مؤتمرات تروبا عام ١٨٢٠، وليباخ عام ١٨٢١، وفيرونا عام ١٨٢٢.

ولكن هذا التحالف للمقدس الذي ترعّمه الحكام الثلاثة الاوتوقراطيون، والذي أوصى به الإسكندر، والذي كان نظاماً من أنظمة مترينخ لحكم أوروبا، عجز بشكل كبير عن أن يساير حماس للقيصر، أو كاسلريه، أو يماشى للقواعد التي ينبغي أن تتظم أوروبا تنظيمياً فاعلاً.

ولم يرتكز هذا التحالف على أساس من الرأي العام، بل سار ضد آمال للشعوب الأوروبية، وتحركت الشكوك نحوه في دول أوروبا الغربية، خاصة مع مناصرة روسيا لهذا الحلف.

وظهرت أزمة الحقوق للقومية التي هددت خفية السلام الأوروبي، فقد ساد في الدول الثلاث الاوتوقراطية القمع والقسوة، وعادت للحياة إلى للسيطرة البابوية الجزويت ومحاكم التفتيش، وتحريم للكتب، ولدار للقساوسة في إيطاليا المدلوس، وراقبوا الصحافة، وحرّموا طبع أي من المؤلفات التي تحيد عن الطرق الكاثوليكية، وفي إسبانيا الملكية كانت للكنيسة تدبير سياسة الدولة^(١٣).

ثانياً: ثورات عام ١٨٣٠

كان من خصائص القرن التاسع عشر في أوروبا والعالم الخارجي شيوع تلك الاختراعات الآلية، والحضارة الصناعية، وعبرت عام ١٨١٩ أول سفينة تجارية المحيط الأطلسي، وتم افتتاح السكك الحديدية في عدة دول، مثل بلجيكا وفرنسا وألمانيا، وانتشر التلغراف في أوروبا، وتطورت تجارة الحبوب الدولية، مما جعل المحصول في متناول العالم بأسره.

وفي نهاية القرن التاسع عشر، نمت المدن في أوروبا الغربية، وخاصة ألمانيا، تلك البلاد التي كان أهلها حتى تأسيس الإمبراطورية عام ١٨١٧ عبارة عن فلاحين أحرار ملاكين لأراضيهم، ونسبة غير كبيرة من سكان المدن، ومع للتطور الصناعي تأثرت ألمانيا بهذا الاتجاه من الفولاذ والكهرباء والسكك الحديدية.

وكان تقدم الصناعات قد سار بخطى سريعة في بريطانيا على عكس أوروبا
عدا بلجيكا، وشهدت الحياة للصناعية نشاطاً ملحوظاً، ولهذا لم تكن الحركات الثورية
التي قامت في أوروبا في الأعوام ١٨٢٠ و ١٨٣٠ و ١٨٤٨ هي نتيجة تذمر عمال
المصانع، لأنه لم يكن في ذلك الوقت إلا عدد قليل من المصانع الكبيرة خاصة في
فرنسا وألمانيا.

١- الثورة في فرنسا:

رغم أن عودة الملكية إلى فرنسا أعادت إليها منظر الملك والبلات والناس
والحياة الملكية، إلا أنها لم تغير من حالة الأمة الفرنسية، حيث ذهب النظام القديم بدون
رجعة، وتغيرت الانقلابات في حياة نظام المجتمع الفرنسي، في وقت بدا أن الملكية
نظام فاضح للحكم السيء، ولم يتمكن الأشراف من استرجاع سلطاتهم الكبيرة، وكانت
سلطة الأساقفة للزمنية تزداد ضعفاً واضمحلالاً، وجميع الانقلابات الكبرى كالمساواة
لأمم القانون، والحرية للشخصية، والحرس الأهلي، وإزالة النظام الإقطاعي، والنظام
القضائي الجديد، ظلت هذه الانقلابات دون تأثير لوقت عودة أسرة آل بوربون إلى
الحكم، ولم يشعر أحد أنه يستطيع إلغاء فواتير نابليون، أو إبطال أبواب الجامعات إلى
أنشائها، وحتى الاتفاق الذي عقده البابا أصبح راسخ للجزء لا يمكن إلغاؤه، وبدأت
الملكية بتقاليدها ممسوخة الهيئة، لا تلائم المجتمع الذي تسوده المبادئ الجديدة، وتشتيع
فيه روح علمانية بعيدة عن الدين.

وبدأ صراع بين تيارين: الأول الملكي، المتعصب للملكية، والذي هاجم بقسوة
الدستور والمعاهدة مع البابوية، وسعى لاسترجاع الأراضي التي صارتها الثورة إلى
الأشراف، والتيار الثاني المعادي للملكية، والذي يكره النبلاء والأشراف والملكيين
ورجال الدين، ويشدد على أن الملكية مقبلة؛ لأنها تخضع للأجنبي ولقبولها صلاحاً
مزرباً ضد كلمة الأمة.

فكان لويس الثامن عشر (١٨١٤-١٨٢٤) يقف أمام هذين التيارين المتضادين
في المجتمع الفرنسي، وهو الذي أعيد بعد هزيمة واترلوا وعلى يد الحلفاء أعداء فرنسا
ونابليون وسط أمة تريد للمجد والرفعة والسلطان، ولجبرته الظروف أن يمارس

التكشف الاقتصادي، وإن لا يجاري النبلاء الذين سيطروا على المجلس التشريعي، وهم يريدون عودة النظام القديم، وكان يخاف عودة الثورية والمبادئ الحرة، وكان عسيراً عليه كشف الطريق الصحيح في هذا الخصم، وعدم الانحراف عنه أيضاً، ومع ذلك تمكن لويس الثامن عشر من كشف الطريق القديم والمسير فيه، وإن القانون الانتخابي الذي صدر عام ١٨١٧ وحصر حق الانتخاب في الطبقة الوسطى، قد وضع أسس الحكم وقواعده لثلاثين عاماً قادمة.

وبعد أن تخلص من مجلسه التشريعي المؤلف من أغلبية من النبلاء عين وزراء تمكن بمشورتهم وتأييدهم من الابتعاد عن التطرف، ومنح فرنسا فترة من السلام استطاعت خلالها أن تنظم صفوفها ومالياتها، وتدفع للفرامة الحربية المفروضة عليها، وتحرر أراضيها من الجيوش الأجنبية، وتعود لتكون لها مكانة في أوروبا سياسياً على قدم المساواة مع غيرها، وكانت أسماء الوزراء مثل، ريشيلو ودي سير وديكاز وفيليل من أبرز من مثله وزارة لويس الثامن عشر.

إلا أنه خارج إطار الانتخابات والمجالس النيابية، قد ظهرت حركتان معارضتان، الأولى تمثل تجديداً في روح الكنيسة الكاثوليكية ونشاطاتها، وضعت نصب أعينها أن تعيد فرنسا إلى أحضان الإيمان، وترجع إلى معرفة الله قسماً كبيراً من الفرنسيين كان قد ضلّ ولرتمى في أحضان الوثنية، وذلك بتنظيم مجموعات من البعثات الدينية ومهاجمة المدارس والجامعات لإرجاعها إلى الدين، أما الحركة الثانية فقد اشتهرت للحرب على الاكليروس، ووجدت المساعدة لها في جمعيات الكاربوناري Carbonari، وهي خرجت من نابولي وترمي إلى للنضال ضد الاستبداد في جميع أشكاله.

واستمرت روح الحرية الأوروبية التي هبت مع الثورة للفرنسية بل انتشرت في صفوف الشباب وطلاب المدارس والجامعات في ألمانيا، ومالجمستر بإنكلترا ونابولي وبيدمونت بإيطاليا وإسبانيا، وصقلية والبرتغال، مطالبين بالاستقلال بالأولى وبال دستور بالثانية، وظهرت في اليونان هزات قومية، واشتعلت في فرنسا ثورات صغيرة، واغتيل الدوب دي بري ابن أخي الملك وورث العرش بعد أبيه الكونت

دارتوا في الثالث عشر من فبراير/ شباط ١٨٢٠، وكان في اغتياله وقع كبير في فرنسا، وموريس القمع والشدة من قبل الجيش ضد هذه الحركات خاصة في فرنسا والنمسا.

وأمام اغتيال الدوق دي بري علا صوت الملكيين في باريس، وتعذر معه إبقاء حكومة حرة، واضطر الملك إلى أن يقصي وزيره ديكرت، ويعيين محله فيليل من الأحزاب اليمينية، وزحف الجيش الفرنسي نحو إسبانيا، ودخلته دون أية مقاومة، واخذ ثورة قام بها لحرار اسبان، وأرجع إلى عرشها الملك فرديناند، وأطلق حربته، وقد خلف شارل العاشر أخاه على العرش الملكي في فرنسا عام ١٨٢٤، وكان كهلاً شديداً في تعصبه لرأيه، رجلاً ذا مبادئ صارمة، ومستبداً، وتغاضى عن مشاعر الشباب النازعين نحو الحرية وأفكار نابليون، وأعاد تقاليد الملكية السابقة، وأصدر قانوناً بمنح تعويض مالي للأشراف المهاجرين، وقانوناً بفرض عقوبات صارمة على الإلحاد الديني، وأمر ملكياً بحل الحرس الأهلي الذي ساند الإصلاح الدستوري، وأقال كبير وزرائه مارتييناك، وهو سياسي فذ وحل محله جول دي بولنيك J.d. Polignac في أبريل/ نيسان ١٨٣٠.

وكان بولنيك مثالاً للرجعية، وهو من النبلاء الذين هاجروا من فرنسا قبل الثورة، وألقي في السجن في عهد الإمبراطورية، ورفض حلف اليمين للولاء للدستور عام ١٨١٥.

وكان تعيينه تحدياً لآمال الأمة، وأسهم في ذلك أيضاً تعيين وزير للحرب بورمون القائد الذي غدر بنابليون في لينى، وأضيف إليه شعور بعدم الثقة بالوزارة، ورغم أن فرنسا كانت منغصة في غزو للجزائر عام ١٨٣٠ فإن الأوضاع الداخلية أخذت تسوء تدريجياً، وفي الخامس والعشرين من يوليو/تموز ١٨٣٠ صدرت مراسيم ملكية من قصر سان كلو الملكي تحد من حرية الصحافة وتحل البرلمان، وتعطل قانون الانتخاب، وأصبح الملك عن نواياه بشكل لاأفت وجلي، ورفض طلب توسيع الدائرة الانتخابية، وقصد إنهاء الدستور والحرية بكل أشكالها.

ورد للناس بإعلان المواجهة المباشرة مع الملكية، ونشب قتال خلال ثلاثة أيام

(٢٧-٢٩ يوليو/ تموز ١٨٣٠) انتهى بعزل الملك والقضاء بشكل كامل على الملكية القديمة، وفيها قررت المدن في فرنسا أن تدير على خطى باريس، ونجح الرجال في إقامة الجمهورية، ونزع العلم الملكي الأبيض، ودعمهم أنصار آل نابليون، الذين كانوا يريدون قيام إمبراطورية ثانية.

وهكذا جاء لويس فيليب Louis Philippe وهو رئيس بيت أرليان وابن للدوق فيليب الذي آمن بالثورة وأعطى صوته لإعدام الملك لويس السادس عشر، ثم قتل على المفصلة بعد ذلك، وظهر في هذا الوقت من الشباب الأحرار تيير Thiers وذاع صيته في السياسة والصحافة، ورأى أن لويس فيليب الذي قاتل من أجل الثورة ومبادئ الجمهورية سيعطي لفرنسا ملكية ديمقراطية، وكان فيليب هذا بسيطاً ملكاً تحت راية الجمهورية والنظم العلمانية للديمقراطية.

وبدأ عهد جديد من الملكية الدستورية ممتد طويلاً، وأعلن لويس فيليب رفع الراية للمتلة الألوان، وعانق أمام الناس لافاييت رجل للثورة العجوز، ولقي بذلك لويس فيليب دعم الشعب الفرنسي.

وانتشرت شرارة للثورة من باريس إلى خارجها، وخرج البلجيكيون على الهولنديين، والبولنديون على الروس، وجمعيات الكاربوناري على الحكم الاكليركي في الولايات البابوية، وانتشرت حرب التحرير في باريس ضد للنظام الثوري القديم، ولاتخاذ للشعوب الأوروبية، وعمت في باريس رياح للشغب، وحاول البعض أن يشتبك مع إنكلترا حول بلجيكا، ومع روسيا بخصوص بولندا، ومع النمسا حول القضية القومية الإيطالية، إلا أن لويس فيليب كان واعياً وعبر عن حسن تقديره للأوضاع ومعرفته بالسياسة، ونشر السلم بين بلاده وأوروبا، ولتأج عهداً استمر ثمانية عشر عاماً من التقدم والتطور الاقتصادي والمالي.

٢- الثورة في بلجيكا:

أن الثورة التي لطاحت بمملكة الأراضي المنخفضة ووحدها، قد بدأت بشغب في بروكسل في الخامس والعشرين من أغسطس/ آب ١٨٣٠، بعد تآمر البلجيكيين طويلاً من حكم لسيادهم الهولنديين وصرامته، وكراهية للبروتستانتية، وهيمنة

الهولنديين على مقاليد بلادهم، ورأوا أنهم أكثر منهم عدداً والصح لساناً وثقافة ووعياً، وعدوا جعل اللغة الهولندية لغة رسمية للبلاد، وإبعاد السكان (الوالونيين) عن الحياة العامة وإعطاء جميع الوظائف المهمة للهولنديين - كلها عدوها ظلاماً وجوراً عليهم لا يمكن أن تحتل، وأذكى نار غضبهم مثال ما جرى في باريس، وعقدوا العزم على خلع الأجنبي عن حكم بلادهم.

ونشب القتال في ساحات بروكسل بين المتطوعين البلجيكيين والجنود الهولنديين في (ديسمبر/ أيلول ١٨٣٠)، وقُتل فيه أعداد كبيرة من المتطوعين في الشوارع، وكان الهدف الأسمى هو استقلال بلجيكا ووحدةها، إلا أن هذا لم يحصل إلا عبر المفاوضات الطويلة بين بريطانيا وفرنسا، ودعم محدود عسكري من فرنسا قدم لبلجيكا، وكان بلمرستون (١٧٨٤-١٨٦٥) وزير للخارجية البريطاني، وناليران سفير فرنسا في لندن حينذاك هما اللذان صنعا هذا الاستقلال للشعب البلجيكي، فحسم للبلدان النزاع بينهما بطرق سلمية وفتح صفحة من العلاقات السياسية، وتصفية للشؤون الأوروبية واتفقا على منح بلجيكا استقلالها.

ولدى تعاون البلدين إلى حصر الخلاف وحل المشكلة، وتم عرض التاج للبلجيكي على ليوبولد أمير ساكس كوبرج (١٧٩٠-١٨٦٥) خال للملكة فيكتوريا والذي لقرن بابتة جورج الرابع، ثم هو الآن يريد الاقتران بابتة لويس فيليب كعلامة لعدم تحيزه.

واستطاع ليوبولد أن يثاق المصاعب والعقبات أمامه، وتغلب على الغزو الهولندي لبلاده، الذي شن في أواخر يوليو/ تموز ١٨٣٠، وتخلص من الجيش الفرنسي الذي جاء لطرد الهولنديين ومن سحق الشعب البلجيكي الشديد وتمرد لهفدانه بعض لكسمبورغ ولمبرغ، والذي فرضته الدول العظمى في معاهدة أو مؤتمر لندن، والذي لبدته المعاهدة المبرمة في لندن في الخامس عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٣٠.

وفرض على بلجيكا نظام الحياد المستديم بموجب معاهدة عام ١٨٣٩ التي ضمت حياد بلجيكا بواسطة خمس من الدول الكبرى، منها فرنسا وبروسيا، وحصلت

بريطانيا على ضمان مصالحها السياسية في عدم منح فرنسا فرصة ضم بلجيكا لمناطق نفوذها للتجارية والحربية^(١٤).

٣- الثورة البولندية:

ظهر في بولندا عصيان آخر؛ لأنه لم يُحقّق نصر للدول الأوروبية الغربية، فإن القيصر نقولا الأول (١٨٢٥-١٨٥٥) بنظر بخوف وفزع لثورة باريس، ولذلك شرع باتخاذ إجراءات صارمة ضد الديمقراطية الفرنسية، ولكن لوقف عملية هذا قيام عصيان خطير في بولندا.

فقد قام في بولندا عدد من الضباط وملوك الأراضي البولنديين الذين خشوا أن يسببوا قصراً لمحاربة الفرنسيين حلفائهم، والذين تأملوا حدوث شيء في بلادهم يشبه ما حصل في باريس، وقبض هذا الفريق على الحكم في وارسو، ووقف جيشها وشعبها كجمهورية دستورية يتحدى الإمبراطورية الروسية.

وحدثت المواجهة البولندية - الروسية، وقايل الشعب البولندي بكفاح وبمسألة زهاء عام كامل، ولكن الروس تفوقوا في النهاية في سبتمبر/ أيلول ١٨٣٠ أمام البولنديين، ولزلت روسيا الحرية البولندية، ومحت بولندا التي أقامها مؤتمر فيينا من الخارطة السياسية لأوروبا، وجعلتها ولاية عادية خاضعة للنظام الاستبدادي، وفقد نظام الحكم الروسي القيصري الملكي.

رغم أن فشل الثورة البولندية عام ١٨٣٠ قد غدّ تراجعاً أمام القوى الملكية والنظم الاستبدادية، إلا أنه ذكر لأوروبا بأن عليها أن تتشبع بالعواطف والروح القومية، وأن تزيح عن كاهل الجماهير الظلم والفوضى، وأن تبقى ثورة باريس منارة للحرية وللديمقراطية^(١٥).

الفصل الخامس

إنجلترا وفرنسا وإيطاليا

بين الثورتين (١٨٣٠-١٨٤٨)

أولاً: إنكلترا والإصلاح

أخذت إنكلترا تسير في ظل الأحداث الأوروبية السابقة للذكر نحو تحسّن بطيئ، وتوجه الحكام والساسة نحو تحسين أوضاع الصناعة والمصانع، والمدارس، ووسائل الصحة والمساكن، والمدن والتخطيط والمكتبات والمناحف والحدائق العامة والرياضة، علماً أن إنكلترا خلال العقدين الأخيرين كانت منشغلة في حروب مع فرنسا قاسية وطويلة رغم انتهاء الحرب ورحيل نابليون، ولكن العقليّة الإنكليزية ظلت تتخوف، وتسودها حالة عدم الثقة، ومتريدة في تحسين حال الأمة.

وقد اشتهر اللورد سيموث وزير الداخلية في وزارة اللورد ليفربول بقمع الحركات الحرة، وعطّل عام ١٨١٧ قانون للحريات الشخصية، ودافع عام ١٨١٩ عن (القوانين الستة) التي أعطت حكام الأقاليم والقضاة الحق في سجن الأشخاص الذين توجّه إليهم نهمّة الحَضّ على الكراهية للحكومة، ومنع عقد الاجتماعات، وقيد حرية الخطابة والكتابة تقييداً صارماً، وهو يعدّ آخر مثال عل العقليّة المحافظة بعد للحروب النابليونية.

وقد تأخر الإصلاح في إنكلترا سنين طويلة بسبب الظروف السيئة منذ عهد حكومة وليم بت المحافظة، واتخذ مجلس الأعيان طابعاً شديداً من المحافظة، ولم يحقق الإصلاح هدفه إلا في عام ١٨٣٢ حينما هتّد الأعيان بمطالبة الملك وليم الرابع (١٨٣٠-١٨٣٧) بإيجاد عدد من اللوردات الأحرار، لأن ذلك يجعل مجلس الأعيان يجيز قانون الإصلاح، والذي لقره أخيراً في عام ١٨٣٢ في أجواء سياسية غامضة شهدتها إنكلترا، وكانت البلاد في تلك الفترة أغلبها من سكان الريف، أما سادة الأمة فيجلسون في القضاء والبرلمان. وقد فتحت للثروة للطائفة التي جناها آل بت من الهند في وجوههم أبواب البرلمان، وفي الوقت الذي كانت فيه قرية قليلة السكان مثل (سترم) القديمة ترسل عضوين إلى البرلمان، كانت مانچستر من دون تمثيل في البرلمان!

فإن عهداً جديداً كان قد ظهرت ملامحه في البرلمان الأرستقراطي الذي طُلب منه معالجة النظام الاقتصادي والمصانع والمدن الصناعية للضخمة والمزحمة بالسكان، والنمو الكبير للسكان، ونمو ثروات القطن، وليس باستطاعة البرلمان القديم

معالجة هذه القضايا بدون إصلاح حقيقي وجذري، ولكنه لم يفعل ذلك إلا بشكل بطيء وحسب الظروف.

وظلت المعاناة في إنكلترا بعد الحروب النابليونية، فالصناعات شبه متوقفة إلى أوروبا بسبب الأزمة الاقتصادية، والرسوم والضرائب باهظة، والأجور واطنة، وعمت حالة من البطالة والفقير، وارتفع سعر رغيف الخبز أمام الفقراء الجائعين، وفرضت رسوم كمركية قاسية على البضائع التجارية الأجنبية.

لما المصانع والأحياء للصناعية، فقد ولجئت مصاعب جمة ومعقدة، ونمت مناطق واسعة من الأحياء الفقيرة، وجمع أصحاب المصانع الثروات الطائلة، مع قلة أجور عمالهم، وكثرة أعمالهم، وتم استغلال عمل الأطفال الصغار في مهن وأعمال قاسية وغير رحمة، ولم يستطع قانون عام ١٨١٩ المسمى بـ (قوانين المصانع لتنظيم عمل الأطفال) أن يساعد على تحديد ساعات العمل بـ (١٢.٥) ساعة يومياً، وحظر تشغيل الأطفال دون سن التاسعة في بعض المصانع، بل حتى هذا القانون كان حبراً على ورق.

ومع هذه الحالة المزرية في الصناعة، فإن الناس في المجتمع الإنكليزي تركوا أحراراً في التنمر والشكوى، وانتقاد الصحف للوزراء والملك، وإدانة المحاكم للعرش في قضايا معينة، وعرفت تقدم الأمة ثلاث صعوبات، هي احتكار الكنيسة الرسمية لشؤون التعليم احتكاراً إلى درجة الحرص عليه، ومطالب المصانع للمهنية، والنظرة للرخيصة لنوع التعليم الملائم للأطفال للفقراء، وكانت هناك بعض المحاولات لتعديل وإصلاح هذه المصاعب، مثل تأسيس جامعة لندن في عام ١٨٢٥، وفتح أبواب التعليم العالي لأبناء غير الإنجليز.

وتم تحديد سلسلة قوانين بدءاً من عام ١٨١٩، وحتى عام ١٨٤٧، وتأسست معاهد الفنون الميكانيكية لنشر المعارف العلمية بين العمال الفنيين المهرة، وأدرك الناس أن التعليم مصدر القوة للقومية، ورغم ذلك بقيت إنكلترا إلى عام ١٨٧٠ حتى أقرت التعليم الأولي الإلزامي، وإلى عام ١٨٩١ حتى أقرت التعليم المجاني، وإلى عام ١٩٠٢ حتى أقرت إعانة المدارس الثانوية في ميزانية الدولة.

ورغم ضعف الحروب الفرنسية إلا أن ولیم بت كان يركز على مذهب الأحرار بالحرية الدستورية، ولم يصبح في يوم من الأيام محافظاً ضيق الأفق والفكر، وأدرك مآسي الصناع والحرفيين والفقراء، وشاركه في هذه التوجهات الفضل خلفائه مثل كاننج، وروبرت بيل، وهيسكمن، والدوق ولنجتن أميد المحافظين صرامة، الذي أبدى استعداده في نهاية المطاف للإصلاح في الحياة البرلمانية.

وقد تحققت إصلاحات في هذه الفترة في إنكلترا، مثل قانون نقابات العمال عام ١٨٢٤، والتعرفة للكمركية عام ١٨٢٦، وحق التصويت للبروتستانت ثم الكاثوليك، وإجازة قانون الإصلاح عام ١٨٣٢ تنازلاً عند رغبة الرأي العام، ومنحت الطبقة الوسطى حق الانتخاب، وتحرر مجلس العموم من سيطرة الأرستقراطية، وشاعت الديمقراطية في الحكومات المحلية، وأصلح قانون مساعدة الفقراء، وألغى الرق، ورفعت القيود الكمركية عن الخبز، وكان الفضل الأكبر في هذا الإصلاح للمير روبرت بيل للوزير المحافظ الذي تمكن من تكييف مبادئه مع السياسة الواقعية واستطاع أن يساهم بالحركة الإصلاحية^(١١).

ثانياً: روبرت بيل والمحافظون

إن قبول الأرستقراطية بالإصلاحات الديمقراطية في ظل العصر الصناعي، لم يكن أمراً هيناً، ويعود الفضل فيه إلى السير روبرت بيل الزعيم البرلماني الذي ظل لأربعين عاماً (١٨٠٩-١٨٥٠) في مقدمة المعارك مع المحافظين.

فكان بيل محافظاً، ودخل البرلمان عام ١٨٠٩، وكان ذكياً وشجاعاً، ويقبل بالتغيير، ويسير بتمهل ونزاهة، وفي الوقت المناسب، وشجاعاً في أن يعبر عن وجهة نظره بجرأة وصدق، وناضل لسنوات طويلة في حزب المحافظين، للدفاع عن أفكاره، حتى حصد ثمار نضاله عند كهولته عندما تحققت هذه الإصلاحات وصدرت القوانين.

واستطاع أن يصدر منشوراً حمل اسم (تامورث) Tamworth للإصلاح الليبرالي، وأن يبعث حياة جديدة في حزب جديد ليس التوري بل المحافظين Conservative، وأعلن في مايو/ أيار عام ١٨٣٨ هدفة من هذا الحزب، وهو: (أن أضع أسس حزب عظيم يجب عليه - نظراً لوجوده في مجلس العموم، واستمداده قوته

من الرأي العام - لن يقضي على أسباب الصدام بين فرعي السلطة التشريعية للمتعاضدين).

وتقَدَّ بيل زمام السلطة في عام ١٨٤١ في وزارة كفؤة ومقتدرة، وجعل الحكومة أداةً نفَّذَ بها سلسلة من الإصلاحات الاجتماعية الهامة، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر تم إجراء إصلاحات، مثل ترخيص للسكن، وتجارة عالمية لإنكلترا تجلب الحنطة منها، وتقليل الميزانية، وتقلص الرسوم للكمركية على الواردات، ووضعت المصارف والعملة على أسس ثابتة، وأزيلت نظم قضائية سيئة لو فيها عيوب، ويعود الفضل في كل هذا إلى السير بيل وأراقه الناضجة السيدة.

ورغم كل هذا، فإن عصره كان عصر اضطراب وقلق، فايرلندا كانت على وشك الثورة، للمطالبة بالإصلاح وقيام الديمقراطية التعددية، وبرز دنيل أوكونل وروبرت أوين، والميثاقيون ورجال آخرون، مثل ريتشارد كبدن بائع المنسوجات للرخيصة، وظهرت حملة ضد بقاء قوانين الغلال، والأخذ بمبدأ حرية التجارة، وكان من حكمة بيل أنه يجتنب الآراء المتطرفة للرابيكاكية، ومواجهة أصحاب الضياع ورجال الدين وسخطهم، وقدر على تسيير دفة البلاد من أجل الإصلاح والحرية.

وفي للفترة التي شهدها أوروبا بين (١٨٣٠-١٨٤٨) وهزتها بها الثورات، سعت إنكلترا بهدوء وسلام في توسيع حريتها، وزيادة الحياة للرغبة لشعبها، وجابهوا المخاطر الجسمية، واتخذوا قرارات سليمة وصائبة، وأصبح للطبقة الوسطى حق الانتخاب، وأجيز أول قانون من قوانين الصحة العامة، وألغى بيل في عام ١٨٤٦ قانون الغلال، وسنّت إنكلترا عام ١٨٤٨ قانوناً جنائياً إصلاحياً، ونظاماً للإعانة المدرسية، وقوانين للترقية لوسائل الصحة، وتحديد ساعات عمل الأطفال، ونظاماً مالياً للضرائب خفف العبء عن الناس، ووضعت أسس نظام تعليم أصبح ركيزة في المستقبل للنظام الضخم للخدمات الاجتماعية، والذي جنب البلاد الثورات وويلاتها.

ثالثاً: حرية للتجارة

اننصر مبدأ حرية للتجارة في إنكلترا، ومعه مصالح الصناعة الجديدة على حساب مصالح الأملاك القديمة، وكسباً للطبقة الوسطى التي أخذت تنمو في مصالحها

للمادية الخاصة، وارتفعت طبقة الفقراء، ولزادت حرية التجارة، وارتفعت أصوات مطالبة ببناء أسطول بحري، ولزحمت المدن وخلت القرى، ونما السكان واحتاجوا إلى الطعام والمواد الخام التي تُجلب من ما وراء البحار، واحتاجوا أسواقاً لصادرات إنكلترا، وسفنًا لنقل الحوائج وامتلاك أسطول تجاري كبير.

وكانت فترة رخاء مادي في البلاد، خاصة بعد إلغاء حماية التجارة، وبعد موت جورج الرابع (١٨٢٠-١٨٣٠)، ووليم الرابع (١٨٣٠-١٨٣٧)، ثم مجيء الملكة فكتوريا (١٨٣٧-١٩٠١)، وما تسمت فيه من رزاة وقرار حكيم، وأداء لواجباتها السامية.

وإن حرية التجارة لم تكن مهياة دولياً، ووجدت معارضة لها من حيث المبدأ والحماية، ولم تتبع الدول الأوروبية خطى إنكلترا في حرية التجارة، وخابت الآمال في إقامة عالم حر لفضل^(١٧).

رابعاً: فرنسا وملكية لويس فيليب

لقيت ملكية لويس فيليب نهايتها بعد ثمانية عشر عاماً من قيامها، وبعد فترة شباب عاشتها باريس في ظل حكم خبير ذي كفاءة ونكاه وقوة، هو كازيمي بيرييه C. Perier، ومعه تيير وموليه وجيزو، وهم رؤساء وزارات وطنيون، ولم تشهد فرنسا عصراً مثيلاً لعصر لويس فيليب في الحياة البرلمانية وتطورات التجارة والمكسك الحديثة.

ووقفت حكومة لويس فيليب أمام الثورات الداخلية، وواجهت الحروب الخارجية، وتكفل جيزو السياسي القدير ورجل العلم بإقامة نظام تعليمي شعبي تدعمه الدولة، ولكن رغم كل الفضائل السياسية التي امتازت بها حكومة لويس فيليب، والخدمات التي قدمت إلى فرنسا، إلا أن للناس لم بأسفوا كثيراً على سقوطها.

لقد تحول الشعب الفرنسي عن الملكية، وساعد مقتل الدوق لارليان وريث العرش في عام ١٨٢٤ في هذا التحول، فضلاً عن عيوب الحكومة الملكية وسياسة المهادنة التي اتبعها لويس فيليب مع إنكلترا رغبة في حفظ العلاقات الحسنة، وتجنب المجازفات الخارجية، وحكم للمواطن الفرنسي على ملكيته بالبرجوازية، وعلى ملكه

بالشخص الثقيل الظل.

وكانت هناك أسباب أخرى غير ظاهرة في كراهية الفرنسيين للملكية في عهد لويس فيليب، فقد أغضبت الكنيسة بإقامة نظام للتعليم والتربية على مبادئ غير مذهبية، ومحاولة إرضاء المتقين دون الاهتمام بأمر رجال الدين، وعدم توسيع الدوائر الانتخابية، أو تحسين حال الأمة، حيث قاوم جيزو الذي أدار الحكومة في السنوات الأخيرة من حكم لويس فيليب، أية فكرة ومطالبة في توسع حق الانتخاب.

وظهر في هذه الأجواء من عدم الاستقرار وحالة الغليان في المجتمع نيارلن لاسيان: التيار الأول بوناپرتي، ونمسي للناس بمرور الوقت الجانب المحزن من سياسة الإمبراطور بوناپرت من تجنيد الشباب، وحروب طاحنة وغزوات للدول الأجنبية، وتضافرت جهود الكتاب والشعراء والمؤرخين على إضفاء نوع من الازدهار على هذا العصر المليء بالانتصارات والبطولات الفرنسية للخالدة، وتمجيد اسم نابليون، ولا ننسى أن نابليون حاول في المراحل الأخيرة من حكمه أن يلهب روح الثورة في باريس، وأشد فكتور هيجو بانتصاراته وحروبه، وقُتِمت مذكرات الإمبراطور التي كتبها في منفاه في سانت هيلانة إلى الفرنسيين، ونظمت على أساس إبقاء أسرته وتعزيز نفوذها من بعده، وقُتِمت الإمبراطورية للنابليونية على أساس أنها مرحلة لانتقال إلى الحرية والجمهورية ومبادئ القومية الفرنسية، ولكنها قُصِمت في ظهرها على يد الأسر المالكة في أوروبا، ولم يكتب لها للدول والاستمرار.

وكانت نظرة الفرنسيين إلى الإمبراطورية على أنها أداة حرية وديمقراطية لا استبدادية أو أداة طغيان، ونفنت أسطورة الإمبراطور الذي واجه الإمبراطورية الإنكليزية المستبدة، والضحية الذي مات خارج بلاده، ولذا عندما أعيد عام ١٨٤٠ جثمان نابليون إلى باريس لئلانه حسب للتقاليد، أصبح قيام الجمهورية الثانية في حكم الأمر الواقع.

وكان للمطالب بالعرش هو لويس بوناپرت (١٨٠٨-١٨٧٣) ابن لويس بوناپرت ملك هولندا، وهو أخو الإمبراطور نابليون بوناپرت، وأجلسه على عرش هولندا عام ١٨٠٦، ولكنه تنازل عنه عام ١٨١٠، ولم لويس بوناپرت (الابن) هي

هرتس بوهارنيه ابنة الإمبراطورة جوزفين من زوجها الأول، وأصبح لويس بعد وفاة
للدوق دي ريتشاد عام ١٨٢٢ رأس أسرة بوناپرت، وهو شاب غريب الأطوار، ولديه
أحلام خيالية، وقلبه يعمر بالإيمان، ورأى أن العناية الإلهية قد اختارته لإعادة بيت عمه
إلى عروش فرنسا.

وحاول لويس في عامي ١٨٣٦ و ١٨٤٠ اغتصاب للتاج الفرنسي، ولكنه فشل،
ورغم ذلك لم يتأثر، وفي عام ١٨٤٨ كان منفياً في لندن مع حالة يرثى لها، إلا أن
حلمه بالوصول إلى العرش ظل يراود مخيلته باستمرار، وطرح في كتاب صغير له
هو (أفكار نابليونية) المبادئ الحرة للإمبراطورية للنابليونية الثانية.

أما التيار الثاني الذي واجهته ملكية لويس فكان جمهورياً اشتراكياً، فقد كانت
الثورة الفرنسية تتطوي على أفكار الحقوق السياسية والمساواة، وظلت الكراهية
للقابات العمالية والمشتركة معها بصفتها أدوات خاضعة لنظام الامتيازات للقديم،
وحرمت الثورة للصانع من استخدام نقابات العمال سلاحاً للإضراب أو المطالبات
وغيرها.

إلا أن هذه الأفكار أخذت تختفي، وتحل محلها نظرة جديدة للمجتمع، فقد
تخلصت المجالس النيابية من الامتيازات ومساوئها، ولكن للفقر ظل ملازماً للناس،
ونادى أتباع سان سيمون S.Simon بالسلام للعالمي، وإلغاء للتوريث، وتنظيم العمل
بشكل دولي، ووضع نظام توزيع لكل فرد حسب حاجته، واقترح فوربيه إلغاء الدولة،
وأن يحل محلها (خلايا عمال)، ودعا لويس بلان إلى إقامة مصانع قومية، وظهرت
مصطلحات الاشتراكية والشيوعية، وشاعت بين الناس.

وفي الأجواء للمعتصره في باريس، انتشرت خطب روبسبير بطل الثورة
الفرنسية، وبيعت المنشورات والنسخ، وانتشرت في صفوف عمال المصانع، وكُتب
الثورة ومفكرها الآخرين، وبدأت الثورة السياسية تجول في عقول الصناع الفرنسيين،
وفي عطلة البرلمان عام ١٨٤٧، وبعد أن أخفق زعيم الأحرار في مجلس النواب في
إجبار الحكومة على إعطاء بعض المنح، أشار للقيام بحملة في البلاد من أجل إصلاح
البرلمان، وتمت تلبية الدعوة، ونودي في موجة تحدي بضرورة عزل جيزو كبير

الوزراء، وتطهير البرلمان من الأصوليين، وتوسيع دائرة الانتخاب، وكان من أبرز الخطباء لامرتين Limartine (١٧٩٠-١٨٦٩) الشاعر المؤرخ المحبوب وخطيب فرنسيا، فقاومت الحكومة هذه المطالب، وحظرت عقد ندوة في الثاني والعشرين من فبراير/ شباط ١٨٤٨، ولكنها سرعان ما وجدت نفسها أمام شغب واسع وعصيان في باريس، وفي اليومين التاليين من القتال في الشوارع رفع العمال أصواتهم بـ(تحيا الإصلاح) و(تحيا الجمهورية)، ولما رأى الملك الكهل أن الحرس الأهلي والشعب انقلب عليه، تنازل عن العرش لحفيده، وهرب إلى إنكلترا.

الجمهورية الثانية:

بدأ لويس بوبلبرت يظهر على الساحة بعد اختفاء لويس فيليب، وفي هذه الأثناء اشتعلت الثورة في باريس، وعجز المناهضون للحرية عن إيقافها، وأعلنت الجمهورية، وتم تأليف حكومة مؤقتة لإدارة البلاد، وكانت باريس شديدة للهياج، ونهض الناس مطالبين بالإصلاح ومشروعات كثيرة أخرى.

وتقرر إجراء انتخابات للجمعية التأسيسية في الانتخاب العام، وانتخبت جمعية وطنية أغلبها من البرجوازيين مع قلة من دعاة للجمهورية.

وكان أول برلمان ينتخب في فرنسا وفق نظام الانتخاب العام، وبين نزعة الريف والمحافظة، وسيادة أغلبية من المحافظين في مقاعده الانتخابية، واقترح بعض الناس للجمعية التأسيسية، وطالبوا بحلها وإشهار الحرب على ملوك أوروبا، ولكن ظهور الحرس الأهلي في الوقت المناسب أعاد الأمور إلى نصابها.

وعقب هذا الحادث نشب قتال عنيف في شوارع باريس، مما أثار الخوف في نفوس الفرنسيين، وكان قتالاً بين الجنود والحرس الأهلي تحت قيادة الجنرال كافينياك وبين العمال العاطلين بدون زعماء أو قادة، وتم نصر الحكومة ومقتل آلاف الأشخاص. وفي هذا الخضم من الفوضى وعدم الاستقرار أخرجت الجمعية التأسيسية دستوراً هزئياً بقى في وجه التغيير والإصلاح، وأنشئ نظام للجمهورية الجديدة يقوم على مجلس نيابي واحد ورئيس للجمهورية يتناوبان للحصول على السلطة المطلقة، وينتخب كل منهما بالانتخاب العام، وحددت فترة الرئاسة بأربع سنوات على أن يعاد

انتخاب رئيس للجمهورية.

وفي انتخابات العاشر من ديسمبر/ كانون الأول ١٨٤٨ لانتخاب رئيس الجمهورية نال لويس بوناپرت أكبر عدد من أصوات الناخبين مع منافسيه، مثل كافيناك ولامرئين، وكان اسم بوناپرت وحده كافياً لأن يحبه الشعب الفرنسي، وينتخبه لأنه اسم يُعَدّ في كل فرنسا رمزاً للنظام والقوة الجديدة.

ورغم ذلك، فإن لويس لم يكن سيداً مطلقاً في البلاد، فقد واجه مجلساً نيابياً انتُخب حديثاً، وذا طابع محافظ، مستعد لإعادة الملكية إذا ما اتفق مع اتباع آل بوربون وآل أربليان على حلّ لما بينهما من خلافات، والمجلس النيابي لم يكن للويس فيه نصار، واضطر للتناهي مع رغبات العناصر المحافظة الاكثريكية ويتناسى ماضيه الكاربوناري القديم، ويدعم البابا ضد انصار الجمهورية في روما.

وقام لويس بانقلاب في الثاني من ديسمبر/ كانون الأول ١٨٥١ من أجل الحرية والسلطان، ووضع خطة ذكية لتحقيق هذا الأمر، بعد ان نقض يمينه، والنمستور الفرنسي، ووضع كبار رجالات الجيش والزعماء السياسيين في السجون، وضرب الناس المتظاهرين في شوارع باريس بالنار، وحل مجلس النواب، وسجن ونفى عدداً كبيراً من أعضائه، وذلك لكي يجعل من نفسه سيداً مطلقاً على فرنسا، وامتدت رئاسته نتيجة لذلك إلى عشر سنوات.

ورغم هذا فإن لويس لم يَبْدُ للفرنسيين كمستبد، بل كعدو للاستبداد؛ لأنه حلّ المجلس النيابي الذي أساء للديمقراطية، واستغل أعضاؤه مناصبهم من أجل مكاسب ذاتية، وحرّموا عدداً كبيراً من السكان من حق الانتخاب بموجب قانون أجازوه قبل الانقلاب، ولاح للناس ان لويس خيراً فَعَلَ في مواجهة المجلس للنيابي، وبنت صفحة جديدة في أوروبا، بانتصار القومية المثالية والروح الوطنية، والمصالح السياسية لها، وبالجيوش الكبيرة والحروب العديدة والأخطار الجسيمة لأوروبا، ولعب لويس بوناپرت دوراً فاصلاً فيها بهجومه على روح للرجعية الأوروبية، وخاصة في روسيا^(١٨).

خامساً: اتبعت إيطاليا

لا بدّ من إدراك ان نار الثورة نشبت عام ١٨٤٨ في إيطاليا، وامتدت من

نابولي إلى الشمال، وأخذ الأمراء بمنحون للتسليح في كل إماراتهم غير صانقين في وعودهم، وانتشر لظى الثورة إلى روما وتورين وبيزا وفلورنسا وميلان، ثم للبنديفة نفسها، ووضعت يديها على أحواض السفن، وأعلنت للجمهورية.

كانت هذه الثورات التي انتشرت بين الناس في أوروبا ترغب في إعلان الحريات الأساسية والمدنية، والتي وجدت في إنكلترا ثم في فرنسا، والتي رأى فيها الناس في إيطاليا بولار الأمل رغم حكم نابليون الاستبدادي لهم، ولكنه الحكم المستبد المجدد، وكان الإيطاليون كافة متفقين على إلغاء البوليس والسجون، والرقابة على الصحف والكتب، والقيود على التنقل والسفر، ونظام التجنيد.

وكان الحلم الإيطالي هو الاتحاد من خلال طرد النمساويين بالقوة من لمبارديا والبنديفة، ولكن المشكلة كانت في كيف تنظم إيطاليا نفسها بعد تحررها، فالبعض يريد اتحاد تحت سيطرة البابا، والآخر يريد جمهورية مركزية، والآخر ملكية بدير سياستها، بيت سافوي الذي كان يملك في سردينيا، وإلى كل هذا يعود إخفاق الثورة الإيطالية، وعمت الفوضى والاضطراب في إيطاليا في هذا الوقت.

وجد الإيطاليون أن آمالهم في تحرير إيطاليا تستند إلى اعتلاء بابا حر المبادئ كرسي البابوية، وبعد وفاة جريجوري السادس المستبد، خلفه في صيف عام ١٨٤٦ بابا ينزع إلى الإصلاح، وينزع للكنيسة الحرية التي سادت النفوس آنذاك، وشاع أن بيوس التاسع أصدر أمراً وعفواً عاماً عن جميع الوطنيين الإيطاليين الذي كان قد حكم عليهم بالسجن لاتهامات سياسية.

واحتج على احتلال النمسا لـ (فرارا) Ferrara، وهي مدينة تقع في دائرة أملاكه، وألف حرساً مدنياً، واهتم بالإصلاح في أنظمة الحكم في بلاده.

وبدا البابا أنه المصلح في نظر الفلاحين، وملاك الأراضي، وشاعت حركة الإصلاح على يديه، وانضم إلى الحركة الوطنية بفضله كثير من المحافظين أنصار قضية إيطاليا، وترعرت الحركة القومية الإيطالية ونالت تأييد البابا ونصرته.

إلا أن رأس الكنيسة الكاثوليكية للروحي أن يستطيع في واقع الحال أن يشجع الحرب ضد الكاثوليكية الكبرى في أوروبا، وكان من بين الخطط التي وضعت وأقرها

إلى العملية لإنشاء اتحاد تعاهدي تحت زعامة البابا، ولهذا فإن الإيطاليين الوطنيين للمتحمسين والكاثوليك الوردعين كانوا يرون أن اتحاد إيطاليا لن يتم في عام ١٨٤٨ إلا بهذه الطريقة، وابتهجوا لأن الخطط الأخرى لحبطت في تحقيق ذلك.

وكان مبدأ للجمهورية عميق الجذور في إيطاليا، ولكنه كان مقصوراً على حكومات المدن، لا حكومات البلدان المركزية، وكان هذا سبباً للصراع السياسي أكثر مما ساعد على القومية والوحدة الوطنية، وكانت مهمة ماتزيني (Mazzini) (١٨٠٥-١٨٧٢) - وهو من أهل جنوة ومُسيّد البغض للاكليروس - أن يبذل أفكار الأمة الإيطالية، وفعل هذا بإخلاصه ووطنيته، وإيمانه المنقطع للنظر بوحدة إيطاليا، والجمهورية الإيطالية وهو المبشر بها، وأدرك أن شعبه لن يقبل حكم ملك مهما كان؛ لأن الأمر الملكية كانت فاسدة في نابولي وسردينيا، وأن للجمهورية هي جذيرة بإيطاليا.

واعتقد ماتزيني أن الحل في عام ١٨٤٨ يقوم على قوة الحرس، وعلى هداية الناس للعمل السياسي بدل استخدام القوة المطلقة، ولكن هذا الحماس الروحي رفع مستوى الوطنية في إيطاليا، وبث ماتزيني أفكاره رغم أن وجود النمساويين كان يحتاج غير هذه السياسة التي أعلنها.

وكان من غير المجدي الحديث عن الوحدة الإيطالية طالما أن النمساويين يحكمون لمبارديا والبندقية، وحوالي (٧٥) ألف جندي نمساوي في حصون الكوادريلاتيرال الشهيرة، وهي المدن المحصنة فيرونا وبشيز ولجانجو ومنثوا، وكانت تسيطر على الموقف في شمال إيطاليا.

وبينت الأحداث فشل هذه الفكرة، وهي وجود جيش مجرب وخبير أمام جنود غير نظاميين رغم ما يحملونه من مبادئ وطنية وقومية، وأن البندقية ونابولي ولمبارديا كلها لا تقوى على المواجهة الحقيقية وتحقيق النصر على النمساويين. مملكة سردينيا:

كانت هناك منطقة واحدة من الممكن أن ينضوي حولها قادة المقاومة في إيطاليا لمواجهة الجيش الأجنبي، هي مملكة سردينيا، وانضم ملكها شارل ألبرت إلى

حركة الولايات الإيطالية في خروجها على النمساويين، وأعلن الحرب على النمسا في الثالث والعشرين من مارس/آذار ١٨٤٨، وحقق عدة انتصارات ضد عدوه في بادئ الأمر، ولكنه لم يستطع أن يواصل لكي يطرد أعداءه من كل إيطاليا، وتمكّن العدو من تلقي الإمدادات وسحق قوات البندقية والولايات الإيطالية ولمبارديا، وضرب جيش ألبرت بقسوة في موقعة (كستزا) في الخامس والعشرين من يوليو/تموز ١٨٤٨، واضطر شارل إلى عقد هدنة (فيجفانو) في التاسع من أغسطس/آب ١٨٤٨.

إلا أن الحرب تجددت في الثالث عشر من مارس/آذار ١٨٤٩ بين الطرفين، فقد عامل النمساويون سكان الولايات الإيطالية - وخاصة لمبارديا - بقسوة بالغة، وكان ألبرت يتحرق شوقاً لفصل عار هزيمة كستزا، غير أن مسار الحرب خيب آمال الإيطاليين، فقد هُزم الجيش البيدمونتي في معركة نافا في الثالث والعشرين من مارس/آذار ١٨٤٩، واضطر الملك المهزوم للتنازل عن العرش لابنه فكتور عمانوئيل، ولجأ إلى البرتغال.

ومع أن ألبرت ترك ابنه بحكم مملكة خرجت من الحرب متعبة ومهزومة، ولكنه منحها في الرابع من مارس/آذار ١٨٤٨ دستوراً حراً، وظل حتى عهد موسوليني، ووضع أسس أحكامه، بحيث أصبحت في عهد كافور أشد الولايات الإيطالية تقدماً ونمواً.

أما في روما والبندقية، فإن انبعاث إيطاليا سار في طريق غريب، فإن إعلان بيونونو في التاسع والعشرين من إبريل/نيسان ١٨٤٨ صرح بأن البابا لا يستطيع أن يساهم في توحيد إيطاليا، وكانت النتيجة لهذا التصريح هي أن تحكم سلطة زمنية الولايات البابوية كجزء مكمل للدولة الإيطالية الموحدة. ولا يمكن أن تكون إيطاليا متحدة ويفصل بينها كيان وحاكم لا يرى ضرورة لحرب التحرير، وإن يكون مطلق اليد في تأييد العدو، ولذا البابا بالهروب إلى غيتا Gaeta بعد أن أصبح عاجزاً عن السيطرة على الوضع تاركاً للثورة في روما نحو قدرها.

وقد دُعيت جمعية تأسيسية في عام ١٨٤٩ سحبت السلطة الزمنية من البابا وأعلنت جمهورية في روما، وشكلت حكومة ثلاثية على رأسها ماتزيني لحكم روما

الجديدة، إلا أن هذه الخطوة للجريئة كان لا بد أن تواجه تحديات داخلية وخارجية، مثل تحدي الكنيسة الكاثوليكية والولايات الإيطالية الأخرى، وعدم قدرتها على قهر لويس بوناپرت في فرنسا الذي كان يريد كسب تأييد الفاضحين للكاتوليك في بلاده بتقديم للمساعدة للبابا، كما واجهها أمر التغلب على النمسا التي عقدت للعزم على استعادة نفوذها في إيطاليا، وقد حكم الفرنسيون بالفعل للجمهورية في الثلاثين من حزيران/ يونيو ١٨٤٩.

إن إنشاء للجمهورية الرومانية استبسل الإيطاليون في الدفاع عنها قد ألقظ في عقول الإيطاليين فكرة أن روما قد تصبح حاضرتهم السياسية، وظلت ماثلة منذ عام ١٨٤٨ حتى تحققت عام ١٨٧٠.

لما جمهورية البندقية فقد صممت في وجه النمساويين حتى الرابع والعشرين من أكتوبر ١٨٤٨، إلا أنها لم تقوَ على البقاء بعد هزيمة سردينيا في معركة نافار، وكوضح أن فشل الإيطاليين في روما والبندقية كان بسبب أن إيطاليا لن تستطيع الوصول إلى الاتحاد إلا بقوات مملكة سردينيا، ومساعدة فرنسا لا وفق خطة مانتروني. وقضي على للمبدأ للقاتل بالعزلة، وأنه يمكن ضرب جيش قوي ضربة قاصمة بيد ميليشيات جمهورية، وحلت روح جديدة من سياسة الحزب الإيطالي للوطني مكان للروح غير الذكية أو للفطنة التي جرت إلى هزائم عام ١٨٤٨، وللتروي في المسير نحو للجمهورية بشكل أعمى حتى حصل ذلك بعد عقدين من الزمن^(١٩).

الفصل السادس

الثورات في النمسا، ألمانيا،

البرتغال وإسبانيا

(١٨٣٠-١٨٤٨)

مكتبة جامعة القاهرة
مكتبة جامعة القاهرة

أولاً: الثورة في النمسا والمجر

كانت النمسا حكومة مستبدة وطبقية، بعيدة عن روح التقدم والنمو، ويتمتع فيها النبلاء بالامتيازات، والإعفاء من الخدمة العسكرية، والاستثناء من الضرائب وبعيدين عن سلطة القضاء والمحاكم، في حين كانت طبقة الفلاحين تعيش حالة من الفقر والتخلف والاضطهاد، وكان الأباطرة يتعاقبون على عرش النمسا الواحد بعد الآخر، ووصل الحكم إلى فرديناند (١٨٣٥-١٨٤٨).

وظلت مشاكل الفلاحين بدون حل، ولم يجد مترنيخ حلاً لها ولغيرها من المشاكل، وكانت تحكم البلاد شرطة قاسية وعنيفة، ولكن بدلت جمعيات تظهر إلى الوجود في العقد الرابع من القرن التاسع عشر، وتسربت رياح الحرية والمساواة من فرنسا وإنجلترا، وتقدم (الديت) المجري في برسمبرغ بطلبات من أجل الإصلاح الاجتماعي.

وتفاقم العداء العنصري في المجر للأجناس التي تقطنها من كروات وصرب في الجنوب، ورومان في الشرق، والروت في الشمال، والسلوفاك في الغرب، ولزادت الروح القومية، واتخذت نزعة سياسية تسعى للتطلع إلى المستقبل.

وكان قائد هذه الحملات هو لويس كوسو L. Kossuth (١٨٠٢-١٨٩٤) الخطيب المتميز والصحفي القدير، والذي دعا إلى استبدال المجرية باللغة اللاتينية في الديت المجري، وطالب باستقلال المجر وألهب مشاعر الناس في كل مكان، وظل يبشر بالقومية الراديكالية حتى بلغت الأوج في ربيع عام ١٨٤٨.

وأدت ثورة باريس في فبراير/ شباط إلى القضاء على حكومة النمسا، أدى للشغب في الثالث عشر من مايو/ أيار ١٨٤٨ من قبل سكان فيينا إلى انتهاء حكم مترنيخ، ووقوع فيينا في يد اللغوغاء، وسمت للفوضى البلاد.

وبدلت تظهر مشكلات حكم الإمبراطورية النمساوية ذات الطوائف المتعددة، واستسلمت الأوتوقراطية للمستبدة، وأبعد الوزراء القدامى، وحكمت لجنة مركزية للدفاع عن حقوق الشعب، وانتُخب بالاقتراع العام برلمان النمسا عدا للمجر، وعمل البرلمان على إصدار الدستور.

وهبت الحرية على الأراضي النمساوية، والرغبة في إنشاء حكومة دستورية، ونيل الحريات المدنية، ورفع الظلم عن الفلاحين، ووُضعت نهاية للحكم الاوتوقراطي، ولاحت بشائر التحول الشامل في النمسا على نمط حرية دستورية مع الأمل في المستقبل.

وشاع في براغ وبرسبرغ وفيينا هذا الأمل القوي في إجراء الإصلاحات العامة، وأخذ زعماء الثورة عام ١٨٤٨ يعالجون مشاكل الفلاحين، فألغوا السخرة والفوارق القانونية بين النبلاء والعامة، وطرحوا المسألة الدستورية على بساط البحث والمناقشة، وظهر صراع وتنافس بين الطوائف والأعراق في بناء الدولة للنمساوية الجديدة، وكانت البلاد غير قادرة على مقاومة هذه التطورات الكبيرة. ومنحت للحكومة المجرية المؤقتة حق السيطرة على جيشها وسياستها الخارجية، ووعد البوهيميون بمنحهم البرلمان المستقل، والهيئات المحلية المستقلة.

وكان الكثير من الألمان في الإمبراطورية النمساوية يرضون بتحويل سلطة للدولة من الوزراء إلى البرلمان الحر الذي تنتخبه دائرة واسعة من الناخبين طالما ظلت إدارة السياسة في أيدي الألمان، والبعض منهم كان يريد انفصال هنغاريا عن النمسا، لو تنفيذ دستور بخول سلاف الإمبراطورية السلطة التي تتناسب مع أعدادهم، وقد يقبل الألمان أن يقيم البوهيميون حكومة دستورية في مقاطعاتهم، إلا أن الواقع يشير أن الألمان لم يكونوا يرغبون بالقبول في إنشاء اتحاد من جميع الأجناس السلافية، لأنه يعني انحلال الإمبراطورية بشكل عاجل.

لما الحكم الذاتي للمجر، فكان الألمان والنمساويون ينظرون إليه نظرة مختلفة، وكان المجريون دوماً جيشاً حاسماً لم يخضع للأجنبي، وكان يرى الآخرون (الألمان والنمساويون) أن تجنيد جيش مجري مستقل، وصك عملة مستقلة، ورسم سياسة خارجية أيضاً بمثابة ضربة لوحدة الإمبراطورية، ولهذه الأسباب فشلت الثورة في الإمبراطورية النمساوية.

وفي صيف عام ١٨٤٨ صوب الأمير فرنشجراتز قوته صوب مدينة براغ، وسحقها بقوة، ومعها بوهيميا المتمردة، ولم يمنح بذلك الفرصة لاستقلال تشيكيا،

وساعد هذا الانتصار في تشجيع الإمبراطورية مع انتصارات أخرى في نابولي وروما، وتوجّه الإمبراطور لحل ملكة المجرين، وجاء العون له من السلاف والرومان، إذ كانوا يكرهون أسيادهم المجرين الذين حكموا بلادهم طويلاً.

وكانت كراهية الكروات هي للطاغية في المملكة المجرية، وكان السلاف جيرانهم يحقدون على النبلاء المجرين، وقد رفع الدين الكرواتي في عام ١٨٤٨ الكثير من الاحتجاجات على إلزام الكروات باستخدام اللغة المجرية، ولتبع ذلك للحكومة النمساوية سياسة مأكرة بتأليب الكروات على المجرين، ودعوة للسكان للسلاف والرومان إلى أن يسندوا بالربا ديون المظالم.

وتجسدت كراهية الكروات للمجر في يوسف بلاسيك J. Jellacic، وهو ضابط في الجيش النمساوي، وكان يريد إرغام المجرين على القتال، وتحطيمهم في ساحات المعارك، وإعادة سلطان الإمبراطورية إلى بلادهم، ولدركت حكومة الإمبراطورية أهمية مكانة بلاسيك في وسط جنوده الكروات الذين يقاتلون معه في إيطاليا، ولذا عينه حاكماً على كرواتيا رغم احتجاج زعماء المجر، فزحف على (بست)، وأدرك للمجريون أنه لا بد من القتال ومواجهة الأعداء، وسيطر قوسوط وتباعه على الحكم فيها، ورغم محاولة أهل فينا أن يقدموا العون والمساعدة للمجرين، إلا أن قوات الإمبراطورية قمعت الثورة في فينا، في حين كان الكروات يهزمون في (اشفيشات) في الثلاثين من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٨ للقوات المجرية.

وتخلصت الإمبراطورية النمساوية من خطر التقسيم، وتزامن هذا مع ظهور سياسي محنك سعى إلى توحيد كلمة الدولة، وهو الكونت فلكس شفارتزنبرج F. schwarzenberg، وخلال ثلاثة أعوام (١٨٤٩-١٨٥٢) تمكن هذا الرجل للطموح الأرستقراطي من إرغام الإمبراطور فرديناند على التنازل عن العرش، ولجلس ابن أخيه فرنسيس جوزيف محله، وحطم بمساعدة جيش روسي ثورة المجرين، لكي يعيد تفوق الإمبراطورية النمساوية للقديم في الاتحاد الألماني القائم وفق معاهدة عام ١٨١٥^(٢٠).

ثانياً: الثورة في ألمانيا

لما في ألمانيا، فقد اتخذت نزعة ثورية، مثل النمسا وإيطاليا في سبيل تحقيق الوحدة والحرية، وكان معظم الألمان في عام ١٨٤٨ مصلحين، ويدعون إلى الوحدة الألمانية، إلا أنهم مدركون بأن ألمانيا لا تستطيع أن تتوحد وفق المبادئ الحرة، إلا عن طريق برلمان ينظم الأمة الألمانية كلها، ويُنتخب انتخاباً حراً، ويستقل استقلالاً كاملاً عن الدين الألماني الذي فرضه على البلاد مؤتمر فيينا.

وتشجع الزعماء الألمان الأحرار في عزل لويس فيليب، ودعوا برلماناً تمهيدياً للاجتماع في فرانكفورت لاعداد جمعية وطنية، على أساس أن تتوصل إلى ألمانيا جديدة، وعقدت الجمعية في الثامن عشر من مايو/ أيار ١٨٤٨ من شخصيات ألمانية بارزة، وفيها الحماس والطموح من أجل توسيع سلطة ألمانيا بعيداً عن النير الأجنبي، وأخرجت دستوراً ديمقراطياً لألمانيا المتحدة.

إلا أن هذه الجمعية فشلت فشلاً تاماً في تمثيل طبقات النبلاء والعمال وأصحاب المصالح الكبرى في الأعمال والعمال، وأدرك برلمان فرانكفورت أنه لن يستطيع للتقدم وإنجاز أعماله بالمشاورات الفردية مع كل حكومة علماً أن هناك (٢٨) حكومة في الاتحاد الألماني. وإن فرض الاتفاق سيكون هناك صعوبة، وأنه لا بد من وضع دستور للدولة الألمانية الجديدة، لأنهم ممثلون للأمة الألمانية، وبعد أن قررت الجمعية لقضاء للنمسا من الاتحاد القائم عقدت العزم على دعوة ملك بروسيا القوي لتولي تاج الاتحاد؛ لأنه الوحيد القادر على الدفاع عن هذا الاتحاد.

لكن ملك بروسيا فريدريك وليام الرابع (١٨٤٠-١٨٦١) لم يكن على دراية واسعة بالسياسة، ويميل إلى المثالية والخيال، فاعتنق مذهب الحق الإلهي للملوك في الحكم، وأخذ يتلاعب بالأفكار الحرة والإصلاحات الدستورية منذ توليه العرش عام ١٨٤٠، ولم ينفذ أية مقترحات رفعت إليه من قبل الإصلاح، ثم لجبرته قوة الرأي العام لأن يعقد في برلين في فبراير/ شباط ١٨٤٧ أول برلمان بروسي (ديت).

واجتمع البرلمان، ولادعى لنفسه حق من القوانين، ومراقبة مالية للدولة،

والتصديق على القروض للعلماء، فكانت هذه مزعجة لفرديك ولليم، فما كان منه إلا أن حل البرلمان، إلا أنه واجه أزمة كبيرة في مارس/ آذار ١٨٤٨ مع للفوضى والاضطراب والفتن، وقُتل العديد من الناس في الشوارع في برلين من جراء رفض الإمبراطور منح الشعب الإصلاحات المطلوبة، ولكنه قرر أخيراً وقف للقتال ووعد بدعوة للبرلمان، وسار في الحادي والعشرين من مارس/ آذار في الشوارع، وأعلن أن بروسيا ستجتمع لليوم في ألمانيا الكبرى.

وأخذ الملك يراقب استياء الناس وحولت الشعب، وقرر بأن يضرب بقوة، فعزل وزراءه الأحرار، وحل للحرس المدني، وفض للبرلمان بدعم من جيشه للقوي، وبامتلاك الطبقة الوسطى التي لم تستطع أن تواجه هذه القوة.

وآثر الملك أن لا يتقاهم مع برلمان فرانكفورت، وأن يظل سيد بروسيا الوحيد، وأن يدمر الحيازات فرانكفورت، ويقضي على المشروعات التي ترمي إلى قيام ألمانيا الموحدة، وتمكن الجيش من سحق الفتن في سكسونيا وبادن وهانوفر، وكسب بذلك اعتراف جميع الأمراء الألمان بتأكيده لهم بالإبقاء على عروشهم.

وبعد أن هدأت الثورة، أصبح للملك البروسي أمام سفارتزنبيرغ سيد النمسا، فقامت مواجهة بين السيدين، أسفرت عن هزيمة بروسيا سياسياً، لأن فرديك افترض أن للنمسا أصبحت خارج الاتحاد أو للرايخ، وأن بإمكانه الآن أن يكون سيد للولايات الألمانية، وينشئ اتحاداً ألمانياً جديداً تحت زعامة بروسيا، واقترح انعقاد للبرلمان الاتحادي في لرفرت، ووضع دستوراً اتحادياً يضم تحت رايته (٢٨) ولاية من الولايات الألمانية الصغيرة، رغم أنه فشل في ضم مملكة واحدة من للممالك الألمانية الأربع.

ولكن سفارتزنبيرغ رفض رفضاً قاطعاً هذه السياسة، أو أي مشروع يقضي بإقصاء النمسا من ألمانيا، وأصر على إرجاع الدين الألماني تحت زعامة النمسا، وطلب من روسيا التخلي عن عصبتها الجديدة من الأمراء، وتوعد بالحرب إذا ما هي رفضت الأمر، وفي هس وقعت للنمسا كوكيلة عن للدين الألماني لتقديم إلى جانب

الأمير المستبد، وناصرت بروسيا رعاياها المظلومين، وكانت لن تشب حرب بين المتنافسين، إلا أن فردريك رأى أن جيشه ليس ذا كفاءة ومقدرة لمنازلة خصومه، واضطرت بروسيا إلى صلح في ألماتز Olmitz في الخامس والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٥٠ بتسليمها بالكامل بمطالب للنمسا.

وكان يرافق للوضع شاب من بوميرانيا عضو في برلمان برلين، عرف بقوة الحجة، ورجاحة الرأي، وفصاحة اللسان، وله نفوذه الذي تفوق فيه على الوزراء، وهو أوتو فون بسمارك O.V. Bismarck من أعظم شخصيات بروسيا، وجمع في شخصيته جميع الصفات للسياسي الداهية، وهو يبغى إقامة لاتحاد ألماني دون للتضحية بالملكية البروسية أو الجيش البروسي، ولم يكن من الساسة الذين يقدون للديمقراطية الإنكليزية تقليداً أعمى، وإنما بالنظام العسكري الصارم. ولم يكن يطبق فكرة وجود برلمان يعطى سلطة ملك بروسيا، وأن يحرك الجيش البروسي للدفاع عن مصالح البلاد، وخالف آراء من أيد الصلح مع النمسا؛ لأنه مهما كان فهو صلح مهين ومزر للبلاد.

ثالثاً: المنافسة النمساوية - البروسية

مع بروز بسمارك على الساحة السياسية تطورت المنافسة بين النمسا وبروسيا، والتي تعود أساساً إلى عام ١٧٤٠ حينما انتزع فردريك الثاني سيليزيا من ماريا تريزا، إلى أن تطورت إلى نهاية عنيفة في (سادوا) عام ١٨٦٦، حيث هزم البروسيون النمساويين، وفك الرايخ الألماني قيوده من سيطرة النمسا القديمة، وتمكن البروسيون أن يتخلصوا من سيطرة مترنيخ على الرايخ الألماني.

ورغم مزايها وفضائل مترنيخ، إلا أنه ارتكب أخطاء، أبرزها تشديد الإمبراطورية للنمساوية على القمع القومي، ولها احتوت - أي الإمبراطورية - على اتحاد سياسي وديني يضم عدة قوميات وطوائف، كانت للعدوة بينها أقوى من وحدة الإمبراطورية. ولذلك قرر مترنيخ عدم المجازفة بشيء، وأن يبقى الأمور على حالها دون تغيير جذري في إيطاليا والمجر وبوهيميا وبلاد السلاف وأراضي للتاج للنمساوية

في ألمانيا، ولم يسع إلى إدخال إصلاحات أو تجديد في روح الإمبراطورية، وكان للمبدأ السائد هو الطاعة والخضوع للعرش فحسب، ولم يكن هناك برلمان حر، أو صحافة حرة، أو جامعة أو إدارة حكومية مستتيرة.

وعلى العكس من النمسا كانت بروسيا أكثر وحدة وكفاءة وتقدماً في الصناعة ورأس المال، والتقدم التجاري إلى حد ما.

وتشكل الاتحاد للكمركي عام ١٨١٨ على يد وزير المالية البروسي ماسن Massan لجمع الممتلكات البروسية المشتتة، وجذب جميع الولايات الألمانية إلى الانضمام للاتحاد للكمركي، ووضعت بهذا العمل أسس دولة ألمانية متحدة تحت هيمنة بروسيا.

وظهرت مزايا أخرى لبروسيا جعلتها تصبح مركز زعامة الأمة الألمانية، فقد كانت للنمسا كتلة غير متجانسة من ولايات متعددة، ولديها مشكلات داخلية صعبة، في حين أخذت مصالح بروسيا تتركز نحو للريخ الألماني نفسه على حين أن سياسة مترينخ في النمسا كانت موجهة نحو قمع الميول القومية والحرية في البلاد، والحفاظ على السلطة الملكية المطلقة، والكنيسة المطلقة بواسطة نظام بوليس شديد، فإن سياسة بروسيا كانت مشبعة بروح التقدم العلمية.

فإن مذهب الدولة ذات القدرة والسلطان شاع بين البروسيين، وتأثروا بأفكار ومبادئ هيجل الفيلسوف الألماني، ونولوى مبدأ اللطفيان والاستبداد نحو المصلحة العامة، والدولة بنظره هي الله، لهذا فعلى الناس أن يعملوا في كل الظروف من أجل بناء الدولة^(٢١).

رابعاً: الثورة في المستعمرات الإسبانية والبرتغالية

كان من نتائج حروب نابليون في أوروبا قسم العرى التي تربط إسبانيا والبرتغال وملكهما عبر للبحار، ثم إن قيام الولايات المتحدة بعد حدثاً من أعظم أحداث القرن الثامن عشر، ثم تحرر أمريكا الجنوبية والوسطى في الربع الأول من القرن التاسع عشر من سيطرة أوروبا.

أزاح أهل المستعمرات البريطانية عن كاهلهم نير المملكة، ولوقع نابليون للضربات الأولى في إسبانيا والبرتغال، وكانت حجة الأمريكيين الشماليين لإعلان الثورة أيضاً هو فرض الملك للضرائب غير القانونية أو الدستورية.

لقد كان للأسبان مساوئ، مثل نظام السخرة في مناجم بيرو، والاعمال العامة في المكسيك، ولكن للسلام والأمن كانا في ظل حكم الأسبان مثاليين، وعلى جميع أراضيهم وممتلكاتهم، وكان الناس الذين هم من أصول إسبانية أو هندية أو زنجية، كلهم يخضعون لنظام واحد مشترك من الأنظمة الحاكمة والدينية.

وقد نشر الأسبان - بحق - السلام لفترة طويلة بعد عصر من الحروب المضطربة بين دولها المختلفة، وبعد قيلم للفن والثورات الداخلية، فكانت أمريكا الجنوبية خلال حكم الأسبان والبرتغال أفضل من قبضة للعناصر الأوروبية على زمام السلطة في دولتها.

وكان يُنظر إلى المستعمرات الإسبانية على أنها ضياع ملكية، والإقامة فيها تعد امتيازاً لا يمنح إلا لابن خاص من صاحب التاج الإسباني، وكانت هناك فكرة لإياد السكان للهنود الأصليين، أو جعل أمريكا الجنوبية بلداً إسبانياً حقاً يسكنه الأمريكيون الأسبان، وتغرب الأسبان إلى المستعمرات، وكان قولا للنتاج الإسباني من طوائف الرهبان، وخاصة الجزويت، ولذا فقدت المستعمرات عند طردهم عام ١٧٦٨ لقوى وسائل التعليم التي غرست في النفوس وجوب الطاعة للعرش الإسباني، وأضعف طرد هذه الطوائف من المستعمرات الإسبانية الولاء من تلك المستعمرات الإسبانية.

وقد تأثرت إنكلترا بتقديم العون الإسباني من قبل للمستعمرات الإنكليزية الأمريكية في ثورتها في القرن الثامن عشر، وأنت إنكلترا دوراً كبيراً في تحرير أمريكا الجنوبية من حكم الأسبان والبرتغال، وحطم الأسطول الإنكليزي الجزء الأكبر من الأسطول الإسباني في معركة الطرف الأغر عام ١٨٠٥، وحينما غزا القائد الفرنسي جينو Juno للبرتغال عام ١٨٠٨ نقل الأسطول البريطاني الأسرة للملكة

البرتغالية إلى المنفى في البرازيل.

وكان أول حافز للأرجنتين على الثورة ضد الأسبان هو نزول حملة بريطانية في بوينس آيرس عام ١٨٠٦، وكان للقائد (كثريين) هو الذي طرد الأسطول الإسباني من المحيط الهادي، وساعد في تحرير تشيلي عام ١٨١٨، ثم بيرو عام ١٨٢٤.

وكانت قوة إنكليزية مؤلفة من ستة آلاف من المغامرين هي التي كونت الجيش الذي بواسطته أوجد بوليفار جمهوريتي فنزويلا وكولمبيا عام ١٨٢١، وكان سيامي إنكليزي هو جورج كاننج الذي أعلن عام ١٨٢٣ تصميم إنكلترا للقاطع على الاعتراف باستقلال جمهوريات أمريكا الجنوبية المحررة، ودعا العالم الجديد إلى النهوض والنمو، وعندما توفي عام ١٨٣٠ بوليفار كان جنوبي الكرة الغربي قد قُسم إلى عدة جمهوريات مستقلة.

وعندما توقف الإنكليز عن القتال، واصله الأمريكان وضموا ولايتي كاليفورنيا والمكسيك الجديدة إلى بلادهم عام ١٨٤٨، ثم كوبا والفلبين بعد نصف قرن. إن فقدان إسبانيا لمستعمراتها لم يؤثر عليها اقتصادياً بشكل كبير، فقد تضاعف عدد سكانها، وزالت ثرواتها للدخيلة، وتلاشت إسبانيا التي ظهرت في العصور الوسطى.

فقدت إسبانيا وارثات للمستعمرات التي تؤلف عنصراً أساسياً من ميزانية الملكية الإسبانية القديمة، مما جعل فرديناند السابع وخلفاءه يولجهمون أزمات كثيرة، وأجبروا على فرض ضرائب على الكنيسة لدفع رواتب الجنود، وكان ينظر إلى الكنيسة في إسبانيا على أنها جزء من السلطة المطلقة للمركزية.

إن عودة فرديناند عام ١٨١٤ أكدت صعوبة إقامة حكومة أحرار في هذا البلد الكاثوليكي، والتأم (كورتس) في فالنس عام ١٨١٢ خلال حرب شبه الجزيرة الأيبيرية، ووضع دستوراً، ولمكن للأفكار الحرة أن تجد لها موضع قدم لدى الجيش ومدن الساحل، وظهر رجال اسبان يريدون صحافة حرة، وتسامحاً دينياً، ويريدون للحكم الدستوري، ولكن مع عدم ظهور فرصة لإقامة نظام نيابي في ظل هيمنة

قوى مادية واجتماعية في المجتمع.

وحكم إيزابيلا (١٨٣٣-١٨٦٨) كان سلسلة من الدكتاتوريات العسكرية رغم القالب الدستوري، والجمهورية الإسبانية الأولى (١٨٧٣-١٨٧٤) التي يؤيدها اميليو كستلار قد انهار لنصارها.

فإن عودة آل بوربون الاسبان إلى الحكم عام ١٨٧٤ أوقف اندفاع الشعب نحو الحياة الدستورية وحرية الشعب البرلمانية، رغم وجود دستور غير واقعي، فإن الانتخاب والدستور لم يساعد في خلق حياة برلمانية حقيقية، فقد شُلت يد البرلمان عن العمل في الأزمات المتلاحقة، وحُرمت الحكومة من كل سلطة لرسم سياسات واسعة لفائدة البلاد.

حاول فرديناند السابع ان يحو استقلال أهل إقليم الباسك والمؤيدين للحكم المطلق والخاصين للكليروس، وأصدر سلسلة مراسيم بين سنتي (١٨٢٨-١٨٣٣)، ولكن التمردات المتتالية والفتن كادت للحكومة صعوبة حل هذه المشكلة بمثل الكيفية التي وضعتها، وأدى عناد السكان إلى فشل إسبانيا بسحق قطالونيا، ووُجد للفونسو الثالث عشر والجمهورية الاسبانية الثانية مرغمين للاعتراف بمطالبهم.

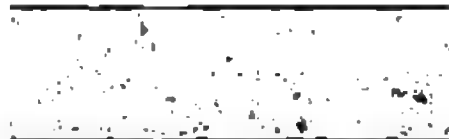
اما الروح الإقليمية لأهل الباسك، وهم شعب قليل العدد ويسكن جبال البرانس، فقد برزت إلى الوجود، وصارت قوة يحسب حسابها لارتباطها بدعوى (دون كارلوس) واسرته بأنهم يمثلون الفرع الشرعي لبيت بوربون الاسباني، فإن للحرب التي قامت بين دون كارلوس وبنات أخيه إيزابيلا التي اعتلت العرش عند وفاة أبيها فرديناند السابع عام ١٨٣٣، أدت إلى وجود هذين الفريقين وعداوة الباسكيين للقشتاليين، وكان الكثيرين قد ناصروا دون كارلوس الذين مثّلوا الأوتوقراطية الرجعية.

وقد فقدت إسبانيا المكانة العالمية، ففي ظل حكم بيت بوربون صارت إما تابعة لفرنسا أو حليفة لها في صراعها ضد بريطانيا، وخرجت إسبانيا من حروب الثورة الفرنسية وقد أنهكت، ولم يعد بمقدرتها استعادة المستعمرات الأمريكية،

وتوالى عليها حكام، من فرديناند السابع، إلى كريستينا، ثم إيزابيلا، وفقدت إسبانيا
مساكن واسعة من ممتلكاتها، وتدهور فيها النشاط والحيوية والقومية^(٢٢).

الفصل السابع

الثورة الصناعية



أولاً: التعريف

الثورة الصناعية ببساطة هي عبارة عن التطورات التي شهدتها الصناعة في بريطانيا في منتصف القرن الثامن عشر وبعض الدول الأوروبية الأخرى في القرن التاسع عشر، والتي أدت إلى تغيرات شاملة في الصناعة، وتحقيق زيادة كبيرة في الإنتاج، وظهور الاختراعات وفروع للصناعة المختلفة، وخاصة الغزل والنسيج والفحم، وتوليد القوى المحركة، وصناعة الحديد، وترتب عليه زيادة في الإنتاج هائلة وتكوين رؤوس الأموال.

وبدأت هذه التطورات بطيئة وتدرجية بين (١٧٧٠-١٨٣٠)، ثم تقدمت حتى عام ١٨٧٠ لكي تنتقل من الصناعة إلى الزراعة والنقل والبحرية وسواها.

ثانياً: بريطانيا الصناعية

لم تنشأ الثورة الصناعية مرة واحدة في أوروبا لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية، فقد تباينت من بلد لآخر، وقد سبقت بريطانيا الدول الأوروبية في دخول ميدان الثورة الصناعية، ولعل أهم الأسباب في ذلك هي:

توفر رأس المال من التجارة البريطانية الواسعة، والحصول على المستعمرات العديدة، ثم للزراعة ذات الطابع للرأسمالي، ومع زيادة الطلب على الأقمشة للصوفية اهتم كبار ملاك الأراضي بتحويل الأراضي للزراعية إلى مراعي لتربية الأغنام، ودمج الأراضي للزراعية وتسييجها، وقيام استثمارات زراعية كبيرة تتبع الإنتاج للرأسمالي، وزيادة إنتاج المحاصيل الزراعية، وأدى تراكم رأس المال إلى استثماره من جديد وتحقيق أرباح كبيرة إضافية، ودفع عجلة الاقتصاد إلى الأمام، وساعد في هذا إنشاء بنك إنكلترا عام ١٦٦٤ الذي أسهم في تسهيل الائتمان وجمع المدخرات والتحويلات والتمويل وتوسيع للتجارة والصناعة.

ثم توفر الأيدي العاملة للرخيصة في بريطانيا منذ منتصف القرن الثامن عشر بسبب زيادة السكان من جهة وهجرة عمال لوروبيين إليها من جهة أخرى، ثم إن عملية التسييج التي قام بها الفلاحون الصغار أدت إلى هجرة عدد كبير من الفلاحين - الذين أصبحوا بلا عمل - نحو المدن للبحث عن فرص للعمل، وعملوا بأجور زهيدة،

وتنافس للرجال والنساء على كسب العمل وبأجور بسيطة، ولدى توفر الأيدي العاملة الرخيصة إلى ضمان أرباح عالية للرأسماليين، واستقلوا منها في مشاريعهم الصناعية. أما المولد الأولية، فكانت متوفرة في بريطانيا بكميات كبيرة من الفحم الحجري والحديد، وكانت له أهمية في الصناعة، وأصبح الوقود الصناعي هو الرئيسي، ومصدراً للطاقة والحرارة، وساعد على صهر وتنقية الحديد من الشوائب، وازداد إنتاجه، وأصبح من الممكن صناعة الآلات والمكين بكميات كبيرة.

وكان توفر الأسواق الداخلية والخارجية قد ساعد على زيادة الطلب على السلع، وزيادة الطلب حفز بدوره على زيادة الإنتاج إذا ما توفرت الظروف المناسبة، وكانت بريطانيا في أواخر القرن الثامن عشر لديها أسواق مفتوحة إما محلية، كما في إنكلترا واسكتلندا منذ عام ١٧٠٧ بموجب قانون الاتحاد في العام نفسه، ولدى إلى سوق مفتوحة حرة من دون التعرفة للكمركية، وانضمت إليها أيرلندا عام ١٨٠٠، أو أسواق خارجية، وهي التي وفرتها المستعمرات البريطانية فيما وراء البحار، وكان لبريطانيا علاقات تجارية مع دول كثيرة في العالم.

كما ان انشغال دول لقارة الأوروبية بحروب للثورة الفرنسية والحروب النابليونية قد هباً مجالات لوسع أمام التجارة للبريطانية، وقد سهل التجارة للوسعة على بريطانيا مع امتلاكها أسطولا تجارياً وبحرياً وحربياً بعد من الأكثر تقوفاً في العالم.

ويمثل الاستقرار السياسي أحد العوامل المهمة، خاصة ان دول مثل فرنسا وألمانيا كانت تمتلك مقومات للصناعة للمطورة، ولكنها تفتقر إلى الاستقرار السياسي، ومن ثم لم تحقق للتنمية الصناعية مثل بريطانيا، وكانت الأوضاع السياسية في بريطانيا قد استقرت منذ الثورة للجليلة عام ١٦٨٨ التي أدت إلى استقرار الملكية والبرلمان والكنيسة، وتفتت الأحزاب السياسية ونظام مجلس الوزراء والحياة للبرلمانية والشعب، الأمر الذي جنب بريطانيا للثورات والانقلابات والحروب الأهلية، وكان هذا الاستقرار قد ساعد على توفير الحرية الاقتصادية والحرية السياسية والتسامح الديني، وترتب عليه إضعاف للثقافات الحرفية التي عدت عائقاً أمام الابتكار والتقدم للصناعي.

وأصبحت بريطانيا مركزاً للجماعات المضطهدة في أوروبا، ولجأ إليها لليهود

والفلمنكيون سكان بلجيكا، وأقاموا أنشطة صناعية وتجارية نشطة، كما ولجأ إليها البروتستانت الفرنسيون نتيجة اضطهادهم من الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا، وشكلوا طبقة منتجة نشطة، وأقاموا صناعات هامة في بريطانيا.

ويعد العامل الجغرافي في بريطانيا عاملاً مساعداً في توفير ظروف ملائمة لصناعة الغزل والنسيج نتيجة كونه مناخاً رطباً، ثم إن موقعها للجغرافي في وسط المحيط الأطلسي ويفصلها عن أوروبا بحر المانش جعل أراضيها بعيدة عن الحروب والصراعات الأوروبية، وخاصة في ظل الحروب الفرنسية والابليونية، ثم إن موقع بريطانيا كجزيرة مع وجود أسطول كبير وقوي سهل عليها الاتصالات بقارات العالم، والتجارة معها بحراً بسهولة.

وكان القانون الإنكليزي قد حافظ على حق الاختراع والتملك، كما ظهرت مؤسسات علمية عدة، مثل جامعتي كلاسكو ولنبرة، وكان هناك اهتمام كبير بالعلوم النظرية والتطبيقية، ومنحت الجمعيات العلمية مكافآت مالية للمخترعين، كما اهتم أصحاب رؤوس الأموال بالاختراعات الحديثة، وأبدوا استعدادهم لتطبيقها واستثمارها، وكان هذا التشجيع والطمئنان للمخترعين إلى أن اختراعاتهم ستدخل في حيز التطبيق قد دفعهم لمواصلة العمل والجهد في ميدان الابتكار والاختراع.

ساعدت العوامل السابقة مجتمعة في نشوء الثورة الصناعية في بريطانيا دون غيرها من دول القارة الأوروبية، وقد تقتصر هذه الثورة في بادئ أمرها على صناعتي النسيج والتعدين، وأصبح إنتاج المنسوجات للقطنية في بريطانيا عام ١٨٢٠ عشرة أضعاف ما كان عليه عام ١٧٨٩، ثم ارتفع إلى عشرة أضعاف أخرى عام ١٨٥٠ عما كان عليه عام ١٨٢٠، وزالت صلاحيات النسيج من ٣٥٥ ألف جنيه إسترليني في عام ١٧٨٠ إلى ٥,٤ مليون جنيه إسترليني في عام ١٨٠٠، كما ازداد في الوقت نفسه إنتاج الحديد والفحم الحجري أيضاً، فقد ارتفع إنتاج الحديد من ٥٦ ألف طن متري عام ١٧٤٠ إلى ٣,٨ مليون طن متري عام ١٨٠٠، وارتفع إنتاج الفحم الحجري من ١٠ مليون طن متري عام ١٨٠٠ إلى ٣٥ ألف طن متري عام ١٨٤١.

يعود إنتاج النسيج والفحم الحجري والحديد إلى جهود المخترعين الذين

ابتكروا وسائل وتقنيات جديدة، فقد اخترع جون كي J. Kay آلة النسيج المعروفة بـ (المكوك للطائر) في عام ١٧٣٣، وجيمس هاركريفز J. Hargreaves مخترع آلة الغزل المعروفة باسم زوجته جيني في حوالي عام ١٧٦٧، وريتشارد أركرايت R. Arkwright الذي اخترع عام ١٧٦٩ آلة الغزل القطني التي يديرها حصان، ثم استخدم الماء في إدارتها. وصموئيل كرومبتن S. Crompton الذي قام باختراع آلة غزل سماها (البغل) في عام ١٧٧٩، وهي آلة متطورة مثل آلة جيني وللجهاز المائي، ثم لأموند كرايتريت E. Cartwright الذي اخترع ماكينة نسيج تعمل بقوة الحصان، ثم بقوة البخار في عام ١٧٨٩.

أما التعدين فكان أبراهام دربي عام ١٧٣٥ هو الذي أدخل الحجر محل فحم الخشب في صهر الحديد، والمخترع كوت نال براءة اختراع (١٧٨٣-١٧٨٤) عن طريق تخليص الحديد من الكربونات المعلقة بالمعدن بواسطة الأوكسجين والنفخ الحجري لكي يكتسب المرونة الأكبر^(١٢).

ثالثاً: الصناعة في الدول الأوروبية

وبرز اسم نيوكمن Nowcomen الذي اخترع المحرك البخاري في أوائل القرن الثامن عشر لامتصاص المياه من المناجم التي كانت تعرقل عمليات استخراج المعادن، ثم طور هذا المحرك جيمس واط J. Watt في عام ١٧٦٩، واخترع واط عهداً جديداً في صناعة الآلات الميكانيكية البخارية، ثم جاء من بعده مخترعون طوروا الماكينة، مثل استعمالها في البواخر منذ عام ١٨٠٧، وتسيير القاطرات الحديدية منذ عام ١٨٢٥.

لقد انتشرت الثورة الصناعية في بريطانيا إلى بقية الدول الأوروبية، فبلجيكا التي استقلت بعد ثورة ١٨٣٠ كانت أول دولة أوروبية تستفيد من بريطانيا في التصنيع باستخدام الخبرات الفنية والإدارية البريطانية.

أما فرنسا فقد قامت فيها الثورة الصناعية منذ عشرينات القرن التاسع عشر، إلا أنها لم تدخل المرحلة الحاسمة في تطورها الصناعي إلا في منتصف القرن التاسع عشر، وكانت سياسة حكومة لويس فيليب، ثم نابليون الثالث قد أثرتا في ذلك أيضاً،

وسجل انتاج الحديد ثلاثة أضعاف بين (١٨٥١-١٨٦٩)، وازداد إنتاج الفولاذ ثمانية أضعاف في هذه الفترة، وازداد استخدام الآلات البخارية من ٧٧٠٠ آلة إلى ٢٧٠٠٠ آلة، ولكن بقيت فرنسا متخلفة في مضمار الصناعات الثقيلة، وكان هذا هو أحد أسباب هزيمتها في الحرب السبعين مع ألمانيا (١٨٧٠-١٨٧١).

أما ألمانيا فقد جاء تطورها الصناعي بعد بريطانيا وفرنسا نتيجة عوامل عدة، من بينها الافتقار إلى الوحدة السياسية التي لم تتحقق إلا في عام ١٨٧٠، فقبل أن تتحقق للوحدة الألمانية كانت البلاد مقسمة إلى عدد كبير من الولايات والدول المستقلة، فيها عملات وأسواق ورسوم كمركية مختلفة، ثم إن مناجم الفحم والحديد فيها كانت في أطراف البلاد، وليست في مراكز الاستيطان من جهة أو للموانئ من جهة أخرى، مثال مناجم الفحم في الرور Ruhr، وسيليزيا Silesia، فضلاً عن ذلك كانت ألمانيا تفقر إلى وسائل المواصلات والنقل ورأس المال لأنها لم تكن غنية، ثم بعد أن تخلصت من المشاكل هذه دخلت ألمانيا عصر الثورة الصناعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، واستطاعت أن تتفوق على فرنسا التي سبقتها في هذا المجال.

عدا هذه الدول، فقد ظهرت بعض المناطق الصناعية الصغيرة في منتصف القرن التاسع عشر في السويد وإيطاليا وسويسرا والنمسا، وظهرت بدايات الثورة الصناعية في روسيا القيصرية، وبصورة خاصة في الأجزاء الأوروبية من الإمبراطورية الروسية مثل بولندا، منذ أواخر القرن التاسع عشر، ويمكن تأخر روسيا بتخلف مؤسساتها الاجتماعية والسياسية، وتباعد مناجم الحديد والفحم فيها، وافتقارها لطرق النقل والمواصلات الحديثة، وأيضاً قلة رأس المال الضروري للصناعة، ولم يستخدم سوى رأس المال الأجنبي لدعم للصناعة، وبقيت روسيا حتى قيام الحرب العالمية الأولى دولة زراعية بالدرجة الأولى.

لما الولايات المتحدة الأمريكية، فكانت الأسبق في ميدان التصنيع، حيث دخلت عهد التصنيع في عام ١٨٢٠، وبعد للحرب الأهلية استكملت وحدتها ونهضتها للصناعة، وانطلقت نحو التصنيع، وكانت فيها عوامل التصنيع، مثل المواد الأولية والأيدي العاملة الرخيصة وخاصة الزوج، والمناخ الملائم، والأراضي الزراعية

الواسعة، كما أنها كانت بعيدة عن الحروب الأوروبية ومشكلات القارة، وبدأ التصنيع في أمريكا - مثل بريطانيا - قائماً على صناعة النسيج، وارتفع عدد المنازل من ٣٧ ألف عام ١٨١٠ إلى ١٣٠ ألف عام ١٨١٥، ثم ٢٢٠ ألف عام ١٨٢٠.

واستُخدمت الآلات البخارية في ميدان الصناعة لسهولة عملها وزيادة إنتاجها، وازداد إنتاج الحديد والفحم الحجري أيضاً.

وهكذا انتشرت الصناعة والثورة الصناعية خارج بريطانيا، حيث تقدم ميدان صناعة النسيج والتعدين واستخدام المحركات البخارية، وتميزت السنوات (١٨٣٠-١٨٧٠) بانتاج الثورة للصناعة الحقيقية في بريطانيا، واعداد الثورة للصناعة في أوروبا الغربية والوسطى وشمال أمريكا، ثم في الأربعين سنة اللاحقة تميزت الصناعات بدخول المكائن إلى حد كبير، وتطور الصناعات الحديثة، والتحول السريع في السكان من الزراعة إلى الصناعة في بلجيكا وألمانيا والولايات المتحدة.

وازداد إنتاج الفحم والحديد في الصناعة الميكانيكية بسبب زيادة الطلب عليهما، وفي بريطانيا ازداد انتاج الفحم من ١١٠ ملايين طن عام ١٨٧٠ إلى ٢٦٥ مليون طن عام ١٩١٠، وخلال الفترة ذاتها ازداد انتاج الحديد للصلب من ٦ ملايين إلى ٩ ملايين طن، وفي ألمانيا ازداد إنتاج الفحم من ٣٧,٥ مليون طن إلى ٢٢٢ مليون طن، والحديد من ٢ مليون طن إلى ١٥ مليون طن بين ١٨٧٠-١٩١٠.

أما في فرنسا فقد ازداد الفحم الحجري من ١٦ مليون طن إلى ٤٠ مليون طن، والحديد من ١,٥ مليون طن إلى ٥ ملايين طن، وفي أمريكا ازداد انتاج الفحم خلال للفترة ذاتها من ٣٥ مليون طن إلى ٤١٥ مليون طن، والحديد الصلب من (٢/٣) ١ مليون طن إلى (١/٣) ٢٧ مليون طن.

وحدث تقدم واسع في إنتاج الفولاذ للصلب وتحسين نوعيته، وتحقق تحسن ملحوظ في المحركات البخارية، وفي النقل والسكك الحديدية، مع توسع ملحوظ في طول السكك الحديدية في أمريكا من ٣٠ ألف ميل عام ١٨٦٠ إلى ٢٥٠ ألف عام ١٩١٠، كما ازدادت بالنسبة نفسها في كندا وأستراليا، ووضعت مشاريع سكك الحديد في أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا، وحدثت تطورات في السفن التجارية من حيث العدد

والحجم والسرعة، وتضاعفت الخدمات في النقل والمسافرين في مدن رئيسية في بريطانيا وأمريكا وفرنسا.

وشهد إنتاج المغازل زيادة كبيرة في هذا للسنوات من ٣٦,٧٠٠,٠٠٠ إلى ٥٣,٥٠٠,٠٠٠ مغزل بين (١٨٧٠-١٩١٠)، وزداد عدد الأتوال الآلية من ٤٧٥,٠٠٠ إلى ٧٠٠,٠٠٠، وفي سنة ١٩١٠ بلغ عدد المغزل في دول القارة الأوروبية إلى ٣٧,٢٠٠,٠٠٠ مغزل، وفي الولايات المتحدة ٢٧,٨٠٠,٠٠٠ مغزل، فازداد إنتاج الصوف والكتان والنسيج، ودخلت مكائن صناعة الحرير في فرنسا وإيطاليا وصناعة الحرير الصناعي على نطاق واسع، وحصل تقدم في الكيمياء والأقمشة والأصباغ الكيميائية من قطران وفحم ججري كبديل رخيص للأصباغ الطبيعية.

ظهرت من جهة أخرى صناعات جديدة خلال هذه الفترة، فمنذ عام ١٨٧٠ أصبحت للكهرباء تحتل المركز الأساسي بدلاً عن المحركات البخارية سابقاً، وأدخلت تحسينات على المولدات الكهربائية والمحركات من حيث اللوعية والعدد، واخترع جراهام بيل G.Bell الهاتف، وبعد ذلك بسنتين اخترع توماس أديسون T. Edison المصباح الكهربائي الوهاج، وانتشر الاختراعان بسرعة في أوروبا وأمريكا، واستُخدمت الكهرباء في النقل، وظهر التزلج أي السيارات الكهربائية، وظهرت للقطارات الكهربائية إلى جانب القطارات البخارية بين المدن المزدهمة بالسكان، وفي عام ١٨٩٥ اخترع ماركوني G. Marconi جهاز للبرق اللاسلكي، وفي عام ١٨٩٨ أقيمت الاتصالات البرقية اللاسلكية بين بريطانيا وأوروبا عبر القنال الإنكليزية، ثم مع أمريكا عام ١٩١٠ عبر المحيط الأطلسي، وحدثت في نهاية القرن التاسع تطورات في استخدام الطاقة الكهربائية في المنازل والدور السكنية، وزداد أيضاً استخدام الوسائل الميكانيكية في البيوت، والدكاكين، والمكاتب، والدراجات الهوائية، والثلاجات، والمسخنات، وماكينات الخياطة، وآلات الطباعة، والورق ومكائنها، وحدث تقدم في صناعة التصوير، ففي عام ١٨٨٤ اخترع فلم الكاميرا، وعام ١٨٨٥ وضع جورج إيستمان أسس صناعة التصوير الكبيرة في مدينة روجستر في نيويورك، وفي عام ١٨٨٨ عرضت شركة إيستمان أول كاميرا كوداك في الأسواق، وفي عام ١٨٩١ سجل

توماس أديسون اختراع (صندوق الدنيا)، وضع موضع الاستعمال التجاري في نيويورك عام ١٨٩٤، وفي العام التالي اختراع الأخوان لوميير Lumiere في مدينة ليون الفرنسية ماكينة (سينما توغراف) كانت بداية لصناعة السينما، وانتشر عرض أفلام للصور المتحركة مطلع للقرن العشرين.

وتم اختراع محرك التوربين البخاري من قبل المهندس البريطاني جارس بارسنز C. Parsons في عام ١٨٨٤، وأدخل على تحسينات عدة بعد ذلك، ثم أقام مصنعاً كبيراً في نيويورك في عام ١٨٨٩ لصنع التوربينات البخارية، ومع حلول عام ١٩١٠ كانت هذه للمحركات للتوربينات البخارية تستخدم بصورة واسعة لتحريك المولدات الكهربائية والسفن البخارية، واختراع المحرك ذي الاحتراق الداخلي الذي يحول الطاقة إلى قوة ميكانيكية، كما هي الحال في محركات السيارات في الوقت الحاضر.

في عام ١٨٩٢ مُنجل اختراع محرك من هذا النوع يعتمد على احتراق الزيت باسم مهندس ألماني هو رذولف ديزل R. Diesel، وجُرب هذا المحرك بصورة علنية للمرة الأولى عام ١٨٩٨، وبحلول عام ١٩١٠ استخدم محرك ديزل في الأعمال الكهربائية والبواخر العابرة للمحيطات والقاطرات. واختراع مهندس ألماني آخر هو كوتليب ديملر G. Duimler في (١٨٨٥-١٨٨٦) محركاً ذا احتراق داخلي صغير الحجم، يمكن حمله، ووقوده زيت خفيف، وهو قادر على تسيير للسيارات والزوارق، وهذا هو محرك الكازولين، الذي قُدر له أن ينافس محرك جيمس واط البخاري في إحداث ثورة في النقل وتشجيع الصناعة، وقد استخدم ديملر محرك الكازولين في دراجة هوائية سنة ١٨٨٦، ثم في عربة عام ١٨٨٧، ثم باع حقوقه في الاختراع إلى شركة فرنسية لصناعة السيارات، وقد كان إنتاجها مقصوراً على فرنسا أولاً، ثم انتشر إنتاجها في الدول الصناعية الأخرى، وبحلول عام ١٩١٠ أصبحت الولايات المتحدة تحتل مكانة الصدارة في هذه للصناعة، حيث قدر نصيبها بـ (٣/٤) الإنتاج العالمي، وكان هنري فورد H. Ford - وهو ميكانيكي أمريكي - أشهر من أشاع السيارة في بلاده حيث أسس شركة ديترويت التي ما تزال تعد مركز صناعة للسيارات الأمريكية

في عام ١٩٠٢، وشرع في انتاج سيارات فورد للرخيصة على نطاق واسع منذ عام ١٩٠٩.

واعتمد محرك الكازولين الخفيف في صناعة الطيران، وقد استخدم هذا المحرك الخفيف في سفن الهواء (المناطيد) منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ففي عام ١٩٠١ حصل شاب برازيلي هو سانتوس دومون S. Dumont على جائزة لطيرانه بمنطاد من سان كلو إلى برج إيفل. وفي عام ١٩٠٦ قام ضابط عسكري ألماني متقاعد هو كونت فريدرياند فون زبلن V. Zupplin بطيران ناجح بمنطاد يعتمد على محرك الكازولين الخفيف في سيره.

ولدى اختراع المحرك ذي الاحتراق الداخلي، ثم السيارات والطائرات، إلى ظهور صناعات لازمة لها من النفط ومشتقاته، وصناعة المطاط، وإنشاء للطرق المناسبة لمسير السيارات، فقد ارتفع انتاج النفط الخام في العالم من نصف مليون برميل في عام ١٨٦٠، إلى ٣٢٥ مليون برميل في عام ١٩١٠، وكانت مناطق انتاجه الرئيسية في أمريكا وروسيا ورومانيا وغيرها، وظهرت صناعة تكرير النفط الخام ونقله من المناطق المتخلفة حيث ينتج إلى المناطق المتقدمة حيث يستهلك، اما انتاج المطاط فقد ازداد بسبب الزيادة المفاجئة في الطلب لاستخدامه في صناعة إطارات السيارات، وازداد انتاجه من ١٠٠٠٠ طن في عام ١٨٧٠ إلى ٧٥٠٠٠ طن في سنة ١٩١٠، وكانت مصادره الرئيسية في البرازيل وسيلان وبورنيو والهند الصينية وغيرها.

وقد ظهرت نظراً للمشروعات الكبيرة العديد من الشركات وأصحاب رؤوس الاموال والشركات المساهمة في المشروعات الصناعية الكبيرة، وأخذت تنتج السلع والمنتجات المختلفة، وسعت هذه المشروعات الصناعية إلى التنسيق في سياساتها وتحقيق الاتحاد فيما بينها، وانتشرت اتحادات المنتجين التي لعبت سياسات احتكارية في ألمانيا وأمريكا وعلى نطاق محدود في بريطانيا.

فقد ظهرت في ألمانيا نقابات لتاجية عرفت باسم الكارتل Cartel كان غرضها منع المنافسة بين المنتجين عن طريق عقد اتفاقات خاصة بتحديد الاسعار،

وتنظيم الانتاج، وتوزيع الأسواق، وكانت للمشروعات الصناعية مقيدة بموجب الاتفاق فيما بينها، وكانت أهم الكارتلات في ألمانيا كارتل في صناعة الفحم في وستفاليا، وكارتل صناعة الحديد والفولاذ التي ظهرت في نهاية السبعينات من القرن التاسع عشر، ولم تعارض الحكومة الألمانية فيها وسيلة لاستبعاد المنافسة في الأسواق الداخلية، ولتباع سياسة موحدة بشأن الأسواق الخارجية.

لما في الولايات المتحدة فإن المشروعات الصناعية الكبيرة المتشابهة شكلت اتحادات عرفت باسم ترست Trust، واتحدت فيها المشروعات الصناعية الكبيرة تحت إدارة موحدة تم فيها ترسيم سياسات الانتاج والتسويق وتوزيع الأسواق بغية تجنب المنافسة فيما بينها، وتحقيق أقصى قدر من الأرباح، وكان أبرز هذه الاتحادات في أمريكا هو روكفلر J. B. Rockefeller في ميدان الصناعة النفطية، وكارنيجي وموركان Carnegie & Morgan في صناعة للفولاذ. وهاريمان وهل Harriman & Hill في صناعة للسكك الحديدية، وأصدرت حكومة الولايات المتحدة قوانين عدة للحد من احتكارات التروستات، مثل قانون شيرمان Sherman عام ١٨٩٠، وقانون كلايتون Clayton في عام ١٩١٤.

لما في فرنسا فلم تظهر مثل هذه الاتحادات؛ لأن معاملها صغيرة، وتستخدم عدداً أقل من العمال. ويرجع ذلك إلى قلة الفحم وتفضيل الفرنسيين التخصص في صناعات ذات مهارة يدوية أكثر من استعمال الآلة. وكان هناك ٦٠٠ ألف مؤسسة صناعية في فرنسا عام ١٩٠١، ولذلك لم تعاني فرنسا من أزمات للثورة الصناعية مثل السكن والإسكان، ولزحام المدن، وقلة للزراعة، وسوء توزيع الثروة^(٢٤).

رابعاً: نتائج الثورة الصناعية

حققت الثورة الصناعية الحديد من النتائج، من أبرزها زيادة الثروة القومية، مع ازدياد الثروة الحقيقية في دول أوروبا والدول الأخرى التي انتشرت فيها الثورة الصناعية، وظهور للرأسمالية للصناعية، وذلك نتيجة للتوسع السريع في الانتاج الصناعي، وزيادة التبادل التجاري، ثم إعادة توظيف رؤوس الأموال المنحقة من الأرباح في الخارج وخاصة للمستعمرات.

وازدیاد الثروات كان من نصیب كبار الرأسمالیین الصناعیین، إلا ان حكومات الدول للصناعیة حققت زیادة كبیرة فی إيراداتها أوضاً من الضرائب المباشرة و غیر المباشرة.

ثم ان قیام الثورة الصناعیة زاد من أعداد السكان فی المدن الأوروبیة، وذلك لزیادة الاهتمام بالصحة العامة، و زیادة الانتاج للزراعی، وتحسین نوعیته، وابتكار طرق ووسائل جدیدة لحفظ الاطعمة، وتوفیر سبل ناجحة وصحیة ضد الأمراض ومع الصحة العامة، مثل الصابون، والملابس للقطنیة، والمولد البنائیة، وتبلیط شوارع المدن، وتصرف المیاء فیها، وإقامة شبكات إسالة المیاء للنظیفة.

وارتفعت أعداد السكان فی المدن من ۱۴۰ ملیون نسمة عام ۱۷۵۰ إلى ۱۸۸ ملیون نسمة فی عام ۱۸۰۰، ثم ما بین ۲۶۶ إلى ۲۶۷ ملیون نسمة فی عام ۱۸۵۰، و ۴۰۱ ملیون نسمة فی ۱۹۰۰. وصاحب هذه الظاهرة تركز السكان فی المدن الكبیرة التي برزت بعد الثورة للصناعیة بسبب تركز المصانع والمعامل الكبیرة قرب المدن، مثل المناجم والفحم والحديد، وجذبت للرأسمالیین والعمال وعوائلهم للسكن فیها، فتحولت للقرى إلى مدن كبیرة، مثل لیفربول ولیدز وشیفیلد ومالچستر وبرمنغهام فی بریطانیا، ونمت مدن بسرعة، مثل بروكسل وباریس ولیل وکیون ومیلانو وبرلین، ووصل عدد سكان لندن على سبیل المثال من ۹۸۸,۰۰۰ إلى ۲,۲۶۳,۰۰۰ نسمة.

وترتب على الثورة الصناعیة قیام حركة انتاج صناعیة فی المعامل والمصانع التي حلت محل الحرف والورش الصغیرة وتطورت بسرعة إلى مؤسسات صناعیة عملاقة فیها الآلاف من العمال والصناع، واحتكار السلع للمعينة.

وأنت الثورة الصناعیة إلى ظهور طبقتین اجتماعیین جدیدتین، وكانتا متنافستین، هما للطبقة الرأسمالیة للصناعیة، والطبقة الثالیة هی طبقة العمال، وحصلت الأولى على النصیب الأكبر من الارباح التي تحققت بفعل الثورة الصناعیة، وبدأت تسعى للحصول على نصیب من السلطة التي احتكرها النبلاء والأشراف وملكي الأرضی. وحاول الرأسمالیون والصناعیون ان یزیدوا ثروتهم ویبتلعوا من أجل الاستثمار والسیطرة خارج دولهم كآسیا وأفریقیا، وهو ما يعرف بالإمبریالیة

أما العمال فقد قامت على عاتقهم الثورة الصناعية والأرباح الطائلة التي حصل عليها الرأسماليون، في حين ساءت أحوال العمال في السكن والمعامل والمعيشة، وعمل الأطفال والنساء في ظروف صعبة في المصانع والمعامل، وساعات طويلة، وبأجور زهيدة، وحفز هذا العمال على تنظيم أنفسهم، ومطالبة الحكومات وأرباب العمال بتحسين ظروف عملهم ومعيشتهم، ومنحهم حقوقهم للشرعية، مثل حق الانتخاب والتعليم ومساواة، وظهرت مجموعة من المفكرين الذين اهتموا بطبقة العمال وتحسين ظروفها، بل ذهب بعضهم إلى الدعوة إلى تسليمها مقاليد الأمور في المجتمع بوصفها طبقة منتجة، ومن أبرز هؤلاء المفكرين الإنسانيين روبرت لوين (١٧٧١-١٨٩٥) في بريطانيا، وسان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥)، وفورييه (١٧٧٢-١٨٣٧)، وبير برونون (١٨٠٩-١٨٦٥)، ولويس بلان (١٨١١-١٨٨٢) في فرنسا، وكارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) في ألمانيا، ونشر هؤلاء المبادئ الاشتراكية بين العمال، وتأثر العمال والثقافات والجمعيات بالأفكار الاشتراكية، وأصبحت قوة في المجتمعات الأوروبية، واستجابت للحكومة لمطالب العمال من تخفيض ساعات العمل، وزيادة الأجور، وحظر استخدام الأطفال، وتحسين ظروف العمل، والخدمات الصحية، والتعليم، وغيرها.

وكان من نتائج الثورة الصناعية أيضاً ظهور الاستعمار الحديث، مع زيادة كبيرة في إنتاج السلع المختلفة بشكل فائض عن حاجة السوق المحلية، وتطلب ذلك ضمان الأسواق الخارجية لتصريف الفائض الإنتاج، وظهرت حاجة إلى ضمان توفير للمواد الخام للصناعات النامية، بل إن تراكم رأس المال في أرباح الصناعيين دفع للرأسماليين إلى البحث عن مجالات جديدة لاستثمارها في الخارج، وظهرت معها حاجة إلى الأيدي العاملة في الزراعة، فنشأ سباق محوم في هذا المجال، تخلله مناقشات وصراعات دولية بين الدول للصناعة للحصول على المستعمرات.

ومع ظهور الصناعات الآلية في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، وبسبب الإنتاج الفائض عن حاجة الأسواق، فقد ظهرت أزمات اقتصادية دورية، فشهدت بريطانيا أزمات اقتصادية عدة (١٨٢٥-١٨٦٦) أعقبتها أزمة عام ١٨٣٦،

حيث تم تقليص حجم تصدير المنسوجات القطنية والصوفية، وانخفضت أسعارها، وقلّ إنتاجها إلى أبعد الحدود، واضطرت معامل غزل ونسيج عدة إلى إغلاق أبوابها، وأغلقت مصارف وبنوك، مثل مصرف إنكلترا المركزي الشمالي، والمصرف التجاري الزراعي الأيرلندي، وانخفضت الصادرات، وانخفض الإنتاج وأسعار الحديد وصناعة السفن، وشهدت بريطانيا كساداً عظيماً في أواخر القرن التاسع عشر.

فقد كانت الثورة الصناعية بحق نقلة نوعية في حياة أوروبا والعالم بأسره، وحققت نتائج في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، مع زيادة الإنتاج الزراعي وتحسين نوعيته وتطوير وسائله والتقدم في مواصلاته، فضلاً عن التقدم المادي والرفاه الذي حققته الدول الصناعية الكبرى في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين^(٢٥).

الفصل الثامن

الوحدة الإيطالية

الوحدة الإيطالية

لولا: إيطاليا قبيل الوحدة

كانت إيطاليا حقيقة دولة مجزأة إلى دويلات وممالك، وخاصة في أواخر القرن الثامن عشر، ففي الشمال كانت هناك مملكة سردينيا في الغرب ولومبارديا، أو دوقية ميلانو في الوسط وجمهورية البندقية في الشرق، وكانت مملكة سردينيا ومملكة بيدمونت تحكم من أسرة سافوي، وتضم مقاطعات سافوي وبيدمونت وسردينيا. أما لومبارديا فكانت تابعة لأسرة هابسبورغ التي تحكم النمسا، وكانت لومبارديا تسيطر على الطريق التي تمر منه القوات النمساوية عبر التيرول إلى إيطاليا.

أما جمهورية البندقية التي مركزها التجاري للمرموق قد أصبح جزءاً من الماضي لم تكن بعيدة عن النفوذ النمساوي، وإلى الجنوب من هذه الكيانات الثلاثة كانت هناك دوقيات بارما ومورينيا وتسكانيا، التي كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأسرة هابسبورغ عن طريق المصاهرات والاتفاقيات السياسية.

أما جمهورية جنوة الواقعة إلى الغرب من هذه الدوقيات الثلاث فكانت حالها شبيهة بحال جمهورية البندقية، وفي وسط إيطاليا كانت هناك البابوية وضمنها روما مركز البابوية، أما في الجنوب من إيطاليا فكانت مملكة نابولي وملكها من أسرة بوربون هي لومع الممالك الإيطالية وتضم نابولي وجزيرة صقلية، ومن كل هذا فإن مسألة إقامة دولة موحدة كانت بعيدة كل البعد عن أذهان الإيطاليين في ذلك الوقت.

لكن الإيطاليين تأثروا بالفكر الثوري الفرنسي، ومنها القومية، وكان لنابليون دور فيها، حيث قام بغزو إيطاليا عام ١٧٩٦ باسم الحرية، ووعد الإيطاليين بإحلال الحياة الدستورية محل الحكومة الاستبدادية، وكان نابليون موضع ترحيب الإيطاليين بوصفه مواطناً ومحرراً. وقد خضعت لنفوذه معظم الأراضي الإيطالية عدا جزيرة صقلية، واستمر الحكم الفرنسي في إيطاليا حتى هزيمة نابليون أمام التحالف الأوروبي عام ١٨١٤.

قام نابليون بتقليص عدد للدويلات الإيطالية، ودمج بعضها مع البعض الآخر، ووجد البندقية ولومبارديا ومودينا وبعض الولايات البابوية تحت اسم مملكة إيطاليا، وأسند حكمها إلى نائب عنه، وهو يوجين بوهارنيه، وأقام في جنوب إيطاليا مملكة

نابولي، وعين أخاه جوزيف ملكاً عليها أولاً، ثم عين صهره مارا بدلاً عنه، وشجع هذا على الوحدة الإيطالية، كما وألحق نابليون مقاطعات بنيمونت وجنوة وتسكانيا وبارما بفرنسا، وأصبحت الدولة البابوية تحت النفوذ الفرنسي بعد أن عقد نابليون لتفاهية (كونكوردا) مع البابا بيوس السابع عام ١٨٠١.

كان الحكم الفرنسي في إيطاليا مصحوباً بإصلاحات حرة النزعة، وتم تحطيم النظام الإقطاعي الذي يقف حجرة عثرة في طريق الوحدة القومية، وألغيت الامتيازات والنظم الجديدة التي جاءت بها الثورة للفرنسية، وجرت محاولات لتطوير الزراعة والصناعة وإزالة القيود المفروضة على الصناعة والتجارة وإنشاء للطرق والجسور، والاهتمام بالتعليم، واستأنفت إيطاليا في ذلك الاستقرار بعد الفوضى والاضطرابات، وظهر للإيطاليين فضائل الحكومة الموحدة والتفكير في تحقيق الوحدة عن طريق آخر هو للسيادة القومية.

في عام ١٨١٥ قرر مؤتمر فينا إعادة للقديم، ومنه أوضاع إيطاليا إلى ما كانت عليه قبل الحكم الفرنسي مع ملح للتنمسا بعض المكاسب هناك، واستردت النمسا لومبارديا، وحصلت على البندقية وأعيدت مملكة سردينيا إلى الوجود مع ضم جنوة إليها، بحيث يصبح بإمكانها للدفاع عن شمال إيطاليا ضد فرنسا، وأعيدت الولايات البابوية إلى الوجود مرة أخرى، وأعيدت مملكة نابولي تحت حكم ملك من أسرة آل بوربون، ووعد ملك نابولي في معاهدة سرية عقدت بينه وبين مترنيخ بحكم ملح بلاده دستوراً دون للحصول على موافقة للنمسا.

وإذا كان مترنيخ سعى في تمزيق أوصال إيطاليا، فإن مشاعر الإيطاليين القومية ظلت باقية، وتشكلت جمعيات سرية دعت إلى استخدام القوة ضد التسلط النمسا على إيطاليا. وضد الملوك والحكام للمستبدن في إيطاليا وإعادة للحكم الدستوري إليها، ومن أبرز الجمعيات (الكاربوناري) التي تشكلت في نابولي، وانتشرت في الجيوش والمتنورين من الشعب في كل إيطاليا.

وفي عام ١٨٢٠ كانت الثورة قد قامت في مملكة نابولي ضد حكم فرديناند الأول للمستبد، وأجبر الأخير على إعلان دستور حر، إلا أن الجيش النمساوي تدخل

وقضى في مارس/آذار ١٨٢١ على المعارضة في نابولي وألغى الدستور، وعاد فريديناند لينتقم من معارضته ويزيد من سياسته الاستبدادية.

وظهرت ثورة أخرى في بيدمونت لو سردينيا من أنصار جمعية الكاربوناري، وكان الدستور أهم مطالبهم، ونجحوا في الاستيلاء على تورينو عاصمة المملكة، وتنازل الملك فيكتور عمانوئيل الأول عن العرش إلى أخيه شارل فيليكس، وتعين الأمير شارل ألبرت ولي للعهد التالي وصياً على العرش، وكان هذا الأخير يعطف على النزعات الحرة، ويعادي للنمسا، ولذلك منح المملكة دستوراً حراً، ولكن تدخل الجيش النمساوي السريع وقضى على الثوار في سردينيا في إبريل/نيسان ١٨٢١، مما أدى إلى طرد شارل ألبرت وإقامة للحكم المطلق، وأراد مترنيخ عقاب ألبرت بتجريده من حقه في عرش سردينيا، إلا أن شارل فيليكس تمسك بمبدأ الشرعية ووقف ضد مترنيخ.

شهدت إيطاليا بعد عام ١٨٢١ فترة سيئة عاشها الشعب بالقمع والقسوة من جانب الحكام المستبدين، ومن النمسا من جانب آخر، وحدثت ثورات أجبرت الكثير من الوطنيين من نابولي وسردينيا على اللجوء إلى المدن الإيطالية الأخرى، ولم يتخلوا عن نشاطهم السياسي، بل أخذوا يتحيتون للفرصة للمناصرة لتحقيق هدفهم.

وفي عام ١٨٣٠ كانت الثورة في فرنسا والإطاحة بالملك شارل العاشر آخر ملوك آل بوربون، وإقامة الملكية الدستورية وتصيب لويس فيليب من أسرة أورليان ملكاً على فرنسا. وأثارت هذه الثورات والتغيرات ردود فعل أوروبية، وقامت جمعية الكاربوناري بثورة في الولايات البابوية والدوقيات الشمالية، مع وعود من ثوار فرنسا بدعمهم، ولكن لويس فيليب بعد فترة وجيزة تبين أنه لا يريد التدخل في حرب ضد النمسا من أجل إيطاليا، ولما نيل قبول الدول الأوروبية والاعتراف بمركزه في فرنسا، وإن يكون لفرنسا دور تلعبه في إيطاليا بحجة الحفاظ على التوازن الدولي الذي اختل لانفراد للنمسا بالعمل في إيطاليا، بل تدخلت فرنسا والنمسا ضدهم وقضت على ثورتهم.

وبزرت جمعية أخرى هي (إيطاليا للفتاة) التي تأسست عام ١٨٣١، وأعضاؤها حوالي ٦٠ ألف عضو، وكسبت العديد من الأنصار، ومؤسسها جسي

ماتزيني رائد حركة إقامة إيطاليا كجمهورية موحدة من جبال الألب إلى البحر المتوسط، وانضم إلى جمعية للكاربوناري في شبابه، وسجن ونفي لاشتراكه في إحدى ثوراتها، وفي عام ١٨٣١ أسس جمعية إيطاليا للفتاة، وكرّس نفسه لتحرير إيطاليا وتوحيدها تحت حكم جمهوري، لأن الحرية تتم مع الجمهورية، ولا أمل لتحقيق الوحدة القومية أو الإصلاح إلا إذا تم طرد النمساويين من إيطاليا، ويتم عبر طريق للحرب، وبسبب هذه الآراء قضى ماتزيني سنوات في السجن والمنفى، ورغم أن أحلامه وأفكاره لم تتحقق لكنها ظلت منارةً للوطنيين والمفكرين في التطورات التي شهدتها إيطاليا حتى عام ١٨٧٠^(٢٦).

ثانياً: غاريبالدي والوحدة الإيطالية

لا يمكن أن نتجاهل - ونحن نتحدث عن الوحدة الإيطالية - شخصية جوزيف غاريبالدي J. Garibaldi (١٨٠٧-١٨٨٢)، وهو إيطالي من تلاميذ ماتزيني، وعمل بحاراً في بحرية سردينيا، وتأثر بجمعية إيطاليا للفتاة والجمهورية، وشارك في تمرد عسكري لحكم عليه بالإعدام. إلا أنه هرب إلى أمريكا الجنوبية، وبقي أربعة عشر عاماً، واشترك في ثورات عدة في القارة، ثم عاد إلى إيطاليا، واشترك مع ثلاثة آلاف شخص من أتباعه في حرب سردينيا ضد النمسا عام ١٨٤٨، ثم انضم إلى الجمهورية التي أقامها ماتزيني وأتباعه في روما، وبعد سقوطها عام ١٨٤٩ عاد غاريبالدي إلى أمريكا، حيث عمل على جمع ثروة صغيرة، ثم عاد عام ١٨٥٤ إلى إيطاليا ينتظر فرصة جديدة للعمل هو وأتباعه من أجل تحرير إيطاليا والذين عرفوا بذوي القمصان الحمراء.

وكان هناك - إضافة إلى الاتجاه الداعي إلى الجمهورية الإيطالية الموحدة - اتجاه يدعو إلى الوحدة الإيطالية بزعامة البابا، وتزعم الاتجاه فنسنت جيوبيرتي V. Gioberti، وهو تلميذ من بومونت، عاش سنوات عدة في المنفى مثل ماتزيني وغاريبالدي، وقد نشر في عام ١٨٤٣ كتاباً (تفوق الإيطاليين الخلفي واللمني)، أشار فيه إلى البابوية بوصفها السلطة التي تقع على كاهلها مهمة إعادة تنظيم وتوحيد الدولات الإيطالية المختلفة، ومنح الإيطاليين زعامة أوروبا، وقد اقترح إقامة اتحاد

كونفدرالي يضم هذه الدويلات، ويكون لكل واحدة دستورها الحر، ويكون الاتحاد برئاسة البابا، وكان لهذا الاتجاه نصار من الطبقة العليا ومن الوطنيين.

ويبدو أن أفكار جيورتي لاقت قبولا لدى البابوية، ففي عام ١٨٤٦ اختير الكاردينال ماساني فريتي لمنصب البابوية، واتخذ له لقب البابا بيوس التاسع، وكان حبه لإيطاليا حقيقياً، وتأثر بأفكار جيورتي في قضايا الوحدة وتحرير البلاد، واتخذ خلال عامين خطوات جريئة، كإطلاق السجناء والعفو عن المنفيين، وخفف الرقابة على الصحافة، وأنشأ في إبريل/نيسان ١٨٤٧ مجلساً للدولة، يختار هو أعضائه من بين الأسماء التي يعرضها عليه حكام الأقاليم، وعيّن في حزيران/يونيو عام ١٨٤٧ مجلس وزراء لمناقشة تصرفات الحكومة البابوية، وتأثرت حماسة إيطاليا كلها، وأصبح الشعار هو التهليل للبابا، ولكن أحداث (١٨٤٨-١٨٤٩) أكدت أن البابا بيوس التاسع ليس هو الشخص المرئى للقيام بتوحيد إيطاليا.

وظهر اتجاه ثالث يدعو إلى دولة إيطالية موحدة في ظل نظام ملكي دستوري بزعامة الأسرة المالكة في مملكة سردينيا. وقد بدأ ظهور هذا الاتجاه بعد اعتلاء شارل ألبرت عرش سردينيا في عام ١٨٣١، ومع أن فشل الحركة الدستورية في سردينيا عام ١٨٢١ قد أفقده اعتباره بنظر الإيطاليين، وأدى ولاءه للكنيسة الكاثوليكية إلى الشك في قوميته، إلا أنه كان مؤمناً بقضية إيطاليا وحلم حريتها، وأظهر تعاطفاً مع آراء جيورتي، ولكن هذا الاتجاه كان الأضعف بين الاتجاهات الثلاثة.

وقامت عام ١٨٤٨ ثورات قومية في أنحاء أوروبا المختلفة، بما في ذلك إيطاليا، ففي شباط عام ١٨٤٨ قامت الثورة في فرنسا، ونجحت في إسقاط ملكية لويس فيليب ومثلها حدثت ثورات في المجر وألمانيا والدانمارك وهولندا.

كانت إيطاليا مهبة لانتشار الحركة الثورية، فقد كسبت جمعية إيطاليا للفتاة إلى صفوفها أعضاء كثيرين في شتى أنحاء البلاد، وكان أبناء الطبقة الوسطى مؤيدين للوحدة القومية الإيطالية، واتخذت الحركة الثورية مظهراً شاملاً في إيطاليا، وبدأت الثورة في مملكة الصقليتين في عام ١٨٤٨، وأجبرت الملك المستبد فرديناند الثاني على قبول دستور حر، ومنح شارل ألبرت سردينيا دستوراً حراً نص على إقامة

برلمان منتخب من دلفي الضرائب تكون الوزارة مسؤولة أمامه، والقضاء على بقايا الإقطاع وضممان للحريات الفردية. وأصدر بيوس التاسع دستوراً للبابوية، وفي الولايات الأخرى أجبر دوق تسكانيا ليوبولد الثاني - وكان من أشد حكام إيطاليا استبداداً - على إصدار دستور لدوقيته، وفي ميلانو عاصمة لومبارديا حدث قتال في الشوارع أجبر القائد النمساوي على الانسحاب منها مع جيشه، وهتف السكان بضم لومبارديا إلى سردينيا، وقامت في البندقية ثورة ضد حكامها النمساويين، وتم إطلاق سراح الزعيم الوطني دانيال مانين وإعلان البندقية جمهورية مستقلة.

ولم تقف النمسا مكتوفة الأيدي إزاء ما حصل في إيطاليا، فقد قرر شارل البرت الانضمام إلى الولايات الإيطالية الأخرى في خروجها على النمساويين، وأصدر بياناً في الثالث والعشرين من مارس/ آذار ١٨٤٨ موجهاً إلى سكان لومبارديا والبندقية، وأبدى مساندته ودعمه لهم، وهو بمثابة إعلان حرب على النمسا، ولفقه هذا تأييد القوميين.

وحققت القوات الإيطالية عدة انتصارات على النمساويين، إلا أن شارل البرت ارتكب خطأ بعدم الاستمرار في الحرب ضدهم حتى طردهم من إيطاليا، وتمكن القائد النمساوي من سحق قوات لومبارديا والبندقية، وتوجيه ضربة قاصمة إلى جيش البرت، ثم قبول الأخير الهدنة، وأعاد للقائد النمساوي احتلال لومبارديا.

كان موقف البابا من الحرب ضد النمسا مبعث استياء القوميين الإيطاليين، وظهرت علامات استياء بعد فترة قصيرة من هزيمة القوات الإيطالية أمام القوات النمساوية، وهرب بيوس التاسع إلى نابولي، وفي فبراير/ شباط ١٨٤٩ أعلنت الجمهورية في روما بزعامة ماتزيلي، وحصلت تطورات مماثلة في دوقية تسكانيا بسبب سحب ليوبولد الثاني تأييده للحرب ضد فرنسا، وأقيمت فيها جمهورية، واضطر ليوبولد إلى الهرب إلى نابولي في حماية فرديناند الثاني ملك نابولي.

تجددت الحرب بين سردينيا والنمسا في الثالث عشر من مارس/ آذار ١٨٤٩، وعامل النمساويون سكان لومبارديا بقسوة، واستغل شارل البرت ذلك، وكان يتحرق شوقاً إلى محو آثار هزيمة المعركة السابقة، وأعلن للحرب على النمسا، إلا أن الحرب

لم تحقق النصر هذه المرة أيضاً، وهزمت قواته في معركة نافار بعد عشرة أيام، واضطر البرت للتنازل عن العرش إلى الملك فيكتور عمانوئيل، ولجأ إلى البرتغال. لما الجمهوريات الثلاث الأخرى: البندقية وروما وتسكانيا، فقد انتهت بعد أشهر، وقضى على تسكانيا من قبل القوات النمساوية، وأعد حكم ليوبولد الثاني إليها، وسقطت روما على يد القوات الفرنسية، حيث قرر نابليون الثالث التدخل للقضاء عليها، وأعاد البابا إليها، لأنه يتوق إلى كسب تأييد رجال الدين في فرنسا، في وقت لم يوطد فيه سلطته في فرنسا بعد، ثم رغبته في أن يكون لفرنسا دور في إيطاليا، ولا تترك للنمسا وحدها.

أما البندقية التي وجه النمساويون قواتهم لها، فبقيت تحارب حتى بعد معركة نافار، إلا أن الحصار النمساوي والقصف المدفعي أدى إلى الاستسلام في أكتوبر/ تشرين الأول ١٨٤٩.

وهكذا فإن حركة الثورة الإيطالية عام ١٨٤٩ قد فشلت في تحقيق أهدافها، وعاد الوضع إلى ما كان عليه قبل عام ١٨٤٨، وأصبحت لمبارديا والبندقية تحت السيطرة النمساوية، وعاد بيوس التاسع إلى روما تحت حماية حراب الفرنسيين، واستعاد فرديناند الثاني ملك نابولي سلطته ضد الأحرار الإيطاليين، وأصبح يُلقب الملك (بومبا) لقسوته في سحق ثورة نابولي واستخدامه المدفعية والقصف بعنف وقسوة.

عززت أحداث عامي (١٨٤٨-١٨٤٩) للشعور الوطني والقومي، ودعّمت تصميم الشعب من أجل الوحدة وتحرير البلاد من الأجنبي، وضعف الاتجاهان الجمهوري والبابوي، وسبب هذا استياء رجال الدين الذين كان تأثيرهم ما يزال قوياً، كما أن عدم تأييد البابا لحركة تحرير إيطاليا من النمسا أدى إلى نفور دعاة الوحدة الإيطالية منه، وأصبح البابا بيوس التاسع منذ عام ١٨٤٩ عدواً للاتجاه القومي في إيطاليا.

من جانب آخر أخذ اتجاه يدعو إلى توحيد إيطاليا في ظل ملكية دستورية بزعامة الأسرة المالكة في مملكة سردينيا يلقي تأييداً متزايداً في إيطاليا، واختارت سردينيا الوقوف إلى جانب الإيطاليين في مقاومة النمسا، وقد حافظ ملكها الجديد

فيكتور عمانوئيل على الدستور الحر الذي منحه والده شارل ألبرت لملكة سردينيا في عام ١٨٤٨، وقلوم جميع المحاولات التي بذلتها النمسا لإغراقه بإلغاء الدستور، وحكم المملكة حكماً استبدادياً، فقد اختار الوقوف في صف إيطاليا والحرية، ونأى بنفسه عن كل صلة بالنمسا.

وكانت مملكة سردينيا مؤهلة للوحدة الإيطالية، وتضم بيدمونت ذات المؤهلات الصناعية والطبقة الوسطى المؤيدة للنزعات الحرة، كما لديها بعض أبناء الطبقة النبيلة، وساعدت أوضاع هؤلاء الطبقة النبيلة، وساعدت على نشر الوعي القومي، وتنجبت سردينيا شخصية قومية فذه حقت الوحدة الإيطالية، وساعدت فيها هي كاميليو بنسودي كافور Camillo Bensodi Cavour^(٢٧).

ثالثاً: كافور وتوحيد الولايات الإيطالية

ولد كافور عام ١٨١٠ من أسرة نبيلة في بيدمونت، وعمل ضابطاً في جيش سردينيا، وابتعد عنه لنزعه القومية، وقد تأثر بالأفكار الحرة، وعُرف برفضه للحكم المطلق والكنيسة، وعندما أقيم لسنوات طويلة في بريطانيا تأثر بالأفكار السائدة هناك، وأصبح للنظام السياسي البريطاني مثله الأعلى، أي ملك يملك ولا يحكم، وبرلمان يمثل الطبقات كافة ويماند الحرية في الأمور السياسية والكنسية والثقافية والاقتصادية.

لم تشغل كافور أية مناصب رسمية في عهد الملك شارل ألبرت، بل اهتم بإدارة أملاك عائلته والسفر والدراسة، وأظهر ميلاً نحو للصناعة الآلية الإنكليزية وصار مديراً لشركات بواخر وسكك حديد ومصانع ومصارف، ثم ترأس تحرير صحيفة البعث التي تصدر في مدينة تورين عاصمة سردينيا، ودعا فيها إلى الإصلاح السياسي.

ثم دخل كافور في عهد الملك فيكتور عمانوئيل للوزارة عام ١٨٥٠ كوزير للزراعة، ثم أصبح رئيساً للوزراء، ووزيراً للخارجية عام ١٨٥٢، وقد بذل كافور خلال فترة حكمه جهوداً كبيرة لتنمية الاقتصاد في سردينيا، وتعزيز الجيش، وتحسين الطرق والمواصلات، وعقد للمعاهدات التجارية مع الدول الأخرى، وعمل على تقليص نفوذ للكنيسة ورجال الدين، لكنه في الواقع أخضع للكنيسة ورجال الدين لنفوذ الدولة،

وعُتت هذه الإصلاحات بداية خطوات على طريق الوحدة الإيطالية، وأصبحت سردينيا أكثر للدويلات الإيطالية تقدماً وتطوراً، فالتجته لِنظار الإيطاليين من الوطنييين نحو سردينيا منذ منتصف القرن للتاسع عشر، وشجع كافور نفسه هذا التوجه في دعم توحيد جهود القوى المتنوعة من أجل مقاومة للسيطرة النمساوية في كل أرجاء إيطاليا.

كان كافور سياسياً يدرك الواقع جيداً ويدرك أن سردينيا - هذه المملكة للمكونة من خمسة ملايين نسمة - لا تستطيع ان تحقق وحدها للوحدة الإيطالية بالاعتماد على نفسها طالما ان النمسا دولة قوية سياسياً وعسكرياً، فوضع كافور في اعتباره ضرورة الحصول على دعم خارجي لمواجهة للنمسا، لذا جعل كافور هدفه الأساس محالفة فرنسا لبلاده في نضالها مع النمسا، وذلك لان فرنسا دولة قوية ولها حدود مشتركة مع إيطاليا، وهذا يعني ان للدعم الفرنسي يمكن ان يكون سريعاً وفعالاً في حالة تحقيق التحالف معها. ثم ان فرنسا رغم تدخلها في أكثر من مرة ضد للحركات الثورية في إيطاليا مثلما فعلت للنمسا فقد كانت تنظر نظرة عدم رضا تجاه هيمنة للنمسا ودورها في إيطاليا، واخيراً فإن نابليون الثالث لم يكن غريباً عن إيطاليا والحركة للثورة فيها، فالدماء الإيطالية تجري في عروقه، ثم انه أحد أعضاء جمعية الكاربوناري سابقاً، وكانت الظروف من قبل دفعته للتدخل ضد الجمهورية في روما عام ١٨٤٩، وهو يتعاطف في داخله مع الأماني الإيطالية.

كانت خطط كافور في السياسة الخارجية هي مساهمة سردينيا في حرب القرم إلى جانب (بريطانيا وفرنسا والدولة العثمانية) ضد روسيا للقيصرية عام ١٨٥٥، وبعد هزيمة الأخيرة وعقد مؤتمر الصلح في باريس في مارس/ آذار ١٨٥٦ اتخذ كافور من المؤتمر منبراً ليعرض قضية بلاده القومية على الدول الكبرى، ولجح في كسب تعاطفها تجاه الأماني القومية للإيطاليين، واعترفها بحق سردينيا في الدفاع عن الشعب الإيطالي، وحث كافور خلال للمؤتمر نابليون الثالث على مساعدة سردينيا في طرد النمساويين من إيطاليا وإقامة دولة ليطالية موحدة ومستقلة، إلا أن كافور لم يحقق للنجاح في بلای الأمر، إذ لم يكن بإمكان نابليون الثالث اتخاذ قرار سريع في أمر كهذا؛ نظراً للكوضاع الداخلية في فرنسا، فقد كان رجال الدين الفرنسيون ضد للوحدة

الإيطالية، وكان موقفهم ينسجم مع موقف البابا بيوس التاسع، في حين كان الأحرار الفرنسيون يؤيدون مساعدة إيطاليا ضد النمسا، فضلاً عن أن نابليون كان مدركاً لخطورة الحرب مع دولة قوية مثل النمسا.

وأخيراً قرر نابليون الثالث في عام ١٨٥٨ أن يقف مع مملكة سردينيا، بعد أن تعرض لمحاولة اغتيال في بداية العام من قبل متطرف إيطالي، ولذا أراد نابليون للقضاء على تنمر الإيطاليين منعاً لتكرار محاولة الاغتيال، وأراد التقرب من الأحرار الفرنسيين، ووضعت لمس هذا التحالف الفرنسي - السارديني في اجتماع عقد بين نابليون وكافور في بلومبير على الحدود الفرنسية - الإيطالية في يوليو/ تموز ١٨٥٨، وقد تعهد نابليون بدعم سردينيا بـ ٢٠٠ ألف جندي فرنسي لطرد النمساويين من لومبارديا والبندقية، وتشكيل دولة إيطالية موحدة في الشمال، تمتد من جبال الألب حتى بحر الأدرياتيك، ومملكة أخرى في وسط إيطاليا، ودولة بابوية مركزها روما، ومملكة أخرى في نابولي، كما تعهد بأن ترتبط هذه الكيانات بمعاهدة يرأسها البابا، وأن تحصل فرنسا مقابل ذلك على صافوي ونيس، ويتزوج الأمير فيكتور نابليون ابنة الملك فيكتور عمانوئيل الثاني الأميرة كوتلدة، وأن تجد سردينيا سبباً للحرب يظهر للنمسا كدولة معتدية عليها، وسردينيا مملكة ضعيفة، وبحاجة إلى دعم وتحالف للحفاظ على وجودها، بحيث يمكن لفرنسا أن تتدخل وتساعد بها بشكل مبرر ومشروع أمام الرأي العام الفرنسي والأوروبي.

وأعد كافور في العاشر من كانون ثاني/ يناير ١٨٥٩ بياناً لبقاء الملك فيكتور عمانوئيل أمام البرلمان، وتطرق فيه إلى معاناة الشعب الإيطالي من التجزئة والتمسك الأجنبي، وضرورة إنهاء مثل هذا الوضع، وفي الوقت نفسه تقدم كافور بطلب إلى البرلمان بخصوص زيادة النفقات العسكرية لآتمام تسليح جيش المملكة، فأجابه البرلمان إلى طلبه، وأثار هذا الأمر للنمسا التي حشدت قواتها في لومبارديا، وأعلنت مملكة سردينيا في الثالث عشر من إبريل/ نيسان ١٨٥٩ بضرورة تجديدها من السلاح، وكانت هذه الفرصة التي ينتظرها كافور، فقد ظهرت للنمسا كأنها الدولة المعتدية، وأمكن تبعاً لذلك الحصول على الدعم العسكري الفرنسي، وأعلنت فرنسا في السادس

والعشرين من إبريل/ نيمان الحرب على النمسا.

استمرت الحرب حتى يوليو/ تموز ١٨٥٩، وقد هُزم النمساويون في معركتي (ماجنتا وسلفرينو)، وتبع ذلك ثورات في المدن الإيطالية تأييداً لسردينيا، إلا أن نابليون الثالث الذي خسر الكثير من قواته وظهر عدم لربّاحه للثورة في إيطاليا ونتائجها للمتوقعة قرر عقد للصلح مع النمسا (فيلافركا) في الحادي عشر من يوليو/ تموز ١٨٥٩، وبموجب هذا الصلح ضُمَّت لومبارديا إلى مملكة سردينيا، وبقيت اللبنديّة في حوزة النمسا، وتنازل عن التعويض الذي وعدّه به سردينيا (أي سافوي ونيس).

أثار هذا الصلح استياءً في إيطاليا ضد نابليون الثالث، واستقال كافور من منصبه احتجاجاً على عقد الصلح رغم أن فيكتور عمانوئيل وافقه عليه، إلا أنه عاد إلى منصبه بعد فترة قصيرة، وقد حققت حرب عام ١٨٥٩ الكثير لمملكة سردينيا، حيث تضاعف عدد سكانها ومساحتها بعد ضمّ لومبارديا إليها، وضمّ كافور أراضٍ أخرى لسردينيا من التي ظهرت فيها ثورات وهيجان، وتركت هزيمة النمسا حكام دوقيات تسكانيا وبارما ومودينا دون دعم خارجي، ولهذا لم يصمدوا طويلاً بعد ذلك أمام الثورات، واضطروا إلى التنازل والهروب، وقامت حكومات ثورية في الدوقيات الثلاث، وطالبت بالاتحاد مع سردينيا، وحدثت انتفاضات مع بعض الولايات البابوية، مثل بولونا ورومانا، وطالب سكانها بالانضمام إلى سردينيا، وقد استجاب كافور لذلك، وأرسل مندوبين لإدارة جميع هذه المناطق في إيطاليا الشمالية وللوسطى باسم الملك فيكتور عمانوئيل، وفي آذار/ مارس ١٨٦٠ عقد كافور اتفاقية جديدة مع نابليون الثالث وافق فيها الأخير على ضمّ الولايات الثلاث ورومانا إلى سردينيا لقاء حصول فرنسا على سافوي ونيس.

وكان لهذه الأحداث في شمال ووسط إيطاليا أثر كبير، وفي جنوبها كذلك، أي في مملكة نابولي.

لقد عُرف فرديناند الثاني البوربوني ملك نابولي باستبداده، ولم يكن فرنسيس الثاني الذي تولى الحكم من بعده في عام ١٨٥٩ بأفضل منه، وقد نشبت الثورة أولاً في صقلية في عام ١٨٦٠، وفي الحال جمع غاريبالدي جيشاً من المتطوعين في جنوة،

وأبحر منها في مايو/ أيار ١٨٦٠ لدعم ثوار صقلية، وتظاهر كالفور بمعارضته استخدام ميناء جنوة - التي كانت جزءاً من سردينيا - من قبل غاريبالدي، ولكنه شجعهم سرّاً على المضي في حملتهم، وقد تمكن غاريبالدي من للسيطرة على صقلية، ثم عبر منها إلى نابولي، وأجبر فرنسيس على الانسحاب من جاييتا، وبدأ نجم غاريبالدي بالصعود سريعاً، وكلّنه سيصبح زعيماً لجمهورية في جنوب إيطاليا، إلا أن كالفور الذي أدرك خطورة ذلك قرر العمل فوراً.

وقد أرسل حملة عسكرية اجتازت أراضي الدولة البابوية بعد دحر قواتها إلى نابولي، حيث حاصرت جاييتا، واتصلت بقوات غاريبالدي في نابولي، وفي سبتمبر/ أيلول ١٨٦٠ أجرى استفتاء في صقلية ونابولي، واتضح أن الأغلبية تريد الانضمام إلى سردينيا، وكان فيكتور عمانوئيل يجتاز شوارع نابولي وسط هتافات الشعب، ومعه غاريبالدي الذي تخلى من أجل الوحدة الإيطالية عن مشاعره للجمهورية، وسلم مملكة الصقليتين إلى ملك سردينيا.

وفي فبراير/ شباط ١٨٦١ استسلمت جاييتا، ونفي فرنسيس الثاني، ولم تعد هناك أية عقبة في سبيل انضمام الصقليتين إلى سردينيا، وبعد أشهر قليلة توفي كالفور في السادس من يونيو/ حزيران ١٨٦١ دون أن يرى توحيد بلاده.

لم يبق خارج مملكة إيطاليا سوى البندقية وروما، والأولى ما تزال تحت السيطرة النمساوية، والثانية تحت سيطرة البابا المدعوم من قبل حامية فرنسية كانت تقوم هناك منذ سقوط جمهورية روما عام ١٨٤٩، وقد نجحت المملكة الإيطالية في ضمها إليها في عام ١٨٦٦ و ١٨٧٠ على التوالي.

وكان للظروف الدولية أثر كبير في ذلك، ففي عام ١٨٦٦ قامت حرب السبعة أسابيع بين النمسا وبروسيا التي اشتركت فيها إيطاليا كحليف بروسيا، وقد هزمت النمسا في تلك الحرب على يد القوات البروسية في معركة سانوا في الثالث من يوليو/ تموز ١٨٦٦، وأعقب ذلك عقد معاهدة صلح براغ في آب/ أغسطس ١٨٦٦، وفيها وافقت النمسا على تسليم البندقية، أما روما فقد حاول غاريبالدي السيطرة عليها في عام ١٨٦٧، إلا أن القوات الفرنسية هزمت في معركة (منتانا) في الثالث من

نوفمبر/ تشرين الثاني من السنة نفسها، وعندما نشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا في حرب السبعين عام ١٨٧٠ اضطر نابليون الثالث إلى سحب الحامية الفرنسية من روما، وبقي البابا دون دعم خارجي وأرسل فيكتور عمانوئيل قوة عسكرية إلى روما احتلتها في سبتمبر/ أيلول ١٨٧٠، وأعقب ذلك إجراء استفتاء عام أظهر رغبة سكانها في الانضمام إلى مملكة إيطاليا، وفي عام ١٨٧١ أصبحت روما عاصمة المملكة الإيطالية الموحدة، ومن ثم أعلن الملك في حفلة افتتاح للبرلمان الأول في روما، أما البابا فقد رفض قبول الأمر الواقع والتنازل عن سلطته الزمنية، واستمر النزاع بين الكنيسة والحكومة قائماً حتى تمت تسويته بموجب معاهدة لاتران في الحادي عشر من فبراير/ شباط ١٩٢٩ في عهد موسوليني، وأهم شروطها الاعتراف بدولة الفاتيكان الصغيرة، ويمارس البابا في هذه الدولة حقوق السيادة^(٢٨).

الفصل التاسع

الوحدة الألمانية



ولاً: ألمانيا قبيل الوحدة

لم تكن ألمانيا في القرن الثامن عشر تعني دولة واحدة أو وحدة قياسية معينة، بل عدداً كبيراً من الولايات والدويلات يزيد عن ثلاثمائة، ومرتبطة نظرياً بالهسبورغ في النمسا بوصفهم أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، التي أقامها أوتو الأول Otto عام ٩٦٢م، إلا أن كل واحدة منها كانت مستقلة من الناحية الفعلية، لم يكن لمعظم هذه الولايات شأن مهم يذكر عدا مملكة بروسيا التي استطاعت - بفضل تقاليدها العسكرية الصارمة وجهود ملوكها الأقياء من أسرة هوهنزلرن وفي مقدمتهم فريدريك الكبير (١٧٤٠-١٧٨٦) - أن تصبح لا مجرد مملكة قوية في ألمانيا فحسب، بل إحدى الدول الكبرى الرئيسية في أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر، وكان الشعب الألماني يعيش في ظل هذه الولايات في ظروف صعبة عاشها العمال والفلاحون وسكان المدن من الطبقة الوسطى، ولم يكن لدى الأمراء أي شعور بالاحساس القومي.

في ظل الثورة الفرنسية تأثر الألمان في الولايات المناخمة لفرنسا خاصة بشعاراتها ومبادئها، ثم جاء الاحتلال الفرنسي للأراضي الألمانية على يد نابليون بولابرت في بداية القرن التاسع عشر ليزيد من قوة الشعور القومي فيها، وقام نابليون بضم قسم آخر منها، وتقليص عدد الولايات الألمانية المتبقية إلى (٣٩) ولاية، وأقيم في السابع عشر من يوليو/ تموز ١٨٠٦ اتحاد للراين الذي ضم بافاريا وبادن وفرتمبرك وهس و١٢ ولاية صغيرة أخرى.

رغم أن نابليون أراد من هذه الخطوة إقامة دولة ثلثة في ألمانيا لها نفوذ بين النمسا وبروسيا، إلا أن هذه الخطوة كانت مفيدة لألمانيا؛ لأنها قللت من التجزئة التي كانت تعيشها البلاد، وأضعف نفوذ الإقطاعيين، وأدى قيام اتحاد الراين إلى انسحابهم من الإمبراطورية في الأول من أغسطس/ آب ١٨٠٦، كما امتنع نابليون عن الاعتراف بهذه الإمبراطورية، فخلع رئيسها الإسمي الإمبراطور فرنسيس الثاني التاج الذي لبسه لسلافه لعدة قرون. واكتفى بلقبه الجديد فرنسيس الأول إمبراطور النمسا لوراثي.

وأدى الاحتلال الفرنسي وهزيمة للجيش البروسي في معركة (بنا ولورشتاد) في أكتوبر/ تشرين الأول ١٨٠٦ إلى رد فعل قوي في نفوس الألمان، حثهم على الاتحاد والعمل في سبيل إنقاذ ألمانيا من الاحتلال الأجنبي، وفي عام ١٨٠٧ أطلق (جوهان فخته) أستاذ للفلسفة في جامعة برلين خطبته الشهيرة (إلى الأمة الألمانية) التي انعشت آمال الألمان، وشجنت همهم.

وظهرت في بروسيا شخصيات مهمة عملت على تهيئة بروسيا لقيادة الولايات الألمانية نحو الاتحاد، والتخلص من الاحتلال الأجنبي، ومن أشهر هؤلاء البارون فون شتاين الذي ألغى لرق عام ١٨٠٧، وأعاد تنظيم الحكومات البلدية في عام ١٨٠٨، ثم عزل بالاحاح من الفرنسيين الذين شعروا بأنه يهيئ بروسيا للحرب، واستمرت الإصلاحات من بعده على يد الأمير رينبرك الذي أصبح مستشاراً لبروسيا عام ١٨١٠ ، فقد أعاد الأخير تنظيم الجيش البروسي تحت إشراف قادة عسكريين بارزين، مثل شار نهورست، وكينيسناد بوين وغيرهم، ونفذت إصلاحات في التعليم تحت إشراف همبولد، وبفضلها لعبت القوات البروسية بقيادة المارشال بلوخر دوراً مهماً في تحرير القوات للنابليونية في معركة لايبزك عام ١٨١٣، وواترلو عام ١٨١٥، وارتفعت بذلك مكانة بروسيا بين الولايات الألمانية الأخرى، وأصبحت محط أنظار آمال الوطنيين الألمان في كل مكان^(٢٩).

ثانياً: ألمانيا بين ١٨١٤-١٨٦٠

لم تحظ ألمانيا باهتمام المجتمعين في مؤتمر فينا (١٨١٤-١٨١٥)، حيث عارضت النمسا وبروسيا إعادة توحيد الولايات الألمانية للكثيرة، ولم يبذل مجهود لإعادة إحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي انتهت عام ١٨٠٦، وطالب البارون فون شتاين بتوحيد ألمانيا كلها تحت سيادة دولة واحدة يعني بها بروسيا، ولكن مترنيخ وأمراء ألمانيا الجنوبية عارضوا ذلك، كما كان فردريك وليم للتالت ملك بروسيا متردداً، واستقر الرأي في النهاية على إقامة اتحاد ألماني يضم (٣٨) ولاية من بينها الإمبراطورية النمساوية ومملكة بروسيا. وتكون كل دولة حرة في إدارة شؤونها الخاصة، ولكن لا يحق لها التحالف مع دولة أجنبية ضد الاتحاد أو ضد الأعضاء.

وكان للاتحاد هيئة تشريعية مقرها فرانكفورت، أطلق عليها اسم (الدائت) Diet، أو البوندشتاغ لمناقشة المسائل التي تخص الاتحاد واتخاذ القرارات بشأنها، وكان الدائت يمثل حكام الدول الألمانية، وكان فيه ممثلون لكل من ملك إنكلترا بوصفه حاكماً لمقاطعة هانوفر، وملك الدانمارك بوصفه دوق لهولشتاين، وملك هولندا بوصفه دوق لوكسمبورغ، وكان الدائت تحت رئاسة مندوب النمساوي؛ لأن النمسا كانت رئيسة الاتحاد الألماني حسب مقررات مؤتمر فينا، فقد كان الدائت يمثل مصالح الدول الكبرى في أوروبا، ولا يمثل مصالح الشعب الألماني مطلقاً، فلم يستطع أن يعدّ جيشاً لألمانيا، بل بعض الحصون الاتحادية، وبقيت الحكومات المطلقة الملكية صاحبة اليد في الاتحاد الألماني عدا ساكس فيمار وفرتمبرغ وبادن وبافاريا وهس، حيث تشكلت فيها مجالس نيابية رغبة من حكامها في استمالة سكانها إليهم وصرف انظارهم عن بروميا. كانت مقررات مؤتمر فينا مبعث استياء للوطنيين الألمان الذين كانوا يرجون إقامة دولة ألمانية موحدة بعد هزيمة نابليون، وانتشر التذمر بين الشباب الوطني من الطلبة في الجامعات بصورة خاصة، ونظم هؤلاء أنفسهم في أندية عرفت بـ(شنشافت)، وكان تأسيس أول ناد من هذا النوع في جامعة ينا عام ١٨١٥، ومنها انتشرت النوادي إلى الجامعات الأخرى في وسط وجنوب ألمانيا، واتخذت هذه النوادي لنفسها شعار الشرف والحرية والوطن، وكان غرضها الاهتمام ببيت الدعوة إلى الوحدة الألمانية في أنحاء البلاد وتدريب الأعضاء تدريباً بدلياً ليكونوا أبرز الأعضاء العاملين في جسم الأمة الألمانية.

في عام ١٨١٧ عقد أعضاء هذه الأندية احتفالاً في قلعة فارتبرغ في مقاطعة ساكس فيمار التي اشتهرت بكونها معقل الأحرار في ألمانيا، وقد نظم هذا الاحتفال في الذكرى المئوية الثالثة لوقوف المصلح مارتن لوثر ضد البابوية، والذكرى الرابعة لمعركة لايبزك، إلا أن الاحتفال تحول إلى مظاهرة سياسية أثارت استياء حكام الاتحاد الألماني للرجعيين، وخاصة حكام النمسا، فأغلقت هذه النوادي، وفي مارس/ آذار ١٨١٩ قام طالب يدعى كارل ساند وهو عضو في نادي جامعة ينا باغتيال كاتب يدعى كوتزبو عُرف بـرجعيته، ويعمل في خدمة فيصر روسيا الاسكندر الأول، وشاع أنه كان

بحث القيصر على دعم مترنيخ في سياسته الرجعية، واتخذ مترنيخ من هذه الحادثة مبرراً لضرب العناصر الوطنية في ألمانيا، ودعا حكام الاتحاد الألماني إلى عقد اجتماع في كارلسبارد في سبتمبر/ أيلول ١٨١٩، وصدر عن الاجتماع قرارات عرفت بمراسيم كالسبارد لكتت على تقييد الصحافة، ووضع الجامعات تحت رقابة حكومية، ومنع تشكيل الجمعيات أو عقد الاجتماعات السياسية، وتشكيل لجنة مركزية في ملينز للبحث عن الوطنيين ومعالجتهم، ونُفذت هذه المراسيم بدقة في الولايات الألمانية، وحنّت من قدرة الحركة الوطنية الألمانية، حتى ثورات عام ١٨٤٨.

كانت بروسيا في وضع أفضل من النمسا بعد الإصلاحات التي أعقبت هزيمة بنا عام ١٨٠٦، وفي مؤتمر فينا تنازلت بروسيا عن رقعة واسعة من الأراضي البولندية التي بحوزتها لروسيا، وحصلت بدلاً عن ذلك على خمسي سكسونيا، ومقاطعة الراين ودوقية وستغاليا، وأدى ذلك إلى زيادة عدد سكانها ومساحتها، وتحول نقل المملكة من بولندا إلى ألمانيا، وأصبحت حامية الحدود الغربية لألمانيا ضد فرنسا، وأصبح الهدف للسياسة البروسية مد نفوذ بروسيا إلى المناطق التي تفصلها عن الراين أو توحيد شمال إيطاليا، وشهدت مملكة بروسيا من الناحية الاقتصادية وخاصة في الأقسام الغربية منها - أي مقاطعة الراين وستغاليا - تطوراً في الصناعة، وظهرت فيها طبقة وسطى رأت في التفرقة وعدم الوحدة السياسية عاملاً يعرقل تطور السوق والتجارة نظراً للرسوم الكمركية، وتم تأسيس (الاتحاد للكمركي) زولفرلين عام ١٨١٨، والفضل فيه إلى ماسن Massen وزير مالية بروسيا آنذاك، وانضمت إليه معظم الولايات الاتحادية أو الألمانية والذي تزعمته بروسيا، وكان هذا بداية الاتحاد السياسي بين الدول الألمانية.

وبعد وفاة فريدريك وليم الثالث عام ١٨٤٠ تولى عرش بروسيا الملك فريدريك وليم الرابع (١٨٤٠-١٨٦١) الذي عرف برغبته بإجراء الإصلاح، وميله للثقافة والأدب والفنون، وأعلن في البداية عن العفو العام عن المعجناة السياسيين، وخفف للرقابة على الصحافة.

وزادت النزعة القومية والحرية في ألمانيا في الثلاثينات والأربعينات في القرن

التاسع عشر، وتطور الاقتصاد الألماني في هذه الفترة، وظهرت طبقة العمال التي أصبحت مصدراً للضغط والضغط الاجتماعي، وازداد شأن الطبقة الوسطى من تجار وصيارفة وأصحاب معامل مؤيدين للتغيير السياسي باتجاه توحيد ألمانيا، وأدى من جانب آخر دخول السفن البخارية والسكك الحديدية وأجهزة الاتصال إلى تسهيل الاتصالات بين الدويلات الألمانية المختلفة، ونقل الأفكار والمشاعر القومية، والوعي بين أبناء الشعب الألماني.

في عام ١٨٤٨ تشجع دعاة الحرية والقومية بقيام الثورة في فرنسا وإيطاليا والدول الأوروبية، وفي برلين قام السكان بوضع مقترحات في الشوارع عام ١٨٤٨، وحاول فريدريك الرابع تهدئتهم بوعود من أجل إقامة اتحاد ألماني قومي، وشكل وزارة حرة وجمعية تأسيسية في مايو/ أيار ١٨٤٨ لوضع دستور حر لمملكة بروسيا، وفي بافاريا أجبر الملك لويس الأول على التنازل عن العرش لابنه ماكسميليان الثاني الذي أقسم على جعل الدستور حراً.

وفي بادن وفريمبرك وسكسونيا والدويلات الألمانية الأخرى تخوف حكامها وعينوا وزارات حرة، ووافقوا على الحكم الدستوري وحرية الصحافة، فقررت العناصر القومية الحرة المضي في سبيل إقامة اتحاد ألماني يكون حراً وقومياً، وبحل محل الاتحاد الألماني الذي لاقاه مؤتمر فيينا، وجرت انتخابات شعبية لاختيار أعضاء جمعية وطنية ألمانية لتنفيذ هذه المهمة، ووضع خطط الاتحاد، وفاز الأحرار بأكثرية في الجمعية الوطنية التي عقدت اجتماعاً في فرانكفورت في مايو/ أيار ١٨٤٨، وتوقف مجلس الداييت عن العمل، وكانت هذه الجمعية تضم شخصيات كان حماسها وطموحها من أجل التوسع والوحدة في ألمانيا.

قبل وضع الدستور كانت الجمعية الوطنية في فرانكفورت قد أقامت حكومة نيابية مؤقتة للاتحاد الألماني، واختارت أميراً من أسرة هسبورغ هو الأرشدوق جون، واعترفت به الإمارات الألمانية، ثم استمرت دراسة شكل الاتحاد الألماني الجديد، وكانت المشكلة الأساسية هي: هل يضم الاتحاد السكان الألمان في النمسا أم كل الإمبراطورية؟ وقررت الجمعية أخيراً أن تكون النمسا دخلة في الدولة الجديدة باسم

للنمسا نفسها، ثم ان المشكلة الأخرى هي قبول الحكام في الولايات بتقليل نفوذهم. وكانت الثورة قد فشلت في النمسا، وتشجع ملك بروسيا، وأقدم في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٤٨ على عزل وزرائه الأحرار، وحل البرلمان، ووضع دستور جديد يركز السلطة السياسية بيد الملك ووزرائه، مع استشارة البرلمان - الذي يمثل النبلاء والفئات الغنية في الطبقة الوسطى - في بعض القضايا.

وقد بعثت هذه التطورات الأمل في نفوس حكام للدول الألمانية، وطلبت للنمسا حل الجمعية الوطنية وإعادة الداييت لتقديم في فرانكفورت، واتجهت للجمعية الوطنية نحو بروسيا، وعرضت على فريدريك وليم الرابع في أبريل/ نيسان ١٨٤٩ تاج الاتحاد الألماني بعد ان قررت اقضاء النمسا منه، لكن فريدريك وليم الرابع الاوتوقراطي المعروف في نزعته رفض هذا العرض ولن يستلم تاجاً غير مرفوع إليه من الأمراء الألمان، واستوراً لم تقره حكومات ألمانيا، فضلاً عن خشية ملك بروسيا من الحرب مع النمسا الراضية لمثل هذه الفكرة، وربما روسيا القيصرية التي تعارضها، والمشاكل مع الدول الألمانية الأخرى، وهكذا فشلت جهود للجمعية الوطنية.

أدى هذا الوضع إلى ثورة الوطنيين والقوميين الألمان، وحاولوا في مايو/ أيار ١٨٤٩ خلع الأمراء والحكام الألمان وإقامة الجمهوريات في مختلف أنحاء ألمانيا، إلا ان الجيش البروسي تدخل وقمع هذه الجماعات، وقمع كل ثورات، واضطر أعضاء جمعية فرانكفورت الوطنية لمغادرة ألمانيا إلى الولايات المتحدة.

اعتقد ملك بروسيا ان النمسا أصبحت خارج الاتحاد الألماني بعد قرار جمعية فرانكفورت، وان الداييت قد تلاشى، وحاول طرح مشروع بديل لإقامة اتحاد ألماني بموافقة الأمراء والحكام الألمان تحت زعامة بروسيا، ودعا برلماناً اتحادياً للانعقاد في أرفرت لوضع دستور اتحادي، ونجح في كسب تأييد (٢٨) من الدول الألمانية الصغيرة، ولكن مستشار النمسا شفلرترزمبرك الذي ظهر على الساحة السياسية للنمساوية عام ١٨٤٩ عارض هذا المشروع، وأصرّ على إعادة الاتحاد الألماني إلى وضعه الذي فكره مؤتمر فيينا، وهدد بروسيا بالحرب ان هي رفضت ذلك.

وأذن ملك بروسيا لمطالب النمسا بموجب صلح المتمر Olmutz في الخامس والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٥٠، وعاد للدائت للقديم إلى الاعتقاد في فرانكفورت برئاسة ممثل النمسا، وأرسلت بروسيا مندوباً عنها إليه.

أنت ثورة ١٨٤٨ في ألمانيا إلى نتائج إيجابية على الرغم من فشلها، فقد سجلت بداية مشاركة الشعب الألماني في الحياة السياسية للأمة الألمانية بعد أن كانت السياسة مقتصرة على فئة محددة. وظهرت نقاشات حول الحرية والدستور والإصلاحات بين الكثيرين، وبلور ذلك في إقامة رأي عام نحو توحيد ألمانيا، ووضحت الثورة للمواقف السياسية، وشجعت تشكيل الجمعيات السياسية، وبرزت النزعة القومية نتيجة هذه النقاشات والحوارات.

وبعد عقد من هذه الأحداث هُزمت النمسا على يد القوات الفرنسية والمردنية عام ١٨٥٩، وأجبرت على التخلي عن لومبارديا لمملكة سردينيا، وخاضت النمسا غمار تلك الحرب دون أن تهب أي من دول الاتحاد الألماني لنجبتها، وإن كانت بروسيا قد استنفرت فرقها العسكرية في مقاطعة الراين، واثارت للحرب للرأي العام الألماني؛ لأن كثيراً من الألمان فكروا بأن لألمانيا بحاجة إلى أن تكون قوة دولية، ودلت تجربة عام ١٨٥٩ على عجز الاتحاد الألماني بسبب اختلاف بروسيا والنمسا، وظهرت خلال هذه الفترة ثلاثة اتجاهات أساسية، الاتجاه الأول ألمانيا الصغيرة تحت زعامة بروسيا، والاتجاه الثاني لألمانيا الكبيرة أي للوحدة الألمانية التامة التي تشمل جميع الألمان، ومنهم الألمان للنمساويين، والاتجاه الثالث يدعو إلى الوحدة الألمانية بشكل يشمل الإمبراطورية النمساوية كلها، بما فيها غير الألمان في تلك الإمبراطورية.

كان أنصار الاتجاه الأول هم الليبراليين في شمال ووسط ألمانيا، أما الاتجاه الثاني فهم في جنوب ألمانيا من الكاثوليك، ويرى خطراً في إقامة دولة لألمانية موحدة أكثرية شعبها من البروتستانت، وهم من المحافظين والرجعيين والنبلاء والملوك للكبار والبرجوازية. وقام بعض الأحرار في شمال ألمانيا بتأسيس جمعية قومية في سبتمبر/ أيلول ١٨٥٩ تضمن برنامجها تحقيق للوحدة حسب فكرة ألمانيا الصغيرة، وكان هدف الجمعية التأثير في الصحافة والبرلمانات، وأنشأت لها فروعاً في أنحاء

مختلفة من ألمانيا، وعقدت مؤتمرات سنوية (١٨٦٠-١٨٦١) للتعريف ببرامجها وأهدافها، وقد هيات الأجواء في البلاد نحو رأي علم ألماني موحد تحت زعامة بروسيا من مفكرين وقانونيين وتجار وصناعيين^(٣٠).

ثالثاً: بسمارك والوحدة الألمانية

ولد بسمارك في أبريل/ نيسان ١٨١٥ في بلدة شونهاوسن بالقرب براندنبرك نواة مملكة بروسيا الحديثة، وهو ينتمي إلى أسرة نبيلة، وكان والده ضابطاً في الجيش البروسي، ودرس في جامعة كونيكن، وتخرج فيها محامياً في عام ١٨٣٦، إلا أنه لم يمارس المحاماة، وعمل في سلك الخدمة المدنية البروسية، إلا أنه سرعان ما تركها. عُرف في بداية حياته بميله إلى اللهو والمُشراب، إلا أنه تغير منذ عام ١٨٤٧ بعد زواجه، وأصبح محافظاً، وأكثر ميلاً إلى الدين، وبدأ حياته السياسية في عام ١٨٤٧ عندما دخل للدايت البروسي عضواً، وفي عام ١٨٥١ أصبح مندوباً عن بروسيا في الدايت الألماني في فرانكفورت، ثم سفيراً لبلاده في فيينا منذ عام ١٨٥٤، وفي بطرسبورغ عاصمة روسيا القيصرية منذ عام ١٨٥٩، ثم لوقت قصير من سنة ١٨٦٢ سفيراً لبلاده في باريس.

عُرف بسمارك بعدائه للديمقراطية ومغالاته في حبه لبروسيا وألمانيا، وكان يعد الحكم المطلق أفضل أنواع الحكومات، وعُرف بعدائه للنمسا وعدّها عدوة للوحدة الألمانية، وكان يعتقد أن هذه الوحدة لا يمكن أن تتحقق إلا بزعامة بروسيا وأن تحقيقها لا بد أن يتم بالقوة طالما أن الاتفاق بين بروسيا والنمسا مستحيل، ومنذ بداية توليه منصب المستشارية أفضى بسمارك إلى السياسي البريطاني دزرائيلي أنه يعتزم إعلان للحرب على النمسا.

واجه بسمارك البرلمان البروسي عام ١٨٦٢ بميامة استخدام الحديد والنفار، وكان هدف بسمارك تحطيم الأحرار، ودعم سلطان النبلاء والجيش والملك، وجعل بروسيا مقابل النمسا للقوة المسيطرة لا بين الألمان فحسب، بل على أوروبا، وأعلن أمام البرلمان البروسي أن بروسيا بحاجة إلى قوة عسكرية، وبموافقة من الملك حكم

بروسيا بسمارك منذ عام ١٨٦٢ دون ميزانية مشروعة ودون برلمان، وأمر بفرض الضرائب، وجمعها، وتنفيذ برنامج الإصلاح العسكري.

أنشأ بسمارك جيشاً بروسياً قوياً يمكن الاعتماد عليه في إقامة دولة قومية ألمانية تحتل فيها بروسيا للمركز الأساس، ووجه في عام ١٨٦٤ أولى الضربات إلى للدانمارك نتيجة النزاع حول دوقيتي شلزفيك وهولشتاين، وكان ملك للدانمارك يحكم هاتين الدوقيتين اللتين كان أغلب سكانهما من الألمان، وكان ضمن الاتحاد الذي أقامه مؤتمر فيينا.

وقد حاولت الدانمارك في عام ١٨٤٨ ضم للدوقيتين إليها بصورة نهائية، فقامت للحرب بينها وبين بروسيا. وفي عام ١٨٥٢ تم للتوصل بعد تدخل الدول الكبرى إلى حل وسط بعدم ضم للدوقيتين إلى للدانمارك، وعندما تولى حكم الأخيرة الملك كرسثيان التاسع بعد موت سلفه فريدريك السابع عام ١٨٦٣، قام بضم الدوقيتين إلى بلاده خلافاً لاتفاق عام ١٨٥٢، واتجهت بروسيا والنمسا للدفاع عن مصالح الألمان في الدوقيتين، وشتت الحرب على للدانمارك في عام ١٨٦٤، وقد اضطرت الدانمارك إلى الاستسلام في عام ١٨٦٤، وتسليم الدوقيتين إلى بروسيا والنمسا، وقد اقترحت النمسا تكوين دولة منفصلة من للدوقيتين تكون عضواً في الاتحاد الألماني، ووافق اللاديت على ذلك بأغلبية قليلة، إلا أن بسمارك رفض ذلك، وأفكر على اللاديت حقه في للتدخل في أمر بهم للنمسا وبروسيا، وبعد مفاوضات دبلوماسية تم للتوصل إلى اتفاق مؤقت هو لاتفاق كاشتاين في أغسطس/ آب ١٨٦٥، وعهد إلى بروسيا بإدارة شلزفيك وإلى للنمسا بإدارة هولشتاين لحين للتوصل إلى تسوية نهائية.

توجه بسمارك إلى النمسا عدوة للوحدة الألمانية حسبما يرى، ولكن قبل توجيه مثل هذه الضربة كان لا بد من التمهيد الدبلوماسي وضمان وقوف الدول الكبرى على الحياد، وعدم حصول النمسا على أي عون عسكري خارجي.

كان بسمارك مطمئناً إلى موقف بريطانيا؛ لأن الرأي العام كان ميالاً فيها إلى بروسيا بسبب اتباع الاتحاد للكمركي، وسياسة حرية للتجارة عكس سياسة الحماية للكمركية التي تتبعها النمسا، وبسبب وقوف الأحرار الانكليز للموقف المعادي من أية

دولة أوروبية كبيرة تعارض الحرية والوحدة القومية، مثل روسيا والنمسا، وكان بسمارك مطمئناً على موقف روسيا القيصرية أيضاً، نتيجة استياء القيصر من رفض النمسا مساعدة بلاده في حرب القرم واعترافه بحميل بروسيا بسبب تأييدها لروسيا ضد الثورة البولندية عام ١٨٦٣.

وقد عقد اتفاق بين روسيا وبروسيا عام ١٨٦٥ بشأن بولندا، وكان هذا الاتفاق يسمح لبسمارك أن يأمن حبلاد روسيا في حال نشوب الحرب بين بروسيا والنمسا. أما فرنسا فإن بسمارك اجتمع مع نابليون الثالث في بيارنيز في أكتوبر/ تشرين الأول ١٨٦٥، وتمكن من ضمان حبلاد فرنسا مقابل وعود غامضة حول مكاسب لفرنسا إقليمية في الراين، أما إيطاليا فإن بسمارك عقد تحالفاً مع مملكة سردينيا في إبريل/ نيسان ١٨٦٦ موجهاً ضد النمسا، نص على حصول مملكة سردينيا على البندقية بعد هزيمة للنمسا.

اتجه بسمارك بعد ذلك - أي عزل للنمسا - لمحاولة جرّها نحو الحرب عن طريق دوقتي شلزويك وهولشتاين والاتحاد الألماني، فقد اتهم للنمسا بخرق اتفاق كامشتاين، وذلك بتأييدها للدوق لوكسنبورك الذي كان يطالب بالسيادة على الدوقتين، ولرسل للقوات البروسية إلى هولشتاين لاحتلالها وطرد الموظفين النمساويين منها، وتقدم في الوقت نفسه إلى الداييت الألماني بمشروع الإصلاح للاتحاد الألماني واستثناء للنمسا منه.

وقد رفضت النمسا ذلك، وطلبت من الداييت رفض مشروع الإصلاح وإعلان التعبئة العامة في ألمانيا، وقد لحتج ممثل بروسيا في الداييت على هذا الطلب، ولكن مندوبين أكثر من الدول الأوروبية وافقوا عليه، ومنهم مندوبو بعض الدول المهمة في الاتحاد الأوروبي مثل مكمونيا وهانوفر وهس ولارسل وغيرها.

كان تأييد الحكام الألمان لطلب النمسا يقوم على أساس افتراض أن إصلاح الاتحاد الألماني بالشكل الذي اقترحه بسمارك، أي باستثناء النمسا منه سيضعف الاتحاد الألماني، وشعروا بأن انفرد بروسيا بزعامة الاتحاد الألماني سيضعف في النهاية من نفوذهم، وقد أيد للطلب النمساوي الكثير من الأحرار الذين كانوا يخشون الاتجاه

المحافظ في بروسيا، وأيده الكاثوليك الذين تعاطفوا مع النمسا الكاثوليكية، وحذرت بروسيا حكام الدول الألمانية بأن تأييد الطلب للنمساوي سيعد في برلين بمثابة إعلان حرب على بروسيا، وفي الثاني عشر من يونيو/ حزيران ١٨٦٦ قطعت العلاقات للدبلوماسية بين بروسيا والنمسا، وبعد يومين انسحب مندوبو بروسيا من الدائيت، وعلنوا أن الاتحاد الألماني أصبح لاغياً، ودعوا إلى السير خلف للقيادة البروسية وإقامة دولة ألمانية جديدة.

إلا أن حكام سكسونيا وهانوفر وهس وكاسل رفضوا الدعوة لإنهاء التعبئة والانضمام لإصلاح الاتحاد الألماني، ولم يستجيبوا إلى المذكرة البروسية، فقام الجيش البروسي بغزو مقاطعاتهم في الساعات عشر من يونيو/ حزيران ١٨٦٦، ووصف بسمارك حربه هذه بأنها حرب دفاعية ضد النمسا وحليفاتها من الدول الألمانية من أجل توحيد ألمانيا.

عُرفت حرب عام ١٨٦٦ باسم حرب الأسابيع السبعة، واستطاعت بروسيا احتلال سكسونيا وهانوفر وكاسل وهس، وسيطرت بهذا الشكل على شمال ووسط ألمانيا، وفي الثالث من يوليو/ تموز ١ٸ٦٦ أنزل الجيش البروسي هزيمة بالجيش النمساوي، وغيّرت معركة ساندوا مجرى الحرب وميزان القوى في أوروبا، ولم يستمر بسمارك في حربه ضد النمسا؛ لأنه كان يريد الدوقتين وإخراج النمسا من الاتحاد الألماني، وخوفاً من تدخل فرنسي أو روسي في حال استمرار الحرب.

وقد انتهت الحرب البروسية - النمساوية في معاهدة براغ في الثالث والعشرين من أغسطس/ آب ١٨٦٦ التي ألغت الاتحاد الألماني للقائم منذ عام ١٨١٥، ونصّت على ضم دوقتي شلزووك وهولشتاين إلى بروسيا، ومنح البلديّة إلى سردينيا في إيطاليا، وإقامة اتحاد ألماني شمالي تحت رئاسة بروسيا وتُستثنى النمسا، وأصبحت بروسيا القوة العسكرية المهيمنة شمال نهرين، وألحقت بها مملكة هانوفر ودوقيتي هس وكاسل وناسا وفرانكفورت، وازداد سكان بروسيا إلى ٤,٥ مليون نسمة.

وأدرك بسمارك أن هذه الشروط كافية الآن خوفاً من إذلال النمسا بشروط قاسية قد تنعكس عليه في المستقبل، لا سيما وأن فرنسا في عهد نابليون الثالث كانت

معارضة لإقامة دولة ألمانية موحدة وقوية، وأصر نابليون الثالث بعد هزيمة النمسا على إقامة اتحاد شمالي ألمانيا، وتعهدت بروسيا باحترام الدول الألمانية الجنوبية، وهي بافاريا وبادن ومزيمبرك وهس ودالمشتاد، وإن يترك لها حق إقامة اتحاد خاص بها، وأمل نابليون أن تطلب هذه الإمارات الحماية الفرنسية، مما يسهل عليه أمر للتدخل في الشؤون الألمانية.

شكل بسمارك بناء على معاهدة براغ اتحاد شمالي ألمانيا، وضم بروسيا وعشرين دولة ألمانية تقع شمال نهرين، ووضع دستوراً للاتحاد، احتفظت كل دولة بموجبه بقدر من الحكم الذاتي، ولكنها خضعت جميعاً إلى حكم اتحادي أعطيت فيه السلطة التنفيذية إلى ملك بروسيا كرئيس للاتحاد بمساعدة مستشارين ووزراء مسؤولين أمامه.

أما السلطة التشريعية، فقد عهدت إلى برلمان من مجلسين، هما اللوب (الرايخشتاغ)، ومجلس الاتحاد (البوندسرات)، وكان للرايخشتاغ يُنتخب بالاقتراع العام من الشعب، إلا أنه لم يكن في مقدوره تأليف لوزارات أو إسقاطها أو لهيمنة على ميزانية الدولة أو تخصيصات الجيش، أي أن المجلس لم يخول حق السيادة في الدولة، أما المجلس الآخر البوندسرات فكان الهيئة الحقيقية الحاكمة للاتحاد، وضم (٤٢) مندوباً يمثلون حكومات اتحاد شمالي ألمانيا، وتجرى جلساته سرية تحت رئاسة مستشار الاتحاد، الذي كان في الوقت نفسه مستشار بروسيا.

وقد منح الدستور ملك بروسيا - بصفته رئيس الاتحاد - حق الاشراف على السياسة الخارجية والجيش وحق إعلان الحرب.

سعى بسمارك إلى توثيق العلاقات السياسية والاقتصادية بين اتحاد شمالي ألمانيا والدول الألمانية الجنوبية، واستند بسمارك إلى إثارة مخاوف هذه الدول من فرنسا من أجل كسبها إلى جانب بروسيا، لا سيما أن نابليون الثالث أخذ يطلب بسمارك بالتعويضات بعد الحرب، وطالب بحصول فرنسا على بلجيكا ولكسمبورغ ومناطق في الراين، إلا أن بسمارك تشدد في موقفه، وخاصة بعد هزيمة النمسا، وأعلن أنه لن يتنازل عن الأراضي الألمانية، ثم لُطِّع للدويلات الأربع على لطماع فرنسا، مما

دفعها إلى الدخول في تحالفات عسكرية سرية مع بروسيا ضد فرنسا.

وبدأ بسمارك بخطط للحرب ضد فرنسا التي تعارض الوحدة الألمانية، وكان يعتقد أن الجيش البروسي أفضل من الجيش الفرنسي، وأن الدول الجنوبية سوف تنثور بحماسة بسبب الحرب وتتف مع بروسيا واتحاد شمالي ألمانيا^(٣١).

رابعاً: الحرب مع فرنسا وإقامة الوحدة الألمانية

كان بسمارك ينتظر الفرصة أو الحجة لإعلان الحرب على فرنسا، وفي عام ١٨٦٨ أطاح لثقلاب عسكري بحكم الملكة إيزابيلا في إسبانيا، وتطلع الأسبان إلى ترشيح ملك جديد في البلاد، وقد وقع اختيارهم على أحد أمراء بيت هوهنزلرن سكارنكن H. Sigmarinigin، وهو الأمير ليوبولد ابن مستشار بروسيا السابق كارل أنطون، وكان أخا الأمير شارل الذي لنتخب أميراً على رومانيا في عام ١٨٦٦، وبعد عدة اتصالات لعب فيها بسمارك دوراً مهماً وافق الأمير ليوبولد على قبول عرش إسبانيا الشاغر في حزيران ١٨٧٠، وعلمت للحكومة الفرنسية بالأمر بعد أيام، مما أدى إلى توتر العلاقات بينها وبين بروسيا، وعد الفرنسيون أن هذا الأمر تهديداً لهم، وقرروا إعلان الحرب على بروسيا؛ لأنها قلبت توازن القوى في أوروبا في غير مصلحة فرنسا.

وأعلن الأمير كارل أنطون باسم ابنه سحب ترشيحه للعرش الإسباني، ووصل الخبر إلى باريس في الحادي عشر من يوليو/ تموز ١٨٧٠، وبدأ وكان الحرب ثلاثت عن المنطقة، إلا أن الحكومة الفرنسية ارتكبت خطأ أشعل فتيل الحرب، فقد طلبت من (بلديتي) سفيرها في بروسيا مقابلة وليم الأول والحصول على تأكيد منه بعدم ترشيح ليوبولد مرة أخرى، ولكن الملك رفض إعطاء السفير أي وعد، وأبرق إلى مستشاره بسمارك في برلين يخبره بأنه موافق على تنازل ليوبولد عن الترشيح، وأنه سينهي المشاكل مع فرنسا، ونشر بسمارك البرقية في الصحف، وأظهر أن الملك الألماني لحقت به الإهانة، وبالعكس فإن سفير فرنسا لحقت به هو أيضاً وبحكومته الإهانة، وهكذا أعلنت فرنسا في الرابع عشر من يوليو/ تموز ١٨٧٠ الحرب على بروسيا تزامناً مع العيد الوطني الفرنسي.

استطاع بسمارك قبيل الحرب أن يجعل فرنسا تعيش في عزلة عن إيطارها الأوروبي، فقد ضمن حبلد للنمسا وروسيا، وأبعد بريطانيا عن فرنسا بنشر مطالبة نابليون الثالث ببلجيكا التي حرصت بريطانيا على استقلالها، ومن الناحية العسكرية كان التفوق لصالح الجيش البروسي من حيث العدد والتنظيم والتسلح، ومعه انضمت الدويلات الأربع في الجنوب مرتبطة بمعاهدات مع بروسيا، وكان الحماس الوطني يجتاح ألمانيا، وكان للشعب الفرنسي يعاني من تعدد الآراء والأحزاب.

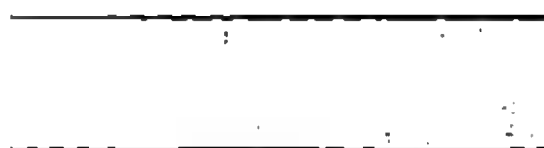
لم تستطع للقوات الفرنسية أن تواجه تفوق الجيش البروسي، وانكسر منذ بداية الحرب الجيش الفرنسي أمام البروسيين والألمان عامة، وسيطر الآخرون على مقاطعتي الألزاس واللورين، وفي الثاني من سبتمبر/ أيلول هُزم جيش نابليون الثالث أمام الألمان في معركة سيدان Sedan، وأسر نابلون نفسه مع آلاف من جنوده وضباطه، وفي الثامن عشر منه أُنزل (مولتكه) هزيمة ساحقة بجيش فرنسي آخر، واستولى على حصن متيز، واستسلمت أعداد كبيرة من الجنود، وتقدم الألمان صوب باريس، وفرضوا عليها الحصار، وفي العاشر من مايو/ أيار ١٨٧١ انتهت للحرب بمعاهدة فرانكفورت التي عقدت بين بروسيا وحكومة الدفاع للوطني الفرنسية التي تشكلت في الرابع من سبتمبر/ أيلول ١٨٧٠ بعد هزيمة نابليون الثالث وأسرته، وقد تنازلت فرنسا بموجب المعاهدة عن الألزاس واللورين ومتيز إلى بروسيا، وفرضت على فرنسا غرامة حربية قدرها خمسة آلاف مليون فرنك، وأن يستمر احتلال القوات الألمانية للأجزاء الشمالية من فرنسا حتى يتم دفع الغرامة الحربية. وبقيت للقوات الألمانية في هذه المناطق حتى دفعت الغرامة في عام ١٨٧٣.

إن من أبرز نتائج الحرب الفرنسية - الألمانية هو قيام الوحدة الألمانية، فقد أثارت مشاركة الجنوبيين الألمان في الحرب مع الألمان الشماليين موجة من الحماس والشعور القومي، تغلبت على المناقصات بين الحكام، وعلى شكوك الأحرار في بروسيا ونظامها السياسي، وقد عقدت معاهدات للوحدة بين بسمارك ممثلاً عن اتحاد شمالي ألمانيا، وبين حكومات الدول الألمانية الجنوبية في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٧٠ أي قبل انتهاء الحرب مع فرنسا.

وتقرر تغيير اسم الاتحاد الألماني إلى الإمبراطورية الألمانية، وتغيير لقب (ملك بروسيا) إلى (الإمبراطور الألماني)، وتم إعلان إقامة الإمبراطورية الألمانية في الثامن عشر من كانون الثاني/ يناير ١٨٧١ في قاعة المرايا بقصر فرساي في ضواحي باريس، حيث قرأ بسمارك المرسوم الإمبراطوري، وأعلن وليم الأول ملك بروسيا إمبراطوراً لألمانيا، وتحقق لبسمارك ما أراد منذ توليه منصب المستشار في عام ١٨٦٢، وهو استخدام القوة والعامل العسكري بدل الليبرالية والآراء الحرة وجلسات البرلمان من أجل تحقيق حلم كل الألمان شمالاً وجنوباً، وهو للوحدة الألمانية، فأصبحت ألمانيا دولة واحدة وموحدة، دولة قوية مؤثرة في السياسة الأوروبية، وانتقلت فرنسا إلى الدرجة الثانية، وانتقل الثقل السياسي في غرب أوروبا من فرنسا إلى ألمانيا، لتظهر أمة جديدة منتصرة ودولة حديثة^(٣٢).

الفصل العاشر

الجمهورية الفرنسية الثالثة



أولاً: ثورة باريس

سالت فرنسا بعد هزيمتها في حرب السبعين أمام ألمانيا حالة من اليأس من الاستفتاءات والديكتاتوريات، وكانت الأكثرية من الشعب الفرنسي قد ضجرت من قضية الدستور والجمهورية، ولذا فإن الانتخابات التي جرت في الثامن من فبراير/ شباط ١٨٧١ للجمعية التأسيسية، انتُخب فيها (٤٠٠) عضو ممن يناصرون إعادة الملكية من (٦٥٠) عضواً يشكلون الجمعية.

إلا أن الحكومة الملكية لم ترَ النور، بل قامت جمهورية من هذه الجمعية التي تميل بشدة إلى النظام الملكي؛ وذلك أن فرنسا أخذت تدرك أن قيام الملكية بات مستحيلاً في الوقت الحاضر، نظراً للانشقاق الذي دب بين أنصار أسرتي بوريون ولورليان في الجمعية، ولاستياء الهيئات النيابية في باريس استياء عنيفاً من أية محاولة ترمي إلى إرجاع الملكية في فرنسا.

وكانت حكومة باريس جمهورية الاتجاه، وتفيض حماسة لحرب ضد ألمانيا، واعتقد الباريسيون أن جمعيتهم الوطنية قد باعت لبلاد العدو، وإنها تدبر للمؤامرات لإعادة النظام القديم بسيناته وجوره، فأنثرت باريس التمرد والثورة والقتال دون الخضوع لانصار الملكية لنصرتهم للملكية واستسلامهم للعدو.

لقد كانت باريس مستاءة من الوجود الألماني الذي يثير عزة الباريسيين، وكان للحرس الأهلي قد تسلح للمقاومة في حالة دخول الألمان العاصمة، وعلى أن تبقى أسلحته في حصونه ومعسكراته، إلا أن حكومة فرمائي أرسلت كتيبة للاستيلاء على مدافع الثوار، وتمرد للحرس وأسر قائد الكتيبة، واستمال إليه أفرادها، وأعدم قائدها، وعلى أثر ذلك حدثت ثورة شكّلت بها (كومونة باريس للثورية) في الثامن عشر من آذار/ مارس ١٨٧١.

كانت ثورة باريس - التي قادها بعض أعضاء بلدية باريس - لها أهداف، منها تحويل فرنسا إلى اتحاد تعاهدي يتألف من جمهوريات محلية تقوم في مقاطعات

مختلفة، وتقويض النظام الرأسمالي العالمي.

قام تيير رئيس الحكومة المؤقتة في باريس باستخدام القوة في قمع الثورة، وحشد (١٣٠) ألفاً من الجنود في مايو/ أيار ١٨٧١، وتفرغت الحكومة بتوقيع معاهدة فرانكفورت مع ألمانيا لإخماد الثورة التي ألحقت الخراب والحرق والتدمير في بنايات المدينة وإداراتها، وقد قررت الحكومة سحق الثورة بشدة وقسوة (بين ٢١-٢٨ مايو/ أيار)، وانتهت هذه الثورة، وأكدت أن الجمهوريات تستخدم كل الأساليب الرجعية والمحافظة من أجل مصالحها.

ثانياً: الجمهورية وستور ١٨٧٥

استمرت الحكومة المؤقتة في باريس، وازداد عدد أنصارها، ولما عرضت أمام الجمعية أحكام الدستور من أجل للتداول والبحث تم إقرارها بأغلبية الأصوات، وتقوى أنصار الجمهورية المحافظين على الملكيين.

ولذلك تيير أن الجمهورية المحافظة هي أقل أشكال الحكم مثاراً للنزاع بين الفرنسيين، وأعلن أمام الناس تأييده للجمهوريين، فالتحت الملكية وأنصارها ضده، وأجبرته على الاستقالة في الرابع والعشرين من مايو/ أيار ١٨٧٢، وانتخبت الجمعية الوطنية بدلاً منه للمارشال مكماهون رئيساً لسبع سنوات، وكان معروفاً عنه تقربه من حزب بوربون والاكليروس.

وأجريت في فبراير/ شباط عام ١٨٧٦ انتخابات عامة لحزب فيها للجمهوريون أغلبية تربعوا على المائتين، وتألقت وزارة من لحزاب اليسار برئاسة جول سيمون، ولكن الملكيين لم يتراجعوا، حيث استقال مكماهون، وكلف الدوق دي برجلي بالوزارة، فاقم هذا لتعزيز موقفه على حل مجلس النواب في الخامس والعشرين. من يونيو/ حزيران ١٨٧٧، وإجراء انتخابات جديدة، وقد كسبت أغلبية الأحزاب الليبرالية المناصرة للجمهورية في هذه الانتخابات مقاعد كثيرة، واعتقد الشعب أن هذه الأحزاب ستذهب بفرنسا إلى اتون حرب جديد؛ نظراً للنزعة العسكرية، فاضطر مكماهون إلى

الامتثال لإرادة الشعب، وأعلن استقالته من رئاسة الجمهورية في الثلاثين من يناير/كانون الثاني ١٧٨٨، فقد حلّ المجلس قبل انتهاء المدة للقانونية، ومن ثم سمح لظهور مثل هذا الوضع غير الطبيعي.

كانت سمات الدستور لعام ١٨٧٥ تشير إلى خوف من الحرب والحكومات المطلقة في فرنسا والتي وصلت نتيجة الاستفتاءات الشعبية، ونص الدستور على وجود مجلسين، الأول شيوخ، والثاني نواب، وعلى انتخاب رئيس الجمهورية باقتراع هذين المجلسين في هيئة واحدة تتمتع في المؤتمر، لا من طريق الانتخاب العام.

وأعطى الدستور فرنسا حكومة برلمانية على الطراز الإنكليزي، فإنه وضع السلطة بيد الدولة والوزارة وجعلها مسؤولة أمام مجلس النواب، ولم يضعها بيد رئيس الجمهورية الذي ينتخب لسبع سنوات، فصارت فرنسا لأول مرة ديمقراطية برلمانية مثل إنكلترا، ففيها مجلس تشريعي كمجلس النواب الفرنسي، ليس من السهل حله قبل إكماله منته للشرعية، وهي أربع سنين، وللنظام الحزبي فيه ضعيف، ويتألف من أعضاء من فئات متنوعة صغيرة، وليس مثل الحزبين الكبيرين الإنكليزيين اللذين يقتلان في الساحة البرلمانية.

أدى هذا للنظام الحزبي في فرنسا إلى قصر عمر الوزارات الفرنسية، وتعرضت الوزارات للسقوط بين لحظة وأخرى؛ لأنها تكونت من مجموعات لا تهتم بعمر الوزارة أو جهودها لصالح الشعب بالدرجة الأولى، بل من أجل البرلمان والساحة الانتخابية، علماً أن للشعب الفرنسي لم يهتم كثيراً بهذه التقلبات، بل ظل اتجاهه للمسارح والأندية والثقافة والأدب أكثر من اتجاهه للمناقشات البرلمانية.

وظلت أوروبا تعيش بين (١٨٧٠-١٩١٤) على الصراع الألماني - الفرنسي وتحالفاته، ولم يطمئن المستشار بسمارك للجمهورية الثالثة، بل تخوف من الروح الاقتصادية لفرنسا، واستخدام الأساليب الرومية في جيشها، بعد أن ازداد عدد أفراد الجيش، ومع الخطب السياسية التي كان يطلقها للعامة الفرنسيون، ولولا

تدخل إنكلترا وروسيا لا يمكن لبسمارك الدخول ربما في حرب ضد فرنسا عام ١٨٧٥.

وظهر في هذه الفترة شاب فرنسي ذو حماسة ونكاه، هو جول فري J. Ferry (١٨٣٢-١٨٩٣) داعياً للسلام في عهد نابليون الثالث، وصعد نحو السلطة أيام الجمهورية الثالثة لمعارضته للتوسع الاستعماري ولكونه جمهورياً محافظاً، ولمعارضته لسياسة رجال الدين في مجال التعليم، وقد أصبح رئيساً للحكومة مرتين عام (١٨٨٠-١٨٨١)، و(١٨٨٣-١٨٨٥)، في الأولى احتلت فرنسا تونس، وفي الثانية احتلت مدغشقر، ووصلت للكونغو والنيجر والهند للصينية.

إلا أن أفكاره وسياسته الراديكالية المتقدمة والاستعمارية استغزت غضب الأكلريكيين من خلال التعليم العلماني الذي وضعه، فكان الأكلريكيون ينادون أن فرنسا ليست بحاجة إلى مستعمرات، وأن شارل الماشر تورط في الجزائر عام ١٨٣٠، وأن البلاد بحاجة إلى موارد داخلية أفضل من المجازفات الخارجية، والأفضل الاهتمام بعنواها اللدود فرنسا وسكان الأكراس واللورين الخاضعين للاحتلال الألماني.

ويبدو أن هذه الآراء فيها شيء من الصديق والحقيقة، فقد خسرت فرنسا صداقتها مع إيطاليا باحتلالها تونس، وجازفت عام ١٨٩٨ بقطع صلاتها مع إنكلترا في حادثة فاشودة الشهيرة، وتوترت علاقتها مع ألمانيا عام ١٩٠٥ وإسبانيا بسبب الأزمة المراكشية، ورغم ذلك فإن الإمبراطورية التي وضعها فري أفلتت فرنسا عسكرياً وسياسياً عشية الحرب العالمية الأولى، ثم أن فري قدم خدمات في وزارته بأن أقر قانونية النقابات العمالية، وكسب معركة التعليم العلماني، ونظام التعليم المجاني الاجباري العام الذي صدر في الثامن والعشرين من مارس/ آذار ١٨٨٢، وكان فري وزيراً للمعارف حينذاك، كما توصل إلى طرد اليسوعيين من المدارس ووضع الهيئات التعليمية تحت رقابة انضباطية، ورأى أن مناهج التعليم الدينية تضعف الثقة بالجمهورية، وتبعد فرنسا عن روح التقدم والعصر^(٣٣).

ثالثاً: الأحزاب الفرنسية

كان لضعف الأحزاب الفرنسية بعد الحرب عام ١٨٧٠ هو في صميمه صراعاً بين النظرة الدينية والنظرة العلمية العصرية، فكانت الأحزاب اليسارية من أثر المساومة في المجتمع مساومة وتعلوماً.

إن أغلبية الصناع والعمال كانوا يعتمدون على الشعائر الكنسية في حياتهم الدينية والاجتماعية، إلا أنهم اعتمدوا في الانتخابات على منح أصواتهم إلى ما هو ضد المبادئ الكليريكية، لأنهم كانوا يعتقدون أن تصويتهم ضد المساومة والنظام القديم والرجعية والإقطاع والنبلاء ونظام الامتيازات والجور والتعسف والاستغلال يذهب لمصلحة الملكية وللكليروس والدوائر يعقوبة النزعة.

ونظراً لضعف الكنيسة البروتستانتية الفرنسية فقد انشطرت فرنسا إلى قسمين، الأول متدين محافظ نصير للكليروس، والثاني راديكالي يكره المساومة، ويريد سيطرة العقل والعقلانية على البلاد، وظل هذا الأمر حتى عام ١٨٩٢ صراعاً بين الأحزاب الملكية والإمبراطورية، ونمت الاشتراكية والنقابية التي تدافع عن الجمهورية. في أواخر القرن التاسع عشر بنت فرنسا في الجمهورية الثالثة وكأنها بحاجة إلى تثبيت دعائمها، وإيجاد حكم مسدّد لها، وكانت حربها مع ألمانيا قد كشفت ضعف الجيش، ومن ثم مشاكل وأهوال ثورة كومونة باريس، وتعاقب وزارات ضعيفة، وعنف الصراع الحزبي، وكشف الفساد المالي للظلم، وساعدت هذه كلها في إيجاد سمعة سيئة وغير واقعية عن قدرة الحكم في فرنسا ورجاحته وقدرته في الداخل أو في أوروبا عامة.

إلا أن خصوم فرنسا هؤلاء الذين نظروا إليها بهذا الشكل غابت عنهم أن للوزارات الفرنسية إعادت تنظيم الجيش من جديد، وغابت عنهم الأعمال المتميزة التي قام بها الإداريون والمستكشفون الفرنسيون في القارة الأفريقية والخدمة المدنية وتطورها، وعدالة النظام الاجتماعي، وتخيّل هؤلاء أن فرنسا قد أصبحت متخلفة في

أوروبا بعد ألمانيا وإنكلترا.

إلا أن هذا الاعتقاد كان سيئاً وبعيداً عن الواقع، وأخذت الخارجية الفرنسية تدبر الأمور بدبلوماسية ذكية ومهارة، وأخذت تمتد نفوذ فرنسا في جميع الدول، وتتسع شبكة محالفات، فلو نظرنا إلى الواقع فإن فرنسا وفرت لكل الطبقات حق الانتخاب والمشاركة السياسية، ووفق الدستور، وأصبحت الصحافة حرة، والحكومات المحلية ديمقراطية، ونقابات العمال قانونية، ولا يسمح منذ عام ١٨٤٨ للحكومة أن تتدخل في شؤونها.

وسُمح للاشتراكيين الفرنسيين في ظل الجمهورية الثالثة انتخاب أعضاء في مجلس النواب، وشغلوا مناصب للوزارة، وارتقوا إلى منصب رئاسة الجمهورية، واستلم ميلران Millerand أول اشتراكي مقاليد الوزارة عام ١٨٩٩، وختم حياته رئيساً للجمهورية، ووصل بريان إلى منصب رئاسة الوزارة عدة مرات، وتقلد لمنين كثيرة وزارة الخارجية.

وبدلاً من أن تعيق الاشتراكية للجمهورية الديمقراطية، فقد قدمت لها خدمات (أي لفرنسا) في الحياة البرلمانية الفرنسية بعد أن نزع منح الأمة حق الانتخاب العام من الاشتراكيين للقدرة على إلحاق الأذى بالبلاد.

إلا أن الجمهورية واجهت للخطر من الأحزاب اليمينية، وطرحت تساؤلات شعبية حول إنجازات البرجوازية ومدى دورها في سلامة فرنسا وإعلاء شأنها، وعن النظام التعليمي العلماني الذي يتركز بيد الدولة، والذي يقضي على المشاعر الدينية التي تنسج وتقي روح الأمة الفرنسية، وتكاثف الكاثوليك والملكيون والوطنيون على إحباط محاولات العلمانيين للذين يفكرون في تدبير شؤون الدولة.

رغم هذا فإن الجمهورية الثالثة في فرنسا انتصرت حتى على الدعاة الوطنيين للمتحمسين، وحررت كل أعداء الأمة الفرنسية، ودعاة العرقية وللزعة العنصرية، وتغلبت الديمقراطية والسلطة المدنية على السلطات الحربية، وقالت من نفوذ

التساوية ورجال الدين والكنيسة في مجال التعليم^(٢٤).

الفصل الثاني عشر

روسيا والمسألة الشرقية والقازم

الأوروبي في القرن التاسع عشر

الطبعة الأولى ١٩٨٧
الطبعة الثانية ١٩٨٧

لأولاً: أوضاع روسيا في مطلع القرن التاسع عشر

في مطلع القرن التاسع عشر كانت روسيا أكبر الدول الأوروبية مساحة، وأكثرها سكاناً، وأقلها حضارة، ويقطنها خمسة وأربعون مليون نسمة من شتى القوميات، واللغات والعادات والديانات، وكان السلاف والأرثوذكسية المذهب في روسيا حوالي ثلثي سكان البلاد، وكانت متخلفة علمياً واجتماعياً، باستثناء بعض المثقفين، وكانت للصناعة مفقودة والإقطاع والقنانة موجودين.

وكان للشعب الروسي ينقسم إلى ثلاث طبقات: رجال الدين والنبلاء والفلاحون، ولم تبرز للطبقة الوسطى أو للبرجوازية لعدم وجود للصناعة، وكان للنبلاء أصحاب الامتيازات والأموال، وهم معفون من الضرائب، ومفضلون للدخول في الحكومة والجيش، أما للفلاحون فهم الأغلبية، وهم من الاقنان الأميين المؤمنين بالخرافات، ويسكنون في بيوت صغيرة وضيقة مع الحيوانات من المواشي والخنازير.

كانت أغلب الأراضي للزراعية خاضعة للقيصر وأفراد أسرته والنبلاء، وتنقسم الأراضي إلى أراضي خاصة بالنبلاء يُستخدم فيها الاقنان بالسخرة، وأراضي توزع بالقرعة، وهؤلاء - أي الاقنان - مرتبطون بالأرض، يقومون بالفلاحة بكل أشكالها وأساليبها، ويدفعون الضرائب للنبلاء، ويطيعونهم طاعة عمياء، ومن حق للنبلاء ان يفعلوا بهم ما يشاءون من أعمال وتصرفات، ولأبدى الاقنان مقاومة، وسجلوا في عهد نقولا الأول أكبر محاولة للثورة، وأخمدت بشدة وقسوة.

أما نظام الحكم، فقد انحصرت السلطة المطلقة بالإمبراطورية الروسية في القيصر انحصاراً تاماً، وكان من حقوقه تعيين الموظفين أو الاستغناء عنهم، ومن القوانين وجمع الضرائب، وسجن للرعية لو قتل أي أحد منهم، أو نفيه، وإعلان الحرب أو السلم، وتلاشت من البلاد الديمقراطية والمجالس النيابية، وحرية النشر والكلام والتعبير، وانتشر الفساد والظلم في الإدارة واقتصر الجيش إلى النظام والقيادة الحكيمة.

وقد تمسك للقيصرية للروس بالتقاليد التي وروثوها عن أسلافهم، وحافظوا عليها ووسعوها، وطالب نقولا الأول ببقاء روسيا بدون تغيير وبدون دخول الآراء والمبادئ الحرة إلى الشعب، وكانت سياسة قيصرية روسيا في القرن التاسع عشر

على ما يأتي:

١- تقوية الحكم المطلق بالقضاء على كل حركة قد تحدّ من سلطتهم، معتمدين على تأييد الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، وطبقة النبلاء الرجعية.

٢- تأييد المذهب الأرثوذكسي باضطهاد جميع المذاهب الأخرى، وخاصة الكاثوليك واليهود، وكان رجال الدين يبنون في عقول الشعب أن طاعة القيصر من طاعة الله، وهو الممثل لله على الأرض.

٣- صيغ للقوميات المختلفة بالصيغة الروسية، وهي ما قاله القيصر نقولا الأول: لغة واحدة، وكنيسة واحدة، وقيصر واحد، وبذلت للحكومة القيصرية جهوداً كبيرة في هذا الإطار بتحويل أعداد كبيرة من القوميات الأوروبية إلى القومية الروسية من لوكارنيا وبولندا ولتوانيا وفنلندا واستونيا وألمانيا، ومن المسلمين واليهود والنتر، وعاملتهم بقسوة وشدة، وفشلت في أحيان كثيرة في مساعيها هذه، وتمسكت القوميات بلغاتها وتقاليدها وعاداتها.

٤- اتبع للقيصرية سياسة للتوسع الإقليمي، وامتدت تخوم روسيا من بحر البلطيق غرباً إلى المحيط الهادي شرقاً، ومن البحر المتجمد شمالاً إلى البحر الأسود والصين وإيران جنوباً، فقد ضم القيصرية فنلندا ومعظم بولندا وبساربيا وأرمينيا والصين وجزيرة سخالين، واستأجروا بورت آرثر، وتوسعوا في سهول تركستان وبخارى وسمرقند والباير على حدود الهند.

٥- إقامة الجامعة للصقلية (السلافية)، أي الدعوة لتكثّل الأمم السلافية تحت الزعامة الروسية، مما أدى إلى قيام عدة حروب مع الدولة العثمانية وصراعات مع النمسا والمجر، واضطهاد للقوميات السلافية^(٢٥).

ثانياً: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية

كانت الدولة العثمانية في مطلع القرن التاسع عشر تتألف من شبه جزيرة البلقان الواقعة جنوب نهر الدانوب، ومن آسيا الصغرى، والجزر الأيونية، وكريت، وقبرص، وشبه الجزيرة العربية، والمشرق العربي، والمغرب العربي، عدا مراكش، وكانت تقطن هذه البلاد الواسعة الأرجاء شعوب كثيرة، من الأتراك والعرب، واليونان

والبلغار، والرومان والألبان، والصرب واليوغسلاف.

وفي أواخر القرن الثامن عشر ظهر للضعف على الإمبراطورية العثمانية بسبب العوامل الداخلية، وهجمات الدول المجاورة لها، والمساوئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكان للسلاطين في اسطنبول يحكمون حكماً استبدادياً من حياة خاصة بعيداً عن الاهتمام بالدولة والرعية، فانتشر الفساد والرشوة والمحسوبية، وكان الجيش العثماني ضعيفاً مقارنة بالجيش الأوروبية المتقدمة عتاداً وسلاحاً وتدريباً، مع انتشار الفقر والتخلف والجهل، وعدم نجاح الإصلاحات الحكومية، وتحفيز للقوميات المضطهدة على نيل استقلالها من الدولة العثمانية، وقد مهدت إلى ما يعرف بظهور (المسألة الشرقية).

في عام ١٨٢٢ في مؤتمر فيرونا استُخدمت لأول مرة عبارة للمسألة الشرقية في العلاقات بين الدول، إلا أن المسألة الشرقية تعود إلى ما قبل هذا التاريخ عند اعتلاء بطرس الأكبر عرش روسيا، وبخوله في عداً مع الأتراك من أجل البحر الأسود والوصول إليه، ثم ازدادت في عهد كاترين الثانية التي احتلت شبه جزيرة القرم بعد عدة حروب، ونالت من الأتراك وعداً بخولها حماية الأرثوذكس من رعاياها. لقد ساعدت عوامل وظروف على بروز المسألة الشرقية في القرن التاسع عشر، أهمها:

- ١- رغبة الدول الأوروبية في مساعدة الاقليات والقوميات في دحل أراضي للدولة العثمانية، وخاصة من المسيحية المضطهدة، ورغبتها في استقلالها وعدم الإضرار بمصالح تلك الدول أيضاً.
- ٢- رغبة روسيا في الاستيلاء على مناطق تفتح أمامها نافذة على البحر الأسود، وتحرير للقوميات العرقية المضطهدة لإنشاء للجامعة الصقلية.
- ٣- لبداء بريطانيا عزمها على منع وصول روسيا إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية، واستيلائها على اسطنبول؛ لما في ذلك من خطر كبير على تجارتها ونفوذها وسيادتها البحرية.
- ٤- اتجاه النمسا نحو للتوسع جنوباً بعد أن أوقفها ألمانيا شمالاً، وفرنسا وإيطاليا غرباً،

وتضمن هذا التوسع مصادقة مملكة للصرب، صديقة روسيا وحليفها، وضم الملايين من الصقلية إليها، مما أدى إلى التنافس بين النمسا وروسيا، وتخوف الأولى من نمو الروح القومية والاستقلال في نفوس الشعوب الصقلية في البلقان، ولذلك كانت النمسا لا تريد تقسيم الدولة العثمانية، وتناهض منح القوميات الاستقلال؛ حتى لا تصبح القوميات في أراضيها (أي النمسا) تطالب بمثل هذا الاستقلال.

٥- ادعاء فرنسا أنها حامية للكاتوليكية في الدولة العثمانية، ورغبتها في أن تحافظ فيها على نفوذها الثقافي ورفضها للتخلي عن هذه الزعامة لروسيا.

٦- تعرض ألمانيا للمسألة الشرقية خلال مؤتمر برلين وبعده، عندما أبدت النمسا وعانت روسيا، وسيطرت على الأتراك سياسياً واقتصادياً، وفي أواخر القرن التاسع عشر أصبحت ألمانيا صديقة وحامية للدولة العثمانية، وتولى قاداتها تنظيم الجيش العثماني، ودعمه بالمعدات الألمانية، واستثمر الرأسماليون الألمان أموالهم في مشاريع تجارية واقتصادية في الممتلكات العثمانية، مثل خط سكة حديد برلين - بغداد.

ازدادت الأمور تعقيداً بعد معاهدة (تلمست) في عام ١٨٠٧ بين روسيا ونابليون، الذي أدرك فيها القيصر أن نابليون لن يمانع من التوسع على حساب السويد والدولة العثمانية، بشرط أن لا تستولي على العاصمة، ولكن نابليون لم ينجح في إصلاح الوضع بين الحلفاء، ولم يمنع روسيا من الحرب مع الأتراك عام ١٨٠٩، ورغم انتصار الروس فقد اضطر الاسكندر الأول إلى وقف زحفه عام ١٨١١ مع توقع الحرب مع فرنسا وعقد معاهدة بوخارست مع الأتراك عام ١٨١٢، وبموجبها تخلى الأخيرون عن بessarabia، وصار نهر بروث الحد الفاصل بين الدولتين، وأرجعت روسيا لهم ولايتي الأفلاق والبغدان، واعترف الأتراك بحق روسيا في حماية رعابها أي الروس في بلادهم من الأرثوذكس المسيحيين.

إلا أن الأوضاع تآزمت بعد معركة (كوسوفا)، فاحتل الأتراك البلقان كلها، واخضعوا الشعوب اليوغسلافية المسيحية، ولكنهم فشلوا في احتلال الجبل الأسود وفرض الجزية على أهله نتيجة المقاومة الشديدة التي واجهوها، وظل الجبل الأسود مستقلاً وبعيداً عن قبضة الأتراك.

في هذه الفترة قام الصرب بثورة صربيا الأولى تحت قيادة قرة جورج (١٨٠٤-١٨١٢)، والصرب هم فرع من اليوغسلافيين يقطنون الولاية المحيطة ببلغراد، وحملوا السلاح ضد الأتراك إثر حادثة مقتل عدة أشخاص صرب في بلغراد؛ لاستيائهم من فرض الضرائب، فوجد الصرب في قرة جورج قائداً لهم ضد الأتراك، ونظم هذا اتباعه الصرب، ودرّبهم، ودحروا الأتراك في بلغراد، وقتل اعداءاً من الانكشارية العثمانية فيها، وأرسل إلى روسيا وفداً لطلب المساعدة والحماية، فنصحه الاسكندر الأول أن يذهب إلى الباب العالي، ويرفع طلباته مع وعده بتأييده الشخصي، ولكن السلطان العثماني رفض الطلبات، وهي إلغاء ما تبقى عليهم من جزية، ووضع حاميات مسيحية في الحصون الصربية، بل أن السلطان أعلن الحرب على الصرب، وتقدمت القوات العثمانية عام ١٨٠٦، وهي تبلغ حوالي ثلاثين ألف جندي، وتغلب عليهم قرة جورج رغم قلة جيشه، لما كان إلا أن اتخذت روسيا خطوة بعقد حلف مع قرة جورج، وأرسلت عليه الإمدادات العسكرية، وقاوم الجيش العثماني في المقابل مع إرسال التعزيزات إلى المنطقة لإخضاع صربيا، وحققت القوات الانتصار، واحتلت البلاد، وهرب قرة جورج إلى المجر، ودخل الأتراك منتصرين إلى صربيا، وفرضوا السيطرة عليها.

ثم قامت ثورة أخرى بقيادة ميلوش لوبريفوفيتش، وفضل السلطان أن يفاوضه، ومنح صربيا الحكم الذاتي بدلاً من تجدد الثورات، وتعيين مجلس مؤلف من (١٢) عضواً، ينتخبهم اعيان الصرب، وينتخبون رئيساً لهم، وله صلاحيات في حكم بلاده، وفرض الضرائب، والحفاظ على النظام والعدالة، ودفع الأموال للمجبية إلى الباب العالي، ووضع حامية تركية في بلغراد ومواقع أخرى، وهكذا أراد السلطان أن لا يسمح للقيصر الروسي بالتدخل في الشؤون البلقانية مع انهزم نابليون في معركة واترلوا عام ١٨١٤.

عاد قرة جورج إلى صربيا عام ١٨١٧ لطرد الأتراك من صربيا، ولكن ميلوش كان يفضل التقاهم مع الأتراك دون حروب، فحب الخلاف بين الرجلين، وانقسم للصرب حيال ذلك، وانتهى الأمر بقتل قرة جورج، وتثبيت ميلوش دعائم الحكم

في صربيا، وفي عام ١٨٣٠ اعترف الباب العالي به وبأسرته إمارة وراثية، واتخذ لقب الملك، وظلت صربيا صغيرة حتى عام ١٩١٢ عندما انضمت صربيا إلى بلغاريا اليونان والجبل الأسود للوقوف ضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى، ثم نشبت حرب ثانية انتهت عام ١٩١٣ ازدادت فيها الأراضي للصربية، ولم يبق صرب في الأراضي العثمانية عشية الحرب العالمية الأولى.

أما اليونان فقد خضعوا إلى الأتراك منذ عام ١٤٦٠، وقد حافظوا على قوميتهم وقوانينهم المدنية ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وديهم، وقد عمل اليونان في التجارة والصناعة والأعمال المالية والنقل البحري في الأراضي العثمانية، وازدهرت الطبقة اليونانية هذه في ظل الحروب الأوروبية، وازدادت نفوذاً واتساعاً، ولصبحوا أثرياء في المجتمع، ولهم (٦٠٠) سفينة تجارية، وحوالي (٣٠) ألف بحر عام ١٨١٥.

وانتشرت الجاليات اليونانية في المدن الأوروبية من لندن إلى موسكو، وشعر اليونانيون أنهم قومية مضطهدة، وأحييت الأدب اليونانية القديمة، وازدادت الجمعيات السرية التي أنشئت لطرد الأتراك من أوروبا، مثل (جمعية الأخوان).

وكان قادة الثورة اليونانية ليمانتيوس كوريس (١٧٤٨-١٨٣٣) وقسطنطين ريفاس (١٧٤٥-١٨٨٩)، وكان لهم اتباع وانصار، وتألفت في عام ١٨١٤ في لوبسا الروسية (جمعية الأخوان الثورية للسرية)، وهي مثل جمعية الكاربوناري الإيطالية، وهدفها طرد الأتراك من اليونان، ولتنتمي إليها الآلاف، ومنهم شخصيات مهمة بارزة، ونشر أعضاء جمعية الأخوان الدعوة إلى الثورة مع المساعدة الروسية، وقاد الأمير إسميلائتي عام ١٨٢١ فرقة من اليونانيين عبر حدود الأفلاق والبغدان، وأعلن الثورة على الأتراك، ولكن المواجهة لم تكن متكافئة وسُحق اليونانيون، وهرب إسميلائتي إلى النمسا، وسجنه المستشار النمساوي مترنيخ.

ثم نظم أعضاء جمعية الأخوان ثورة أخرى في اليونان نفسها هذه المرة، وقام الشعب اليوناني وقاتل الأتراك، بحيث قُتل منهم حوالي (٥٠) ألف تركي، وطردوا الأتراك من معظم الأراضي اليونانية، واجتمع المؤتمر الوطني في الثالث عشر من يناير/ كانون الثاني في ١٨٢٢ في إبيدوس، ونادى باستقلال الأمة اليونانية وواجه

الأتراك هذه الأوضاع بالقسوة والمواجهة العسكرية، ورأت أوروبا بها حرباً غير متكافئة، وعدّها المحافظون حرباً صليبية، وجاء إلى الأراضي اليونانية العديد من المقاتلين من أنحاء أوروبا للقتال إلى جانب اليونانيين.

وأخيراً لجأ السلطان إلى الولي المصري محمد علي باشا لقمع الثورة اليونانية، فأرسل الأخير أسطولاً وسبعة عشر جندياً بقيادة ابنه إبراهيم باشا، واستطاع إلحاق الهزيمة بالثوار ودخول المدن الواحدة بعد الأخرى بين (١٨٢٥-١٨٢٧)، ولولا التدخل الأولي لاصبحت ليونان تحت الحكم العثماني.

عندما وصل نيقولا الأول (١٨٢٥-١٨٥٥) إلى العرش تغيرت الأوضاع السياسية، فلم يعترف بنفوذ مترنيخ، أو بمساعدة الثوار اليونانيين، أو للقضاء على الدولة العثمانية، ولراد التدخل في المشكلة اليونانية، بحيث وقفت بريطانيا إلى جانبه خوفاً من زيادة نفوذ روسيا في البلقان، فقرر مندوبو روسيا وفرنسا وبريطانيا الاجتماع في لندن، وعقدت معاهدة لندن عام ١٨٢٧ التي أعلنت استقلال اليونان على أن تدفع الجزية سنوياً إلى الأتراك، وتتعترف بسيادتهم الاسمية، وطُلب من الطرفين توقيع هدنة لوقف الحرب.

إلا أن السلطان رفض هذه الشروط فقررت الدول الثلاث إرسال قواتها البحرية لتنفيذ قراراتها وقطع المواصلات بين مصر وقواتها في اليونان، ووصلت أساطيل الحلفاء إلى ميناء نفارينو في أكتوبر/ تشرين الأول ١٨٢٧، وبدأت المعركة التي انتهت بتمير الأسطولين المصري والعثماني.

وعندما سمع السلطان بدأ المعركة قرر للقتال، وأعلنت روسيا الحرب عليه، وتقدمت عبر الأقالق والبغدان وبلغاريا، واحتلت أدرنة، فتخوف السلطان من هذا التقدم، ووقع الهدنة مع روسيا في معاهدة أدرنة في الرابع عشر من سبتمبر/ أيلول ١٨٢٩، وتضمنت:

١- اعتراف الدولة العثمانية باستقلال اليونان استقلالاً تاماً تضمنه روسيا وبريطانيا وفرنسا.

٢- منح إمارة الصرب الاستقلال الذاتي.

٣- استيلاء روسيا على مصب نهر الدانوب.

٤- وضع البغدان والافلاق تحت الحماية الروسية على ان تدفع الجزية السنوية للأتراك.

وهكذا ظهرت دولة جديدة، ولكنها ضعيفة ومنهكة، وتم تنصيب للنجل الثاني لملك بافاريا الأمير لوتو ملكاً على اليونان، ودعمه مادياً بمليون ونصف جنيه مع قوات من الجنود البافاريين لتنظيم للدولة.

وتم أخيراً اتفاق اليونانيين على تنصيب الأمير جورج ابن ملك لادنمارك ملكاً على بلادهم، والذي حكم بين (١٨٦٢-١٩١٣)، وحقت اليونان الانتصارات في حروبها، واسترجعت الأقاليم التي فقدتها، واتخذت البلاد دستوراً عام ١٨٦٤ أكثر ديمقراطية من الدستور السابق.

إلا ان الحرب لم تنته بين الدولة العثمانية واليونان، وكان السبب الرئيس هو انفصال جزيرة كريت عن الدولة اليونانية وشعور الاستياء والتذمر بين اليونانيين، ثم المواجهة مع الأتراك، وتدخل الدول الأوروبية، فوعد السلطان عام ١٨٧٨ أن يمنح كريت قسماً أكبر من الحكم الذاتي، ويُبقى لها جزءاً كبيراً من الدخل للاتفاق على تحسين أحوالها، ولم يف السلطان بوعده، فقامت الثورات، ولحدها ثورة عام ١٨٩٦، وحدثت مواجهات دموية بين الأتراك واليونانيين.

وقام الشعب اليوناني مطالباً بإعلان الحرب على الأتراك، فكسبت حكومته ذلك، وأجابها السلطان عبد الحميد الثاني بإعلان الحرب عليها، وحقق للجيش العثماني العديد من الانتصارات، ودخل المدن اليونانية، وأصبح على مشارف العاصمة أثينا، وعندها تدخلت الدول الأوروبية وفرضت الهدنة على الطرفين، وجلاء الأتراك عن اليونان، على ان تدفع الأخيرة غرامة حربية تقدر بـ (٤) ملايين جنيه، وتراقب لجنة دولية بلادها لتأمين دفع الغرامة والديون الأخرى، واستقر للرأي على جلاء للجيش التركي عن كريت التي استقلت استقلالاً تاماً تحت السيادة التركية الاسمية.

وأخذت أوضاع اليونان تتحسن تدريجياً سياسياً واقتصادياً، وتم تعيين للكرسي فيزيولوس رئيساً للوزارة عام ١٩١٠، واستقرت البلاد بفضل هذا الترشيح، ووقف ضد

الأتراك عام (١٩١٢-١٩١٣) في حربهم ضد للصرب والبلغار، وضم كريت إلى بلاده وجزراً أخرى انتقاماً من الأتراك^(٣٦).

ثالثاً: حرب القرم

١ - اسباب الحرب:

في منتصف القرن التاسع عشر انتعشت للقومية في أوروبا، وأخذت ألمانيا تسير نحو الوحدة، وإيطاليا تشاركها نفس الهموم، ونهضت المجر لتواجه الإمبراطورية النمساوية.

ومع فشل الثورات الوطنية والقومية في عموم أوروبا منذ وقت قريب واجهت القضية القومية عقبات في طريقها.

كانت روسيا من أكبر للعقبات في هذا الاتجاه، نظراً للركعة الواسعة للإمبراطورية الروسية، والتسلح الضخم، وسيطرتها على مناطق من آسيا، ورغبتها في الوصول إلى الأراضي للبيزنطية، فكانت روسيا لقوى الأنظمة السياسية في أوروبا، وكانت روسيا تشكل خوفاً في نفوس الأوروبيين.

ورأت إنكلترا في روسيا بعهد نقولا الاول (١٨٢٥-١٨٥٥) تلك البلاد الشرقية، وإن ملكها لم يكن يحمل سجايا حرة، وكان يخضع رعاياه إلى القسوة والظلم، فقد سحق البولنديين للتأثرين عليه، وساعد للنمسا عام ١٨٤٨ في إخضاع هنغاريا، وساعدها في مواجهة بروسيا، ووصفت حكومته بأنها أساس الاستبداد في العالم، وعقبة أمام تحرير الشعوب وتحقيق الآمال للواسعة التي أقيمت عام ١٨٤٨ أمام التمتع والنسوة.

ونجم عن هذه العقبة الشديدة للعداء لروسيا - والتي اجتاحت بريطانيا - أن نشبت في الشرق حرب وقفت للنمسا موقف الحياد تجاهها، وحطمت حرب القرم للعلاقة الطويلة بين النمسا وحليفاتها الاوتوقراطية الروسية، وفتحت للطريق نحو تحرير ألمانيا وإيطاليا.

لنشتت حرب القرم بسبب صراع ديني أول الأمر بين الأرثوذكس والكنائس في لحقية أي منها في حراسة الأماكن المقدسة المسيحية ببيت المقدس، ورغم أنه كان

صراعاً بسيطاً لكنه استمد قوته من القيصر روسيا الذي دعم المطالب الأرثوذكسية، في حين أن نابليون الثالث كان يؤيد ادعاءات الكنيسة الكاثوليكية، وانتهى هذا الصراع بوضع الدولة العثمانية عام ١٨٥٢ تسوية له أثارت غضب القيصر الشديد، فأمر بتجهيز جيش روسي وإرساله إلى نهر بروث، وأرسل وفداً برئاسة فيشيكوف لطلب ترضية حول بيت المقدس، وإبرام معاهدين بين الدولتين، فيها مطالب روسية ثقيلة الوطننة على الباب العالي، بحيث يتمكن القيصر من حماية جميع الرعايا الأرثوذكس للباب العالي، إلا أن السلطان قرر رفض هذه المطالب.

وكان تنظيم الأتراك على عدم الخضوع أمام خصومهم ورضوا بذاكرة فينا التي قدمت إنكلترا وفرنسا وبروسيا والنمسا في الثاني عشر من ديسمبر/ كانون الأول ١٨٥٣ إلى روسيا تحضها على للتخلي عن بعض مطالبها، وكانت الاقتراحات التي جاءت في الذاكرة تحسم الصراع كله، وترضى الحكومتين الإنكليزية والفرنسية، هذا فضلاً عن أن قيصر روسيا والحكومة العثمانية اعربا عن رضاهما بأحكامها.

٢- الحرب ونتائجها:

أعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا في الرابع من أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٨٥٣، وبدأت المواجهة مع الروس للذين عبروا نهر بروث، واحتلوا الأفلاق والبغدان، فأغرق الروس الأسطول العثماني قرب سينوب، فاجتاحت بريطانيا موجة غضب تجاه هذه الضربة، فكانت سياسة قيصر موضع شك لدى الحكومة البريطانية.

فقد وصف القيصر الدول العثمانية عام ١٨٤٤ بأنها رجل أوروبا المريض، وقال قبيل الحرب للسفير هاملتن سيمور السفير البريطاني في جومبورغ بأن الفكرة لا بد أن تقوم على اتحاد إنكلترا مع روسيا بالتنازل للدولة العثمانية فيما بينهما، وأخيراً - وبعد تردد كبير - قررت لندن إعلان الحرب في السابع والعشرين من مارس/ آذار ١٨٥٤.

وقفت باريس إلى جانب لندن في هذه الحرب ودعمت اسطنبول، وكان نابليون الثالث يسعى إلى تعديل معاهدات عام ١٨١٥ وإن يتم التعديل على أيدي مؤتمر

أوروبي إذا أمكن، مع دعمه لآمال الإيطاليين في تحقيق أمتهم القومية، وكذلك للتحالف مع إنكلترا لفرض السيادة على البحار، وإبقاء الإمبراطورية الفرنسية قائمة بدلاً من الصراع الذي تم من قبل بين إنكلترا وفرنسا في عهد الإمبراطورية الأولى، حتى لو دخل بسببه في حرب مع روسيا، فكانت محط عداة للجمهوريين الفرنسيين لأنها نظام حكم استبدادي.

أعلنت إنكلترا وفرنسا أهدافهما من الحرب، فقد استقلت الأولى من الحرب في حرمان روسيا من أي نفوذ في البلقان، وإبقاء السفن الحربية في البحر الأسود، واستقلت النمسا من أن مقاطعات الاقلق والبغدان ونهر الدانوب ستحرر من قبضة روسيا، أما فرنسا فلها فوائد قليلة، لكن نابليون وجد فيها مغامرة ستجلب له حليفاً مهماً هو إنكلترا، ليستطيع تثبيت عرشه.

وتم اختيار سباستوبل المنطقة المهمة في البحر الأسود لروسيا، لتكون بداية العمليات الحربية، وأبحرت قوات ضخمة إنكليزية وفرنسية وعثمانية من أرونا للمجربة نحو الميناء الروسي سباستوبل في منتصف سبتمبر/ أيلول ١٨٥٤.

حاول الروس وقف إنزال جنود أعدائهم، واشتبك الطرفان في Alma وحقق الحلفاء النصر، ولكن قيادة الحلفاء قررت الانسحاب إلى الجنوب، حيث المكان الملائم للإنزال ثم للهجوم، وقد استعاد الروس من هذا التغير، فزادوا تحصين سباستوبل.

ومع البرد لقارس والشتاء الروسي، ووصول الإمدادات للجنود المحاصرين، حصنت الأمراض والبرد أرواح جنود الحلفاء، فقرر الفرنسيون الهجوم على حصن ملاكوف، واقتحموه في الثامن من سبتمبر/ أيلول ١٨٥٥، وسقط بأيديهم.

حاول نابليون أن يدعو للصلح، لكن رئيس الحكومة البريطانية الجديد بلمرستون رفض الفكرة، وأراد سحق الروس بلا هوادة، ولكن النابليون رأى أنه إذا ما تقرر استمرار القتال فإن بولندا يجب أن تتحرر، وهذا ما ترأهه لندن وبرلين معاً، وقد رجع للماسة الإنكليز إلى رشدهم ونهضوا.

وتم توقيع معاهدة باريس في الثلاثين من مارس/ آذار ١٨٥٦، وحصل فيها

الحلفاء على كل ما أرادوه في بداية الحرب، وأعيدت البغدان والاقلاق إلى مركزهما السابق، وجُعِلت حرية الملاحة في نهر الدانوب، وحُرِّم على روسيا إبقاء سفن حربية في البحر الأسود، وتعهَّد السلطان بتنفيذ الإصلاحات التي وعد بها رعاياه المسيحيين، على أن لا تتدخل الدول الأخرى في شؤون بلاده الداخلية، وضمنت الدول العظمى لصربيا المحايدة في الحرب جميع الامتيازات والحقوق للممنوحة لها مع بقائها خاضعة للسلطان، وأجبرت روسيا على إعادة فارص للسلطان العثماني، وعن شطر من بيسارابيا أيضاً.

وظلت روسيا - ولمنوات طويلة بعد ذلك - متعبة من الحرب، ولحقت بها مشاكل وخسائر اقتصادية وعسكرية^(٢٧).

رابعاً: روسيا والدولة العثمانية

في الفترة بين (١٨٦٠-١٨٧٥) تمتعت الدولة العثمانية بهوء نسبي لاشتغال الدول الأوروبية بما هو أهم من المسألة الشرقية، فقد تحققت الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية، والحروب مع النمسا وهزيمة بروسيا لفرنسا، وإصلاحات قيصر روسيا الإسكندر الثاني، وهي الإصلاحات الداخلية وتحرير الكنان.

حدثت ثورة عامة في عام ١٨٧٥ في لبوسنة والهرسك، في هاتين الولايتين ذواتي الأغلبية المسيحية الذين حرّموا من المناصب الحكومية، وكان الفلاحون فيهما يدفعون مولدهم ضرائب عالية، وكان الفساد منتشراً، وكذلك الرشوة، مما أفضى إلى التنمر الشديد بين السكان، فهب الصرب وأهل الجبل الأسود ليعتلوا الحرب على العثمانيين لمساعدة الصرب، واتجهت بلغاريا مثلهم، وتم إعلان العصيان العام، وقُتل موظفون أتراك، وكان للبغار قد ظهرت بينهم الروح القومية منذ عام ١٨٧٠ عندما فصلت الكنيسة البلغارية عن الكنيسة اليونانية، ورغبت روسيا في تفويض سلطة بطريرك الاسكندرية اليوناني، وكانت مصلحة الباب العالي في زيادة الالتحاق بين البلقانيين.

انتصر الأتراك على الصرب والجبل الأسود بسهولة لانعدام التوافق في العناد والسلاح، مما أجبر أمير الصرب على طلب وساطة الدول العظمى ليحول دون غزو الأتراك لإمارته، ولكن الباب العالي رفض قبول وساطته، وأرسل القوات الكبيرة

لإخماد الثورة في البلقار، لما كان من روسيا إلا أن أرسلت انذاراً إلى الأتراك تطلب فيه وقف القتال بينها وبين الجبل الأسود والصرب لمدة أسابيع، فوافقت الدولة العثمانية، واقترحت لندن عقد مؤتمر أوروبي في إسطنبول لبحث الوضع، إلا أن الأتراك رفضوا الاقتراح، مما أعجز لندن عن منع روسيا من العداء للأتراك، ولا سيما مع حصول القيصر على وعد النمسا بالوقوف على الحياد عند نشوب الحرب.

أعلنت روسيا في إبريل/ نيسان ١٨٧٧ للحرب على الدولة العثمانية، واعترفت باستقلال رومانيا التام لتوافق على مرور جيوشها عبر أراضيها، وأعلنت للنمسا حيادها إثر تصريح روسيا بامتناعها عن احتلال إسطنبول، وبإقرارها عرض تموية الحرب النهائية على مؤتمر أوروبي، وثلتها بريطانيا معلنة حيادها عندما وعدت روسيا بإبعاد الحرب عن الدردنيل وإسطنبول ومصر.

تقدمت للجيش الروسي في رومانيا، وعبرت الدانوب، واستولت على الطرق البلقانية، إلا أنها توقفت عند حصار مدينة (بليفا) البلغارية المؤدية إلى إسطنبول، واستنزف الحصار القدرات الروسية، ثم أخيراً احتلت لقوات الروسية مدينة أدرنة، ووصلت ضواحي إسطنبول، فطلب السلطان الهدنة، ودخل المتحاربان في مفاوضات، وفي مارس/ آذار ١٨٧٨ تم توقيع معاهدة سان ستيفانو، وأهم بنودها:

١- يدفع السلطان إلى روسيا غرامة حربية قدرها (١٤٠) مليون جنيه.

٢- تعترف الدولة العثمانية باستقلال الصرب ورومانيا والجبل الأسود استقلالاً تاماً.

٣- تمنح الدولة العثمانية بلغاريا استقلالها، وتتخلى عن مقدونيا وإقليم الرومي الشرقي.

٤- تمنح الدولة العثمانية ولايتي البوسنة والهرسك استقلالاً ذاتياً تحت رقابة روسيا والنمسا.

٥- تدمير الدولة العثمانية جميع قلاعها على نهر الدانوب.

٦- تضمن أيضاً لأرمينيا حكماً عادلاً، وتمنحها دستوراً حراً تسير بموجبه، وتبقى سنتين تحت مراقبة موظف روسي يسنده جيش احتلال مؤلف من خمسين ألف جندي.

عارضت الدول الأوروبية الكبرى هذه المعاهدة، وهددت بريطانيا بأنها ستدخل

الحرب ضد روسيا، وتأييدها في هذا النمسا، ويبدو ان لندن كانت تعارض احتلال روسيا لبوسنة والهرسك، وتتدخل بمسارك في الأمر، ودفع روسيا إلى عرض المعاهدة على مؤتمر أوروبي يعقد في برلين، وبعد مفاوضات حادة وعميقة تم توقيع معاهدة برلين في يوليو/ تموز ١٨٧٨، ولها فقدت روسيا الكثير من الانتصارات، أما أهم مواد هذه المعاهدة، فهي:

- ١- تستعيد روسيا من رومانيا بessarabia، وتستولي على ولايتين تركيتين في القفقاس.
 - ٢- تنفع الدولة العثمانية (٢٠) مليون جنيه غرامة حربية، وتعدّ ديناً عليها.
 - ٣- تعترف أيضاً باستقلال رومانيا والصرب والجبل الأسود.
 - ٤- تحتل النمسا إقليم البوسنة الهرسك، وتتولى حمايتهما.
 - ٥- تقسم بلغاريا إلى ثلاثة أقسام: الشمالي المعترف به إمارة مستقلة، على ان يدفع جزية سنوية للسلطان، وإقليم الروملي الشرقي الذي بقي تحت سلطة الباب العالي سياسياً وحربياً، على ان يكون حاكمه مسيحياً، ويتمتع ببعض الحكم الذاتي، ومعظم مقدونيا مع إقليم أدرنة، وقد أرجعا إلى الدولة العثمانية بلا قيد ولا شرط.
 - ٦- يتخلى السلطان عن جزيرة قبرص لتحكمها بريطانيا نيابة عنه، على ان تدافع بريطانيا عن الدولة العثمانية في حالة هجوم روسيا عليها.
- لم تتغير السياسة الروسية في عهد نيقولا الثاني (١٨٩٤-١٩١٨)، وحافظ على التحالف الروسي- الفرنسي، وأراد ان يظهر وكأنه المحب للسلام، ودعا إلى عقد مؤتمر لاهاي الدولي لتحديد التسليح بين الدول عام ١٨٩٩، ولكنه اتبع سياسة التوسع في الشرق الأقصى، ودخل في حرب مع اليابان عام ١٩٠٤ ألحقت الويل والكوارث بروسيا.

كانت روسيا تتعرض لشؤون منشوريا وكوريا المستقلة؛ لجعلهما ضمن مناطق نفوذها، فأعلنت اليابان للحرب عليها في فبراير/ شباط ١٩٠٤ على أساس ان كوريا ضمن نفوذها، وسرعان ما هزمت اليابان الروس في المعارك، وأخرجتهم من كوريا بعد شهرين، ودمرت جميع سفنهم الحربية الخارجية من فلانكستوك وبورت آرثر لمنازلة أسطولها في يوليو/ تموز ١٩٠٤، وأرغمت الجيش الروسي على التقهقر داخل

منشوريا في أيلول/ سبتمبر من العام نفسه، واستولت على بورت آرثر بعد حصارٍ دُم سبعة أشهر، وانتصرت في معركة مكدن، وكانت خسارة الروس (٤٠) ألف قتيل، وأكثر من مائة ألف جريح، وأغرقت في معركة بحرية أسطول البطليق الروسي، وعدده (٣٢) بارجة حربية في ثمانية وعشرين أيار/ مايو ١٩٠٥، وتعدّ من أهم المعارك البحرية، وضربة كبيرة لروسيا.

وتدخلت واسطنطنية بين الروس واليابانيين، حيث تخوفت من انتصار اليابان الساحق، ولم ترغب في خضوع روسيا أكثر من ذلك، فعرض نيكودور روزفلت للرئيس الأمريكي الوساطة بينهما، وتم توقيع معاهدة بورتسموث في الخامس من سبتمبر/ أيلول ١٩٠٥، تم فيها:

١- تتخلى روسيا لليابان عن بورت آرثر وشبه جزيرة لياتنغ والنصف الجنوبي من مخالين.

٢- أن تترك روسيا كوريا إلى اليابان لتكون منطقة نفوذ لها، والجلء عن منشوريا لتدير شؤونها حكومة الصين.

٣- تستولي اليابان على خط سكة حديد بين بورت آرثر - بخاربي، وتعد روسيا بأن لا تستخدم الجزء الخاص بها من هذا الخط إلا في الشؤون التجارية.

٤- تتال اليابان الحق في الصيد على شواطئ سيبيريا من فلاديفستوك شمالاً.

٥- لا تدفع روسيا غرامة حربية، ولا تحد قوتها البحرية في الشرق الأقصى، ولكنها تدفع لليابان ما أنفقته من الأموال على الأسرى الروس.

كانت للمعاهدة بمثابة اعتراف من روسيا بهزيمتها، ولقدت الأمل في الاستيلاء على منشوريا والإشراف على الشرق الأقصى، ولا سيما الصين.

إلا أن الاتفاق الروسي - الياباني عام ١٩٠٧ سيطرت فيه الأولى على منشوريا الشمالية ومنغوليا الغربية مقابل سيطرة اليابان على منشوريا الجنوبية واستيلائها على كوريا، وبالفعل أجبرت اليابان إمبراطور كوريا على التنازل عن العرش وضمتها إليها.

لما للدولة العثمانية - وبعد معاهدة برلين التي ألحقت بها الخسائر - بقيت

إمبراطورية واسعة الأراضي، امتدت في أوروبا من البحر الأدرياتيكي عبر شبه الجزيرة البلقانية إلى شواطئ البحر الأسود، وضمت البانيا ومقدونيا وثرافيا واسطنبول وكريت ومعظم الجزر الأيونية. وفي آسيا من الأناضول إلى المشرق العربي، وفي أفريقيا من طرابلس وبرقة، فضلاً عنها احتفظت بسلطات اسمية في البلقان في البوسنة والهرسك وبلغاريا والرومل الشرقية وقبرص ومصر.

فكانت الدولة العثمانية غير قومية، وتتألف من أجناس مختلفة في الدين واللغة والثقافة والعادات، وفيها قوميات عدا الأتراك: العرب والأرمن والأكراد واليونانيون واليوغسلافيون والألبانيون واليهود.

وكان الباب العالي يمنح الدول الأجنبية الكثير من الحقوق والامتيازات، مثل حق إنشاء الدول قنصليات في محاكمة رعاياها بموجب قوانينها، وحق إنشاء دولر برید خاصة بكل دولة.

ظهر خطر نمو الروح القومية بين الشعوب البلقانية، وأخذ يهدد وحدة وكيان الدولة العثمانية منذ مطلع القرن التاسع عشر ومع ثورات اليونانيين والصرب والرومان والبلغاريين، مما اضطر السلطان إلى الاعتراف باستقلال اليونان عام ١٨٣٢ ورومانيا والصرب والجبل الأسود، ومنح بلغاريا للحكم الذاتي عام ١٨٧٨، ولم تكن هذه الدول حقيقة راضية بهذه التسويات، وكل واحدة تريد ضم أقاليمها في الأراضي العثمانية إليها.

ولم تقتصر الروح القومية على الشعوب البلقانية، بل كانت بين رعايا الإمبراطورية الأرمن والعرب والأتراك في القارة الآسيوية، وزدادت حالة المواجهة بين اليونانيين والصرب والأرمن من جهة، والأتراك من جهة أخرى، أدت إلى نشوب ثورة الأرمن عام ١٨٩٤ التي أخمدها الأتراك بمساعدة الأكراد.

حاول السلطان عبد الحميد الثاني أن يمنح البلاد مستوراً على النمط الأوروبي، ثم أبطل مفعوله بعد حين، وحاول أيضاً إخماد ثورات البوسنة وبلغاريا ووقف تقدم روسيا في لملاكه وأراضيه بالقوة، ولكنه أظهر ضعف الإمبراطورية في حروبه مع روسيا بين (١٨٧٧-١٨٧٨)، وكان من جراء ذلك أن اتبع طرقاً أخرى لتعكير

العلاقات بين الدول العظمى، والاعتماد على ألمانيا.

ووجد السلطان ان الاعتماد على ألمانيا هو الاصلح لعدم وجود ادعاءات لها في الأراضي العثمانية، ولنفوذها البحري والحربي الذي يستطيع صد للتدخل الروسي أو البريطاني، فاستخدم السلطان الضباط والألمان لتنظيم جيشه والماليين كمستشارين للشؤون المالية، ومنح أصحاب المصارف الألمان امتيازات اقتصادية، مثل مد خط سكة حديدية بين برلين - بغداد عام ١٨٩٩، إلا ان عبد الحميد الثاني لم يقطع علاقاته مع الدول الأخرى تماماً، فكان يراعي مصالح بريطانيا وفرنسا في قضايا نهرية واقتصادية مثلاً.

ولتبع السلطان للقوة والقسوة لضبط الأوضاع الداخلية، ومواجهة تمرد القوميات، ولتقوية الحكومة المركزية، هذا مع ازدياد ضعف ولحلل الدولة ونمو الروح القومية التركية مع سوء الإدارة، واستياء الطبقة المثقفة والتدخل الأجنبي في الأمور الاقتصادية، فتألفت الجمعيات السرية، مثل (تركيا الفتاة) و(الاتحاد والترقي) و(الوطن)، وبثت دعوات في الجيش والإدارات الحكومية من أجل اصلاح الحكومة، وهدفها إقامة دولة تركية قومية ذات دستور ديمقراطي على النمط الأوروبي.

أيد الجيش جمعية الاتحاد والترقي، وقامت ثورة في سالونيك لقلب الحكم، وبعد ضغوط الجمعية وافق السلطان عبد الحميد على النظام الجديد، وألغى الرقابة المفروضة على الإعلام، وألغى إدارة التجسس. وعين كمال باشا الليبرالي رئيساً للوزراء، وتم انتخاب للبرلمان لبحث الإصلاح في الدولة.

في هذه الاثناء نشبت في الدولة فوضى، ففي البانيا سادت حالة للقتال، وتمردت القبائل الكردية، ووصلت للفن إلى مقدونيا ومدن وولايات عربية، وأعلنت النمسا لنتهاء السيادة التركية على البوسنة والهرسك وضمها إلى الإمبراطورية النمساوية، وإرجاع ولاية نوفي بازار إلى الدولة العثمانية كتعويض لها، وأعلن أمير بلغاريا الاستقلال للناس عن الأتراك، وألغى دفع الجزية السنوية، واتخذ لنفسه لقب للملك.

استغلت إيطاليا الأوضاع المتurbدة في الدولة العثمانية، وأعلنت عام ١٩١١

عن ضم طرابلس وبرقة العثمانيتين، وبذلك نشبت الحرب العثمانية أو التركية-الإيطالية، إلا أن النتيجة كانت هزيمة القوات التركية، وشُجعت الدول البلقانية على إعلان الحرب على الأتراك، وانطلقت الحرب البلقانية الأولى (١٩١٢-١٩١٣)، فقد قام الملك فرديناند في بلغاريا بتأليف العصبة البلقانية مع إدراكه عدم معارضة النمسا له، واستعان بروميا لحمل ملك الصرب على عقد حلف مع بلاده، ثم مع اليونان وموافقة الجبل الأسود، وأصبحت العصبة البلقانية تضم (بلغاريا وصربيا والجبل الأسود واليونان)، وحاول الأتراك مواجهة العصبة باستدعاء أنور باشا زعيم الاتحاد والترقي والحكومة الجديدة، والجيش والضباط من طرابلس، وتوقيع معاهدة لوزان عام ١٩١٢ وفيها تخلت عن طرابلس وبرقة لإيطاليا.

إلا أن الجهود في صد للعصبة البلقانية فشلت في مواجهة الجيوش البلغارية في حصار أدرنه والوصول لضواحي اسطنبول، واجتاحت الجيوش اليونانية مقدونيا واحتلت سالونيك، وبعد شهرين من الحرب أجبرت على طلب الصلح وتوقيع معاهدة لندن في مايو/ أيار ١٩١٣، وتم فيها:

- ١- تخلى تركيا عن جميع ممتلكاتها عدا اسطنبول والأراضي المتاخمة لها.
- ٢- أخذت اليونان مقدونيا وكريت وسالونيك.
- ٣- امتدت بلغاريا حتى وصلت بحر أيجة.
- ٤- ازدادت أراضي الصرب والجبل الأسود.
- ٥- إقامة دولة ألبانيا وعليها أمير ألماني.
- ٦- استقر للراي على تسوية الحدود بين الدول المنتصرة من العصبة.

إلا أن دول العصبة اختلفت فيما بينها على توزيع الغنائم، فما كان من بلغاريا المدعومة من النمسا إلا أن أعلنت الحرب على الصرب واليونان، وكانت الحرب البلقانية الثانية، واسترجع الأتراك أدرنه، ودخل الحلفاء بلغاريا، وأجبر ملكها على عقد معاهدة بوخارست في أغسطس/ آب ١٩١٣، وتم فيها:

- ١- استيلاء الصرب على القسم الأكبر من مقدونيا بما فيها موناسيتر.
- ٢- استرجعت تركيا أدرنة.

٣- نالت رومانيا قسماً من إقليم دبروجة.

٤- استولت اليونان على مقدونيا الجنوبية، ومنها ميناء سالونيك.

وهكذا كانت أوضاع البلقان عشية للحرب العالمية الأولى، بل كانت الأزمات الأوروبية (الروسية) - خاصةً مع تركيا - من أسباب قيام هذه الحرب واشتعالها، وتدلعت الشرارة الأولى للحرب من صربيا ومن البوسنة والهرسك على أساس الانتقام للعربي والعامل القومي^(٣٨).

الفصل الثاني عشر

بريطانيا، ألمانيا، فرنسا، النمسا
والمجر خلال القرن ١٩ "الأوضاع
الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية

لولا: بريطانيا العظمى

تطورت ونمت بريطانيا في العصر الحديث لتتحول إلى دولة عظمى عسكرياً وسياسياً واقتصادياً، وأصبحت منذ القرن التاسع عشر مركزاً للثورة الصناعية والمصانع الكبيرة، والأيدي العاملة والأقاليم الصناعية والمدن الكبرى، والمصالح التجارية ورؤوس الأموال والثروات الهائلة والاستثمارات، وظهرت لديها الآلات والاختراعات والبخار والفحم والخبرات الفنية والمهنية، وكسبت بريطانيا المكانة والسمعة في العالم ولوروبا خاصة.

هكذا حققت بريطانيا الأرباح خلال القرن التاسع عشر في التجارة والصناعة وإنشاء المصارف في مختلف دول العالم، ولكن هذا التقدم صاحبه في الاتجاه الآخر تقدم في دول أخرى، مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا وأمريكا، وفتح الباب أمام المنافسة للصناعة، وقلت حركة السفن البريطانية مع ظهور الملاحة الأوروبية، وفقدت الأسواق للبريطانية التجارية، وسيطرت عليها دول صناعية أخرى، وواجهت مخاطر الضعف الاقتصادي، ولولا قوتها البحرية لما استطاعت الصمود ولتعرضت للحصار الخارجي في ظل الصراع الدولي عشية الحرب العالمية الأولى.

على المستوى البحري لم يكن لبريطانيا منافس قوي في السيادة البحرية خلال القرن التاسع عشر، وكانت القطع البحرية تنتشر في البحار والمحيطات والموانئ التجارية والجزر النائية، ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب في العالم، وهأت السبل أمام السفن البريطانية لتتجول في قارات العالم.

ومع التنافس الأوروبي - وخاصة من ألمانيا ومساها - اضطرت بريطانيا أن تضاعف جهودها الحربية وبناء السفن، بحيث عززت للقوة البحرية لها، ولكن مطلع القرن العشرين شهد منافسة قوية، وإنشاء أساطيل بحرية أوروبية، وأخذت ألمانيا لخطر خصوم بريطانيا تسعى لتقوية أسطولها، وأخذ الإمبراطور وليام الثاني منذ عام ١٨٩٨ بإنشاء أسطول بحري كبير، وأخذ الإنكليز يراقبون الوضع بحذر مع تضخم الأسطول الألماني واتجاهه في بحر الشمال، مما زاده أهمية وخطورة؛ لأن الأسطول البريطاني كان موزعاً في العالم، وأصبح على حدود الأسطول الألماني، وقررت

بريطانيا تقوية أسطولها الحربي وتزويده بالمدفعية الثقيلة.

وازدادت العلاقات توتراً بعد وفاة الملكة فيكتوريا عام ١٩٠١، وتولى العرش بعدها ابنها إدوارد السابع (١٩٠١-١٩١٠) الذي كان يكره ابن أخته وليام الثاني إمبراطور ألمانيا، وسامت العلاقات إلى حد النفور بين الحكومتين، وبدأت السياسة البريطانية تتجه إلى سياسة الاحلاف، وعقدت الاتفاق الليباني - البريطاني عام ١٩٠٢ لتأمين مصالحها في الشرق الأقصى، ثم بدأت بالتقارب مع فرنسا لتحجيم ألمانيا، ووصلت إلى الاتفاق اللودي من أجل مواجهة القوة للبحرية الألمانية، ثم عام ١٩٠٧ انضمت إلى الاتفاق مع روسيا وفرنسا لتتحول إلى ثلاثي أوروبي دولي، ولوشكت العاصفة أن تهب على أوروبا.

١- نظام الحكم البريطاني:

تمتع الشعب البريطاني خلال القرنين (١٧-١٨) بالنظام البرلماني في وقت كانت الشعوب الأوروبية تعيش تحت أنظمة ملكية استبدادية، وكان للملوك الإنكليز ملوكاً دستوريين تركوا السلطة التنفيذية إلى مجلس للوزراء المسؤول أمام البرلمان، ولارتقت للنظم الديمقراطية في بريطانيا مع إجراء تعديلات برلمانية في الأعوام (١٨٣٢ و ١٨٦٧ و ١٨٨٤ و ١٨٨٥).

وكان حق الانتخاب مفتوحاً أمام للشعب بأغلبه للإدلاء بأصواته في أي انتخابات برلمانية، ومضت رياح الديمقراطية في إنكلترا، وأصبح في البرلمان حزبان كبيران: الأحرار والمحافظةون يتنافسان من أجل الوصول إلى أغلبية الشعب وتهيئة برامج تشير إلى رفاهية أفضل للطبقات الفقيرة، وفرص العمل للعاطلين، وكان المحافظون هم الذين يمثلون كبار الملاك، ولهم المصالح للزراعية، ويدعمهم رجال الكنيسة والأغنياء، وهم يعارضون بشدة قيام منظمات عمالية، أو اتحادات من أجل تحسين أحوالهم وتنظيم للعلاقات بينهم وبين سيد العمل.

لما حزب الأحرار، فكان يرى أن إنكلترا سارت في طريق الثروة والقوة، وأنها سارت على سياسة عدم للتدخل في السياسة الفردية، أي يجب ترك الأعمال والتجارة حرة دون تدخل الحكومة، وإن الوسيلة الأفضل لتحسين حالة الطبقات العاملة

أن تعمل الدولة على خفض تكاليف الحياة للمعيشية حتى يستطيع العمال شراء ما يحتاجونه ضمن حدود أجورهم، ودلوا بترك حرية للتجارة دون قيود مفروضة عليها. فهكذا كان الأحرار يرفضون فكرة فرض ضرائب مهما كانت، أما المحافظون فكانوا يريدون حماية التجارة بفرض الضرائب والمكوس على البضائع، مما يجعل العبء ثقيلاً على كاهل الطبقات الفقيرة، وظل الخلاف قائماً بين الأحرار والمحافظين، حيث أن نظرة الطرف الأخير إلى بريطانيا كانت على أساس أنها دولة استعمارية لا بد أن تتوسع مساحة مستعمراتها، وتتف بوجه للحركة الوطنية والقومية التي تواجهها في الدول التي تستعمرها، لتظل دولة عظمى ومحترمة أمام الآخرين، ورفضت بالفعل وزارة المحافظين منح الحكم الذاتي لآيرلندا، ودخلت في حرب مع البوير في جنوب أفريقيا (١٨٩٩-١٩٠٢)، وألحقت هزائم ببريطانيا عسكرياً واقتصادياً، ثم اضطرت إلى منح جنوب أفريقيا الحكم الذاتي، وكان يمثل هذه السياسة رئيس حزب المحافظين والوزارة بين (١٨٧٤-١٨٨٠) دزرتيلي، بينما يمثل الأحرار رئيس الحزب كلاستون، والأول كان استعمارياً وقف أمام الدولة العثمانية وروسيا، والثاني يميل إلى دعم للشعوب البلقانية ضد حكامها من أجل نيل استقلالها وحريتها^(٣٩).

٢- حزب العمال:

ظهرت حركة سياسية جديدة من بين للطبقات العاملة والنقابات الصناعية، وأخذ العمال في أواخر القرن التاسع عشر ينظمون أنفسهم ويعملون في السياسة، وظهرت (الجمعية الغابية) لدراسة للوسائل التي تؤدي إلى قيام اشتراكية عمالية في بريطانيا.

وأخذت جمعيات اشتراكية عام ١٩٠٠ تحاول الاتفاق مع نقابات العمال على إنشاء حزب سياسي مستقل هو حزب العمال، وظهر إلى الوجود عام ١٩٠٢، وعلى رأسه رمزي مكنونالد، وتمكن في انتخابات عام ١٩٠٦ من الحصول على (٢٩) مقعداً في مجلس النواب، وأصبح حزباً له مكانته في السياسة الإنكليزية إلى جانب الأحرار والمحافظين.

وصل حزب الأحرار إلى حكم إنكلترا، وحصل على ائتلاف بينه وبين حزب العمال في برنامج مشترك من أجل إصلاح حال الطبقات الفقيرة، ومواجهة بريطانيا للعظمى لأعدائها، واضطرت الوزارة إلى جمع الأموال عن طريق الضرائب؛ لكي تحقق هذه الإصلاحات.

وحقق الأحرار بعض أهدافهم في عهد وزارة كاميل بانرمان C. Bannerman (١٩٠٥-١٩٠٨)، ثم هيربرت اسكويث H. Asquith (١٩٠٨-١٩١٦) حيث صدرت عدة تشريعات لإصلاح أحوال الطبقة العاملة، مثل قانون تعويض العمال عند إلحاق الضرر بهم أثناء العمل، وقانون المعاش الذي يمنح المعاش لمن تجاوز (٧٠) عاماً، ويقل دخله عن (٣١,٥) جنيهاً في العام، وتشريعات أخرى.

وتبعه عام ١٩١١ قانون للتأمين الوطني والعلاج لأمر العمال، وتتفق الأموال من اشتراكات يدفعها العمال وأصحاب العمل والحكومة، ولتقت هذه التشريعات أعباء على الميزانية، وفكر وزير المالية لويد جورج أن تشمل للميزانية فرض الضرائب على الضياع، والدخل، ورسومياً على أماكن الصيد والحدائق والسيارات وغيرها.

ولما عرضت هذه للميزانية على مجلس اللوردات الذي يسيطر عليه المحافظون لقيت الرفض، وطرح الأحرار المسألة في انتخابات أمام الشعب، وعادوا إلى الحكم بأغلبية أقل، ورأى الأحرار أن مجلس اللوردات يقف أمام تحقيق الإصلاحات، فقرروا إجراء تعديلات دستورية تحد من سلطة اللوردات، ووضعوا قانون البرلمان الذي يقضي بأنه لا يحق للوردات رفض التشريعات المالية التي يسنها مجلس العموم، وتصبح تلك التشريعات نافذة بعد سنتين من بدء عرضها على مجلس العموم.

رفض مجلس اللوردات الموافقة على هذه التعديلات، وعاد اسكويث للشعب عام ١٩١٠ الذي ملح الأحرار أصواته، وأخيراً اضطر مجلس اللوردات للموافقة على قانون البرلمان عام ١٩١١، بعد أن هدد مجلس الوزراء بالحد من سلطات مجلسهم، وأصبح منذ ذلك الوقت مجلس العموم هو المسيطر على شؤون الدولة، ولم يبق

للوردات إلا حق في تأخير نفاذ القانون الذي يوافق عليه مجلس العموم مدة سنتين
لحسب، وفقد اللوردات معظم سلطاتهم التشريعية.

٤- المستعمرات البريطانية:

تشكلت بريطانيا العظمى من مستعمرات واسعة ومتراصة الأطراف في كل
القارات والجهات، واستوطن الإنكليز في المستعمرات، وهاجروا بأعداد كبيرة وصلت
إلى ستة ملايين في هذه الفترة من أصل (٣٧) مليون نسمة معدل سكان إنكلترا، وقد
ولجئت لندن مشكلات في مستعمراتها السياسية والعسكرية.

فقد طالبت أيرلندا باستقلالها، ولجبرت إنكلترا على منحها حكماً دستورياً
وبرلمانياً محلياً عام ١٧٨٢، ثم ألغت إنكلترا ذلك عام ١٨٠١ بعد صراعها مع نابليون
والخطر الفرنسي على أيرلندا، وعانى من ذلك الأيرلنديون بين الفقر والبطالة والهجرة،
ورأوا أن إنكلترا هي السبب في تردي أوضاعهم.

حاول كلاستون زعيم الأحرار أن يحل المشكلة الأيرلندية من خلال سن
قانون بمنح أيرلندا الحكم الذاتي، فلم يوافق البرلمان، وعاد عام ١٨٩٣ فوافق مجلس
العموم، ورفض اللوردات، ولم يرض الوطنيون الأيرلنديون لقل من الحكم الذاتي
لبلائهم، ونددوا بمظاهر الحكم والإدارة الإنكليزية عليهم لأنها تخدش كبرياءهم
ومشاعرهم الوطنية.

وكان الأيرلنديون الكاثوليك يحثون الأحرار على منح أيرلندا الحكم الذاتي،
ووقف ضدهم البروتستانت الذي يطالبون المحافظين بالعمل على نيل أيرلندا الاستقلال،
لأن هؤلاء البروتستانت لا يرغبون في أن يصبحوا أقلية في دولة كاثوليكية، ورفضت
إنكلترا في حيرة بين الطرفين بدون أن تجد مخرجاً لها، ثم انقلب للوضع عام ١٩١٨
إلى حركة ثورية دامية، وحلت الحرب العالمية الأولى والمشكلة الأيرلندية لم تجد لها
الحل.

لما كندا التي تألفت من أربع ولايات، هي كوبيك ولورنتاريو ونوفاسكوشيا
ونيوبرنزويك فكان نظام الحكم فيها مشابهاً فيها لنظام الحكم في بريطانيا، ويمثل الملك
في كندا حاكماً عاماً، وفي البلاد برلمان مكون من مجلس الشيوخ ومجلس العموم على

ان تحتفظ كل ولاية بكيانها الخاص، ثم مع اتساع أقاليم البلاد أصبحت تمنح ولايات بدلاً من أربع، هي مابنتويا عام ١٨٧٠ وكولمبيا البريطانية عام ١٨٧١، والبرنس ألوارد عام ١٨٧٣، والبرتاوسكتشون عام ١٩٠٥.

وفي مطلع القرن العشرين تمتعت ثلاث مستعمرات بريطانية بالحكم الذاتي نظراً لنجاحه في كندا، وهي استراليا ونيوزلندا وجنوب أفريقيا.

في استراليا اتحدت الولايات الست باسم ويلز الجنوبية الجديدة وفكتوريا وكونيزلند واستراليا الغربية وتسمانيا، ثم تكونت منها جميعاً مجموع للشعوب الاسترالية في يناير/ كانون الثاني ١٩٠١، وقد طبقت بريطانيا النظام الدستوري الذي تتبع من قبل في كندا، حيث كان يمثل الملك حاكم عام، وتأسس البرلمان الذي يمثل للولايات المختلفة من مجلسين، وأصبحت (كبرى) عام ١٩١١ والواقعة على ويلز الجديدة عاصمة استراليا.

أيضاً في جزر نيوزيلندا التي كان سكانها عام ١٩٠١ أقل من مليون نسمة، فقد تطور نظام الحكم فيها، وبلغت ما بلغته استراليا من نظام ديمقراطي، وأصبحت من أشد الممتلكات البريطانية تحمساً في الدفاع عن الإمبراطورية.

لما في جنوب أفريقيا، فإن التاريخ حافل بالصراع مع بريطانيا، ودخل البريطانيون في حرب مع الأفارقة استمرت حتى عام ١٩٠٢، انتهت بقمع للقوات البريطانية البوير، وضم أراضي الأورنج والترنسفال إلى مستعمراتهم في جنوب أفريقيا، وتقرر عام ١٩٠٩ قيام اتحاد جنوب أفريقيا وضم الأورنج والترنسفال والكاب والناثل، وأثرت هذه الحرب على سمعة بريطانيا في العالم، وكانت تواجه منافسة لأوروبية من ألمانيا وفرنسا وروسيا، وتتمنى هذه الدول خسارة لندن في مواجهتها للطويلة مع البوير في جنوب أفريقيا^(١٠).

ثانياً: ألمانيا

ازدادت مكانة ألمانيا مع وحدتها والانتصار على فرنسا في حرب السبعين، وازداد عدد سكانها حتى بلغ (٦٧) مليون نسمة قبل الحرب العالمية الأولى مع التقدم الصناعي ووفرة الفحم الحجري بعد أخذ الألزاس واللورين من فرنسا، وضمت ألمانيا

بتوحيدها للتفوق في توزيع المنتجات الصناعية في أوروبا، واندفع الألمان نحو بذل الجهود والتوسع في المصانع، واحتلت ألمانيا مركزاً مرموقاً بين الدول الصناعية باهتمامها بالنقل وتوسيع الموانئ والسفن، فأصبحت البحرية الألمانية أقوى بحرية في العالم عام ١٩٠٠ بعد بريطانيا.

وأصبحت منتجاتها تنتشر في الأسواق الأوروبية والإنكليزية، ووصلت حصة الألمان ٩-١٢% من التجارة العالمية، ف خسرت لندن ليس أسواق أوروبا فحسب، بل أسواق العالم تدريجياً.

١- نظام الحكم الألماني:

كانت ألمانيا عند توحيدها عام ١٨٧١ ذات حكومة برلمانية في الظاهر، ولكنها مطلقة للسلطة في الباطن، وكانت تنقص الألمان الخبرة في السياسة والشؤون الداخلية عن طريق الحكم البرلماني، وكان الإمبراطور الألماني من أسرة هوهنزلرن ملك بروسيا وقبصر الرايخ، وله سلطة واسعة في الشؤون الداخلية؛ لذ يعين كبار الموظفين في الاتحاد الألماني، وله حق إنشاء الجيش والأسطول، أما في السياسة الخارجية فإن للمستور الألماني قد جعل الإمبراطور يمثل الدولة في جميع الشؤون الدولية بإعلان الحرب باسم الرايخ، لو إعلان السلم وتوقيع المعاهدات والاتفاقيات مع الدول الأجنبية. وطفى للنظام البروسي على الاتحاد الألماني سواء في السياسة أو الجيش، وأحرز النصر عام ١٨٦٦ ضد النمسا، وعام ١٨٧٠-١٨٧١ أمام فرنسا، وامتد النفوذ للبروسي إلى الإدارة الحكومية والوظائف بكفاءة نادرة، ومع اعتلاء بسمارك منصب المستشار افتتح الألمان لن البروس لهم دور كبير في البلاد، وحاولوا الاندماج مع نظمهم وطبايعهم وإدارتهم.

كانت ألمانيا الموحدة دولة وسطاً جغرافياً وسياسياً، بين فرنسا وبريطانيا والنمسا وروسيا، فهي ذات نظام لوتوقراطي وحكم ديمقراطي، وتعتمد على مجلسين: الأول (الرايخشتاغ)، وهو يمثل الشعب، ويُنتخب أعضاؤه الـ(٣٨٢) عضواً بالاقتراع العام، ولكن سلطته محدودة، حيث لن مجلس الوزراء مسؤول أمام الإمبراطور وليس أمامه، فكان المجلس مسرحاً للنقاشات والمجادلات السياسية دون لن تنفيذ الوزارة

برأيه، رغم أن الدستور منح المجلس حق إسقاط الوزارة إذا اقترح للمجلس على عدم الثقة بها، إلا أن المجلس لم يستعمل أو يجرؤ على استخدام هذا الحق، وكان المستشار (رئيس الوزراء) لا يابه بمعارضة الأغلبية في المجلس ما دلم يتمتع بموافقة الإمبراطور.

أما مجلس (البنديرات)، فهو مجلس أعلى يمثل للولايات الألمانية، وكان أعضاؤه يعينهم الإمبراطور، وتراعى مساحة للولاية عند تعيين عدد للممثلين لها، فنالت برومبا (١٧) مقعداً من أصل (٥٨) مقعداً، ولهذا أصبح رأها هو القاطع في البلاد في أغلب الأحيان؛ لقوة للنفوذ البروسي في الولايات للكثيرة، وكانت سلطة للبنديرات أوسع من سلطة الرايخشتاغ؛ إذ كان من حقه للتصديق على للقوانين والمعاهدات وإن يقرر حل مجلس للرايخشتاغ بناء على طلب الإمبراطور، وتعيين بعض كبار الموظفين في الاتحاد الألماني، والفصل فيما يقوم من خلافات ومنع لية تعديلات في الدستور.

ومع وجود هذين للمجلسين للتشريعيين فقد ظلت حكومة الاتحاد الألماني لوتوقراطية أكثر منها برلمانية، وظلت للرقابة على الصحافة وحرية للرأي والتعبير والتنظيم الشعبي، وكان الألمان يحترمون نظام للدولة، ويطيعون للقوانين، ويلتزمون بالأنظمة، مع شيوع الروح الوطنية التي تنادي بأن ألمانيا فوق الجميع وإنها تحتل الصدارة بين الدول الأوروبية، وتزعم هذه لفكرة الإمبراطور وليام الثاني قبيل للحرب العالمية الأولى، والذي دفع إلى توسع عسكري واقتصادي وعلمي، ثم اندفاع نحو المنافسة العالمية والأوروبية خاصة^(١).

٢- بسمارك والاشتراكية:

استطاع بسمارك المسيطر على ألمانيا أن يكون من الرايخشتاغ لتتلاقاً بين الارستقراطية للبروسية العسكرية والطبقة للبرجوازية الألمانية، ووقف للطرفان ضد الطبقة العاملة، ومع إخماد الاشتراكية التي أخذت تظهر في صفوف العمال، وبعد عام ١٨٧٥ شعر العمال بأن للدولة لا تهتم بهم من حيث المساواة والعدالة والاجتماعية، واتحدوا من أجل تكوين حزب جديد هو الحزب الديمقراطي الاشتراكي.

وأخذ العمال والاشتراكيون بنشر أفكارهم، إلا أن بسمارك كان لهم بالمرصاد، فمنع الاجتماعات والمؤتمرات، وصادر للصحف، وألقى القبض على زعمائهم، فقوى أصحاب الأعمال والرأسماليين، وضاغطوا على العمال لترك أصحاب الأفكار الاشتراكية، وإن يتعهدوا على ذلك.

وحدثت الحكومة في يوليو/ تموز ١٨٧٨ مجلس الرايخشتاغ، وحصل بسمارك على أغلبية الأصوات في الانتخابات الجديدة، وتم نفي عدد كبير من الاشتراكيين للخارج، وصودرت الصحف، وغادر زعيم الحركة الاشتراكية برلمستين برلين إلى سويسرا عام ١٨٧٨ ومعهم رفاقه الذين غادروا ألمانيا أيضاً، وبعد عامين عادت الاشتراكية إلى قوتها، وانتشرت بين العمال، وأصدر بسمارك عدة تشريعات لتهدئة العمال، مثل قانون للتأمين للصحي، والتأمين ضد الحوادث، وقانون المعاش لكبار السن والعاجزين عن العمل (١٨٨٣-١٨٨٥). مالت ألمانيا نحو التحول الديمقراطي مع زيادة نفوذ للحزب الاشتراكي الديمقراطي بعد عام ١٨٩٠، وجمع عدد كبير من الألمان للمعتدلين، وأصبح له الأغلبية عام ١٩١٢ في الرايخشتاغ، ولاقى معارضة رجال الجيش والأثرياء نتيجة لدعوته ضد لتساع ميزانية الجيش، وفرض ضريبة تصاعدية على الدخل، وأخرى على الشركات، هذا مع ملك الأراضي ورجال الأعمال بسبب سياسات للحزب أيضاً.

ورغم أن الاشتراكيين الديمقراطيين كان لهم ثلث مقاعد الرايخشتاغ في لانتخابات عام ١٩١٢ بمساعدة حلفائهم من حزب الأحرار، إلا أن سلطتهم الدستورية على الوزارة كانت محدودة، وظل رؤساء الوزارات يرون أنهم معينون من الأباطرة، وبذلك لا بحق للبرلمان أو المجلس سحب الثقة منهم.

وقد رفض الاشتراكيون الديمقراطيون أن يحدثوا أزمات داخلية أو ثورات، وحافظوا على الوحدة الداخلية، واتجاه للشعب نحو العمل والازدهار الاقتصادي ومضاعفة للتجارة وتطوير الحركة الصناعية^(١٢).

ثالثاً: فرنسا

تميزت فرنسا بالأراضي الزراعية الغنية واللبساتين، وكان الفرنسيون يتمتعون

باكتفاء ذاتي لضرورات الحياة، ولدى هذا إلى مضاعفة أعداد المزارعين والرعاة، وتقدم للصناعة الفرنسية مطلع القرن العشرين فضلاً عن إنتاج الحديد وصناعة النسيج وامتازت الصناعات للكمالية والزينة منذ ذلك الوقت.

وعُرفت فرنسا بأنها تملك مستعمرات في أفريقيا وآسيا جعلتها ثاني إمبراطورية بعد بريطانيا العظمى، ولهذا قامت منافسة بين الدولتين حول الهند والمشرق العربي وكندا والهند الغربية، واستطاعت بريطانيا أن تتفوق على فرنسا في تلك المناطق، بفضل السيادة البحرية التي لم تستطع أن تتزعاها منها، على أن فرنسا شقت طريقها لاحتلال الجزائر عام ١٨٣٠، وتوسعت في أفريقيا وآسيا، فاحتلت تونس عام ١٨٨١ ومراكش وأفريقيا الغربية والوسطى الاستوائية، والهند الصينية في آسيا.

حاولت فرنسا بعد هزيمتها أمام ألمانيا في حرب السبعين ١٨٧٠/١٨٧١ أن تعيد تنظيم صفوف جيشها، فأعلنت التجنيد الإجباري وزيادة الاتفاق على التسليح، وظهرت حركة لإحياء الروح العسكرية على غرار البحرية البروسية، ونجحت فرنسا في عقد معاهدة مع روسيا عام ١٨٩٤، وكان كسباً لفرنسا، مع اعتزال بسمارك عام ١٨٩٠، ونهار نظام التحالف الذي ضم لألمانيا والنمسا وروسيا.

وأصبحت السياسة الخارجية الفرنسية بعد عام ١٨٩٨ أكثر رسوخاً؛ إذ تسلم إدارة الخارجية ديلكاسيه Delcasse، ولدى دوراً هاماً في إزالة سوء التفاهم الذي نشأ بين إنكلترا وفرنسا عقب حادثة فاشوتة ١٨٩٨، وسعى حتى تم الوفاق اللودي بين البلدين عام ١٩٠٤، وكان أمام فرنسا مشكلة الاحتفاظ بصدقة روسيا خوفاً من نجاح ألمانيا في ضمها إلى حلفهم، فاتجهت فرنسا إلى إرضاء روسيا بمنحها قروضاً مالية وعدم معارضة سياستها في البلقان، ولا سيما أن فرنسا كانت في ذلك الوقت تتطلع إلى تأكيد روسيا لها في سياستها التي تهدف إلى الاستيلاء على العرش، ثم نجحت أخيراً في التوفيق بقيام تحالف أو وفاق ثلاثي (روسيا وفرنسا وإنكلترا).

فرنسا والعدالة الاجتماعية:

استطاعت الجمهورية الفرنسية الثالثة والجمهوريون المعتدلون أن يسيطروا على البلاد بمساعدة أنصارهم من الطبقة الوسطى، وكانت أغلبية الشعب الفرنسي ترى

في عام ١٨٧١ في انتخاب الجمهوريين عودة إلى للحروب وزمن الثورات، ورغم كثرة الملكيين في الجمعية التأسيسية إلا أنهم فضلوا في إعادة الملكية، فقد كانت باريس جمهورية النزعة، والحكومة تميل إلى النظام الجمهوري المعتدل الذي يرفض الثورات، وأجبرته الأحزاب الملكية على الاستقالة عام ١٨٧٣، ورغم ذلك انتصر الجمهوريون، وصدر دستور عام ١٨٧٥، وظل في فرنسا حتى عام ١٩٤٠، ونص هذا الدستور على إنشاء مجلسين، مجلس النواب ومجلس الشيوخ، وأن ينتخب رئيس الجمهورية لمدة سبعة أعوام بتصويت للمجلسين مجتمعين، ووضع الدستور السلطة بيد رئيس الوزارة وليس رئيس الجمهورية، والأول مسؤول أمام مجلس النواب، فأصبحت فرنسا ديمقراطية برلمانية.

كانت الحياة في فرنسا مليئة بالازمات الداخلية، واختلاف الأحزاب السياسية، وعدم استقرار الوزارات الفرنسية، وفقدان مصداقية الصحافة ومواقفها المتذبذبة بين هذا التيار أو ذاك، وعجز البرلمان عن حكم الشعب، وتقسمت الجمهورية الثلاثة للفرنسية، لا سيما وانها واجهت ازمات عدة في أواخر القرن التاسع عشر مع ظهور لزمات داخلية، مثل أزمة الجنرال بولنجيه وزير للحربية عام ١٨٨٦ الذي طالب بالاصلاحات العسكرية والاستعداد الحربي والوقوف بوجه الألمان، واستهوت شخصيته الجماهير الفرنسية، وبرز اسمه سياسياً، واضطر للاستقالة مع حميد زملائه، ووجهوا له للخيانة العظمى عام ١٨٨٩، وهرب عن فرنسا، وانتهى أمره بالانتحار عام ١٨٩١. ثم تبعها حادثة فضيحة شركة قناة بنما التي أفلست عام ١٨٨٩، وتبين ان الأموال تسربت إلى صحفيين ومسؤولين في الإدارة، ومعهم أعضاء في البرلمان تلقوا رشوات وهدايا، مما أغضب الشعب، ووجه للنقد إلى الحكم، واتخذ أعداء الملكية الفرصة لتوجيه اللوم للنظام الجمهوري، ثم تبعها حادثة (دريغوس) الضابط اليهودي في الجيش الفرنسي، ووجهت له الخيانة العظمى عام ١٨٩٤ على أساس تسريبه أسرار عسكرية إلى ألمانيا، ورأى الاشتراكيون والجمهوريون المتطرفون ان دانيغوس بريء، وأخيراً تم كشف الأسرار عن التزوير في الوثائق، وصدر في عام ١٩٠٦ قرار البراءة وأظهر التزوير والظلم.

بَلَّتْ هذه الأمثلة على ضعف داخلي في الجمهورية الفرنسية الثالثة، وأظهرت ضعف الجمهوريين، ورجحان كفة الاشتراكيين، بحيث وصل بعضهم إلى الحكم، إلا أن كفة الجمهوريين للمعتلين كانت الأرجح؛ لأنهم يمثلون الطبقة الوسطى التي لا تميل إلى الاشتراكية المتطرفة التي تهدد الناس في أملاكهم، وظلت الحكومة الفرنسية ثابتة في موقفها تجاه الليبراليين، ويؤيدها الصناعيون والصرافون وملاك الأراضي مع الفلاحين والتجار الصغار وأصحاب المحلات، ممن يتولعون بالخطر من الأفكار الثورية، فظلت الجمهورية الثالثة الفرنسية برجوازية رغم وجود بعض الاشتراكيين.

ومع جهود الحزب الاشتراكي فقد ظلت المبادئ الجديدة ومعارضة سياسة الحكومة التي ترصد معظم ميزانية الدولة لخدمة للجيش، وعارض الاشتراكيون تركيز الثروة في أيدي كبار رجال الصناعة ورجال الطبقة البرجوازية، إلا أن الحكومة لم تستجب لهم، بل أنها لم تحاول أن تصدر قوانين للإصلاح الاجتماعي مثل ما فعلت الحكومة الألمانية أو الأحرار في بريطانيا.

وقد سار الاشتراكيون الفرنسيون في طريق التطرف، وظهرت فكرة للثورات العمالية، وجمعت كل منظمة للعاملين في صناعة معينة، ومن ثم جمعت للثورات في اتحاد هو (الاتحاد العام للعمل)، وتُخَمُّ مطالب العمال على الحكومة تحت ضغط الاضراب أو للتظاهر وتعطيل المعامل والعمل.

إلا أن العمال الفرنسيين خابت آمالهم بالاتحاد العام للعمل بعد أن تبيلوا أن مطالبهم عبر الاتحاد لم تصل إلى الهدف المنشود، بل فشلت محاولات الاضراب عامي ١٩٠٦، ١٩٠٩ مع تسوية الحكومة ضدهم بالأحكام العرفية، ثم تجنيد العمال بالجيش عام ١٩١٠.

وشعر الفرنسيون أمام الخطر الألماني قبيل الحرب العالمية الأولى بضرورة بقاء الجيش درع للبلاد، وإن ما يطالب به الاشتراكيون في هذه الفترة هو خيانة نضف الشعب والبلاد، ففشلت مع إعلان الحرب أفكار الاشتراكيين المتطرفة، وانتصرت للروح القومية الفرنسية للإخلاص والتضحية للوطن، ثم وقف الاشتراكيون إلى جانب الشعب واتخاذ الإجراءات لمواجهة الأعداء من تدابير عسكرية وضعتها

الحكومة عند قيام للحرب العالمية الأولى^(١٢).

رابعاً: النمسا والمجر

ظلت الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ عصر شارلمان إلى عصر نابليون بونابرت من أكبر الدول الأوروبية مساحة وأهمية، حتى بدأ مركزها يضعف مع ظهور الدول القومية، مثل إنكلترا وفرنسا وإسبانيا، ثم تنازل إمبراطورها فرنسيس الثاني عن لقبه كإمبراطور للدولة الرومانية المقدسة في عام ١٨٠٦، وظل يحمل لقب إمبراطور النمسا، واشتملت تلك الإمبراطورية على عدد من القوميات واللغات واللهجات والعادات، مثل للجرمان، والمجريين، والنمسيك، والبولنديين، والسلاف، والكروات، والسلوفين واليوغسلاف، خاضعين جميعاً لنظام اتحادي كالعصور الوسطى، فكانت تلك الإمبراطورية تشمل على حكومات تختلف في مساحتها ونظمها وسكانها، منها الدوقيات والممالك والإمارات والبارونيات والمدن والاستقفيات، وكل منها يتبع نظامه الخاص، ولا يجمعها سوى خضوع لأسرة آل هابسبورغ للنمساوية.

إلا ان الإمبراطورية قامت على أساس إنكار وجود هذه القوميات والشعوب، ومفترضة أنها تخضع - وبقبول - لسلطة حكومة واحدة وتحت سلطان واحد، وذلك لان هذه الإمبراطورية كانت متماسكة الأجزاء بروابط المذهب المشترك، والجيش الموحد، والتاج المشترك، وقد حاول الإمبراطور جوزيف الثاني (١٧٨٠-١٧٩٠) تنظيم تلك الإمبراطورية وإقامة حكومة مركزية تخضع لها أجزاء الإمبراطورية المختلفة، وتوحيد اللغات، بحيث تصبح الألمانية اللغة الوحيدة والحديثة، لكن محاولاته باءت بالفشل، وعارضتها شعوب الإمبراطورية بشكل عنيف، ثم أخذت روح القومية تسري بين تلك الشعوب خلال القرن التاسع عشر، وقامت الوحدة الإيطالية في الجنوب والوحدة الألمانية في الشمال، وأخذت الإمبراطورية النمساوية المجرية تضعف وتتحل، وهي في طريقها إلى الزوال.

انتهت سيطرة آل هابسبورغ على إيطاليا عندما طرد الإيطاليون الحاميات للنمساوية من لمبارديا والبندقية، وانتزعوا الأراضي الإيطالية من الإمبراطورية النمساوية، فأصبحت تلك الإمبراطورية مغلقة الحدود من جهة البحر، في عصر

ازدهرت فيه البحار والمحيطات وغنت من أهم وسائل النقل والمواصلات، وأثر ذلك على التجارة الدولية، وأصبح من الضروري للتجارة النمساوية أن تعبر نهر الدانوب إلى البحر الأسود عبر رومانيا وبلغاريا، ومن ثم تمر في المضائق التي تسيطر عليها تركيا لكي تصل إلى المحيط الأطلسي عبر جبل طارق، أو المحيط الهندي عن طريق قناة السويس وعدن.

ثم إن النمسا كانت مغلقة من الغرب ومن الشمال ومن الشرق، تسد عليها إيطاليا وسويسرا وألمانيا وروسيا الطريق الاقتصادي، وكان المنفذ الوحيد هو أن تتوسع نحو الجنوب على حساب دول البلقان الصغيرة، وبذلك كان عليها أن تنتظر صراعاً بينها وبين روسيا، فقد كانت الأخيرة تحاول أن تجد لها منفذاً على البلقان لكي تصل إلى المياه للدافئة، فقام تنافس روسي - نمساوي خلال القرن التاسع عشر على السيطرة على القسطنطينية والدرنديل، وأصبحت البلقان مركزاً للصراع والمنافسة الدولية وأساس مشاكل القرن التاسع عشر، والممهّد لقيام الحرب العالمية الأولى.

كانت الدول الكبرى تعدّ روسيا لكبر خطر يهدد السلام للعام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأخذ الساسة الأوروبيون يعملون على الحفاظ على الوضع الراهن، وذلك بتقوية النمسا، وفي مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ لوقف الضغط الروسي في البلقان تقرر أن تتولى النمسا إدارة البوسنة والهرسك اللتين كانتا تابعتين للدولة العثمانية، وكانت النمسا والمجر تهتم بهما لأن وضعهما تحت سيطرتها يعطي الحكومة النمساوية فرصة السيطرة على ساحل الأدرياتيك من استريا إلى مضيق أنزلنتو^(١).

١ - البوسنة والهرسك:

ظلت للنمسا تنتظر الفرصة المناسبة لكي تضم هذه الولايات إليها بشكل نهائي، وسنحت تلك الفرصة في عام ١٩٠٨ عندما قامت ثورة الاتحاد والترقي ضد السلطان العثماني، وكان هدفها هو إنقاذ البلاد من الخضوع للهيمنة الغربية، وإقامة دولة عثمانية عصرية تقوم على أساس من القوة والنظام، وتشكلت رؤية لدى هؤلاء على أن تشارك الولايات البلقانية الخاضعة للسلطان العثماني في الثورة عليه، وأرسلوا لشعب البوسنة

والهرسك ان يبعثوا مندوبين للاجتماع بهم، وفصلوا من ذلك إثبات تبعية البوسنة والهرسك وعد تلك البلاد ضمن الإمبراطورية العثمانية، إلا ان حكومة النمسا والمجر قابلت تلك الحركة بضرية قاصمة، وأعلنت في أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٠٨ ضم البوسنة والهرسك رسمياً إلى النمسا، وحرضت النمسا بلغاريا على إعلان الاستقلال عن الدولة العثمانية.

واعتقدت النمسا انها وجهت ضربة إلى روسيا الطامعة بالبلقان بعد ان منيت بالهزيمة أمام اليابان عام ١٩٠٥ وخروجت دولة ضعيفة لا تستطيع ان تواجه النمسا، ثم ان وزير خارجية روسيا الكسندر ازلفسكي كان قد وافق النمسا في السادس عشر من سبتمبر/ أيلول ١٩٠٨ على ان تقوم باتخاذ تلك الخطوة في البلقان، مقابل اعتراف للنمسا بحق روسيا في مرور السفن الحربية في مضيق الدردنيل، على ان الاتفاق بين الدولتين لم توافق عليه الحكومة الروسية، إضافة إلى ان الإنكليز رغم انهم وسعوا الوفاق الودي مع فرنسا ليشمل طرفاً ثالثاً هو روسيا أيضاً إلا انهم عارضوا فتح المضائق لمرور السفن الروسية فيها، وكان وزير الخارجية الروسي يعلم ان ذلك سيثير الشقاق بين المعسكر وبين الصداقة الإنكليزية - الروسية.

أثارت تحركات النمسا في البلقان للخوف في الدول الأوروبية من ان تؤدي اطماع النمسا إلى حرب في البلقان، وانهم من جانبهم لا بد أن يقفوا إلى جانب حليفهم مهما كان الثمن، إذ لم يكن للألمان حليف يعتمدون عليه سوى النمسا، والتي كانت تفكر في مشروعات للتوسع التي قد تفيد منها ألمانيا، فكانت الأولى تفكر في مشروع مد خط حديدي من سراييفو إلى سالونيك على بحر ألجيه، وتفتح الطريق بين صربيا ومونتيفرو (أي الجبل الأسود)، مما يدعم نفوذ النمسا في البلقان، ويمنع تأسيس وحدة سلافية قد تؤدي إلى تكوين دولة من الشعوب السلافية تعارض توجهات النمسا الاستعمارية، وهكذا نرى ان البلقان في عام ١٩٠٨ كانت موطناً لصراع سياسي بين معظم الدول الأوروبية، بحيث بات من المتوقع ان تنشب الحرب في البلقان.

وقد مرت أزمة عام ١٩٠٨ دون حرب، واكتفت الدول بتقديم الاحتجاج على اطماع النمسا، وازداد التوتر بين النمسا وروسيا مع تناقصهما من أجل الوصول إلى

المياه للدافئة، علماً ان وقوف النمسا مع ألمانيا جعل دول الوفاق تنتظر بعين الخوف والقلق إلى امتداد النفوذ الألماني - للنمساوي داخل البلقان وإلى الشرق الأدنى، وهو من أسباب التقارب بين فرنسا وإنكلترا، مع تحول الوفاق الثنائي إلى ثلاثي يتضمن روسيا إليه.

٢- الأزمة الاقتصادية:

بعد ان ضمت النمسا البوسنة والهرسك وجدت انها قد ضمت ملايين من السلاف الذين أضيفوا إلى الاقليات التي يحكمها الإمبراطور فرنسيس جوزيف، وبذلك زادت مشاكلها العرقية والقومية مع اشتداد الروح القومية بين الشعوب العديدة التي تخضع إلى السلطة النمساوية.

وكانت الاقليات تريد الانفصال عن النمسا، فالمجريون كانوا يسعون للانفصال عن النمسا، في الوقت الذي كانوا يعاملون السلوفاك والرومان والصرب بطريقة لتحويلهم عن أعراقهم وقومياتهم بفرض اللغة والعمادات والنظم التعليمية للنمساوية عليهم، وهكذا كانت المشاحنات وروح الكراهية للعنصرية تهدد وحدة الإمبراطورية النمساوية ومكانتها ونفوذها.

هذا في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية تعيش حالة من عدم الاستقرار الاقتصادي، وسوء الصناعات في البلاد، وضعف وسائل النقل والمواصلات، مما دفع باتجاه الاستقلال لكل شعب من الشعوب والاحتفاظ بقوميته.

ولم يكن لضم البوسنة والهرسك إلى الأراضي النمساوية أية فائدة؛ لأنها تشمل عدداً قليلاً من الثغور ذات جدوى قليلة؛ لان الحاصلات من تلك الجهات كانت فاتضة عن حاجة النمسا، ولم تستقد منها كثيراً، فهي لم تكن بحاجة إلى الفواكه والحبوب، بل بحاجة إلى الفحم والحديد والأسلحة ومقومات الدولة العصرية للقومية، فكانت النمسا من أقل الدول الأوروبية إنتاجاً للحديد مطلع القرن العشرين.

وفكرت حكومة النمسا والمجر من أجل مواجهة التأخر الاقتصادي ان تتوسع في جنوب شرق أوروبا، واتفقت مع ألمانيا على مد سكة حديد من برلين إلى فيينا، وبودابست، وبلغراد، والقسطنطينية، ثم تعبر بغداد والبصرة والخليج العربي، ولتفتح

الطريق أمام الدول الأوروبية بالوصول إلى المحيط الهندي، مما أثار قلق إنكلترا نتيجة رغبة ألمانيا والنمسا بالوصول إلى الهند، وقد بفتح هذا المشروع للطريق أمام حركة للتجارة الألمانية إلى الشرق الأدنى، وتصبح التجارة الإنكليزية في خطر، ويقوى نفوذ للتجار والصناعيين الألمان والنمساويين في الشرق الأدنى، ويهدد للخطر البريطاني في للهند، هذا فضلاً عن شعور الروس بالخطر من هذا المشروع لان سيطرة الألمان والنمساويين على الدولة العثمانية وعلى المضائق يعد تهديداً للتجارة الروسية في حالة للسلام، ويساعد على حصار روسيا في زمن للحرب.

٣- مشكلة الحدود النمساوية:

كانت إمبراطورية النمسا والمجر في حالة انعدام لتوازن من ناحية الحدود، فقد كانت على الدول تسعى للسيطرة على بلاد البلقان، والتي كانت اساس للفتن والصراعات ومحط اهتمام الدول الأوروبية الكبرى، ولملتأت البلاد بأصحاب البنوك والأسلحة والهندسة وبناء السفن، لكي يعقدوا للصفقات، وشرعت الدول بكسب ود البلقان من دول للوسط ودول للوفاق، سواء بالقروض للأسلحة ومد سكك الحديد، وإقامة للطرق والجسور وللغور؛ لكي تضمن كل منها مناطق نفوذ وشرعية في هذه الدول للصغيرة، ثم تستطيع ان تتدخل بشؤونها الداخلية وتوظفها لمصالح للسياسة الدولية.

كان الأمر لروسيا والنمسا ذا أهمية؛ لأن البلقان بالنسبة لهم ممر يمكن ان بصلا من خلاله إلى البحار والعالم الخارجى، لذلك أخذت كل منهما تحاول لإيجاد للحجج والمبررات من أجل فرض نفوذها على الدول الصغيرة في البلقان، في الوقت الذي أخذت الدول هذه تستفيد من المنافسة الدولية لتحقيق مصالحها الخاصة، ولكي تحافظ النمسا على حدودها في البلقان كان عليها ان تعتمد على قوة جيش وولاء الأسر للحاكمة، فزادت عدد جيشها، وزادت من ميزانية دفاعها، وكان للجيش بالنسبة لها للعنصر الأساس للحفاظ على الإمبراطورية؛ لكي تحافظ على الحدود وحماية للولايات، وقد ظهر بوضوح في عام ١٩٠٨ ان روسيا أصبحت إمبراطورية ضعيفة لا تستطيع خوض حرب، واعترف للصرب تحت هذا الواقع بضم للبوسنة والهرسك إلى النمسا،

ووافقوا على وقف نشاطهم ضد النمسا والمجر.

رغم كل سياسة النمسا والمجر في البلقان ومحاولة خلق الفتن والمنازعات الداخلية إلا أن الجيش النمساوي في عام ١٩١٤ كان لا يزيد عن ٤٧٩,٠٠٠ جندي، وفرق من المتطوعين غير المدربة أو المجهزة بشكل جيد، أما للجيش الروسي فإنه ليس أكثر استعداداً في التسليح من الجيش النمساوي، إلا أنه كان أكثر عدداً وأشد قوة، وكان في هذا العام قد بلغ أكثر من مليون ونصف، وله ميزانية كبيرة لا تقارن مع الميزانية النمساوية.

وكانت روسيا تهدف من التوسع في البلقان إلى إحياء الإمبراطورية الروسية التي فقدتها منذ هزيمتها أمام البلقان، ووضعت روسيا خططها على أساس الاستعداد للمواجهة مع النمسا والمجر، في الوقت الذي كانت الأخيرة تخطي من التقارب الروسي - الفرنسي تجاه مصالحها وأراضيها، ورأت أن خطط القتال المستقبلية ستكون على جبهتين: من الشرق ومن الغرب، حيث حدود النمسا وفرنسا ليست متاخمة، وأن ألمانيا ستتعرض لهجوم ثنائي، وتستطيع الجيوش النمساوية أن تركز قوتها في الجبهة الشرقية، إلا أنها سوف تكافح أمام تحصينات طبيعية يصعب الدفاع عنها.

٤- أزمة الحكم:

مثلاً كانت للقومية مشكلة أمام النمسا والمجر، فإن أزمة نظام الحكم بقيت قائمة، وكان من الصعب على الإمبراطور فرنسيس جوزيف أن يواجه الحركات الديمقراطية والقومية في بلاده، مع سريان رياح الديمقراطية والقومية في بعض الدول الأوروبية مع قيام الثورة الفرنسية، وظل فرنسيس جوزيف إمبراطوراً محافظاً يميل إلى الأفكار القديمة التي سادت في عصره، ورغم حب الشعب له، إلا أن العصر تغير، وربما لا يصمد هذا الملك أمام شعبه وهو يرى مظاهر التغيير من حوله.

فكان الإمبراطور يحكم كإمبراطور للنمسا وملك للمجر، وكان للمجريين دستور خاص بهم، وبرلمان، وعاصمة هي بودابست، وكان نظامهم نظام حكم ثنائي تم في اتفاقية عام ١٨٦٧ ينص على أن للمشكلات الخاصة بالدفاع والسياسة الخارجية تعرض في المؤتمرات التي كانت تعقد في فيينا وبودابست، عدا هذا فتمنقل النمسا

والمجر في تصريف شؤونها عن الأخرى.

فقد مُنح الكرواتيون في هنغاريا الحكم الذاتي، ومنح الاستقلال الداخلي التام للبولنديين في غاليسيا، في حين رفضت الحكومة النمساوية المجرية مطالب التشيك الذين تحولوا إلى المعارضة في البرلمان النمساوي، وعطلوا بعض التشريعات التي كان تحيلها الحكومة على البرلمان، واشتد الخلاف بين الحكومة والمحكومين، وظهر بوضوح صعوبة إقامة سياسة موحدة لإرضاء القوميات، ووُضع نظام حكم ترضى به العناصر المختلفة، وازداد نفوذ للعناصر السلافية وغيرهم، وازداد شعور للعنصرين الحاكمين للنمساويين والجرمان والمجريين بأن نمو للقومية عند هذه العناصر قد يؤدي إلى جعل النمساويين والمجريين أقلية في الانتخابات، ومن ثم في البرلمان النمساوي، ورغم أن للجرمان النمساويين كانوا ربع عدد السكان إلا أنهم شعروا بأنهم في دولتهم ولهم السلطة العليا فيها، وكانت اللغة المائدة هي اللغة الألمانية الرسمية، وظل السلاف هم الأغلبية، ولو سادت الديمقراطية لتمكن إقامة دولة ديمقراطية بحق.

وظل شعور السلاف مكبوتاً، ولم يرتفع أمام الحكومة من أجل تغييره، على أساس أنهم يشكلون الأغلبية، ويجب أن يكون لهم دور في البرلمان والحكومة. وقد أسهم قيام الصناعات في نمو للنمسا وتطورها، وظهور طبقة عمالية، وتأسيس حزب اشتراكي^(١٠).

الفصل الثالث عشر

التيارات والمذاهب الفكرية

فج أوروبا فج الفترة التاسع عشر



لولا: اللاتيكان والأفكار الحرة

شهد القرن التاسع عشر ظهور الأفكار والمعتقدات والتقاليد الجديدة مع تقدم العلوم الإنسانية والاقتصاد، وبروز الابتكارات والاختراعات الآلية التي أوجدها المخترعون، والتي جعلت من أوروبا مجتمعاً جديداً في حالة تغيير واسعة، إلا أن مؤسسة اللاتيكان هي للوحدة التي ظلت أمام هذا التغيير غير قابلة له في خضم حركة تنبعاث إيطاليا وانتشار روح التسامح مع الأفكار للنيرة، وكان كل هذا الذي يحدث - بنظر البابوات وللذين لتقوا حول البابوية - بدعة غريبة لا تتوافق مع سياسة الكرسي البابوي حيال التجاوزات على السلطة للزمونية اللنبوية.

ولكن للاتيكان في سلسلة من المنشورات كالمنشور البابوي عام ١٨٣٢، والمنشور الآخر عام ١٨٦٤، والأمر البابوي عام ١٨٧٠، والرسائل البابوية للعديدة التي وجهها ليو الثالث عشر في سنوات ١٨٧٨ و١٨٨١ و١٨٨٨ إلى الأساقفة للكاتوليك في جميع الأقطار كان يستنكر المستحدثات للفكرية العصرية، ويهاجم الحركات العقلية الحرة التي قللت أواصر الولاء للنظم والشعائر الكاثوليكية، وندد الكرسي البابوي بالاشتراكية والمذاهب الحرة والشبوعية وجمعيات التوراة وحرية الصحافة، ووصفها جميعاً بطابع الاتحاد والكفر، ووقف المنشور البابوي عام ١٨٦٤ أمام أي تقدم لو قبول لمسيرة روح التقدم والحضارة العصرية، وتحدى واستنكر أي مظهر من مظاهر العصر الحديث.

أما الدول البرونسمانية في أوروبا، فإن المعتقدات فيها تشكلت وفق الأسفار المسيحية واليهودية أكثر من سيطرة أو هيمنة الكنيسة، ولكن هذه الأسفار القديمة أصبحت موضع مراجعة، وغدت للتوراة كتاباً عادياً لا مفزاً مقدساً له مكانته الخاصة، وتم وضعها موضع التمهيص طبقاً لقواعد الإثبات والترجيح التي يطبقها الباحث للتاريخي المدقق في أي كتاب أو سفر تاريخي قديم.

إلا أن فكرة نقد التوراة لم تكن بدعة جديدة، فإن لسبينوزا الفيلسوف اليهودي كان قد تكهن في كتاب له نشر عام ١٦٧٠ عن مبادئ ونتائج عدة نالت الاهتمام سنوات طويلة، ولقيت القبول لدى علماء جامعة تينجن، إلا أن هذه الطريقة الجديدة في دراسة

التوراة لم تبدأ بوجه عام إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، واستطاعت ان تؤثر في أفكار اللاهوتيين البروتستانت، وان تكسب أنصاراً بين أشباع الكنيسة الكاثوليكية نفسها، ممن ينزعون نحو التطور العصري، واستطاعت كتب عدة صدرت عامي (١٨٦٠-١٨٨٨) ان تحدد المراحل التي أمكن من خلالها إقناع الكنائس البروتستانتية في انكلترا بأن تقبل النتائج التي وصلت إليها الأبحاث للتاريخية.

وفي فرنسا، فإن أرست رينان (١٨٢٣-١٨٩٢) كان من أكبر أعلام الأدب، والمؤرخ الديني، والذي روى قصة أصول الكنيسة الكاثوليكية في سلسلة من المؤلفات التي امتازت بالاطلاع الواسع والنظرة العميقة، وأقبل الناس على مؤلفاته بشكل كبير، وذاع صيته في كتابه للشهير (حياة يسوع) عام ١٨٦٣.

وقد تغلغلت الروح الجديدة في دراسات التوراة بالقتباس طرق للبحث التاريخي لقتباساً عاماً، بل تطرف بعض الباحثين في التشكيك في قضايا مسلم بها أساسية، مثل داود شتراوس وكونيبيير، ومع ذلك كان هناك ميل عام للتمييز بين الأدبيات وأصول الإيمان، والذي وضع اسمه ماثيو آرنولد الشاعر والناقد الإنكليزي.

ولثارت الأفكار الجديدة حول المؤلفات الجماهير، ونبذ الناس الأفكار القديمة الخاصة بتاريخ العالم القديم، وأصول الانسان، ولم يكن هذا نتيجة نقد التوراة وتمحيصها، بل كان نتيجة من نتائج الكشوف العلمية، وخاصة أبحاث تشارلس لايل الذي نشر مؤلفه (مبادئ الجيولوجيا) عام (١٨٣٠-١٨٣٤)، وأبحاث دارون الذي ظهر كتابه (أصل الأنواع بواسطة الانتقاء الطبيعي) في عام ١٨٥٩، وتلاه بعد ١٢ عاماً كتابه الآخر وهو (تعميل الإنسان).

وأمام هذه الأدلة لم يصبح من الممكن قبول قصة الخليفة كما جاءت في سفر التكوين إلا كرمز ديني، وحض علم الجيولوجيا الاعتقاد الذي ظل باقياً في المعابد وغرف الدراسة بأن العالم خلق عام ٤٠٠٤ ق.م، وأرجعت قصة آدم وحواء أمام دراسات دارون والجيولوجيين، وأبدلت القصة المعروفة عن جنة عدن بصورة طبيعية تعكس صراعاً قاسياً في سبيل البقاء، وعملية استمرت ملايين السنين من التطور البيولوجي عن طريق الإبادة غير الصالحة، ثم ظهور الإنسان من سلالة القرود القريبة

من الإنسان في مرحلة متأخرة من مراحل التطور الدقيقة والطويلة، وكان من نتائج هذه الاكتشافات ان تقلص عدد المنقنين المؤيدين للعقائد الدينية^(١٦).

ثانياً: تطور السياسة والاقتصاد

تأثرت السياسة بهذه التطورات من حيث التشكيك بمعاملات الحكم والسياسة، من أهمية الحكم الارستقراطي والمنافسة الاقتصادية والسياسية والعسكرية كأساس للارتقاء.

وكان تأثير هذه النظرة البيولوجية ومبادئ دارون أسرع انتشاراً في إنكلترا منها في أي بلد آخر، وذلك لأن هذه النظرة تتلاءم مع نزعة قوية من روح الفردية، وتغلب على أفكار الإنكليز ومعاملاتهم، وهي نزعة ترى بوضوح من أيام وليم بت واستيعابه كتاب آدم سميث ثروة الأمم Wealth of Nations واعتناقه مبادئه.

١ - آدم سميث:

هو من ضمن نخبة المفكرين الإنكليز المتميزين الذين اتصفوا بالقوة والنزاهة وسداد الرأي في ظل حب للحرية وفلسفتها وأهميتها وحاجياتها وأخلاقيها.

ولقد كانت إنكلترا في العقود الوسطى من القرن التاسع عشر تعيش في حالة لاقصادية مزدهرة، وتزخر بالثروات الجديدة ورجال الأعمال، وتدعم المجتدين والكفؤين والطموحين، وكانت المدرسة السائدة للمفكرين الاقتصاديين والسياسيين في مدح هذا المجتمع المؤلف من لقطاب رجال الأعمال والصناعيين، والذي يدين بحرية التجارة والعمل إلى أقصى حد من أجل سعادة أكبر للأفراد وحصر تدخل الدولة إلى أدنى حد ممكن.

تلك كانت مبادئ آدم سميث من كبار أركان مذهب حرية للتجارة، ومعه جريمي بنتام للمصلح القانوني الراديكالي وجميس وجون ستيوارت مل، ودافيد ريكاردو، وكان كل ما يتناهى للتجار ورجال الأعمال والصناعيين هو حرية للتجارة، وعدم للتدخل الحكومي، وإن يحصل كل فرد على الثروة والمال بالطريقة التي يراها مناسبة، واتجهت أعداد كبيرة من الطوائف البروتستانتية التي اتجه رجليها على الدول إلى نقد الحكومة ووقفت مع آراء المفكرين هؤلاء في طروحاتهم.

استمد القسم للكبير من الأوروبيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أفكاره من رجل من أسرة البروتستانت المعارضة، هو هربرت سبنسر H. Spencer (١٨٢٠-١٩٠٣)، رغم أن قلة من المفكرين والفلاسفة في بلاده يحترمون أفكاره، فهو رجل عصامي تعلم بمفرده واعتد بآرائه، وأصبح شخصية فذة، واشتهر في الدول الأوروبية، وتبعه الكثيرون في باريس وخارجها بشكل لم يسبق إليه أحد من الفلاسفة، وترجع حقيقة شهرته أنه تقدم في ثقة واعتداد بالنفس إلى جيل انقطع كان يعتمد على روح الكنيسة، والآن يتقدم سبنسر على أسس جديدة عصرية تقوم على فلسفة معرفة الطبيعة وضرورة فهم قواعدها وأسرارها.

وغضب البعض من الفلاسفة من سبنسر من كتاباته وأفكاره، وسخطوا على تصريحاته المتطرفة، ونجاهل أهمية الآداب اللاتينية والإغريقية القديمة واللاهوت والتاريخ، وكان يستخدم مصطلحات وعبارات دون أن يهتم ببلاغة العبارة واللفظ، وأراد تغيير نظام التعليم في إنكلترا تغييراً جذرياً، بينما للرجل العادي رأى في سبنسر كأنه نبي، فقد نظر هذا الفيلسوف نظرة طبيعية إلى الكون، وعرض فلسفة بنوية تقوم على نظرية عامة للتطور، مثل بقية صنوف المخلوقات، مع احتقاره للآراء المتدولة، وظلت روحه تحب الاستطلاع والبحث في الآفاق العلمية والمعرفة والتعبير عن أية حقيقة وصلت إلى معرفته وخبرته، كل هذه الحقائق جعلت منه شخصية جذابة تفرض الاحترام والتقدير.

وقد كتب سبنسر عن تطورات الإنسان وتطور الأسرة، وتطور النظم والمؤسسات الاجتماعية، وتقدم بقاعدة للتطور، وهي أن التجانس يتحول إلى اختلاف وتضاد، وتتبا بتحول المجتمع من مظهره الحربي إلى مظهر صناعي ديمقراطي، ورأى أن السياسة والأخلاق هما أساس علم الحياة، وكان يطرح شكلاً من التنازل للعقلاني المتزن، والخالٍ من التعقيد والغموض، ونادى بأن المجتمع أساسه صناعي، ويستطيع أن يرى للحروب وحشية، وإن أنظمة الحكم سوف تتضاءل؛ لأنها بقية من النهب والاعتداء، ومع ارتقاء الحضارة انكمشت أعمال الحكومات، ورأى أن الناس

سيشهدون ان التعليم يقوم على أسس هي أبعد ما تكون عن التماسك للمسلم الصائب، وكيف ان الحقائق والشخصيات لا يشغلان في الواقع إلا حيزاً ضئيلاً من تكوين العالم الذي هو بدوره جزء صغير من الكون لا يُهتم به، وكيف سُمح لهذين النوعين ان يسودا عالم المعرفة، وتُبعد الحقائق الكبرى للطبيعة.

وقد استمع للناس إلى هذه الآراء والتعليم الجديدة باهتمام، وأدركوا ان أشياء جديدة ثورية عظيمة تحدث، ولن بمقدورهم ان يفهموا هذا الفيلسوف البسيط في طروحاته، ونقد بجرأة وجسارة الآراء السائدة، وتقدم في كل فرع من فروع المعرفة بألوان من الآراء العديدة التي أثبتت بتوثيقها عدم بطلانها، وكانت للطبقة الوسطى خاصة تنظر وتتابع باهتمام هذه الأفكار وهذا المفكر الذي كان يرفض بشدة أية فكرة لتدخل للدولة بأي شكل من الأشكال.

إلا ان سينسر رغم شهرته ونيوع نجمه، كان صوتاً وحيداً لم يحقق الشيء الكثير على أرض الواقع، فقد تدخلت الدولة في الصناعة، وتربية الأطفال، وتأييد الكنيسة، وتنظيم الصحة العامة، وفشل سينسر في ان يكسب الانتصار، فإن الاتجاهات كلها أخذت تجري في تيار سريع في الاتجاه المضاد لمبادئه.

٣- كارل ماركس:

كان من أبرز رجال الفكر الاشتراكي كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣)، وهو من أسرة يهودية متوسطة الحال، تقطن مدينة ترين في الراين، ولصبح اسمه أكثر شهرة خلال ثورات عام ١٨٤٨ بإصداره منشوراً شيوعياً، وتقدم فيه بفلسفة جديدة للتاريخ، وبرنامج جديد للإصلاح الثوري، ونداء جديد للعمل الدولي، وكتب مجادلاً بان الطبقات البرجوازية هي التي أنجب وجودها ظهور الطبقة العاملة، وان الصراع بين هاتين الطبقتين هو مفتاح التاريخ الحديث، وان القسم الأكبر من العمال الذين يرون ان مركز طبقتهم متواضع هم الشيوعيون، الذين لن يقبلوا بأقل من قلب للنظام الاجتماعي بأكمله بعنف، ثم وضع عشرة إصلاحات سريعة، وقد اقتبسها الكثير من البرلمانات التي تمثل فيها الطبقة الوسطى أغلبية، والتي هاجمها من قبل ماركس حاكماً عليها وناظراً لها نظرة عدم احترام.

وكان ماركس يكره للحكومات القومية أو التشريعات التي يضعها أعضاء الطبقة الوسطى، وكان ماركس يحترق الحرية في ظل الطاغية للمستبد، ولم يتردد على الدوام في مهاجمة الطبقة التي ينتمي لها، وكان التقسيم الذي وضعه لا يقوم على أساس الدين أو القومية، بل على أساس الطبقات، فكان يرى أن لا مصلحة تجمع أصحاب الأعمال والعمال الألمان، وإنما كانت هناك مصلحة مشتركة بين عمال العالم في القضاء على الممولين على اختلاف أجناسهم للذين يستغلونهم ويسخرونهم لمصلحتهم.

وقد اتخذ ماركس بعد فشل الحركات الثورية التي قامت عام ١٨٤٨ في أوروبا من لندن مقراً له، وأمضى بها (٣٤) عاماً الأخيرة من حياته، وكان على الدوام بحاجة إلى المال، وساعده صديقه الألماني الاشتراكي فريدريك أنجلز، ابن صاحب مصنع النسيج في مانجستير، وهو ميسور الحال، وكانت شخصية ماركس ونكاؤه للقويين وفكره الواضح، ومزاجه المحب للسيطرة، تجعل منه شخصية فذة لها القدرة على الحديث والافئاع.

وقد ألف ماركس - وهو في لندن - كتابه الشهير (رأس المال)، الذي لجّل عليه الناس في كافة أنحاء العالم كأساس ومستور للطبقة العاملة، وقد استقى معلوماته عن الأمور الخاصة بالصناعة الإنجليزية من قراءة في قاعة المطالعة في المتحف البريطاني، وتكوّن من ثلاثة مجلدات كبيرة، وظهر عام ١٨٦٧، وبعد أساس المذهب الشيوعي، ولا يستند نفوذ ماركس إلى عرضه للمبادئ الاقتصادية عرضاً محكم للعبارة، وهو غير مدعم بالأدلة؛ إذ حاول في كتابه أن يثبت أن القيمة في علم الاقتصاد هي عمل متجمد، وأن القيمة الفائضة التي ينتجها للعمل فوق الغلة الثابتة لرأس المال بضيفها الممولون على الدوام بصفة للربح لهم، وأنه كلما ازداد الاغنياء غنى ازداد للفقراء فقراً، فإله رغم عبقريته للفذة كان غير متفوق كفيلسوف واقتصادي.

ولم يكن خبيراً في اللغة الإنجليزية، وإنما تستند قوة ماركس إلى أنه كان على الدوام داعية من دعاة الثورة، ويهاجم بعنف مركزاً على نظام المجتمع كله، ومبيناً أن للفقراء في جميع عصور التاريخ كانوا نهياً للاغنياء، أما الآن فقد جاء دورهم للسلب حسب قانون التقدم الإنساني.

واقنع ماركس أهل الثقافة من العمال في مدن عدة بأن ساعة نصرهم قد حانت، وتقدم بقاعدة التقدم البشري التي هي من أفكار فلسفة هيجل، وتقدم بقاعدة تبدو أنها تضع الماضي والحاضر والمستقبل في ترتيب محتم، ترى فيها أن الشيوعية البدائية قد تراجعت أمام النظم القطاعية التي حلت محلها، ثم خلفت للبرجوازية الرأسمالية النظم القطاعية، وقد جاء الآن دور الطبقات العاملة لسلب الطبقة البرجوازية وانتزاع ما في أيديها.

فالتاريخ بأكمله في نظر ماركس هو نضال بين الطبقات من أجل الوصول إلى الحياة المادية، وهو يرى أن حرب الطبقات وعداء الطبقات هما للقانون الأول من قوانين التغيير، وأن ديكتاتورية الممولين ستخلفها ديكتاتورية العمال، وسيخلف الأخيرة مجتمع عديم الطبقات هو الغاية النهائية لهذا الكفاح الطويل وراء الماديات، أما النظام الرأسمالي، فيعتقد ماركس أنه يحمل في ثناياه أساس الهدم وأسبابه، ويصف ماركس كيف سيقلب النظام الرأسمالي، وأن دوائر الأعمال سوف تزداد بمرور الزمن، وتتسع وتكبر، ويتناقص عدد الممولين، وتزداد الفاقة والطفيل والاسغلال والتدهور، ويلقى هذا النظام حتفه نتيجة غلوه وتطرفه، وأن الطبقات العاملة التي يزداد على الدوام عددها سترتقي وتنمو، وستوحد بينها النظم والعمليات الرأسمالية نفسها، ذلك أنه حينما تسرح هذه الطبقات في سيطرة الاحتكار الرأسمالي المتزايد، وتقارن بين غنى فاحش وجياة راغدة، وبين فاقة الطبقات العاملة وعوزها، مستفجرة غاضبة، وتزداد حقداً، ولا تستطيع أية قوة أن تمنعها، وأن تركيز وسائل الإنتاج واشتركية العمل سيوصلان إلى حد يرى فيه أنهما غير النظم الرأسمالي، وعند ذلك سيتمزق هذا النظام شر تمزق، وستموت الملكية الخاصة للرأسمالية.

لكن مجرى الأحداث خيب آمال من كان يرى حرب طبقات عمالية، ورأوا أن خلاصهم في تلك الحرب، فإن الأممية الأولى التي أسست عام ١٨٦٤ لتوحيد عمال الدول لم تلق سوى تأييد ضعيف منهم، وقد مزقتها الخلافات والمنازعات التي قامت بين هيئاتهم، ثم لقيت حقتها بعد زمن وجيز من تأسيسها، فقد زعزعت الحرب البروسية - الفرنسية أركانها فضعفت قواها، وتحطمت في نيويورك بعد أن عمرت

ثلاثة عشر عاماً كانت مليئة بالخصومات.

وانتهت الأمم المتحدة مع الحرب العالمية الأولى التي كانت تخضع لنفوذ روسيا القيصرية، وأضاعت تلك الحرب آمال توسيع العمال المنظمين تنظيمياً دولياً في أن يتقادوا الحروب القومية ويحسنوا أحوالهم، ولُتَبِتْ المناهضة للقومية أنها أقوى وأكثر أثراً في النفوس من مصالح الطبقات والعواطف الوطنية التي هي أشد نفوذاً من روح اللولاء للثقافات، فإن قوة العمال في كل ولاية أو دولة - لا قرارات العمال الدوليين - هي التي حققت كل ما ناله العمال حتى الآن من الإصلاح الاجتماعي.

ورغم أن ماركس أقام في إنكلترا إلا أن الاشتراكية في هذا البلد تطورت ونمت نتيجة للعواطف الإنسانية التي أثارها الظروف القاسية ومعالجة العمال في المدن الصناعية الكبيرة، فأصرع البرلمان بَشْرْعٍ لحماية العمال، ونظم للعمال أنفسهم في نقابات وجمعيات تعاونية لتأمين المستوى المعاشي لهم، وقام المصلحون في دولثر المجالس المحلية - مثل جوزيف تشمبرلين عمدة مدينة برمنغهام (١٨٧٣-١٨٧٦) - بحركة ترمي إلى إزالة الأحياء غير الصحية، وتخفيض نسبة الوفيات بين الأطفال، وجعل التعليم والخدمات الاجتماعية في متناول الطبقات الفقيرة، ونظم الأحرار والمحافظون الإنكليز في ساحات البرلمان للتشريعات والتدابير التي ظهرت ذلك للنظام من كثير من مساوئه وعبوبه^(١٧).

٤ - الجمعية الفابية

تأثرت مجموعة من المفكرين أمثال برناردشو وسدني ويباترس وجراهام ولامس وغيرهم - وهم من الاشتراكيين الأكفاء الذين أسسوا الجمعية الفابية عام ١٨٨٣ - بأفكار توماس كارليل ووليم مورس، وأخذ هؤلاء يراقبون الميل المتزايد لتنظيم الصناعة تنظيماً جماعياً، هذا التنظيم الذي كانت أركانه تشيد حولهم، ونال رضاهم واستحسانهم.

ووضعوا سلسلة من المؤلفات المهمة في تاريخ النقابات العمالية، وأسس الديمقراطية الصناعية الجديدة، وشجعوا الدولة والمجالس المحلية على توسيع الخدمات الاجتماعية التي تقوم بها.

هاجم الفابيون في جراءة مذهب الحرية الاقتصادية والمبدأ للقيم الذي كانت
تريده وزارة المالية والقائل بترك المال يتكاثر في جيوب دافعي الضرائب، وحضوا
الحكومة على الاتفاق في سبيل رقي المرافق العامة، وأعلنوا أن العامل مستحق لحد
أدنى من التعليم والصحة ولوقات الفراغ والأجور، بينما كان نجم ماركس أخذ في
الأقول في إنكلترا، وأخذ المصلحون الفابيون يناشدون بالتدرج الطبيعي الحتمي،
وطبعوا تشريعات البرلمان الإنكليزي الكثيرة في الإصلاح الاجتماعي بطابع أفكارهم
وبحوثهم، ولذلك لم يلق مذهب ماركس - لقاتل بتطاحن الطبقات في جميع العالم -
أذاناً صاغية في بريطانيا، حتى بين أشد أهلها فاقة، وتم إنشاء الاتحاد الديمقراطي
الاشتراكي عام ١٨٨١، وظهر جون برنز John Burns زعيم العمال الذي كان
واقعياً لا يحفل بالنظريات، وقاد إضراب عمال ميناء لندن عام ١٨٨٩، وأيضاً كير
هاردي Keir Hardi المتدين ومؤسس حزب العمال المستقل عام ١٨٩٣.

فالاشتراكية البريطانية كانت حركة قومية تتغلغل في نفوس وأصايق للمشاعر
الدينية الإنكليكانية، وهي أدنى من الحركات الدينية الكبرى، وتفتحت لها آفاق أوسع
ورؤى جديدة، فغاب عن هذه الاشتراكية الكراهية للقاسية والحد الذي نراه في
الحركات الاشتراكية في أوروبا وروسيا وفرنسا وإيطاليا، وبدأت المبادئ الماركسية
منذ للمقد الأخير من القرن التاسع عشر تستهوي الأنكياء والشعراء والأماندة في
للجامعات والمعلمين والمدرسين والعمال الفنيين، واعتقوا نظرية حرب الطبقات،
وتطلعوا إلى انتصار العمالية في المستقبل، وأمكن لماركس أن ينال عقل الإيطاليين بأنه
صاحب الفلسفة السياسية الاقتصادية، وشاعت الاشتراكية في إيطاليا، وذاع صيته بين
عمال المصانع، ودل إضراب عام ١٩٠٤ الذي قام في إيطاليا على سلطانه ونبوغ
تعاليمه بعد موته، ووجد عمال المصانع في شمال إيطاليا خلاصهم وآمالهم في
ماركس، وسرعان ما نفذت أفكاره إلى روسيا التي لم يكن فيها نقابات عمال تسعى
لرفع مستويات المعيشة، وبخلت تعاليم ماركس دخل المصانع وتم استيعاب مبادئه
وانتشارها بسرعة في صفوف العمال والفلاحين وبعض للنخبة المثقفة والمتعلمة.

الفصل الرابع عشر

الامبراطورية البريطانية

في الهند



لأولاً: سمات للتدخل البريطاني

كان دخول بريطانيا للهند حاجةً لحس بها للتجار الإنكليز في الهند لوضع نظام لاستتباب الأمن والعدل للذين بمكثان التجارة من الازدهار في أي بلد من البلدان، وقد نجح الإنكليز في دخول الهند، ووفروا حرية للتجارة، وسيطروا على البلاد بعد فترة الفوضى والاضطراب التي شهدتها الهند عقب انحلال إمبراطورية المغول فيها. وحظيت الأراضي الهندية برعاية إنكليزية في ظل سلطة القانون البريطاني، وتم الاهتمام بالري، وازداد عدد الموظفين الإنكليز في مختلف الإدارات الحكومية الذين أدلوا البلاد بخبرة، رغم اتهام الإدارة البريطانية في الهند في بعض الأحيان بأنها أهملت تعليم الهنود، بحيث وصلت نسبة الأمية ٩٠% مع تباين اللغات للكثيرة في الهند، وتعذر وجود للمعلمين على امتداد البلاد.

وقررت الإدارة البريطانية عام ١٨٧٠ تقديم للتعليم الغربي إلى سكان الهند، وقرر ماكولي السياسي الإنكليزي وجوب تنقيف للهند ثقافة غربية وبريطانية خاصة مع ما فيها من اللغة والأدب والعلوم، ورغم أنها سياسة بان فضلها في إدراك خصوصية الثقافة الهندية، إلا أن نسبة كبيرة من الهنود الذين تلقوا التعليم في هذه الفترة أصبحوا رجال قانون وإدارة وموظفين ومعلمين وسياسيين، وتلقوا التعليم الإنكليزي، واستوعبوا للثقافة الغربية، واطلعوا على المؤلفات الإنكليزية، واجتازوا الامتحانات الإنكليزية، واستشهدوا بالقولان الإنكليزية، وظهروا كمحاميين وبرلمانيين كفاء، فخلفت سياسة ماكولي نخبة فذة من للموظفين عددهم حوالي مليوني شخص، وانجبت نخبة سياسية وثقافية اطلعت على الكتب الإنكليزية، وأعجبت بالحرية وللنظام البرلماني، وشعرت وكأن ما هو صالح لإنكلترا صالح للهند، وتعاملوا على هذا الأساس مع المستعمر بكل مبادئه ومعتقداته.

بعد موقعة بلامي الشهيرة في الثالث والعشرين من يونيو/ حزيران ١٧٥٧ - وفيها انتصر القائد الإنكليزي الشهير كلايف على سلطان البنغال - تم صدور قانون للهند عام ١٧٥٨ الذي أخضع الإمبراطورية الهندية لهيمنة التاج البريطاني مباشرة، وذلك بتعيين وزير خاص للهند في الوزارة البريطانية، وحدد هذا القانون عصر

الاستعمار البريطاني في الهند، وبدأ عهد أكثر سلاماً واستقراراً، وعلى الرغم من ذلك فإنه في الوقت الذي كان البريطانيون يسيطرون على وسط الهند وغربها وعلى البنجاب كان أفضل حكام الهند العامين يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن رفاهية الناس ورخائهم، من أمثال هيسستجز وولزلي وبننتك والهوزي وجون لورنس وهنري لورنس. وكان الأحرار الإنكليز الذين وضعوا قانون الإصلاح البريطاني في عام ١٨٣٢ يعتبرون المبادئ الحرة منهاجاً تسيروا وفقه للحكومات الناجحة في جميع الدول، وتم إصدار (العهد الهندي) عام ١٨٣٣ الذي يقرر مبادئ أساسيين، الأول أن مصالح الهنود يجب أن تفضل على مصالح الأوروبيين، والثاني يجب ألا يحرم أي مواطن أو مولود هندي خاضع لجلالة ملك بريطانيا من تقلد أي وظيفة أو عمل بسبب دينه أو بلاده أو جنسه أو لونه، واستمر هذا التسامح الإنساني معمولاً به حتى عقب نشوب الثورة الهندية عام ١٨٥٧ حينما كان من المحتمل أن تحرف سياسات الحكومة غير المترتبة، فقد أعلن منشور ملكي أن حقوق الأمراء الهنود ستكون محل الاحترام، وأن جميع الأديان ستكون حرياتهم، وجميع المناصب ستفتح أمام جميع رعايا العرش دون مراعاة لجنس أو لمذهب.

إن النظام العام لحكم بريطانيا للهند لم يشكل ازعاجاً للإدارة الإنكليزية مع الهنود، وكانت الثورة الهندية قد قُمت بمساعدة قوات هندية من البنجاب، رغم أنها تركت آثاراً قاسية في النفوس نتيجة للفظائع التي ارتكبت بحق الهنود، وفي الحرب العالمية الأولى - وبعد هذه المواجهة - تمت الاستفادة من موارد الهند لصالح عجلة الحرب وخاصة من الناحية العسكرية، وختم الهنود في الجيش البريطاني في بقاع العالم المختلفة.

فكانت الإدارة البريطانية في الهند يتقلدها موظفون بريطانيون ومعهم إداريون هنود، واستمرت العلاقة الإدارية بينهم فترة طويلة في ظل دولة واسعة الأطراف، وموارد بسيطة، وعمل مرهق، وحاجة إلى إقامة دولة عصرية في هذه الأجواء لشعب فقير بحاجة إلى تعليم وثقافة وتوفير مستوى صحي جيد^(١٩).

ثانياً: ظهور الروح القومية

وكان من بين أهداف السياسة البريطانية أن تُشرك قسماً من الهنود المتقنين في إدارة شؤون حكومتهم، مع السماح لهم بوظائف صغيرة، إلا أنهم قبيل الحرب أخذوا يتقلدون وظائف ومناصب في القضاء ومحاكم الاستئناف ووظائف مدنية، وفي عام ١٨٦١ عيّن الحاكم العام للهند عدداً من الأعضاء الهنود في المجلس التشريعي.

وظهرت في الهند روح من القومية تغلّغت في عهد كليف وولرن وهستينجز، وصارت مهمة الإنكليز في الهند أصعب مما كانت عليه، وصار إقصاء العنصر الاجنبي عن الحكومة هدفاً مألوفاً للسكان الهنود، وبدأ الطلاب والمتقنون يحلمون بالاستقلال، وخاصة بعد انتصار اليابانيين في الحرب الروسية - اليابانية (١٩٠٤-١٩٠٥)، حيث رأى فيه الهنود فرصة وطموحاً لهم لكي ينهض الشرق.

وقد انقسم الهنود إلى قسمين رئيسيين: الأول ذو طابع غربي دستوري، والثاني شرقي ثوري، فهناك بعض الهنود ردوا للفلسفة للحرية التي سادت العصر الفكتوري، وتتبعوا بحماس سير الحركات القومية في الدول الغربية، ودرسوا استقلال الولايات المتحدة، ومنح المستعمرات البريطانية الكبرى حكومات نيابية، وراقبوا ضغط الحركة الأيرلندية، ولحارزها الحكم الذاتي، ورأى هذا الفريق من الهنود أن ما نجح في الأقسام الأخرى من الإمبراطورية البريطانية لا بد أن يكون ناجحاً لشعوب الهند.

فكانوا يتشوقون إلى تحقيق استقلال الهند، وإن أصبح مستعمرة بريطانية تتمتع باستقلال ذاتي، مثل كندا وأستراليا، وإن تتوفر لها مجالس نيابية ديمقراطية، وإن تحل مكانتها بين أمم العالم العصرية بتزودها من الثقافة الغربية، ونشر التعليم بين أهلها، ويحاول هؤلاء الامراع في نيل هذا الاستقلال باستخدام الضغط السياسي في نطاق الحدود الدستورية، ومن أبرزهم جوخال (١٨٦٦-١٩١٥) وهو من رواد هذه المدرسة. لما للفريق الآخر فلا يهتم كثيراً بالغرب وتجازاته، ويرى أن كل شيء في للحياة الهندية يوجد في أسفار الفيدا، وهو يؤمن بالهند كأمة، ولكنه لا يؤمن بها كديمقراطية برلمانية، وظهرت جمعية أربا التي تهدف إلى إحياء الروح الهندية القديمة، وكانت هذه أيضاً وجهة نظر بال غنندار نيلاك (١٨٥٦-١٩٢٠) الذي نظم للمقاومة

العنفية للحكم البريطاني في نكا، وكان من سمات هذا القومي المحافظ والثوري للخطيب انه يقاوم الروح العصرية التي تمثلت في قانون عام ١٨٩٠ لتحديد من أزواج البنات والبنين؛ لإزالة هذا القشر الذي بعد بوجه عام لسوا ما يلوث للنظام الاجتماعي في الهند، وأبدى رجال الإدارة البريطانية في الهند مقاومة للآراء القومية الجديدة، ولكن يبدو أن رياح المقاومة الثورية لم تشمل جميع الهنود، خاصة وهم يعيشون في ظل الفقر والحاجات الأساسية للحياة، ولهذا لم يهتم الموظفون البريطانيون بأعمال المؤتمر الهندي الذي تأسس عام ١٨٨٥ على أنه يخلق حركة قومية، أو يهتموا بنقد الصحافة الوطنية، ورغم هذا فقد نفذت الإدارة البريطانية في الهند للخطط والمشروعات التي وضعتها الوزارات البريطانية والوزراء والحكام للعامون البريطانيون من أصحاب المبادئ الحرة لإرضاء الساسة الهنود، المجالس البلدية التي أنشأها اللورد ديبون عام ١٨٨٣، والمجالس التشريعية الاستشارية التي ابتدعها اللورد مورلي واللورد منتو عام ١٩٠٩، والحكم الثنائي للقيام على مشروع متاجر تشامسفورد عام ١٩١٧ الذي انتقلت فيه للخدمات الاجتماعية مثل للتعليم والصحة والحكومة المحلية إلى وزارات هندية مسؤولة أمام مجالس تشريعية منتخبة، في حين بقي الأمن والنظام في أيدي البريطانيين، وهذه المنح من الحرية السياسية قد غدت محط اعتقاد أن السياسة البريطانية في الهند لا بد أن تصطبغ بالروح الوطنية الهندية، كإقرار البرلمان الهندي في دلهي بتعرفة كمركية هندية تحد من واردات البضائع البريطانية لفائدة المنتجين الهنود^(٤٠).

ثالثاً: الاتحاد الهندي

تم عام ١٩١٧ قرار نظام الحكم الثنائي، وعُدَّ منحة كبيرة للهنود، لكنه فشل في تحقيق جميع طموحاتهم، وأصبح الهدف الذي يتطلع لتحقيقه الزعماء السياسيون في الهند وبريطانيا هو إنشاء اتحاد يضم جميع المقاطعات الهندية، بما فيها المقاطعات التي يحكمها الأمراء الوطنيون والتي تتمتع بالحكم الذاتي، وقد قبلت بريطانيا أن تعير بسرعة في هذا الطريق على أساس أن كل شكل من الأشكال في نظام الحكم ينبغي أن يرتكز على الأساس، وهو موافقة الشعب، وأن عمل للزعامة السياسية الرشيدة وولجها

هو تقادي قيام للثورات بإدخال الإصلاحات المطلوبة.

وتبدو سمات الشرق الهندي تختلف عن الغرب البريطاني، ففي الهند يتم الاهتمام بالزهد والإيثار والبساطة والتواضع على أساس الجدارة والأهلية بين السكان، وتحصيل العلم والمعرفة تعلو على أي نشاط آخر، والقديس الزاهد لرفع مكانة من للسياسي المسرف في حياته، وتبرز صفات وإخلاقيات قد لا يفهمها الأوروبي في هذا المجتمع الشرقي البسيط.

فقد غادر اللورد كيرزون الهند من غير رضى الهنود رغم خدمته الطويلة في البلاد، أما الرجل الذي لحتضنه الشعب الهندي فهو الوطني الزاهد والقائد اللامع الذي ولجه الاستعمار البريطاني بعلم ونكاه، انه غاندي ذو السحر والجاذبية والوطنية الصادقة، وأصبح مثار إعجاب الجميع حتى الإنكليز بفضل حسن سياسته وتصرفاته، وخلق هذا الهندوسي النحيف المتعذب للحكام الإنكليز، وفي ظل العصيان المدني، صعب على الإنكليز فهمه وكان خصماً سافر العداء للروح الغربية العصرية، لكنه لا يحرم نفسه من الاستمتاع والفائدة من مبتكرات الغرب، وحيرت شخصيته للصعبة والقسية والحكمة والصبورة للسياسة الإنكليز^(٥١).

الفصل الخامس عشر عشر

ملمح التقدم الصناعى والعلمى

والأبدي فى أوروبا فى خلال

القرن التاسع عشر

أولاً: نمو السكان

ارتفع عدد سكان العالم بشكل سريع ما بين (١٩٠٠-١٩١٤) لاسرع مما كان بين (١٨٥٠-١٩٠٠)، وكانت أوروبا أقل زيادة مقارنة بآسيا وأمريكا اللاتينية باستثناء روسيا التي كان نصيبها وحدها ٣٤ مليون نسمة، واهتم المعاصرون بنسبة الولادات، وبرز انخفاض في كافة الدول الأوروبية باستثناء دول البلقان بما فيها روسيا، وكان أكثر وضوحاً في الدول الانكلوسكسونية فيما وراء البحار، وأخذت طريقة الاقتصاديين تتابع زيادة السكان مع ارتفاع مستوى المعيشة مستلدين إلى سوء التغذية وفقدان الرعاية الصحية.

واهتمت القارة الأوروبية بمسألة هجرة الآسيويين إليها، واستطاعت ألمانيا أن تقف أمام المهاجرين من سكانها إلى آسيا، فإن بريطانيا العظمى وإيرلندا ظلتا ترسلان إلى البلدان الانكلوسكسونية فيما وراء البحار أعداداً كبيرة من المهاجرين، الذين استوعبت كندا حوالي نصفهم، إلا أن أكبر نزوح للسكان أضاف إلى أوروبا ولادات جديدة، وقد توجه فقراء شبه الجزيرة الأيبيرية وإيطاليا إلى الأرجنتين والبرازيل وكانوا حوالي ٣ ملايين شخص في السنوات (١٩٠١-١٩١٣)، وهاجر الإيطاليون وسلاف ويهود إلى الولايات المتحدة، وكانوا حوالي ١٤ مليون ونصف المليون شخص من أصل ٢٠ مليون ونصف المليون مهاجر، واستقر بين (٦-٧) ملايين روسي في قفقاسيا وسيبيريا، وأصبحت فرنسا بلداً للمغتربين المحيطين بها، ووصل عدد الأجانب مليون نسمة، وقصد ألمانيا عدد من البولنديين، والولايات المتحدة عدد من المكسيكيين.

ولقد نمت المدن نمواً كبيراً بين (١٨٩٠-١٩١٠)، من مدن تتجاوز سكانها ١٠٠ ألف نسمة من ١١٨ إلى ١٨٣ مدينة في أوروبا، ومن ٣٢ إلى ٤٨ في الولايات المتحدة، ثم توطد للنمو المدني في أواخر القرن التاسع عشر، وكان تعبيراً عن النشاط الصناعي والتجاري المتزايد في أوروبا.

ثانياً: النهضة الاقتصادية

بدءاً من عام ١٨٩٥ ظهرت حركة واسعة في الأسعار العالمية التي أخذت في الانخفاض منذ عام ١٨٧٣، ثم أخذت بالارتفاع، واستمرت حركة النهضة هذه بشكل

متواصل، وارتفعت نسبة الأسعار إلى ٩٥% في السنة ١٩٠٠، ثم ١١٢% عام ١٩١٤، وهذه الزيادة تبدو ذات أهمية مع الزيادة في حجم السلع المعروضة، مع أجور النقل الجوي، وللبضائع الاستهلاكية، وارتفعت نسبة إنفاق العائلة للعمالية بنسبة ١٠% في باريس، وثبتت الإحصاءات توسع النشاط الاقتصادي، فقد قدر مجموع إصدارات الأوراق المالية المنقولة بـ ١٩٧,٨٠٠ في الأعوام (١٩٠١-١٩١٠)، مقابل ١٠٠,٤٠٠ بين (١٨٩٠-١٨٩١)، وارتفع حجم رؤوس الأموال التي وظفها البريطانيون من ٤٢ إلى ١٠٠ مليار بين الأعوام (١٨٩٣-١٩١٤)، والفرنسيون من ٢٠-٦٠ ملياراً، والألمان من ٧ إلى ٤٤ ملياراً، وتضاعف حجم النقد الأجنبي في فرنسا بين (١٨٩٠-١٩١٢) إلى ٤٠ ملياراً بدلاً من ٢٠ ملياراً، وارتفع عدد الشركات المساهمة في معظم الدول الرأسمالية الكبرى، وفتز بين (١٩١٠-١٩١٤) من ٣٣٦٦ إلى ٩٤٣١ شركة في فرنسا، ومن ٢٩٧٣٠ إلى ٦٠٧٥٤ شركة في بريطانيا العظمى. وارتفعت النسبة العامة للإنتاج الصناعي من ١٠٠ في عام ١٨٩٩ إلى ١٧٥,٧ في عام ١٩١٤، واستخرج ٥١٢ مليون طن من الفحم الحجري عام ١٨٩٠، و ١٣٤٠ في عام ١٩١٣، واستخرج ٩٨ مليون طن حديد في عام ١٨٩٠، و ١٤٥ في عام ١٩١٣، وارتفع الإنتاج الزراعي، وازداد استهلاك الحنطة بشكل متزايد، وبلغ عدد سكان ألمانيا في عام ١٩١٢ حوالي ٣٠% أكثر مما كان عليه في عام ١٨٩٠، وبلغت نسبة ارتفاع إنتاج الحبوب ٨٠%، وارتفع استهلاك الأوروبيين إلى مليون ونصف المليون طن من السكر بين (١٨٩٨-١٩٠٠)، ثم ٦ ملايين عام ١٩١٣. وتضاعفت قيمة للتجارة الدولية ٥٢ ملياراً عام ١٨٧٠، و ١٠٤ مليار في عام ١٩١٠، و ٢٠٣ مليار في عام ١٩١٣، وارتفع تصدير المصنوعات للفرد الواحد من ٥٢ فرنكاً إلى ١٠٥ فرنك في فرنسا، ومن ٥٣ إلى ١٢٥ في ألمانيا عام ١٨٩٠ وعام ١٩١٣.

وكانت النتيجة إثراء الدخل القومي في أوروبا، فقد وصل في فرنسا إلى ٣٦ ملياراً عام ١٩١٣، مقابل ٢٧ ملياراً عام (١٨٩٠-١٨٩٩)، و ٦٠٠ في بريطانيا مقابل ٤٠٠، و ٥٠ في ألمانيا مقابل ١٧، وتحقق النجاح في معظم الدول الأوروبية، مثل إيطاليا وألمانيا والنمسا وروسيا، وتحققت لطلاقة دول العالم الجديد في كندا والمكسيك

والبرازيل والأرجنتين، وحتى آسيا والشرق الأقصى.

وتعود أسباب النهضة الاقتصادية إلى زيادة عدد السكان، وتزايد الطلب والإنتاج والمبادلات، ونمو القدرة الشرائية للسكان وارتفاع الأجور، وتكثي الأرباح للرأسمالية والإفراط في المنافسة، مع إعادة تنظيم المؤسسات، الأمر الذي ساعد على انخفاض الأسعار وإصلاح الأسواق وتزايد توظيف الأرباح والأموال.

وارتفعت كميات تدفق المعدن الثمين، وزداد تداول النقد في أفريقيا وأمريكا اللاتينية، وليس في أوروبا فحسب، وبلغت الكميات المتداولة بين (١٨٨٥-١٩٠٤) أربعة أضعاف ما كانت عليه، وتعاملت الولايات المتحدة والنمسا وروسيا والهند واليابان بعملة واحدة، وفرضت قاعدة الذهب نفسها، واتساع التعامل بالدين، وأسعار الأوراق النقدية.

واعتمد بعضهم على نظام للحماية، وإيقاف انخفاض الأسعار والأرباح بسبب الحروب الاستعمارية في أفريقيا وفي الشرق الأقصى، فزعزعت الثروات، وقللت المواد المستهلكة، وارتفعت الأسعار، وحاجة للقوات المسلحة في ميادين المعارك للمواد والخامات ساهمت في هذا الأمر^(٥٢).

ثالثاً: التقدم العلمي

ازداد التقدم العلمي مع تطور حجم الإنتاج في استخراج الفحم الحجري في عام ١٩١٤، ووفر ٨٧% من الطاقة، و٩٠% من الخشب للمتحكم، ولم يوفر من الغاز والنفط سوى ٧%، والقوى للمائية ٣%، وسيز ٨٩% من السفن بالفحم الحجري، و٨% بالأمثلة، و٣% في النفط.

وولدت الكهرباء لتفتح آفاقاً جديدة، ومنذ عام ١٨٦٩ حصل (غرام) على براءة اختراع مولد كهربائي ذي تيار متصل، ونقل الطاقة للمرة الأولى تم على يد مارمبل دبرية في معرض ميونيخ، وتم تحويل الطاقة للمائية الآلية إلى طاقة كهربائية، ولعبت للدفع للمائية في مصنع لناتج الكهرباء بواسطة الماء للدوار ما لعبته الدفعة البخارية في مصنع لناتج الطاقة الحرارية، بينما صمم هورنبيرون منذ عام ١٨٢٧ الدفعة الثانية التي بلغ إنتاجها ٧٠%، ثم جاءت بعدها دفعة عام ١٨٨٤ بفضل السويددي دي لافال

والإنكليزي بارمونتز، وكانت للدفعة هذه أقوى وأسرع إلى حد بعيد، وأعطيا كلاهما إنتاجاً مرتفعاً بلغ ٩٠%.

وبدأ عصر للكهرباء مع عهد للمحرك الجديد، والذي كان أكثر تقدماً من الآلة البخارية، ثم تبعه نقل الطاقة للكهربائية، وتحويل التيار الذي حققه غولار، وازدادت الطاقة المنقولة ١٠٠ ضعف، ولكن لم تستطع النقل لمسافات بعيدة، وتمكن عام ١٨٩١ فرانكفورت من النقل بواسطة مولد التيار الكهربائي التناوبي ومن استخدم ١٥ ألف فولت المنتجة لمسافة ١٤٠ كم، وأقيمت مصانع الطاقة الحرارية قرب الجبال أو الشلالات، وتم استخدام مياه المنحدرات القوية والشلالات الطبيعية في توليد الطاقة الكهربائية، ثم أنشأوا الشلالات بواسطة السدود الاصطناعية.

ولوجدت للكهرباء - على نقبض المنجم - منظراً صناعياً جديداً بدون الغبار والدخان، مع إنتاج باهر يصدر عن الماء ليولد للكهرباء، وانتشر هذا الإنجاز في سويسرا، وقطالونيا، وشمال إيطاليا، واسكتندنافيا، وكندا، واليابان، ودفعت عام ١٩٠٠ أعمال الإنارة الكهربائية إلى تأسيس شركة مساهمة قوية تشرف إما على إنتاج التيار أو على تقديم المواد، ولكن الحقيقة أنه لم يتوفر التيار الكهربائي إلا لعدد قليل من الناس، وتوفر مصباح ليسون الذي استهلك في البدء ٤,٤ واط للشمعة للوحدة، ثم نصف واط بفضل استخدام للتونفستين بدءاً من عام ١٩١٢، ولكنه لم يتقدم على مستوى الانتشار الأوسع.

واحتل المحرك الكهربائي مكاناً جيداً، واستلزم عناية كبيرة، ولدير بسهولة، وأعطى إنتاجاً كبير بنسبة ٨٠%، وسيّرت بالكهرباء الحافلة البخارية أو الحافلة التي تجرها الأحصنة منذ عام ١٨٩٧ في لندن ومعظم المدن الهامة من بعدها، ثم انتقلت وسيلة النقل هذه إلى المدن أخرى، والمعاصم الكبرى، وبنيت خطوط على الأرض أو تحتها، مثل خط المترو في باريس على سبيل المثال، وإذا كان السلك لم يستطع نقل القوة المحركة إلى مسافات بعيدة، فإنه حمل للرسائل والأصوات عبر التلفراف والهاتف، واخترع كازلمي التلفراف، ووضع جهاز بلين لنقل الرسوم في الصحف والاعلانات، وكوسيلة أمنية للشرطة فضلاً عن كونها إعلامية.

وكان لاختراع التلغراف اللاسلكي أثره الإيجابي الأكثر بين الاختراعات؛ لأنه جعل الكهرباء ثبت عبر الفضاء أصواتاً واضحة سهلة الإدراك دون خطوط ناقلة، وجاء هذا الاختراع بعد سلسلة تجارب ومحاولات، وتوصل (هرتز) في عام ١٨٨٦ إلى كشف موجات بواسطة عازل، والتقاطها في رنانة لا تتصل بأي سلك، ثم استطاع ادوار براتلي ولوليفر لودج أن يستخدموا للموجة الهرتزية، وابتكروا في وقت واحد في عام ١٨٩٠ كاشفاً أفضل هو (الملحم) البرادي، و(بوبوف) الذي اخترع للهوائي اللاقط و(ماركوني) الذي عاد إليه فضل الرسائل البرقية الأولى من إنكلترا إلى فرنسا في عام ١٨٩٩، وتوفى لودج منذ عام ١٨٩٤ في تحقيق نقل حتى مسافة ٣٠ متراً، واكتشف بعد ذلك المصباح الإلكتروني، مصباح فلمنغ ذو القطبين الكهربائيين، ومصباح لي دي فورست ذو الأقطاب الثلاثة، اللذان يتحان للموجات نقل الرسائل إلى أماكن بعيدة.

والاتجاز الآخر كان استخدام الكيمياء خلال القرن التاسع عشر، وأخذت الصناعة تستثمر الكيمياء استثماراً واسعاً بين (١٨٨٠-١٩٠٠)، وقد اهتم الرأسماليون والتقليون بالمواد العضوية والكربون والهيدروجين والأوكسجين والأزوت، وحققوا غاز الإضاءة والفحم المعدني المقطر، ثم أنشئت تجهيزات ضخمة أعطت المزيد من المنتجات، كالقار بأنواعه والملونات والعطور والأسمدة والمتجرات، فقد أنتجت ألمانيا بفضل منطقة الرور في عام ١٩١٠ حوالي ٣٠٠ مليون كغم من سلفات النشادر مقابل ٦٥ مليون في عام ١٨٩٠، ومن القار استخرجت بعض الزيوت الصالحة للتنظيف والمحركات والحمض للفيلول المستعمل في إعداد حمض للبكريك.

وكان التحليل بالمجري الكهربائي قد سهل إلى حد بعيد إنتاج ملح القلي والكلور والمنتجات الأزوتية، ولتنتج بعد ذلك المواد الكلورية للمزيلة للأكلون، ومحاليل لتبييض الأقمشة، ومعجون للورق وتطهير مياه المجاري، ووقرت وسيلة لاستخدام الأدوات الفولاذية، والليكل الذي جعل الصفائح المعدنية أكثر صلابة، ويصونها من الصدأ، والذي عرف بفعل قابليته للتصفيج وخفته ومثاقته، وتم استخراج المنغليز والقصدير والفضة.

واستخدمت الكيمياء الصناعية، وصناعة تلقية المعادن في الفرن الكهربائي،

وبواسطة النيكل والكروم تم إيجاد معادن جديدة، واستُخدم الفولاذ بصناعة للسيارات، وأحدث الفرد ويلم ثورة في عام ١٩٠٩ في الدورمين المركب من الألمنيوم والنحاس وكميات خاصة من المغنيزيوم والسيليسيوم، ثم وضع هنري له شاتليه في عام ١٩١٣ وصفاً لتغيير تركيب المعدن بمزجه بمادة أخرى تحت تأثير الحرارة، وانتشر لحام المعادن، وهو لحام كهربائي بواسطة الاستيلين المستخرج من كربور الكالسوم الذي ينتجه الفرن الكهربائي.

وفي مجال المنسوجات فقد عبّر ريمور عن أن الحرير الاصطناعي سيكتشف، وعرض شارلونييه في عام ١٨٨٩ أول طريقة صناعية من سلولوز القطن، وأضاف إليه كروس وبيفان وبيدل لب الأخشاب، وتريمري وأوربان تحليل السلولوز في ماء مغلي يحتوي على بعض الأمونيك والنحاس، وأسسوا في عام ١٨٩٩ مصانع غلانزستوف، وأنتج في عام ١٩٠٠ حوالي ١٠٠٠ طن نصفها في فرنسا، و١١٠٠ في عام ١٩١٣، وصارت ألمانيا على رأس الصناعة.

وتم التفكير بإنتاج المطاط التركيبي، وقام ساباتييه وسندريم بمزج الاستيلين بالهيدروجين بوجود النيكل، وأعطى سائلاً يشبه البنزول المكرر، وقد تقدمت تقنية المطاط والبنزول على عكس الصنع العجيني العازل، وأمكن استخدام المطاط للمرن في صناعة الأنابيب والسيور والأحذية بعد عرضه على عمليات مختلفة من الكبرنة لتغير طبيعته، وبرز اختراع المطاط لعجلة الدراجة في الآلات المنقلة من مكان إلى آخر، وأثبت ميشلين ذلك في عام ١٨٩١ في سباق فرنسي، وأصبح المطاط نور كبير في ظهور صناعة للسيارات، ففي عام ١٨٩٥ صنع بوجو سيارة للبرق، وارتبط المطاط بالعجلات والسيارات، وازدهرت زراعة أشجار المطاط ليست للبرية فحسب، بل وغير البرية أيضاً.

أما التصوير الشمسي فكان نقطة انطلاق لفن جديد هو السينما، وبدأ عام ١٨٧١ ماروكس يستعمل جيلاتينو - برومور الفضة، ثم اكتشف الأخوان (هيات) السلولوبيد، وهو جسم صلب وشفاف قابل للاحتراق ومقاومة للطبيعة، وأثبت أهليته في صناعة ورق للتصوير، ولم يبق إلا اكتشاف جهاز يتيح بواسطة التصوير تحقيق

تركيب مراحل الحركة، ومن ثم إيهام الناظر برؤية للصورة متحركة. واستفاد الأخوان لوميس ولويس لوميير من تجارب سابقة أخرى طويلة، وتمكنا في عام ١٨٩٥ من تحقيق أول عرض سينمائي أمام الناس، وجهاز جورج ميلييس أول ستوديو، ونجح في توافيق الحاكي والسينما، وتولدت صناعة جديدة قامت على تعاون الكيمياء والآلة.

لم يتوقف القرن التاسع عشر عن مواصلة تحسين الآلة البخارية، وبقيت الحاجة إلى اختراع محرك يمكن تسييره إما بواسطة وقود سائل أو خلط للهواء والغاز، ما دامت للكهرباء لم تحل محل الفحم الحجري للنقل البعيد، وأعطت للصيغة الأولى محرك يُدخل السائل بواسطة أسطوانة، حيث يولد للضغط للقوي الاشتعال، ويتيح استخدام الزيوت الثقيلة للمعدنية، وزيت الغاز والمازوت، وظل الانتظار إلى عام ١٨٩٣ لمساعدة أول نموذج ديزل يستخدم في الغواصة والسفينة، وفي عام ١٩١٢ تم تسيير إحدى القاطرات.

في عام ١٨٨٣ عمل الكونت دي ديون وبوتون على وضع سيارة بخارية تسيير على الطرقات، وبعد سنتين سارت السيارات بالبنزين للمكرر دون أن تتجاوز ٢٠ كم في الساعة، وظهرت نماذج أخرى التقبست لشكلها من العربات التي تجر للجبال، ثم تحقق تقدم حاسم عام ١٨٩١، فابتكر فرنان فورست المحرك الرباعي الأسطوانات، ثم بعد عدة تعديلات وإضافات ظهرت الدراجة البخارية بفضل دليمر الذي سَير للدراجة العادية بمحرك غازي، وبعد عام ١٩٠٠ تحسن هيكل للسيارة وتوازنها ومحركها وأجهزة نقل للحركة فيها، واتضح شكلها الخارجي المميز، وبلغ عدد للسيارات مليونين ونصف تقريباً في الولايات المتحدة مع إنشاء شبكة طرقات سريعة، وغطيت طرقات المدن الأوروبية القديمة بالقار لمنع الغبار ومهولة للنقل والحركة.

وتطورت صناعة المناطيد مع ازدياد اكتشاف الجو وروح المغامرة والجرأة، وفي عام ١٨٧٤ ارتفعت المناطيد إلى علو ٨٧٠٠م، وارتفعت عام ١٩٠١ إلى أكثر من ١٠ آلاف متر في الجو، وقد فكر دييوي دي لوم وجيفار بالنفخ الآلي إلى الأمام بواسطة المروحة والبخار، وأحكم دينار وكريس جهازا يسيرون بالكهرباء، فكان

حدثاً مهماً، وأسس عام ١٨٩٦ نيلين معامل إنتاج السفن الجوية للضخمة.

ووصلت للتقنيات الحربية إلى تطورات كبيرة مع عصر للفولاذ، ودور القطار الحديدي وخطوطه للفولاذية في نقل القوى للمحاربة مع أسلحتها وعنادها، وزادت قوة الفولاذ من قوة الأسلحة والدروع، والمنفعية والسفن المدرعة، وسيطرت مصانع الأسلحة الكبرى على صناعة استخراج وتنقية المعادن بفضل الحروب التي نشبت بين (١٨٥٠-١٨٧١)، وزاد ذلك من روابط الحكومة من القيادة العسكرية مع تطور تقنية للصناعة، وتحسنت البلدية المزودة بحشو بارود لا ينبعث منه الدخان من طراز لبل وموزر.

وظهر المدفع الذاتي للحركة السريع الإطلاق، وهو المدفع الرشاش، وزاد المدفع من دقة الرمي وقابلية للحركة، وبلغت سرعة القذائف المطلقة ٥٠٠ متر في الثانية، ووزن القذيفة في المدفعية طن.

واهتم المخترعون أيضاً بالقوة البحرية، وبنيت السفينة المدرعة ذات الأبراج التي سمكها من الفولاذ حتى ٥٠ سم، وتجاوز طولها عام ١٨٩٠ حوالي ١٠٠م، واتسعت لحمولة ١٠-١٥ ألف برميل، و ٨٠٠-٩٠٠ طن وقود، وسارت بسرعة ١٥-١٧ عقدة، وتساندها الطرادات المحمية التي هي أكثر سرعة وأقل قوة، وواجهت الألغام البحرية وقذائف للسفن الأخرى.

وتعاضد شأن الغواصة للمجهزة والمحكمة بأجهزة كهربائية، وفي عام ١٨٩٩ ابتكر لسويوف وثارفال غواصة بهيكلين رتببت بينهما أنقال بغية إتاحة للتفريص والعودة إلى سطح الماء، وسارت بواسطة آلة بخارية، وأدارت أثناء للغوص محركاً كهربائياً، ثم اعتمدت محرك الديزل، وكانت قلادة على القيام بعمليات الاستكشاف وزرع الألغام، ورمي الألغام، وبُنيت للسياسة الاستراتيجية للحرب البحرية.

وفي عام ١٩٠٥ وتحت تأثير الأميرال فيشر أنزلت بريطانيا العظمى إلى البحر الدرنوت السفينة الجديدة المدرعة الكبرى بحمولة ١٨ ألف برميل، ومسلحة بـ ١٠ مدافع من عيار ٣٠٥ مليمتراً، و ٢٤ مدفعاً من عيار ٧٦، وأمر فيشرا باستبدال الفحم بالمازوت، وزال الدخان بوقود جديد، وكان من الحرب العالمية الأولى أن توسّع استعمال الوقود الجديد، والآلات التي تسير بالمحركات بدلاً من الانفجار والاحتراق الداخلي^(٥٣).

رابعاً: النهضة الأدبية والثقافية

أتاحت للتطورات العلمية والتقنية والصناعية سرعة انتشار الثقافة والكتاب والصحيفة والقصص الشعبية، وخاصة للصحف التي انتشرت في كل مكان، ووفرت المعلومات للرأي العام، وقامت الاكتشافات في الساحات العامة ببيع هذه الصحف، حيث بيعت كميات كبيرة من المطبوعات للزهدية، وهبطت نسبة الأمية في فرنسا من ١٤% إلى ٤% بين (١٨٨٠-١٩٠٠)، وإلى ٢% في عام ١٩١٤، وتزايد عدد الطلاب في الجامعات القديمة والجديدة، وانتشر التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي بسرعة، وصدر في إنكلترا عام ١٩٠٢ قانون التربية بأن تقوم الجمعيات التمثيلية بتأمين نفقات للتعليم دون إلغاء المعاهد الخاصة، وتسهيل الانتقال من المدارس الابتدائية إلى المدارس الثانوية، وارتسمت حركة جديدة استهدفت تجديد الأساليب التربوية، وسيكولوجية الطفل وفوائد للمتعلم مع كل عمر وفئة، بهذا نادى جون ديواي وكرشنستاز وفرد بينه وماريا مونتسيوري وبيكرولي.

وظهرت الكشافة - ومؤسسها أحد ضباط الجيش البريطاني (بادن باول) - لإثراء روح للنشاط لدى الفتيان عن طريق اللعب والانضباط بحرية، وأصبحت الكشافة مجتمع فتيان يخضعون لقانون أدبي، وربطت سلامة الجسم بسلامة العقل، ووفرت الرياضة الراحة والصحة للعمال ورجال الفكر، واحتلت المكانة الأولى في النشاطات الاجتماعية، وانتشرت ألعاب الملاكمة والمصارعة وسائقي الدرجات والجمعيات الرياضية في العالم، وفي فرنسا كرس بييردي كوبرتين نشاطاته، وأطلق فكرة إعادة الألعاب الأولمبية التي بعثت عام ١٨٩٦ في أثينا، وشاركت فيها ثلاثة عشر دولة، ودخلت المباراة العصرية في التاريخ، بحيث بعثت أولمبيا على الصعيد العالمي.

أما الآداب والفنون الجميلة، فقد ظهرت بين (١٨٨٠-١٨٩٠) حركة القرن (الحركة العرفوية)، التي أدت إلى انحطاط الواقعية والطبيعية في فرنسا نهائياً، وازدهرت في أوروبا وأمريكا القصة والشعر، وتعددت المدارس في كل مكان وتنوعت أساليب التعبير مع فورة الأفكار وتزايد الكتاب والقراء، وكان الجيل الجديد أكثر تفكيراً بمصير البشرية والفكر العالمي، والدفع نحو التحليل والبحث عن الوعي الغامض، ووُصِفَ البؤس الاجتماعي بعنف، وجُعِلَ موضوعاً جذاباً ومشوقاً.

وبعد عام ١٩٠٠ انتعشت الرمزية في أوروبا الشرقية سواء في روسيا، أو

جولرها، مع ضعف واضح في الغرب، ونظم بعض الشعراء المبدعين شعراً طليقاً، مثل بولينيير وبيتمس وجامس وهولز ودهمل وجورج وفردونج، وطلع الإيطالي مارينتي بمدرسة (للمستقبل) في عام ١٩٠٩، وامس لونغارتي مدرسة (للحطامية)، وتأثر كلاهما بكروتشي الفيلسوف الإيطالي والمؤرخ المبدع، مع دلائل مدرسة استقبالية في روسيا، ولوحظت في إسبانيا حركة عام ١٨٩٨ طالبت بفحص الضمير بعد الهزيمة في كوبا والفلبين، وظهرت المدرسة للرومنطيقية في ألمانيا، وتعبيرات هوبنمن وسودرمن وباهر وهوفمنستاهل وشنيترز في النمسا، وتنفقت الاتطباعية الذاتية، ثم عام ١٩١٢ للتعبيرية لم تهتم إلا بجوهر الأشياء، وسيطرت الغنائية على هولندا منذ عام ١٨٨٠، واعتنقها مشاهير الشعر الاسكندنافي.

اما المسرح فنقلت إليه الرمزية، ثم نحو الصوفية، وانتجت لإرضاء للناس مسرحيات للنظريات والمآسي الاجتماعية أو الميكولوجية، والمؤلفات التي تؤكد على التحليل العاطفي والالتزام من الواقع بالنكتة والسخرية والتهكم، وانتقلت القصة إلى المسرح على يد كورتلين وتريستان برنار واوسكار وأيلد وبرناريسو، وتوفر للمسرح وسائل جديدة، مع تقنيات الاضاءة في التمثيل، وجودة الاداء، مع ظهور المسرح المدرسي والمسرح الصغير والمسرح للفني، وكان النجاح في التمثيلات الكلاسيكية والرومنطيقية بفضل ممثلين مشهورين، وأمسى الرقص الكلاسيكي ايقاعياً أو حرّاً، وتوصلت مدرسة الرقص الرمزي الروسي إلى رقص للذكور أيضاً، وهو ظاهرة جديدة في النمط الشرقي.

الثورة الموسيقية هي الأخرى تأثرت بالتحويلات الجديدة، وأسمت المدرسة الواقعية الإيطالية للأندب والموسيقى مع الموسيقى للغنائية، وفي النمسا نرى التمثيلات الغنائية بفعل الملحن والمغني المؤثر في النفس، وباللهجات الشعبية في الغالب، وبالروح الكلاسيكية والرومنطيقية الجديدة.

ثم أطلقت الثورة الديبوسية، واستوحى كلونديبوسي من فرلين وبولنير، ووضع في عام ١٨٩٢ (مدخل إلى ظهيرة أحد آلهة الحقول)، وأوثق الربط بين الغناء والكلام، وفصل بين أنواع الآلات الموسيقية المختلفة، وبموجب المدخل هذا أصبح الخط وراء اللون، واللحن ثم التضحية به على توافق الأصوات، وملكت العاطفة نفسها خجلاً، ولطلت الديبوسية في فرنسا على يد رافيل وروسيل وفلوران شميث على الرغم من أهم تخطوها،

وصبغت في إسبانيا بصبغة خاصة، ولتجت للنوق الرقيق الخاص. أما الواقع فهو ان الانطباعية المتميزة بتوافقاتها للخاصة لم تثبت ان استتفت تأثيرها، وجرى لون جديد، مثل مدرسة (المنين) شراوس وبندي وسكريا بين وبيلابرتوك وأريك ساتي ولرنولد شونبرغ، وبدأت في إنكلترا، حيث تأسس في عام ١٩٠٩ تحالف موسيقي، وبرزت مواهب سترافنسكي ومؤلفاته (الطير الناري) و(بروشكا) و(مسح الربيع).

وكان الفن الجديد جامعاً لم يستطيع الخلاص من واقعه تحالف بين البربري والبدائي، ووضع سترافنسكي موسيقى للجاز (تقليد الفولكلور)، وموسيقى الجاز هي إلى حد ما لتتقارن الزوج في أمريكا، وألحانها روحية وبدنية، وانغامها صارخة.

واعتمد الرسم في نجاحاته على الإعلان والبطاقة البريدية المصورة والصحيفة، وتقوى الرسامون في الهزل والنكتة، مثل كين وهلين وجيمسون وموشا وكاران داش وفورين وبليت وسننلن، وتابع للتصوير سيره بحزم في طريق الاستقلالية وكأنها طريق الخلاص، وكان نفوذ الانطباعية كبيراً، وانتشر في أوروبا والمصدر لوعي ظاهر في ألمانيا لغون أوهده وكورنت، وفي النمسا لكلمت، وفي السويد لزورن، ثم روسيا والمجر بفضل باستيان له باج.

وجاءت الانطباعية الجديدة التي افرغت مجهودها في التعبير عن الضوء والنور، ولجأت لطريقة للتجزئة التي اعتمدها سورا وكروس وسينياك، وظهر ديرين وماتيس وروو وغيرهم، وتجمعهم حالة العداء للانطباعية، وفي إيطاليا لرانتي (مدرسة المستقبل) الثورة، حين لرانتي للتعبير عن ارتعاش السرعة العصرية، واعتمدت للتعبيرية التبسيط إلى حد التصوير للهزلي، وظهرت المدرسة الألمانية المعروفة بـ(الجسر) التي دانت بالكثير لسيزان والنوريجي موليخ الذي أحيى (الفن للفني).

والجدير بالذكر ان سيزان وسورا وغوغان قد اعتمدوا على الرسم الإيجازي، فقد اتجهوا بالرسم نحو التكعيبية، فالتكعيبية مطلقة، أصلية وقاطعة، وأكثر إقفاً من أي وقت مضى، وقد ابتعد عنها الكثيرون، وتشابكت المكعبات والمسطحات والزوايا الناتئة، فبيكاسو جاء إلى باريس في عام ١٩٠٠ وخلق لنفسه عالماً أصبح صورة هندسية بالتجريد. وكانت غاية التكعيبية لكشاف جوهر الأشياء، فإنها قد مثلت في بعض الأوجه شاعت أم أبت، ومجهود تصوير نقشي بغية الاتفاق والخطوط الهندسية التي ظهرت ملامحها^(٥٤).

الفصل السادس عشر عشر

الاستعمار الأوروبي

والسياسة التوسعية

الاستعمار الأوروبي والسياسة التوسعية

أولاً: الحركة القومية والاستعمار الأوروبي

بعد القضاء على السيطرة الإسبانية والبرتغالية على أمريكا، لم يبق سوى إمبراطورية واحدة في العالم هي الإمبراطورية البريطانية، فالممتلكات الهولندية مجموعة في جنوبي شرقي آسيا، ولم تستطع فرنسا سوى الوصول إلى مناطق من أفريقيا والهند الصينية، وتحدت حدود الولايات المتحدة الواسعة في أمريكا الشمالية. لم تشكل المنازعات القومية حجر عثرة في سبيل التوسع الأوروبي، وإذا كانت للحروب الكبرى التي نشبت بين (١٧٩٢-١٨١٥) قد أعاققت مؤقتاً المجهود الاستعماري الفرنسي والهولندي، فإنها قد أدت من جهة ثانية إلى توحيد الوجود للبريطاني خارج أوروبا، ثم لن الانتصار الألماني على فرنسا عام ١٨٧٠ وقيام المملكة الإيطالية قد ساعدا في ظهور التيار الاستعماري للقوي، وتحويل البحر الأبيض المتوسط إلى حلبة منازعات، وأسهمت السياسة الأمريكية في تحريك رغبات الدول الاستعمارية، ونفع فرنسا للانقضاض على أفريقيا، وروسيا على آسيا، ووقوف فرنسا وروسيا ضد بريطانيا، ثم محاولة ليوبولد الثاني ملك بلجيكا إيجاد موطن قدم له في القارة الأفريقية، وأخيراً أعلنت ألمانيا بعد وقت طويل عن عدم رغبتها لو رضاها عن هذه السياسة الاستعمارية، وبدلت التفكير في أن يكون لها موقع على الخارطة الاستعمارية للعالمية.

إلا أن المناهضة الاستعمارية صالت صراعاً ورفضاً من بعض الجهات في أوروبا، ومنهم قادة الحركات الوطنية الذين تخوفوا من هذه السياسة للتوسعية، وظهر هذا الصراع في مواجهة الشعب الجزائري للسياسة الفرنسية بعد احتلالها عام ١٨٣٠، والتكاليف الكبيرة التي دفعها الفرنسيون بشرياً ومادياً في هذه المواجهة، ثم مقاومة المحافظين والاعيان للحملة الفرنسية على المكسيك بعد ذلك، واتفاق أحزاب اليمين والرائيكاليين في عهد الجمهورية الثالثة على طلب منع إرسال الجيوش الفرنسية إلى خارج أوروبا، وهكذا أعلن بسمارك في ألمانيا عام ١٨٨٢ قوله للشهيد: (لن نعتد سياسة استعمارية ما دمت مستشاراً)، وامتنع البلجيكيون عن مساعدة سياسة الملك ليوبولد الثاني الاستعمارية.

ووقفت القوى الاشتراكية موقفاً معادياً من السياسة الاستعمارية؛ لأنها نظرت إليها نظرة وكأنها من إحدى طرق للرأسمالية التسلطية، لكن النفور بات يظهر في صفوف الرأسماليين الأحرار خاصة، ولرئسم الاتجاه القومي في بريطانيا العظمى بين (١٨٤٠-١٨٦٠)، واستهدف المستعمرات بأن يكون لها حكماً ذاتياً، والتوقف عن كل توسع استعماري جديد، وقد أعلن روجرز أمين سر الدولة لشؤون المستعمرات بأن مصير المستعمرات الاستقلال، هذا مع التجاوز في الهند وأستراليا ونيوزلندا وكندا، والسياسة التي اعتمدها كلاصتون على أساس المنفعة للتجارية واستثمار الثروات العالمية لا يبرر تلك الأراضي على أساس قومي، لكنه يستلزم مناهضة تعتمد على أساس للباب المفتوح Open Door، وظهر رأي آخر يشير إلى إن ديمومة الاستعمار وسياسة الأرستقراطية الرأسمالية في الحصول على الثروات والمواد الأولية هو الأهم بالنسبة لأوروبا، وخاصة بريطانيا ولحتكارها للسوق الرأسمالية، ثم إن للتخلي عن المستعمرات له عواقب وخيمة.

اهتمت الحملات العسكرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر بتسمية الاختصاصيين في الحرب والإدارة، وإعداد الجنود والموظفين للمرسلين إلى الهند والجزائر، والاستفادة من خبراتهم في آسيا وأفريقيا ومناطق أخرى، وأمنت الإمبراطورية البريطانية استمرار الجهود التي بذلتها لندن من أجل توطيد نفوذها، وفي الوقت الذي كانت فيه شعوب تبحث عن استقلالها ووحدةها، ترى دولاً أخرى تبحث عن مستعمرات وأراضٍ جديدة، ورأت للنور (عصبة فيكتوريا) و(عصبة الإمبراطورية) و(عصبة الإمبراطورية البريطانية)، ولرئسم مثال جديد للسياسة الخارجية، وجرى تحول للمغزى أو الهدف إلى فكرة إمبراطورية سيده ومسيطره على مناطق واسعة ومنزلية الأطراف.

ساهمت الوطنية الرأسمالية في اتجاه التوسع الاستعماري، وطلب هؤلاء بإغناء للبشر بإضافة المستعمرات والأسواق النائية والأسواق الجديدة إلى وسائل إنتاجهم أو مقايضتهم، ثم أطلحت الجمعيات الاستعمارية بسلاندا أصحاب السفن والصناعيون في إرغام للمستشار الألماني بسمارك على دخول حلبة المنافسة

الاستعمارية، وبرزت كتلبات غريبة، مثل (بول لروا- بوليو) في كتابه (الاستعمار عند الشعوب المعاصرة)، وأكد أن الشعب الذي يستعمر هو شعب بيني ركائز عظمته في المستقبل، وربط (فرّي) بين المصلحة والعظمة في فكرة الاستعمار، وإن تأسيس المستعمرة يعني إيجاد السوق، والتفوق من جهة أخرى للأجناس العليا على الأجناس الدنيا، ولخص برنامج للرأسمالية الاستعمارية بقوله: "السياسة الاستعمارية وليدة السياسة للصناعية".

وبعد انهيار النظام التجاري القديم ظهرت شركات ومشاريع كبرى بعد عام ١٨١٥ تقوم على الاحتكار، ولم تزدهر خلال هذا العهد سوى الشركة الهولندية الجديدة التي تعاملت حتى عام ١٨٧٥ بتجارة رابحة في الشرق الأقصى، ولم تفقد شركة الهند الإنكليزية امتياز التجارة مع الصين، بل حتى امتياز الهند بقي مستودعاً للتاج، وحدد من صلاحياتها بعد ذلك، وما لبثت هذه المؤسسة أن انهارت بعد ثورة الجنود في عام ١٨٥٧.

كانت لفترة بين (١٨٥٠-١٨٧٠) لكل الفترات انتعاشاً للامتيازات، ومارست الشركات أعمالها في ظل الوصاية البريطانية والألمانية، واهتمت بالقارة الأفريقية، فأسس ليوبولد شركة لاستثمار حوض الكونغو، وتواجهت في أفريقيا الشمالية (الشركة البريطانية الأفريقية الشمالية) و(الشركة الألمانية لأفريقيا الشرقية) التي أسسها الدكتور بيترز، ثم أسس عدد من لتجار الإنكليز (الشركة الأفريقية المتحدة) التي حملت اسم (الشركة الملكية للبحرية) بعد اتحادها مع شركة (التجار الأفريقيين في الشاطئ الذهبي).

ورغم حداثة هذه الشركات إلا أنها كانت نشطة في الجانب الاستعماري، وبعد أن تلاثت الشركة الملكية النيجيرية بعد (١٣) عاماً على تأسيسها دفعت لندن (٢٢) مليوناً للاستيلاء على نيجيريا ذات (٢٥) مليون نسمة، ومساحتها تبلغ ضعف مساحة فرنسا، وكانت هذه الشركة مدينة لضابطين بريطانيين، هما جورج ثوبمان غولدي واللورد أبردير اللذان وصلا إلى تساد بعد اجتياز الحاجز في ساحل غينيا، وكانت قد وقعت أكثر من (٤٠٠) معاهدة مع زعماء القبائل المحليين، وحين أجبرت على التخلي

عن احتكارها أمام حملات للتجار في الوطن الأم، لم تنته، بل استمرت في استخدام موظفيها من ذوي الخبرة، وحصلت على حق إيفاء الرسوم في المناجم لمصلحتها طيلة (٩٩) عاماً، وأدت خدمة جليلة لبريطانيا في أفريقيا الغربية.

وكانت أشهر هذه الشركات التعاقدية هي (الشركة البريطانية لأفريقيا الجنوبية) التي أسسها سيسل رودس مؤسس (روديسيا) فيما بعد.

كان رودس ملك للماس والذهب، وأسس لانكلترا إمبراطورية جنوبية، وكان ابن رجل دين، وقصد اللاناثال للاستشفاء، فسمع نداء روسكين لاستثمار الأراضي، وأخذ يفكر في إخضاع المنطقة لنفوذ بلاده على أسس ليست حربية بل سلمية، ووضع الاستثمار والرأسمالية في خدمة (السلام البريطاني)، وسار في اتجاه البحث عن الماس في كمبرلي، واشترى امتيازات الاستثمار، واعتمد مثل روكفلر على التقنية والتجميع معاً، وقد ضمنت شركته (دي بيرز ميننج) في عام ١٨٩٠ رقابة سوق الماس، ثم اتجه رودس إلى ذهب الترانسفال، وأسس شركة (حقول الذهب في جنوبي أفريقيا)، التي اشرك فيها روثيليد.

وكان رودس تاجراً ومغامراً، ومولعاً بالحضارة الأوروبية التي يشكل البريطاني عنصراً أساسياً لها، وتخلل إمبراطورية أفريقية تكون قاعدتها (الرأس)، وقمتها قناة السويس، حيث تمر طريق لندن - بومباي عبر البحر المتوسط الذي يصبح بحراً بريطانياً، ويجب إسهام البوير لتحقيق ذلك؛ لأنه كان يحقر الزنوج، وكان مشروعه يحتاج السرعة؛ لأن الألمان والبرتغاليين ينحدرون باتجاه المنطقة الحارة الواقعة بين لمبورو وزامبيز، وأعرض حكام الرأس عن تبني هذا المشروع، ولذلك تحول رودس بأنظاره نحو لندن، حيث اعتمد على صداقاته وعلاقاته في عالم الأعمال، وأسس الشركة البريطانية لأفريقيا الجنوبية، التي استلمت عام ١٨٨٩ صك للتعاقد الذي حولها تنمية بيشوان لند والمناطق الواقعة أبعد إلى الشمال، وبنى معمل (فورت - ساليموري) في الغابات وراء بلاد البوير على الطريق التي يملكها البرتغاليون، وعندما أصبح رودس رئيس الوزراء للرأس أخرج البرتغاليين من المناطق المتنازع عليها، واشترى من شركة (البحيرات الأفريقية) منطقة شمالي الزامبيز، وسحق مقاومة

(الزولو)، وضمن له اعتبار البوير في الرأس، وفي عام ١٨٩٥ احتلت روديسيا مكانها على خارطة للقرارة الأفريقية، ولم يبق سوى جمهوريتي لورانج ولترانسفال، وسوف يحققه بعد انتزاعه موافقة للمسؤولين البريطانيين إلى أن توفي عام ١٩٠٢^(٥٥).

كان الملك ليوبولد الثاني ملك بلجيكا ينتمى إلى أسرة مالكة عريقة، ويفتقر إلى المال، وكان شغوفاً باستكشاف العالم والتصميم على العمل من أجل نظام سياسي في مملكته نفسها، ولكنه تميز بمؤهلاته لأن يكون مؤسس إمبراطورية عظيمة، وكان يسعى للحصول على مستعمرات أفريقية، ولأن تصبح بلاده ضمن الدول الاستعمارية الأوروبية، وأراد الاستعداد لشراء القبلين وجزر الكناري وارجنيل، إلى أن وقع اختياره على أفريقيا الوسطى، وفي سبيل الاستيلاء على البلاد، فكر بـ(غوردون)، وتوجه إلى (برلن)، واستمال (ستانلي)، وفي سبيل الحصول على رؤوس الأموال طرق كل السبل، وتقدم شيئاً فشيئاً في تنفيذ مطالبه، وعرف كيف يبتعد عن الدول الاستعمارية القديمة التي كانت تطالب بحرية التجارة، إلى أن أناط مؤتمر برلين عام ١٨٨٥ هذه الحرية بجمعية الكونغو الدولية التي انفرد بعد ذلك في تحويلها إلى دولة الكونغو المستقلة، ثم دفع المجلسين التمثيليين البلجيكيين إلى منحه حق رئاستها، وانصرف إلى توسيع حدود الدولة باتجاه البحيرات الكبرى في أفريقيا الشمالية، إلا أنه واجه صعوبات مالية حالت دون شروعه بالاستثمار، فأوصى بالكونغو لبلجيكا في عام ١٨٩٠، وحصل على قرض بقيمة ٢٥ مليوناً، وعلى إجازة باستيفاء رسوم للدخول.

ومن جهة ثانية لم يتقيد بأي تعهد، وجند لليد العاملة بالقوة، واحتفظ لنفسه بمكاسب أراضي التاج الواسعة، وسلم الأراضي الأخرى لشركات وزع فيها الأرباح، وكان التهاوت على جمع العاج والمطاط، ولم يُعَرَّ أي اهتمام للرأي العام في بلاده لكل هذه السياسات.

ولم يحظ مشروع الكونغو بمساعدة الشعب البلجيكي، وحال تدخل القوات البريطانية في الرأس دون حرجة للوضع وتأزمه المحتمل، ودرجت للشركات الرأسمالية على رفع الرأية مع فشل الدبلوماسية والقوة المسلحة، وارتبطت السياسة بالأعمال، ورغم فشل حملة المكسيك إلا أن النجاح تم في جولات أوروبية أخرى

فرنسية وبريطانية في تونس ومصر، وهما نموذجان لدولتين حربيتين على حقوقهما، وقادرتين على دعم مطالب رعاياهما، وقد سهل غزو رؤوس الأموال الأوروبية من التدخل في المناطق الأفريقية، مستخدمة للقروض المالية التي قدمت لتونس ومصر مدخلاً لهذا الاستعمار السياسي والعسكري، وخضع للباي للحماية الفرنسية، وأقبل الخديوي إسماعيل خلفه توفيق إلى القبول بوجود الجيش البريطاني، وكانت النتيجة فتح الأبواب للبلدين أمام النشاط الغربي الصناعي والتجاري تحت ستار الوصاية السياسية والإدارية والعسكرية.

وبرزت بعد سنوات قليلة وجوه كبيرة من المؤسسين والفنيين الاستعماريين والإداريين وموظفي الدائرة الاستعمارية، مثل جيمس فيتز وجيمس ستيفن، ومنذ عام ١٨١٣ أصبح هذا الرجل الرئيس الحقيقي للإمبراطورية بعد انحطاط النظام، واللورد كارنارفون الذي انتفع نحو الاتحاد، وفي فرنسا برز مديرو الوزارات من فيلودي سانت ليلار وغاستون جوزيف اللذين بقيا في مركزهما، وتعاقد للوزراء الولحد ثلو الآخر، والمدير البلجيكي أميل بالنتغ الذي كان يرى أن أفريقيا مدفونة في عزلتها والتي تخضع إلى أوروبا، ويريد أن يجعل منها حقلاً حراً لكافة النشاطات التجارية، ويشجع عقد المؤتمرات الدولية، ولكنه كان يصطدم برغبة الملك ليوبولد في الكسب والربح.

وقد خلفت للحروب الاستعمارية سواء في إسبانيا أو روسيا أو فرنسا وبريطانيا لهم مطامحهم للشخصية وللذين توسعوا في التفتاس وآسيا الوسطى وسيبيريا الشرقية، وأفريقيا والهند، ومن أمثلة هؤلاء نرى فيديرب وبوجو وفانكل الذي سيطر على السنغال، وأمس دكار، وحارب النخاسة، وأدخل للتغراف الكهربائي، وتسمك بالمدرسة الفرنسية والتعليم الفرنسي، وتخرج من المدرسة البريطانية في الهند رجال الإمبراطورية البريطانية الأفريقية، مثل روبرت كورنواليس، وسار بحملة عام ١٨٦٧ على ملك الحبشة وأخضع بلاده، ومثله ولملي الذي أخضع للزولو، وهزم للجيش المصري عام ١٨٨٢، ودخل للقاهرة، ولكنه فشل في محاولة إخضاع للسودان، وروبرتس الذي كان يعمل في الهند والحبشة قبل أن يقود في عام ١٨٧٩ الحملة العسكرية على كابول، وأخرى على بورما عام ١٨٨٦، ثم استلم القوات العسكرية التي

مستغلب على البوير، وكتشنر القائد البريطاني الذي انتصر على السودانيين، ثم في
لنتراسفال في جنوب أفريقيا^(٥٦).

ثانياً: الحروب الاستعمارية

كان القرن التاسع عشر قرن للحروب الاستعمارية، ولم تنقضي سنة واحدة منه
دون ان تنشب حرب أو يقوم عمل عسكري في هذا البلد أو ذاك من العالم، واستلزمت
كل هذه الاعمال مجهوداً حربياً وبحرياً، فالحملة على الجزائر حملت (٦٧٦) سفينة،
تنقل حوالي (٢٠) ألف رجل، وكان الدور المنوط بالقوات البحرية لا يقل عن القوات
للبرية في هذه الأعمال الحربية الاستعمارية، وواجهت هذه الحملات صعوبات كبيرة،
وتطلبت وقتاً طويلاً وخسائر في الرجال والعتاد، مع دور للمناخ العائق في هذا العمل
متلما حصل في القسطنطينية والمكسيك ومدغشقر ولتونيكين من البرودة القاسية
والرطوبة الحارة، وخاصة في أفريقيا بوجود المستنقعات والغابات الكثيفة والأنهار
الطويلة، فقد استخدم ستانلي الكونغو وكتشنر للنيل، ومارشان استخدم الكونغو الأسفل
إلى النيل الأوسط عن طريق أوبانغي وآل مبومو.

ثم ان عدم معرفة السكان ولغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وطرق معيشتهم
واسلوبهم الحربي في المقاومة أضاف صعوبات أخرى لم تقف أمامها للتقنية الأوروبية
والتفوق الحربي تسليحاً وأعداداً وعتاداً، وحاول الاستعماريون للتكيف مع طبيعة البلاد
وسكانها، واستخدموا تجنيد الفرق للمساعدة لتحقيق أهدافهم، وإيجاد لغة حوار وتقاوم
مع السكان، ففي الهند جرب الإنكليز الاعتماد على (السيخ ول غورخا) للحفاظ على
الأمن، وجند بوجو جماعة (الزواساد) والفرمان للمغاربة؛ لاستخدامهم في الأراضي
الفرنسية الخاضعة لهم في أفريقيا، وسيطر فيديرب على السنغال بواسطة (اللولوف)
وهم من القناصة، ولجأ لابرين إلى (شامبا) للحفاظ على الأمن في الصحراء الكبرى.

أسندت السلطة مباشرة إلى أحد العسكريين، واختير موظفو الإدارة
الاستعمارية من بين الموظفين الذين ينتسبون إلى ملاكات مدنية، وغالباً ما كان
للمستعمرون يقومون بالأعمال الحربية والإدارية في آن واحد، وحدثت نزاعات بين
العسكريين والإداريين في هذا الشأن، وتصرفت كل دولة حسب مزاجها وظروفها،

وطراً على النظام الفرنسي الاستعماري مثلاً بعض التغييرات لتتلاءم مع جهود الجمهورية الثالثة والسياسيين فيها.

اختارت بريطانيا العظمى في صفوف أرمستراطينها موظفين نادرين تعلموا في إدارة المستعمرات المركزية، كي يجدوا في الإمبراطورية الواسعة الحلول للحاجات الطارئة دون إدخال تعديلات على الأسس التقليدية للسياسة الاستعمارية البريطانية، ولجاد ممثلو العائلات الكبيرة في الحقل الاستعماري، وخاصة في إدارة الهند، فتولى المركز دي دالوزي الأعمال الحربية وفق تطور في التقنية، وبدأ اللورد كاننغ سلسلة نواب الملك التي ضمت شخصيات، مثل اللورد الجن، واللورد ليتون، واللورد ريبون وتم اختيار الحكام المعنون لتمثيل الملك في المستعمرات ذات الحكم الذاتي، ومنهم اللورد كرومر حاكم مصر.

كانت الإمبراطورية البريطانية في طريقها إلى الانحسار من الحكم الذاتي للمستعمرات إلى الحماية والوصاية المباشرة خدمة لأهداف الأوروبيين والرأسمالية الأوروبية، وساروا عليها في الهند، وحلول الهولنديون في جاوة أيضاً، وفكر الفرنسيون تطبيقها في الجزائر والسنغال، والروس في تركستان، وبررت الدول الاستعمارية تدخلها في عدة دول مثل فرنسا بدعم الباي في تونس مادياً، وبريطانيا في دخولها لمصر، ولدعم فرنسا في كمبوديا ضد تدخل جيرانهم الفيتناميين والبورميين، وقد جرت الأمور عادة حسب أهواء الدول المستعمرة نفسها.

إلا أن سياسة الضم كانت ولجبة، فتصبح الدول المستعمرة تحت سيطرتها مناطق مستعمرة، وتبقى الإدارة الأوروبية على الزعماء المحليين في مركزهم، وتجردهم من السلطة السياسية، وتخضعهم للرقابة المباشرة الشديدة، وقد تستبدلهم أحياناً بكفلاء عابدين تختارهم من البلاد، وتدير مباشرة شؤون البلاد وفقاً لم تراه من مصلحة السكان عامة، واستخدم البريطانيون في الهند، حيث لم يكن نظام الحماية كافياً، ثم استخدم على نطاق أوسع في أفريقيا السوداء ومدغشقر خاصة.

وتسببت النزاعات الاستعمارية في حروب بين الدول الأوروبية، وقد سويت الخلافات في سياسة معاهدات بين زعماء هذه الدول عن طريق المفاوضات الدولية،

وتخلصت دول العالم الجديد من هذه المناقصة، من خلال مبدأ (مونرو) الذي توخى فيه الأمريكان إبعاد الساحة الأمريكية عن تنافس أوروبي أو عالمي، وانتهجت الولايات المتحدة طريقة للشراء للحصول على المناطق التي ما زال الأوروبيون يمتلكونها، وتم انتقال هام في السيادة في عام ١٨٦٧، حين تخلت لها روسيا عن آلاسكا، ولكن الدانمارك باعت من بريطانيا غينا، وباعت إسبانيا من ألمانيا بالاوس وماريان وكارولين.

إلا أن مناطق الصدام كانت من الشرق إلى الغرب، من مضيق جبل طارق إلى المحيط الهادسيكي الغربي على ضفاف للبحار والمضايق والخلجان، والانتقال بين أوراسيا وأفريقيا، ثم الأراضي الساحلية الجنوبية والجنوبية الشرقية من آسيا، وتعاونت فرنسا وإنكلترا فيها على إبعاد روسيا، واختلفا أكثر من مرة، وتنازعا في عام ١٨٧٠ للوضع بدخول إيطاليا إلى الساحة، وامتد التنافس الإنكليزي - الروسي إلى كافة أنحاء آسيا الوسطى، ولا سيما عند مشارف الهند، وكان الحدث الوحيد المهم لهذا التنافس في أوروبا هو قيام حرب القرم من أجل السيطرة على أكثر بقاع هذه المنطقة إثارة للنزاع في الشرق الأدنى، وخاصة الأراضي الخاضعة للدولة العثمانية والتي أبرزت قضية (المسألة الشرقية).

وقد سويت الخلافات بين دولة وأخرى، بفضل اتفاقات تلزم الطرفين، وباستثناء جزر قليلة في عام ١٨٨٧، فإن نظام الأملاك المشتركة لم يستمر ولم يتم لا في مصر ولا في غيرها، ثم استخدم التحكم أحياناً للفصل في النزاعات مثل نداء البابا إسكندر السادس، والفصل بين الأسبان والألمان حول جزر الكارولين، والعقاد المؤتمر الدولي في برلين لكي تقضى المنازعات حول الاستيلاء على شواطئ أفريقيا، وكان بسمارك يعتقد أنه سيلعب فيه الدور المهم الذي لعبه في مؤتمر عام ١٨٧٨ حول المسألة الشرقية، ثم حدث عام ١٨٧٨ مناقشات سرية حددت قضية حدود الدولة الكونغولية، ثم تجدد الصراع مرة أخرى، وكانت الدعوة إلى عقد مؤتمر للجزيرة في عام ١٩٠٦، وعلى كل حال كانت الدبلوماسية لها دور في رسم خارطة العالم من جديد على ضوء المصالح الاستعمارية دون أن يتعرض السلم الأوروبي للخطر.

لما في الجزر الاسكندنافية، فإن المؤسسات الاسكندنافية تتصل بنزوحات (الفينيك)، وكان الاسكندنافيون بحارة وصيادين وفناسة في المياه الشمالية، وتأثروا بسحر المياه الجبلية من الجزر والأسواق التجارية، وأدار السويديون النشاطات الزراعية والصناعية، واضطر النرويجيون منذ عام ١٨١٥ إلى حصر توسعهم في الاستيلاء على سبزيبرغ، والمطالبة بجزر ومناطق، منها غرينلاند، والدنماركيون نظروا إلى هذه الأراضي من المعادن والأسماك والمياه الوفيرة، فهناك تقوم حدود إمبراطوريتهم التي تضم إيسلندا وفارلوير، ثم إن إيسلندا كانت سائرة في طريق الاستقلال، تعرضت لمشاكل قاسية من المناخ والبراكين والأمراض، فتخلصت تدريجياً من الحالة السيئة هذه بالاهتمام بإحياء الزراعة وصيد الأسماك وإلغاء الاستعمار وإقامة حكم ذاتي حقيقي في عام ١٨٧٤.

أما الأسبان والبرتغاليون فقد عاشوا على ذكريات العصر الاستعماري الزاهر، ثم لم يبقَ لهم شيء سوى إمارات أو مقاطعات على أطراف إمبراطوريتهم التقليدية القديمة؛ فقد انتهت البرتغال كإمبراطورية سريعاً في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وانفصلت البرازيل عنها، واحتلت هولندا بعض جزر السوند، وتم للتخلي عن شطر كبير من غينيا والغابون، وتلاشت الأسواق التي كانت لشبونة تحتفظ بها في الهند والانسولند أيضاً، وجرّت محاولة إصلاحية بفتح المستعمرات للتجارة الخارجية، ونقل الممتلكات في المستعمرات على أيدي المهاجرين للمستعمرين وإلغاء الرق، وحاولت البرتغال تحقيق الأمل في السيطرة على أفريقيا الجنوبية والوسطى، ولكن آمالها تحطمت في مؤتمر برلين، ثم وقع كارلوس الأول معاهدة لإذلال عام ١٨٩٠، ثم إن موزمبيق وأنغولا انتفتحت عليها أكثر مما تحصل من مدخليل، وعمّ للرأي أن البرتغال سوف تسلم البلدين مقابل تعويض كبير.

لما إسبانيا فقد تعذر على أي حكومة إسبانية أن تفكر في مشروع خارجي حتى عام ١٨٥٠ بسبب الاضطرابات الداخلية، وحاول القائد (لودونل) بشكل شخصي للهجوم على سبتة ومليلة في الساحل المغربي، وأمام طنجة وتطوان لم تدم طويلاً بسبب التدخل الإنكليزي، ثم جرت محاولة فاشلة في أمريكا اللاتينية، واشتركت بها

إسبانيا في حملة المكسيك، لكنها انسحبت منها مع انسحاب بريطانيا للعظمى، وانزلت جيوش في (سان دومنغ)، ولكن الأهالي الثائرين طردوا الجيوش منها، وأرسلت أسطولاً إلى شاطئ البامبيكي، واستولت على الجزر الغنية في بالفونو، وثارت كوبا على السيطرة الإسبانية، وزادت حالة القلق في الفلبين وبورتوريكو بسبب إهمال الإدارة وتجاهلها، وكانت كارثة عام ١٨٩٨ حين احتل الإسبان ساحل ريودي لورو للصحراوي، بزعم أنهم يقومون بأول عمل من سلسلة أعمال في أفريقيا، وسيتيح لهم ذلك تعزيز موقفهم عند المطالبة بتقسيم المغرب المحتل.

أما الهولنديون فكان لهم تقليدهم الاستعماري الخاص مع أنهم خسروا الرأس وسيلان، ولكن مملكة هولندا حققت إنجازات في عام ١٨١٥ عندما حصلت على مستعمرات تصل إلى ستين ضعفاً، ومأهولة بأربعة أضعاف عدد سكانها، وفيها مجموعتان مختلفان موقعاً ومناخاً، الاستوائية مجموعة للهند الغربية والهند الشرقية من جزر السوند وبورنيو وسيليب والمولوك، وتفرغت هولندا ذات الشعب والمساحة الصغيرين في هذه الممتلكات دون أن تفكر في محاولة التوسع خارجها، وثبتت أقدامها فيها.

أما روسيا فواصلت عبر سهولها الواسعة حربها من أجل استرداد الأراضي على تخومها الجنوبية الغربية، إلا أن الإمبراطورية القيصرية لم تتصل بالبحار الباردة فحسب، إذ كان باستطاعتها الوصول إلى الممر المنشوري ووسط الشرق الأقصى، وفي الجنوب إلى ما وراء القفقاس، وتصمم على فتح منافذ على المحيطات، وتميز هذا الاستعمار بإسهام القوزاق به إسهاماً كبيراً، واشتركوا في كافة الحروب الأوروبية مع اندفاع واضح، وجند القيصر هم خيرة رجاله، وهم من طوائف ستانتماس التي تعيش على تربية الماشية والخيول، وكان للقوزاق محاربين لا يملّون ولا يعرفون التعب ويأكلون السمك واللحوم والخبز المجفف، ويركبون على ظهور خيلهم مباشرة، ويرتدون ثوباً كبيراً يعرف (بورقا)، ويتسلحون بحربة وسيف دون غمد، ومسدس وبندقية قصيرة خفيفة، ويعتمدون في سيرهم على الشمس والنجوم، ودان معظمهم بالارثوذكسية وبعضهم مسلمون ويهود وغير ذلك، ومن أشهرهم قوزاق (كوبان)

وكوزاق (دون) الذين قاتلوا في بولونيا والقفقاس والمجر والقرم وتركستان والشرق الأقصى الذي ترتبط بخط حديدي بروسيا الأوروبية في أواخر القرن التاسع عشر. وكانت هذه الإمبراطورية أكبر من أن تُدار في ظل مسافات واسعة دون وجود للتغراف والخطوط الحديدية، وبدت روسيا تسيطر على طول المسافة من الأرض الأوروبية على أوروبا وآسيا معاً^(٥٧).

ثالثاً: التنافس الإمبراطوري الفرنسي - البريطاني

استطاع الفرنسيون أن يؤسسوا إمبراطورية استعمارية واسعة خلال مئة عام، دون أن يسيروا على مخطط مدروس، أو أن تحركهم الحاجة إلى مناطق قلادة على استيعاب المهاجرين، لكنهم كانوا حريصين على الدفاع عن مصالح لم تكن مصالح مادية بحتة، وكانت للممتلكات هي أجزاء من المستعمرات في القارة الأفريقية، وأثبتت الجمهورية الثانية وجودها لتقصير الأمد بإلغاء الرق، وفي عهد الإمبراطورية الثانية زال نهائياً من الوجود.

وكانت الجمهورية الثالثة في شك من المستقبل، واختارت سياسة التمثيل من ذلك الجزائر والسنغال وفي الهند الغربية، ومن المتوسط كجبهة موحدة تتسع إلى البحر حتى خليج غينا ودارفور والكونغو الأسفل، وتجمع آخر يضم جيبوتي ومدغشقر، ثم ثالثة في الهند الصينية، ثم إن فرنسا موجودة في أمريكا وأوقيانوس، فتميزت الإمبراطورية الفرنسية بأنها موجودة في كل مكان مثل الإمبراطورية البريطانية، وتقابلت نزعات مختلفة من الفلسفة الجمهورية الديمقراطية والموضوعية النفعية، وأخذت بعين الاعتبار هذه الانتهازية المعارضة للمقاومة للاستعمار، وتم تبديل للصيغ وفقاص للظروف والحالات وتبرير الاستبداد المستبدر الذي يعتمد الحكام، واضمحال أمام المشاريع الرأسمالية، ولم يكن هناك وزارة مستعمرات مستقلة قبل عام ١٨٩٤، بل تم الاكتفاء بمجلس أعلى استشاري أنشئ في عام ١٨٨٣، ومديرية ترتبط إما بوزارة التجارة، وإما بوزارة البحرية، وارتبطت تونس بوزارة الشؤون الخارجية، وترقيت الاتحادات تحت السيطرة الفرنسية إلى إنشاء أملاك الحكام الاستعماريين في عام ١٨٨٧، وكان توثيق الروابط بين فرنسا وممتلكاتها قد صانف فترة الهبوط

الاقتصادي، واعتمدت طرق لنتهازية وإدارية لا مركزية وتجمعات إقليمية نحو الاستقلال المالي دون تحميل الوطن الأم أية نفقات إضافية.

لما الإمبراطورية البريطانية فقد تجددت منذ أواخر القرن الثامن عشر في طريق رقيها ونموها، وحلت محل الإمبراطورية الأولى، التي كانت تجارية، وتمتلك في أمريكا أكثر منها في القارات الأخرى، أما الإمبراطورية الثانية فقد ارتسمت حدودها حوالي عام ١٨٥٠، وبلغت الذروة في السنوات (١٨٧٠-١٨٨٠)، تلك الإمبراطورية في العهد الفيكتوري التي أصبحت أعظم إمبراطورية ودولة بحرية وتجارية وصناعية ومصرفية، وأصبحت الهيمنة البريطانية من القوة بشكل لا يمكن أن يقاوم بأي حال من الأحوال.

كانت السياسة التي وضعتها بريطانيا على وجه الأرض هي شبكة من الأسواق التجارية والمرفئ والإدارات للتموين وتسهيل للنشاط البحري والتجاري، وحركة نقل السفن والمحطات البحرية، وتزويد الاساطيل بالمواد الغذائية والمحروقات، وإنشاء شبكة للتخريف من أجل التواصل والسيطرة، فامتلك معظم الجزر المنتشرة أمام الشاطئ الأطلسي في العالم الجديد التي كانت ركائز لجسر عظيم يصل أوروبا بأفريقيا الجنوبية، والجزر للسيطرة على مدخل بحر الصين، ومراقبة عدن، وباب المندب، وبريم، وهونغ كونغ، وقبرص بعد عام ١٨٧٨ عندما اشتدت الأزمة بين روسيا وبريطانيا، ثم للبحرين والساحل الإيراني، ومسقط وكوريا موريا، وسومطرة وجزر فيجي، وكانت هذه النوافذ على الأراضي المجاورة سنغافورة وماليزيا، وعدن ولاغوس في نيجيريا ومبارس في أفريقيا الشرقية، وزنجبار أيضاً.

أما الهند الغربية والهند للشرقية ففيهما ممتلكات كبيرة من الانتيل والجامايكا وغويانا وهوندرايس وبليز والهند وملحقاتها، وغامبيا وسيراليون واکرا ولاغوس على الشاطئ الغربي، إلا أن الاهتمام انحصر بالهند في استثمارها وحمائنها من قبل الإنكليز، وتلاحمت عند تلك خطوط وطرق مواصلات الإمبراطورية البريطانية من لندن إلى بومباي مروراً بجبل طارق والبحر الأحمر، وتم الاهتمام بكندا وأفريقيا الجنوبية وأستراليا على أساس مساحاتها الكبرى فحسب، ثم أخذ الأوروبيون يتوافدون

عليها بأعداد كبيرة، ونمت حياة على الطراز الإنكليزي، وترعرعت شخصيات قومية في هذه الأراضي التي اكتسب فيها المهاجرون عادات جديدة، فضلاً عن عادات و أخلاقيات الوطن الأم.

ودخلت الإمبراطورية البريطانية في مرحلة التحول، وهي نتيجة الهبوط الاقتصادي، مما جعل المنافسة أشد حدة وأعظم في الجانب الاستعماري، وبدأ التنافس في التسليح، واتخذت بريطانيا احتياطاتها على طريق الهند عبر قناة السويس، ولكنها ما كانت تستطيع أن تبقى بعيدة عن القتسام لأفريقيا ولوقيانوس الذي سيحقق بسرعة، ثم أن القوميات الفتية استيقظت في دخل مستعمراتها التي سبق ومنحتها الحكم الذاتي، وافتتحت أمريكا من خلال كندا وأستراليا ونيوزلندا على الأوقيانوس، ومن مستعمرة الرأس على أفريقيا الجنوبية البريطانية المترامية الأطراف، وهكذا.

هذا بينما كانت بريطانيا تعزز حدودها على الهند وبورما وإيران وهملايا، وهجمت على أفريقيا، حيث اقتطعت مستعمرات واسعة جديدة في الفترة بين (١٨٨٠-١٩٠٢) وصلت إلى (١١) مليون كم^٢، وأصبحت الإمبراطورية برية أكثر منها بحرية في جماعات بشرية أقل حضارة من الشعب البريطاني، وتضم شعوباً وأماً متضادة سياسياً وحضارياً، لكن بريطانيا تعاملت بمرونة مع كل منطقة حسب ظروفها وأوضاعها الخاصة، وفي أواخر القرن التاسع عشر كان العالم البريطاني أكثر تلاحماً وتقوفاً.

مطلع القرن العشرين أبرز ظهور دول وأمم جديدة في الساحة الاستعمارية مع بعض التراجع لدول وأمم قديمة، فالكونغو خضعت لرقابة بلجيكا بعد أن كانت محط معاهدات دولية لم تضمن مستقبلها، ثم أن ألمانيا في عهد بسمارك ظهرت دولة مستقلة وموحدة، وتكونت لها مستعمرات في جنوب غربي أفريقيا والباسفيك في ساموا وغينيا الجديدة والجزر المجاورة، لكن ألمانيا لم تحل مواقع رئيسية لها على الساحة الاستعمارية، وممتلكاتها محاطة بممتلكات دول أخرى، وأرغمت على اللجوء للتهديد والحصول على فوائد جديدة.

لما إيطاليا فهي دون قوة ألمانيا، وظلت راغبة في الاستيلاء على تونس، ولكنها فشلت؛ لأنها خضعت لفرنسا، ثم توجهت إلى أفريقيا الشمالية ولبريريا والصومال مقر قواعد الضيقة، وانتهى هجومها على الحبشة عام ١٨٩٦ بالكارثة، ولم يبقَ لها سوى ليبيا التي احتلتها عام ١٩١٢، وكان هذا إيذاناً بالحصار ليس إيطاليا فحسب، بل جميع الدول الأوروبية الاستعمارية التي ستفقد مستعمراتها تباعاً، وتحصل على استقلالها الوطني، خاصة الهند عام ١٩٤٧ بالنسبة لبريطانيا، ثم الجزائر عام ١٩٥٦ بالنسبة لفرنسا^(٥٨).

الفصل السابع عشر

الكول الاستعمارية والحركة
ية (اتجاهات التفكير الأوروبي)



أولاً: الرأسمالية بين النمو والتقهقر

ساعدت الأزمة المالية التي عانى منها العالم بين (١٨٧٣-١٨٩٥) في تشكيل تكتلات صناعية ومالية، ورغم عودة النشاط إلى المجتمعات إلا أن حالة الخوف ظلت معبطرة مع الركود في الأعمال وهبوط في الأرباح، فالأزمات التي كانت تتجدد بصورة دورية تأتي بحوادث لم يكن من السهل تفاديها، مثل الأزمة المالية عام ١٩٠٠ -١٩٠١ التي تسببت في تكوين (٧٩) اتحاداً احتكاريًا في أمريكا، ووقعت عام ١٩٠٧ أزمة سجلت ارتفاعاً في التكتلات التجارية، لارتفع عددها بين (١٨٩٦-١٩١٠) في ألمانيا من ٢٥٠ إلى ٤٠٠، وفي عام ١٩٠٨ كان واحد بالمائة من المشروعات الإنشائية يستخدم ٣٩% من أصحاب الأجور، ويسيطر على ٧٧% من القوى للمحركة. أن السيولة للرأسمالية النقدية التي استطاعت أن تؤمن لحسابها كل هذه الامكانيات من بعض المصارف الكبرى لا يزيد عددها عن خمسة إلى ستة في الإجمال، وهي التي تسيطر على الدول الكبرى في أوروبا والولايات المتحدة، مثل البنك الأهلي الأردني الذي يشرف على (٨٧) مصرفاً ثانوياً في البلاد، ويسهم في إدارة (٣٠) مصرفاً آخر في عام ١٩١٠، وهناك عدد كبير من الاتفاقيات والمشروعات التي ربطت بشكل أو بآخر الاستثمارات الصناعية بهذه المصارف التي فتحت لها باب الاعتمادات المالية.

ولرى ذلك عند الإنكليز أيضاً، حيث انطلقت مجموعات من صناعة الحديد لشراء مناجم الفحم وتجارة الفحم والغاز ومشتقاته، والتخصص في تجارة الفحم واستخراج وتسويق منتجاته، ويكفي أن ولهم هسكيث لفر أسس شركة كبرى، وأنشأ فروعاً لهذه الشركة في كل من أوروبا والولايات المتحدة، واشترى له مزارع في الفلبين وأفريقيا، ومصافي لتكرير النفط، ومراكز لصيد الأسماك، وأصبح يتصرف بمليون ليرة إنكليزية عام ١٨٩٠، ووصلت إلى (٢٠) مليون في عام ١٩١٣.

ولا يمكن إغفال دور الشركات العقارية للضخمة، وشركات المخازن الكبرى، وشركات التأمين على الحياة، وشركات صنع الأسلحة، أما الأرباح فتختلف من مجال لآخر، ونسبة لاخرى، وقطاع لآخر، فشركة دويون حققت ربحاً صافياً بلغ ٥٠ مليون

دولار بين (١٩٠٢-١٩١٢)، وكروب الرأسمالي المعروف وصلت لرباحه إلى ٢٠ مليون عام ١٩٠٣، و٣٤ مليون عامي (١٩١٣-١٩١٤).

وكان للنزاع محتوماً بين الرأسماليين على مجالات الربح والاستثمارات والشركات، وهي معارك سرية على الخامات والمواد الأولية والأسواق للتجارية، مثل السيطرة على النفط والكبريت والقصدير والتبغ بين الشركات الإنكليزية والأمريكية، وشعر الرأي العام بهذا الصراع الواسع بين هذه الدول، دون أن يتبين ذلك تماماً وهو نزاع مهدد الاستقرار الاقتصادي، وجلب الاضطرابات للكثير من الدول.

ولأخذت المنافسة الاقتصادية بين الدول الأوروبية الكبرى تشتد وتحتكم؛ نظراً للصعوبات التي اعترضت سياستها التوسعية الإمبريالية، ولأخذت أوروبا تتلمس للضعف والتأخر في نشاطها للرأسمالي والاقتصادي، ففي عام ١٩١٣ كانت أوروبا تسيطر على ٨٠% من النقل البحري، وهي نسبة تعادل ٤٢% من مجموع حركة النقل في العالم، وهو أدنى من حصة أمريكا الشمالية بـ ٢٦%، نظراً للفارق بين السكان في القارتين.

وظلت بريطانيا العظمى تحتفظ بمركزها المتميز في العالم في صناعة النسيج والحياكة، إلا أنها عجزت مثل ألمانيا عن الاحتفاظ بالأسبقية في إنتاج الفحم الحجري، حيث صارت لصالح الولايات المتحدة التي سجلت في مجال الطاقة الكهربائية سبقاً كبيراً، وأخذت أوروبا تفقد تدريجياً القدرة على الاكتفاء الذاتي، وراحَت تعتمد على دول أخرى أكثر فأكثر، ليس في الخامات فحسب، بل في المواد الغذائية التقليدية كذلك، ولم تعد بريطانيا العظمى تعول على محاصيلها الزراعية إلا بنسبة ٦٠%، واستوردت بلجيكا عام ١٨٩٠ حوالي ٥٥% من القمح، و٧٥% بين (١٩١٠-١٩١٤) من نفس المحصول.

إن بريطانيا العظمى التي كانت بالمرتبة الأولى عام ١٩١٠ في إنتاج الحديد، جاءت في المرتبة الثالثة عام ١٩١٣ بعد الولايات المتحدة وألمانيا ومجموع الحركة التجارية انخفضت معدلاتها من ٢٢% عام ١٨٧٥ إلى ١٥% عام ١٩١٣، وهبطت حصتها من النقل البحري إلى الخمس بعد أن كان للربع، بينما أخذ الميزان التجاري

لدول أخرى شرق الأطلسي بالارتفاع، مثل ألمانيا ١٠%، فرنسا ٢٠%، إنكلترا ٣٠%، وتسجل حركة الصادرات في الولايات المتحدة ارتفاعاً كبيراً، فهي تحتفظ بثلاثة أرباع الثروة المنقولة، وكان الفرد للواحد الأمريكي بنفق سنوياً ٢٣ ألف فرنك، بينما الفرد الإنكليزي بنفق ٢٠,٧٠ ألف فرنك، والفرد للفرنسي ١٤,٥٠٠ ألف فرنك، وهذا يعني أن دول أوروبا تبرز على الولايات المتحدة في الاستهلاك للعلم للمواد الاستهلاكية، بينما الأمريكيون لا زالوا يتفوقون عليهم في مستوى الدخل للعالمي، وإن للشعور السائد في أوروبا هو أن ما تتمتع به من مستوى أعلى في العيش يعود الفضل فيه إلى للتراث في العصور السابقة.

وقد احتاجت الدول الاستعمارية إلى للموارد الأولية لحركتها الصناعية، وفكرت في استخراج ما تحت الأرض في المستعمرات، وزاد طول خطوط للشبكات الحديدية بين (١٨٩٠-١٩١٣) في أوروبا، والولايات المتحدة إلى (٢٦٥) ألف كم مقابل (٢٢٢) ألف كم في المستعمرات والبلدان الأخرى المستقلة، والتي لديها شيء من الاستقلال الإداري.

وبينما كان مجموع صادرات الدول الصناعية يرتفع إلى ٧١ مليار فرنك بعد أن كان ٢٢ مليار فرنك، زالت هذه الحركة ٢٤% داخل المجال الذي يسيطر عليه رأس المال، و١٤١% في هذه المنطقة التي لا يكاد يوجد فيها أي أثر يذكر لرأس المال هذا، ومن (٢٢) دولة سجلت تجارتها الخارجية مليار فرنك وأكثر عام ١٩١٣، هنالك عشر دول بينها باستثناء الولايات المتحدة تقع خارج أوروبا.

فقد وافقت بلجيكا على أن تحصل من الكونغو على فلزات الحديد وإنتاجه لها، واتجهت لطماع فرنسا وإيطاليا إلى المغرب وليبيا، ووقع شمال أفريقيا في قبضة الدول الأوروبية الطامعة من المغرب إلى مصر.

فاتجهت نتيجة لذلك حركة للتبادل التجاري في إنكلترا نحو الهند وأمريكا الجنوبية وأفريقيا الاستوائية وبلاد آسيوية شرقية، واتجهت ظروف فرنسا إلى إدخال تحسينات على وسائل استغلال إمبراطوريتها الاستعمارية، وهي سياسة قامت على خدمتها وتمهيد السبل لها، كما واتجهت هذه الجهود لتقوية المصالح المصرفية

والصناعية والتجارية، وأصبحت الجزائر للمستعمرة الفرنسية بلد الكروم والفلوكة والمعادن، وزاد إنتاج القمح فيها، وتم إدخال وسائل تخصيص الأرض، ورفع القدرة الانتاجية لها، وجلبت زراعة الزيتون وثروات البلاد من الفوسفات إلى تونس، وفرض رسوم على المشروبات الروحية في الهند للصينية، وتنشيط حركة الانتشاءات الكبرى بفضل مساهمة الشركات الخاصة، وفتت مصر الانظار بسرعة تطور صناعة السكر وزراعة القطن، بفضل المسود الكبرى التي أقيمت على النيل في الصعيد، وكان الأهم هو قدرة الهند الانتاجية في محاصيل زراعية شتى، وهذا الاندفاع الاستعماري الذي شهده العالم أسهم فيه - في هذه المرحلة على وجه الخصوص - كل من كندا وأستراليا وروسيا والصين والبرازيل، وظهرت دول اقتصادية عظمى تقاسمت فيما بينها أقطار القارات الخمس.

كانت هناك سياسة ترمي إلى توحيد السوق العالمية، وسياسة أخرى تسعى إلى تنشيط الحماية للكمركية، وعقدت اتفاقيات بهذا الخصوص، منها (٦١) لاتفاقية حتى عام ١٨٩٠، ثم (٦١) لاتفاقية دولية جديدة بين (١٨٩٠-١٩٠٠)، و(١٠٨) لاتفاقية بين (١٩٠٠-١٩١٠)، وقامت عبر الحدود والمسود علاقات لوثق بين الدول، فمثلاً شركة Ritchie راجي الإنكليزية - الأمريكية لاستثمار مناجم النيكل في كندا أقامت لها مصانع كبيرة في الولايات المتحدة وفرنسا وإنكلترا، ومعامل للصلب في لنغواي مع معامل الصلب في روتشيلغ، وحصلت شركتا ثابسين وكليسكنجين على امتياز استثمار فلزات الحديد في فرنسا، وشكلت شركة دنفل الفرنسية - الألمانية لها معامل في صنع الحديد والفلولاذ في مقاطعة اللورين ومصانع لاستخراج الكوك في الروهو، وغيرها الكثير، وساهم رأس المال البلجيكي في بناء شركة المنرو في باريس، وكان للتضامن الدولي المالي واضحاً في سكة حديد بغداد من مصارف وشركات ألمانية وفرنسية وإنكليزية.

وهذه الشبكة الواسعة من رؤوس الأموال التي تمتد للعالم بعضه إلى بعض تتألف من ملايين المودعين من كبار رجال المال في أوروبا والعالم^(٥٩).

واستند الخوف من الحروب والنزاعات المسلحة في نهاية الثلاث الأخير من

القرن التاسع عشر في أن تظهر رغبة من أجل تسخير رؤوس الأموال في شراء الأسلحة والإمداد والتزويد، وبقيت الأنشطة قائمة وعادت الأمور إلى نصابها، وحاولت بريطانيا العظمى أن ترفض البرنامج الذي عرضته عصبة إصلاح التعرفة للكمركية بأن تتيح للمزارعين والصناعيين أن يخضعوا للمستهلكين للقوانين التي يخضع لها المنتجون الذين يرغبون في أن يكونوا بأمان من هبوط الأسعار، مما يسبب لهم انخفاضاً في الأرباح، والحماية الكمركية ذات النزعة الوطنية التي أصبحت كالاتفاق المهني شكل لا بد منه من أشكال الاقتصاد المنظم التي تعتبر بفضل استمرار الأخذ بها والعمل بموجبها الدليل للقاطع على تحول النظام للرأسمالي الحر.

ثانياً: الاستعمار والعنصرية والصهيونية

تتصل السياسة الوطنية الاقتصادية بالسياسة الوطنية التقليدية، وتصدر منها القومية التي ترفض التواجد الاجنبي في البلاد، فأكد ماك كنلي بصراحة عام ١٩٠١ أن النمو الصناعي لوجب البحث عن أسواق جديدة ومولد أولية غنية، وراح للفرد ملتر بعد أن قام بالإصلاح المالي في مصر، وتأسيس اتحاد جنوب أفريقيا بصرح في عام ١٩٠٤ أمام مجلس إدارة الرابطة البحرية البريطانية: (أنا رجل استعماري إمبريالي مئة بالمئة).

ونرى الاقتصادي الحر هوبسن يلمسب إلى لروح الاستعمارية عام ١٩٠٧ بأنها للخاصية الأكثر جدارة وتميزاً، يمكن ملاحظة هذه السياسة في القرن للتاسع عشر وخاصة أواخره، وتعدّ كنظام سياسي - اجتماعي ولقعي، ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالاقتصاد للرأسمالي، ويخضع للروح القومية، ومن الطبيعي أن تشهد كل سياسة استعمارية مثل سياسة الإمبراطورية البريطانية العظمى الكثير من المساوئ والعيوب، بحكم الممارسة والتخطيط غير الدقيق على أرض الواقع في الغالب، وبحكم التعامل مع الأمم والشعوب المحتلة والمستعمرة.

وقد كان دعاة الاستعمار - وهم من الفرنسيين - يفكرون باستثمار للمستعمرات ما وراء للبحار، فالقترح للفرنسي ملكيوردي فوغويه حشد جيش من (١٠٠-٢٠٠) ألف بين مواطنين السنغال والسودان ليكونوا لواء جلود شجعان للقتال مع

الفرنسيين، وكتب لويس سوبوليه في عام ١٩١٢ قائلًا: إن على الزنجي أن يفهم ويدرك بأن الدولة التي احتلته وفرضت السيادة عليه سيدة مطاعة، تبسط سيطرتها على السهول والاحراش والغابات، وهي الأقوى مجداً، وحقت الانتصارات بفضل لويس الرابع وإلى عهد نابليون، وحقت لفرنسا للنصر والمجد والقوة، فكانت هذه اللهجة الاستعمارية المتعالية التي نطق بها بعض الساسة والكتّاب في فرنسا دليلاً على النزعة الاستعمارية في مواجهة الشعوب في العالم الثالث.

وقد انتشر مبدأ القوميات في القرن التاسع عشر على فكرة العرق والعنصر لينتقل هذا المبدأ من العنصر البشري إلى الدول، ولأخذ الناس يعتقدون بوجود عروق سامية، وعروق مصفاة ومختارة؛ لكي تقود عروق وقوميات أخرى لكل منها شأنًا، وأن مستقبل الحضارة الإنسانية يقوم على قيادة هذه العناصر القومية للمختارة لرسالتها في ظل العناية الإلهية في السيطرة على القوميات الأخرى، وظهر من العلماء من يؤكد أن للعرق حقيقة واقعة تتميز كلياً عن الدولة وعن الديمقراطية والطبقة الاجتماعية.

بقي السؤال: من هو العرق المختار، واقتراح (الغوبينو) أنه للعرق الآري الأرستقراطي، وأن الأوروبي يتميز بصفات أنه لفتاح والغازي الأوروبي الشمالي في الأصل، وهذه النظرة تتفق مع ما طرحه بولنفيليه ومونتلويزيه منذ القرن الثامن عشر، حيث يشيدان بأن للفرنك حقاً بهذه المميزات بوصفه المحارب النبيل، وأنه مؤهل ليحكم العنصر لغالو الروماني.

وحاول عدة مفكرين أمريكيين وإنكليز التشديد على العنصر الانجلو-مكسوني، وللرغبة في الحفاظ على نقاء الأصل عن طريق الامتناع عن المصاهرة ومخالطة العروق الملونة المعترف بانحطاطها، والأخذ بمبدأ العرق والعنصرية في اللقارات الجديدة، وأخذوا يحثون من تطور العنصر الأسود والأصفر، وتم من تشريعات أمريكية في كاليفورنيا وفكتوريا، مثل قانون تمديد الهجرة في الولايات المتحدة وأستراليا تجاه الآسيويين، وقانون التربية الوطنية في مدينة لكاب في بريتوريا، وهو يحدد مناطق الزنوج الأصلية، وجعلها ١٢% من مجموع البلاد، وهو قرار طبقته المحكمة العليا في واشنطن على الزنوج الأمريكيين، وحرموهم من

الانتخابات العامة، وغضتوا للنظر عن ردود الفعل العنيفة والقوية تجاه هذه الممارسات باسم القوانين والتشريعات.

وراحت ألمانيا من جانبها تدعي التفوق العرقي والعنصري، واستشهدت بأباطرتها العظام أرمينيوس وشارلمان، والإمبراطورية المقدسة الرومانية استشهدت بغويينو لإثبات نظريتها هذه، وعملت على نشر مؤلفاته، وآثار مخطوطاته، ومن ثم بنشر للكاتب الإنجليزي هوستين ستوررات تيمبرلين عام ١٨٩٩ كتابه للمرسوم (السنن القرن التاسع عشر)، وألقى اللوم على الدور السيء للإنسان للبحر المتوسط، وشجب التعاليم الدينية التي جاء بها البابا، ويدعو غليوم لو وليام الثاني إمبراطور ألمانيا لإصدار هؤلاء وتأييدهم على جرائهم، بحيث يحققهم محققاً، وحاول القضاء إنكلترا بالقسام للرسالة المدنية - وليست الدينية - أمام للخطر الأصفر والمناخية الأمريكية التي تزداد حدة.

أما ديمولين فيتساءل: ما هي الأسس التي يقوم عليها التفوق الأنجلو - سكسوني؟ وهل هناك سبيل لنبذ الفكرة الخاطئة التي تقول بالمساواة بين الشعوب والتكافؤ فيما بينها؟ ويصرح غوستاف لوبون: إن التصلب يذهب بصفات الجنس المميزة. ويمدح فاشية دي لابونج فضائل الإنسان للمستطيل الرأس المعروف بحبه للسيطرة ورغباته الأخرى، ويحذر من البرجوازي للفطر الطفيلي الممام الذي ينمو في ظل المقصلة، ومن نماء النبلاء والكهنة يجد ضالته التي يرتوي منها.

وكانت دعوة بارس إلى الغرائز الدينية بين العاملين في الأرض، وبورجيه كان يدعو إلى بعث فضائل الأسرة، وموراس كان همه الأول العودة إلى نظام ملكية لامركزية نقابية، ويشدد هؤلاء على علاقة العرق بالأرض الذي تغذيه وتنميه وتعطيه أسباب البقاء والديمومة، وإن العنصرية تهبط السبيل أمام ثار اللاتينية الكاثوليكية التي ترى نفسها في الاتبعات الإسباني عام ١٨٩٨، وإن فرنسا ضد دليوفوس مهياة لمهمة تمديدية جديدة سامية.

وظهرت مع العنصرية اللامامية والنزعة للصهيونية لدى بعض الكتاب، ففي عام ١٨٤٨ قام للمستشرق لاسن بوضع الساميين تجاه الأريين، وهذا غويينو يرى أن الآراي المتحدر من صلب يافث يسمو على الأقوام للصفرء والسوداء، وهو من ذرية

سلم، وزعم بعضهم ان اليهود - لأنهم في أوروبا لا يختلطون مع الآخرين - هم
الأنقى عنصراً، وهو الذي يسود ويحكم العالم، وراح رينان يهاجم هذا الرأي الذي
انتشر بفضل جهود بعض الدعاة أمثال لوارد درومون.

وكان العنصر اليهودي يتغلغل في أوروبا، وشكل مجاميع يهودية عديدة
واقليات تمسكت بشدة بتقاليدها وعاداتها رغم المضايقات التي تعرضت لها في بعض
الأحيان، مع دعاة قالوا بالذبيحة البشرية التي تعرض لها اليهود، وجاءت في التلمود،
وتناقلها اليهود، وروجوا لها رغم ثلاثي نفوذ التلمود في أوساط اليهود.

وانتشرت حركات مناهضة للوجود اليهودي في ألمانيا والمجر والنمسا، خاصة
بعد ان توافد إليها اليهود من بولندا وأوكرانيا، فرأوا في اليهود المرابي، والجشع الذي
لا أمل في إصلاحه، وثوري يتكالب على تقويض القيم المرعية، والطمع في المال،
وتعكير صفو السلم والأمن، ويلاقي النشاط اليهودي في هذه الدول الرفض رغم
التسهيلات الدينية التي يتمتع بها اليهودي فيها، وأطلقت حركة مناهضة لليهودية وتعمل
على التصدي لها، وشجع برينوبا رادل ولرنست هافيه هذه للتوجهات بعد ان رأوا
اليهود بين الغنى والفقر، المرفقة والابتزاز، لأنهم يعرفون الاستغلال والجشع، بحيث
يميز بينهم على هذه الشاكلة، وانهم يحتلون دون وجه حق أو استحقاق الوظائف،
وشككوا بكفاءتهم الأدبية والعلمية وانكروها عليهم.

وظهرت معاداة لليهود في موقف الاشتراكيين الذين طالبوا بمجتمع عدالة
ورخاء ومساواة، ورأوا اليهودي المستغل والمحب للمال والثروة، وانطلقت هتافات
للناس في باريس عام ١٨٨٠: (ليسقط روتشيلد .. ليسقط اليهود)، وهو هتاف للفقير
ضد الغني صاحب الأموال والثروات، وراح المتمسكون بهذه التقاليد يستغلونها
ويحولونها ضد هذه الفئة المعبوذة التي تحوم حولها الشكوك، ويثيرون غضب الناس
وأحقادهم، وينكرونها باليهودي الغريب عن الوطن المعروف بشعوبيته، ويطالبون
بإجراءات حازمة وجذرية لصيانة المجتمع والتميز للعنصري، وأحياناً بالمذابح،
وزرعت البروليتاريا للخوف في نفوس الأغنياء يهودياً كان أم غير يهودي، ولما
اليهودي فئته أكبر، والبروليتاريون الآخرون لا يطيقون مناصته لهم.

وذهب لقس ستوكير بشكل في بروسيا اتحاد العمال الاشتراكيين المسيحيين الذي أخذ بطالب بالحد من توظيف اليهود في الخدمات العامة والاعمال، وتبنى البرنامج هذا أيضاً الحزب الوطني الألماني الذي شكله شونريبر، ومكن لويجر من الفوز بمنصب عمدة فينا عام ١٨٩٥، وقد شرعت إنكلترا عام ١٩٠٥ قانون هجرة الأجانب الذي أغلق الأبواب بوجه للعنفيين للفقراء، وفعلت مثلها امتراليا.

وأخذت حركة مناهضة لليهود تمتد وتتسع في النمسا وألمانيا، وكان بسمارك ووليام الثاني يستخدمون رجال أعمال يهود ويهتمون بهم، وجاءت قضية داريفوس للضابط الفرنسي - رغم انها حادثة فردية - لتزيد من المشاعر الجماهيرية، وما لبثت ان ظهرت نتائج هذا الاتجاه العنصري والعرقى، وبطل علينا عصر الهجرات اليهودية من أوروبا، فهذه روسيا تهجر مليون يهودي إلى الولايات المتحدة، واثار كنوم هؤلاء البائسين رد فعل في الرأي العام الأمريكي غير مرغوب فيه.

وهكذا ولدت المأساة اليهودية - حسب اعتقاد البعض - للطريق أمام فكرة عودة الشعب اليهودي المميز بين شعوب العالم إلى وطنه الأم، الوطن لليهودي القومي، وراح عام ١٨٦٢ للهاخلم كاليفر بطالب بإنشاء الوطن القومي اليهودي، وتأسس عام ١٨٧٠ (الأيكسان الإسرائيلي) المؤسسة التربية في مدينة يافا لتدريب المهاجرين لليهود في فلسطين، ووضع جريتر كتابه (تاريخ اليهود)، ليعيد لليهود لنهم شعب الله المختار صاحب الانجازات عبر التاريخ.

ثم جاءت الهبات المالية التي قدمها أمون دي روتشيلد من أجل تأسيس أولى المستعمرات للزراعية في الأراضي المقنصة، ثم جاء الحكم على الضابط دريفوس، ولنتخاب لويجر عمدة لمدينة فينا حافزاً حماسياً لتوطيد عزم للمجري تيودور هرتزل في نشر كتابه (الدولة اليهودية)، لايجاد حل نهائي للمشكلة اليهودية، وصدر في عام ١٨٩٦ هذا العمل، وأخذت للصهيونية كفكرة تنتشر في العالم على يد رسولها هرتزل، وجمع له انصاراً ومؤيدين متحمسين له، مثل العالم الاجتماعي ماركس نوردو، والاسرائيلي زنجويل، وعمل على عقد المؤتمرات، وإجراء الاتصالات مع الزعماء السياسيين في العالم، وحاول كسب عطف البابا، والسلطان العثماني، والإمبراطور وليام

الثاني، والحكومة البريطانية، وكان محمولاً بفكرة سياسية أكثر منها دينية، واضطر بعد أن واجه الفشل إلى قبول فكرة إنشاء وطن لليهود في لوغندا، إلا أنه بعد عام ١٩٠٠ أطل بفكرة توجه لليهود في العالم إلى فلسطين، وإنشاء الصندوق الوطني لليهودي في سبيل شراء فلسطين وبعث باللغة العبرية، وتكريس هجرات لليهود في العالم إلى فلسطين^(١٠).

ثالثاً: الحركات القومية في أوروبا

تملك الناس في ألمانيا هوس الحرب الألمانية - الفرنسية (١٨٧٠-١٨٧١)، وسباق التسلح، والذي عجل باندلاع الحرب من جديد، وتزامن هذا مع انتشار وسائل للدعاية المعروفة كالصحافة، التي زادت من هيجان الناس، وبرامج التعليم والمدارس والمظاهرات الوطنية، ودور المنظمات، والمؤسسات الجماهيرية، مما ساعد على تأليب الناس وتعبئتهم نحو أسجاد الأمة والروح الوطنية، مما يؤثر على سياسات ومقررات الحكومات، سواء عن طريق الأساليب الخفية السرية، أو المناورات السياسية، والمظاهرات الشعبية، وزاد من الوضع رغبة وإيام الثاني في كسب مؤتمر السلام عام ١٨٩٨ على أساس الحرب والسلام معاً، ثم تصريح جورج كليمنصو وزير الخارجية الفرنسي عام ١٩٠٨ بأنه يؤمن بالحرب والسلام، وإن عليه وعلى للشعب الفرنسي أن يكونوا مستعدين للحرب، حتى لو كان يسمى لتقليدها، وهذا بول كمبون يصرح في عام ١٩٠٩ أنه متمسك بالسلام والحفاظ عليه من أجل بلاد قوي، وإن الشعب المصلح الذي فيه روح القتال ويكون مستعداً للقتال وخوض المعارك سيكسب احترام الآخرين، ويتجنب فظائع الحرب، وتجلى هذا أيضاً عند تيودور روزفلت، بأن الحرب وحدها تتيح للأمريكيين التحلي بصفات الرجولة التي لا بد منها للانتصار في حرب لا هوان ولا رحمة فيها.

في الوقت نفسه الذي كان يسير فيه الساسة نحو الحرب بأصوات سلام غير حقيقية ظهرت جمعيات مناهضة للحرب ومطالبة بالسلام، مثل جمعية Grafry كرايفري للدفاع عن السلام والحفاظ عليه بين الدول، وتحولت إلى عصبة مسيحية كاثوليكية تولى رئاستها البلجيكي لوغست برنارترت، في حين أن العصبة المسيحية

الإيطالية الديمقراطية طالبت من صميم قلبها استئناف للحرب ضد للنمسا لتحرير تريستا وترانت.

وهكذا تحالفت أصوات وقوى سياسية ودينية للمسير بأوروبا والعالم كله نحو كارثة إنسانية بنشوب الحرب العالمية الأولى.

وباستثناء فرنسا لم يكن يوجد في أوروبا دولة واحدة سيطرتها تعبر عن صدق جميع للولايات والشعب، وهناك ألكيات وطنية وقومية تنتفض وتتحرك في كل اتجاه ومكان في أوروبا، رغم أن مطالب قطلونيا لا يمكن أن تشكل خطراً على وحدة إسبانيا، كما أن مطالب للفلاندرز لا تؤلف أي تهديد لسلامة بلجيكا، إلا أن موقف إسبانيا بهيج أعصاب للسكان من خلال مياسة برشلونة، متلما هي مدينة كفت التي تزعج سلطات بلجيكا، وعبثاً يسعى البريطانيون للوصول إلى اتفاق مع إيرلندا يؤمن لها مصالح وسلامة ثابتة وطويلة، ويحوز على استقلال دبلن ورضى طالبي الانفصال في مقاطعة الألوستر، وعجزوا عن اجتذاب بلفاست كما عجزوا عن إيقاف الحركة الاستقلالية أو الحد من المطالبين بوطن قومي لهم والمعروفين باسم Sinn fein، بحيث أن الحرب الأهلية كانت على وشك الانفجار في الجزيرة عام ١٩١٤.

وبقيت الألزاس واللورين مثال للقلق لفرنسا وألمانيا، وظلت تفكر الأولى بالحرب لاسترجاع ولاياتها السلية، وبرهنت الثانية عن عجزها على امتصاص السكان وتمثيلهم في هاتين للمقاطعتين، للذين لم يرضوا عن للتنازلات للواسعة التي قدمتها لهم الحكومة الألمانية، في الوقت الذي خضعوا فيه لسلطة برلين وإداراتها، فالحركة الليونندية التي عجزت أن تصمد في وجه سياسة للجرمنة في للبلاد كانت مثار إزعاج برلين أول الأمر ومبعث للقلق في نفوسهم، والأقلية الدالمركية في مقاطعة شلسويغ فشلت في مساعيها للتحرر من للسيطرة الألمانية، كما أن للنرويج تمكنت من زحزحة لير السويد عن رقيبها، ومهما بلغ بطش وقوة للدولة التي بناها بسمارك، فهي تخشى كثيراً الابتكارات الجغرافية التي ستحصل في أراضيها من جراء أي وهن أو ضعف يبدو عليها.

وعلى أية حال فالإمبراطوريات الألمانية والروسية والنمساوية - المجرية

تتحمس للخطر الذي تهددها من جراء الحركات التي تقوم بها هذه القوميات الواقعة بين البلطيق والبحر المتوسط.

وان تحرر فنلندا وبولندا ورومانيا من مكان بessarabia لئلا يعني عند روسيا فقدانها في الأسواق الغربية التي أمنت التصرف بها على هواها في هذه البلاد من عهد بطرس الأكبر، والرجوع بروسيا إلى طابع آسيوي أكثر منه أوروبي، ثم ان بروز حركة سلافية دانيوية قوية من شأنه ان يؤلف خطراً يهدد - جدياً - وجود الملكية الثنائية قبل ان يتحقق حلم قيام أوروبا الوسطى التي تمتد من بحر الشمال إلى البحر الأسود، وهكذا قضت للضرورة يوماً بعد يوم بإيجاد صيغة جديدة تكون فيدرالية الطابع، والحال هذا دخل شريك جديد صربي - كرواتي على هذه الإمبراطورية الثنائية، وبنت سياسة عدااء وتكر من قبل المجر ويوغسلافيا اللتان تعملان على استقلالهما الكامل، اما ضم البوسنة والهرسك فعملية زرعت للشكوك في قلب بودابست، وأثارت بلغراد، وقضت مضاجعها، وتم لنصراف آل هابسبورغ لكبح جماح الجامعة الصربية، فهو خطر يهدد مصيرهم، كما انه يجر ألمانيا إلى المجازفة بحرب عالمية كبيرة.

وان الغريب في الأمر ان مصير المدينة والحضارة الأوروبية ارتبط بهذه الدول البلقانية، وبدا ان شبه الجزيرة أخذ (يتبلقن) بعد ان لتفق على تجريد العامل التركي من قوته السياسية والاقتصادية، وان المنازعات العرقية والقومية بين الشعوب المحيطة بمقدونيا واطماعها في البحر الادرياتيكي وبحر أيجة ستولد حرائق تعصف بالمنطقة.

وكلف البحث عن السلام لأوروبا كثيراً منذ عام ١٨٧١، فقد تمتعت بامتياز قد تكون الوحيدة فيه، باستثناء اليابان التي زلحتها وحدها فيه، وهو ان أرض دولها كانت تحتلها قوات عسكرية ودور للصناعات الحربية والاستحكامات، كما كانت دولها تكثر من الحشود العسكرية، ونظام الخدمة العسكرية، والاستعدادات الحربية، والتدريب على فنون الحرب.

واستمر الصراع للفرنسي - الألماني خلال فترة السلام مع توحيد ألمانيا بهذا

لشكّل، والانتصار في حرب السبعين، ومحاولة للتأثر من فرنسا، والتي ولدت للخوف لدى الألمان، وبالتالي بقاء للشعبين في حالة صراع خفية وتنافس وثأر محتوم.

وشُحنت الأجواء بالخوف، وعرفت الإمبراطورية البسماركية كيف تؤلب حولها روسيا والنمسا والمجر وإيطاليا، وجعلت بذلك فرنسا في عزلة تامة، وهذا الحلف المقدس تسلح إلى أن انتهى أمره إلى الإلحلال والتفريق، فقد تولدت في ألمانيا بين (١٨٨٥-١٨٩٠) روح استعمارية مع الازدهار الاقتصادي، وسعت نحو بناء إمبراطورية استعمارية، وفي ظل وليام الثاني ظهر جيل من الألمان تطلّعوا لاستكمال ما بناه جيل الرواد من خلال تحقيق إنجازات أكبر وأهم، وكان الشعب الألماني مزهواً بثقافته وإنجازاته للصناعية والاقتصادية وبنائه للسياسي والعسكري، ونمو مدنه الكبيرة، وراح ينظر بشك إلى الثورة الفرنسية الضخمة، وإلى عظمة الإمبراطورية البريطانية، وقد تشبع بفكرة حقه في استثمار أكثر عدالة للثروات والمواد الأولية في العالم، وأنه حق عرف كيف يحصل عليه بعد طول انتظار، فحقّق النهضة بظل للموظفين للعسكريين، والمدنيين، والنظام، والصفة للرسمية، وأبرزت صفات للعنصر الألماني وسماته المميزة الخاصة، وصاح وليام الثاني في كل مكان عبر بخارته ومسامته وتجّاره، وكأنه ينشر رسالة أمة جديدة.

وتضاعف التسابق على التسلّح البري مع للتسابق للبحري الذي لم يقل احتداماً وكلفة، واعتمدت السياسة الألمانية على الدعوة للمكشوفة، وهي طريقة لم تنفع في توسيع مدى للمستعمرات الألمانية في الخارج، ولزاد الرايخ الألماني نفوراً بعد أن رأى نفسه محاطاً من كل جانب، وكان موقف ألمانيا المتميز جغرافياً في أوروبا قد مهد لمحاولة بسط سيطرتها على أجزاء، خاصة الوسطى والشرقية من أوروبا، وكانت تشعر بأن هناك من يحد من توسعها شرقاً وغرباً، مما يجعلها عرضة لفقدان حليفها الوحيد في الجنوب، وهو الإمبراطورية النمساوية - المجرية، وإذا ما ابهرت لمغامرة كبيرة سيقف إلى جانبها هذا الحليف حتى النهاية، وهذا ما حصل عشية الحرب العالمية الأولى.

وهكذا خضعت أوروبا تحت السلاح والروح العسكرية، ومعها دول ليست

معنية أساساً بهذا الصراع، مثل بلجيكا والسويد، وزاد الاستعداد للحرب، وتزايدت نفقاتها ثلاثة أضعاف بين (١٨٧٥-١٩١٤) في ألمانيا وبريطانيا العظمى، وضعفين في فرنسا، وثلاث ميزانية روسيا، وكذلك لإيطاليا أيضاً، وترصد للميزانية العامة في فرنسا مليار ونصف المليار للجيش والأسطول للحربي، والبرلمان الفرنسي يرصد ٣٠٠ مليون فرنك للتعليم، و١٠٦ ملايين للاشغال العامة والاسعاف العام قبل عام ١٩١٤، وإن بناء طراد واحد يكلف للدولة بين ٣٠-٤٥ مليون فرنك، والطلقة الواحدة تكلف ٤٠٠ فرنك، أي ما يوازي راتب موظف لمدة سنة ١١

ويبدو أن مبدأ: (إذا أردت السلم فاستعد للحرب)، فرض نفسه كمبدأ ساحر، وبدأ أنه لا مناص منه لأوروبا، وإن أوروبا والعالم على وشك تغيير تاريخي وانقسام سياسي، ثم إن التنوع في الحضارة الأوروبية لم يحقق الوحدة السياسية لأوروبا، ولم يحل دون تقسيمها الجغرافي، فالمناخية بين فرنسا وألمانيا على صدارة للقرارة الأوروبية فشلت أمام الصخرة البريطانية، وإن أنصار السياسة هذه برروا المناخية نظراً للخطر الأمريكي تارة، والخطر الأصفر تارة أخرى، ثم تحالفوا مع روسيا عام ١٨٩٥ لارغام اليابان على التخلي عن منشوريا والانسحاب منها، ونظروا إلى الحلف البريطاني-الياباني على أنه خيانة لمصالح أوروبا، وزدادت أطماعهم، وبرزت بصورة واضحة في الوقت الذي كان فيه الاستعمار الأوروبي يولجه صعوبات جديدة.

ونمثل الحقبة (١٨٩٤-١٩٠٤) أكثر للحقب حروباً، حيث وقعت خلالها معظم الحروب الاستعمارية، فقد كانت قضية كوريا التي انتهت بهزيمة اليابان أمام تدخل روسيا وألمانيا وفرنسا، وتدخل بريطانيا في الترافسفال وانتصارها، وتغلغل فرنسا في إفريقيا السوداء واحتلال مدغشقر، إلا أن الدول الأوروبية خسرت ثلاث حروب، فمعزت إيطاليا في الحبشة، وإسبانيا في كوبا والفلبين، وروسيا أمام اليابان في منشوريا، ثم إن الحرب الأخيرة سببت صدمة لروسيا القيصرية ولأوروبا كلها، وأصبحت للمناخية حادة بين فرنسا وألمانيا حول المغرب، ثم التجمع البريطاني - الفرنسي - الروسي جاءت اليابان لتدعمه في روسيا.

وهذا الفصل يتفق وقوعه مع ظهور الولايات المتحدة واليابان للمترامن

بوصفهما دولتين من الدول الكبرى الغازية^(١١).

رابعاً: الحركات القومية خارج أوروبا ويواجه الاستعمار

تصاعدت الحركة القومية في الصين مع ظهور الأفكار والتيارات السياسية والاقتصادية والثقافية التي أثارت القضايا العسكرية، وتركزت الأثر بعيد الذي أطلقته في البلدان المجاورة، وفي المحيط الهندي، وجنوب شرقي آسيا، والمحيط الهادي، وحتى حدود العثمانية، فالمعلقون والكتاب اليابانيون لم يكتفوا لبدأ الروح الجياشة التي انطلقت في قلوب اليابانيين والآسيويين عامة، وقامت حركات وطنية ضد الاستعمار، وطالبت بالتوسع الياباني، مما لفتل الأمريكان والأوروبيين مع ظهور دواع وطنية وقومية ضد كل ما هو أجنبي، ووجود الرغبة الأكيدة بضرورة الإصلاح السياسي والاجتماعي، وخاصة إذا ما لاحظنا وضع الصين حينذاك.

فحرب الاستقلال في الفلبين عام ١٩٠٢ لم تستطع للنهوض بأمره، وراحت واشنطن تشدد قبضتها على البلاد، وتعمل بسرعة على مده بالأسلحة والمعدات لإحكام سيطرتها عليه، في حين اشتكت مقاومة الكوريين لسيطرة اليابان، ولم يتمكنوا من وقفها إلا في عام ١٩١٠، وأخذت نايلند تعمل على العكس من ذلك، وتسعى لتوسيع حرياتها بالاعتماد على اليابان، وكان سلام في الهند الصينية، حيث لم يقم في وجه الحاكم للفرنسي أي حركة مقاومة يُحسب لها حساب، بعد أن ليعن في إذلال حكام الولايات، مع قليل من الاهتمام بالانشغال العامة.

لما الهند فالبقطة القومية فيها أخذت تنشط ونحنم بسرعة، وتحسب حاكم الهند لعام للورد كيرزون للجماهير الهندية المتطلعة للاستقلال، والمعادية للوجود والاحتلال للبريطاني، وتضخم المطالب القومية من قبل المتقنين والبرجوازية الوطنية، في وقت كانت الهند تعوم على تناقضات كالصين نفسها، فمدينة بومباي صناعية عصرية حيث للصناعة الحديثة، في حين أحياء بائسة ورطبة توجد في ثاياهها، ويتكدس فيها السكان بشكل غير صحي، وفيها العديد من أصحاب الملايين الذين يشيدوا المساكن الفارهة، والأبنية، والشركات الفخمة التي تزدهر فيها المدينة، وفي عام ١٩٠٧ ظلت مسافة واسعة بين الفقراء من البروليتاريا والأثرياء من الرأسماليين، وبدأ الزعماء الهنود مثل

طاغوران بالاستغناء عن التعامل مع البضائع الإنكليزية، الأمر الذي من شأنه أن يستثمر الجماهير بشكل كبير، أما الاستقلال الذي طالب به وأقره البرلمان الهندي عام ١٩٠٦ فيعني قيام دولة هندية على طراز الدولة اليابانية، لو على طريقة غاندي، أي إعلان المقاومة في وجه التتقم، وشجب للتصنيع، والعودة بالبلاد إلى عصر المغزل بمأى عن الآلة والمصنع، وعلى أية حال لطل على البلاد عام ١٩٠٨ عهد من الاضطراب في البنغال، ورغم الاصلاحات التشريعية العامة، إلا لها لم تعد شيئاً ينكر مع ظهور (العصبة الإسلامية) التي تسعى إلى جمع الهنود ومعارضة الوجود الاجلبي في الهند.

في هذه الاثناء تطلع غاندي عام ١٩١٤ كخصية وطنية بارزة للعمل إلى الامام من أجل أهداف سامية وضعها نصب عينيه، وهي شد لولصر للوحدة بين المسلمين والهندوس، وشدد على إظهار الأخطار الكامنة في بعض للفئات التي تدعي التطور والتتقم، والمعجبين بأوروبا ممن وصفهم بأنهم أخذوا من الأوروبيين لباسهم وطريق عيشهم وتركوا فضائلهم.

أما الإسلام فمن مبادئه وتعاليمه أن وجود في الاجلبي في الديار الإسلامية إهانة كبيرة، ولا يمكن أن يقبل بحكومة تدن بغير دين الإسلام، لذا ففي مواجهة التغفل الأوروبي ظهر شعور بالجامعة الإسلامية بمقت كل ما هو اجنبي وغريب، وبرهن على وجوده أحياناً بالعنف الشديد كالوهابية في نجد، والمسنوسية في شمال أفريقيا التي واجهت للقوات الإيطالية في ليبيا، فالجامعة الإسلامية للرابطة السياسية والدينية اتخذت سلاحاً من الدبلوماسية والمواجهة العسكرية، وحققت في أراض تابعة للعثمانيين النجاحات في أرمينيا وكريت ومقدونيا، وهكذا نلاحظ في آسيا حركة تقارب عام ١٩١٢ بين المسلمين والوطنيين من الهنود والصينيين، ولمتد التحرك الوطني والشعور الإسلامي من لقاهرة إلى بغداد وطهران والقسطنطينية وبومباي وبالعكس.

هذه الجامعة الإسلامية التي انتعشت في عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ظهرت فيها قوميات مختلفة ناشئة وظهر فيها مفكرون، لمثل جمال الدين الأفغاني، وعبد الرحمن الكوكبي، ونجيب عازوري، ليظهر مفهوم (بقطة الأمة

العربية) للأخير في كتابه الشهير، مع تصاعد نزوة الاتجاه الوطني والقومي في حركات باليمن والحجاز ضد الحكم العثماني، ثم بعد قليل نشبت ثورة الاتحاد والترقي استبدلت الحكم الحميدي بحزب (تركيا الفتاة) مع نزعة طورانية قومية تسعى إلى تتركك للعنصر غير التركي في الدولة العثمانية.

وفي عام ١٨٩٥ أطلت للنزعة الطورانية عند تقار روسيا عندما قام تجار باكو بدعم حركة تدعو إلى الجماعية الطورانية من فنلندا إلى منشوريا للوقوف أمام القيصرية الروسية التي كانت تدعو من أجل (ترويس) الأقوام، وضم أول مجلس تمثيلي روسي (الدوما) عدداً من الأعضاء للمسلمين، ثم جاء لكشورا لوغلو أحد تقار للفلغا إلى أسطنبول، وأسس جمعية طورانية، في الوقت الذي ظهر فيه حزب تركيا الفتاة والنزعة القومية للتركية ضد للسكان العرب، ومقاومة سلطنة السلطان عبد الحميد، والدعوة إلى سياسة تتركك للعرب والاقليات الأخرى، وكعصية قومية تسلمت مقاليد الحكم في البلاد، وأطلق على أعضائها اسم (جمعية الاتحاد والترقي)، وضمت مسيحيين ويهود، ونادت بفلسفة وضعية كاملة، وراحت تتادي بالعثمانية، بحيث يصبح كل رعايا السلطان دون تمييز عرقي عثمانيين، إلا أن للفشل حال دون ذلك، ففقدت الدولة العثمانية ليبيا، ثم البلقان، وانفصلت الدول العربية للوحدة تلو الأخرى عنها، وبدأ أن الوطن التركي يجب أن يقتصر بعد فترة على العثمانيين والأتراك بالأصل فحسب.

أما في إيران فقد سقط الشاه محمد علي الفاجاري، للشاه المستبد في دولة فريسة للفوضى والتدهور، وظهر حزب (إيران الفتاة) من الأعيان ورجال الفكر والمغامرين الذين جاؤوا من القفقاس وأرمينيا، وراح للشاه فريسة للتقارب الروسي - الإنكليزي، واضطر أن يجمع للمجلس الوطني، ويتنازل عن الحكم عام ١٩٠٩ لابنه الشاب.

فاعتمدت الثورة على مشورة الأمريكيين واستمالة ألمانيا إلى جانبها، ولم تستطع أن تقف أمام التدخل الروسي - الإنكليزي في أراضيها، وسقطت تحت قبضتهما.

لما في مصر فقد غادرها اللورد كرومر الذي تولى إدارتها لمدة (٢٨) عاماً، وأشرف على تنظيمها وفقاً للمصالح البريطانية، ولكن للروح الوطنية والقومية التي بدأت مع ثورة أحمد عرابي باشا، لم تخذل أبداً، وأسهم فيها الشيخ محمد عبده بأفكاره وطروحاته، وكذلك صوت الزعيم الوطني مصطفى كامل: "المصريون لمصر ومصر للمصريين"، واشتدّت المقاومة من بعده، وجاء اللورد كننغر الذي عطل الصحف الوطنية، ولاحق الأحرار المصريين، وضيق الخناق عليهم، هذا في الوقت الذي أسهمت فيه البروليتارية في مصانع السكر وسمج القطن ومعامل الألبان.

فأخذت الحركات الوطنية في العالم الإسلامي تنهض في هذا الوقت الذي بدا فيه أن للدول الأوروبية أخذت تقسم أراضيها وخيراتها بعد احتلال المغرب وليبيا، وبقيّة الدول الإسلامية مطلع القرن العشرين التي لم تكن خاضعة من قبل للقوى الاستعمارية الأوروبية.

وظهرت المقاومة الوطنية في الريف المراكشي ضد الاحتلال الإسباني والفرنسي مع الحركة الثورية لتونس الفتاة ضد الفرنسيين، والتي ضمت في صفوفها رجال الفكر والشيوخ المطالبين بتوسع الحريات العامة، وفي الجزائر ازدادت الروح الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي ونصاعته، وارتفعت الأصوات الوطنية - على غرار تونس - لشباب متعلمين جزائريين، والمطلبة بالمساواة في الحقوق والواجبات أمام الضرائب، ونشر التعليم، والتمثيل الأوسع في مؤسسات البلاد، ورفض المشاريع والقضاة مشروع الخدمة العسكرية في الجيش لفرنسي، لانه موقف يتعارض مع الدفاع عن حقوق الإسلام.

وفي القارة السوداء، شهدت أفريقيا الجنوبية الغربية الخاضعة للاستعمار الألماني عامي (١٩٠٣-١٩٠٥) انتفاضات قبلية؛ احتجاجاً على الاستثمار للبشع، وسياسة البطش والعنف ضدهم، ثم في مدغشقر وقعت انتفاضة عام ١٩٢٢، وظهرت الروح الوطنية والقومية في أفريقيا الجنوبية ضد البريطانيين، وتغلّبت للروح الوطنية في وحدة الأفارقة ضد الإنكليز، وتطلع الأفريقي إلى شعور وطني وقومي وعدااء للرأسمالية، وفي عام ١٩١٤ تآلف حزب وطني في جنوب أفريقيا لمواجهة بريطانيا.

وبعد أحداث عنيفة من الاضطرابات عامي (١٩١٣-١٩١٤) أقبل العمال في جنوب أفريقيا على الدخول في عضوية النقابات العمالية بأعداد كبيرة، ثم خضعوا هم أنفسهم للمواجهة على أساس زواج خاضعين لشيء من العبودية.

أما في أمريكا اللاتينية، فقد راح لرباب المال يقيمون علاقات لهم مع رجال أعمال في أوروبا والولايات المتحدة، إلا أن هذا لم يمنع من قيام ثورة عام ١٩١٠ ضد حكم بورفيرو دياز في المكسيك، وعجزت عن تحقيق مطالب الفلاحين المحرومين من الأراضي، أو إشباع مطالب البروليتاريا الناشئة التي أخذت تترعرع في أحضان النقابات الاشتراكية، وهذه الحكومات التي حاولت إرضاء البرجوازية المستتيرة بعض الشيء التي أرادت قيام نظام حر، وكانت كلها تراعي جانب واشنطن التي ظلت على استعداد للتدخل في شؤونها الداخلية.

وهكذا من أفريقيا إلى آسيا إلى أمريكا اللاتينية برزت للروح القومية والوطنية التي تسعى لتحقيق الاستقلال، وحق تقرير المصير، وهذه الحركات كانت قد بدأت طلائعها في أوروبا منذ القرن الثامن عشر، وأخذت تثير في القرن العشرين اهتمام القارات الأخرى^(١٢).

خامساً: الفصل والإمبريالية والحرب

رأت الاشتراكية العالمية نفسها في إقامة نظام سلام شامل في العالم، ورؤية جميع الشعوب في جسم سياسي واحد مع الاحتفاظ بالاستقلال الوطني، كما عبر عنه سان سيمون وأوغستين تباري منذ عام ١٨١٤، أو فستلطين بكور عام ١٨٤٤ في فلسفة جمهورية الله.

ومنذ عام ١٨٤٨ راح الديمقراطيون الإنسانيون أمثال هوغو برون أن الولايات المتحدة الأوروبية هي الأساس، وعقدوا في سبيلها عدة مؤتمرات للسلام، ورأى بلانكي إلغاء الجيوش واستبدالها بالمليشيات الشعبية، ووضع برودون آماله في النظام الفدرالي، أما ماركس فكان يرى العكس، بأن الحرب هذه الفكرة للملازمة للنظام الرأسمالي سترتفع من هذا العالم بارتقاع هذا للنظام وإلغائه، إلا أنها قد تولد مجتمعاً جديداً، ونبذ فكرة نزع السلاح، ثم عدل عن موقفه بعد فشل الكومون، ولم يعد انجلز

يتوقع خيراً من أي حرب تقع في أوروبا، وإن الوسيلة الأسلم حسب رأيه هي العمل للحازم الذي تمثله البروليتاريا في بروزها.

ورفضت الاشتراكية في الغرب القول بأن الحرب هي سبيل للخلاص الوحيد، وأكد جوريس على بطلان هذه النظرية الثورية.

إلا أن الرأسمالية مارست الضغوط على الطبقة العاملة وأصحاب العمل، وكانت الطبقات الحاكمة متخوفة من صعود الاشتراكية وما حملته من اضطرابات، ومنحت فرصة استعمارية لصرف الأنظار وتحويلها عن واقعها المازوم، وراح سبيل رودوس عام ١٨٩٥ يقول: "إذا أردتم تجنب الحرب الأهلية عليكم أن تنصرفوا للاستعمار"، ويبقى الصراع قائماً بين للرأسمالية والاشتراكية، فالأولى تريد ديمومة نظامها، وتأمين استمراره، وتحرص الاشتراكية على إعلانها حرباً ضدها بلا هوادة، وإن السباق على التسليح لا حاجة له، لأنه يستنزف للثروات ويحمل الجماهير ضرائب عالية.

وفي فرنسا وإيطاليا وإسبانيا - حيث النقابات تتحسس الآلام - حرص الفوضويون على بث فكرهم بوجوب للقضاء على الكهنسية والدولة ولرباب العمل، ورأى الماركسيون أن الروح العسكرية ليست سوى نتيجة للرأسمالية، وليس من مبرر لمحاربتها بشكل منفرد، وإن الدولة هي جزء من التطور البشري، وتؤلف مرحلة من مراحلها في الحياة الإنسانية لا بد وأن تمر بها، ولأخذ جوريس يوهي بإقامة جيش جديد يكون شعبياً وديمقراطياً قادراً على الدفاع عن الوطن، ولا يلحق أي أذى أو يقوم بأي عدوان ضد الجمهورية.

ومهما يكن، فإن قادة الاشتراكية الفرنسية كانوا يخشون من الالتباس الذي يشوب فكرة للدولة العمالية ولم يتخل ممثلو الاشتراكية الألمانية عن مشاعرهم المعادية لروسيا، إذ كان الألمان يخشون من قيام الإمبراطورية في الشرق منهم، ورأى كدلر وبوير ورينر أن فكرة انحلال الإمبراطورية النمساوية - المجرية غير ولادة، ودعا جوريس إلى جامعة ألمانية، وهو عضو في الحزب الاشتراكي الألماني والمُنظر له. ولما هذه الظروف، ظهرت الاحتجاجات الدولية للمعتزضة على سياسات

الدول في التسليح، واسقط مؤتمر شتوتغارت عام ١٩٠٧ اقتراحاً بإعلان الإضراب العام في حالة نشوب حرب مع تحريض العمال على القيام بأعمال التخريب بأي طريقة أو وسيلة يرونها ناجحة، والتي تختلف بالطبع عن الكفاح الطبقي والوضع السياسي العام، ولوح العمال في مدينة هال عام ١٩١٢ بالتعاون العظيم بين العمال في جميع أنحاء العالم، والخوف من قيام ثورة بروليتارية تعقب حرباً عالمية.

وهكذا تعلقت الاجتماعات والمؤتمرات والخطب والاقتراحات، وعند اجتماع مكتب الدولية الاشتراكية في بروكسل (٢٩-٣٠ يوليو/ تموز ١٩١٤) وقّع الحاضرون نصاً محضراً أكد أن الأمر كله مربوط بالقرار المتخذ من قبل الحركة الاشتراكية العالمية، فالحزب الديمقراطي الاجتماعي عدّ روسيا المسؤولة الأولى عن الحرب، وصادق على الاعتمادات المرصودة للدفاع عن الحضارة والاستقلال الألماني، ورأى فيه أحد المفكرين - وهو روزا لوكسمبورج - أنه بمثابة الهيار لا مثيل له في التاريخ على مدى الأجيال.

شعرت البروليتاريا أن مصير الإنسانية ومستقبلها يتوقف على هذه الساعة الحاسمة، ووضع جوريس أمله في قطاع المصالح الاقتصادية والمالية التي تلزم للشعوب بمراعاة مصالح بعضها بعضاً، وتجنب الكولث التي تجلبها الحرب معها، وراح هآز أحد أعضاء الحزب الاجتماعي الألماني للديمقراطي يصرّح عام ١٩١٢ بالاتفاق مع برنشتاين وكوتسكي أمام المؤتمر المنعقد في شمنتر بأن لفئات للرأسمالية في العالم المترابطة والمتعلقة دولياً فيما بينها ترى أنه من الإصلاح أن تنقسم الأسواق للعالمية، بدلاً من أن تنهك نفسها في صراع لا يعرف أحد نتائجه، ويهدد بأخطار دون مكاسب، ورأى بكوتسكي - على غرار ما قلله لينين - أن الإمبريالية يجب أن تتعاون دولياً بحيث تنفادى الحرب، وتعتمد بهذا الاشتراكية الإنسانية على للرأسمالية في مهمة إنقاذ للسلام بإنقاذ نفسها.

إن أصحاب الأعمال والرأسماليين لم يشعروا بقرب الحرب، بينما قامت لوساط أخرى - من حيث تعلم أو لا تعلم - بنشاط يخلو من التصعيد والخطر، ووصف لانتول فرانس أن للقوى المالية قوى هدامة للروح الوطنية والقومية، وإن كبار

رجال للصناعة ينشطون في صنع المدافع والبولارج الحربية، ورأى كميون عام ١٩٠٠ أن الإمبراطور وليام الثاني ليس سوى واحد من رجال الصناعة يسعى لاستثمار معمله لو استغلا.

حاول الاشتراكيون تأمين الأخوة الإنسانية بين البشر، عن طريق الاشتراكية، والديمقراطيون عن طريق الديمقراطية، والمسيحيون عن طريق الكنيسة، وانصار التبادل الحر عن طريق التجارة الحرة، فالأزمة الاقتصادية الكبرى عزاها للعديدون من رجال الأعمال إلى شائعات ومضاربات بين الناس قد لا تبدو صحيحة، يجري ترويجها باستمرار، وتم عام ١٨٨٩ إقامة المكتب الدولي ومكتب برلماني دولي لنشر فكرة التحكم الدولي بين الشعوب، وصاح للباب ليو الثالث عشر في مجمع الكرانلة بصوت عال بهذا الاتجاه، واجتمع في واشنطن مؤتمر الجامعة الأمريكية، ولكن هذه النشاطات كلها لم تخرج بشيء يلزم حكومات الدول الكبرى على الاتفاق.

وأخذت ميزانيات الدول تخضع لآعباء التسليح الأوروبي، وأرسلت (٢٦) دولة إلى مؤتمر لاهاي عام ١٨٩٩ ممثلين لها من أجل عقد مؤتمر دولي للسلم، وصحيح أن الفضل كان مصيره سواء في القرارات أو تجنب الحرب، أو للتوصية التي اتخذوها بإنشاء محكمة دائمة للتحكيم الدولي، وكان من الصعب للتوفيق بين مبدأ السيادة الوطنية الذي ترفعه كل دولة وتحديد التسليح الذي عُدَّ لمرأ مرغوباً به لتأمين المزيد من رفاة الشعوب، ورفض وليام الثاني فكرة تسريح وحداته العسكرية، والتنازل بهذا الشكل عن هذه المدن والحصون والقلاع.

ثم أن المؤتمر الذي عقدته رابطة الدول الأمريكية في مكسيكو عام ١٩٠١ بدعوة من الولايات المتحدة كان لتخفيف للتأثير السيئ الذي تركه في واشنطن الصدام مع إسبانيا، ولم يتمكن هو الآخر من التوصية بالرجوع إلزامياً إلى التحكم في كل مشكلة يُستعصى حلها.

وقامت للحروب في للترنسفال والصين ومنشوريا والمغرب، وبناء على اقتراح نيودور روزفلت عقد عام ١٩٠٧ مؤتمر دولي في أعقاب مؤتمر الرابطة للدول الأمريكية، وحضر للمؤتمر زهاء (٤٤) دولة بضغط من واشنطن، وخاصة الدول

اللاتينية، وقد أعدوا تنظيم محكمة للتحكيم، ولكن تعوزها صفة الإلزام والاستمرار، بحيث حُدَّ من آمالها، وجُعِلَت تدور حول قضايا ثانوية، وجرى تبني النص الذي يوصي بإنشاء محكمة عدل للتحكيم الدولي تجلس باستمرار، إلا أن تعيين للقضاة الأعضاء بقي مجرد مشروع، وذهب القائد الأمريكي هوميروس بقول أن للتحكيم الدولي يتجاهل تماماً الفرائع الطبيعية، ثم أخيراً توصل المؤتمر إلى التوصيات، وبصعوبة، والمتعلقة بأعراف للحرب وأخلاقها، والتخطيط لعقد مؤتمر آخر في عام ١٩١٥.

واذ ذلك أخذت الأزمات الدولية تتعاقب من البوسنة إلى المغرب، وليبيا والبلقان، وسادت منافسة بين إنكلترا وألمانيا للسيطرة على البحار، وأصبحت للقضية النمساوية المجرية أساس للتسلح والاتجاه نحو المواجهة، وساد اعتقاد لدى الجماهير الأوروبية أن الأمور تتجه نحو الحرب التي صعب تفاديها رغم كل الجهود والمحاولات والمؤتمرات^(١٢).

الفصل الثامن عشر

التوسع الاستعماري والكاول

الأوروبية الكبرى (١٨٩٠-١٩٠١)



أولاً: التنافس البريطاني - الفرنسي

عندما كان القرن التاسع عشر يشرف على النهاية كانت حتى الاستعمار قد انتابت الدول الأوروبية الكبرى، في الوقت الذي كانت فيه الشعوب ملتصقة بتدعيم كيائها وتثبيت وحدتها، فقامت في أوروبا ست حروب شغلت للعالم الأوروبي، وهي حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٦)، وحروب الوحدة الإيطالية ١٨٥٩، وحرب سلفروبج وهولشتين ١٨٦٤، والحرب للنمساوية ١٨٦٦، والحرب للفرنسية - البروسية ١٨٧٠-١٨٧١، والحرب البروسية للتركية ١٨٧٧.

وظهرت إلى الوجود دولتان كبيرتان، هما ألمانيا وإيطاليا، وبعد أن استقرت لأوروبا بعد مؤتمر برلين، انتقل للتنافس بين الدول الأوروبية إلى خارج القارة الأوروبية، وكان للتنافس نتيجة عاملين: الأول أن الدول القومية قد بلغت ما كانت تهدف إليه من الوصول إلى حل مرضي لأمانيها الوطنية، وكانت أي محاولة يقوم بها الإيطاليون أو الألمان أو الفرنسيون لتغيير الأوضاع السياسية في أوروبا حينذاك معناها قيام حرب أوروبية أخرى، إلا أن سياسة الدول الأوروبية كانوا جميعاً لا يحبون المخاطرة بالدخول في حرب أوروبية لا يؤمنون منها الخير للكثير، أما للعامل الثاني فهو رغبتهم في الاتجاه خارج أوروبا بحثاً وراء الاستعمار.

وقام الاستعمار الأوروبي الحديث على عدة دوافع اقتصادية، وهي البحث عن أسواق جديدة لتصريف المنتجات الصناعية، والحصول على المواد الخام، واستثمار الأموال الفائضة، بسبب التقدم الكبير في الصناعة خلال القرن التاسع عشر، وظهور كبار للرأسماليين الصناعيين الذين اغرقوا الأسواق الأوروبية بمنتجاتهم الكثيرة، فلم تستطع الأسواق المحلية أن تستهلكها، وكان على هؤلاء أن يبحثوا عن أسواق جديدة ليضمنوا تصريفها، ثم إن المصانع كانت بحاجة إلى المواد الأولية كالمطاط وزيت الزيتون والصلب والصدف والقطن، ولزاد التنافس بازدياد الإنتاج وكساد التجارة.

وبدأ الاندماج في المؤسسات الكبرى بعد الأزمة الاقتصادية التي ظهرت عام ١٨٧٥ عندما تضخمت الشركات الكبرى، واستولت على الشركات الصغيرة التي لم تستطع مقاومة هذه الأزمة، وأصبحت هذه الشركات الاحتكارية الكبيرة تسيطر على

للحياة الاقتصادية في نهاية القرن التاسع عشر، وظهرت طبقة من الرأسماليين الكبار للجدد، ورأوا أن يستثمروا أموالهم في البلاد المتخلفة التي تحتاج إلى السكك الحديدية، وإنشاء المصارف والبيوت المالية، والبحث عن المعادن، وجاء ازدياد أعداد السكان في بعض الدول، مما جعل الحكومات والأفراد يعتقدون أن المخرج الوحيد لحل مشكلة السكان والأزمة الاقتصادية هو قيام الاستعمار بالخارج لإيجاد مكان للفائض من السكان، واستغلال الأراضي المحتلة.

لما للدوافع السياسية للاستعمار فتتلخص في تنافس الدول الأوروبية على توسيع ممتلكاتها وراء البحار، ولتدعيم نفوذها الدولي، وإنشاء إمبراطوريات ترضي النزعات الاستعمارية والقومية، لا سيما الدول القومية الجديدة التي ظهرت في أوروبا كإيطاليا وألمانيا اللتين كانتا تعملان على الأخذ بحصتهما من الاستعمار، مما أدى في نهاية المطاف إلى ظهور مشكلات سياسية تهدد الأمن والسلام الأوروبيين.

وزاد في الوضع ظهور رجال سياسة وزعماء حكومات وجهوا سياسة دولهم نحو الاستعمار في الأراضي الجديدة، وإنشاء مناطق نفوذ، ومنذ حاجات البلاد الاقتصادية، والاستيلاء على القواعد البحرية الجديدة، ورفع مهابة الدولة وزيادة نفوذها.

وهكذا أخذت الدول الأوروبية تتكالب على الأراضي التي يمكن أن تستعمرها خارج أوروبا، وطمعت كل دولة في نصيب الأخرى، مما أدى إلى قيام حروب استعمارية ما بين (١٨٩٠-١٨٩٩)، وقد أقيمت بريطانيا العظمى عام ١٨٩٠ على القيام بمشروعات استعمارية، واقتحمت السودان بعد تثبيت احتلالها لمصر، ونجحت في استرجاع السودان لمصر، ثم قام الإنكليز بغزو الترנסفال والأورانج للحرية (١٨٩٩-١٩٠٢) رغم نضال البوير ومواجهتهم، وقاموا الإنكليز لثلاث سنوات، ثم حاولت بريطانيا غزو الحبشة عام ١٨٩٦، ولكنها هزمت في معركة (عدوة)، وفي العام نفسه نجح جيش فرنسي في غزو مدغشقر (١٨٩٤-١٨٩٦)، واستولى على أجزاء من غربي أفريقيا، أما ألمانيا فقد أخضعت أفريقيا الشرقية وأفريقيا الجنوبية الغربية والكاميرون.

ولدت للمنافسة بين بريطانيا وفرنسا إلى قيام أزمة كانت تنشب بسببها حرب كبرى حول حادثة فاشودة في السودان عام ١٨٩٨، وتنازمت الأوضاع بين البلدان،

ولاح شبح الحرب بينهما، ثم انتهى الأمر بموافقة دلكاسية وزير خارجية فرنسا على التراجع، واتفقت الحكومتان على جلاء اقفرنسيين عن فاشودة، مريطة إلا يحاول البريطانيون السير غرباً في منطقة النفوذ الفرنسي.

ولم يكن التنافس مقتصرأ على افريقيا، بل امتد إلى آسيا، ففي عام ١٩٠٠ كانت جميع الهند وبورما والملايو تحت الحماية البريطانية، وامتد النفوذ الفرنسي إلى افغانستان والتبت، أما فرنسا فقد غزت الصين الفرنسية وكمبوديا وتونكين في شمال الصين، وغزت روسيا منشوريا، حيث اقامت حكومة هناك في عام ١٩٠٠، وكان يبدو ان الامبراطورية الصينية سوف تقسمها الدول مثل افريقيا.

ولم يكن للتنافس مقتصرأ على بريطانيا وفرنسا وروسيا واليابان فحسب، بل ان إيطاليا أخذت تعمل على ان يكون لها نصيب من النفوذ في الصين، وظهرت الولايات المتحدة في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بمظهر لم يكن متوقعا، إذ زاد عدد سكانها، واتسعت رقعتها من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي. وحاربت إسبانيا عام ١٨٩٨، وفتزعت منها كوريا وبورتو ريكو وجزر الفلبين وجولم، وأصبحت أمريكا جزءأ من الصراع مع الأوروبيين، وأصبح الكفاح على السيادة دولياً تشترك فيه معظم القارات في العالم.

وفي مطلع القرن العشرين أصبح للعالم مهدأ بشبح الحرب، لأن سبب الخلاف بين الدول هو أنها تنقسم إلى الصدارة، فالمصالح النمساوية - المجرية مع روسيا تتنازع في البلقان، والمصالح البريطانية والفرنسية والألمانية والإيطالية تتنازع في افريقيا، وألمانيا تسعى جاهدة للحاق بكل هؤلاء والتفوق عليهم، فهي تبذل جهودها في العمل على زيادة جيشها لمواجهة خطر الحلف الفرنسي - الروسي، وتقوية أسطولها؛ للثقل على قوة إككترا البحرية، مما جعل السلام هدنة قصيرة لا بد ان تنتهي، مما أرهق مولد الشعوب الأوروبية، وخلق جواً من التوتر الذي جعل الناس تنتظر الحرب من حين إلى آخر^(١٤).

ثانياً: الأزمة البلقانية والاتجاه نحو الحرب العالمية

ان تزايد جهود الدول الكبرى في التوسع على حساب الدول الصغيرة

والمختلفة بسرعة بين (١٨٩٣-١٩٠١) بدلت له آثار تغيرات هامة في أنماط الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الشرق الأقصى، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، وبدلت الخصومات الأوروبية والمنافسات البلقانية، والتي أدت لنشوب الحرب العالمية الأولى.

ولم تكن ساحات المواجهة في البلقان فحسب، ففي أفريقيا لم تتوقف المنازعات والبعثات التبشيرية، وتوغل فيها الفرنسيون والإنكليز والألمان، في حوض النيجر وبحيرة تشاد، وخاصة في عام ١٨٩٨، ولكن الصراعات كانت شديدة في جنوب أفريقيا في الناتال والراس والسودان ومصر، مع امتلاك ألمانيا مستعمرات في جنوب غربي أفريقيا، والبرتغال التي لها سابقاً مستعمرات في أنغولا وموزمبيق، واتجه البريطانيون إلى مناجم الذهب والماص في الترانسفال والاورنج، وهدد مطامع ألمانيا النفوذ البريطاني، وتحركات سيل رودس، ودافع وليام الثاني عن استقلال دولة البوير في جنوب أفريقيا، ثم سرعان ما تخلت ألمانيا عن هذه المقالمة بعد حين، وتم الاتفاق على حساب البرتغال، ووقع في الثلاثين من أغسطس/ آب ١٨٩٨، واشتمل على خطة لتقسيم الأراضي والمستعمرات الخاضعة للبرتغال التي ستعطي لألمانيا للقسم الأكبر من أنغولا وموزمبيق، وتخلت ألمانيا عن الترانسفال، ولم تحصل على بدل لها، وظلت اتفاقية أغسطس/ آب عام ١٨٩٨ بدون تنفيذ، وإذا كانت بريطانيا قد نجحت في إقامة سيطرة لها في جنوب أفريقيا، والتخلص من ألمانيا كقوة منافسة، فإن ذلك كان نجاحاً ثابتاً. وفي أعالي النيل كانت بريطانيا قد حصلت على موافقة في اتفاقية مع إيطاليا عام ١٩٨١، وألمانيا في يوليو/ تموز ١٨٩٠، ولكن محاولاتها ظلت ناقصة بسبب عدم الحصول على موافقة فرنسا.

أما على جبهة أمريكا، فلم تستطع بريطانيا المعظمي أن تقف أمام نجاحات الولايات في القارة اللاتينية بعد أن وضعت أقدامها في جزر المحيط الهادي، وكانت الظروف مواتية مع انشغال لندن في حربها في جنوب أفريقيا، وبعد عامين من المفاوضات حصلت الحكومة الأمريكية في معاهدة هاي - برونسفو في الثامن عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٠١ على حقها في إنشاء هذه للقناة بمفردها، على أن تقسيم فيها الاستحكامات والبوليس العسكري. وبعد أن أبعثت إسبانيا تمكنت واشنطن من أن

تقوم بما يشبه إجبار لندن على التنازل، وسحب الأسطول البريطاني الذي كان يراقب منطقة الكاريبي منذ أكثر من نصف قرن.

وأخيراً، فإن الدولة العثمانية كانت تجتاز أزمة جديدة في عام ١٨٩٨ مع تفاقم حالة التمرد ضدها في أرمينيا وكريت ومقدونيا، والمطالبة بالحكم المحلي الإداري، وتزايد الشعور القومي معها، والرغبة في الحصول على إصلاح نظام الضرائب، هذا مع تصاعد تأييد الحكومة لليونانية والبلغارية في دعم هذه التوجهات، ولكن مواجهة ومقاومة العثمانيين كانت عنيفة من انتقام ومذابح في أرمينيا بعيداً عن أنظار الأوروبيين. وأظهرت هذه الأزمة إلى الوجود مشكلة بين العثمانيين والأوروبيين لضمان الأمن للشعوب المسيحية، وأفادت منها للحكومات الأوروبية في التدخل في الشؤون العثمانية والمناطق البلقانية التي تخضع لها، بل إن الأزمة الأرمنية شاركت فيها عدة أطراف، مثل روسيا وإنجلترا، ثم إن قضية كريت تهم كل دول البحر المتوسط نظراً لموقع الجزيرة الاستراتيجي، وأصبحت الثورة في مقدونيا أداة في أيدي النمسا والمجر وروسيا للوصول إلى أهداف سياسية.

وأخيراً اتفق الإمبراطوران النمساوي والروسي على المحافظة على الوضع القائم في البلقان، وذلك لأن روسيا كانت تتظر في هذه الفترة صوب الشرق الأقصى، وتخشى فضلاً عن ذلك من عدم تمكنها من الاعتماد على للتأييد المصلح لفرنسا في حالة نشوب أزمة بلقانية، وكانت للنمسا والمجر قد أخذتا من ألمانيا النصيحة بضرورة الحذر، وتخشى أيضاً من رؤية الحركة المقدونية التي يوجهها للبلغار، وتنتهي في حالة نجاحها بإقامة بلغاريا الكبرى، أي إلى حل حاربه الملكية الثنائية من قبل بشدة، وكانت تعارض المصالح بهذا الشكل وعدم الثقة بين الدول العظمى هو الذي أنقذ الإمبراطورية النمساوية المجرية. وقد أثرت هذه الخلافات والتناقضات للمستمرة والتي ظهرت تلقائياً في كل مناطق العالم في المصالح الاقتصادية للدول الكبرى وفي مصاصمات مسلحة، مثل الحرب الصينية - اليابانية، والإسبانية - الأمريكية، واليونانية - التركية، وحرب جنوب أفريقيا، ولكنها ظلت محاولات محلية أو حروب إقليمية، ولم تصل إلى العالمية إلا بعد عقد تقريباً في ظل الحرب العالمية الأولى^(١٥).

الفصل التاسع عشر

الآزمات السياسية التي سبقت

الحرب العالمية الأولى



لأولاً: الأزمة المراكشية الأولى (١٩٠٤-١٩٠٥)

شهدت أوروبا منذ نهاية حرب السبعين الفرنسية - الألمانية ١٨٧٠-١٨٧١ سلسلة من التحالف العسكرية والاتفاقيات السياسية التي انتهت بانقسام الدول الكبرى في أوروبا إلى معسكرين في عام ١٩٠٧: الأول هو الحلف الثلاثي الذي ضم الإمبراطورية الألمانية والإمبراطورية النمساوية والمجرية وإيطاليا، أما الثاني فهو معسكر الوفاق الثلاثي الذي ضم فرنسا وروسيا القيصرية وبريطانيا العظمى، وبعد سبع سنوات من هذا الانقسام نشبت الحرب العالمية الأولى في صيف ١٩١٤ بين هذين للمعسكرين أولاً، ثم انضمت دول أخرى إلى هذا المعسكر أو ذلك، وقبل نشوب الحرب العالمية الأولى نشبت أزمات سياسية أدت إلى توتر بين المعسكرين، وهددت بنشوب للحرب بينهما.

حاولت فرنسا بعد احتلال الجزائر منذ عام ١٨٣٠ وتونس منذ عام ١٨٨١ احتلال مراكش التي كانت لا زالت محتفظة باستقلالها، وفي هذا السياق عقدت فرنسا سلسلة من اتفاقيات الترضية مع للدول الأوروبية الاستعمارية الأخرى التي كانت هي بدورها تطمح في الاستيلاء على مراكش، وتعارض المساعي الفرنسية في هذا الإطار. وفي يونيو/ حزيران ١٩٠٢ عقدت فرنسا اتفاقية مع إيطاليا وافقت فيها على احتلال ليبيا من قبل إيطاليا مقابل احتلال فرنسا لمراكش. وفي إبريل/ نيسان ١٩٠٤ عقدت مع بريطانيا ما سمي بـ (الاتفاق الودي) الذي نص على إطلاق يد بريطانيا في مصر مقابل يد فرنسا في مراكش، وقد تضمن الاتفاق أيضاً لطماع إسبانيا في شمال مراكش وأطماع بريطانيا في ميناء طنجة المغربي، وكان هذا الاتفاق بدايةً للتحالف بين فرنسا وبريطانيا، وفي أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٠٤ عقدت فرنسا اتفاقية مع إسبانيا وافقت الأخيرة فيها على ما جاء في الاتفاق الودي، وتضمنت الاتفاقية بنداً سرياً بخصوص تحديد منطقتي نفوذ الدولتين في مراكش، وللوضع الخاص لميناء طنجة، أما روسيا القيصرية فقد كانت حليفة فرنسا منذ توقيع معاهدة التحالف العسكري بينهما في عام ١٨٩٤، ولم تكن روسيا لها مصالح أو لطامح في مراكش، ولذا لم تبد اعتراضاً على التوسع الفرنسي في مراكش.

وبعد ان تمكنت فرنسا من تهيئة الدبلوماسية اخذت تقدم قروضاً كبيرة إلى المغرب؛ تمهيداً للتدخل في شؤونها، ثم للسيطرة عليها، وبلغ مقدار هذه القروض ٦٢,٥ مليون فرنك في عام ١٩٠٤، وخصّص ٦٠% من إيراد كمارك مراكش كضمان لهذه القروض، وتكونت إدارة فرنسية في مراكش خاصة بهذه القروض، وفي مطلع عام ١٩٠٥ وصلت مراكش بعثة فرنسية برئاسة رينيه تالاندييه لإجراء محادثات مع حكومة مراكش بشأن إعادة تنظيم الإدارة والشرطة والمالية والاقتصاد في مراكش، وكانت المقترحات التي حملتها معها البعثة الفرنسية تتضمن إعادة تنظيم للشرطة المغربية تحت الإشراف الفرنسي، وتأسيس بنك دولة مغربي تحت رقابة البنوك الفرنسية، وتشجيع منح امتيازات المسكك للحديدية والموائى والغابات والتعدين وغيرها إلى الاحتكارات الفرنسية، أو تحويل مراكش إلى دولة محمية فرنسية، وكان السلطان مولاي عبد العزيز (١٨٩٤-١٩٠٨) يوافق على هذه المقترحات لولا حصول أمر غير متوقع، وهو تدخل ألمانيا.

كانت ألمانيا تدرك جيداً ان السيطرة الفرنسية على مراكش أمر لا يمكن تجنبه على المدى البعيد، ولكنها كانت تهدف من وراء تدخلها في مراكش ضد فرنسا إلى تحقيق ان قوة ألمانيا لا يمكن لفرنسا تجاهلها، ثم إلحاق هزيمة دبلوماسية بفرنسا، ومما شجع ألمانيا على ذلك انشغال روسيا للقصرية عن شؤون أوروبا في عام ١٩٠٥ بأمرين، هما الحرب مع اليابان في منشوريا، والثورة الروسية عام ١٩٠٥.

كان برنارد فون بلوف مستشار ألمانيا بين عام ١٩٠٠ و ١٩٠٩ قد اقترح إرسال سفينة حربية ألمانية إلى سواحل مراكش منذ إبريل/نيسان ١٩٠٤، أي منذ الاتفاق الودي بين فرنسا وبريطانيا، إلا ان القيصر وليام الثاني لم يوافق على ذلك، ولكن مع إرسال فرنسا بعثتها إلى المغرب أو مراكش مطلع عام ١٩٠٥ عاد فون بلوف إلى محاولاته، واقترح هذه المرة على وليام الثاني ان يقوم بزيارة مراكش خلال رحلة خاصة في البحر المتوسط، ووافق الأخير مجبراً على الاقتراح، وفي نهاية مارس/آذار ١٩٠٥ وصل وليام الثاني إلى ميناء طنجة التي نزل إليها، ومكث فيها بضع ساعات، وخطب قائلاً بأنه جاء لزيارة صديقه سلطان مراكش، وأنه سيدفع عن

سيادة مراكش وعن المصالح الألمانية فيها، وتشجع سلطان مراكش بهذا التصريح، ورفض القترحات بعثة تالانديه، وأعلن أن الاقتراحات الفرنسية ينبغي أن تطرح لأهميتها الدولية على مؤتمر دولي لمناقشتها، وقد أبدت ألمانيا شكلياً مطلب السلطان، ورفضته فرنسا رفضاً قاطعاً، وسُميت هذه بـ (الأزمة المراكشية الأولى).

لخاف هذا الموقف الألماني لأوروبا، وقد أصر مستشار ألمانيا فون بلوف على عقد مؤتمر دولي بشأن مراكش؛ اعتقاداً منه بأن أغلبية الدول الكبرى ستتمسك باستقلال المغرب في المؤتمر المقترح، وإن هذا المقترح لو الأمر سيؤدي إلى نصر دبلوماسي لألمانيا دون كلفة، وكانت الوزارة الفرنسية منقسمة على نفسها، واستغل بلوف هذا الانقسام، وبدأ يشير إلى أن ألمانيا ربما تقوم بعمل عسكري إذا ما قامت للقوات للفرنسية بغزو مراكش، وعندما فشل وزير خارجية فرنسا بيلكاسيه في إقناع أعضاء الحكومة الفرنسية بأن هذا مجرد خدعة ألمانية لانتقال من منصبه في يونيو/ حزيران ١٩٠٥، وكان ذلك ظفراً دبلوماسياً لألمانيا، وفي النهاية وافقت فرنسا على عقد مؤتمر دولي بشأن مراكش، وعدت ألمانيا ذلك نصراً دبلوماسياً آخر.

وقد عقد المؤتمر الدولي في الخامس عشر في يناير/ كانون الثاني ١٩٠٦ في مدينة الجزيرة الخضراء، وهي مدينة إسبانية صغيرة بالقرب من جبل طارق، إذا عرف للمؤتمر باسم مؤتمر الجزيرة الخضراء، وقد شارك في المؤتمر فضلاً عن فرنسا وألمانيا مندوبون عن بريطانيا، وروسيا، والإمبراطوريتان النمساوية والمجرية، وإسبانيا، وإيطاليا، وبلجيكا، وهولندا، والولايات المتحدة، والبرتغال، ومراكش، وقد استمرت مدلولات المؤتمر حتى إبريل/ نيسان ١٩٠٦، وأيد مندوبو المغرب والنمسا والمجر لألمانيا في المؤتمر، في حين أيد مندوبو الدول الأخرى - خاصة بريطانيا وروسيا القيصرية - فرنسا، وإذا كان انعقاد المؤتمر نصراً دبلوماسياً لألمانيا فإن نتائجه كانت فضلاً دبلوماسياً لها أيضاً، ذلك أن (ميثاق الجزيرة) الذي صدر في السابع من إبريل/ نيسان ١٩٠٦ وإن تضمن تأكيداً على استقلال مملكة المغرب ووحدة أراضيها ومنح جميع حرية للتجارة في مراكش على قدم المساواة، إلا أنه أقر إجراء بعض الإصلاحات التي سبق وإن تضمنتها القترحات للبعثة الفرنسية إلى مراكش في

مطلع عام ١٩٠٥، فقد عُهد إلى فرنسا وإسبانيا بحفظ الأمن في الموانئ المغربية، وقرّر تأسيس بنك دولة مغربي يكون لكل دولة مشاركة في المؤتمر حق المساهمة فيه، وإن تحصل كل دولة من الدول الأعضاء على حصة واحدة من الأسهم، بينما تحصل فرنسا على ثلاثة أسهم، كما عهد المؤتمر إلى فرنسا مهمة مراقبة الحدود الجزائرية - المغربية لمكافحة تهريب الأسلحة خاصة.

كان انتهاء المؤتمر بهذا الشكل هو للفشل بالنسبة لألمانيا، فقد عزلت للدبلوماسية الألمانية، وأثار هذا حنق ألمانيا، وأدى إلى ازدياد قوة التحالف البريطاني - الفرنسي للحديث العهد للذي كانت ألمانيا تسعى إلى تمديد ضربة إليه من خلال قضية مراكش، ذلك أن لورد نجراي E. Grey وزير خارجية بريطانيا لم يكن مصمماً على تأييد الفرنسيين دبلوماسياً في المؤتمر فحسب، بل أنه سمح بإجراء محادثات بين رئاسة لركان حرب فرنسا وبريطانيا في مطلع عام ١٩٠٦ بغية وضع الخطط العسكرية اللازمة، تحسباً من قيام حرب بين ألمانيا وفرنسا، وكانت هذه المحادثات السرية دليلاً على الاتفاق اللودي، لم يقصد منه أن يكون مجرد تسوية لمنازعات استعمارية، بل أنه كان تقاهماً قد يقود بريطانيا إلى المشاركة في حرب أوروبية أيضاً، لما للضربة الأخرى التي وُجّهت إلى ألمانيا بعد المؤتمر، فهي المصالحة الروسية - البريطانية في عام ١٩٠٧^(١١).

ثانياً: الأزمة البلقانية الأولى (١٩٠٨-١٩٠٩)

خضعت بلاد البلقان للحكم العثماني منذ لواخر القرن الرابع عشر، وكانت تتألف من بلاد اليونان وصربيا وبلغاريا ورومانيا والجبل الأسود وألبانيا والبوسنة والهرسك، وقامت شعوب البلقان بسلسلة من الثورات ضد الحكم العثماني في القرن التاسع عشر بسبب نمو للمشاعر القومية فيها، وسوء الإدارة العثمانية، وقد أيدت روسيا القيصريّة هذه الثورات، وتورطت في أكثر من حرب ضد الدولة العثمانية، وقامت روسيا بهذا الدور بعدها راعية وحامية لهذه الثورات وللمسيحيين الأرثوذكس في البلقان والعنصر السلافي فيها، ونتيجة لهذه الثورات والدعم الروسي حصلت اليونان على الاستقلال في عام ١٨٣٢، كما حصلت صربيا ورومانيا على استقلال ذاتي في عام

١٨٢٩، وقرر مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ منح صربيا ورومانيا الاستقلال التام، ومنح بلغاريا استقلالاً ذاتياً تحت حكم الملك الكسندر دوباتنبرغ الذي يؤيد نفوذ روسيا، كما أعلن المؤتمر استقلال الجبل الأسود، وأسند إلى الإمبراطورية النمساوية المجرية احتلال وإدارة البوسنة والهرسك على أن تبقى جزءاً من الدولة العثمانية.

كانت روسيا القيصرية تعد البلقان منطقة نفوذ روسية، كما كانت تسعى إلى فتح المضائق التركية: البسفور والدردنيل بوجه السفن الحربية للروسية من وإلى البحر الأسود، إلا أن الدول الكبرى - وخاصة بريطانيا - كانت تعارض المساعي للروسية بخصوص المضائق التركية، وهكذا بدأت روسيا في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر تواجه منافسة من الإمبراطورية النمساوية المجرية في البلقان، وبعد خسارة آخر ممتلكاتها في إيطاليا وخراجها من الاتحاد الألماني، أصبح ههما - أي الإمبراطورية النمساوية المجرية - هو توسيع منطقة نفوذها في بلاد البلقان، وسمي الاندفاع نحو للشرق، وحصلت الإمبراطورية هذه على حق إدارة لبوسنة والهرسك بموجب معاهدة برلين عام ١٨٧٨، كما قبلت مملكة صربيا وصاية هذه الإمبراطورية منذ عام ١٨٨٠، وقد توصلت كل من روسيا القيصرية والنمسا والمجر إلى عقد معاهدة في عام ١٨٩٧، أكدت الحفاظ على الوضع الراهن في البلقان، وتقررت روسيا إلى لطماعها في للشرق الأقصى، خاصة منشوريا، إلا أن هذه المعاهدة خُربت من قبل للنمسا والمجر بعد حوالي عشر سنوات، وتسبب ذلك في ظهور الأزمة للبلقانية الاولى.

حيث حصل في عام ١٩٠٣ انقلاب في بلغراد عاصمة صربيا، أدى إلى مقتل الملك الكسندر أوبرنوفيتش الذي كان يؤيد للنمسا. وحل محله ملك جديد مؤيد للروس هو بيتر قره جورجوفيتش الذي أقام حكماً برلمانياً، وحصل على مساعدات مالية وعسكرية من فرنسا، وسرعان ما أنهت مملكة صربيا الوصاية للنمساوية المجرية، وجاءت الأحداث هذه في وقت كانت فيه الإمبراطورية النمساوية المجرية قد استغافت فيه من معاهدة عام ١٨٩٧، حيث توغل الرأسمال النمساوي في البلقان التي بدت وكلها متصبغ منطقة نفوذ نمساوية، وقد شعرت صربيا أن مصالحها البلقانية في

خطر، فقد خشيّت من تعاونت سلاف الجنوب، أي مملكة صربيا ورعايا المجر من الصرب والكروات، ورعايا النمسا من السلاف، وكان هذا التعاون يهدد كيان الإمبراطورية النمساوية المجرية، لذا كانت ترحب في خلق صربيا التي كان من الممكن أن تؤدي دوراً مماثل دور مملكة سردينيا في الوحدة الوطنية، وقد رأت الحكومة للنمساوية المجرية أن تؤكد نفوذها في البلقان، وأن تطوق مملكة صربيا بسلسلة من التحالف مع رومانيا وبلغاريا، وخلق دولة ألبانية لمنع امتداد صربيا نحو بحر الأدرياتيك.

إن هذه المخاوف للنمساوية كان لها ما يبررها، ففي خريف عام ١٩٠٥ اجتمع عدد من النواب للكروات في البرلمان النمساوي المجري في مدينة فيوم على الساحل الشمالي الشرقي من بحر الأدرياتيك، واتخذوا قراراً يؤكد وحدة كرواتيا ومعارضاً لسيطرة العنصر الألماني والمجري على الإمبراطورية، واستكرت جمعية صربيا بعد حين في مدينة زارا على الساحل الشرقي من بحر الأدرياتيك نظام الحكم الثنائي الذي أقيم في الإمبراطورية النمساوية المجرية منذ عام ١٨٦٧، في حين تبنت مملكة صربيا عامي (١٩٠٥-١٩٠٦) مشروع بناء سكة حديد الدالوب - الأدرياتيك الذي سبق وأن طرح في السبعينات القرن التاسع عشر اعتماداً على قروض من البنوك الفرنسية، وليس للنمساوية، وقد أثارت جميع هذه الأعمال الاستياء والقلق في الإمبراطورية النمساوية المجرية.

وتم تعيين اهرنتال وزيراً للخارجية في الإمبراطورية النمساوية المجرية عام ١٩٠٦، كما أصبح كولراد فون هتزندورف رئيساً للأركان العامة فيها، وكان كلاهما من دعاة اتباع سياسة متشددة تجاه صربيا، ومن جهة أخرى أنهت روسيا القيصريّة خلافاتها مع بريطانيا عام ١٩٠٧، وعادت إلى تركيز انتباهها على شؤون البلقان مرة أخرى.

وفي سبتمبر/ أيلول ١٩٠٨ عقد لقاء بين اهرنتال ونظيره الروسي لافولسكي،

وافق الأول على مساعدة جهود روسيا لفتح المضائق التركية بوجه السفن الحربية الروسية لقاء قيام الإمبراطورية النمساوية للمجرية بضم البوسنة والهرسك إليها، وهكذا تم توجيه ضربة إلى مشاعر الصرب الذين كانوا يرجون ضم المقاطعتين إلى أملاكهم، وكانت الأوضاع في الدولة العثمانية مناسبة من وجهة نظر الرجلين لتنفيذ هذه الصفقة بسبب قيام ثورة جماعية في تركيا ضد السلطان عبد الحميد الثاني في يوليو/ تموز ١٩٠٨.

كانت روسيا بحاجة إلى مساحة من الوقت لترتيب الحصول على موافقة الدول المعنية بخصوص مسألة المضائق التركية، إلا أن اهرنثال فاجأهم في الخامس من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٠٨ بإعلان ضم البوسنة والهرسك إلى بلاده، وكان هذا يعني توسعاً نمساوياً على حساب مناطق سلافية، وفي الوقت نفسه شجعت النمسا بلغاريا على إعلان نفسها مملكة مستقلة عن الدولة العثمانية.

أثار الاجراء النمساوي استياء وغضب عدة أطراف، فقد احتجت الدولة العثمانية عليه استناداً إلى معاهدة برلين، واحتج الصرب، ومن رواتهم للروس بحجة انه لخل بتوازن القوى في البلقان، واحتجت فرنسا وبريطانيا، لانه يمثل خرقاً لمعاهدة برلين، ولاحق مخاطر الحرب وشيكة بين روسيا والإمبراطورية النمساوية المجرية، وقد حدث كل من مولتكه وهترندورف رئيس هيئة أركان حرب ألمانيا والنمسا على ان الوقت قد حان لمنازلة روسيا وفرنسا، وقد أكتت ألمانيا لروسيا بانها ستدعم النمسا عسكرياً إذا ما فكرت في شن الحرب عليها.

وبسبب هذا الموقف الألماني وتردد النمسا في مساعدة حليفها روسيا بشأن البلقان اضطرت روسيا إلى الإذعان للأمر الواقع، كما اضطرت إلى ذلك صربيا، وبذلك حققت الإمبراطورية النمساوية المجرية نجاحاً دبلوماسياً، إلا ان هذا النجاح لم يكن بلا ثمن، كما انه أثار مشاعر معادية للنمسا في صربيا، حيث تشكلت جمعية خاصة فيها لنشر الدعاية المناهضة لآل هابسبورغ في البوسنة وتدريب أشخاص على

الاحتلالات، وهي جمعية لليد السوداء التي نفتت اغتيال ولي عهد النمسا في عام ١٩١٤، ولدى إلى قيام الحرب العالمية الأولى^(١٧).

ثالثاً: الأزمة المراكشية الثانية (١٩١١)

لم يستطع مؤتمر الجزيرة الخضراء ان ينهي الخلاف الألماني - الفرنسي بخصوص مراكش تماماً، وظلت ألمانيا تراقب التحركات الفرنسية هناك، ولم يكن الأمر خالياً من بعض الخلافات بين الطرفين حول مسائل معينة، وفي التاسع من فبراير/ شباط ١٩٠٩ وقعت اتفاقية ألمانية - فرنسية في برلين أكتت للمواد الواردة في ميثاق الجزيرة، كما اعترفت ألمانيا فيها بمصالح فرنسا السياسية في مراكش مقابل اعتراف فرنسا بمصالح ألمانيا الاقتصادية هناك، لكن الخلاف سرعان ما قام بين الدولتين بشأن مراكش في عام ١٩١١، واتخذ شكل أزمة سياسية دولية، ففي تلك السنة قامت بعض القبائل المغربية بانتفاضة ضد السلطان مولاي عبد الحفيظ (١٩٠٨ - ١٩١٢)، فاستغلت فرنسا هذه المشكلة لداخلية، وأرسلت قواتها بقيادة الجنرال موانيه إلى مراكش تحت ستار حماية السلطات والرعايا الأوروبيين هناك، وقد احتلت هذه للقوات الفرنسية مدن مكناس ووحدة الدار البيضاء وفاس، وتحركت قوات إسبانية لاحتلت بعض المدن المغربية، مثل العرائش والقصر الكبير.

قرر الألمان للتدخل في مراكش والاستيلاء على الصويرة وأغادير كرد فعل على الفوز العسكري الفرنسي للمغرب، وأرسلوا لهذا الغرض إحدى سفنهم الحربية إلى ميناء أغادير في الأول من يوليو/ تموز ١٩١١، وفي الوقت نفسه وزعت ألمانيا مذكرة على الدول الكبرى بررت فيها تدخلها في مراكش لعوامل ثلاثة، هي: استجد أصحاب المصالح الألمانية في مراكش، وسخط الرأي العام الألماني بسبب إبعاد ألمانيا عن الإسهام في حل القضية، وخرق فرنسا وإسبانيا، ومقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء.

أعلنت ألمانيا انها لن تسحب سفينتها الحربية من ميناء أغادير إلا عقب

انسحاب للقوات الفرنسية والإسبانية منها، وفي العاشر من يوليو/ تموز ١٩١١ بدأت المفاوضات بين ألمانيا وفرنسا، واستمرت حتى الرابع من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١١ عندما وقعت اتفاقية بين الطرفين اعترفت فيها لألمانيا بالحماية الفرنسية على المغرب لقاء تنازل فرنسا عن جزء من الكونغو الفرنسية لألمانيا.

أدت الأزمة المراكشية الثانية إلى توتر في العلاقات بين ألمانيا من جهة وفرنسا وبريطانيا من جهة أخرى، ففي المفاوضات الألمانية - للفرنسية هدّد كل طرف للطرف الآخر باللجوء إلى السلاح، وتحمّست صحافة كلا البلدين لذلك.

أما بريطانيا فقد أبدت فرنسا، وأعلنت على لسان وزير ماليتها لويد جورج في خريف عام ١٩١١ أنها لن تقف مكتوفة الأيدي إذا ما أعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا، وألّفت الحكومة البريطانية المناورات السنوية لأسطولها، وابتقت في حالة ترقّب لما سينتهي إليه النزاع الألماني - للفرنسي.

ومن ناحية أخرى نجم عن الأزمة المراكشية الثانية قيام إيطاليا بغزو ليبيا، ونشوب الحرب التركية - الإيطالية (١٩١١-١٩١٢)، وزيادة حدة التنافس في التسلح للبحري بين ألمانيا وبريطانيا، وبعد الاتفاق الألماني - للفرنسي في نوفمبر أعلن وزير للبحرية الألماني الأميرال ألفريد فون ترينتر (١٨٤٩-١٩٣٠) أن ألمانيا عانت من تفهقر سياسي ودبلوماسي، ويجب أن تصلح ذلك من خلال ميزانية مالية إضافية للأسطول، وقد أيد الإمبراطور الألماني وليم الثاني هذه للميزانية المالية في عام ١٩١٢.

رابعاً: الأزمة البلقانية الثانية (١٩١٢-١٩١٣)

تعود بداية الأزمة البلقانية الثانية إلى ربيع عام ١٩١٢، ففي مارس/ آذار منه وقعت كل من صربيا وبلغاريا معاهدة لتقسيم مقدونيا، وفي مايو/ أيار ١ٹ١٢ انضمت اليونان والجبل الأسود إلى المعاهدة المذكورة، فنشأ بذلك كتل بلقاني أطلق عليه (العصبة البلقانية)، وقد ساعد على ظهورها سوء إدارة جماعة (تركية الفتاة) لبلادهم،

والهزائم التي منيت بها القوات العثمانية أمام القوات البريطانية في ليبيا في صيف وخريف عام ١٩١١، ومنذ بداية قيام هذه العصبة أخذت روسيا تؤيدها؛ لأنها وجدت فيها عائقاً بوجه أي تغلغل في البلقان؛ لأن روسيا القيصرية كانت تعد نفسها منذ الازمة البلقانية الأولى لتأخذ بثأرها، فأخذت تتقرب من بلغاريا؛ إذ ساعدتها على الاعتراف التركي باستقلالها، كما استغلت فترة الهدنة البلقانية عامي (١٩١٠-١٩١١) لحمل فرنسا على مصالحتها في قضية المضايق التركية، وفي سياستها الرامية إلى إلحاق المصالح بروسيا القيصرية.

أعلنت دول العصبة البلقانية الحرب على الدولة العثمانية في الثامن عشر من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٢، وخلال ستة أسابيع استطاعت دول العصبة البلقانية التي أرسلت أكثر من ٦٠٠ ألف جندي إلى ميادين القتال، أن تهزم القوات العثمانية، وتتزعزع منها الأراضي التابعة للدولة العثمانية في أوروبا عدا القسطنطينية، فقد توسعت بلغاريا باتجاه ترافيا، واليونان باتجاه سالونيك، واستولى الصرب على اسكوب وعلى موناستر التي تعد مفتاح مقدونيا الوسطى، وقد أثارت هذه الأحداث ردود فعل متباينة لدى الدول الكبرى التي وجدت نفسها في مواجهة تغيير جذري للوضع الراهن في البلقان ضد مصالحها.

فقد رأت الإمبراطورية النمساوية للمجرية أن لارتفاع مكانة عدوتها الأولى صربيا في منطقة البلقان تحدٍ لها لا يمكن للسكوت عليه، ولم تكن روسيا القيصرية بسبب مصالحها في المضايق التركية لتسمح لنفسها بأن ترى العاصمة اسطنبول وهي تسقط بيد البلغار، واستاءت ألمانيا من هزيمة الجيش التركي الذي تربته وجهازه بالأسلحة، كما راقبت بريطانيا وفرنسا الوضع بقلق كبير؛ لذا أقدمت الدول الكبرى التي طلبت الدولة العثمانية تدخلها على فرض الهدنة في الثالث من كانون أول/ ديسمبر عام ١٩١٢.

أعقب ذلك عقد مؤتمر للسلام في لندن، وأصررت الإمبراطورية النمساوية المجرية على إقامة دولة ألبانيا لتحرم غريمها صربيا من الحصول على منفذ على البحر الأدرياتيكي، في حين أصررت روسيا على إعطاء حلفائها للصربيين هذا المنفذ،

وقد تمسك كل منهم بوجهة نظره إلى حد كبير، مما جعل الحرب في أوروبا تبدو وشيكة للوقوع، إلا أنه أمكن تفادي هذا للخطر، فقد استخدم الألمان نفوذهم في تلطيف مطالب النمساويين، كما استخدم الإنكليز نفوذهم في تلطيف مطالب الروس، وتمت تسوية المشكلة بإقامة دولة ألبانية مستقلة بحكمها لمير ألماني.

وبينما كان مؤتمر لندن منعقدًا تجددت الحرب مرة أخرى، فقد قامت مجموعة من جماعة تركيا الفتاة بزراعة أئور باشا بانقلاب جديد في العاصمة، وقد انزعج هؤلاء من فقدان بلادهم آخر ممتلكاتها في أوروبا، فأعلنوا للحرب على دول العصبة البلقانية، إلا أن نتيجة هذه الحرب كانت مثل سابقتها، فقد استولى اليونانيون على يانينا، وأجبر الصربيون البلغار الأتراك على تسليم مدينة أدرنة، وفي الثلاثين من مايو/ أيار ١٩١٣ عقدت معاهدة لندن التي تنازلت الدولة العثمانية فيها عن جميع ممتلكاتها في أوروبا باستثناء إسطنبول وغاليبولي إلى دول العصبة البلقانية.

إن القضايا الهامة بقيت مطّعة بعد معاهدة لندن، وهي رسم حدود دولة ألبانيا الجديدة، وتوزيع المناطق الجديدة التي حصلت عليها دول العصبة البلقانية، ولم يتمكن دول العصبة من الاتفاق بشأن هذه المناطق، وكان لإقامة الدولة الألبانية الجديدة دور مهم في ذلك، ذلك أن مملكة صربيا التي حرمت من منفذ خارجي من خلال ألبانيا، تمسكت بحصة بلغاريا في مقدونيا، وأخذت تتطلع إلى السيطرة على خط السكك الحديدية الممتد إلى سالونيك؛ لأنها كانت منفذهم للبديل الوحيد، ومن جهة أخرى أصبحت سالونيك نفسها مصدر خلاف بين بلغاريا واليونان، فقد وصلتها للقوات البلغارية بعد أربع ساعات من احتلالها من قبل القوات اليونانية أثناء الحرب مع الأتراك، ولم يرض البلغار بذلك، بل أخذوا يطالبون ببعض المناطق على ساحل بحر إيجه، وأدت هذه الخلافات في نهاية الأمر إلى قيام الحرب بين دول العصبة البلقانية.

تحمل البلغار العبء الأساسي في الحرب ضد الأتراك، وتصوروا أن

بإستطاعتهم محاربة اليونان وصربيا معاً، وفي التاسع والعشرين من يونيو/ حزيران ١٩١٣ شنوا هجوماً على اليونان وصربيا بدون سابق إنذار، إلا أن الدولتين كانتا على استعداد لمواجهة هذا الهجوم.

وتمكنت اليونان وصربيا - بمساعدة القوت الرومانية التي هاجمت بلغاريا من الشمال ومساندة الأتراك الذين كانوا يصرون على استعادة أدرنة - من إلحاق الهزيمة ببلغاريا، وإجبارها على توقيع معاهدة صلح بخارست في العاشر من أغسطس/ آب ١٩١٣، وقد توسطت روسيا القيصرية - بناء على طلب بلغاري - في إنهاء الحرب وعقد المعاهدة هذه، وبموجبها حصلت صربيا على معظم مقدونيا وجزء من (نوفي بازار) الذي انقسمته مع الجبل الأسود، وحصلت اليونان على بقية مقدونيا وترقيا الغربية.

لما رومانيا، فقد حصلت على (دوبروجة)، وفي التاسع والعشرين من سبتمبر/ أيلول ١٩١٣ وقعت معاهدة جديدة استعادت الدولة العثمانية بموجبها مدينة أدرنة، وفي ديسمبر كانون الأول ١٩١٣ تم توقيع معاهدة لندن الثانية التي عهدت إلى الدول الكبرى بمهمة تنظيم دولة للبنانيا الجديدة، وانتهت الأزمة البلقانية، إلا أن هذه التسويات التي تمت عام ١٩١٣ لم تكن سوى سلم قصير الأجل ينبي عن أزمة سنة ١٩١٤، أي قيام الحرب العالمية الأولى.

فقد ظلت بلغاريا نائمة على صربيا واليونان ورومانيا، وبقيت للنمسا غاضبة على توسع صربيا المتحالفة مع روسيا القيصرية، كما غضبت ألمانيا من التنازع ممتلكات تركيا في أوروبا، حيث كانت لها مصالح اقتصادية، ومشاريع سكك حديدية مهمة فيها. ومنذ نهاية الحرب بين دول العصبة البلقانية، ومعاهدة بخارست، أخذ كونراد رئيس هيئة أركان النمسا، وليوبولد فون بيرختولد رئيس الوزارة النمساوية في عام ١٩١٢ يفكران في سحق صربيا في حرب قصيرة الأجل، ثم تقسيمها، وأكد إمبراطور ألمانيا وإليام الثاني دعم بلاده لامتثال هذه الخطط النمساوية في البلقان،

وأبلغ بيرختولد في تشرين الأول ١٩١٢ أن سيساعد النمسا متى ما دعت الضرورة لذلك.

وقد صاحب الأزمة البلغارية وأعقبها سباق تسلح محموم بين الدول الكبرى في أوروبا، فقد استمر سباق التسلح للبحري بين ألمانيا وبريطانيا، وفي الثاني من يوليو/ تموز ١٩١٢ شرّعت ألمانيا قانوناً جديداً للخدمة العسكرية بموجبه ازداد عدد الجنود في زمن السلم من ٦٢٢ ألف إلى ٨٨٠ ألف، وفي أغسطس/ آب ١٩١٢ شرّعت فرنسا قانوناً مددت بموجبه الخدمة العسكرية الإلزامية إلى ثلاث سنوات، ولخدت روسيا القيصرية تخطط لزيادة قواتها العسكرية لكي تستعد لصراع مرير وصعب وشيك للقوقع^(١٨).

الهوامش

- (١) هـ. أ. ل. نشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، (١٧٨٩-١٩٥٠)، ط ٧، تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبيح، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٥-١١.
- (٢) للمرجع نفسه، ص ١١-١٤.
- (٣) للمرجع نفسه، ص ١٥-٢٣.
- (٤) للمرجع نفسه، ص ٢٥-٣٠.
- (٥) للمرجع نفسه، ص ٣١-٤٠.
- (٦) للمرجع نفسه، ص ٤٠-٤٤.
- (٧) للمرجع نفسه، ص ٤٥-٥٥.
- (٨) للمرجع نفسه، ص ٤٦-٦٤.
- (٩) للمرجع نفسه، ص ٦٥-٧٩.
- (١٠) للمرجع نفسه، ص ٨٠-٩٩.
- (١١) للمرجع نفسه، ص ١٠١-١٠٨.
- (١٢) للمرجع نفسه، ص ١٠٩-١١٥.
- (١٣) للمرجع نفسه، ص ١١٦-١٣٠.
- (١٤) للمرجع نفسه، ص ١٣١-١٤٤.
- (١٥) للمرجع نفسه، ص ١٤٤-١٤٦.
- (١٦) للمرجع نفسه، ص ١٤٨-١٥٥.
- (١٧) للمرجع نفسه، ص ١٥٧-١٦١.
- (١٨) للمرجع نفسه، ص ١٦٢-١٧٤.
- (١٩) للمرجع نفسه، ص ١٧٦-١٨٤.
- (٢٠) للمرجع نفسه، ص ١٨٥-١٩٢.
- (٢١) للمرجع نفسه، ص ١٩٢-٢٠٣.
- (٢٢) للمرجع نفسه، ص ٢٠٥-٢١٦.
- (٢٣) خليل علي مراد وآخرون، دراسات في التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ط ١، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٨٨، ص ١٥٩-١٦٣.

- (٢٤) المرجع نفسه، ص ١٦٤-١٧١.
- (٢٥) المرجع نفسه، ص ١٧١-١٧٥.
- (٢٦) المرجع نفسه، ص ١٧٧-١٨١.
- (٢٧) المرجع نفسه، ص ١٨١-١٨٦.
- (٢٨) المرجع نفسه، ص ١٨٧-١٩١.
- (٢٩) المرجع نفسه، ص ١٩٥-١٩٨.
- (٣٠) المرجع نفسه، ص ١٩٨-٢٠٤.
- (٣١) المرجع نفسه، ص ٢٠٤-٢٠٨.
- (٣٢) المرجع نفسه، ص ٢٠٨-٢١٢.
- (٣٣) فخر، المرجع السابق، ص ٣٠٣-٣١٢.
- (٣٤) المرجع نفسه، ص ٣١٢-٣١٩.
- (٣٥) نقولا قطان، تاريخ أوروبا السياسي والثقافي، ١٥٠٠-١٩٤٥، ط ١، المطبعة الوطنية، عمان، ١٩٥١، ص ١٤٧-١٧٧.
- (٣٦) المرجع نفسه، ص ١٧٧-٢٠٧.
- (٣٧) فخر، المرجع السابق، ص ٢١٧-٢٢٧.
- (٣٨) نقولا قطان، المرجع السابق، ص ٢٠٧-٢٦٦.
- (٣٩) عبد الحميد البطريق، التيارات السياسية المعاصرة ١٨١٥-١٩٦٠، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٤، ص ٧٤-٨٣.
- (٤٠) المرجع نفسه، ص ٨٣-٩٣.
- (٤١) المرجع نفسه، ص ٩٤-٩٩.
- (٤٢) المرجع نفسه، ص ٩٩-١٠٤.
- (٤٣) المرجع نفسه، ص ١٠٥-١١٦.
- (٤٤) المرجع نفسه، ص ١٣٠-١٣٢.
- (٤٥) المرجع نفسه، ص ١٣٣-١٤٢.
- (٤٦) فخر، المرجع السابق، ص ٣٢١-٣٢٦.
- (٤٧) المرجع نفسه، ص ٣٢٦-٣٣٤.

- (٤٨) المرجع نفسه، ص ٣٣٤-٣٣٦.
- (٤٩) المرجع نفسه، ص ٣٣٨-٣٤٣.
- (٥٠) المرجع نفسه، ص ٣٤٤-٣٤٦.
- (٥١) المرجع نفسه، ص ٣٤٦-٣٤٨.
- (٥٢) موريس كروزيه، تاريخ الحضارات للعالم، المجلد السادس، بيروت ١٩٨٣، ص ٥١١-٥١٦.
- (٥٣) المصدر نفسه، المجلد السادس، ص ٥١٦-٥٢٠.
- (٥٤) المرجع نفسه، ص ٥٣٠-٥٤٠.
- (٥٥) المرجع نفسه، ص ٢١٢-٢١٥.
- (٥٦) المرجع نفسه، ص ٢١٥-٢٢٠.
- (٥٧) المرجع نفسه، ص ٢٢٠-٢٢٨.
- (٥٨) المرجع نفسه، ص ٢٢٨-٢٣٥.
- (٥٩) المرجع نفسه، ص ٥٥٦-٥٦٠.
- (٦٠) المرجع نفسه، ص ٥٦٠-٥٦٨.
- (٦١) المرجع نفسه، ص ٥٦٨-٥٧٧.
- (٦٢) المرجع نفسه، ص ٥٧٧-٥٨٤.
- (٦٣) المرجع نفسه، ص ٦٠٧-٦١٣.
- (٦٤) جلال يحيى، التاريخ الاوروبى للحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الاولى، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، ١٩٨٣، ص ٤٦٦-٤٦٨.
- (٦٥) المرجع نفسه، ص ٤٦٨-٤٧٩.
- (٦٦) خليل مراد وآخرون، المرجع السابق، ص ٢١٥-٢١٨.
- (٦٧) المرجع نفسه، ص ٢١٨-٢٢٣.
- (٦٨) المرجع نفسه، ص ٢٢٣-٢٢٥.

قائمة المصادر والمراجع

- جلال يحيى، التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الأولى، الإسكندرية، ١٩٨٣.
- خليل علي مراد وآخرون، دراسات في التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، الموصل، ١٩٨٨.
- عبد الحميد البطريرق، التيارات السياسية المعاصرة ١٨١٥-١٩٦٠، بيروت ١٩٧٤.
- هـ. أ. ل. فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠)، الطبعة السابعة، تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع للقاهرة، ١٩٧٦.
- كروزيه، موريس، تاريخ الحضارات العام، المجلد السادس، بيروت، ١٩٨٣.
- نقولا قطان، تاريخ أوروبا السياسي والثقافي ١٥٠٠-١٩٤٥، الطبعة الأولى، عمان ١٩٥١.

المحتويات

الموضوع
الفصل الأول: قيام الثورة الفرنسية ١٧٨٩ وظهور نابليون
أولاً: الثورة في فرنسا
١- لويس السادس عشر وسقوط الملكية
٢- دستور عام ١٧٩١
ثانياً: الحرب والإرهاب
١- الجمهورية الفرنسية الأولى
٢- عهد الإرهاب
٣- حكومة الإدارة
ثالثاً: ظهور نابليون
١- الحملة على إيطاليا
٢- الحملة على مصر
٣- القنصلية
٤- إنكلتر والحصار القاري
الفصل الثاني: القنصلية والحصار القاري والإمبراطورية النابليونية
أولاً: إنجازات نابليون المدنية
ثانياً: الإمبراطورية
ثالثاً: نابليون والحروب الأوروبية
١- فرنسا ووسط أوروبا
٢- إسبانيا

الفصل الثالث: نهاية عهد نابليون وعقد مؤتمر فينا ١٨١٥

أولاً: بدايات التراجع

ثانياً: الحرب مع روسيا

ثالثاً: الحرب مع ألمانيا

رابعاً: مؤتمر فينا ١٨١٥

الفصل الرابع: الحلف المقدس في أوروبا وثورات عام ١٨٣٠

أولاً: الحلف المقدس

ثانياً: ثورات عام ١٨٣٠

١- الثورة في فرنسا

٢- الثورة في بلجيكا

٣- الثورة البولندية

الفصل الخامس: إنكلترا وفرنسا وإيطاليا بين ثورتى ١٨٣٠-١٨٤٨

أولاً: إنكلترا والإصلاح

ثانياً: روبرت بيل والمحافظون

ثالثاً: حرية التجارة

رابعاً: فرنسا ومملكة لويس فيليب

خامساً: تبعات إيطاليا

الفصل السادس: الثورات في النمسا والمكيا والبرتغال وإسبانيا

(١٨٣٠-١٨٤٨)

أولاً: الثورة في النمسا والمجر

ثانياً: الثورة في ألمانيا

ثالثاً: المناهضة النمساوية - البروسية

٧٣٠	رابعاً: الثورة في المستعمرات الإسبانية والبرتغالية
٧٣٥	الفصل السابع: الثورة الصناعية
٧٣٦	لولاً: التعريف
٧٣٦	ثانياً: بريطانيا الصناعية
٧٣٩	ثالثاً: الصناعة في الدول الأوروبية
٧٤٥	رابعاً: نتائج الثورة الصناعية
٧٤٩	الفصل الثامن: الوحدة الإيطالية
٧٥٠	لولاً: إيطاليا قبل الوحدة
٧٥٣	ثانياً: غاريبالدي والوحدة الإيطالية
٧٥٧	ثالثاً: كافور وتوحيد الولايات الإيطالية
٧٦٣	الفصل التاسع: الوحدة الألمانية
٧٦٤	لولاً: ألمانيا قبل الوحدة
٧٦٥	ثانياً: ألمانيا بين ١٨١٤-١٨٦٠
٧٧١	ثالثاً: بسمارك والوحدة الألمانية
٧٧٦	رابعاً: الحرب مع فرنسا وإقامة الوحدة الألمانية
٧٧٩	الفصل العاشر: الجمهورية الفرنسية الثالثة
٧٨٠	لولاً: ثورة باريس
٧٨١	ثانياً: الجمهورية ودمتور ١٨٧٥
٧٨٤	ثالثاً: الأحزاب الفرنسية
٧٨٧	الفصل الحادي عشر: روسيا والمملكة الشرقية والتأزم الأوروبي في القرن التاسع عشر
٧٨٨	لولاً: أوضاع روسيا في مطلع القرن التاسع عشر
٧٨٩	ثانياً: الدولة العثمانية والمملكة الشرقية

ثالثاً: حرب القرم

رابعاً: روسيا والدولة العثمانية

الفصل الثاني عشر: بريطانيا، ألمانيا، فرنسا، النمسا، والمجر، خلال
القرن التاسع عشر، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية

لأولاً: بريطانيا العظمى

١- نظام الحكم البريطاني

٢- حزب العمال

٣- الأحرار والوزارة

٤- المستعمرات البريطانية

ثانياً: ألمانيا

١- نظام الحكم الألماني

٢- بسمارك والامتراكية

ثالثاً: فرنسا

فرنسا والعدالة الاجتماعية

رابعاً: النمسا والمجر

١- البوسنة والهرسك

٢- الأزمة الاقتصادية

٣- مشكلة الحدود النمساوية

٤- أزمة الحكم

الفصل الثالث عشر: التيارات والمذاهب الفكرية في أوروبا في القرن
التاسع عشر

لأولاً: الفاتيكاني والأفكار الحرة

ثانياً: تطور السياسة والاقتصاد

٨٣٥	٤ - الجمعية الفابية
٨٣٧	الفصل الرابع عشر: الإمبراطورية البريطانية في الهند
٨٣٨	لأولاً: سمات التدخل البريطاني
٨٤٠	ثانياً: ظهور الروح القومية
٨٤١	ثالثاً: الاتحاد الهندي
٨٤٣	الفصل الخامس عشر: ملامح التقدم الصناعي والعلمي والأدبي في أوروبا خلال القرن التاسع عشر
٨٤٤	لأولاً: نمو السكان
٨٤٤	ثانياً: النهضة الاقتصادية
٧٤٦	ثالثاً: التقدم العلمي
٨٥٢	رابعاً: النهضة الأدبية والثقافية
٨٥٥	الفصل السادس عشر: الاستعمار الأوروبي والسياسة التوسعية
٨٥٦	لأولاً: الحركة القومية والاستعمار الأوروبي
٨٦٢	ثانياً: الحروب الاستعمارية
٨٦٧	ثالثاً: التنافس الإمبراطوري الفرنسي - البريطاني
٨٧١	الفصل السابع عشر: الدول الاستعمارية والحركة القومية: اتجاهات التنقهر الأوروبي
٨٧٢	لأولاً: لرأسمالية بين للنمو والتنقهر
٨٧٦	ثانياً: الاستعمار والعنصرية والصهيونية
٨٨١	ثالثاً: الحركات القومية في أوروبا

٨٨٦	رابعاً: الحركات القومية خارج أوروبا وبوادر مواجهة الاستعمار
٨٩٠	خامساً: العمال والإمبريالية والحرب
٨٩٥	الفصل الثامن عشر: التوسع الاستعماري والدول الأوروبية الكبرى (١٨٩٠-١٩٠١)
٨٩٦	أولاً: التحالف البريطاني - الفرنسي
٨٩٨	ثانياً: الأزمة البلقانية والاتجاه نحو الحرب العالمية
٩٠١	الفصل التاسع عشر: الأزمات السياسية التي سبقت الحرب العالمية الأولى
٩٠٢	أولاً: الأزمة المراكشية الأولى (١٩٠٤-١٩٠٥)
٩٠٥	ثانياً: الأزمة البلقانية الأولى (١٩٠٨-١٩٠٩)
٩٠٩	ثالثاً: الأزمة المراكشية الثانية (١٩١١)
٩١٠	رابعاً: الأزمة البلقانية الثانية (١٩١٢-١٩١٣)
٩١٥	الهوامش
٩١٨	قائمة المصادر والمراجع
٩١٩	الفهرس

موسوعة

تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر

من الحرب العالمية الأولى حتى قيام النظام العالمي الجديد

(١٩١٤-١٩٩١م)

الجزء الرابع

تأليف

د. مفيد الزبيدي

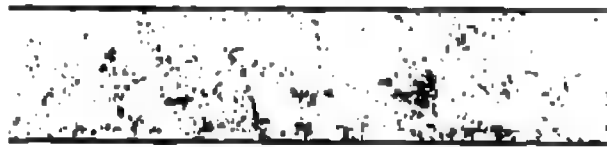
دار أسامة

للنشر والتوزيع

الفصل الأول

قيام الحرب العالمية

الأولى (١٩١٤-١٩١٨)



أولاً: شرارة اندلاع الحرب:

كانت النمسا أضعف من أن تتخذ أية خطوة عسكرية بدون أن تدعمها ألمانيا، ولكن الأخيرة كانت تخشى على حليفها من أن تقحم نفسها في حرب تمزقها، ولا سيما أنها عانت من جراء انهزام تركيا التي كانت تعدّها ألمانيا حليفة لها، حتى أنها اضطرت بعد للهزيمة التركية في البلقان أن ترسل في الحال ليمان فور ساندرز لكي يعيد تنظيم الجيش التركي على الرغم من الاحتجاجات الروسية للموجهة إلى ألمانيا. ومنذ مطلع عام ١٩١٣ أصبح القادة الألمان يعتقدون أن للحرب لا بد منها، وأن من مصلحة ألمانيا أن تبدأ الحرب سريعاً بعد أن يستكمل أعداؤها استعداداتهم، حتى خضع الإمبراطور لهذه الاقتراحات، ونم يكن للمستشار بتمان هولوج الكلمة العليا مثل سلفه بسمارك، وكانت أول خطوة للاستعداد عام ١٩١٣ أن فرضت الحكومة الألمانية ضريبة جديدة للأغراض العسكرية، وفي صيف ١٩١٤ شعرت ألمانيا أنها استكملت قوتها، وخاصة أنها قد اكملت توسيع قناة كييل لتسهيل نقل الأسطول الألماني من بحر البلطيق إلى بحر الشمال، بينما لم تكن فرنسا تقدر لنفسها استكمال استعدادها إلا في عام ١٩١٥، ولما روسيا فلم يكن مقدراً لها أن تكون على أهبة الاستعداد قبل عام ١٩١٧.

كانت بريطانيا بعيدة عن الدخول في مواجهة مع ألمانيا، وظلت لندن على استعداد للمفاوضات من أجل تسوية أية مشكلة تهدد للسلام بينهما، من جهة أخرى كانت العلاقات بين النمسا وصربيا تسمير نحو للتأزم والسوء، فضلاً عن أن الولايات اليوغوسلافية حانقة على الحكم الإمبراطوري للنمساوي، وتوالت المؤتمرات لاغتيال كبار الموظفين للنمساويين، حتى نفذ صبر النمساويين على ما كان يوجه إليهم من اعتداءات، وأخذ بروشتلد وزير خارجية النمسا في يونيو/حزيران عام ١٩١٤ يدبر للوسائل السريعة التي تستطيع بها للنمسا القضاء على صربيا، وفي الثامن والعشرين من لشهر قتل أحد الطلبة الصربيين الأرشيدوق فرانز فرديناند ولي عهد عرش النمسا أثناء زيارة رسمية في سراييفو عاصمة البوسنة، وكانت الحادثة فرصة ملائمة للنمسا وألمانيا لكي تتخذاها ذريعة لإعلان الحرب.

وجرت خلال شهر واحد عدة اتصالات سرية بين النمسا وألمانيا، أكدت الأخيرة أنها تؤيد حليفها في كل خطواتها، ولم تكن فرنسا تقتر عواقب تلك الحادثة، حتى أن بولنكاريه رئيس جمهوريتها وفيغياني رئيس وزرائها كانا ذاهبين إلى بطرسبورغ في زيارة رسمية لروسيا، وانتظرت الحكومة النمساوية حتى بدأ الرئيس الفرنسي ورئيس وزرائه يعودان من الرحلة الروسية، ثم ألقت بقوتها في إرسال المنشور الشهير، وهو إنذار إلى صربيا في الثالث والعشرين من يوليو/ تموز، ومع أن صربيا خضعت وقبلت معظم المطالب النمساوية التي تكاد تنتزع منها استقلالها، إلا أن النمسا عنت ردها رفضاً للإنذار، وأعلنت عليها الحرب في اليوم التالي.

وقد حاول القيصر الألماني وليام الثاني التخفيف من حدة النمساويين قبل إعلان الحرب، إلا أنه لم ينجح في محاولته، أما روسيا فقد استعدت لتقف إلى جانب صربيا ضد النمسا، وأعلن القيصر التعبئة العامة، فأعلنت ألمانيا الحرب على روسيا في الأول من أغسطس/ آب ١٩١٤، وانضمت فرنسا إلى حليفها روسيا، فأعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا في الثالث من أغسطس/ آب، وأخذت ألمانيا تستعد لتنفيذ مشروعها الذي وضعه العسكريون، وهو غزو فرنسا عن طريق اختراق بلجيكا ولكسمبورغ لاكتساح فرنسا قبل أن تستعد روسيا للقتال.

وأخذت الحكومة الألمانية تتصل بالحكومة البريطانية تطالبها بأن تقف على الحياد في نظير أن تتعهد ألمانيا بضمان استقلال بلجيكا وهولندا بعد الحرب، ولكن بريطانيا رفضت التعهد الألماني، وعدت أن خرق حياد بلجيكا مبرر لإعلان الحرب على ألمانيا، وأرسلت إنذاراً إلى ألمانيا في الرابع من أغسطس/ آب تطالبها فيه بسحب قواتها من بلجيكا في الحال، ولما لم يصلها الرد أعلنت بريطانيا العظمى الحرب على ألمانيا، وفي السادس منه أعلنت النمسا والمجر الحرب على روسيا، وانضم الجبل الأسود إلى صربيا ضد النمسا، وفي التاسع منه قطعت كل من صربيا والجبل الأسود علاقاتهما بألمانيا، وفي اليومين التاليين أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على النمسا.

وسرعان ما أصبحت الحرب عالمية بانضمام معظم الدول إليها، ودخلت اليابان الحرب في صف الحلفاء؛ لأنها كانت ترمي من وراء ذلك إلى بسط نفوذها على

لصين، وانتهزت الفرصة لاحتلال المنطقة التي كانت تحتلها ألمانيا في شانغونج في الصين^(١).

ثانياً: الحملة العسكرية ١٩١٤:

كانت ألمانيا قد أعدت نفسها ووضعت خططها، وهي لم تكن تَخشى روسيا لأنها كانت تعتقد أن روسيا لا تستطيع نقل جيوشها الكبيرة إلى المودان بسرعة، ولهذا اعتقدت ألمانيا أنها تستطيع أن تلقى ٤/٥ من جيشها في هجوم مفاجئ ضد فرنسا، وتكتسح بقواتها في أسابيع قليلة، ثم تتفرغ للجبهة الشرقية. وإن الحل الوحيد هو أن تشن هجوماً عبر بلجيكا تنفذ بعده إلى باريس.

ولمّت فرنسا من جانبها لقوى فرقها العسكرية تجاه اللورين بقصد مهاجمة الألمان في ذلك الإقليم، حتى إذا نجحت فرنسا في هذا السبيل فشل الهجوم الألماني على بلجيكا، ولكن عندما حاول الفرنسيون الهجوم في اللورين فشلوا فشلاً ذريعاً، ونجح الألمان في اكتساح بلجيكا، واستولوا على حصن ليبج العظيم، ولم يستطع للجيش البلجيكي الصغير أن يصمد طويلاً أمامهم رغم مقاومته الشديدة، ثم اضطر إلى اللجوء وراء حصون أنتورب، وبعد ثلاثة أسابيع من الحرب أصبح الجزء الأكبر من بلجيكا تحت رحمة الألمان، الذين اضطروا إلى فرض الأحكام العسكرية في البلاد حتى يأمنوا جانب الوطنيين، وهرب عدد من السياسيين البلجيكين إلى بريطانيا، حيث ظلوا هناك إلى أن انتهت الحرب.

وقد وفقت القوات الفرنسية على طول الحدود الفرنسية البلجيكية، في حين عسكرت القوات البريطانية على يسار القوات الفرنسية تحت قيادة السيرجون فرنش، وهي القوة التي تحركت نحو فرنسا في سرعة وهوة منذ إعلان الحرب، ولكن في الثالث والعشرين من أغسطس/ آب بدأ الألمان بالهجوم، فانهزم الفرنسيون أمامهم بعد أن استولى الألمان على حصن نامور الذي يُعدّ مركز للخط الدفاعي، ثم ضربوا الفرنسيين في شارلروا فوقع الجيش البريطاني في أزمة فاضطر إلى للتقهقر السريع، وكان التقهقر في حد ذاته أمام عدو منتصر عملية خطيرة، ولكنها نجحت بفضل تصدي إحدى قوات القتال للألمان في (لوكاتو)، بينما تتراجع بقية القوات البريطانية لمحاولة

للقاتل من جديد، وكان الهدف الأول للألمان أن يحطموا القوات البريطانية، وفي الوقت نفسه أخذوا يكتسحون الحدود.

كان الألمان يطمعون في نصر سريع وحاسم ضد أعدائهم، ولكنهم فشلوا في تحقيق ذلك الأمل في الجبهة الغربية، فإن مقاومة بلجيكا عطلت تقدم القوات الألمانية، فلم يستطيعوا الوصول إلى الحدود الفرنسية قبل أسابيع عدة، ثم انقضت معركة "المارن" باريس، وأصبحت الحرب في الجبهة الغربية "حرب حصار" في الخنادق، حيث لزمّت قوات الحلفاء والقوات الألمانية خنادقها الممتدة مئات الأميال عبر فرنسا، ولكن بقيت الميزة للألمان، الذين كانوا حينذاك يحكمون جانباً كبيراً من الأراضي البلجيكية الفرنسية، ويتخذون قواعدهم العسكرية على بُعد خمسة وخمسين ميلاً من باريس، وعلى بعد خمسة وستين ميلاً من الموانئ البريطانية.

لما في الجبهة الشرقية فقد استطاع القائد الألماني فون هيندنبيرغ أن يحرز نصراً سريعاً حاسماً على الروس في موقعة تانبرغ (١٦ - ٢١ أغسطس/آب)، وهي الموقعة التي خلصت الأراضي الألمانية من الغزو الروسي، وأنقذت بروسيا الشرقية من الاحتلال، وكانت ضربة لآمال الحلفاء الذين كانوا يعولون على الضغط الروسي في الشرق لإنقاذ الموقف في الغرب، وقد تحطم الجيش الروسي ووقع الكثيرون منه في الأسر، على أن الروس رغم هزيمتهم أمام الألمان في تانبرغ استطاعوا أن ينجحوا في جبهة أخرى في نفس الوقت أمام النمساويين في غاليسيا حتى استطاعوا الاستيلاء عليها في نهاية العام.

كان النمساويون قد فشلوا أيضاً في هجومهم على صربيا، إذ بعد أن نجحوا - بعد معاناة - في احتلال عاصمتها بلغراد في الثاني من ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٤، وتعرضوا لهجوم قادم به الصربيون وقوات الجبل الأسود، اضطروا إلى الجلاء، ولم يبقوا في بلغراد سوى أسبوعين.

وقد دخلت تركيا الحرب في صف ألمانيا في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٤، ولذلك انتقلت بريطانيا لنفسها بأن ضمت قبرص، وأعلنت للحماية على مصر، وسارت بلغاريا على نهج تركيا، فانضمت إلى الألمان في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٥، بينما

إيطاليا تتخلى عن تحالفها الأول مع دول الوسط في الحلف الثلاثي، وتتضم إلى الحلفاء في مايو/ أيار ١٩١٥، وفي هذا العام جرت حملة الدردنيل عندما حاول الحلفاء التتحم المضائق لإنشاء ممر من البحر الأبيض إلى البحر الأسود مع الاستيلاء على القسطنطينية لإتقلا روسيا من عزلتها، وتمكين الدول الغربية من الاتصال بها حتى يمكن تطويق ألمانيا من كل مكان، وإن تلك الحملة لو نجحت فإنها ستعزل تركيا عن حلفائها، وتقضي على مشروع سكة حديد برلين بغداد، وأخيراً فإن أي نصر حاسم يحرزه الحلفاء في تلك المنطقة سيكون له أثر كبير في انضمام اليونان ورومانيا وبلغاريا إلى صف الحلفاء.

إلا أن هذه الحملة لم تتفح، وانهزم الأسطول الفرنسي البريطاني هناك في الثامن عشر من مارس/ آذار ١٩١٥، ولما لل حملة البرية التي كان المفروض فيها أن تتحم شبه جزيرة غاليبولي، فقد فشلت في الاستيلاء على الحصن، واضطرت إلى الانسحاب النهائي في أواخر عام ١٩١٥، ولم تستطع روسيا أن تقوم بأي دور لمساعدة حلفائها كما كانوا يتوقعون^(١).

ثالثاً: إيطاليا وروسيا والموقف من الحرب:

في الوقت الذي كان الحلفاء فيه يوجهون حملتهم إلى الدردنيل، كانوا يتطلعون إلى إمكان انضمام إيطاليا إليهم، لأن ذلك يخفف الضغط عن روسيا بإشغال للقوات النمساوية في الجنوب، وفي الوقت نفسه يمكن لبعض قواتهم الاشتراك في الحملة ضد تركيا.

وكانت إيطاليا قد أعلنت حيادها عندما قامت الحرب، ولم تتضم إلى حلفائها السابقين النمسا وألمانيا؛ بحجة أن النمسا كانت هي المعتدية، ثم أخذت بعد ذلك تفكر في إمكان الاستفادة من الحلفاء الآخرين الذين وعدوها بتعويضها بضم الأجزاء التي كانت تشدها من الحدود النمساوية، والتي كانت النمسا تبني عليها تحقيق لطماعها في تلك المنطقة، وفي السادس والعشرين من إبريل/ نيسان ١٩١٥ وقعت كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا مع إيطاليا معاهدة لندن، التي وعد الحلفاء فيها إيطاليا بمنطقة الترنطينو والتيرول الجنوبي حتى ممر برنرورتريستا وشبه جزيرة استريا وشمال تلماشيا، والجزر

للمواجهة له، وميناء فالونا في لبلانيا، وجزر اللود بكانيز في بحر إيجة، وسمح لها بموجب المعاهدة أن توسع أملكها في لرتيريا والصومال، ووعدت بمنحها قرضاً تستعين به، ونصبياً من التعويضات التي تفرض على الأعداء.

وفي الثالث والعشرين من مايو/ أيار ١٩١٥ أعلنت إيطاليا للحرب على النمسا، ولكنها لم تعلنها على ألمانيا إلا بعد مضي خمسة عشر أسبوعاً، وفي الخامس من سبتمبر/ أيلول ١٩١٥ طلب إليها الحلفاء أن توقع ميثاق لندن، والذي يقيد بها ألا تعقد صلحاً منفرداً مع الأعداء، ومع كل آمال الحلفاء على الاشتراك من قبل إيطاليا في الحرب، فإنها لم تؤد لهم ما كانوا يريدون، فلم ترسل قوات للمساهمة في حملة للدردنيل، بحجة أنها في أشد الحاجة لقواتها للدفاع في الجبهة الإيطالية.

أما روسيا فقد بدأ نجمها العسكري يافل في عام ١٩١٥، إذ كانت تنقص قواتها لل ذخيرة والمؤونة والأسلحة الحديثة، وتسيطر عليها قيادة غير جيدة، بينما كانت قوات الدول الوسطى تفوقها، ولذلك دارت الدائرة على الروسوم منذ شهر مايو/ أيار من ذلك العام، فهاجمتهم القوات للنمساوية الألمانية، وما يكاد يمضي شهران حتى جلا الروس عن غاليسيا، واحتلتها للنمساويون والألمان.

وأصبحت للقوات للروسية الأخرى التي تعسكر في بولندا معرضة للهجوم من للشمال والجنوب، مما أدى بالروس إلى اللجوء عن وارشو وليفانجورود، وافتتح الطريق أمام للقوات النمساوية الألمانية، فاحتلوا كوفنو وبريست لتوانسك ولدنا، وهكذا طردت للقوات للروسية من غاليسيا، وخسرت جانباً من لتوانيا، وبذلك خسرت روسيا مناطق زراعية وصناعية غنية، وأثر ذلك على قدراتها الدفاعية.

عبرت للقوات للنمساوية والألمانية في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩١٥ نهر الدانوب للهجوم من جديد على صربيا، واشتركت القوات للبلغارية في ذلك الهجوم، فاخترقت الحدود للشرقية للصربية، ولم يمض شهران حتى كانت بلغراد ومعظم المدن للصربية للمهمة بيد الأعداء، وهرب الجيش للصربي إلى الجبل الأسود وإلى لبلانيا، وفي فبراير/ شباط ١٩١٦ هاجمت للقوات للبلغارية والنمساوية شمال لبلانيا، واستولت على عاصمتها نيرفنا، وعلى ميناء درلزو، واضطرت للقوات

الصربية أن تلجأ إلى جزيرة كوفو اليونانية لتحتمي بها من المدفعية البحرية للحلفاء. وحدثت معركة كان عام ١٩١٦: الأولى دارت حول حصن فردان، حيث قاوم الفرنسيون الألمان مقاومة عنيفة عندما حاولوا الاستيلاء عليه، وأعقبها معركة السوم التي دبرها الجنرال دوجلاس هيچ البريطاني ضد القوات الألمانية التي كانت تحت قيادة هينبرغ، وكان الغرض من تلك الحملة تخفيف الضغط على فردان، وقد نجحت معركة السوم التي انتصر فيها الحلفاء وكسبوا أراضي واسعة.

وكان عام ١٩١٧ مفعماً بالكوارث بالنسبة للحلفاء، ففي الغرب استطاع النمساويون أن يوقعوا بالإيطاليين هزيمة ساحقة في كابورنو في البندقية في أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩١٧، وأمرعت القوات الفرنسية والبريطانية لنجدة إيطاليا.

لما بالنسبة لروسيا، فقد قامت الثورة البلشفية في روسيا في نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩١٧، ووضعت حداً لاشتراك روسيا في الحرب، إذ نجح البلشفيك في الاستيلاء على السلطة، وعقدوا هدنة مع ألمانيا، وفتحوا باب مفاوضات الصلح في شهر ديسمبر/ كانون الأول، وقد رفض تروتسكي وزير الخارجية الروسية أن يوقع معاهدة "بريست ليتوفسك"، واستقال من منصبه، ولكن لينين تغلب على معارضته، ووُقعت المعاهدة في مارس/ آذار عام ١٩١٨، وقد فرضت المعاهدة شروطاً مجحفة على روسيا، إذ تخلت بموجبها عن سيادتها على بولندا والولايات البلطيقية، مثل فنلندا ولاتفيا ولاتفيا وليتوانيا، واعترفت باستقلال أوكرانيا، وهي الجزء الجنوبي من روسيا، وهكذا خرجت روسيا من الحرب^(٣).

حملة الغواصات:

بدأت ألمانيا في عام ١٩١٥ تستخدم حرب الغواصات لتحطيم تجارة الحلفاء، والسفن المحايدة التي تحمل للبضائع لهم، وقد ارتكب الألمان باستعمالها في ذلك الوقت خطأ كبيراً، لأن غواصاتهم كانت من القلة بحيث لم تستطع إحراز النجاح الكبير، وكانت نذيراً للحلفاء باتخاذ الإجراءات الحربية والبحرية للمضادة، وقد أغرقت للغواصات الألمانية الباخرة لوزيتانيا في إبريل/ نيسان ١٩١٥، وهي من أكبر البواخر، وغرق معها حوالي ألف راكب، وكان منهم أكثر من مائة أمريكي، وقد ثارت حكومة

للولايات المتحدة من أجل تلك الكارثة، وطلبت إلى ألمانيا ألا تعود إلى التعرض للسفن المحايدة، وأخذ يقل نشاط الغواصات الألمانية خلال عام ١٩١٦.

إلا أنه في عام ١٩١٧ أكمل الألمان إنشاء ثلاثمائة غواصة، وأعلنوا أنهم لن يميزوا بين السفن المعادية أو المحايدة في البحار التي تحيط بالجزر للبريطانية، وكانوا يدركون أن هذا القرار قد يجر أمريكا إلى الحرب، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يعتقدون أن الأمريكيين لم يكن لديهم جيش يعتد به في ذلك الوقت، واعتقد الألمان أن باستطاعتهم إجبار بريطانيا على التسليم قبل أن تستطيع أمريكا للقيام بدور مهم في ذلك.

وقد نجح الألمان في هذا الاتجاه، ففي شهر إبريل/ نيسان ١٩١٧ لحرز الألمان نجاحاً عظيماً، ففي فبراير/ شباط أغرقوا سفناً كبيرة، وأغرقوا مثلها في مارس/ آذار، ثم تضاعفت الأعداد في شهر إبريل/ نيسان، وكانت تفرق سفينة من أربعة سفن بريطانية، وكانت المجاعة على أبواب الإنجليز في ظل سياسة الحصار الاقتصادي للألمان، إلا أن الموقف تغير، وأخذت للخسارة تقل تدريجياً عندما نجح الحلفاء في تحطيم عدد كبير من التعويضات، حيث كانت السفن التجارية تبحر كلها بحرسها عدد من المدمرات الحربية التي توجهها المخابرات البريطانية البحرية، وعمل الحلفاء في الوقت نفسه على الانتهاء من تعويض السفن للغارقة ببناء غيرها، وألغى الإنجليز الموقف من خلال تحسين الترميم، وتوسيع زراعة القمح، وزراعة كميات كبيرة من البطاطا.

رابعاً: دخول الولايات المتحدة الحرب:

عندما بدأت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، كان الأمريكيون مصممين على عدم التدخل فيها، فقد كانوا يعتقدون مذهب "مونرو" في عزلة أمريكا في سياستها الخارجية عن أوروبا، وعدم السماح للدول الأوروبية بأن تتدخل في الشؤون الأمريكية، وأخذ هذا الأمر يتراجع مع حقيقة أن للعالم بدأ يتغير، ولم يسع الأمريكيان إلا أن يعملوا بطريقة غير مباشرة منذ بداية الحرب على معلونة الإنجليز على كسب المعركة، فقد كانوا يبيعون لهم كميات كبيرة من المواد الخام والأخيرة، ولما حاولت ألمانيا وقف هذه

للتجارة بواسطة غواصاتها، كانت مضطرة إلى التعرض للتجارة الأمريكية ذاتها، فأعلنت أمريكا للحرب على ألمانيا؛ لأنها لم تحتمل تعريض الأرواح الأمريكية للأخطار، وتعريض التجارة الأمريكية للتنمير.

وقد بدأت تحركها بقطع العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا، وفي السادس من إبريل/ نيسان أعلنت عليها للحرب، وتقرر وضع مولد البلاد من الرجال والمواد الخام والمصانع تحت تصرف الحلفاء، ولأخذ بعض الأمريكيين يعتقدون أن مصلحة أمريكا في دخول البعض، وعلى رأسهم الرئيس وودرو ولسن، وأن مذهب مونرو لم يعد صالحاً في الظروف الراهنة، وأن أوروبا الجديدة التي ستتشأ بعد تلك الحرب يجب أن تختلف كليةً عن أوروبا القديمة، وكان هذا رأي هذا الفريق من الأمريكيين أن تنشأ عصبة الأمم، ولذا على أمريكا أن تستعد لكي تلعب دوراً رئيساً في الحفاظ على السلام العالمي، في حين دعا أصحاب فكرة الحرب في العالم، أن تدخل أمريكا في الحرب لتنتهي هذه الحرب، وأعلن ولسن أن أمريكا تهدف إلى إنقاذ العالم من أجل الديمقراطية.

في هذه الأثناء استعنت الحكومة الأمريكية للعمل على التعبئة للصناعة والزراعة، وأبحرت من الموانئ الأمريكية للقوافل البحرية الضخمة الواحدة بعد الأخرى، حتى أنه في أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩١٨، كان عدد للجيش الأمريكي في فرنسا حوالي (١,٧٥٠,٠٠٠) جندي.

وأكد الرئيس ولسن منذ البداية أن الحرب ليست موجهة ضد الشعب الألماني، ولكنها موجهة ضد حكومته الاستبدادية، وفي الرسالة التي وجهها إلى الكونغرس في يناير/ كانون الثاني ١٩١٨ عرض المبادئ الأربعة عشر الشهيرة كأساس للسلام عادل، واشتملت على نبيذ المعاهدات السرية الدولية، وضمنان حرية الملاحة في البحار، وإزالة الحواجز الاقتصادية بين الأمم، وإيجاد مساواة تجارية بين الأمم المحبة للسلام، وخفض السلاح، وتنظيم المطالبات الاستعمارية وفقاً لمصالح سكان المستعمرات ومطالب الدول العظمى، والجلء عن بلجيكا وفرنسا، وإعادة الأكراس واللورين إلى فرنسا، وتعديل حدود إيطاليا بما يتفق مع القومية الإيطالية، ومنح شعوب الإمبراطورية النمساوية حق

تقرير المصير، والجلاء عن أراضي رومانيا وصربيا والجبل الأسود، والسماح للصرب بالوصول إلى شاطئ البحر الإديريتيك، وحل مشكلات البلقان على أساس القوميات، وفتح الحكم الذاتي لممتلكات الإمبراطورية العثمانية، وحق تقرير المصير لشعوب تلك الإمبراطورية، وحرية المرور في المضائق، وإنشاء دولة بولندا مع إيجاد ممر لها على البحر.

وجعل ولسن المبادئ الأربعة عشر حجر الزاوية في السلام، وهو تكوين عصبية الأمم لتوفير الضمانات المتبادلة لتحقيق الاستقلال السياسي والسلامة الإقليمية لكل من الدول الكبيرة والصغيرة على السواء.

ولم تقم للقوات الأمريكية بدور هام في الحرب حتى نهايتها عام ١٩١٨، ولكن مجرد إعلان أمريكا للحرب على ألمانيا كانت له نتائج مهمة، وهي: ارتفاع الروح المعنوية بين الحلفاء، واعتقدوا أنهم إذا استطاعوا للصمود فإنهم سوف يتلقون الإمدادات الأمريكية، واستفاد الحلفاء من الإمدادات المالية الأمريكية، فإن قوة الحلفاء للشرافية كانت تتضاءل، ولكن دخول أمريكا الحرب فتح الطريق أمام القروض الأمريكية، أي أنهم بالأموال الأمريكية التي يقترضونها من الحكومة يستطيعون أن يدفعوا للمؤسسات الأمريكية التي يستوردون منها ما يريدون، ثم إحكام الحصار على ألمانيا؛ لأن الولايات المتحدة كانت تنزع قبل دخولها للحرب فكرة حق للدولة المحايدة للمتاجرة مع ألمانيا، ولذلك فإن الإنجليز يضطرون إلى إخلاء سبيل بعض السفن المحايدة للذهاب إلى ألمانيا، أما بعد دخول الولايات المتحدة الحرب، فلم تعد تهتم باحترام حياد تلك السفن، وبذلك استطاع الحلفاء تضيق الحصار على ألمانيا، مما دعا البعض إلى القول بأن ذلك الحصار كان السبب الأساسي في تحطيم ألمانيا في نهاية عام ١٩١٨^(١).

خامساً: الجبهات الحربية الأخرى

في مطلع عام ١٩١٧ كانت لا تزال لدول الوسط للكفة المنتصرة، فقد كانت في قبضتها معظم بلجيكا وشمال فرنسا وصربيا والجبل الأسود ورومانيا وبولندا، حيث كانت كلها تحت الحكم الألماني، وكانت روسيا منهزمة ومشغولة بالثقةقر لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وبقي أمام الدول الغربية أمل وحيد هو قرار الولايات المتحدة بدخول

الحرب في صف الحلفاء في إبريل/ نيسان عام ١٩١٧.

وقد بدأت العمليات الحربية في ذلك العام بقيام القوات الفرنسية - وعلى رأسها قائدها الجديد نيفل - بالهجوم الكبير الذي اشتركت فيه القوات الإنجليزية، ورأى القائدان الألمانيان هيندنبيرغ ولودندورف أن تقوم القوات الألمانية بحركة تراجع في وسط الخط الألماني إلى مواقع سابقة، وسمي الخط الجديد الذي التزمته القوات الألمانية بخط هيندنبيرغ، وقد أعطت تلك الحركة الحربية ميزة كبيرة للألمان؛ إذ احتلوا هذه المرة مواقع حصينة كاملة الاستعدادات متصلة بقواعد ألمانية رئيسة، وإن الألمان أثناء تراجعهم قد نسفوا البلاد التي غادروها، وكان ذلك مدعاة إلى تحطيم الخطط التي وضعها نيفل، ومع ذلك فقد صمم على أن يهجم في جبهة تمتد من سولسون إلى ديمس، لفشل الهجوم فضلاً نربحاً تبعته سلسلة من حركات العصفوان في للجيش الفرنسي، وكان من جراء ذلك طرد نيفل من القيادة، وتعيين الجنرال "بئان".

وحاولت القوات البريطانية تحت قيادة السير دوجلاس هيچ مواصلة الهجوم، وكان من أغراضها التخفيف عن الفرنسيين، وتم لها انتصاران كبيران: الاستيلاء على خط فيمي من قبل الكنديين، والاستيلاء على خط مسين.

وفي نهاية الخريف وقعت معركة "كمبري" التي يطلق عليها موقعة الدبابات، لقد هاجمت حوالي (٣٨١) دبابة بريطانية الألمان دون سابق إنذار، وحدث ذلك الهجوم في جبهة من ستة أميال، ونجح الحلفاء في اختراق الخنادق الألمانية، وسعد الإنكليز بذلك للنصر على الرغم من أنه لم يكن حاسماً.

عندما وجد الألمان أنهم لم يستطيعوا بعد انتصارهم على روسيا أن يواصلوا تلك الانتصارات على الفرنسيين والإنكليز عمدوا إلى محاولة ضرب الإيطاليين، فقامت قوات معظمها نمساوية تؤيدها الإمدادات الألمانية، وتوجهها قيادة ألمانية بالهجوم على القوات الإيطالية في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٧، فطارتها وهزمتها في موقعة كابورتو، وأصبح اللطيان مهدين باختراق الاعداء لبلادهم حتى وصلوا إلى البندقية، ولكن لتقتل الأمطار القوية إيطاليا من الخطر، ووقفت القوات النمساوية في الفلاندرز

لا تستطيع المضي في تلك العملية الحربية، بعد أن أغرقت الأمطار الأرضي أمامهم، وفاضت الأنهر من الألب إلى الألبانياتوك، ونسف الإيطاليون الجسور لثناء تراجعهم^(٩).
أما في مصر والعراق، فقد حقق الحلفاء في العراق ومصر نجاحاً كبيراً امتد إلى منطقة الشرق الأوسط، وخاصة مع الأتراك في العراق، مع وصول الإمدادات البريطانية عن طريق الخليج العربي من الهند، ومن إنكلترا، ووضعت للقوات البريطانية تحت قيادة الجنرال السير (ستافلي مود)، وبدأت القوات سيرها في ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٦، واستولى مود على العمارة، ثم بغداد، وقضوا على المقاومة للتركية، والأمال الألمانية في التوسع نحو الشرق.

ثم أعلن شريف مكة الحسين بن علي الثورة على الأتراك في الحجاز عام ١٩١١، واعترفت دول الحلفاء له بالاستقلال، وساعد الإنكليز العرب ضد الأتراك، وتقدم الجنرال للنبي نحو فلسطين، واستولى على بئر السبع ثم غزة، واتجه شمالاً إلى يافا، ثم دخل بيت المقدس.

في مطلع عام ١٩١٨ كانت ألمانيا على إدراك أنها رغم انتصاراتها في العام الماضي، إلا أن الأوضاع بدأت تتغير، وإن الهزيمة قادمة، إذا لم تسارع إلى تحقيق النصر للحازم والسريع، فقد فضلت حرب الغواصات، وبدأت للقوات الأمريكية تزداد عدداً ومساهمة في دعم الحلفاء، بعد أن أصبح واضحاً أن الإمبراطورية التركية أخذة في الانهيار، والموقف في الإمبراطورية النمساوية كان في أشد حالات التدهور والتهديد الداخلي.

أما في ألمانيا فإن الوضع كان خطيراً بسبب الحصار الطويل، والقلق والتوتر، ولعب لليهود دوراً خطيراً في هذا الشأن، وظهر عصيان بين بحارة الأسطول الألماني المعطل منذ لواخر عام ١٩١٧. كل ذلك جعل الألمان يعتقدون أن الجيش الألماني إذا لم يسارع في توجيه ضربة حاسمة تنتهي الحرب قبل اشتراك للقوات الأمريكية بكل استعدادها، فإن الهزيمة سوف تحيق بدول الوسط لا سيما أن الفرصة سانحة بعد تسليم روسيا وخروجها من الحرب، ونقل الجيش الألماني الذي كان يحارب في الجبهة الروسية إلى الميدان الغربي، وبذلك تصبح للقوات الألمانية لها الغالبية العددية في

الميدان، وخاصة ان عدداً كبيراً من الجنود البريطانيين كانوا مرابطين في سالونيك ومصر وفلسطين والعراق، ورأى الألمان ان يجربوا حظهم في للفرصة الأخيرة. وقام الألمان بثلاث محاولات في الحادي والعشرين من مارس/ آذار جنوب الخط البريطاني في فرنسا قرب سان كونتن، وقد انهزم الفرنسيون هناك، وخسروا كل ما كسبوه في موقعة الصوم، والخسارة بالأرواح والعنلاد، وأصبح للخط الحديدي إلى أميان مهدداً، ولو نجح الألمان في الاستيلاء عليه لانفصلت للجيش الفرنسية عن البريطانية، ولكن الإنكليز أخذوا يعوضون ذلك بإرسال الإمدادات من الشبان للذين لم يكتمل تدريبهم، وكذلك بالكميات الكبيرة من الذخيرة التي كانت تصل إلى الميدان من بريطانيا.

أما الهجوم الألماني فقد وجهه الألمان في إبريل/ نيسان عام ١٩١٨ ضد نهاية الخط البريطاني في الشمال جنوب (ويبر)، وهو الهجوم الذي كاد ينفذ إلى الساحل، ويحرم البريطانيين من مواصلاتهم من خلال (كاليه) و(بولوني)، ووجهوا للهجوم الثالث ضد الفرنسيين في شمباني في السابع عشر من مايو/ أيار، وهو الهجوم الذي دفع الألمان إلى المارن عند (ثيري) لربعين ميلاً من باريس، وكاد يشطر الخط الفرنسي إلى نصفين، مما يؤدي إلى سقوط باريس.

ولم تنجح الحملات الثلاث، فقد وصلت للقوات الألمانية إلى مواقع مهمة من العاصمة الفرنسية، ولكن الألمان كانوا قد لوهنوا قواتهم وأجهدوا جنودهم، في حين لم تكن لهم قوات كافية احتياطية.

وهنا جاء دور الحلفاء الذين وحدوا جهودهم في توحيد القيادة، ووقفوا إلى اختيار للقائد الفرنسي للمارشال فوش، وصرعان ما حدث تغيير حاسم في للموقف من يوليو/ تموز إلى نوفمبر/ تشرين الثاني بإحراز سلسلة اتصالات لا في فرنسا وحدها، بل في إيطاليا ومقدونيا وفلسطين والعراق.

وبدا الألمان يخسرون في الجبهات، وفشلوا في هجماتهم لان طبيعة الحرب كانت تتطلب منهم عند تقدمهم في أرض الأعداء ان يظلوا على اتصال محصن بالطرق

والسكك الحديدية التي تؤدي إلى مراكز الإمداد التي تزودهم بالذخيرة والطعام، لأن الجيش يحتاج إلى معداته، وبدونها لا تكون له قيمة.

وقد قام الألمان بهجوم رابع على الفرنسيين في يوليو/ تموز، وفشل ذلك الهجوم، وتمكن المارشال فوش من القيام بهجوم مضاد، ثم قام الإنكليز بهجوم أمام لميان في الثامن من أغسطس/ آب، وكان ذلك الهجوم مفاجئاً، حتى أن للقائد الألماني لودندرف وصفه باليوم الأسود في تاريخ الحرب، وتلت ذلك سلسلة انتصارات للحلفاء في عدة ميادين، ولم يعطوا الألمان الفرصة لمعاودة تنظيم صفوفهم، فكان التقهقر العام والمتواصل.

لما في الميادين الأخرى، فقد بدأ لتتصار الحلفاء بتواصل، ففي سالونيك قرر الإنكليز والفرنسيون والصربيون والإيطاليون الهجوم على البلغار الذين انهزموا وسلموا مخالفين لأمر القائد الألماني الذي بقود قواتهم.

وفي نهاية سبتمبر/ أيلول علم لودندرف بتسليم بلغاريا وأن الحلفاء اخترقوا خط هندنبيرغ، وأدرك أن ألمانيا سوف تخسر الحرب، ولذلك نصح الحكومة الألمانية أن تعقد صلحاً عاجلاً مع الحلفاء بشروط يمكن قبولها، واتصلت الحكومة الألمانية بالرئيس ولسن وطلبت إليه أن يضع شروطاً للهدنة بين ألمانيا والحلفاء، وبذلك بدأت المفاوضات، ثم أعلنت الهدنة في الحادي عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني على أن القتال ظل مستمراً أثناء المفاوضات، ولأخذ الألمان يتراجعون إلى بلجيكا في الوقت الذي عرفوا بهزائم حلفائهم في جبهات أخرى، فقد انهزم البلغار، واضطروا إلى طلب الهدنة في نهاية سبتمبر/ أيلول ١٩١٨، وخسر الأتراك في العراق وفلسطين، وطلبت تركيا للهدنة، ووقعتها في أكتوبر/ تشرين الأول، وانهارت القوات للمساوية المجرية حتى هزمها الإيطاليون في معركة فيتوريو فينتو، وبلغ الاحتلال بالمملكة الثنائية إلى درجة انفصال النمسا عن المجر، وكونت كل منهما حكومة قائمة بذاتها تطلب الهدنة لنفسها، وهرب الإمبراطور النمساوي شارل من بلاده.

وحاولت ألمانيا أن تقبل التسوية مع الحلفاء على أساس شروط ولسن الأربعة عشر، إلا أن الأخير رفض ذلك؛ لأنه يعتقد أن الحلفاء لا يسعهم الاتفاق مع حكام

مستبدين وعسكريين، وللذين وجهوا سياسة ألمانيا وجهة عسكرية معادية، وكانوا مسؤولين عن قيام الحرب، وإن الهدنة يجب أن تتم بحضور فوش وبالشروط العسكرية التي يملئها.

ولم يبقَ أمام الإمبراطور وليام الثاني إلا التنازل عن العرش، وهرب إلى هولندا، واستقال للقائد الألماني لودندرف، وتبعه عدد كبير من الحكام الألمان^(١). وتولت الحكم وزارة تميل أكثر نحو الديمقراطية يرأسها المستشار إيبرت Ebert، فأرسل مبعوثين عن الحكومة الألمانية إلى المارشال فوش ليوقعوا الهدنة، وتم ذلك في الحادي والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٨.

وبموجب هذه الهدنة أُجبرت ألمانيا على اللجوء من الألاس من اللورين والأراضي التي احتلتها أثناء الحرب، وهي فرنسا وبلجيكا والبلقان وبولندا وغرب روسيا، وسحبت قواتها من حدودها غرب الراين، وعلى تسليم الطائرات والذخائر والأسلحة والأسطول والغواصات، وإلغاء معاهدي برست ليتوفك وبوخارست للتين عقدتهما مع روسيا ورومانيا.

وانتهت بذلك الحرب العالمية الأولى بعد أربع سنوات وخمسة عشر أسبوعاً، وشاركت فيها ثلاثون دولة، وخمسة وستون مليون عسكري، وقُتل ثمانية ملايين ونصف المليون، وخسر العالم ملايين الدولارات، وتقرر على أثرها أن يجتمع ساسة العالم من أجل تسوية مشاكل العالم، وذلك في فرساي في فرنسا في ظل تسويات الصلح عام ١٩١٩^(٢).

الفصل الثاني

مؤتمر الصلح في

فرساي عام ١٩١٩

أولاً: تشكيلات المؤتمر

عندما انتهت للحرب العالمية الأولى وأعلنت الهدنة بعد شهرين من توقف القتال، عقدت اجتماعات أولية، وتم التوصل إلى عقد مؤتمر للصلح، وذلك لحاجة الدولة إلى بعض الوقت لاختيار ممثليها في المؤتمر، ومن ثم فإن ممثلي أكبر دولتين من دول الحلفاء، لم يكن في وسعهما للوصول إلى مقر للمؤتمر على الفور، فالرئيس الأمريكي ولمن لم يكن يستطيع أن يصل قبل منتصف شهر ديسمبر/ كانون الأول ولويد جورج رئيس وزراء بريطانيا لم يكن يستطيع فرض نفسه رئيساً لوفد بلاده قبل أن يستقني الشعب للبريطاني، وذلك بإجراء انتخابات تبين ثقة الأمة في حزب الأحرار الذي يرأسه، وقد أخرجته عملية الانتخابات عن الحضور إلى المؤتمر لعدة أسابيع.

واتخذ الحلفاء باريس مقراً للمؤتمر، اعترافاً منهم بدور فرنسا أثناء الحرب، وما واجهته من مشاكل وإزمات، وبدأ ممثلو الدول يصلون إلى باريس في مطلع عام ١٩١٩، وقد حرّم الحلفاء روسيا من إرسال مندوبين عنها في المؤتمر، فقد سبق أن عقدت صلحاً منفرداً مع العدو في مارس/ آذار ١٩١٨، ثم بسبب سوء العلاقات مع حلفائها اثر قيام الثورة البلشفية في روسيا.

والواقع أن مؤتمر الصلح لم ينعقد للتفاوض مع الأعداء على شروط الصلح، ولكن لفرض الشروط عليهم، وهي الشروط التي تم الاتفاق عليها في غياب هؤلاء الأعداء، إذ لم يكن من حق المهزوم أن يشارك في وضع ترتيبات ما بعد الحرب سواء لنفسه وحاضره ومستقبله أو للطرف الآخر المنتصر.

واجتمع ممثلو الدول المشاركة في المؤتمر، وهي الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا في الثاني عشر من يناير/ كانون الثاني ١٩١٩ في اجتماع غير رسمي يقرر فيه أن تمثل في المؤتمر كل دولة أعلنت الحرب على ألمانيا لو قطعت علاقاتها معها رسمياً، وإن يتراوح عدد ممثلي كل دولة بين (١-٥) أعضاء، ولتقتصر ميزة الخمس للكبار على هذا الشرط، وهي الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان، أما الدول المظلومة فلم تمثل في المؤتمر إلا حين دعيت لتسمع بالحكم عليها. وهكذا لم تشارك في المؤتمر اشتراكاً فعلياً إلا الدول الكبرى المتحالفة، وهي

بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا واليابان، أما الدول الصغيرة التي سمح لممثليها بالحضور مندوب لو أكثر، وهي التي اكتمت في نهاية الحرب على إعلانها ضد ألمانيا كالصين وسيام ومعظم جمهوريات أمريكا الجنوبية والوسطى والشعوب الخاضعة لألمانيا والدول العثمانية، ثم التقت عليها، وعدها المؤتمر شعباً محاربة، ولذلك انضم إلى ممثلي الدول في المؤتمر مندوبون عن بولندة وتشكوسلوفاكيا ويوغسلافيا وشعوب بحر البلطيق والدول العربية وبعض اليهود الذين وعدوا بأن يكون لهم وطن قومي في فلسطين، ومثلت كل هذه الشعوب في المؤتمر، ولكن الذين وقعوا الصلح هم مندوبو الدول الثلاث الأولى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة.

وقد أدى حرمان الدول المغلوبة والدول المحايدة وروسيا من الاشتراك في أعمال المؤتمر، إلى الانتقاص من صفته الدولية، وجعله أداة عقاب ولانتقام، وغلبت هذه الصفة على أعمال المؤتمر عقب الحرب مباشرة، وكانت مصدراً للمشكلات التي نشأت في العالم بين الحربين العالميتين.

كانت السلطة في يد مجلس يتكون من عشرة مندوبين يمثل كل اثنين منهم دولة من الدول الخمس الكبرى، ثم تقرر أن تصدر القرارات للرئيسية من مندوبي الدول الخمس الكبرى لضمان سرعة صدورها وسريتها، ثم انسحبت اليابان من عضوية المؤتمر لعدم أهمية المعائل الأوروبية بالنسبة لها، وأصبحت الكلمة العليا في ذلك الوقت بيد مجموعة من الرجال، هم: جورج كليمنصو رئيس وزراء فرنسا، ورئيس المؤتمر، وبلغ عمره ثمانين من العمر، وقد كان أثناء الحرب للفرنسية - البروسية ١٨٧٠-١٨٧١ محافظاً لأحد أحياء باريس، وظل يتقلب في الوظائف حتى أصبح رئيساً للوزارة خلال السنة الأخيرة من الحرب، وكانت عقيلته وليدة الظروف التي كانت تسود أوروبا طوال حياته، وكانت تتراءى أمامه مأساة فرنسا بعد الهزيمة في حرب السبعين والتي انتزعت منها أراضٍ كبيرة، ولذلك كان هم كليمنصو الانتقام من ألمانيا، وأن يقضي على اقتصادها وجيشها حتى لا تعود إلى تهديد فرنسا، وقد كان ولسن العقل المحرك للمؤتمر، وكان كليمنصو متمكناً من إدارة المؤتمر ورئاسته لكونه خبيراً في الشؤون الأوروبية، ويجيد اللغات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، ولذلك استطاع أن

يسيطر على المؤتمر، ويقوده إلى ما يمكن ان يمثل مصالح فرنسا، ويحتفظ بالزعامة لها في أوروبا، وان يستغل مشاعر العداء العالمية نحو ألمانيا في ذلك الوقت، ويحقق لبلاده ما كانت ترجوه من سلام دائم، واسترجاع ما انتزعت منها ألمانيا في حرب السبعين.

لما الرئيس الأمريكي وودرو ولسن، صاحب المبادئ الأربعة عشر التي تهدف لإرساء قواعد لعالم جديد على أسس للعدل والسلام، فقد جنب بلاده شرور الحرب، وكانت تسيطر على ولسن فكرتان: حق تقرير المصير، والتعاون الدولي، وهي فكرة تهدف إلى إيجاد تعاون دولي منظم بين الأمم الحرة لتسوية المنازعات بالطرق السلمية ومنع للحروب، واشتملت كل معاهدة من معاهدات الصلح على ميثاق عصبة الأمم^(٨).

إلا انه لم يكن على إمام بالمشكلات الأوروبية وتعقيداتها، ولم يستطع ان يدافع عن مبادئه الأربعة عشر، نظراً لضعف دبلوماسيته، ولم يقنع الدول الاستعمارية بحق الشعوب في تقرير مصيرها.

أما لويد جورج الرجل الثالث في المؤتمر - وهو رئيس وزراء بريطانيا - وكان ذكياً ومرناً، فقد رغب في تخفيض قوة ألمانيا للحربية على شرط ان لا يؤدي هذا التخفيض إلى تفوق فرنسا للحربي في أوروبا، ولذلك حاول ان ينص على تجريد ألمانيا الإجباري من السلاح وتجريد الدول الأخرى من السلاح وعن رغبة واختيار، وكانت بريطانيا تظهر على لسان جورج انها ترى ان التسوية يجب ان تملأها روح الانتقام، ولكن الرأي العام البريطاني ثار عليه عندما طالب بتخفيض التعويضات التي قرر الحلفاء فرضها على ألمانيا، إذ وصلته برفقة من (٣٧٠) نائباً من أعضاء مجلس العموم يحتجون عليه وينكرونه بوعوده للناخبين سابقاً.

أما لوراندو، فهو شخصية المندوب الإيطالي، ووجه اهتمامه نحو اكتساب أكثر ما يمكن كسبه من الأراضي للنمساوية في شرقي بحر الادرياتي، وتحمل في سبيل للوصول إلى هذا الهدف هجوماً شديداً من ولسن ومن كليمنصو إلى ان ضم للتيرول النمساوي إلى إيطاليا، ثم ميناء تريستا وما جاورها من ساحل ميناء فيوم، وهو الميناء الذي استولت عليه حملة إيطالية بالقوة دون رغبة في مؤتمر الصلح، على ان إيطاليا كانت تقول ان مطالبها لم تكن على جانب العناية في المؤتمر، وانها ضحية لمعاهدات الصلح.

وَحُرِّمَتْ ثَلَاثُ دُولٍ كَبْرَى مِنَ الْإِشْتِرَاكِ فِي الْمَوْثَرِ، وَهِيَ رُوسِيَا وَالنَّمْسَا
وَالْمَجْرُ وَالْأَمَانِيَا، حَيْثُ انْسَحَبَتْ رُوسِيَا مِنَ الْحَرْبِ، وَتَمَّ التَّسْلِيمُ لِأَلْمَانِيَا قَبْلَ الْحَرْبِ بِعَامٍ
وَاحِدٍ، وَظَلَّتْ مَسْرَحاً لِلنِّزَاعِ الدَّاخِلِيِّ بَيْنَ السُّلْطَةِ وَالْبُلْشَفِيكِ، وَبِذَلِكَ اجْتَمَعَ الْمَوْثَرُونَ
فِي أَجْوَاءِ الْجُمُعِ لِلْحَصُولِ عَلَى أَكْبَرِ رَقْعَةٍ مِنْ أَرَاضِي الْمُسْتَعْمَرَاتِ، وَكَسَبِ
التَّعْوِضَاتِ، وَالْخَوْفِ مِنَ الْبُلْشَفِيَّةِ وَالشُّبُوعِيَّةِ، فَكَانَ لِلصَّلَاحِ قَدْ وَضَعَهُ وَصَاغَهُ
لِلْمُنْتَصِرِينَ، وَفَرَضُوا لِلشُّرُوطِ عَلَى الدُّوَلِ الْمُهْزَمَةِ.

ثَقِيًّا: مَعَاهِدَةُ فَرَسَايَ مَعَ الْاَلْمَانِيَا

تَعَدَّ مَعَاهِدَةُ فَرَسَايَ الَّتِي وَضَعَهَا الْحَلْفَاءُ عَلَى الْأَمَانِيَا مِنْ أَهَمِّ تَسْوِيَّاتِ مَوْثَرِ
الصَّلَاحِ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْحَرْبِ، نَظَرًا لِأَثَارِ الْخَطِيرَةِ الَّتِي تَرْتَبَتْ عَلَيْهَا، وَالشُّرُوطِ الَّتِي
وَضَعَتْهَا عَلَى الْأَمَانِ، وَالَّتِي قَبِلُوهَا عَلَى مَضَضٍ، عَلَى أَمَلٍ لِتَحْرُرِ مَنِهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ،
وَاسْتِعَادَةِ مَا سَلَبَهُ لِلْحَلْفَاءِ مِنْ أَرَاضِيهَا، وَلَمْ يَنْظُرِ الشُّعْبُ الْأَلْمَانِي إِلَى الْمَعَاهِدَةِ عَلَى
لُحْنِهَا تَسْوِيَّةً نَهَائِيَّةً، بَلْ هَدَنَ مَوْقِفَهُ عَلَى أَمَلِ الْإِنْتِقَامِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَقَدْ جَرَتْ الْجُلُوسَاتُ فِي الْمَوْثَرِ، بِحَيْثُ كَتَبَتْ شُرُوطُ الْحَلْفَاءِ، وَمُسَلَّمَتْ إِلَى
الْأَمَانِ كَوْتِيْقَةً يَجِبُ تَنْفِيْذُهَا، وَمُنِحُوا أَسْبُوعَيْنِ لِدِرَاسَةِ شُرُوطِ الْمَعَاهِدَةِ، وَقَدْ اعْتَرَضَ
الْأَمَانُ عَلَى مَعْظَمِ شُرُوطِ الصَّلَاحِ، وَلَمْ يُوْخِذْ بِرَأْيِ أَيِّ مِنْهُمْ، بِسَبَبِ الْمَعَارِضَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ
الْقَوِيَّةِ لِأَيَّةِ مَهَانَاتٍ لَوْ التَّخْفِيفِ مِنَ الشُّرُوطِ عَلَى الْأَمَانِ، فِي وَقْتِ كَانِ الرَّئِيسُ وَلَمْ يَسْ
يَمِيلُ لِإِنْتِهَاءِ الْمَسْأَلَةِ بِأَيَّةِ صُورَةٍ كَانَتْ، مِمَّا أَدَّى إِلَى تَحْطِيطِ شُرُوطِهِ الْأَرْبَعَةِ عَشَرَ.

وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْمُنْدُوبِيْنَ الْأَمَانِ لَمْ يَظْهَرُوا بِوَضُوحٍ أَمَامَ الرَّأْيِ الْعَامِ؛ خَوْفًا مِنْ
أَنْ يَنْثَرُوا لِلْكَرَاهِيَّةِ وَالْإِسْتِيَاءِ، وَكَانَ هَذَا الرَّأْيُ خَطَأً جَسِيمًا؛ لِأَنَّهُ أُعْطِيَ الْعَاسَةِ الْأَمَانِ
فَرَصَةٌ وَصَفَ مَعَاهِدَةَ فَرَسَايَ بِأَنَّهَا وَثِيْقَةٌ أَمْلَاهَا طَرَفٌ وَاحِدٌ، وَأَنَّ مُنْدُوبِيْهِمْ أَمْضَوْهَا
تَحْتَ الْوَعْدِ وَالرَّهْبَةِ مَعَ الْحَصَارِ لِلْمَفْرُوضِ عَلَى الْأَمَانِيَا لِنَتَاءِ الْحَرْبِ وَالَّذِي لَمْ يُرْفَعْ
إِلَّا بَعْدَ تَوْقِيعِ الْمَعَاهِدَةِ.

وَكَانَ أَشَدَّ شُرُوطِ مَعَاهِدَةِ فَرَسَايَ قَسْوَةً عَلَى الْأَمَانِ هُوَ لِجَبَارِهِمْ عَلَى
الْإِعْتِرَافِ بِقَرَارِ الْحَلْفَاءِ بِأَنَّ الْأَمَانِيَا هِيَ الْمَسْؤُولَةُ عَنْ انْتِدَاعِ الْحَرْبِ وَأَثَارِهَا، وَمَا
تَرْتَبُ عَلَيْهِ مِنْ فَرَضِ شُرُوطٍ تَلْذِيْبِيَّةٍ نَصَّتْ عَلَيْهَا الْمَعَاهِدَةُ، وَأَشَدُّهَا مَسْأَلَةُ التَّعْوِضَاتِ،

والقيت على ألمانيا كل تبعات وخسائر الحرب، وكان عليها أن تدفع تعويضات عن كل ما سببته من إغراق للسفن وضرب المدن، وتعويض أهالي الجنود الذين قتلوا في الحرب، وتسليم اسطول ألمانيا التجاري مع القمح والماشية والآلات وغيرها. وأعطيت لفرنسا حقوق استغلال مناجم الفحم في وادي السار لمدة (١٥) عاماً، تعويضاً لها عما لحق بمناجمها من خسائر، وأنشأت إدارة خاصة لهذا الغرض في عصبة الأمم، على أن يجري استفتاء بين سكان السار حول تقرير مصيرهم، وكانوا بالتأكيد مع الانضمام إلى بلادهم الأم لألمانيا.

ثم فرضت شروط عسكرية لسحق القوة الألمانية، واحتل الحلفاء جميع الأراضي الألمانية في غرب الراين، ومناطق في شرقه لمدة خمسة عشر عاماً، بحجة تأمين تنفيذ المعاهدة، وتبقى هذه المنطقة وما جاورها بعد ذلك لمسافة (٥٠) كم منطقة منزوعة للسلاح خالية من الحصون والجنود، ثم على ألمانيا أن تلغي قانون التجنيد الإجباري، وأن لا يزيد جيشها على (١٠٠) ألف رجل، وأن تسلم أسطولها للحلفاء، وحُرمت ألمانيا من إنشاء الغواصات، أو الاحتفاظ بقوات بحرية أو جوية مجهزة، وسلمت كل ما لديها من طائرات إلى الحلفاء^(٩).

علماً أن المؤتمرين أكدوا لألمانيا أن نزع السلاح الألماني سيكون خطوة أولى نحو نزع سلاح البقية، ولكن الحقيقة أن الألمان خدعوا، ولم يتم نزع سلاح أحد سوى الجيش الألماني.

لما بشأن الحدود الفرنسية - الألمانية، فقد رسم المؤتمر خريطة لأوروبا الجديدة على أساس تقليم أظافر ألمانيا، وأعلنوا أن هدفهم هو تغليب العامل القومي في رسم هذه الخريطة الجديدة، وعلى أساس وحدة اللغة، ورغم ذلك لم يتبعوا هذه الخطة في حالة الألزاس واللورين، حيث أعيدت إلى فرنسا بحجة أن أهلها مع الفرنسيين في مشاعرهم وعولطفهم، وإن كانوا يتكلمون باللغة الألمانية، والواقع أن فرنسا كانت تأمل أن تضم إليها جانباً من ألمانيا نفسها، حتى تصل حدودها إلى نهر الراين، وهي للحدود القديمة لبلاد الغال، والتي تؤمن فرنسا ضد عدوها للدود ألمانيا، ولم تستطع فرنسا أن تحقق هذا الحلم بسبب معارضة بريطانيا والولايات المتحدة لهذا الاقتراح، ثم كان على

ألمانيا أن تتنازل عن بومين ومالمدى لصالح بلجيكا.

أما الحدود مع بولندا، فقد كانت من أعقد المشكلات الحدود للشرقية لألمانيا، حيث تختلط على حدودها العناصر البولندية والجرمانية، على ما بينها من كراهية، وأخيراً حدثت معاهدة فرساي تلك الحدود بين ألمانيا وبولندا، ولكن تصوية تلك الحدود تركت تحت حكم بولندا (٢٠٥) مليون ألماني، وفصلت بروسيا الشرقية الألمانية عن بقية ألمانيا بمر بولندي يصل إلى الساحل، وأحيطت بروسيا الشرقية من كل نواحيها بأراض بولندية.

وأصبحت دنترغ للمدينة الألمانية الساحلية بموجب التسوية مدينة دولية حرة تحت إشراف عصبة الأمم، وعُتت منفذاً طبيعياً تطل منه بولندا على المجر، ولذلك اعطي الحق لها في الإشراف على الميناء، أما الإدارة المحلية في البلدة فظلت في يد سكانها الألمان.

ولقنطع الحلفاء من ألمانيا إقليم بوزون وجزءاً كبيراً من سيليزيا العليا، وضموه إلى بولندا، وذلك بعد إجراء استفتاء في تلك الجهات، وتبين أن من الصعوبة إرضاء كلا الطرفين، وبذلك مدت بولندا حدودها إلى ما وراء البلاد التي يتكلم سكانها الألمانية، وكانت حجة المؤتمرين في تصويغ هذا الإجراء أن تلك الأراضي التي خسرتها ألمانيا كانت في الواقع جزءاً من بولندا القديمة قبل تقسيمها في القرن الثامن عشر، لكن للواقع أن الحلفاء كانوا يهدفون إلى تقوية بولندا لتكون ضد روسيا وضد ألمانيا أيضاً.

هذا فيما خسرت ألمانيا في أوروبا، وكان عليها أن تسلم كل أملاكها فيما وراء البحار، ففي الشرق الأقصى استولت اليابان على كيبوتشو وشانتونغ في الصين، واعطيت أستراليا غانا الجديدة، وقسمت مستعمراتها في أفريقيا بين فرنسا وبريطانيا، فاستولت الأولى على مستعمرات ألمانيا في أفريقيا والمستعمرات في الكاميرون وتوجولاند، واستولت بريطانيا على أهم مستعمرات ألمانيا في أفريقيا وهي تنجانيقا.

كانت لتوقيع معاهدة فرساي مع ألمانيا آثار كبيرة في الحاضر والمستقبل، حيث أخذ الحلفاء من ألمانيا أكثر من ٢٥ ألف ميل مربع من أراضيها وأملاكها، وستة ملايين من سكانها، وحرمت من مولردها في المواد الخام، ونقصت كميات الحديد والفحم وزيت البترول والزنك والرصاص والمواد الغذائية بشكل كبير، وضاعت الألزاس واللورين، وخسرت معه الحديد والبترول، ومع ضياع منطقة السار خسرت

أكبر مورد في الفحم، وكذلك ضياع ما خسرت من الأراضي في سيليزيا العليا، وحرمت من أكبر مورد للزنك والرصاص والفحم، وأجبرها الحلفاء على التخلي عن ٦٥% من حديدتها، و٤٥% من الفحم، و٧٢% من الزنك، و٥٧% من الرصاص، وحوالي ١٥% من المنتجات الزراعية الأساسية، و١٠% من مؤسساتها الصناعية^(١٠).

كما حرمت ألمانيا من قواتها العسكرية وجيوشها وأسطولها، وعادت إلى ١/٨ القوة التي كانت عليها قبل الحرب، ولم يعد لأسطولها مكانة تذكر بعد أن كان ثاني أسطول بعد بريطانيا، وعادت إلى ١٥ ألف رجل فحسب، وسلمت للحلفاء جميع غواصاتها بعد أن كانت تمتلك قبل الحرب أسطولاً تجارياً حمولته ٥٧٠.٠٠٠ طن، وأصبح بعد الحرب أقل من ٥٠.٠٠٠ طن.

وأجبر الحلفاء ألمانيا على أن تعترف بمسئوليتها عن الحرب، وتولوا محاكمة عدد من الزعماء الألمان بحجة أنهم مجرمو حرب، واتهموا الإمبراطور وليام الثاني الألماني بارتكاب جريمة كبرى ضد الأخلاقيات الدولية والمعاهدات، ولكنهم لم يحققوا فكرة محاكمته، حيث فرّ الإمبراطور إلى هولندا، ولم يسلمه الهولنديون لأعدائه.

وأخيراً فرض على ألمانيا أن تدفع ديوناً عالية تعويضاً للحلفاء، الذين شكّلوا منهم لجنة للتعويضات لضمان قيام ألمانيا بأداء ذلك، وتخلّى الحلفاء عن وعودهم التي أعلنوها قبل الحرب واثاءها بشأن الديمقراطية والاعتدال، وعدم الضغط على الشعوب، أو فرض الغرامات على المهزومين، فكانت تصريحات إعلامية أكثر منها عملية وصادقة، وتنافس المنتصرون بعد الحرب في وضع لكسّي التعويضات، وطالب البريطانيون والفرنسيون والبلجيكي والإيطاليون بفرض الغرامات تعويضاً لهم عما نالهم من الغارات الجوية، وحرب الغواصات، وضحايا الحرب من قتلى وجرحى ومفقودين^(١١).

ثالثاً: المعاهدات الأخرى

أ- معاهدة سان جرمان

بعد أن تم توقيع معاهدة فرساي مع ألمانيا في الثامن والعشرين من يونيو/حزيران ١٩١٩ غادر ولسن ولويد جورج باريس، وتكوّن مجلس أعلى من خمسة أعضاء، على رأسهم كليمنصو يمثلون الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى واليابان

وليطاليا لمواصلة عقد المعاهدات مع دول الوسط الأخرى، وظل هذا المجلس يعمل حتى الحادي والعشرين من يناير/ كانون الثاني ١٩٢٠، حيث استقال كليمنصو، فحلّ مجلس للمفراء محل المجلس الأعلى لأكمال العمل، وهو يضم مندوبين من الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وإيطاليا واليابان ومندوب من فرنسا، وكانت أول معاهدة وقعها هذا المجلس هي معاهدة سان جرمان مع النمسا.

وكانت إمبراطورية النمسا والمجر في طريقها إلى الانحلال؛ إذ لم تعد في نظر الحلفاء دولة واحدة متماسكة، بل كان مصيرها إلى التفكك، وقد بُدئ بانفصال المجر عن النمسا.

وتعلم المندوبون النمساويون نص المعاهدة التي وضعها الحلفاء على النمسا، وسمح لهم أن يقوموا ملاحظاتهم عليها كتابة، وحاول المندوبون أن يؤكدوا لمؤتمر الصلح أن النمسا هي دولة جديدة بعد الهدنة، ولم تكن في حالة حرب مع الحلفاء، وما هي إلا دولة نشأت بعد سقوط إمبراطورية آل هابسبورغ، شأنها مثل تشيكوسلوفاكيا وبولندا والدولة التي قامت على نقاض الإمبراطورية القديمة على أن الحلفاء لم يفتتروا بهذه الفكرة، ورفضوا الاعتراف بما ساقه المندوبون النمساويون من حلّة على أنهم يمثلون دولة جديدة لم تعلن للحرب على الحلفاء، وأجبروهم على الاعتراف بمسؤولية النمسا عن الأضرار التي لحقت بالدول المتحالفة.

وكان الحلفاء قد عزموا على محو تلك الإمبراطورية كوحدة سياسية من خريطة أوروبا، وبعد أن انفصلت النمسا عن المجر، عمل الحلفاء على أن تصبح كل منهما دولة صغيرة داخلية، ليس لها منفذ على البحر، فاقطعوا مساحات كبيرة من حدودها القديمة ليوزعوا منها على خمس دول أخرى بعضها، جديدة مثل يوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا، وأخرى قديمة هي إيطاليا ورومانيا.

وأصبحت فيينا وبودابست مهدنتين بالانهيار المالي والتجاري، بعد أن انفصلت عنهما الأقاليم للصناعية الغنية، فاقطعت من النمسا وبوهيميا ومورافيا، وعدد سكانهما (١٠) ملايين نسمة، أغلبهم من التشيك، و٢ مليون من السلوفاك، ومليون من المجرين والروثينيين، وتشكل دولة تشيكوسلوفاكيا الجديدة.

واضطرت النمسا إلى التنازل لإيطاليا عن التيرول الجنوبي، ومنطقة الترينو وتريست وأستريا وجزر على ساحل دلماشيا، وعلى الرغم من أن التيرول الجنوبي يمكنه حوالي ربع مليون من النمساويين الذين يتكلمون الألمانية، إلا أن إيطاليا طالبت به بإصرار، واستناداً إلى المعاهدات السرية التي عقدها الحلفاء قبل دخول الحرب في جانبهم، ولأنها في أشد الحاجة إلى مرور برنز عبر جبال الألب لاعتبارات الدفاع عنها^(١١).
ب- معاهدة تريانون:

بدأت المفاوضات مع المجر في الوقت الذي بدأت فيه مع النمسا، ولكن توقيع معاهدة تريانون مع المجر لم يتم إلا في يونيو/ حزيران عام ١٩٢٠، وذلك بسبب ما حدث في تلك البلاد من الاضطرابات السياسية الداخلية التي عطلت تكوين حكومة مستقرة، يعترف بها المجلس الأعلى للصلح في باريس، وقد تسلم المندوبون المجريون صورة للمعاهدة المقترحة في يناير/ كانون الثاني عام ١٩٢٠.

وبموجب المعاهدة فقدت المجر حدودها القديمة، والتي وزعت على يوغسلافيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا، وانضم جزء منها إلى النمسا نفسها، وحرمت المجر من المنفذ الذي كانت تعتز به على البحر، وهو ميناء فيوم، والذي ترك سياسة المؤتمر مصيره إلى المفاوضات التي تقرر إجراؤها بين يوغسلافيا وإيطاليا.

وبذلك انكمشت مساحة المجر أيضاً من دولة مساحتها ١٢٥ ألف ميل مربع، وسكانها عشرون مليون نسمة، إلى دولة مقلقة لا تزيد مساحتها عن ٣٥ ألف ميل مربع، ولا يزيد عدد سكانها عن ثمانية ملايين، واضطر ثلاثة ملايين مجري إلى الانتماء إلى حكومات أجنبية عنهم بحكم سكنهم في المناطق التي انتزعت من المجر.

وحاول ممثلو المجر الاحتجاج على الشروط المجحفة بحق بلادهم، ولكن ضاعفت معارضتهم وبدون جدوى، واضطروا إلى التسليم بما كتب لبلادهم من مصير، ووقعوا المعاهدة في قصر تريانون الكبير بالقرب من حدائق فرساي.

ج- معاهدة نايجي:

لم تسلم بلغاريا من قبضة الحلفاء، وانقطعت منها أجزاء وبشكل لقل من الدول الأخرى، ففقدت تراقيا الغربية التي كانت انتزعتها من تركيا في حروب عام ١٩١٣،

ومنفذاها الوحيد على بحر أيجة، وقد اضطرت إلى تسليمها للحلفاء الذي منحوها لليونان.

واضطرت بموجب معاهدة نايجي للموقعة في السابع والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٩ إلى تسليم ثلاث مناطق صغيرة في حدودها الغربية إلى يوغسلافيا، لتمتد إلى الأخرى أن تسيطر على الممرات الجبلية، حيث تمتد سكة حديد نيش - سالونيك فتأمين بذلك على مواصلاتها في زمن الحرب.

د - معاهدة سيفر:

كانت معاهدة سيفر مع الدولة العثمانية آخر معاهدات الصلح التي وضعها للحلفاء في باريس على الدول المنهزمة، وهي للمعاهدة الوحيدة التي كان لها صدى سريع وواسع، فقد انتفض العثمانيون من كبته، وثارت الحمية لتركيا القومية، وبدأت مقاومتهم للشروط المجحفة التي فرضت عليهم، واضطر الحلفاء إلى تعديل معاهدتهم القديمة بعقد معاهدة لوزان عام ١٩٢٣، وتأجل عقد معاهدة سيفر إلى أغسطس/ آب عام ١٩٢٠ بسبب ما ثار من خلافات بين فرنسا وبريطانيا من جهة، وإيطاليا واليونان من جهة أخرى على تقسيم تركيا العثمانية فضلاً عن قيام حكومتين في اسطنبول، الأولى نائبة على المعاهدة مقرها أنقرة، والثانية حكومة السلطان محمد وحيد الدين في القسطنطينية، وهي الحكومة التي وقعت المعاهدة، وقبلت شروطها.

وقد تمت عدة اتفاقيات خلال الحرب، دلت على مدى أطماع دول الحلفاء في تلك الميراث وعزمها على تقسيمه فيما بينها، ووافقت بريطانيا - بوضع يدعو للدهشة - أن تستولي روسيا على القسطنطينية وتركيا الأوروبية وجزر بحر أيجة وجزر بحر مرمرة والساحل الآسيوي من البسفور، أما بريطانيا وفرنسا فقد كانتا أنظارهما نحو الشرق الأوسط، فوضعت بريطانيا عينها على العراق وساحل فلسطين (حيفا وعكا)، وتطلعت فرنسا على لبنان وأرضه.

أما إيطاليا فقد كانت تطمح في الاستيلاء على جزر الدوديكانيز في بحر أيجة ومصاحبة من جنوب غربي آسيا للصغرى من أضايا إلى أزمير، وقد رأى الحلفاء في النهاية إنهاء المناقشة بعقد المعاهدة التي لم تترك للدولة العثمانية سوى منطقة جبلية

صغيرة في الأناضول حول أنقرة، وركن صغير من الأرض الأوروبية خلف القسطنطينية.

وتنازل الأتراك بموجب المعاهدة عن سيادتها على الشعوب غير التركية التي كانت تحكمها الدولة العثمانية، واعترفت بالدول الجديدة التي نشأت عن الحرب في مصر والسودان وقبرص وبحر إيجه، وبالحماية الفرنسية على المغرب وتونس، وتنازلت عن كل حقوقها في بلاد العرب وسوريا وفلسطين والعراق في المؤتمر الذي عقده الحلفاء في سان ريمو في إيطاليا في الخامس من مايو/ أيار ١٩٢٠، وتقرر وضع العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني مع الالتزام بتنفيذ وعد بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، ووضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ووافقت على أن تستولي اليونان على بعض الجزر التركية في بحر إيجه، وعلى جانب من تراقيا الشرقية، وأن تحكم اليونان أزمير وجنوب غرب آسيا الصغرى لمدة خمس سنوات يجري بعدها استفتاء للمكان لتقرير مصيرهم.

وتتولى إيطاليا على جزيرة رودوس والدوديكانيز، ولو أنها وعدت بإعادتها فيما بعد إلى اليونان، واعترفت تركيا باستقلال ذاتي لكردستان تمهيداً لملاحها الاستقلال التام، وأقرت بأن أرمينيا دولة حرة مستقلة تشمل على أرزنروم، وطربزون، وفان، وتبليس.

وتقرر إنشاء حكم دولي خاص لمضيقي البسفور والدردنيل، فلا يجوز حصارهما ولا إخلالهما ضمن منطقة حرب إلا تنفيذاً لقرار من مجلس عصبة الأمم، وتُركت القسطنطينية للسلطان.

وقد فرضت على تركيا أيضاً إجراءات تأديبية، كتعويض عما أصاب غير الأتراك من الخسارة أثناء الحرب، وأن تدفع نفقات جيوش الاحتلال بعد الشروع في تنفيذ المعاهدة وتحديد قواتها بما لا يزيد عن (٥٠) ألف رجل، ويُلغى الأسطول التركي ما عدا بعض سفن لمراقبة المصائد، وأن تسيطر الدول على للموتى والطرق المائية والخطوط الحديدية.

وفي نفس اليوم الذي وقعت فيه المعاهدة (سيفر) تم اتفاق ثلاثي بين بريطانيا

وفرنسا وإيطاليا على منح فرنسا وإيطاليا منطقتي نفوذ في الأناضول، تمتد من منطقة النفوذ الفرنسي إلى شمال سوريا، وتمتد المنطقة الإيطالية إلى جنوب وشرق أزمير.

اضطر المندوبون الأتراك إلى توقيع المعاهدة في العاشر من أغسطس/ آب ١٩٢٠، وأصبح العثماني في أيدي السلطان البريطاني الذي كان أسطولها راسياً في القسطنطينية، ولكن الشعب التركي لم يرض بالاحتلال الأجنبي، وظهر مصطفى كمال أتاتورك الذي صمد أمام القوات اليونانية التي هاجمت الحدود التركية في يناير/ كانون الثاني عام ١٩٢١، وانتصر في معركة إينونو في الحادي عشر من يناير/ كانون الثاني ١٩٢١، وانهزم الجيش اليوناني، وتقهقر نحو بروسه، وفشلت كل المحاولات اليونانية ضد الأراضي التركية، واضطر الحلفاء إلى تعديل معاهدة سيفر بعقد معاهدة لوزان في عام ١٩٢٣، واتفقت تركيا فيها على التخلي عن سيادتها على البلاد العربية، وحبذا المضائق وحرية الملاحة فيها لجميع الدول على السواء، ووافق الحلفاء على إلغاء الامتيازات الأجنبية في تركيا وإعادة أوروبا وترافيا الشرقية وأزمير وأضاليا وكليكمسا إلى تركيا، ووضع اتفاق خاص بشأن تبادل السكان بين ترك اليونان ويونان الأناضول^(١٢).

رابعاً: ظهور الدول القومية الحديثة

حصلت بعض الشعوب على الاستقلال الذي تطمح إليه في ظل التسويات التي تمت ما بين عامي ١٩١٩-١٩٢٠، فقد فقدت روسيا كل ما كسبته في عهد بطرس الكبير وما بعده، وتظهر دول جديدة تحول بين روسيا والبلطيق، وكانت سابقاً ولايات روسية، وبذلك لم يعد لروسيا اتصال بالبحار الأوروبية إلا البحر الأسود، وهو مغلق لأن مفتاحه سيكون بيد تركيا عدو روسيا للدود.

١- فنلندا:

ظهرت فنلندا التي طالما تطلعت إلى الاستقلال عن حكم قياصرة الروس، وظهرت لاتفيا وإستونيا كدولتين، هذا رغم أن لتوانيا التي لم تستقر الأوضاع فيها بعد استيلاء البولنديين عام ١٩٢٠ على فلندا التي بعدها اللتوانيون عاصمة بلادهم.

٢- بولندا:

تعرضت بولندا أواخر القرن الثامن عشر لمحنة تقسيم أراضيها بين الدول

الكبرى المجاورة لها، ثم بعثت من جديد أثناء الحروب النابليونية باسم دوقية وارسو الكبرى، ثم ألغاه مؤتمر فيينا عام ١٨١٥، وقسمت أراضيها بين روسيا وبروسيا والنمسا.

أما دولة بولندا التي أعادها الحلفاء إلى الواقع، فقد كانت عودتها تبدو مستحيلة قبل الحرب، إذ كانت تلك العودة تتطلب انحلال الإمبراطوريات روسيا وألمانيا والنمسا، ولما حدثت تلك المعجزة التي كانت ينتظرها البولنديون أصبحت دولتهم لا تنقص كثيراً عن أقوى الدول الأوروبية، من حيث المساحة وعدد السكان؛ إذ بلغت مساحتها حوالي ١٥٠ ألف ميل مربع، ويسكنها حوالي ثلاثون مليون نسمة، إلا أن بولندا كانت تعاني في أعقاب الحرب من سوء الأوضاع الاقتصادية وعدم الاستقرار السياسي، واختلاف الأحزاب البرلمانية فيما بينها لاختلاف جعل إقامة حكومة دستورية ناجحة من الأمور الشائكة، ثم تمكن المارشال بلسودسكي الذي قاتل أثناء الحرب العالمية الأولى، وأسس جيشاً بولندياً في بولندا النمساوية لمحاربة روسيا على أمل الحصول على الاستقلال لبلاده، ولما تفهقر الروس وغادروا بولندا عام ١٩١٧، وجه بلسودسكي قواته ضد الألمان، وأخذ يحاربهم حتى أُسِر، وعندما انتهت الحرب أصبح بلسودسكي رئيساً للدولة.

وعندما أعلنت الجمهورية البولندية في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٨ في وارسو قامت الخلافات الداخلية بين بلسودسكي وأحد منافسيه ديموسكي، وانقسم الشعب أيضاً، وصار لكل زعيم أنصار يؤيدونه، يؤيد بلسودسكي الاشتراكي جماعات العمال ورجال الجيش والفلاحون الراديكاليون، ويؤيد خصمه الطبقة البرجوازية والمزارعون، وأخيراً بعد عدة أعوام من الصراعات الداخلية أصبح بلسودسكي دكتاتوراً في بولندا يعمل على تدعيم الدولة التي بعثت من جديد.

٣- يوغسلافيا:

وقد تكونت يوغسلافيا من دولة صربيا، وانضم إليها من الولايات السلافية المجاورة، ولم تكن الحياة فيها بسيطة للشعب اليوغسلافي الذي كان يريد الوحدة، فقد ثارت بها الخلافات بعد تصوية باريس بين الصرب والكروات والسلوفينيين الذين

يختلفون في المذاهب والوعي السياسي، فالصرب يعتقدون للمذهب الأرثوذكسي ومتأخرون في ثقافتهم واقتصادهم، أما الكروات والسلوفينيون فيعتقدون للمذهب الكاثوليكي، وهم أكثر تقدماً من الصرب، وكان أكثر من مليون نسمة يسكنون إقليم البوسنة.

وكان للكروات بفضلون أيام دولة اتحادية، بحيث تتمتع كرواتيا فيها بالحكم الذاتي، ولكن الأغلبية الصربية صممت على إيجاد إدارة مركزية في العاصمة اليوغسلافية، واختلف الطرفان حول القضايا السياسية والدينية والتعليمية والاقتصادية، مما أدى إلى نشوب الاحتكاك بين الطرفين، حتى أن مجلس النواب في بلغراد لم يكن يخلو يوماً من المشاكل بين الأعضاء من الطرفين، وبلغ الخلاف ذروته في عام ١٩٢٨ عندما قتل زعيم الكرواتيين اسطفان راديك مع مساعديه، مما جعل الملك إسكندر يقدم على حل البرلمان، وإلغاء الدستور ومصادرة الحريات العامة، واعتمد على الجيش، وتحول خلال خمس سنوات إلى حاكم مطلق وديكتاتور، واشتدت الأزمة الاقتصادية الخطيرة، ولجأت المعارضة إلى العنف والمؤتمرات، مما أثار الذعر في البلاد، واحتل الملك في عام ١٩٣٤ أثناء رحلته إلى فرنسا، ومعه وزير الخارجية الفرنسي الذي كان برفقته، وحكم بعده ولده بطرس، وعمره عشر سنوات، وظلت البلاد في حالة استقرار حتى اجتاحتها رودولف هتلر^(١٣).

٤- رومانيا:

تضاعفت مساحة رومانيا وعدد سكانها، واضيفت لها أراضٍ جديدة، حتى أصبحت كأنها دولة جديدة، وحاولت حكومتها أن ترضي رعاياها جميعاً لتكسب تأييدهم بإصدار تشريعات للإصلاح الزراعي هدفها إضعاف الملكيات الزراعية الكبيرة لمصلحة الشعب، ولكنها بهذا العمل أثارت عليها الاقطاعيين الذين أخذوا يحاربونها.

وكانت رومانيا تتمتع بعد الحرب مباشرة بمظهر للحكم الديمقراطي، واتخذ الحكام السياسيون فيها من الحكم مصدراً للثروة والمكانة الشخصية، وبعد وفاة الملك فرديناند الأول عام ١٩٢٧ خلفه على العرش ابنه كارول الذي أبعد عن العرش بسبب حبه لامرأة ليست لها سمعة طيبة، وعين بدله ابنه ميشيل، ولكن استطاع الملك كارول في عام ١٩٣٠ أن يسترد حقه في تولي العرش بمساعدة فريق من ضباط الجيش،

وأخذت حكومته تحكم البلاد حكماً دستورياً.

٥- تشيكوسلوفاكيا:

ظهرت دولة جديدة هي تشيكوسلوفاكيا على الخريطة السياسية والجغرافية لأوروبا، بعد أن اقتطع لها الحلفاء أجزاء من الإمبراطورية السابقة للنمساوية المجرية، وسارت تشيكوسلوفاكيا بعد تأسيسها نحو الحكم الديمقراطي بفضل زعيمها ورئيس جمهوريتها توماس مازاريك T. Mazarik الذي لقبه الشعب أبو الوطن، وعلى الرغم من المناعب القومية الناشئة عن الخلاف بين الكاثوليك والاشتراكيين من جهة، وبين التشيك والسلوفاك من جهة أخرى، وبين هؤلاء جميعهم وبين الألمان في إقليم الموريت بوهيميا، واستطاع مازاريك في الفترة التي كان فيها رئيساً لدولته (١٩٢٠-١٩٣٥) أن يتغلب على تلك المصاعب، ويرسي قواعد للحكم الليبرالي، ويهيء لتحسن الاقتصادي لشعبه.

أما مازاريك فهو خريج جامعة براغ، وزعيم من زعماء القومية، وخلال الحرب العالمية الأولى ذهب إلى واشنطن ووطد صلاته وصداقته مع الرئيس ولسن، وذهب إلى باريس أثناء مؤتمر الصلح ليدعو إلى إقامة تشيكوسلوفاكيا، ومساعد في تحقيق هذا الأمر مساعدة ودعم ولسن، وما قدمته القوات التشيكية من خدمات لقضية الحلفاء، فقد كانت القوات ضد إرادتها في الجيش النمساوي، ولكن عندما سلحت لها الفرصة انضمت إلى الجيش الروسي، وكان لا يزال يحارب في صف الحلفاء.

وقد نظم التشيكيون أنفسهم في روسيا كجيش قائم بذاته، وظلوا يحاربون في صف الحلفاء في الجبهة الشرقية إلى أن قامت الثورة للبشوعية، وسلم الروس للألمان، ورأت تلك القوات للتشيكية أن تواصل الحرب ضد الألمان والنمساويين، وعملت على مغادرة روسيا بأي طريق، ولم تجد أمامها سوى أن تخرق سيبيريا، ووصلت للمحيط الهادي، وأبحرت إلى كندا، ومن ثم إلى أوروبا من جديد؛ لتشارك في حروب الجبهة الغربية، وظل التشيكيون في صف الحلفاء، حتى تم التوصل إلى النصر الحاسم، وظهرت تشيكوسلوفاكيا إلى الوجود.

وقد ضمت تشيكوسلوفاكيا للعديد من الجنسيات، وكانت تطبع عملتها النقدية

بمبيع لغات، وكانت الأقلية الألمانية تتطلع للانضمام إلى ألمانيا، ولكن للرئيس مازلريك استطاع بحلكنه ونكاته ان يصون وحدة البلاد الوطنية والقومية، وان تكون تشيكوسلوفاكيا دولة قومية ديمقراطية^(١).

نتائج مؤتمر الصلح:

بعد ان انتهى مؤتمر الصلح في فرساي بباريس من فرض معاهدته على الدول المغلوبة على أمرها، اتضحت للعديد من النتائج السياسية والاثنية والاقتصادية والعسكرية في أوروبا، وأهم هذه النتائج:

١- أحدثت تسويات مؤتمر الصلح الخطيرة تحولات في أوروبا والعالم، حيث سقطت أسرة حاكمة عريقة ظلت لعدة قرون تحكم بقاع واسعة من أوروبا في حكم مطلق ديكتاتوري في أسرة آل رومانوف في روسيا القيصرية، وآل هابسبورغ في النمسا والمجر وآل هوهنزولرن في ألمانيا.

وقبل عام ١٩١٤ كان الحكم الملكي يسود في أوروبا، ولم يكن من الجمهوريات الكبيرة سوى فرنسا وسويسرا، ولكن بعد انتهاء الحرب أصبح في أوروبا سبع عشرة جمهورية، أما الدول التي احتفظت بنظم ملكية فهي الدول التي أراد ملوكها إرضاء الرأي العام في تطبيق الحكم الدستوري، بحيث يملكون ولا يحكمون، ويتركون الحكم في أيدي وزارات مسؤولة أمام المجالس النيابية، وظهر وزراء ينتمون إلى الأحزاب الاشتراكية والعمالية.

٢- فشلت بعض الحكومات الديمقراطية الجديدة في التغلب على المشكلات العديدة التي صادفت بلادها بعد الحرب، وبدا لبعض الزعماء ان الحكم النيابي الذي يسير وفقاً لحدث الدساتير قد فشل في بلادهم، وأصبح عاطلاً، بل معطلاً للمشروعات الإصلاحية المطلوبة، ولم يحقق الاستقرار، وظهر في ذلك الوقت زعماء سياسيون يحكمون حكماً استبدادياً، من أجل مواجهة المشكلات السياسية والاقتصادية في بلادهم، وأشهرهم موسوليني في إيطاليا وهتلر في ألمانيا، ومصطفى كمال أتاتورك في تركيا، ومحاولتهم الانتقام أمام شعوبهم عما حدث في تسويات ومعاهدات مؤتمر الصلح عام ١٩١٩.

٣- وقد ظهر نوعان من الحكومات التي اتخذت لنفسها نظاماً سياسياً واقتصادياً، هما

البلشفية في روسيا، والفاشستية في إيطاليا، وبيدو أنها على خطى موسوليني اتخذت النظام الديكتاتوري، وبنيت التعددية والنظام البرلماني، وشددت قبضة السلطة على الحياة العامة، ولم تسلم من هذه الأنظمة الديكتاتورية سوى فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة التي لم تقبل شعوبها قيام أنظمة غير ديمقراطية.

٤- أدى انتشار الروح القومية والتعصب لها بعد الحرب إلى إيجاد روح للمك وعدم الثقة بين الحكومات، وإيجاد علاقة سياسية واقتصادية بين الدول، وبدأت للمشكلات السياسية تعمل على خلق أجواء من سوء الظن، ثم إن نشوء الدول للقومية الجديدة سيؤدي إلى الاضطراب الاقتصادي؛ لأن تلك الدول الحديثة حاولت الاكتفاء الذاتي، والاعتماد على نفسها في ثرواتها، والاستغناء عن الاستيراد من الخارج، فازدادت الأزمة الاقتصادية العالمية سوءاً؛ لأن الانتعاش القومي أدى إلى انعاش للتجارة الدولية. ثم سعت بعض الدول إلى عقد الأحلاف العسكرية، وانقسمت أوروبا إلى معسكرات متخاصمة، وازدادت أعداد للجيش والاتفاق العسكري عليها، وهددت هذه التوجهات في سير العالم نحو الحرب العالمية من جديد.

٥- رغم محاولة مؤتمر الصلح لإرضاء للقوميات الأوروبية بتأسيس دول جديدة تضم شعوب عدة خضعت لقرون طويلة إلى إمبراطوريات كبيرة، لم تسلم كل تسوية من شوائب قومية، داخل تلك الدول القومية، لأنها لم تستطع أن تكون قوميات خالية من العناصر الغريبة، وضمت بولندا في حدودها أقاليم من الألمان والروس، وضمت تشيكوسلوفاكيا أقاليم من الألمان والمجريين، وضمت يوغسلافيا أقاليم ألمانية ومجرية وبلغارية، وضمت رومانيا واليونان أقاليم بلغارية، وضمت إيطاليا أراضي بها أقاليم نمساوية ويوغسلافية.

٦- قلبت الحرب العالمية للتوازن الدولي في العالم، فقد ظهرت إلى جانب الدول الأوروبية للولايات المتحدة كأغنى دولة وكوى جيش، وخطت اليابان خطواتها الأولى نحو التقدم والمنافسة الاستعمارية مع الغرب^(١٥).

الفصل الثالث

التنظيم المادي بعد الحرب:

قيام عصبة الأمم



تعود بدايات التنظيمات الدولية الحديثة إلى القرن التاسع عشر، وكان أولها تشكيل لجان الانهيار في أوروبا مع لجنة الرائي التي تشكلت عام ١٨٠٤ بموجب الاتفاق بين فرنسا وألمانيا لتنظيم حركة الملاحة في نهر الراين وصيانة التسهيلات الخاصة بالملاحة، ومحاولة حل الشكاوى التي تُقَمُّ بسبب انتهاك القواعد التي تقوم للجنة بتطبيقها وضمن مراعاتها، وكان هناك لجنة للدانوب الأوروبية أيضاً التي تكونت عام ١٨٥٦ لتنظيم حركة المرور في نهر الدانوب.

وتطورت محاولات للتنظيم الدولي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر في شكل إنشاء اتحادات دولية عامة (اتحاد البرق العالمي) في عام ١٨٥٦، و(اتحاد للبريد العالمي) في عام ١٨٤٧، وكان للاتحادين أثرهما في توسيع دائرة الوكالات الدولية المتخصصة في الزراعة والصحة، والسكك الحديدية، والجمرك، والمقاييس، والصناعة، ومكافحة العقاقير المخدرة، وبراءات الاختراع، وغيرها، وقد دفعت هذه الوكالات الدولية إلى تنضبط التنظيم الدولي، وخاصة قضايا السلام والحرب، وكان انعقاد مؤتمر لاهاي الأول والثاني في عامي ١٨٩٩ و١٩٠٧ علامتين بارزتين في هذا الطريق، وكان الهدف المعلن وراء هذا الانعقاد هو البحث في إنشاء مجتمع دولي يقوم على النظام والقانون الدولي.

ورغم أن معظم الدول الممثلة في مؤتمر لاهاي الأول كانت دولاً أوروبية وعددها لا يتجاوز (٢٦) دولة، إلا أن مؤتمر لاهاي الثاني كان أقرب في تكوينه لأن يكون تجمعاً عالمياً ضم حوالي (٤٤) دولة، من بينها معظم دول أمريكا اللاتينية، ولقر للمؤتمر أن يبدأ المساواة في السيادة الدولية، مما يعني تحطيم الاحتكار الذي مارسته الدول والقوى الكبرى في الحرب والسلام، والسباق الاقتصادي والاستعماري الكونيالي، وحل للمشكلات الناتجة عن إطار الاتفاقات والتسويات والمساومات التي تحدث دون اعتبار لإدارة المجتمع الدولي، ثم أن مؤتمري لاهاي وضعاً أسس للتنظيم الدولي للقيام فيما بعد.

ولقد أثارت الأزمة الدولية في الحرب العالمية الأولى الكثير من التساؤلات

حول كيفية منع قيام حرب عالمية جديدة في المستقبل، وإن نظم متعدد القوى والدول يمكن أن يجنب للعالم شبح للحروب، وإن يتم إنشاء جهاز دولي تقوم سلطته على حل الخلافات بين الدول والعمل على حلها بالطرق السلمية دون العسكرية، وتوسيع مجالات العمل والتعاون الاقتصادي والفني والعلمي والثقافي فيما بينها، وتحقيق السلام والاستقرار بدرجة أكبر مما لو لم يكن هذا النظام السياسي قائماً في الإطار الدولي، وكان هذا التصور هو أساس اقتراح للمنظمة الدولية التي ظهرت في عالم ما بعد الحرب العالمية الأولى، وعرفت بعصبة الأمم التي وضع ميثاقها مؤتمر باريس عام ١٩١٩ (١٦).

أولاً: ميثاق العصبة وعضويتها

كان أساس ميثاق عصبة الأمم المشروع الذي تقدمت به الولايات المتحدة وبريطانيا، والمعروف بمشروع (هيرست - ميلر) Hurst Miller Draft إلى لجنة للعصبة المنبثقة عن مؤتمر فرساي الذي أدرجت بعض نصوصه، ولا سيما الأساسية في ميثاق العصبة.

وكان ميثاق العصبة وثيقة قصيرة، وأقرب ما تكون إلى شكل للمعاهدات الجماعية وللمتعددة الأطراف، حيث قامت بتحديد الالتزامات الأطراف المتعاقدة، وتحديد الأجهزة القائمة على تطبيق الالتزامات الجديدة، وجاء في ديباجة ميثاق العصبة أن الهدف من وراء إقامة هذه المنظمة الدولية هو تنمية التعاون الدولي، وصيانة السلم والأمن الدوليين.

ولم يتعرض ميثاق العصبة لأسس النظام الدولي، وتركها دون أي معاس، وركز على المبادئ السابقة من عمل للتنظيم الدولي، فمجلس العصبة مثلاً الذي احتلت فيه الدول الكبرى مركز السيطرة كان شبيهاً بالحلف للمقدس، أو للوافق الأوروبي أداة للتشاور والتنسيق للمنظم بين الدول الأوروبية الكبرى، وكان نظام العصبة في الجمعية أن تمثل فيها كل الدول الأعضاء في المنظمة الدولية، وتتخذ اجتماعاتها بصفة دورية مقتبساً من مؤتمر لاهاي، وكانت محكمة العدل الدولية دائمة مجرد تطبيق لاقتراح سبق أن تقدمت به بعض الدول إلى مؤتمر لاهاي الثاني عام ١٩٠٧.

وكان المكتب الدولي للعمل قد وضع على نسق الاتحادات العامة التي أقيمت سابقاً قبل عام ١٩١٤، فضلاً عن طرق التنمية السلمية للنزاعات الدولية التي لا تخرج في إطارها العام عما أمكن للتوصل إليه في لاهاي، مع إضافات جديدة في ميثاق العصبة.

إن إنشاء عصبة الأمم كان بمثابة المحاولة الأولى نحو التكامل الدولي؛ من أجل صيانة السلم والامن والاستقرار وحل النزاعات بين الدول، وكل ذلك في إطار تنظيم دولي جديد واحد يضم في عضويته جميع دول العالم.

لقد كانت التنظيمات الدولية السابقة قبل العصبة أما هدفها محدود أو ضيقة التمثيل، أما العصبة فقد كانت محاولة للانتقال بهذه الاهداف من الدائرة الضيقة إلى الدائرة الدولية للواسعة، ثم محاولة توسيع المشاركة الدولية بشكل لم يتوفر لأي تنظيم دولي من قبل.

أما عضوية عصبة الأمم منذ بدلية تأسيسها عام ١٩١٩ فغضمت الدول الأصلية الاعضاء فحسب، وهي (٤٢) دولة، (٢٩) وقعوا معاهدة فرساي التي تضمنت تسويات الصلح بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، و(١٣) دولة محايدة، وترك ميثاق العصبة للباب مفتوحاً أمام الدول التي ترغب في الانضمام إلى هذه للمنظمة الدولية ما دامت على استعداد لقبول التعهدات التي نص عليها الميثاق، وبشرط أن تتم الموافقة على إجراء انضمامها بأغلبية ٢/٣ من الأصوات في جمعية العصبة.

وأعطى الميثاق أيضاً حق العضوية للمستعمرات التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي، والذي ساعد الهند مثلاً على أن تنضم إلى العصبة قبل أن تحصل على الاستقلال السياسي، وبلغ مجموع الدول التي انضمت إلى عضوية عصبة الأمم حوالي (٦٣) دولة، رغم انضمام بعض الدول منها، مثل ألمانيا وإيطاليا واليابان، وطرد دول أخرى من عضوية المنظمة، مثل الاتحاد السوفيتي في الثلاثينيات من القرن العشرين^(١٧).

ثانياً: أجهزة العصبة

نص ميثاق العصبة على تشكيل ثلاثة أجهزة دائمة تابعة للعصبة هي: الجمعية والمجلس والمكثرتاريا، وجهازان مستقلان إلى حد ما، هما محكمة العدل الدولية

ومنظمة العمل الدولية، ولم يكونا بعيدين عن عصبه الأمم، ولكن طبيعة عملها حتمت ان يكون لهما الاستقلال لاداء مهامها الدولية والتي قلم بها أعضاء العصبة، وفي ضوء الأهداف العامة للعصبة، وميزانيتها جزء من ميزانية عصبه الأمم.

١ - الجمعية The Assembly :

إن تكوين الجمعية يقوم على أن كل للدول الاعضاء في العصبة ممثلة فيها، ويمثل كل دولة ثلاثة مندوبين، وتمتعت كل دولة بصوت واحد، أي أن للتصويت كان يتم على أساس المساواة والتكافؤ بين الدول الأعضاء الصغيرة منها والكبيرة، والسبب في ذلك يرجع إلى رغبة واضعي الميثاق واعتقادهم أن التمثيل سيكون التعبير عن كل تيارات الرأي والاتجاهات الأساسية، والتي توجد داخل كل دولة، رغم أن للحكومات في واقع الحال هي التي مارست السيطرة على كل الآراء، وعبرت عن الشعب في إبداء الآراء في قضايا العصبة، ولم تخرج آراء المندوبين عن آراء دولتهم، وخضعوا لها تماماً، وبذلك انتهت للحكمة التي حاول المشرعون وضعها في ميثاق العصبة.

وعادةً ما يرأس مندوب كل دولة إلى الجمعية رؤساء الحكومات أو وزراء الخارجية، ويرافقه وفد كبير من الخبراء والدبلوماسيين المتخصصين، ويقوم السكرتير العام للمنظمة بإعداد جدول الأعمال في دورات انعقادها السنوية، ثم يقوم بطرحه على الأعضاء لإيضاح الآراء ومعرفة وجهات النظر، والبحث في إيجاد بنود مشتركة عليها، وكانت للجلسات الافتتاحية للجمعية عبارة عن مناظرات عامة تقوم كل دولة بطرح وجهات نظرها بشأن المشكلات الدولية.

وفي بداية كل دورة انعقاد سنوية كانت جمعية العصبة تقوم بانتخاب رئيس لها، وعادةً ما يكون الرئيس شخصية دولية بارزة تنتمي إلى إحدى الدول الصغيرة غير الممتدة في مجلس العصبة، وإلى جانب الرئيس كانت للجمعية تتولى انتخاب سنة نائب للرئيس، وكان للرئيس ونوابه فضلاً عن رئيس لجنة جدول الأعمال ورؤساء اللجان الست الدائمة التابعة للجمعية يشكلون - ما أطلق عليهم - للجنة العامة، والتي كانت هي اللجنة الموجهة لجمعية عصبه الأمم.

أما مسؤولية الجمعية فقد كانت متعددة، حيث أن الميثاق منحها حق مناقشة كل

الأمر التي تدخل ضمن اختصاص العصبة، وكل ما كان له تأثير على أوضاع السلم الدولية، وعلى الرغم من أن قسماً كبيراً من هذه المسؤوليات كان موضع المشاركة من جانب مجلس العصبة، إلا أن أموراً أخرى انفردت فيها للجمعية، ومنها سلطة الموافقة على انضمام أعضاء جدد إلى العصبة، ولتخاب موظفي العصبة، وتقرير الإجراءات التي تحكم أسلوب عمل المنظمة الدولية، ولتخاب الدول غير الدائمة في مجلس العصبة، والرقابة على الميزانية، وتقديم للمشورة إلى أعضاء العصبة بشأن المعاهدات والتي لم تعد قابلة للتطبيق.

أما علاقة الجمعية مع المجلس في مسؤولية العصبة فهو في اختيار السكرتير العام للعصبة، وتعديل الميثاق ولتخاب قضاة محكمة العدل الدولية الدائمة، ومناقشة كل الموضوعات ذات الصلة بالنزاعات بين الدول، ومحاولات العدوان والمشكلات الاقتصادية والاجتماعية والقانونية، والتي تُرفع إلى عصبة الأمم.

يبدو أن دور الجمعية طغى بمرور الوقت على دور المجلس؛ لانتهاء الاتفاق بين الدول الكبرى الأعضاء في المجلس، ومن علامات نقل لمكانات صنع القرار من المجلس إلى الجمعية هو أن معظم المشكلات الخاصة بالسلم والحرب أثرت أمام الجمعية، وأن المناقشات العامة كانت تجري خلال دورات انعقاد الجمعية، وأُفلحت في جذب اهتمام أبرز القادة والزعماء السياسيين، وهو ما لم يستطع المجلس تحقيقه^(١٨).

٢- المجلس The council:

ارتبط مجلس العصبة حسب تصور واضعي ميثاق العصبة باعتباره بمثابة الوكالة التنفيذية المختصة بإدارة سياسة العصبة، وعلى أنه الجهاز الرئيس والمختص ببحث كل الجوانب المتعلقة بالأمن الجماعي وتسوية النزاعات.

وكانت عضوية مجلس العصبة على نوعين، عضوية دائمة وعضوية غير دائمة، أما عن الأعضاء الدائمين في المجلس فكانوا خمسة أعضاء عند بداية تأسيس العصبة، وهم الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان، إلا أن الكونغرس الأمريكي اعترض على انضمام بلاده إلى عصبة الأمم، وهبط للعدد من خمس إلى

أربع دول، ولكن ظهور الدول الكبرى في المجتمع الدولي بعد ذلك كان ضمها بصفة دائمة إلى المجلس، وتمثل ذلك في انضمام اليابان عام ١٩٢٦، والاتحاد السوفيتي عام ١٩٣٤. أما العضوية غير الدائمة للمجلس فقد كان هناك من رأى - في داخل الجمعية - أن التمثيل في العضوية غير الدائمة يجب أن تدخل فيه الاعتبارات الجغرافية والاقتصادية والثقافية، حتى يكون المجلس بتشكيلاته أقرب إلى تمثيل للمجتمع الدولي وبشكل عادل وواقعي، وبدأت العضوية غير الدائمة بأربع دول في عام ١٩١٩ إلى ست دول عام ١٩٢٢، ثم تسع دول عام ١٩٢٦، ثم وصلت إلى إحدى عشرة عام ١٩٣٦. نص الميثاق بالنسبة لمجلس العصبة على أن يدخل في سلطات ومسؤوليات للمجلس بحث كل ما له صلة بنشاط للعصبة، وخاصة السلم العالمي، رغم أن بعض هذه السلطات تتدخل مع الجمعية، إلا أن للمجلس استأثر بالسلطة في عدة موضوعات كالخطيط في إجراء نزع السلاح ومراقبة تنفيذها، والقيام بالوساطة في التوفيق بين الأطراف المتنازعة وحل الخلافات بين الدول، وتقرير التدابير التي تتخذ من مواجهة العدوان، والإشراف على تنفيذ الانتداب، والقيام بمتابعة تطبيق المعاهدات الخاصة بحماية الأقليات.

إن علاقة المجلس بالعصبة لم تكن علاقة جهاز يسيطر على جهاز آخر، بل هي مسؤولية مشتركة، فالواحد يكمل الآخر، فالجمعية تقوم على مراعاة المساواة والتكافؤ في تمثيل الدول، والمجلس خص للدول الكبرى بالتمثيل الدائم، وكان تعبيراً عن الأوضاع الناجمة من سيطرة دول كبرى معينة فرضت نفسها على الساحة الدولية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى.

٣- السكرتاريا The Secretariat:

أقامت عصبة الأمم جهازاً هو السكرتارية، وقامت ببلورة جهاز دولي دائم، كجهاز يرأسه السكرتير العام للعصبة، وهو العمود الفقري للمنظمة، حيث يقوم بتنسيق نشاطات العصبة، وتقديم للخدمات والاستشارات الإدارية والفنية لأجهزة العصبة الأخرى، وخاصة الجمعية والمجلس، مع التوجيه العام للمنظمة بالشكل الذي يساعد على تحقيق الغايات التي قامت من أجلها، فقد كانت السكرتارية بمثابة خدمة مدنية

دولية، رغم ان اعضاءها كانوا يُختارون من الدول الاعضاء، إلا انهم كانوا يمارسون وظائفهم مستقلين استقلالاً تاماً عن دولهم، وتتحدد مسؤولياتهم مباشرة من قبل المنظمة الدولية.

والسكرتير العام هو موظف إداري أول في عصابة الأمم، وتطور منصبه كدبلوماسي في الأمور التي تتعلق بعلاقة العصبة بالدول الأعضاء فيها، كما انه كان يقوم بوظيفة المستشار الرئيس لكل من الجمعية والمجلس.

أما كيفية اختيار السكرتير العام للعصبة فلم تكن في البداية محددة، حيث ان أول سكرتير عام هو أريك درموند مساعد وزير الخارجية للبريطاني، واختير لهذا المنصب بواسطة مؤتمر السلام في باريس لفترة محددة، رغم ان ميثاق العصبة قد نص على أن اختيار السكرتير العام سيتم بواسطة المجلس والجمعية، وظل درموند في منصبه حتى عام ١٩٣٢ حيث استقال، وعقب ذلك تقدمت الجمعية على تحديد فترة عمل السكرتير العام بعشر سنوات، وخلفه (أفيلول) في هذا المنصب.

ووجد الرجلان نفسيهما في ورطة من الصراعات السياسية بين الدول الأعضاء من جهة، وبين الجمعية والمجلس من جهة أخرى، وهي صراعات بين مجموعة دول متمردة على الوضع الدولي، وهي ألمانيا وإيطاليا واليابان، وبين الدول التي تدافع عن الوضع الدولي مثل بريطانيا وفرنسا.

١- محكمة العدل الدولية الدائمة The Permanent Court of International Justice :

من الانجازات المهمة لعصبة الأمم هو إقامة محكمة العدل الدولية الدائمة، وقبلها كانت المحكمة الدائمة للتحكيم التي أقامها مؤتمر لاهاي الأول عام ١٨٩٩، ولم تكن محكمة دولية حقيقية، حيث لم تنص على تشكيل لجان محكمين.

يتم اختيار المحكمين أو للحكام من بين رعايا الدول الأعضاء في المؤتمر للتحكيم في نزاعات بذاتها، وتتوقف مهمتهم عند هذا الحد، أما نظام محكمة العدل الدولية الدائمة فقد ذهب إلى أبعد من ذلك، واتخذ للقانون الذي أنشأ المحكمة الدولية شكل معاهدة منفصلة عن ميثاق عصبة الأمم، وكان القصد من ذلك تمكين الدول غير

الأعضاء في العصبة من أن تعرض نزاعاتها على المحكمة، وبذا فإن مسؤولياتها لم تكن بالنظر إلى حل الخلافات بين الدول الأعضاء في المنظمة، وإنما تعدتها إلى الحد الذي أصبح معه دور هذه المحكمة دوراً قضائياً عالمياً.

أُخذت محكمة العدل الدائمة، ومقرها لاهاي بهولندا، وتتمتع باختصاصات واسعة في الموضوعات المتصلة بتفسير وتطبيق قواعد واحكام للقانون الدولي، وحل النزاعات الدولية عن طريق التسوية القضائية.

وضمت المحكمة الدولية في عضويتها (١٥) قاضياً يُختارون لكفاءتهم ومقدرتهم البارزة في القانون الدولي، ويكونون مستقلين استقلالاً تاماً عن حكوماتهم للوطنية، وقد حاولت عصبة الأمم أن تسهل من مهمة للمحكمة الدائمة بأن عملت على تقنين قواعد للقانون الدولي، ومن ناحية أخرى فإن ما أضعف مكانة المحكمة الدولية هو أنها لم تمنح لاختصاصاً إجبارياً في نظر للنزاعات الدولية الذي يجعلها قادرة على دعم السلام وحل الأزمات الدولية التي تنشأ بين حين وآخر^(١٩).

٥- مكتب العمل الدولي International labour Office:

هو منظمة العمل الدولية التي أقيمتها العصبة، وهادفاً هو العمل على تحسين ظروف العمل الدولي في دول العالم، وتكون الجهاز التنفيذي للمنظمة من ممثلين عن للحكومات وأصحاب الأعمال والعمال، وتتخذ للقرارات الهامة عادة خلال الاجتماعات السنوية للمنظمة.

ثالثاً: منجزات عصبة الأمم

أن من الانجازات عصبة الأمم ما يتعلق بنظام الانتخاب وحقوق الاكليات والتعاون الاقتصادي والفني والدولي، فكان تنفيذ عصبة الأمم لنظام الانتخاب الذي جاء به الميثاق من الانجازات المهمة للمنظمة الدولية، فالشعوب التي كانت خاضعة للدولة الاستعمارية التي تهيمنت في الحرب العالمية الأولى، لم ينظر إليها على أنها أسلاب، بل من حق الدول المنتصرة اقتسامها والمسيطرة عليها كمناطق نفوذ جديدة لها، كما كان يحدث قبل قيام العصبة، وإنما انتقلت مسؤولية إدارتها والاشراف عليها إلى المنظمة الدولية التي مارست ذلك من خلال بعض الدول التي عُهد إليها بسلطة الانتخاب على

هذه الأقاليم والشعوب التابعة لها، حتى يمكن أن نصل إلى مرحلة للتضج السياسي وتستطيع أن تحكم نفسها بنفسها، ولهذا يعتقد الكثيرون أن الانتداب ما هو إلا شكل من أشكال الاستعمار السابق، أمكن دولاً كبرى من أن تسيطر على دول صغيرة وتسخرها لخمسها، وتم هذا باسم عصبة الأمم.

وكان الاهتمام الآخر للعصبة هو حماية حقوق الاقليات، وهو بمثابة تحمل مسؤولية جديدة لم تدخل ضمن اهتمامات التنظيمات الدولية سابقاً، وقد عهد بمسؤولية حماية حقوق الاقليات إلى مجلس العصبة، استناداً في ذلك إلى معاهدات الاقليات المعقودة بين الدول المتحالفة وبين تشيكوسلوفاكيا واليونان وبولندا ورومانيا ويوغسلافيا، وتعهدت الدول الأطراف بالعمل على حماية حقوق الاقليات التي توجد داخل حدودها، وفي مقدمتها الحقوق التي نص عليها في ضمان الحريات الدينية والمساواة المدنية والسياسية والحقوق الاجتماعية التي تنصرف إلى أمور اللغة والتعليم والفرص للمتكافئة في العمل.

وتلقت العصبة العديد من الشكاوى بخصوص الصراعات العرقية رغم أن ميثاق العصبة لم يخولها هذه السلطات صراحة، وحدث أنه نتيجة ممارسة للمجلس لهذه المسؤولية الخاصة بحماية الاقليات أن قامت عدة دول على عقد اتفاقيات لحقوق الاقليات، وقررت للمجلس بسلطة التحكيم التي تنعاً بسبب سوء تطبيق هذه الاتفاقيات أو انتهاك بعض الأطراف لالتزاماتها.

وبعد نجاح العصبة في حل مشاكل الاقليات مع بعضها، تم الاتجاه نحو إقامة ميثاق عالمي لحقوق الاقليات على غرار للميثاق العالمي لحقوق الإنسان الذي أصدرته الأمم المتحدة بعد ذلك، وقد طالب مجلس العصبة جميع الدول الاعضاء في عام ١٩٣٣ بمنح الاقليات العنصرية والدينية واللغوية نفس الحقوق التي تكفلها هذه الدول لمواطنيها؛ أسوة بما تقوم به الدول الأطراف في هذه المعاهدات من ضمان لحقوق الاقليات، بل أن المجلس طالب بإعطاء حق تقرير المصير لبعض الاقليات، مثلما حصل لإقليم السار، حيث جرى استفتاء عام ١٩٣٥، والذي كان من نتائجه أن قرر السكان الانضمام إلى ألمانيا، وليس إلى فرنسا، وتحت إشراف عصبة المتحدة. إلا

إن التوسع في تحقيق هذا الأمر فضل على المدى المستقبلي لتضارب مصالح الدول الكبرى الجغرافية والسياسية حيال قضايا الاقليات.

أما الانجاز الآخر للعصبة فهو التعاون الدولي الاقتصادي والفني من خلال المكاتب واللجان والهيئات التي انبثقت عن العصبة، وهي:

أ- للمنظمات الاقتصادية والمالية التي قامت بعمل دراسات موسعة، وتقديم مقترحات وتوصيات إلى كل من جمعية عصبة للعصبة والمجلس في مجال اختصاصها، وبعدد بعض المؤتمرات الاقتصادية والمالية ونشر للكتاب الإحصائي السنوي والمسح الاقتصادي العالمي والمطبوعات الاقتصادية الأخرى.

ب- منظمة الصحة التي قامت بتحضيرات ولقاءات في مواجهة الأمراض والأوبئة ومنع لانتشارها، وتشجيع الأبحاث والدراسات الخاصة بالصحة، وتقليل للوفيات بين الأطفال، ومهدت للمنظمة الطريق أمام ظهور منظمة الصحة العالمية التي ستبني للأمم المتحدة فيما بعد.

ج- منظمة الاتصالات والبرقيات، وهي منظمة أخرى اهتمت بالتحضير لعقد معاهدات، وإجراء دراسات حول مشكلات الاتصال والنقل الدولي، وظهر بعدها منظمات وهيئات دولية متخصصة في هذا المجال، مثل الوكالة الدولية للطيران المدني واتحاد للنقل الدولي والمنظمة للبحرية الاستشارية العالمية.

د- لجان في إطار عصبة الأمم اهتمت ببحث موضوعات السلاح والمصائل العسكرية وللتعاون الثقافي ووسائل مكافحة العقاقير المخدرة والرقيق وغيرها.

هـ- للجان التي أقيمت بصفة مؤقتة للنظر في المسائل، مثل بحث مشاكل اللاجئين ووسائل تسوية النزاعات، وتقنين القانون الدولي، وتعديل ميثاق عصبة الأمم.

و- الأجهزة الإدارية التي أقامتها عصبة الأمم لتؤدي مسؤوليات معينة، مثل رعاية اللاجئين ومتابعة معاهدات السلام، وتقديم للقروض الدولية^(١٠).

رابعاً: لماذا فشلت العصبة

رغم أن عصبة الأمم حققت إنجازات مهمة في بعض المجالات، لكنها من جهة أخرى فشلت في القيام بمسؤولياتها الأساسية، وهي فرض السلام والأمن الدوليين،

وتطبيق نظام الأمن الجماعي في ظل العصبة، ولعل أهم أسباب فشل العصبة ما يلي:

١- إن ميثاق العصبة كان جزءاً لا ينفصل عن معاهدة فرساي وتسويات الحرب، وكانت هناك دول عدت معاهدة فرساي إجراءً انتقامياً من الحلفاء ضد ألمانيا، من حيث هويتها ووحدتها ومكانتها الأوروبية والدولية، ومن ثم فإن رفض هذه الدول لتسويات الحرب كان يعني خروجها على ميثاق عصبة الأمم الذي حاول تجميد الأوضاع الدولية في إطار توازن القوى الذي خلفته هذه التسويات.

٢- تخلى بعض الدول الكبرى التي تركز عليها مسؤولية حفظ السلام والأمن للدوليين عن تأييد العصبة، فالولايات المتحدة لم تنضم إليها، وفضلت العزلة وسياستها التقليدية السابقة، فضلاً عن أن ألمانيا وإيطاليا واليابان انسحبت من العصبة، حيث تعارضت لطماعها القومية وسياساتها الإقليمية للتوسعية مع أوضاع التوازن الدولي، والذي منعه العصبة، وكان لهذا الانسحاب بطبيعة الحال أثره الواضح في انهيار العصبة.

٣- ظهور أنظمة استبدادية وديكتاتورية في عدد من الدول، مثل إيطاليا وألمانيا واليابان، وما قامت به من تصرفات في الانتقام من الدول للحليفة، وللأثر من هزيمتها (أي ألمانيا) في الحرب العالمية الأولى، واتباعها سلوكاً خارج للقانون الدولي.

٤- عدم وجود آلية سياسية مدعومة بالية عسكرية في تنفيذ خطط السلم والأمن في العالم، سواء من قِبل قوات التدخل الدولية، أو قوات حفظ السلام، فضلاً عن أن قرارات العصبة لم تكن ملزمة للدول، ولم تكن الدول الكبرى الأعضاء قادرة على تحويل قراراتها المهمة والمصيرية لإقامة السلام في حالة اعتداء هذه الدولة أو تلك^(٢١).

الفصل الرابع

روسيا والنورة البلشفية

والنظام الشيوعي

مقدمة

أولاً: روسيا والحرب والصراع الداخلي

في الوقت الذي كانت فيه الحرب على الأبواب في أوروبا، كانت الأوضاع في روسيا على غير ما يطمح الحلفاء، وكانت جماعات من الروس يستعدون لحدث انقلاب في الحكم، وأكثر تلك الجماعات هم (الانكوبريون) الذي أطلق عليهم هذا اللقب لأنهم طالبوا القيصر نيقولا الثاني بأن يحقق ما جاء في تصريح الثلاثين من أكتوبر/ تشرين الأول عام ١٩٠٥، حيث وعد بأن لا يسري أي قانون بغير رضى الهيئة التشريعية في البلاد وهي الدوما، وتعهد بأن يحترم الحرية الشخصية، ومنح مجلس الدوما سلطة واسعة في سن القوانين.

وأغلبية هؤلاء الانكوبريين كانوا من الأشراف الأحرار الذين كانوا يؤيدون قيام حكومة مسؤولة أمام مجلس الدوما، كما هو الحال بالنسبة لمجلس اللندناغ في بروسيا.

وهناك حزب للديمقراطيين الدستوريين الذين يطلق عليهم تسمية الكانت، وهم من الجامعيين وأصحاب المهن والرأسماليين والنبلاء المتطرفين، وهذا الحزب كان يطالب باتساع سلطة الدوما والمسؤولية للوزارية، ويطالب بحكومة نيابية على الطراز الإنكليزي.

وكان أعضاء الحزبين يهدفون إلى اتخاذ خطوات نحو الحكم الدستوري، ولكنهم يفضلون تحقيق ذلك بالوسائل السلمية عن طريق للمجلس التشريعي، وكانوا لا يزالون يعتقدون أن للتاج القيصري يمثل وحدة البلاد، ويرون الإبقاء عليه؛ محافظة على الوحدة القومية الروسية.

لما المتطرفون فهم الثوريون الاشتراكيون، ومعظم انصارهم من الفلاحين يقودهم مستيريون من أهل الأرياف الذين أرادوا الإصلاح، ويهدف هؤلاء إلى نقل الأرض من الملكية الخاصة إلى العامة، وبذلك تصبح الأرض ملكاً للشعب كله، لأن الأرض التي سُمح للفلاحين بشرائها عند تحريرهم عام ١٨٦١، كانت من القلة، بحيث لم تعد احتياجاتهم؛ لأن زيادة السكان باستمرار جعلت الأراضي التي مُنحت للفلاحين

تتقلص تدريجياً، وكان الأمل الوحيد أمامهم هو تلك للضياع الواسعة التي كانت لا تزال عن الناج لو الكنيسة، والطبقة الارستقراطية من الأشراف الإقطاعيين، ويرى حزب الثوريين الاشتراكيين ان تحقيق هذا الأمر لا يتم إلا عن طريق الثورة.

لما للحزب الديمقراطي الاشتراكي فقد انتشرت مبادئ بين عمال المصانع الذين كانوا على استعداد للتعاون مع للدعاية الاشتراكية؛ لشعورهم في ذلك الوقت بالظلم، والحرمان من التصويت في الانتخابات، وفرض عليهم نظام صناعي يُحرّم عليهم إنشاء نقابات أو منظمات تتطرق باسمهم، وكانوا يحلمون بأن تنتقل السلطة إليهم، عندما سيطروا على المصانع، وأن يطردوا للرأسماليين، ويدخلوا ما يشاءون من التعديل على نظام للعمل من حيث تقليل عدد ساعاته، وزيادة الأجور، وكان جُلّ همهم قيام ثورة تمسّط الإمبراطورية القيصرية وتحل الاشتراكية.

انقسم الديمقراطيون الاشتراكيون على أنفسهم عام ١٩٠٣ بسبب التنظيم الداخلي للحزب، ثم اتسعت الخلافات حتى أصبح للحزب فريقين، ولجتمعا في لندن عام ١٩٠٣، وانقسمت الآراء حول للتعاون بين الاحزاب والتنظيم الحزبي، وترغم لينين أحد الفريقين، وكانوا يعارضون أيّ تعاون مع الاحزاب المعتدلة للبرجوازية، ولا يوافقون على سياسة الاعتدال أو الإصلاح للمتدرج، بل يريدون ان تصل للطبقة للكاحنة إلى مراميها واهدافها.

لما الفريق الثاني فكانوا يريدون تطبيق للنظام الاشتراكي بالتدريج؛ لضرورة البدء بتعليم للطبقة للكاحنة حتى تفهم الاشتراكية، وهذا لا يملح مع التعاون مع الاحزاب الأخرى.

وانضمت الأغلبية إلى لينين، وأصبحت تُعرف بـ(البلشفيك)، وهي كلمة روسية، لما الفريق الثاني فأصبحوا يعرفون باسم (المنشفيك) الأقلية.

فكان البلشفيك يريدون تحقيق الأهداف الاشتراكية عن طريق الثورة، أما للمنشفيك فكانوا يريدون تحقيقها في طريق التطور، ولم تكن الحكومة للقيصرية بعيدة عما يجري، فلاحقت هؤلاء البلاشفة وحجزتهم وسجنتهم، مما دفع لينين إلى الخروج

من روسيا عام ١٩١٤.

وعندما أعلنت الدول المتحاربة لاطلاق الشرارة الأولى للحرب العالمية الأولى، تناست الأحزاب للمعارضة الروسية خلافاتها، وظهرت روح جديدة من الولاء الوطني للقيصر في أثناء الحرب، ولكن الاجماع والولاء الوطني لم يدم طويلاً، إذ اكتسح الألمان للجيش الروسية من غاليسيا وبولندا، فأخذ الروس يستكرون عجز الحكومة الروسية وعدم كفاءة القيادة الروسية والفساد المستشري في البلاد.

والحقيقة ان روسيا لم تكن على استعداد لدخول الحرب، فكانت تنقصها المعدات والأسلحة ووسائل النقل الحديثة، وخلال السنوات الثلاث الأولى من الحرب، جندت الحكومة الروسية (١٥) مليوناً من الجنود لم تستطع ان تحقق لهم للتجهيزات والمؤن والأسلحة اللازمة للقتال، وحرمت الأراضي من الفلاحين للمجندين في الحرب، وأثر ذلك على المحاصيل الزراعية مع نقص الخبرة وانتشار المجاعة، فكانوا أيدي عاملة ذات عبء ثقل في ساحات الحرب.

وسيادة روح من الفساد الحكومي، وسوء حالة للجيش، وقلة الأسلحة، وسوء التدريب، وسوء للتغذية أثرت على عملية استقرار البلاد، وبدأت مرحلة فوضى عامة. وتولت الهزائم العسكرية بالجيش الروسي، وقُتل الملايين وجرحوا في ميادين القتال، واضطربت البلاد، ونظر الشعب إلى الحكام بالشك والريبة تجاه ما يحدث، وخاصة القادة الذين ألحقوا بروسيا الهزيمة مع الفساد وعدم الكفاءة، فاندلعت المظاهرات والاضرابات في المدن والقرى.

واختار القيصر في فبراير/ شباط ١٩١٦ بوريس ستورمر رئيساً للوزراء، وهو رجل محافظ من كبار الإقطاعيين الأرستقراطيين، وهو من أصل ألماني، وصاحب ميول ألمانية، حتى أنه اتهم بتدبير هزيمة الجيش؛ ليمهد لعقد الصلح بين روسيا وألمانيا، فضلاً عن ان الاسرة المالكة للروسية كانت واقعة تحت تأثير الراهب جريجوري راسبوتين الذي اعتقد للكثيرون انه كان على صلة مع المنظمات الألمانية في بتروغراد.

وتبين للحزب المتطرفة والمعتلة عام ١٩١٦ ان انتصار روسيا في الحرب أصبح بعيداً، ما دامت الطبقة الارستقراطية تحكم وتسيطر، وفي نهاية العام كانت الاستعدادات قائمة في كثير من الدوائر للقيام بالثقل، وإجبار القيصر نيقولا الثاني على التنازل عن العرش.

وكانت تسري في الجيش الروسي والذي معظمه من الفلاحين والعمال روح السخط والقلق واللبؤس، وفي شتاء ١٩١٦-١٩١٧ أخذ الجيش الروسي يسير نحو الاحتلال والهزيمة، وعدم مواصلة القتال وانعدام النظام، وعدم الثقة بالقيادة العسكرية ولذلك كان الجيش أول بذور الثورة عام ١٩١٧، في الوقت الذي كانت فيه البلاد تعيش ظروفًا اقتصادية صعبة، وحالة من تئمر للناس، وخاصة للفئات الفقيرة، وأغلقت المصانع، وأرسل الفلاحون إلى ميادين الحرب في الخدمة العسكرية، وظهر شبح المجاعة في البلاد مع قلة المحاصيل والبرد القارس، وتعالى الأصوات للمطالبة بالطعام والوقود.

وفي الثامن من مارس/ آذار ١٩١٧ حدثت مظاهرات في بتروغراد، وحدث إضراب للعمال مع مظاهرات حاشدة، استقال منها المتطرفون، وارتفعت الاعلام الحمراء، واللائحات للمطالبة بالثورة والتغيير والتخلص من الحكم.

وفي الحادي عشر من الشهر نفسه حدث تمرد عسكري بين الجنود في حاميات المدينة، وامتد إلى رجال الحامية مع العمال، وسيطرت قوات الجنود والعمال على العاصمة، وقرر أعضاء مجلس الدوما الاجتماع، وتعيين لجنة مؤقتة تتسلم السلطة، وكون العمال المضربون مجلس السوفيت، وانتخب للمجلس لجنة تنفيذية مؤقتة لتسلم السلطة، فأصبح في العاصمة لجنة معتلة ولجنة متطرفة، وكل منهما تدعي السلطة، إحداهما لجنة الدوما، والأخرى اللجنة التنفيذية السوفيتية.

وحدثت محاولات لدمج اللجنتين في حكومة مؤقتة واحدة على ان تكون أغليتها من وزراء برجوازيين، ويحتفظ فيها بمنصبين لممثلي السوفيت، ولكن اللجنة التنفيذية السوفيتية صرحت بأن ممثلي السوفيت لا يستطيعون الاشتراك في الحكومة المؤقتة، لان الحكومة كانت برجوازية على الرغم من مظاهر تأييد الثورة، وأخيراً

تشكلت الحكومة المؤقتة، وكان أعضاؤها من الأكتوبريين والديمقراطيين الدستوريين. وفي الرابع عشر من الشهر نفسه حاول القيصر أن يصل إلى بتروغراد، ولكن العمال أجبروه على التوقف في القطار الذي كان يقله، في الوقت الذي كان القيصر قد أرسل جيشاً بقيادة أيفانوف للاستيلاء على بتروغراد، ولكن غالبية تلك القوات انضمت إلى الثورة، واضطر للقيصر إلى المسالمة، وحاول تأليف وزارة دستورية، ولكن بدون جدوى، وصمم للثوار وللشعب على أن يتنازل للقيصر عن العرش، ونصح القادة القيصر بالتنازل عن العرش، لأنه الطريق لانتفاذ الموقف، وأخيراً افتتح القيصر بذلك، وأعلن تنازله بشكل مبهني، وأن يليه في العرش بعده أخوه ميشيل بدلاً من انتقاله إلى ابنه الكسيس، علماً أنه بعد أيام من هذا التنازل قبض على القيصر وأسرته، وانتهت أسرة آل رومانوف التي حكمت روسيا القيصرية منذ عام ١٦١٣.

ويبدو أن الشعب لم يكن يزيد الملكية، فالموحيث في بتروغراد كانوا يطالبون بإقامة جمهورية، وذهب وفد من الدوما إلى الدوق ميشيل يبلغه بطلب الشعب بالتنازل عن الوصاية، وتسليم الحكم إلى حكومة مؤقتة، واضطر الدوق إلى تلبية نداء الثورة، وناشد الشعب أن يخضع للحكومة إلى أن يتم عقد الجمعية التأسيسية.

عندما تولت الحكومة للمؤقتة المناصب الحكومية، بدأت الثورة الروسية برجوازية الطابع، وتمثل ائتلاف الأحزاب المعتدلة، ويرأسها جورج نفوف، ووزير الخارجية بول ملوكوف زعيم الحزب الديمقراطي الدستوري، ووزير الحربية الكسندر جونتشكوف زعيم الاكتوبريين، وكرنسكي وزير العدل، فهي حكومة برجوازية لرمستراطية رأسمالية، ترمي إلى إقامة دولة دستورية ديمقراطية برلمانية، والتعاون مع الحلفاء في الحرب، وحماية الملكية الخاصة، وتسوية مسائل الأراضي عن طريق الجمعية التأسيسية، وإن يتم تغيير الحكم عن طريق جمعية دستورية ينتخبها الشعب.

في هذا الوقت كانت طبقات الشعب المتطرفة قد بدأت تنظم نفسها، لكي تضرب بقوة، فتكونت جمعيات سوفيتية لاختارها العمال في المناطق للصناعية، واختارها الفلاحون في الأرياف، وتأسس مثلها من رجال الجيش الأحرار، وازداد نفوذ الأحزاب التي تضم العمال والفلاحين التي تختلف أهدافهم عن الأحزاب الممثلة

بالحكومة، إذ كانوا يريدون استمرار الثورة الاجتماعية، وقلب نظام الحكم والتخلص من البرجوازية، واستيلاء الفلاحين خاصة على الأملاك الواسعة، وتقسيمها دون أي تعويض لمالكيها.

لما العمال يريدون طرد الرأسماليين وإقامة نظام اشتراكي ضمن سيطرة العمال على المصانع، وكان هؤلاء العمال والفلاحون قد ضجروا من الحروب ويريدون الصلح الذي لا تخسر فيه روسيا الكثير من شرفها وسمعتها وإمكاناتها.

وعقدت تلك الطبقات مؤتمر جماعات السوفيت في إبريل/ نيسان ١٩١٧، وكان أعضاء المؤتمر يمثلون حزب للديمقراطيين الاشتراكيين من المنشفيك، والمعتلين من حزب الثوريين الاشتراكيين، وقرر المؤتمر المطالبة بتخلي الحكومة الروسية عن الروح الاستعمارية، والعمل على تحقيق حق تقرير المصير، وعقد صلح عادل لا يؤدي إلى ضم أراضي جديدة، وأن لا تخسر روسيا الشيء الكثير، وتأييد الحكومة المؤقتة على شرط أن تسير وفقاً لهذه المقررات.

إلا أن هذه المطالب لم تلق اهتمام الحكومة، بل أن ميليكوف وزير خارجية روسيا أرسل رسالة إلى حكومات الحلفاء يقول فيها إن روسيا قد عازمت على أن لا تعقد صلحاً منفرداً، ولكنها تريد مواصلة الحرب حتى تحقق النصر الحاسم.

وأثارت هذه المذكرة غضب السوفييتية في بتروغراد، وعقدت عدة اجتماعات في العاصمة وفي موسكو للاحتجاج على سياسة الحكومة، ونادى المتظاهرون بسقوط ميليكوف حتى اضطر للاستقالة من منصبه.

ورأت الحكومة المؤقتة أن عليها تدعيم نفوذها بإجراء إصلاحات، وإخال وزراء يمثلون الأحزاب السوفييتية من المنشفيك، وبعض المعتلين من الحزب الاشتراكي الثوري، وضمت ثلاثة أعضاء من كل حزب منهما، وكانت للوزارة الجديدة تسعى لإعادة النظر بسياسة ميليكوف الحربية.

وقد اتخذ زعماء المنشفيك قرارهم بالاشتراك في الحكومة المؤقتة؛ لأنهم كانوا يريدون القضاء على نشاط البلشفيك، وخاصة بعد أن وصل إلى روسيا نيكولاس لينين Lenin في السادس عشر من إبريل/ نيسان ١٩١٧.

ولد لينين عام ١٨٧٠ في سميرسك وسط وادي نهر الفولجا، من لب كان مفتشاً للتعليم في منطقة سميرسك، ووالدته كانت مدرسة بإحدى مدارس المنطقة، وكان له أخ حُكم عليه بالإعدام؛ لانه شارك في مؤامرة انتهت بمقتل القيصر الاسكندر الثالث في عام ١٨٨٧، وأثرت تلك الحادثة النفسية على لينين تأثيراً كبيراً؛ لانه كان معجباً به، وكان يشارك أخاه آراءه المعادية للقيصرية، وقد تجلت ميوله المتطرفة عندما كان طالباً في كلية الحقوق بجامعة كازان، فقد طرئته الجامعة لاتهامه بالميل المتطرفة وإثارة الطلبة ضد الحكم القيصري عام ١٨٨٧، واضطر إلى الرحيل إلى بتروغراد ليكمل دراسته، وهناك اتصل بجماعات تعتق مبادئ ماركس الاشتراكية للمتطرفة، وأصبح عضواً في الحزب الديمقراطي الاشتراكي، وحكم عليه بالنفي ثلاث سنوات في سيبيريا بسبب نشاطاته الثورية بين العمال في العاصمة، وانتهت فترة سجنه عام ١٩٠٠، وفضل للرحيل إلى سويسرا ليؤسس صحيفة الشرارة؛ لينشر فيها آراءه، ويوزعها في روسيا، وقد أمضى عاماً من حياته (١٩٠٢-١٩٠٣) في لندن، حيث واصل إصدار صحيفته بمعاونة بعض الديمقراطيين الاشتراكيين من الإنكليز، وفي أغسطس/ آب ١٩٠٣ حضر لينين مؤتمر الحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي عقد خارج روسيا، وحصل فيه الانقسام في الحزب بين البلشفيك والمنشفيك، وأصبح لينين زعيم البلشفيك، وتزعم فكرة رفض التعاون مع الاحزاب الأخرى المعتدلة، وبعد لينين بذلك صاحب فكرة البلشفية الاشتراكية والأب للروحي لها، وعاد لينين إلى العاصمة أثناء ثورة عام ١٩٠٥، واقتصر دوره على إثارة العداء ضد مجلس الدوما والاحزاب المعتدلة، واضطر لمغادرة البلاد بعد فشل الثورة، وعاش في الخارج بين (١٩٠٦-١٩٠٧)، وظل يعمل في المنظمات السرية.

وعندما اندلعت ثورة ١٩١٧ كان لينين يعيش في سويسرا، وعندما أعلنت الحكومة العفو عن السياسيين، أصبح الطريق أمامه سالكاً للعودة إلى روسيا، ووصل إلى بتروغراد، وبدأ نشاطه في مهاجمة الحكومة؛ لعجزها عن معالجة قضايا التمرين وشؤون الحرب، وتقصيرها في تأسيس الجمعية التأسيسية الدستورية التي يطالب الشعب بها، واستطاع لينين أن يجمع حوله الانصار من المتطرفين ومع بعض

السياسيين، واصبح للزعيم الأول للبلاشفة، وبعده ليون تروتسكي Trotsky. وكان تروتسكي يهودياً من الطبقة الوسطى يعتنق الأفكار الاشتراكية الثورية، وقد نفي مرتين إلى سيبيريا، واستطاع للفرار منها، وعندما قامت الثورة كان يعيش في نيويورك بعد ان تنقل من فيلا إلى باريس، ثم قرر العودة إلى روسيا، كانت آراء البلاشفة تدعم ثورة الشعب ضد الحكومة المؤقتة، لانها لم تحقق نداء الشعب في مصادرة الأراضي وتوزيعها، ولا القضاء على الرأسمالية في الصناعة، ولم تصرع في عقد الجمعية التأسيسية، ووضع دستور جديد، ولها حكومة تسير في اتجاه مواصلة للحرب رغم ضعف القدرات الروسية الحربية.

لما للبلاشفة لقد اصدروا بياناً لوضحوا فيه برنامجهم الحزبي في الإسراع بعقد للصلح العام، ومصادرة الضياع الواسعة دون دفع تعويض لاصحابها، وان تصبح المصانع للعمال أنفسهم يديرونها، وان يراقب الشعب الانتاج والتوزيع، وان تحل مجالس السوفييت من العمال والفلاحين والجنود مكان الشركات والمؤسسات، وان تحرم الطبقات الرأسمالية من الحقوق السياسية التي كانت تتميز بها.

في هذا الوقت كان وزير الحربية كرنسكي يواصل السير بروسيا في الحرب على أساس ان إحراز النصر للروسي ضد دول الوسط بقوي الحكومة المؤقتة، ويرفع للروح المعنوية عند العسكريين والمدنيين، وفي يوليو/ حزيران ١٩١٧ - وعلى جبهتي للنمسا وألمانيا - قام الجيش الروسي بالهجوم، ولجحت الخطط الأولية، إلى ان انكسرت القوات الروسية وانهارت في التاسع من يوليو/ تموز في تارنوبول، وتمرد الجنود على الضباط، وتكسرت الخطوط الروسية عند غاليسيا.

وفي هذا الاتجاه أيضاً أخذت أوضاع روسيا الداخلية تسير نحو التغيير، وفي السادس عشر من يوليو/ تموز حاول البلاشفة تنظيم ثورة داخلية في تبروغراد مع عدد كبير من رجال الحامية في العاصمة، ومجموعات من العمال مسلحة في مظاهرات واسعة تطالب بإسقاط الحكومة والوزراء، وارتفعت الأعلام الحمراء وحاول، كرنسكي إخماد الثورة بالقوة، وبعد يومين من الصراع تمكن جنوده من السيطرة على الأمور، وهزم البلاشفة وانصارهم من رجال الحامية.

وأدرك البلاشفة أن عليهم كسب المزيد من الانتصار في بتروغراد، وأنهم بحاجة ماسة إلى تأييد الأقاليم ونشر الدعاية للبشفية بين رجال الجيش، وقرر لينين أن يتخلى عن المناداة بإسقاط الحكومة المؤقتة ونشر الدعاية بين رجال الجيش نفسه.

في ظل هذه الأجواء المتوترة استقال ليفون، واختير كرنسكي رئيساً للوزارة، وحاول أنصار الملكية من المحافظين من أحزاب اليمين تأييد الحكم المطلق، ووجد للبلاشفة أنه لا بد من العمل على الدعاية للطبقة العاملة البروليتاريا، وأخذت روسيا تتوجه مازقاً عسكرياً، وتقدم الألمان على ريجا وهددوا مدينة بتروغراد، واستعدت حكومة كرنسكي للانتقال إلى موسكو، وقامت ثورات فلاحية في القرى، وسارت في المدن المظاهرات تطالب بالغذاء، ووصلت حالة البلاد للصناعة والمالية درجة من التدهور، وازداد أنصار البشفية من الفلاحين والعمال والجنود^(١٢).

ثانياً: الثورة السوفيتية ١٩١٧

أدرك لينين أن الوقت أصبح مهيأ، ودعا للجنة المركزية للحزب البلشفي إلى الاجتماع سراً في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٧، وتقرر فيه إعلان الثورة المسلحة ضد الحكومة المؤقتة، وتم انتخاب الأعضاء لتمثيل منظماتهم في المؤتمر، وفي مساء السادس من نوفمبر/ تشرين الثاني أعلن البلاشفة أن أعداء الثورة بدلوا في مواجهتها، وأن قادة القياصرة يريدون القضاء على المؤتمر العام للسوفييت وللجمعية الدستورية، واحتلت القوات البلشفية بسرعة المرافق والبنائات العامة في بتروغراد، مثل السكك الحديدية، ومكاتب الاتصالات، والجسور، وغيرها، وفي الصباح تم الإعلان في بيان من البلاشفة عن إسقاط الحكومة المؤقتة، والقبض على أعضاء الحكومة عدا كرنسكي الذي هرب، وأقر مؤتمر السوفييت العام الانقلاب، وأسس حكومة مؤقتة جديدة باسم المجلس السوفيتي لوكلاء الشعب، وانتُخب لينين رئيساً لهذا المجلس، وتروتسكي وزيراً للخارجية.

وبعد أسبوعين من الثورة أرسل تروتسكي مذكرة إلى الممثلين الدبلوماسيين في العاصمة الروسية يؤكد لهم أن الحكومة السوفيتية تقترح على حكوماتهم عقد هدنة سريعة من أجل إقامة صلح ديمقراطي، ولكن الحلفاء تجاهلوا المذكرة، أما دول الوسط

الذين كانوا يريدون خروج روسيا من الحرب، فقد وافقوا على مقترح الصوفيت، وفتح باب المفاوضات في الثالث من ديسمبر/ كانون أول في بريست ليتوفسك، ثم أعلنت الهدنة بين روسيا ودول الوسط.

وعقد اجتماع الصلح في العاشر من كانون الثاني/ يناير ١٩١٨ في بريست ليتوفسك، وكانت تواجه مشكلات، أهمها مصير البلاد التي احتلتها ألمانيا والنمسا، وطلب البلاشفة لجلاء تلك القوات عن بولندا وكورلاند ولتوانيا على أن يجري استفتاء لأهل البلاد في طبيعة الحكم الذين يريدونه، ورفضت دول الوسط هذا الأمر، ولم يجد لينين إلا التسليم بشروط الألمان؛ حتى يتفرغ لتنظيم شؤون روسيا الداخلية.

وأخيراً تم توقيع معاهدة بريست ليتوفسك في الثالث من مارس/ آذار ١٩١٨، وتضمنت:

١- وافقت روسيا على التنازل عن بولندا ولتوانيا، وترك تقرير مصير تلك البلاد للبت فيه بين ألمانيا والنمسا من سكان البلاد تلك.

٢- للجلاء عن لتوانيا وليتوانيا وفنلندا.

٣- للجلاء عن أوكرانيا والاعتراف بمعاهدة أوكرانيا مع دول الوسط.

٤- التنازل لتركيا عن إرداهان وقارص وباطوم.

٥- الامتناع عن نشر الدعاية البلشفية في الأراضي التي تسيطر عليها دول الوسط.

وبهذا الصلح خسر البلاشفة حوالي ٥٠٠ ألف ميل مربع من الأراضي، ويسكنها ٦٦ مليوناً من الناس، ولكن البلاشفة كانوا يتطلعون للسلام الذي من خلاله يستطيعون أن يقوموا بتجربتهم في قلب نظام الحكم وإقامة بروليتاريا عمالية.

أما دول الوسط فقد أدى انسحاب روسيا من الحرب والثورة الداخلية إلى إلهاء حالة الحرب على الجبهتين بالنسبة لهم، وفتح الطريق لنقل أعداد كبيرة من القوات إلى الميدان الغربي للمشاركة في المعارك الفاصلة في عام ١٩١٨.

وواجه البلاشفة صعوبات في الدخول كان لا بد من حلها، فقد كان أعداؤهم يحاولون النيل منهم، واستمر النضال بينهم وبين المعارضة لهم، ونشبت بينهم وبين انصار الملكية ورجال الدين والاشراف موجات خلال ثلاث سنوات، ودعم الحلفاء

للموقف، وقرروا مساعدة الأحزاب البرجوازية التي تزيد مواصلة الحرب والعودة إلى الجبهة الشرقية، ورأوا الإسراع في إرسال المال والرجال والسلاح إلى روسيا لاستخدامها ضد البلاشفة وغازتهم التسليم الروسي للألمان في هذا الوقت الحرج من الحرب.

ورأى الحلفاء أن يحرّموا الألمان والبلاشفة من اللقطح الحربية للضخمة التي سبق أن بعثوا بها إلى مورمانسك وأركانجل لتكون تحت تصرف الروس قبل تسليمهم، ومدوا الحصار نحو الحدود الروسية، وأرسلوا الفرق العسكرية إلى المناطق تلك، وكانت فرنسا تُشد الحلفاء سخطاً على الموقف الروسي الذي قضى على التحالف الفرنسي الروسي، وأضاع عليها الديون الطائلة التي كتبتها إلى الحكومة الروسية، والتي جاء البلاشفة فأعلنوا عدم اعترافهم بها.

وعندما هُزم الأتراك وانسحبت الدولة العثمانية من الحرب في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٨ لقتحم الفرنسيون البحر الأسود، وضربوا أوديسا بالقنابل واحتلوها، بينما احتلت القوات البريطانية بعض أراضي القوقاز، واستولت على باكو، وذلك لتجميع العناصر الروسية المعادية للبلاشفة على اتخاذ تلك الأقاليم مكاناً للتآمر على قلب نظام الحكم السوفيتي.

وانتهزت جماعات من إستونيا ولاتفيا وليتوانيا وفنلندا والقوقاز الفرصة لتعلن استقلالها، وشجعت رومانيا، واخترقت بعض قواتها بessarabia، وتقوى الأمل في نفوس الروس للبيض، ونظموا أنفسهم بمساعدة الفرق الأجنبية لإقامة حكومات بيضاء، وتأسست حول مورمانسك وأركانجل حكومة روسيا الشمالية المؤقتة، وقام الأميرال إسكندر كولجاك قائد الأسطول الروسي في البحر الأسود السابق بتأسيس حكومة روسية أخرى في سيبيريا في منطقة أومسك بمساعدة الحلفاء والجنود للتشيك، وأسس آخرون حكومات في جنوب روسيا وجنوب أوكرانيا والقرم.

ولما اشتد الصراع بين الأحمر والبيض، وجد البلاشفة أن وجود القيصر نيقولا الثالث وأسرته في معتقلهم قرب تبروغراد قد يشجع العناصر المعادية للثورة بسبب وجود الأمل في رجوع الحكم للقيصري، فأرسلت القيصر وأسرته إلى إحدى مدن الأورال، وفي صيف عام ١٩١٨ استطاعت بعض قوات البيض أن تتخذ طريقها إلى

تلك المناطق، فأُسرع بعض الضباط السوفييت إلى مقر القيصر، وأعدموه مع أسرته رمياً بالرصاص.

ولما رأى البلاشفة أن المؤامرات تحاك ضدهم في الداخل والخارج، قرروا الاعتماد على قوتين: (فرقة الشيكات) و(الجيش الأحمر)، أما الشيكات فتكونت بعد الثورة مباشرة كحامية لحفظ النظام في العاصمة، ولكنها تحولت إلى إدارة لمجابهة العناصر المعادية للثورة، وكان من حق أعضاء الشيكات أن يقبضوا على العناصر التي تعد معادية للحركة السوفيتية ومحاكمتهم وإعدامهم.

أما للجيش الأحمر فقد نظمه تروتسكي ليستطيع أن يتغلب على قوات الروس البيضاء التي سلحها الحلفاء بأحدث الأسلحة، وأصبح هذا الجيش الأحمر على استعداد دائم لمواجهة للخطر الخارجي والدفاع عن البلاد.

وبدا هجوم القوات الروسية للمعادية في عام ١٩١٩، وعلى بعد أميال من تبروغراد، ولكن للجيش الأحمر تصدى لها وهزمها، واضطر الحلفاء إلى سحب قواتهم في أواخر عام ١٩١٩، ورفعوا الحصار عن روسيا في العام التالي، ولم يبق إلا مدينة فلاديفستوك على المحيط الهادي التي بقيت تحتلها القوات اليابانية، وتمكن البلاشفة بين (١٩١٩-١٩٢٠) من طرد الحكومات المعادية في أوكرانيا وروسيا البيضاء، وقبضوا على السلطة في القوقاز وأذربيجان وأرمينيا وجورجيا، وتآلفت بها حكومات لتبعت نهج النظام السوفيتي الجديد.

أما سيبيريا فقد تمكنت القوات الحمراء من الاستيلاء على أومسك وتومسك وارككتسك والمنطقة الغربية من بحيرة بيكال، والتي تكونت منها جمهورية مستقلة باسم جمهورية الشرق الأقصى، وقررت الجمعية التأسيسية في عام ١٩٢٢ التي تأسست في تلك الجمهورية الانضمام إلى جمهوريات السوفييت الاتحادية الاشتراكية الروسية^(٢٣).

ثالثاً: الحكومة والنمستور ولينين

كان مؤتمر السوفييت العام قد أُصدر في ربيع عام ١٩١٨ دستوراً تأسست بموجبه جمهورية السوفييت الاتحادية الاشتراكية الروسية U.S.S.R، وتقرر أن تكون موسكو عاصمة قومية بدلاً من لينينغراد، وأصبحت روسيا دولة اتحادية تستمد مكانتها

من الطبقة العاملة، وذاع شعار لينين (السلطة كلها للسوفييت)، وإن للنظام الجديد يجب أن تحرم منه البرجوازية والارستقراطية، وفي عام ١٩٢٢ اجتمع في موسكو وفود من الولايات البلشفية وقعت معاهدة على أن يبدأ العمل فيها في يوليو/ تموز ١٩٢٣.

كانت دول السوفييت الأربع التي وقعت إنشاء الاتحاد هي جمهورية روسيا السوفيتية الاتحادية الاشتراكية، وروسيا البيضاء، وأوكرانيا، واتحاد جمهوريات القوقاز، ولم يحتفظ البلاشفة بكلمة (الروسية) كصفة لاتحاد الجمهوريات السوفيتية، وذلك لترك الباب مفتوحاً أمام الولايات التي تسكنها أغلبية غير روسية للانضمام إلى ذلك الاتحاد السوفيتي، وكان ذلك الاتحاد يضم الولايات على أساس العقيدة السوفيتية لا العنصر الروسي.

وفي عام ١٩٢٤ انضمت إلى الاتحاد لوزبكستان وتركستان، وهما من جمهوريات آسيا الوسطى، ثم أخذت ولايات أخرى تنضم إلى اتحاد الجمهوريات السوفيتية، حتى بلغت (١٦) ولاية بين (١٩٢٩-١٩٤٠).

وأصبح الاتحاد السوفيتي يتكون من روسيا السوفيتية وأوكرانيا، وبيلاروسيا (روسيا البيضاء)، ولوزبكستان، وكازاخستان، وجورجيا، وأذربيجان، وليتوانيا، ومولدافيا، ولاتفيا، وقرغيزيا، وطاجيكستان، وأرمينيا، وتركستان واستونيا وكابليوفينيا.

١- الدستور السوفيتي:

وبعد أن تم تأسيس اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية اقترح الحزب الشيوعي المهيمن على سياسة الاتحاد تعديل الدستور الذي صدر عام ١٩١٨، والذي تأسست به جمهورية السوفيت الاتحادية الروسية، وتضمن الدستور الجديد عدة مبادئ أصبحت أساس العلاقات التي تربط بين الاتحاد السوفيتي الجديد، وتقبل بها القوميات بين الشعوب السوفيتية وتضمن للمساواة في الحقوق والواجبات لمختلف الجمهوريات واستقلال تلك الجمهوريات استقلالاً تاماً، أي أنها تمارس على أراضيها سلطة للدولة، فيما عدا الشؤون الخارجية العليا التي تتولاها الهيئة العليا في الاتحاد السوفيتي، وضمان حقها في استخدام اللغة الوطنية وإنشاء مجلس (سوفييت للقوميات)، تمثل فيه جمهوريات الاتحاد على قدم المساواة.

أما نظام الحكم في الاتحاد السوفييتي فهو نظام هرمي قاعدته للواسة
الفلاحون والعمال والمتقنون، منظمين في لجان لو مجالس محلية، يدعى كل منها
سوفيت أي - بالرومية - مجلس.

وتنتخب سوفيتات القرى مندوبيها في سوفيتات للمراكز، ويبحث سوفيت كل
مركز بمندوبين إلى سوفيتات الأقاليم، وتختار هذه مندوبيها في سوفيت الجمهورية،
ويختار هذا المجلس ممثليه في المؤتمر السوفيتي للعام للاتحاد السوفيتي، وهو قمة
الهرم الانتخابي للسوفيتي.

وفي عام ١٩٣٦ أدخلت تعديلات على الدستور السوفيتي، أهمها تأسيس
السوفيت الأعلى للاتحاد من مجلسين، سوفيت الاتحاد وسوفيت القوميات، وينتخب
مواطنو اتحاد الجمهوريات السوفيتية سوفيت الاتحاد على حسب الدوائر الانتخابية،
بمعدل نائب واحد عن ٣٠٠ ألف نسمة من السكان، وهو يمثل للمصالح العامة لكل
المواطنين بغض النظر عن قومياتهم، أما مجلس سوفيت القوميات فينتخب مواطنو
الاتحاد اعضاءه على حسب للجمهوريات الاتحادية والجمهوريات ذات الحكم الذاتي،
والأقاليم القومية بمعدل ٢٥ نائباً عن كل جمهورية اتحادية، و١١ نائباً عن كل
جمهورية ذات حكم ذاتي، و٥ نواب عن كل منطقة من المناطق التي تتمتع بالحكم
الذاتي، ونائباً واحداً عن كل دائرة قومية، وبذلك يعبر مجلس سوفيت القوميات عن
للمصالح لكل ما في الاتحاد السوفيتي من أمم وقوميات؛ ذلك لان الاتحاد السوفييتي
يشتمل على أنواع من التشكيل الإداري من جمهورية متحدة، وجمهورية ذات استقلال
ذاتي، ومنطقة ذات استقلال ذاتي وإقليم قومي.

أما الجمهورية ذات الاستقلال الذاتي، فهي دولة تشكل جزءاً من جمهورية
متحدة من جمهوريات الاتحاد السوفيتي، إذ يوجد في جميع للجمهوريات أقلييات لها
خصوصيات قومية، وقد حرصت هذه القوميات أو الاقلييات على أن يكون لها كيان
داخلي خاص، تتمتع فيه بحقوق للدولة ذات الاستقلال الذاتي، وتستعمل اللغة الوطنية،
ولكل جمهورية ذات استقلال ذاتي دستوراً الذي يراعي خصائصها القومية، وينطبق
مع دستور لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، وكل جمهورية ذات استقلال ذاتي

ترسل نوابها مباشرة إلى مجلس سوفيات القوميات، وفي الوقت نفسه تشترك في الانتخابات العامة التي تجرى في الجمهورية الاتحادية التي تنتسب إليها.

لما للمنطقة ذات الحكم الذاتي فتميز عن المناطق الإدارية العادية بتركيبها القومية الخاصة، فهي التي تعين اللغة التي يجب استعمالها في المدارس والإدارات، وترسل نوابها مباشرة إلى مجلس سوفيات القوميات.

وأبرز تعديل هو الذي اقترحه مولوتوف عام ١٩٤٤ بمنح للجمهوريات الاتحادية حق إنشاء علاقات خارجية بينها وبين الدول الأجنبية، وإن تعقد معها اتفاقات وتبادل معها الممثلين السياسيين، وإن تمثل تمثيلاً مستقلاً في الهيئات الدولية، ومنح للجمهوريات الاتحادية أن يكون لها وحدات عسكرية باسمها في الجيش السوفييتي.

نبدو هذه التعديلات وكأنها منحت الجمهوريات استقلالاً في شؤونها الخارجية، إلا أنها لا تستطيع أن تخالف السياسة العليا التي ترسمها السلطات المركزية، وذلك لأن الحزب الشيوعي يسيطر بشكل تام على شؤون الحياة في جميع أرجاء الاتحاد السوفييتي، والحزب الشيوعي مجلس عام له لجنة تنفيذية من (٧١) عضواً، ولكن السلطة النهائية بيد للمكتب السياسي، أي المجلس الأعلى للحزب الذي يتألف من (١٢) عضواً، وتكونت في المجلس الأعلى لجنة الخمسة التي تزعمها ستالين، وهم يسيطرون على جميع الأعضاء، ويضعون أسس تطوير السياسة السوفيتية.

نص الدستور الجديد على أن الأسس الاقتصادي للاتحاد السوفييتي يتكون من النظام الاقتصادي الاشتراكي والملكية الاشتراكية لأدوات الإنتاج ووسائله، ويعني هذا أن الملكية الفردية لأدوات الإنتاج ووسائله قد ألغيت، وإن الناس يعملون في المصانع بدون رأسماليين وللعمال في الزراعة دون كبار ملاك الأراضي، وأصبحت ملكية الأرض إما ملكية دولة، حيث توجد مزارع تقوم الحكومة بإدارتها، ويشتغل بها عمال مأجورون، أو ملكية تعاونية، أو ملكية مزارع مشتركة، وتشتمل على وحدات زراعية كبيرة يشتغل فيها الفلاحون المتعاونون تحت رقابة حكومية، وتقرض عليها أنواع خاصة من الزراعة، وتمدها الحكومة بالآلات الزراعية وغيرها، والواقع أن للفلاحين هم أعضاء في تلك المزارع المشتركة، وجميع الأدوات الزراعية والحيوانات والأبنية

للخاصة تعد ملكاً اشتراكياً تعاونياً، لما الأرض فهي ملك للدولة وملك للشعب.

وكل أسرة في التعاونية لها ان تستفيد إلى جانب نصيبها من الدخل الأساسي للمزرعة من قطعة أرض صغيرة ملحقة بمكسها تستغلها دون ان تستخدم عمالاً غرباء لزراعتها، ولا تعد الأرض ملكاً خاصاً للأسرة أو للهيئة التعاونية، فكل ما هناك ان الدولة قلمتها لها للتمتع المجاني بها لمدة غير محدودة، أي إلى الأبد، وأنشئ في القرى عدد من الأندية والمدارس ودور الحضائنة، ويعتقد الروس انه بفضل الأسرة هذه ازدهر الانتاج الزراعي بقوة، وتحسنت حياة الفلاحين ثقافياً وصحياً واقتصادياً.

ويتم توزيع دخل الأمر بين الأعضاء وفق المبدأ الاشتراكي بنسبة كمية العمل الذي بذله، وحالة المحصول والمأشئة، وعلى هذا يعمل الفلاح على المساهمة مع رفاهه في نمو الدخل، حيث المصلحة لم تعد شخصية، بل جماعية.

٢- ديكتاتورية للنظام:

كان قادة للنظام البلشفي الاشتراكي الشيوعي الجديد متأثرين بأفكار منطرفة، وخاصة الزعيم لينين الذي تأثر بتعاليم كارل ماركس ذي الدعوة إلى الاشتراكية المنطرفة الشيوعية، وكان ماركس قد لقي الاضطهاد من الحكومة الروسية، واغلقت صحيفته، وهاجر إلى باريس، واتصل بالاشتراكيين الفرنسيين، وقابل انجلز الاشتراكي الألماني، وامضى حياته في إنكلترا، وفي عام ١٨٤٥ طرد ماركس من باريس، واختار للذهاب مع صديقه انجلز إلى بروكسيل، وهناك وضع دستور الجمعية الشيوعية، وغرف بلاتحة عام ١٨٤٨.

عاد ماركس إلى ألمانيا، وأصدر صحيفة اشتراكية صادرتها الحكومة، وبعد فشل ثورات ١٨٤٨ في أوروبا وألمانيا خاصة، هاجر إلى لندن، وقضى بقية حياته هناك، وكتب مؤلفه الشهير رأس المال.

دعا ماركس في اشتراكيته إلى ان يكون الأساس هو التطور التاريخي والتكيف الحتمي بفعل لقوى الاقتصادية عن طريق أهم مصدر من مصادر الثروة، وهي عوامل الانتاج، فالطبقة التي تستطيع ان تمتلك الانتاج تتمكن من الاستيلاء على الحكم اعتماداً على سلطة الاقتصاد لان وسائل الانتاج وأساليب توزيع الثروة هما أساس الحياة

الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وهذا التفسير جعل ماركس يرى ان اشتراكيته إنما هي اشتراكية علمية لها قواعد وقوانين، ولن للقوة الاقتصادية انتقلت عبر التاريخ من طبقة إلى أخرى، وانتهت الشيوعية البدائية في العصور السحيقة، وحلت محلها النظم الاقطاعية التي يمثلها أصحاب الأراضي الذين يعتمدون على الحكم الاستبدادي الإقطاعي، ثم جاء عصر البرجوازية الرأسمالية، فحلت محل النظام الإقطاعي، وهنا ينادي ماركس انه حان الوقت للطبقة العمالية الكادحة البروليتاريا لكي تقهر الطبقات البرجوازية، وتتزعزع ملها كل شيء، وتقيم ديكتاتورية جديدة تختلف عن ديكتاتورية الرأسماليين، واعتقد ماركس ان النظام الرأسمالي يحتوي على عوامل داخلية هدامة، فقد قام على المنافسة الحرة في سبيل للحصول على الأرباح الخاصة، وهي منافسة تؤدي إلى نجاح أصحاب رؤوس الأموال المتميزين، ولكتساح منافسهم في الأعمال الحرة، وتتجمع بذلك الثروة وتتركز في أيدي القلة، ولان كبار الرأسماليين يبتلعون صغارهم - وهم من الزراع وأصحاب المهن الصغيرة - سوف يفضلون الانضمام إلى الطبقة العاملة، ثم ان فقر الشعب يؤدي إلى التدهور الاقتصادي وفشل للصناعة، وانهايار النظام الرأسمالي كله، وهذه تمهد للسبيل لقيام الثورة الاشتراكية في الدول للصناعية الكبرى، ثم منها لدول أخرى.

استطاع ماركس ان ينشر افكاره بين العمال في دول عديدة، لانه يدعو للعمال في جميع البلاد إلى التكاتف ضد طبقة الرأسماليين ولتأسيس اشتراكية عالمية دولية، ودعا إلى اجتماع في لندن حضره مندوبو عمال فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبولندا في عام ١٨٦٤ لتوحيد كلمة العمال في مختلف الدول، ونشأت الحركة الشيوعية الدولية، وتأسست الدولة لو الأممية الأولى، إلا ان أوضاع أوروبا في تلك الفترة لمثلت هذه الأممية الأولى، وتفرقت كلمة العمال، وانحلت عام ١٨٧٤.

ومع قيام الحرب العالمية الأولى ظهرت للحركة الدولية للثانية، إلا ان القومية تغلبت على الطائفية، أي على الاشتراكية العمالية العالمية، وطغت الوطنية على روح الولاء للعالمية الدولية التي تسعى إلى تكتل العمال ضد الرأسماليين في كل مكان.

ولجأت دول عدة إلى الاستجابة لمطالب العمال علدها، وصدرت تشريعات
قُصد منها تحقيق الإصلاح الاجتماعي، وتمكّن عدد من الاشتراكيين في الدول
الديمقراطية من الوصول إلى البرلمان والاستجابة إلى معظم مطالب العمال دون
اللجوء إلى العنف والثورة أو هدم النظام الاجتماعي، إلا أن قلة ظلت على ولائها
للماركسية التي تنادي بالثورة والعنف، وأطلق عليهم اسم الحزب الشيوعي بعد الحرب
العالمية الأولى؛ تمييزاً لها عن المذهب الماركسي بدلاً من الطابع الاشتراكي المعتدل
الذي تميزت به معظم الأحزاب الأوروبية.

٣- الماركسية اللينينية:

استجاب لينين لأراء ماركس واعتقها، ولكنه اختلف معه في الوسائل التي
يمكن أن تؤدي إلى الثورة، وحاول أن ينظر بأراء ماركس من الفلسفة الخيالية إلى نظام
واقعي للحكم، ورأى لينين صعوبة أن يقوم الشعب بالثورة بإرادته، ووجب أن تقوم
الثورة على يد فئة منظمة قليلة، يتزعمها منحمسون للشيوعية، ويرسم هؤلاء خطط
نجاح للثورة، ولكن ثبت أن هناك هوة في الواقع بين الخيال والتطبيق العملي، وبدأ
يعمل على إقامة ديكتاتورية العمال للمؤقتة كنظام تتبعه روسيا للانتقال من النظام
الرأسمالي إلى النظام الشيوعي.

ولم تطبق نظريات ماركس على الثورة في روسيا، لأن ماركس اعتقد أن
الثورة سوف تبدأ في الدول الصناعية، كما رأى ذلك نتيجة انهيار النظام الرأسمالي،
ولكن روسيا كانت أقل الدول تقدماً في الجانب الصناعي؛ لأن نظامها للرأسمالي تدهور
بشكل كبير.

ثم أن الثورة الروسية قامت على أساس ظروف مختلفة هي ظروف الحرب،
وفشل الحكومة؛ خلالها مما أدى إلى سقوط القيصر، ولولا هذا لظل النظام القيصري
بحكم روسيا طويلاً، والعامل الآخر هو أن لينين قد أخذ على عاتقه أن يقوم باحداث
الانقلاب نظراً لكفائته ومقدرته الكبريين.

أطلق على نظامه اسم ديكتاتورية الطبقة الكاسحة (البروليتاريا)، إلا أنه كان

يرى ان دور هؤلاء العمال الذين يحكم باسم ديكتاتوريتهم لم يأت بعد، لانهم حسب رأيه جهلة وغير مدربين، وليسوا أكفاء للقيام بديكتاتورية الحكومة، فقد أثرت عليهم القرون الطويلة تحت حكم الرأسمالية، وعلى ذلك لا يمكن ان يوكل إليهم الحكم، بل تتولى الأمر فئة من البلاشفة.

وهكذا تطورت الفكرة الشيوعية الروسية من ديكتاتورية للعمال الكادحين إلى ديكتاتورية للنخبة الممتازة، لتحقيق ديكتاتورية للعمال الاشتراكية، ولم يجد لينين ان العمال انفسهم جديرون بالحكم، ولكن الضرورة المؤقتة ظلت حقيقية، وتحكمت النخبة في شؤون الدولة، والواقع ان الديكتاتورية في الاتحاد السوفيتي ليست الجماهير الكادحة، ولكنها الحزب الشيوعي، فهو القائد للمجتمع والطليعة المثقفة والمسلحة بالنظرية الماركسية للبلدية.

وتمثلت الديكتاتورية الشيوعية في تحكم السوفيتية في حرية للعمل وحرية الصناعة وحرية للبحث، بحيث توجه العمال والمدرسين والفنانين والمربين على أسس شيوعية؛ لان الماركسية هي الفلسفة للرسمية المعترف بها في جميع نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

لما للحكومة فهي تسيطر على الصحف والمؤلفات والمسارح والإذاعة والمباني والاتصالات والمعامل والمصانع وغيرها، ومن الناحية الاقتصادية فالحكومة السوفيتية هي التي تمتلك وتدير وسائل الانتاج والتوزيع كلها، والتجارة الخارجية، والعمليات التجارية والتصدير والاستيراد، وتهتم بالبضائع وحركتها وكمياتها وتدفقها.

لما في الزراعة، فقد اتبعت الحكومة نظاماً آخر هو المزارع المشتركة أو الجماعية التي تستغلها جماعات تعاونية من الفلاحين، عليها ان تباع للحكومة نصف محصولها بالسعر الذي تحدده الدولة، أما ما تبقى من المحصول، فينقسم بين الفلاحين بنسبة العمل الذي يؤديه كل منهم، وإلى جانب هذا هناك نوع آخر من المزارع يتبع للدولة مباشرة، وهو مؤسسات زراعية مشتركة، اسمها الولوخور التابعة للدولة والمختصة بالحبوب والقطن والماشية والأشجار المثمرة والفواكه والحمضيات وغيرها،

وتتعاطى عدة محاصيل زراعية، ولا تقتصر على محصول معين، وتقوم بتربية الماشية أيضاً، وتحصل على مداخيل كبيرة للدولة.

ونمت للصناعة أيضاً كمصدر للثروة في البلاد، وجرى للتصنيع مستنداً إلى الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج، وفي عام ١٩٤٠ كانت للصناعة السوفيتية تنتج أكثر مما كانت عام ١٩١٣ بحوالي ١٢ ضعفاً، وكان الاتحاد السوفيتي قبل الحرب للثالثة يشغل المركز الأول في أوروبا والثاني في العالم من الناحية الصناعية.

ثم جاء عهد ستالين الذي خلف لينين عام ١٩٢٤، واستمد سلطته من مركزه كمسكرتير للحزب الشيوعي، وعضو المكتب السياسي الذي سلطته تعلو على مجلس الوزراء، وعندما مات لينين نشب نزاع بين ستالين وتروتسكي.

كان لينين قد عين ستالين مسكرتيراً للحزب، ولأخذ يعمل على إظهار نفسه للرجل التالي بعد لينين، ولكن كانت أمامه شخصية تروتسكي الذي اقترن اسمه باسم لينين في الثورة الروسية، إلا أن وفاة لينين أدت إلى خلافات سياسية داخلية وخارجية في الحزب للشيوعي بين لئصار ستالين ولئصار تروتسكي، وانتهى الأمر بهزيمة تروتسكي في مؤتمر الحزب الشيوعي الذي عقد أواخر عام ١٩٢٤، وعزل كوزير للحربية، وطُرد من مجلس العمل والدفاع، ومعه انصاره من الجيش والبحرية.

إلا أن تروتسكي واتباعه ظلوا يرون معارضتهم على أساس سياسة اقتصاد للثورة الشيوعية على الاتحاد السوفيتي، والعمل على تعميم الثورة في العالم، لأنه كان يعتقد أنه من المستحيل على دولة شيوعية أن تعيش إلى جانب عالم رأسمالي، بينما كان يرى ستالين عدم ملائمة الظروف للسعي إلى تحويل الشيوعية، وانتهى الخلاف بنجاح فكرة ستالين وطرد تروتسكي من اللجنة المركزية للحزب في عام ١٩٢٧، ثم نفى من البلاد في عام ١٩٢٩، وتوجيه سلسلة اتهامات ومحاكمات إلى زعماء البلاشفة القدامى للتخلص منهم حتى يتهيأ الجو كاملاً أمام ستالين وحده.

وعادت تلك الاتهامات والمحاكمات بين (١٩٣٧-١٩٣٩)، حوكم فيها مئات من كبار العسكريين والمدنيين ورجال الكنيسة والبحرية والوزراء السابقين، وكانت

لخطر تلك الاتهامات الموجهة إليهم هي الخيانة والتآمر مع الأجانب ضد سلامة للبلاد، وكان متالين قد أصبح زعيم الاتحاد السوفيتي الأوحـد عند قيام الحرب العالمية الثانية^(٢١).

رابعاً: السياسة الخارجية السوفيتية (الكومنترن)

اتجهت سياسة للحكومة في أوائل سنوات للثورة الروسية عام ١٩١٧ إلى تحطيم للرأسمالية كنظام وكحكومات عالمية، ومحاولة إقامة ديكتاتورية للطبقة للكلاحة البروليتاريا على غرار نظام للحكم السوفيتي، وإنشاء اتحاد دولي بين الجمهوريات السوفيتية التي يمكن تأسيسها بعد نجاح الثورات الشيوعية في تلك الدول، وبذلك يتم إنشاء مجتمع شيوعي عالمي.

وحرص زعماء الشيوعية على نشر للفكرة؛ لأنهم شعروا ان مركزهم الدولي لا يزال ضعيفاً، لا سيما أنهم عذوا جميع للحكومات للرأسمالية أعداء لهم، وإن من الضروري إقامة نظم سوفيتية في الخارج، لتدعيم هذا المذهب الذي أوصلهم إلى الحكم، ولذا كان هدفهم الأساس في السياسة الخارجية نشر للدعاية للثورة الاشتراكية في الدول الأخرى.

ولتسهيل مهمة تلك الدعاية الشيوعية رأى الزعماء للشيوعيون إقامة الاتحاد الدولي للثالث أو الأممية للثالثة (الكومنترن) Comintern، ودعا للشيوعيون للروس جميع الاحزاب الشيوعية في العالم إلى اجتماع يعقد في موسكو في مارس/ آذار ١٩١٩ لإقامة الأممية للثالثة بقصد توحيد كلمة للعمال من مختلف للشعوب، ووضع برنامج مشترك يمهـد للسبيل لإقامة حكومات بروليتاريا على لنقاض الحكومات للرأسمالية، واجتمع في موسكو مندوبون عن الاحزاب الشيوعية في العالم لمناقشة للوسائل التي تؤدي إلى اهداف الكومنترن، وهي:

١- نشر الدعاية العالمية للشيوعية.

٢- توحيد وتعزيز الاحزاب الشيوعية في مختلف للدول.

٣- ترعّم الحركات العمالية الاشتراكية التي تقوم في بعض للدول وتوجيهها بشكل صحيح، وحسب ما هو مطلوب.

٤- تعجيل تطور الاحداث في بعض الدول وتوجيهها نحو الثورة العالمية ضد الرأسمالية وتحت إشراف الكومنترن.

وبدا نشاط المنظمة بمساعدة الحكومة السوفيتية، وأدت دوراً مهماً في تشجيع قيام الثورات في بعض الدول الأوروبية، مثلما حصل في ألمانيا والمجر عام ١٩١٩، وإيطاليا عام ١٩٢٠، لكن هذا النشاط فشل عندما حاولت الكومنترن ان تتصل بدوائر العمال في بريطانيا وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا، وبذل الشيوعيون جهوداً كبيرة لنشر الشيوعية في الدول الآسيوية، على أساس ان تتحد وتضوي تحت زعامة الاتحاد السوفيتي بحجة السعي في مكافحة الاستعمار والرأسمالية.

ولكي يكتسب البلاشفة ثقة الشعوب الشرقية أعلنوا استكارهم للوافق الودي الإنكليزي - الروسي الذي قد عام ١٩٠٧، وهو الذي قسم إيران إلى منطقتي نفوذ روسية في الشمال، وإنكليزية في الجنوب، وتنازلت للحكومة السوفيتية عن معظم الامتيازات التي اكتسبتها للحكومات الروسية في الصين، وحرضت الافغان على مقاومة للسيطرة البريطانية، ودعا البلاشفة في سبتمبر/ أيلول ١٩٢٠ إلى عقد مؤتمر شعوب الشرق في باكو، وحضره (٩٠٠) مندوب من (٤٠) دولة، ولكن المؤتمر لم يحقق النتائج المرجوة منه لان المشاركين لم يمثلوا إلا انفسهم وليس حكوماتهم، ولم يصل للسوفييت إلى فكرة تكوين تحالف شيوعي للشعوب الشرقية.

شعر السوفييت منذ عام ١٩٢١ بأن محاولاتهم لنشر الشيوعية العالمية قد فشلت، وان عليهم ان يكرسوا جهودهم لنجاح للسياسة الاقتصادية الجديدة التي وضعوها لبلادهم وتدعيم قوتهم، وتحسين مكانة بلادهم الاقتصادية، وتم الاتفاق التجاري بين روسيا وإنكلترا في عام ١٩٢١، وان تمتع روسيا عن إثارة الآسيويين ضد بريطانيا، وترفع بالمقابل بريطانيا الحصار الاقتصادي عن الموانئ الروسية، وأتمت روسيا عقد مثل هذه الاتفاقات التجارية مع إحدى عشرة دولة، ومع ذلك لم تستطع تلك الاتفاقات ان تكفي حاجة روسيا الاقتصادية لان كثيراً من الدول الغربية كانت تحجم عن التعامل مع الحكومة السوفيتية بسبب القرار الذي أصدره البلشفيك

عام ١٩١٨ بعدم اعتراف روسيا بالديون الاجنبية.

واضطر وزير الخارجية الروسية ان يعلن ان حكومته على استعداد لمباحثة الدول بشأن الديون، وفي مؤتمر دولي - وبفضل المساعي التي بذلها لويد جورج - دعيت روسيا لحضور مؤتمر دولي اقتصادي يعقد في جنوة عام ١٩٢٢، وحضر المؤتمر ممثلو الدول صاحبة الديون على روسيا عدا الولايات المتحدة، ولكن مؤتمر جنوة لم ينجح؛ لان الدول طالبت روسيا بالاعتراف بالديون التي رفضتها، وان تدفع تعويضات للممتلكات الاجنبية التي صودرت في روسيا بعد الثورة، بينما صممت روسيا على عدم الاعتراف بديون الحرب، والاكتفاء بالاعتراف بالالتزامات التي تعهدت بها للحكومة الروسية القيصرية لبعض الدول قبل قيام الحرب، وبعد مباحثات استمرت اسابيع لم يصل المؤتمر إلى اتفاق.

وكان ممثلو روسيا وألمانيا قد اتفقوا في مؤتمر عقد بعد توقيع معاهدة رابلو Rapallo في أبريل/ نيسان ١٩٢٢، تم فيها إعفاء ألمانيا مؤقتاً من ديونها التي تستحقها روسيا، وفتحت الباب لعقد اتفاقات تجارية بين البلدين، فحصلت روسيا بهذا الاتفاق كسباً هو اعتراف ألمانيا بالنظام الجديد.

وعندما تولت حكم العمال في بريطانيا في عهد رامزي مكدونالد عام ١٩٢٤ سارعت تلك الوزارة بالاعتراف بالحكومة السوفيتية، وتبع ذلك عقد اتفاقيات تجارية بين روسيا وكل من بريطانيا وإيطاليا.

تتابعت اعترافات الدول بالحكومة السوفيتية، ولم يكد ينتهي عام ١٩٢٤ حتى بلغ عدد الدول الأوروبية التي اعترفت بها (١٥) دولة من بينها فرنسا والنمسا، وفي عام ١٩٢٥ حصلت روسيا على اعتراف معظم الدول للكبرى بما فيها الولايات المتحدة.

على ان الحكومة السوفيتية قد ساءها عقد معاهدات لوكارنو في عام ١٩٢٥ بين الدول الأوروبية للكبرى، وهي للمعاهدات التي عنتها روسيا تهديداً خطيراً لها، ولذلك كان أول هدف للسياسة الخارجية الروسية ما بين ١٩٢٥-١٩٣٣ هو إنشاء حاجز من الدول الصديقة على الحدود الروسية بضمن سلامتها من العدوان، وفي

عام ١٩٣٣ كانت روسيا قد عقدت مع عدد من الدول المجاورة لها مواثيق عدم اعتداء وحيداً.

وبعد عام ١٩٣٣ بدأت روسيا للسوفييتية تشعر بأنها بحاجة لتعزيز علاقاتها مع الدول الكبرى، وغير الشيوعيون رأبهم في عصبة الأمم التي كانوا يعتقدون من قبل انها لداة الدول للرأسمالية الكبرى للمؤامرة ضد روسيا السوفييتية، وامام للخطر النازي والياباني رأت روسيا ان تنضم إلى عصبة الأمم لتتمتع بالأمن الجماعي عن طريق عضويتها في العصبة، وتم لها ما أرادت في عام ١٩٣٤. وفي العام التالي عقدت اتفاقات عسكرية دفاعية مع كل من فرنسا وتشيكوسلوفاكيا ضد ألمانيا.

وفي عام ١٩٣٨ فشلت بريطانيا وفرنسا في منع العدوان النازي على حدود تشيكوسلوفاكيا، وكانت الحكومة الروسية تنك بنوايا بريطانيا وفرنسا، ظناً منها أنهما يحاولان ان يوجهاا أطماع هتلر شرقاً نحو روسيا، وأمام هذه الظروف قرر الشيوعيون العمل على تأجيل قيام أي نزاع بين روسيا السوفييتية وألمانيا النازية، واستطاعوا ان يصلوا إلى عقد معاهدة عدم اعتداء مع ألمانيا في أغسطس/ آب ١٩٣٩.

وكانت الخطوة هذه تمنح روسيا الوقت اللازم لكي تستكمل قواتها الحربية، وفي الوقت نفسه تثير بهذا الاتفاق غضب بريطانيا وفرنسا ضد ألمانيا، وتبدأ الحرب لا محالة بعيداً عن روسيا.

وأعلن قادة الاتحاد السوفييتي ان مبادئ السياسة الخارجية للسوفييتية في النضال في سبيل السلم والتعاون مع جميع الشعوب، وفي سبيل المساواة في الحقوق والاستقلال لجميع الأمم الكبيرة والصغيرة، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى، وان ليس في الاتحاد السوفييتي طبقات وجماعات لها مصلحة في الحرب، والتعايش السلمي والتعاون بين النظامين الاقتصادي والاجتماعي، ولذلك يهتم زعماء الاتحاد السوفييتي بتنظيم العلاقات الاقتصادية الروسية بالعالم الخارجي، وانحصرت للتجارة الخارجية في يد الدولة، والتجارة الخارجية تعمل على تطوير علاقات الاتحاد السوفييتي التجارية والاقتصادية مع الدول الأخرى، ونجحت بفضل الازدياد المستمر في الانتاج الصناعي

والزراعي، وتوسع نطاق التجارة الخارجية مع العالم الخارجي.

وان التجارة الخارجية السوفيتية ترمي إلى توسيع نطاق التعاون الاقتصادي

مع جميع الدول، وان التجارة الخارجية تتمشى مع مبدأ تعزيز السلام والأمن والمساواة

بين الجميع وانتقاد محاولات الغرب فرض الحصار على الكتلة الشيوعية^(٢٥).

الفصل الخامس

الفكر السياسي للأنظمة

الشمولية الفاشية والنازية



لولا: الأسس الفكرية للفاشية

كان للتأخر الاستعماري الذي ساد أوروبا لتأمين للتوسع الاقتصادي والصناعي دوره في قيام الحرب العالمية الأولى، وهُيئت الظروف لظهور الفاشية الحديثة في عدد من الدول الأوروبية، والتي ظهرت بوضوح في ألمانيا وإيطاليا، فقد وجد الإيطاليون أن ما تحقق من مكاسب كان جراء المشاركة في الحرب مع دول الحلفاء، ولم يكن على مستوى متناسب مع الأوضاع الاقتصادية المتردية وارتفاع الأسعار والضرائب، مما أدخل البلاد في الفوضى، وحدثت أزمات سياسية ووزارية وزعزعة أركان الحكم الدستوري.

يرجع المؤرخون بدايات ظهور الفاشية إلى عهد نابليون الأول عندما حكم فرنسا حكماً مطلقاً في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وقام بكثير من الإصلاحات، ورغم أنه في الحقيقة لم يكن فاشياً، إلا أن الفاشيين ممن جاؤا بعده اتبعوا أسلوبه في الحكم، ووعده الشعب باستعادة أمجاد فرنسا عبر الغزو العسكري، وقيامه بإعداد الشرطة السرية لمواجهة المعارضة، واستخدامه للدعاية والرقابة الصارمة على الصحافة لكسب التأييد لبرامجه.

وفي نهاية القرن التاسع عشر أنشئت (حزمة للديمقراطيين المسيحيين) في ميلانو، و(حزمة العمال) في صقلية بزعامة كريسبي، وتشكلت قبل الحرب العالمية الأولى (حزب المحاربين)، وفي عام ١٩١٧ برزت (حزمة للدفاع الوطني) التي ضمت في البرلمان خصوم جيوليتي.

ونادت الحزمة الميلانوية باللاحياء، وكان على رأس هذه الحركة بنيتو موسوليني، وكانت ترمي إلى إنشاء دولة جديدة، واتخذت الفاشية الحديثة صبغة معنية من ناحية تأسيس للدولة وقيامها وتجميعها بيد واحدة، وتقديم مصالح الجماعة على مصلحة الفرد.

وبذلك يبدو أن للفاشية ظهرت كنزعة قومية ورد فعل على المبادئ الليبرالية

ولمواجهة المد الشيوعي والاشتراكي، مع ما أصاب الدولة من ميول متحررة واشتراكية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وظن دعاة الفاشية لهم استفادوا من أخطاء الثورة الفرنسية وأخطاء الثورة البلشفية عام ١٩١٧.

ان اصل مصطلح الفاشية يعود إلى عهد روما للقيصرية، حيث كان الرومان يحملون حزمة للعصي المسماة (الحزمة للرومانية) رمزاً للقوة والاتحاد.

وقد استخدم مصطلح الفاشية حديثاً من قبل موسوليني مؤسس الحركة الفاشية في عام ١٩١٩، وأضحى هذا المصطلح يطلق على مجموعة من الأنظمة الشمولية.

تأثرت الفاشية في صياغة مبادئها وبرامجها بأراء دعا إليها مفكرون وفلاسفة في مراحل من التاريخ الأوروبي، وظهرت في صورة خاصة بمذهبها الشمولي الذي يمجّد التفوق للعنصري وسيادة الدولة الفاشية.

واستمد الفاشيون عن الفلاطون دعوته - في كتابه الجمهورية - إلى ضرورة حكم الأقلية المختارة من الفلاسفة الذين يتمتعون بالتفوق الخلقى والعقلى، ويتميزون بكفاءات ومواهب فطرية غير متوفرة عند غيرهم.

وأخذوا عن ميكافيلي دعوته - في كتابه الأمير - إلى تركيز السلطة في الأمير الحاكم للفرد المتمتع بالدهاء والحكمة، والذي يعمل على نيل القوة، ويسعى لفصل السياسة عن الأخلاق.

وأخذوا عن هوبس دعوته - في كتابه اللوفياتان - إلى تمجيد الدولة، وجعلها للممثلة للمصلحة العامة، وانها فوق القانون، وهي التي تمنح الحقوق.

وأخذوا عن هيجل نظرية الصراع، وخاصة أهمية للحرب والقوة وللوصول إلى سيادة للدولة بعدها المثل الأعلى، والتي لا تسمو إرادتها على إرادة الأفراد، وتركيز هيجل على أهمية الإرادة الجماعية، وسيادة روح الأمة والجلس القومي.

وتأثروا بأفكار شوبنها ورونيتشه عن النظرة للتساومية للإنسان، وعن الإنسان البطل، والإرادة في الحصول على الثورة، والسيطرة في دعم نظرياتهم عن التفوق.

وتأثروا بباريتو وموسكا في حديثهما عن الصفوة المختارة التي تملك من للمميزات ما يفوق أفراد المجتمع، والتي تستطيع قيادة المجتمع نحو الأفضل بفضل مميزاتها الشخصية وكفاءتها. وتأثروا بالأفكار الاشتراكية فيما يتعلق بسيطرة الدولة والاهتمام بالفئات الدنيا من المجتمع^(٢١).

١- من هو موسوليني:

بنيتو موسوليني (١٨٨٣-١٩٤٥) سياسي إيطالي، أسس للحركة الفاشية، وحكم إيطاليا واحداً وعشرين عاماً، حاول أن يجعل إيطاليا إمبراطورية كبرى، ولجح في تطوير السكك الحديدية وتخفيض البطالة، ولقب بالدوتشي أو القائد.

ولد موسوليني عام ١٨٨٣ في دوليا في مقاطعة فورلي في شمال إيطاليا من أب حداد، ولم معلمة، وتخرج في مدرسة تدريب المعلمين في فورلي، ومارس التدريس بمدرسة ابتدائية، ثم تركها، وأخذ يتنقل، وأصبح عاملاً في سويسرا، ثم إلى فرنسا فاللنسا، واختلط بالفوضويين الاشتراكيين، وتعرض للسجن والاعتقال والطرده من أراضيها.

وعاد إلى بلاده لأداء الخدمة العسكرية الإجبارية، ثم عاد للتدريس بين (١٩٠٧-١٩٠٨)، وذهب إلى النمسا عام ١٩٠٩، وعمل محرراً في إحدى الصحف الاشتراكية فيها، ثم أبعده عن البلاد بسبب مساندته العلنية للمطالبة الإيطالية بمدينة ترينت، وما أن عاد إلى إيطاليا حتى قام بإصدار صحيفة اشتراكية في فورلي، ثم أصبح رئيساً لتحرير لثانتي للصحيفة الاشتراكية في إيطاليا عام ١٩١٢.

كان موسوليني عضواً في الحزب الاشتراكي، لكنه لم يستمر طويلاً، فقد تألم من مواقف الحزب الاشتراكي الألماني في جانب روسيا بعد الحرب الروسية الألمانية، ودفعه إلى للتخلي عن أفكاره الاشتراكية والتحول إلى للتنصب القومي، وطالب بدخول بلاده في حرب مع للنمسا لتحقيق مطامع بلاده القومية، وانخرط في الجيش، وخدم به عام ١٩١٥، وجرح في ميلانو عام ١٩١٩، ونشط في جعله الحزب الأقوى والأحد في إيطاليا بالقوة والشدة؛ لينمكن من السيطرة على السلطة، وحاول كسب الأعوان إلى

لفكره وطروحاته، وكانت للفاشية في البداية تتجه نحو الطبقة الوسطى والكنيسة والسلطة الحاكمة، لكن موسوليني نهان مع الكنيسة في اتفاق مع الفاتيكان عام ١٩٢٩، وناهض للشيوعية، مما زاد من عدد أفراد الحزب الفاشي عن طريق جماعة القمصان السود، وهي رابطة من المحاربين استطاعت أن تلحق الهزيمة بالشيوعيين في إيطاليا، وتزامن ذلك مع ما وصلت إليه الحكومة الإيطالية من فقدان السيطرة على الحكم، ولتفت موسوليني إلى ملاك الأراضي في إيطاليا، وصاغ برنامجاً لكسبهم إلى جانبه، وانضم إلى حزبه للكثير من ملاك الأراضي وأصحاب الأعمال والعسكريون ومن الطبقة الوسطى، واشتد مساعد الحزب الفاشي، وأضحى قوة منظمة ومؤثرة في الواقع السياسي الإيطالي، وفي لواخر أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٢٢ زحف موسوليني إلى روما، ومعه حوالي (٤٠) ألفاً من رجال القمصان السود، وأجبر حكومته فاكنا على الاستقالة، وعيّن موسوليني رئيساً للحكومة من قبل الملك لمانويل الثالث، الذي أصبح ذا سلطة شكلية، وشرع موسوليني في إرساء قواعد وأسس الحكم الديكتاتوري وتركيز السلطة بين يديه، وأبعد المعارضة عن البرلمان، وألغى الأحزاب السياسية، وقام بتزوير الانتخابات، وإدخال نظام التمثيل المهني على البرلمان عام ١٩٢٩، وجعل من للمنظمات المهنية أعضاء خدمة في الدولة والحزب، وعمل على القضاء على كل تمثيل سياسي حقيقي وكل محاولة لأي معارضة قوية.

وقام موسوليني بإصلاحات في البلاد ومد شبكة سكك حديدية، وتوسيع بناء المدارس، والسيطرة على المصانع، وتوجيه للصحافة، وبنى للشرطة واستخدمها في للقمع والسلطة، ولكن النظام الفاشي الإيطالي ظل مختلفاً عن الأنظمة الشمولية الأخرى، فقد احتفظ بالجيش والطبقة الأرستقراطية والكنيسة بشيء من الاستقلال الذي أعطى لها نوعاً من المعارضة، والحد من سلطة الحزب الواحد، واستطاع نظام الحكم الثنائي للدولة والحزب الحد من سلطة موسوليني.

وأنشئ المجلس الفاشي الأعلى عام ١٩٢٩، والذي من سلطته تعيين مجلس الوزراء، ومارس صلاحياته في إقالة موسوليني في منصبه بعد هزيمة إيطاليا عام

١٩٤٢، ولهذا ظلت للفاشية حتى بعد موت موسوليني عام ١٩٤٥، فقد ظهرت فاشية جديدة باسم الحركة الاشتراكية الإيطالية، ظلت ذات تأثير فعال وسط للمنظمات للفاشية في الدول الاسكندنافية وإنكلترا وبلجيكا وهولندا وفرنسا وألمانيا، وتعرف بالفاشية الجديدة للدولة، ونسعى إلى إقامة دولة أوروبية وفق للنظام الفاشي الاشتراكي.

٢- الفاشية: الدولة والنظرية

لم يكن للفاشية نظرية سياسية متكاملة في البداية، فقد كانت تؤمن بالعمل قبل كل شيء، وكان موسوليني يردد: "العمل أفضل من القول"، والفاشية بحاجة إلى مبادئ وليس إلى معتقد أو نظرية، ويمكن أن تكون مبادئ مقتبسة من نظريات متعددة، وأشار موسوليني في عام ١٩٢٤ إلى أن الفاشيست يرفضون كل النظريات السياسية التقليدية، وقال: يكفي أن تكون لنا نقطة واحدة هي الأمة، وأدرك موسوليني لاحقاً ضرورة وجود نظرية مستقلة للفاشية، وكلف عام (١٩٢٩-١٩٣٠) جيوفاني جنتيلي بوضع الفلسفة للحركة الفاشية في مدة لا تزيد عن شهرين تنتهي بعد عقد المؤتمر الوطني، وقد صاغ جنتيلي نظرية عمل على أساس نظرية هيجل في الدولة. ورأى سرجيو باننزيرو الاستاذ في جامعة روما أن الهدف الأساسي للفاشية كان التوحيد، أي توحيد قوة الدولة وشعوبها للمختلفة في دولة واحدة قوية، ويؤكد ذلك قول موسوليني: "الفاشية تعني الدولة"، وكل شيء للدولة، ولا شيء ضد الدولة، أو خارج الدولة.

لقد نشأت الفاشية مع للقومية والاشتراكية في وسط الجوع والبطالة والأزمة الاقتصادية، وظهرت في البداية كحركة ضد الليبرالية، والرأسمالية، وإن الحريات الاقتصادية تؤدي إلى للفوضى، وإن الأفضل هو اتباع الاشتراكية أي للقومية الاشتراكية، ولكن يميز موسوليني بينها وبين الماركسية الاشتراكية، بأن الفاشية تناقض الاشتراكية التي تجسد الحركة التاريخية في صراع الطبقات، وتتجاهل وحدة الدولة التي تذيب للطبقات في حقيقة واحدة اقتصادية وأخلاقية، وتنتهي الفاشية إلى تمجيد الدولة التي هي وسيلة الأقوياء، وضمن الضعفاء، ويتجسد ذلك في (الفاشيون) رمز الوحدة

والقوة والعدالة، وهي شعلة حملة الفؤوس.

أما للدولة في النظرية الفاشية، فهي تنظيم عضوي، لها وجود وأهداف ووسائل. عمل سامية، من حيث القدرة والزمن لقيادة أشخاص متفرقين أو مجتمعين، يكتون بمجموعهم هذه الأمة، وتوحيدهم في وحدة أخلاقية وسياسية اقتصادية، ولا يتحقق ذلك إلا في الدولة الفاشية.

وبنيت للدولة الفاشية وفق نظرية هيجل التي تعد الدولة كائناً حياً، ومن ثم لها حياتها وروحيتها الخاصة وجودها وأهدافها الخاصة المستقلة كما للأفراد.

رفضت للفاشية بناء على هذا التصور نظرية للدولة القائمة على فكرة الجمع بين الأفراد، وعدت أن الدولة ليست سوى إنتاج للتطور التاريخي الدائم، وأن الحفاظ على الدولة وتنمية قواها يجب أن يكون الهدف الأول، ومن ثم فإن الفرد مطالب بأن يعد مصالح الدولة مقمنة على مصالحه. وكرس أصحاب للنظرية الفاشية مفهوم للدولة (وحدة أخلاقية سياسة واقتصادية).

فالوحدة الأخلاقية تشكل وجوداً معنوياً تتحد فيها جميع الأفكار، ويوجد كل فرد فيها كل أسباب وجوده الحياتي، سواء على سعيد الفكر والعاطفة، أو على سعيد للتقاليد والأمال، أو على سعيد للفن والعلم، أو سعيد للعمل والراحة، بحيث تقدم الدولة كل متطلبات للحياة الإنسانية.

أما كوحدة سياسية، فاللدولة تعمل على أن ترضي التطلعات السياسية لتوفير حياة مشتركة في الدولة، وذلك عن طريق للتقاء مختلف الارادات، فتجتمع الدولة تحت ظلّة سلطة تحافظ على هذه الوحدة في الداخل، وتحميها من أعدائها في الخارج.

أما كوحدة اقتصادية، فاللدولة تقدم على إنشاء الاقتصاد مبني على الاكتفاء الذاتي نتيجة تطبيق سياسة اقتصادية مخطط لها من قبل الحكومة، وفي إطار الأمة أخذة بعين الاعتبار أن الصراع الطبقي إنما يتم على الصعيد الاقتصادي على مستوى الدول التي هي عبارة عن طبقات متصارعة، فالثروة تعد وطنية،

ولا تتوفر بجهد أشخاص، بل نتيجة جهود مشتركة وجماعية، وبشكل الانتاج جهوداً متكاملة، ويمنح للفاشيون صلاحيات شاملة للدولة لانها من أجل الأمة، ويعتونها المحرك الأسس، وهي تعني الإطار لكل شيء في الحياة العامة، وهي التي تشرف على نشاطات في المجتمع مختلفة، وتتدخل في كل شيء وكل مكان، الأفكار، الأرواح، الأسرة، الأفراد، وتنظم أوقات العمل والراحة والترفيه، وتقيم للطلاب الترفيه والثقافة عبر المخيمات في العطل الدراسية، وتنظم رحلات زواج المتزوجين الجدد، ونهتم حتى في الملابس والأزياء.

والمفرض للفاشيون نمط الحياة السياسية والاجتماعية، واستخدموا في سبيلها مبدأ القوة، وأسلوب الدعاية والتجنية لتحقيق ذلك، فالقوة فوق القانون والروح العسكرية تقدم على الروح المدنية، والمنتصر أفضل من المهزوم، والأقوياء في الأمة أفضل من الضعفاء، والأعضاء في الحزب أفضل من غير الأعضاء.

واحتكر الفاشيون الإعلام، واستخدموه من أجل للدعاية لهم والسيطرة على الجماهير، والتسليم بصحة الفاشية، والانقياد الكامل للزعيم الذي لا يخطأ، وملئت صوره في المنشورات والأماكن العامة، إنه موسوليني، واستخدم الفاشيون الإعلام والفكر والثقافة في تمجيد الأمة الإيطالية، والدعوة لإعادة أمجاد الإمبراطورية الرومانية، وإنكاء روح الانتماء للعنصري، وغرس فكرة التامعساواة بين الشعوب، والإيمان بحق بعض الشعوب في السيطرة على شعوب أخرى على أساس التمايز العرقي أو القومي، وهو ما جعل الفاشية ترفض القبول بالمنظمات الدولية والقاتلون الدولي.

ولا يرى الفاشيون أي مجال لإقامة تنظيم فيدرالي أو نقابي يكرس حياة الفرد، لأن ذلك يعني أن يكون في داخل الدولة مجموعات لها بعض السلطات، وهو ما ينبغي رفضه وتخويل سلطة الدولة مباشرة سيطرتها على الأفراد، ونظروا إلى الدولة الفاشية بأنها ذات قوة مركزية، وإن الجمعيات والنقابات يجب أن تعمل من أجل الاستقلال والوحدة وليس الفرقة، وهي تجمعات شعبية لا بد أن تخضع لتنظيم مركزي يكون فيه رئيس للحكومة رئيس لجميع التجمعات هذه.

ويرفض الفاشيون فكرة الديمقراطية، وحق الفرد في اختيار شكل الحكم، وإن السيادة للشعبية عبارة عن وهم؛ لأن السيادة للدولة، كما أن مسؤولية الحكم يجب أن تنحصر في أيدي النخبة^(١٧).

ثانياً: الأسس الفكرية للنازية

للنازية مصطلح يعني الاشتراكية الوطنية، وهو يقترن بالهتلرية التي أطلقت على نظام الحكم الألماني خلال الفترة ما بين (١٩٣٣-١٩٤٥)، وتعد النازية صورة من صور الفاشية، وقد وصلت إلى الحكم في ألمانيا وتجمعها مع الفاشية فواسم مشتركة في العداء للشيوعية والديمقراطية والاقتراع الشامل، وأسلوب الدعاية، وإثارة حماس الجماهير، وقام بينهما حلف مشترك هو محور روما - برلين أثناء الحرب العالمية الثانية.

وتشكل الدولة غاية لدى الفاشية، ولكن الدولة لدى النازية تعد وسيلة؛ إذ كان على هتلر أن يستخدمها وأن يعطيها أسطورتها لا أن يخلقها، لذا فقد وضعت جميع السلطات في يده باعتباره الحاكم المطلق للشعب الألماني، وما التشريع إلا تعبير عن إرادته، وهو لقائد العام للقولت المسلحة، وما على الإدارة إلا الانصياع لها.

١- من هو هتلر:

أدولف هتلر زعيم ألمانيا النازية، ولقائل بالعرق الآري الأكثر تقوقاً، وإن للشعب الألماني له رسالة وصاحب أهداف لا حدود لها، ورأى أن اليهود جماعة تتقود ألمانيا إلى الهلاك، وأن للعالم مسيحيه الهلاك إذا ما استولى لليهود - بمساعدة النظرية الماركسية - على الحكم.

حاول هتلر تحويل ألمانيا إلى آلة عسكرية قوية للتخلص من معاهدة فرساي وشروطها الصعبة، واشعل نار الحرب العالمية الثانية، وأشاع الرعب في أوروبا، بل والعالم، وقد ولد أدولف هتلر عام ١٨٨٩ في مدينة براونو الواقعة على نهر (إن) بين النمسا وألمانيا، وكان رابع طفل من ثالث زواج لأبيه ألويس هتلر الذي كان يعمل موظفاً في الكمارك، أما أمه كلارا فكانت بنت أحد المزارعين، حصل أدولف على

الابتدائية، ولكنه ظل ضعيفاً في الثانوية، وتوفي والده وعمره ثلاثة عشر عاماً، ثم بعد سنتين توفيت والدته، فقرر السفر إلى فيينا لطلب المعيشة والسعي لتحقيق طموحاته في أن يصبح فناناً في الرسم، وتقدم لاختبار أكاديمية الفنون الجميلة، ولكنه فشل، فقرر الالتحاق بالهندسة المعمارية، ولكنه انقطع عنها لقلة موارده المالية، وانتقل إلى ميونيخ عاصمة بافاريا، حيث بدأت الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤، وتطوع في الخدمة العسكرية الألمانية، ووصل إلى مرتبة عريف، وانتهت الحرب بهزيمة ألمانيا وتوقيع معاهدة فرساي المرغمة وذات الشروط المائلة، وتعرضت الحكومة إلى نقد القوميين والشيوعيين، وطالبوا بمعاقبة المجرمين للذين وقعوا المعاهدة، وفي خريف عام ١٩١٩ شرع هتلر في عقد اجتماعات حزب العمال الألماني، ثم التحق بالحزب ونشط فيه، وغير اسمه، وأصبح يعرف بالحزب العمالي الوطني الاشتراكي الألماني، وسرعان ما جذب إليه لشباب الألماني ليكون للحركة النازية.

نشط النازيون في الدعوة إلى اتحاد الألمان في أمة واحدة، وإلغاء معاهدة فرساي، وتنظيم هتلر للجيش سماء (العاصفة)، وحارب به الشيوعيين، والحزب الديمقراطي الاشتراكي وأحزاب أخرى عارضت الأفكار النازية، لو حاولت عدم إقامة اجتماعات للحزب النازي.

ثم أقام هتلر على وضع برنامج سياسي للحزب عام ١٩٢٠ من (٢٥) نقطة، يشتمل على المبادئ والحلول التي تجد فيها ألمانيا الخلاص من مظاهر الاضطراب والانقسام والمسخط بعد الحرب العالمية الأولى، وقد أقسم الزعماء النازيون على أن يواصلوا جهودهم دون النظر إلى النتائج لتحقيق هذه النقاط، وجعل هتلر الصليب المعقوف شعاراً للحزب.

وفي ظل الأزمة التي واجهتها ألمانيا عقب الغزو الفرنسي البلجيكي لألمانيا للرور الألماني الصناعي، أعلن هتلر في الثامن من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٣ عن الثورة النازية خلال اجتماع في قاعة ميونيخ، وحاول القبض على الحكومة البافارية، ولكن المؤامرة فشلت، ولقي القبض على هتلر، واعتقل، ووضع في السجن لمدة (١٣)

شهرًا، فوضع خلالها كتابه الشهير (كفاحي) الذي تضمن آراءه الفلسفية والسياسية، خاصة الجنس الآري، ووظائف الدولة، والرعاية، والتربية، والسياسة الخارجية للدولة، وشرح برنامج الحزب النازي، والمضمون السياسي للحزب ومستقبل ألمانيا، والتأكيد على تفوق الجنس الألماني وعدم الاختلاط مع الجنسيات والأعراق الأخرى.

وحظي هتلر خلال هذه الفترة بالكثير من التأييد من الشبيبة الألمانية التي نعتت على نتائج الحرب العالمية الأولى، وما لحقته من إهانة بالشعب الألماني.

وما إن خرج هتلر من السجن حتى بدأ يعمل في إعادة بناء حزبه الذي كانت الحكومة قد حظرت، وتمكن من رفع الحظر عنه، وفي عام ١٩٣٠ وافقت ألمانيا على مشروع بونج في إعادة جدولة تسديد التعويضات، وكان إن شن هتلر حملة ضد المشروع هذا، اكسبته مكانة سياسية، أدت إلى فوز حزبه في أغلبية مقاعد انتخابات عام ١٩٣٣ في البرلمان، وعُين هتلر على أثرها رئيساً للوزراء في جمهورية فيمار، ومن هذا الموقع حُظرت الأحزاب السياسية الأخرى عدا الحزب النازي، وسيطرت النازية على الصحافة والإذاعة والتعليم، ونظم هتلر جيشاً أميناً صارماً، سُمي الجيستابو، وتم بناء السجون والمعتقلات ضد أعداء النازية في ألمانيا.

كان هتلر يأمل في جعل الدولة النازية إمبراطورية عالمية، وبدأ عام ١٩٣٨ في تنفيذ خطته، وقامت القوات الألمانية بغزو النمسا عام ١٩٣٨، وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٩، ثم باندلاع الحرب العالمية الثانية لجتاح هتلر بجيشه للدانمارك واللدروج وهولندا وبلجيكا والكمبورغ وفرنسا، ولم يصمد سوى بريطانيا، ثم عام ١٩٤١ لجتاح روسيا، وتقدم إلى ستالينغراد التي انكسرت فيها القوات الألمانية، وكانت نقطة تحول في مسار الحرب، حيث تقدم الحلفاء إلى قلب ألمانيا، بحيث أصبح هتلر محطماً، وتزوج إيفا برلون في التاسع والعشرين من إبريل/نيسان ١٩٤٥، ثم انتحر على حد أغلب الروايات، واستسلمت ألمانيا بعد أيام^(٢٨).

يعود هتلر في فلسفته السياسية إلى حياته الأولى في المدرسة الفنية عندما كان طالباً، حيث كانت تمثل مجتمعا صغيراً لتعدد القوميات في البلاد، حيث شعر هتلر باحساس الانتماء إلى العنصر الألماني، وإحساسه مع زملائه إلى كل ما هو ألماني، ثم أنه تنلمذ على يد أستاذ تاريخ كثيراً ما كان يخاطب لحساس تلاميذه الوطني، ويستعين بشرح الماضي بضرب الأمثال من الحاضر، ولم يكن يفهم للتاريخ على أنه سرد للأحداث، وإنما كان يريد الوصول إلى جوهره واستخلاص الدروس والعبر منه، وحرك لدى هتلر الشعور بروح الثورة القومية التي تقوم على إيمانه بالوحدة الألمانية، وعودة الألمان في النمسا إلى الوطن الأم.

أما موقفه من اليهود، فهو يتذكر مرحلة طفولته وصباه، وأنه لم يكن يسمح بفكرة التمييز الديني ضد اليهود أن تظهر أو تتربخ في ذهنه لولا سلوك اليهود في مختلف الحياة للنمساوية التي صدمته، ولهم ليسوا ألماناً من أصحاب دين مختلف، بل هم شعب أجنبي يعيشون وسط قوم هم ليسوا قومهم، ولهم يصبغون للصحافة والأدب وللمسرح بطابعهم الخاص، وتبنيهم الماركسية، ومحاولة نشرها بين العمال بقسوة ومثابرة، وإن المنشورات الاشتراكية الديمقراطية التي وضع يده عليها هي من عمل اليهود، واسماء معظمهم من (الشعب المختار) في الثورات أو المنظمات أو في مجالات شعبية أخرى، ثم أنهم وضعوا النظرية الماركسية، وحملوها، وأصبحوا دعاة لها، وإن الأخطاء في النمسا تقود للماركسية اليهودية التي تهدف إلى تحكم الطبقة اليهودية في المجتمع؛ لأن أصل ماركس يهودي، والحزب الديمقراطي الاشتراكي يهودي أيضاً.

ويرى هتلر أن ماركس استطاع أن يستخرج للسموم الجوهرية من وسط عالم يتحلل، وأعدّها في محلول للقضاء السريع على الوجود للمستقل للأمة الحرة على هذه الأرض، وكل هذا من أجل خدمة عنصره، وقد أدرك هتلر أهمية الماركسية واليهودية عن طريق تجربته العمالية في أينا، ولاحظ أن فلسفة الماركسية وعدلوة اليهودية لن يقف أمامها سوى الأسلوب البرجوازي في الحكم، وهذا ما حمله على مهاجمة

لديمقراطية الغربية، وعجزها عن حل المشاكل الداخلية، ومواجهة المشاكل الخارجية ولها طريق يسير أمام الشيوعيين للتמיד لنظامهم، وإقامة بنيانه في ظل نظمته، وإن الشيوعيين برأيه يستغلون الديمقراطية، ثم يُسقطوا النظمة الحكم، ويلتجئون إلى تقويضه عندما تحين لهم الفرصة، وذلك بالعلف للمصلح والسخرية من الأساليب الديمقراطية السلمية لتحقيق التغيير الاجتماعي.

وحذر هتلر من النظرية الماركسية واليهودية في تدمير العالم، وأنه سيدافع عن نفسه ضد لليهود، وأنه يعمل ذلك من أجل الله، مستحضراً دور اليهود في خسارة ألمانيا للحرب في عام ١٩١٨.

وأكد هتلر ضرورة وجود فلسفة سياسية جديدة تقف في وجه هذه المذاهب، وقد اختار أن تكون فلسفته تحمل اسم (فلسفة لفولك) أو (الفلسفة للشعبية)، وهي فلسفة خُصَّ بها للجنس الآري بالتميز على سائر البشر، فهو حامل الثقافة والحضارة للبشرية، ومن ثم فهي لا تسمح مطلقاً بما يهدد للعنصر الآري وميلاته، وحتى بالافكار الأخلاقية التي قد تتعارض مع هذه للعالم الأساسية، ووجود الثقافة الإنسانية واستمرارها هو رهن ببقاء العنصر الآري وتقواه، وإن تدمير حامل هذه الثقافة يُعد للجرائم، ويعتقد هتلر أن فلسفته لفولكية تصير على هدى الطبيعة، وتؤكد تعاليمها التي تقضي بالتفريق بين للشعوب والمفاضلة بينها، وتمجيد للشخصية الفردية، وضمان سيادة الفروق بين الأفراد من أجل إقرار للنظام، واستبعاد عوامل الفوضى التي تكشرها للماركسية.

وتناول هتلر في كتابه (كفاحي) هذه الفلسفة، وأرلاد منه أن يكون تعبيراً عن فلسفته، ثم طبّقها عندما تولى الحكم في ألمانيا، وعد الكتاب ذائع الصيت والشهرة، يقتنيه الألمان، وبيعت منه (١٠) ملايين نسخة عام ١٩٤٥، وترجم إلى ستة عشر لغة عالمية، ووضع هتلر في للكتاب الأسس القائمة على الدم والعرق والدولة ومهامها.

اعتقد هتلر أن سبب فشل ألمانيا في الحرب للعالمية الأولى يعود أساساً إلى عدم استيعاب للشعب الألماني لانتمائه العرقي للعنصري، ودوره في تقدم للبشرية،

والبشرية لم تتقدم إلا بفضل نشاط عرق واحد، وهو الآري، فالعرق الآري هو الذي بدأ الحضارة، وهو الذي نقلها إلى العالم الجديد، والفرق الأقصى، وهو يحمل قيم الحضارة البشرية، والعرق هو مفتاح الثقافة الإنسانية.

وفي نفس الوقت كان هتلر يؤكد على العرق، ولكنه يكره للجنس اليهودي، ويرى أنه شيطان وأصل الشرور، وتتجسد الروح الشريرة الشيطانية فيه.

لما الدولة برأي للنازية فلا تمثل للغاية بل للوسيلة، وتقوم على فلسفة للفولك التي تعني المحافظة على الخصائص العنصرية الأصلية للثقافة، وتخلق للجمال والكرامة للبشر، ومن ثم فإن الدولة عليها الحفاظ على نقائها العرقي والعمل على الحصول على مصاحات واسعة من حكم للجنس الآري.

ويرى هتلر أن للدولة وظيفتين داخلية، وخارجية. الصعيد الداخلي وفيه يرى هتلر أن أهمية للدولة لا تقل بأهميتها على الصعيد العالمي، بل الاحتفاظ بالأمة حية عاملة في نطاقها الداخلي.

وهذا ما يوجب على الدولة أن تكون وسيلة وجهاز إداري يسيطر عليه القائد عبر الحزب الواحد هو الوصل بين الشعب والقائد، ولتمكين للشعب الألماني المتجانس في التماثل العرقي من البقاء والتطور عبر السهر على لقاء العنصر الآري، وتنمية قوة الشعب وعاطفته القومية، حصر المواطنة بالذين ينتمون إلى العرق الآري، وإن تضفي للدولة للتدريس على الزواج للمتصل بنفس العنصر، كنظام يطلب إليه أن ينتج صوراً لله، لا كائنات تقف في وسط الطريق بين الإنسان والآخر، وتقضي منع الزواج المختلط. وإسناد الوظائف والمناصب العامة والقيادة والنفوذ إلى نخبة مختارة يتم للبحث عنها كأفضل العناصر.

لما على الصعيد الخارجي، فتشكل السياسة الخارجية للنازية كدولة انعكاساً لمبادئها الداخلية التي تسعى إلى تأهيل الشعب الألماني وتمكينه من كسب مصاحات لرضية أوسع، ومنحه الحق في ضم المناطق الأوروبية التي يوجد فيها ألمان إلى الدولة الألمانية، حتى وإن كانوا يشكلون لقلية فيها، ويصبح من واجبات السياسة الخارجية

توفير السلاح وخلق الحلفاء المحاربين، فاعتمدت النازية على العمل على استعادة استقلالها وسيادتها التي فقدت في الحرب العالمية الأولى، واستعادة الأراضي التي فقدت في عام ١٩١٩، والحيلولة دون وجود دولة عسكرية قوية على حدود ألمانيا في المستقبل، وإن يمتد أمن ألمانيا إلى ما وراء حدود عام ١٩٤١، حيثما وُجد ألمانيون، وهو ما يعرف بالمجال الحيوي الذي نادت به النازية.

وقد استند هتلر في هذه السياسة على للدعاية والتربية، وخصص في كتابه كفاحي قسماً مهماً للدعاية وأهميتها وأساليبها وخطابها الموجه إلى الشعب الألماني والتأثير عليه، واستقطاب وتبلي الأفكار النازية، واستعان في الدعاية بوزيره جوبلز، وساعدت شخصية هتلر الساحرة للكارزمية في هذه الدعاية.

أما التربية فهي جزء من اهتمام النازية باعتبارها أساس الدور القيادي للكمة الجرمانية، وهذا لا يتحقق إلا بالتربية المستديمة للأفراد، ولابدأ التربية بالحرص على أن يكون الفرد سليم الجسم، ومن ثم تأتي بعد ذلك تربية شخصيته وتطوير الإرادة، والفصل في الأمور، وتحمل المسؤولية، والرغبة في المخاطرة، ثم تربية العقل، وذلك أن الدولة الجديدة تحتاج إلى محاربين أكثر من حاجتها إلى متقنين، واهتم هتلر بإعداد للشباب وتنشئتهم على فكرة للعنصرية، وضرورة الحفاظ على نقاء الدم، وأن تتسرب مفاهيم نازية إلى عقول الطلبة في المدارس، وأصبح الألماني في سلوكه وتفكيره وشخصيته وحياته على وعي بأن شعبه يفوق كل الشعوب، وأن العدالة ضرورة داخل الجماعة.

ويمنح للشباب في نهاية العام الدراسي شهادة تدل على صحة للبدن مع الحصول على دبلوم الدولة، وقضاء الخدمة العسكرية كمواطنين، فالإنسان لا يولد مواطناً في الدولة، ولكن عضواً فيها فحسب، ومن ثم يصبح مواطناً طبقاً لما يحققه للدولة من خدمات، ويصبح دبلوم الدولة هو أعلى وثيقة في حياة الإنسان الألماني.

إن الفاشية والنازية كحركتين سياسيتين وفكرتين - رغم كل الانتقادات التي وجهت إليهما - قد حققنا المكاسب في الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي،

وعززنا من دور الدولة في بناء المجتمع القومي، ومجابهته للخطر الخارجي، وتحديد
التحديات الاجتماعية والطبقية وبلورة الدولة القومية^(٢٩).

الفصل السادس

الأنظمة الشمولية بين الحربين

العالميتين (١٩١٩-١٩٣٩)

والأزمات الدولية



لولا: العدوان الياباني على الصين

ولجبت العالم في ثلاثينيات القرن العشرين سلسلة من الأحداث التي شكلت تهديداً خطيراً للسلم والأمن، من خلال شن عدد من الدول ذات الأنظمة الشمولية الاعتداءات ضد دول صغيرة، مثل العدوان الياباني على الصين، والإيطالي على الحبشة، وتدخل الدول الكبرى في الشؤون الداخلية للدول الصغيرة، مثل الحرب الأهلية الإسبانية.

ظلت اليابان تعتمد على أساليب وأنظمة القرن التاسع عشر، ثم بدأت تسعى لتطوير هذه الأنظمة، بإعادة تنظيم الجهاز الإداري، وإلغاء النظام الإقطاعي، وإصلاحات على النظام الضريبي، مع حركة تحديث لمختلف المؤسسات، كالجيش، والبحرية، والقضاء، والتعليم، والزراعة، والمواصلات، ثم الثورة الصناعية، وبروز النزعة القومية اليابانية، والسعي لتأسيس إمبراطورية يابانية خاصة في الوقت الذي كانت فيه الصين تعاني من الضعف والانهيار سياسياً، رغم أنها تمتلك ثروات غنية وطبيعية وذات كثافة سكانية وتعذ سوقاً جيدة للتجارة والصناعة اليابانية.

وهكذا اشتبكت اليابان مع الصين في حرب عام (١٨٩٤-١٨٩٥) أسفرت عن انتصار اليابان وحصولها على الأراضي الصينية، مثل فرموزا وبسكاردورس، وهي جزر صينية، ثم بعد عقد من الزمن - أي في عام ١٩٠٤ - خاضت اليابان حرباً مع روسيا لأن الأخيرة كانت تسعى إلى مد نفوذها إلى الصين والشرق الأقصى، وريحت اليابان من هذه الحرب أيضاً، وحصلت على مكاسب مثل استئجار شبه جزيرة لياوتونج والاستحواذ على النصف الجنوبي من سخالين، واعترفت روسيا بمصالح اليابان السياسية والعسكرية والاقتصادية في كوريا، وواصلت اليابان سياستها التوسعية، فلكمت عام ١٩١٠ على ضم كوريا لها.

وفرت للحرب العالمية الأولى الفرصة أمام اليابان لتحقيق المزيد من أطماعها التوسعية؛ إذ لكتمت في الخامس عشر من أغسطس/ آب ١٩١٤ على مطالبة ألمانيا بسحب سفنها الحربية من الشرق الأقصى وتخليها مقاطعة كياوجاو، ولما رفضت الأخيرة ذلك، أعلنت اليابان الحرب ضدها في الثالث والعشرين من أغسطس/ آب

١٩١٤، وأحرز اليابانيون نصراً سريعاً في الحرب بالاستيلاء على القواعد والمنشآت الألمانية في الصين بغضون أشهر قليلة، كما حققت اليابان مكاسب اقتصادية كبيرة؛ إذ زادت صادراتها من الأنسجة القطنية، وتضاعفت حمولة أسطولها للتجارية، وأصبحت نهاية الحرب ذات ثقل قوي في الشرق الأقصى، وأصبح لليابان نفوذ واسع في الصين. إلا أن لليابان ولجعت انقسامات داخلية بعد نهاية الحرب بسبب سياستها التوسعية في ظل صراع على طريقين: الأول يدعو للسلم، والآخر يدعو للقوة العسكرية والتوسع، وأخذت اليابان تواجه مصاعب سياسية واقتصادية، فكان للجيش يندد بسياسة الحكومة التوسعية السلمية، ويصفها بسياسة رخوة، ودب الفساد والرشوة في الأوساط السياسية، وأضر بسمعة الحكومة، أما اقتصادياً فقد أخذت اليابان تواجه مشاكل اقتصادية منذ عام ١٩٢١، حينما قلّت صادراتها الصناعية، والسبب استئناف الدول الأوروبية إنتاجها من السلع الصناعية واستعادتها أسواقها السابقة، وظهرت البطالة، والمشاكل الصناعية.

هذا مع ازدياد مشاكل المعارضة ضد الحكومة، حتى أنها نجحت في حمل الحكومة على استبعاد البارون شيبههرا كوزير للخارجية في أبريل/ نيسان ١٩٢٧، لأنه كان زعيماً لسياسة التوسع السلمية، وعُيّن بدله البارون تاناكو، وهو من أنصار سياسة التوسع المسلحة، وعاد شيبههرا إلى منصبه ثانية عام ١٩٢٩، وعادت المعارضة أيضاً إلى حملتها ضده، وقد جاءت الأزمة الاقتصادية العالمية، والتي أثرت بشكل سلبي على الاقتصاد الياباني، ونفعت للرأي نحو تأييد السياسة التوسعية العسكرية، وانخفضت صادرات اليابان بسببها من الحرير الخام الذي يمثل ٤٢% من صادراتها، وكانت الولايات المتحدة من أكبر مستوردي هذه المادة.

وانخفضت صادرات اليابان من السلع على أثر قيام العديد من الدول بفرض ضرائب عالية على السلع المستوردة لمواجهة أثر الأزمة الاقتصادية العالمية، وبيلما كانت صادرات اليابان عام ١٩٢٩ تقدر بـ ٢,٨٠٠ مليار ين، انخفضت عام ١٩٣١ إلى مليار ومئة وسبعة وأربعين مليون ين، واضطرت المصانع إلى الاستغناء عن أعداد كبيرة من العمال، وزدادت مشكلة البطالة، وتقلص حجم المشتريات، وعجز

الفلاحون عن دفع إيجارات أراضيهم بعد انخفاض أسعار حاصلاتهم من الأرز، وطالبوا بتمديد مواعيد مدادها، وعندما حاول العمال والفلاحون تنظيم أنفسهم في أحزاب واجهوا مقاومة شديدة من الحكومة.

اعتقد اليابانيون إزاء هذا الوضع أن علاج الحالة يكمن في سياسة التوسع الحربية؛ لأنه سيوفر لليابان المزيد من الأراضي والثروات والأسواق والمواد الأولية لحاجة للصناعات إليها واستيعاب الأراضي للسكان مع زيادة نموهم، واتجهت الأنظار نحو منشوريا في الصين لتحقيق هذا الأمر.

تقع منشوريا في الشمال الشرقي للصين، وكان يحكمها أعوان حكومة الكومنتانج التي يرأسها شيانج كاي شيك، وقد أولت اليابان الاهتمام الكبير للسيطرة على منشوريا لموقعها الاستراتيجي؛ إذ تتاخم الاتحاد السوفيتي جنوباً، ومن المحتمل أن تقع تحت سيطرة السوفيت؛ لأن لهم مصالح في منشوريا، فضلاً عن أن منشوريا غنية بالمعادن والفحم والحجري والاختشاب، وإنتاج فول للصويا الذي يؤلف ٧٠% من صادرات منشوريا، وتمتلك اليابان عدداً من المصالح والامتيازات في منشوريا منذ عام ١٩٠٥، مثل سكة الحديد جنوب منشوريا، ولها رعايا يقيمون في منشوريا يبلغوا ربع مليون نسمة، كما كان اليابانيون قد عمدوا إلى توظيف أموال طائلة في مشاريع صناعية وزراعية في منشوريا.

وأخذت مسألة منشوريا تستقطب اهتمام اليابانيين منذ عام ١٩٢٥ حينما طالبت بعض الصحف اليابانية بحل الإدارة في منشوريا؛ لأنها تشكل عقبة أمام النفوذ الياباني في منشوريا، علماً أن الصين قد اتخذت منذ عام ١٩٢٥ سلسلة إجراءات لتوطيد نفوذها في منشوريا، والحد من النفوذ الياباني فيها، واهتمت للمصارف اليابانية بـمنشوريا، وبدأت المخاوف تساور اليابان من احتمال استعادة الصين قوتها خاصة بعد أن أعلن شيانج كاي شيك في عام ١٩٢٦ خطة ترمي إلى توحيد الصين، وحققت الخطة قدراً من النجاح، مما دفع اليابان إلى التعميل باحتلال منشوريا، وجاءت الأزمة الاقتصادية العالمية لتضع حداً للخلافات بين أنصار التوسع السلمي، والتوسع المسلح لكي ترجح كفة الأخير.

وهكذا في الخامس عشر من سبتمبر/ أيلول ١٩٣١ تحركت القوات العسكرية اليابانية، وبعدها نشبت سلسلة انفجارات على خط سكة حديد منشوريا الجنوبية شمال من مدينة مكدن، وأدعى اليابانيون أن جنوداً صينيين كانوا وراء الحادث، فقد اتخذ اليابانيون من الحادثة ذريعة لمهاجمة القوات الصينية في مكدن، بل احتلال منشوريا بحجة حماية أرواح الرعايا اليابانيين في منشوريا، وأخبرت الحكومة اليابانية في التاسع عشر سبتمبر/ أيلول ١٩٣١ بالعمليات العسكرية في مكدن.

أرسلت العمليات العسكرية اليابانية في منشوريا حكومة وكاتسوكي الحاكم في اليابان، وكان الجيش يوسع من عملياته في منشوريا، وكان المندوبون في عصبة الأمم وعواصم أخرى يصرحون بأن العمليات العسكرية في منشوريا ما هي إلا إجراءات مؤقتة وسوف تتوقف قريباً.

وفي الثلاثين في سبتمبر/ أيلول ١٩٣١ أعلنت الحكومة اليابانية عن موافقتها على قرار أصدره مجلس العصبة يقضي بالانسحاب للقوات اليابانية إلى داخل منطقة سكة حديد منشوريا الجنوبية، علماً بأن القوات اليابانية واصلت في الوقت نفسه اندفاعها داخل منشوريا، وقصفت الطائرات اليابانية منشوريا، واستفحل الخلاف بين الحكومة اليابانية من عسكريين ومدنيين انتهت بتفوق الجناح العسكري.

أما الحكومة الصينية، فلم ترد عسكرياً على الغزو بسبب ضعفها، ولكنها رفضت إجراء أية مفاوضات مع اليابان طالما تواصل قواتها احتلال منشوريا، وأحيلت المسألة إلى عصبة الأمم في أواخر سبتمبر/ أيلول ١٩٣١، وتلقت العصبة الطلب الصيني برحابة، على أمل إثبات مقدرتها في حل المشكلات الدولية، وكان من بين الإجراءات التي اتخذتها العصبة هو إصدار قرار في الثلاثين من سبتمبر/ أيلول ١٩٣١، دعت فيه القوات اليابانية إلى الانسحاب من منشوريا، وشكلت لجنة دولية في سبتمبر/ كانون الأول ١٩٣١ لتقضي الحقائق في منشوريا، وتحت رئاسة اللورد لايتون وهو بريطاني الأصل، وأعدت اللجنة تقريراً رفعت به إلى عصبة الأمم في الرابع والعشرين من فبراير/ شباط ١٩٣٢ ذكرت فيه أن غالبية سكان منشوريا يعارضون حكومة منشيوكو، وأوصت بعدم الاعتراف بها، ودعت إلى منح منشوريا حكماً ذاتياً

تحت السيادة الصينية، ورفضت اليابان تلك المقترحات، واستمرت في قبضتها الحديدية في منشوريا.

وهكذا فشلت عصبة الأمم في إيجاد حل للمسألة للمنشورية، وتركزت للصين وحدها في المساحة، وكان المندوب الصيني إلى العصبة قد حذر الأعضاء فيها من عدم قدرتهم على إيقاف العدوان في منشوريا الذي سيؤدي إلى عواقب وخيمة على العصبة ويؤثر على مدى قدرتها على مواجهة التزامات عالمية أخرى.

وأكدت الحكومة الصينية على الرد على الغزو الياباني لمنشوريا بفرض حظر على دخول البضائع اليابانية إلى شانغهاي، والأخيرة تضم عدداً من البيوت التجارية والمؤسسات الصناعية اليابانية، وتسبب ذلك الحظر في وقوع اشتباكات بين الصينيين واليابانيين المقيمين في شانغهاي، وانزلت اليابان على أثرها قواتها في شانغهاي في مطلع عام ١٩٣٢، ودارت الحرب غير معلنة لمدة شهرين، استعمل خلالها الصينيون، وانتهت رغم ذلك في إبعاد القوات الصينية إلى مسافة ٢٠ كم خارج شانغهاي.

وانعقد مجلس مكنن في الثامن عشر من فبراير/ شباط ١٩٣٢، وضم (٧٠٠) شخص من سكان منشوريا ممن أظهروا استعداداً تاماً للتعاون مع السلطات اليابانية، وأعلن المجلس استقلال منشوريا عن الصين، وتشكلت حكومة جديدة عرفت بحكومة منشوكو، وعُيّن الإمبراطور بويي الذي كانت الثورة الصينية عام ١٩١١ قد أقصته عن العرش عام ١٩١١ رئيساً للحكومة.

تعدت آثار العدوان الياباني على الصين حدود منشوريا إلى مناطق أخرى من الصين، سيما وإن اليابان قد انسحبت من عصبة الأمم في مارس/ آذار ١٩٣٣، وانطلقت القوات اليابانية من منشوريا لاحتلال ما تبقى من شمال شرق الصين، التي لم تكن لديها فيها أية مطالب سابقة، وفي نهاية عام ١٩٣٥ سقطت أراضي صينية واسعة تحت السيطرة اليابانية، هذا في الوقت الذي نشبت فيه الحرب الأهلية في الصين بين أنصار حكومة الكومنتاج برئاسة كاي شيك والشيوعيين بزعامة ماوتس تونج^(٣٠).

ثانياً: العدوان الإيطالي على الحبشة

كانت إيطاليا تسيطر على لرتيريا الواقعة على الساحل الغربي من البحر

الأحمر، وعلى جزء من الصومال يقع على الساحل الغربي من المحيط الهندي منذ العقد الثامن من القرن التاسع عشر، وحاولوا في الوقت نفسه مد سيطرتهم على الحبشة التي ظلت تحتفظ باستقلالها، إذ عقد الإيطاليون معاهدة مع الحبشة في عام ١٨٨٩ عرفت بـ (لوكتشيلي)، حاولوا خلالها فرض حمايتهم على الحبشة، إلا أن منليك إمبراطور الحبشة نجح في التخلص من تلك الحماية، وعندها حاولت إيطاليا أن تفرض حمايتها على الحبشة بالقوة ولكنها فشلت، إذ نجح الأحباش في إلحاق الهزيمة بالطليان في معركة عدوة في مارس/ آذار ١٨٩٦ اضطروا من جرائها إلى مغادرة الحبشة.

إلا أن للهزيمة هذه لم تحل دون أن تواصل إيطاليا جهودها لاحتراز نفوذ على الحبشة، ونجحت في أواخر عام ١٩٠٦ في الحصول على منطقة نفوذ لها في الحبشة، وفي أعقاب اتفاق عقده مع بريطانيا وفرنسا في تلك السنة وبعد وصول الفاشيين إلى الحكم في إيطاليا في أواخر عام ١٩٢٢ تبنا سياسة توسعية أشد من قبل، واستأثرت احتلال الحبشة قسراً كبيراً من اهتمامهم، وكان هدف الطليان من هذا هو الرد على هزيمة عدوة، وانحازهم أمام الحبشة، وتوسيع رقعة المستعمرات الإيطالية في شرق أفريقيا، وتأسيس إمبراطورية استعمارية فيها، وهو ينسجم مع تطلعات موسوليني لبعث الإمبراطورية الرومانية القديمة ذات النفوذ والمجد، ولتلبية رغبة الأوساط الاستعمارية في إيطاليا، ولوفرة الموارد الطبيعية في الحبشة وضعف قوتها العسكرية قواماً إلى إيطاليا التي عززت كثيراً من قدراتها العسكرية عقب استيلاء الفاشيين على السلطة فيها.

وكانت الحبشة قد حصلت في عام ١٩٢٣ على عضوية عصبة الأمم، وفي ظل ترحيب شديد من إيطاليا لهذه الخطوة، وفي أواخر عام ١٩٢٥ دخلت إيطاليا في مفاوضات مع بريطانيا - بوصفها الدولة الأقوى نفوذاً في البحر الأحمر - حول اقتسام مناطق النفوذ في الحبشة بينهما، وطرحت إيطاليا خلالها مطالب لشملت على مد خط حديدي عبر الحبشة يربط للمستعمرتين لرتيريا والصومال الإيطالي، وإخضاع كل المنطقة التي يمر بها الخط للحديدي مع غرب الحبشة للنفوذ الإيطالي الاقتصادي.

لكن هذا المشروع لم ينجح بسبب عدم موافقة الحكومة للبريطانية عليه والمعارضة الشديدة من فرنسا والحبشة، وعهد الإيطاليون إلى تحسين علاقاتهم مع

الحبشة، وعقدوا معاهدة صداقة معها في عام ١٩٢٨، من أبرز مبادئها ان يتعهد الطرفان بحل الخلافات التي قد تنشأ بينهما بالوسائل السلمية ولامتناع أي طرف عن القيام بأي عمل من شأنه ان يلحق الضرر بأمن واستقلال الطرف الآخر، والعمل على تنمية وتطوير للتجارة بينهما.

حاول الطليان استغلال هذه المعاهدة لاحكام سيطرتهم الاقتصادية على الحبشة وعلى غرار ما فعلوه في ليبيا، ولكن الإمبراطور الحبشي هلا سيلامي عارض تلك المحاولات، وأخذ يفتح أبواب بلاده أمام تجارة الدول الأخرى، وعقد معاهدة تجارية مع اليابان في عام ١٩٣٠، أدت إلى تدفق السلع اليابانية على الحبشة، ومنح للمستثمرين الأمريكيين أفضلية، بهدف الحد من نشاط المستثمرين الإيطاليين، وقد احتجت إيطاليا على هذه الإجراءات فيما أكدت الحبشة ان من حقها أن تختار أفضل العروض، وأصبحت إيطاليا أمام خيارين: إما ان تدّعي للإجراءات تلك، وهو ما يعني وقف الاطماع الإيطالية في الحبشة، أو تلجأ إلى استخدام أسلوب القوة لتحقيق تلك الأطماع، ثم قررت إيطاليا للحل الثاني.

ويبدو ان العامل الاقتصادي كان له أثره في الخطوة الإيطالية تجاه للتوسع في الحبشة، فقد سببت أزمة للركود في الاقتصاد العالمي ثم الاقتصاد الإيطالي خلق حاجة ماسة إلى إيجاد أسواق جديدة أمام للصناعة الإيطالية.

ولم يكن أمام إيطاليا سوى إيجاد ذريعة للعدوان، والاعداد للفرز، وإعلان للتعبئة، وإنشاء الأرصفة في الموانئ الأريتيرية، وشق الطرق والسكك الحديدية في أرتيريا لاستخدامها في نقل القوات الغازية، وصدرت في خريف عام ١٩٣٣ تعليمات إلى دي بونو الذي كان وزيراً للمستعمرات بضرورة حسم المشكلة الجنسية خلال ثلاث سنوات كحد أعلى.

وجاءت الفرصة في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٤ في حادثة (وال وال) قرية عند حدود الصومال الإيطالي والصومال البريطاني والحبشة، وقام جنود لحباش بالقنوم إلى القرية لتعيين الحدود بينها وبين الصومال البريطاني، وقرروا ان (وال وال) تقع داخل الأراضي الحبشية، وحاولوا احتلالها، ونشب الصراع مع الحامية الصغيرة

الإيطالية، وانتهى باحتلال الأخيرة للموقع، فاحتجت الحكومة الإيطالية على الحادث، ووصفته بالعمل العدواني الموجه ضدها، وطالبت بمعالجة للفاعلين، وتقديم اعتذار رسمي عن الحادث، ودفع تعويضات عنه، ونفت الحكومة الحبشية هذا الأمر، وأنه عمل واقع داخل أراضيها، واقترحت عرض القضية على التحكيم تنفيذاً لمعاهدة الصداقة بين الحبشة وإيطاليا في عام ١٩٢٨، وقد رفضت إيطاليا الاقتراح الحبشي، ورفضت إجراء أية مناقشات بصدد الموقع المتنازع عليه.

أثار موقف إيطاليا القلق داخل فرنسا وبريطانيا، وانقسم للرأي العام الفرنسي إلى فريقين: الأول يشجب موقف إيطاليا باعتباره يمثل تهديداً خطيراً للمسلم في العالم، وإن من شأنه أن يقوض من مكانة عصبة الأمم، أما الفريق الثاني فكان يهدد إيطاليا ويعارض اتخاذ أية إجراءات ضدها، خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى الإضرار بعلاقات فرنسا مع إيطاليا، ومن ثم دفع الأخيرة إلى الارتقاء في أحضان ألمانيا، ثم إنه لم تكن لفرنسا مصالح كبيرة في البحر الأحمر باستثناء جيبوتي، ومن الأفضل لفرنسا أن تدع الإيطاليين يتوسعون في أفريقيا الشرقية بدلاً من توسعهم في البحر المتوسط، الأمر الذي يهدد مصالح فرنسا فيها، ومن جانب آخر اتخذت حكومة الأقال للفرنسية موقفاً بنطوي على تقديم تنازلات لإيطاليا، وتعهد الأقال خلال زيارة روما مطلع يناير/ كانون الثاني ١٩٣٥ بتأييد الأطماع الإيطالية في الحبشة شرط عدم استخدام القوة في تحقيقها، وكان موسوليني قد هدد في المناسبة ذاتها باتخاذ ما وصفه بالتدابير الضرورية في حالة عدم تسوية النزاع بالشكل الذي يرضى إيطاليا.

أما موقف بريطانيا فقد كانت تعارض سياسة التوسع الإيطالية في الحبشة، لأن هذه السياسة ستؤدي إلى سيطرة إيطاليا على بحيرة تانا في شمال الحبشة التي تغذي أحد الروافد الرئيسة لنهر النيل، وهو النيل الأزرق، ومن ثم يتيح لإيطاليا فرصة التحكم في مياه النيل ذي الأهمية الكبيرة لمصر والسودان، ولم تكن بريطانيا تتظر بارتياح إلى تزايد الوجود العسكري الإيطالي في البحر الأحمر ذي الأهمية الاستراتيجية لبريطانيا، إذ قد يؤدي هذا إلى تهديد المواصلات البريطانية للمارة عبر البحر الأحمر، فضلاً عن أن بريطانيا تريد تكرار ما حدث في منشوريا من قبل اليابانيين، لا سيما أن الرأي العام

البريطاني يؤيد عصبة الأمم، ويدعم العقوبات الاقتصادية والعسكرية ضد الدول المعتدية، إلا أن الحكومة البريطانية لم ترغب في الوصول إلى المواجهة مع إيطاليا في سياسة استخدام القوة ضدها، لأنها غير مستعدة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً لمثل هذا الأمر، وتحرص على تجنب المواجهة مع موسوليني الذي قد يندفع إلى شن الحرب ضدها، وتأمل في الإبقاء على تماسك ستريسا، واستخدام إيطاليا كحليف ضد ألمانيا التي كانت تعد أكبر خطر يهدد السلم في أوروبا.

وقد طرح النطولي أيدن وزير بريطانيا لشؤون عصبة الأمم مشروعاً على موسوليني خلال زيارته إلى روما في يونيو/ حزيران ١٩٣٥ يقضي بأن تعطى بريطانيا إلى الحبشة منفذاً يوصلها إلى البحر عبر الصومال البريطاني، مقابل أن تتنازل الحبشة عن بعض أقاليمها إلى إيطاليا، وحذر أيدن موسوليني من مغبة تحدي ميثاق العصبة، وقد رفض موسوليني المشروع كله؛ لأن ما كان يريد هو إحراز نصر حربي كبير ضد الحبشة أكثر من حصوله على بعض الأراضي فيها.

وسقطت حكومة مكدونالدز في بريطانيا في يونيو/ حزيران ١٩٣٥، وجاءت حكومة بالدوين، وتولى صموئيل هود منصب وزير الخارجية فيها، وصرح هذا بأن بريطانيا لن تقف مكتوفة الأيدي أمام أي اعتداء تقوم به إيطاليا ضد الحبشة، إلا أنه - وبهدف تلافي الأضرار التي قد تصيب المصالح البريطانية جراء الاحتلال الإيطالي المتوقع للحبشة، ورغبة من فرنسا وبريطانيا في الإبقاء على جبهة ستريسا - دعت الحكومة الإيطالية إلى اجتماع استمر ثلاثة أيام (١٥-١٨/٨/١٩٣٥)، ناقش فيه المشروع الفرنسي - البريطاني، والذي يقضي بوضع الحبشة تحت الانتداب الثلاثي الفرنسي - البريطاني - الإيطالي، وتعطى الأخيرة امتيازات عسكرية واقتصادية كبيرة في الحبشة، لكن للمشروع فشل لرفض موسوليني مشاركة بريطانيا وفرنسا نفوذه في الحبشة، واضطرت بريطانيا إلى اتخاذ موقف متشدد وأكثر صلابة تجاه إيطاليا، تمثل في استدعاء معظم الأسطول الحربي إلى البحر المتوسط، وحشدته في الإسكندرية، وألذرت موسوليني بأنها سوف تتدخل إلى جانب الحبشة في حالة تعرض الأخيرة إلى العدوان.

أصدر موسوليني أوامره في الثاني من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٥ بالبدء في العمليات العسكرية ضد الحبشة، وأحرز الطالبان نصراً سريعاً لحشدتهم قوات كبيرة تبلغ ٢٠٠ ألف جندي مع أسلحة متنوعة، ودخلوا أديس أبابا في الخامس من مايو/ أيار ١٩٣٦، واضطر هيتلر سريلاً للفرار إلى بريطانيا، وأعلن موسوليني ضم الحبشة في التاسع منه، وتشكلت إمبراطورية استعمارية في شرق أفريقيا الإيطالية، وأصبح للملك فيكتور عمانوئيل الثالث إمبراطوراً لها.

بعد أن رفضت إيطاليا اقتراح التحكيم الذي عرضته عليها الحبشة لحل الخلافات التي نجمت عن حادث (وال وال) التفتت الحبشة بأن إيطاليا ماضية في طريقها بالعدوان ضدها، قدمت طلباً إلى عصبة الأمم في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٤ لبحث الأزمة، ولتبعته بطلب آخر في آذار من عام ١٩٣٥.

اتخذت العصبة قراراً بتشكيل لجنة مصالحة، يُعهد إليها الوصول إلى حل الأزمة الحبشية، وعلى أن يُعرض النزاع في حالة إخفاق اللجنة في الوصول إلى حل على مجلس العصبة.

وبعد أن اجتاحت الطالبان الحبشة عام ١٩٣٥ واصل مجلس العصبة مناقشاته، وبرزت خلافات حول الإجراءات الواجب اتباعها تجاه إيطاليا، واتخذ مجلس العصبة قراراً يقضي بإدانة إيطاليا؛ لاتها دولة معتدية وفرض عقوبات اقتصادية عليها، لكنها كانت شككية لم تؤد إلى حرمانها من الموالد الضرورية التي تمكنها من مواصلة خططها العدوانية، كالحديد والنفط، وأثارت قرارات العصبة غضب موسوليني، وألغى اتفاقية روما التي عقدها مع فرنسا مطلع عام ١٩٣٥ والسحابه من جهة ترينسا.

أدى هذا إلى فشل للسياسة الفرنسية تجاه أوروبا، وقرر لافال رئيس للحكومة الفرنسية محاولة استرضاء إيطاليا والحيولة دون تحالفها مع ألمانيا، ودعا وزير الخارجية البريطاني صموئيل هور إلى زيارة باريس، وأقنعه بالموافقة على إيجاد حل وسط للأزمة الحبشية، وألما مشروعاً إلى إيطاليا في السابع من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٥ نص على الاعتراف بحق إيطاليا في احتلال ثلثي الحبشة، والسماح لها بإنشاء مستعمرات في الثلث الباقي، ويبقى الثلث الأخير بيد الحبشة، وتعطي الأخيرة منفذاً إلى

لبحر على حساب أرثيريا، ولكن للمشروع لم ينجح بسبب المعارضة الشعبية البريطانية والفرنسية، وانتقد البرلمان البريطاني للمشروع بشدة وعده مكافأة لدولة معتدية، واضطر بلديون رئيس الحكومة البريطانية إلى تلبية صموئيل هور من منصبه في لواخر ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٥، وعين بيله ليطوني أيدن، وأجبر لافال هو أيضاً على التحي، وقدم استقالته وحكومته معاً في فبراير/ شباط ١٩٣٦.

وبعد فشل كل المبادرات الرامية لحل القضية الحبشية سلمياً، وجد هتلر ان الظروف الدولية أصبحت جاهزة لتحقيق خطته، وأعلن في الخامس من مارس/ آذار ١٩٣٦ عن نقضه لاتفاقية لوكارنو، وأرسل قواته إلى الراين، ودفع هذا للدول الأوروبية مثل بريطانيا وفرنسا إلى صرف النظر عن القضية الحبشية والانتفات إلى النشاط الألماني، ورفعت الدولتان العقوبات عن إيطاليا، وحذت الدول حذوها في لواسط عام ١٩٣٧، ونجحت إيطاليا في ابتلاع الحبشة، وفشلت عصبة الأمم ذات الخمسين عضواً في إحباط السياسة العدوانية لموسوليني^(٣١).

ثالثاً: الحرب الأهلية الإسبانية

كانت إسبانيا في لواخر للقرن التاسع عشر دولة ملكية دستورية يحكمها الملك ألفونسو الثالث عشر Alofonso XIII الذي اعتلى للعرش في عام ١٨٨٥، وقد ولجعت إسبانيا منذ ذلك الحين سلسلة من المتاعب الخارجية والداخلية، وتمثلت الأولى في ثوبوب حرب إسبانية - أمريكية بسبب كوبا عام ١٨٩٨، هزمت الأولى وفقدت على أثرها ما تبقى لها في كوبا وبورتوريكو في منطقة للبحر للكاربيبي والفلبين في جنوب شرق آسيا.

أما داخلياً فقد واجه نظام للحكم الإسباني معارضة من الشعب، وتجمعت في لدلاع الثورات، مثل الثورة التي نشبت في برشلونة عام ١٩٠٩، ولكن للثورات سرعان ما أخمدت دون ان يحصل تغيير في البلاد.

وفي الحرب العالمية الأولى اتخذت إسبانيا موقفاً محايداً، رغم انها أعلنت حالة الطوارئ في البلاد، وبعد انتهاء الحرب واجهت ثورة تحررية واسعة في للريف للمراكشي بقيادة عبد الكريم الخطابي المجاهد للمراكشي، ونجح في إلحاق الهزيمة

بالأسبان في معركة لنوال في عام ١٩٢١، واثارت رد فعل كبير في الشعب الإسباني، وطالبوا بإجراء تحقيق حول ما جرى، ومحاكمة المسؤولين، وشكل البرلمان لجنة بهذا الشأن، وأعدت تقريراً حول القضية، ولكن الحكومة حالت دون نشره أمام الشعب؛ لأنه وضع أصابع الاتهام على الحكومة، ولم يسلّم الملك نفسه منه، وعندما احتج للبرلمان والصحافة ولشعب على قرار الحكومة بحجب التقرير عن الرأي العام الذي كان يصر على إزال العقاب بالمقصرين، تخرج موقف الملك، وخلال ذلك نجح أحد للقادة العسكريين وهو ديفيرا في القيام بانقلاب ضد الحكومة في سبتمبر/ أيلول ١٩٢٣، ونال الانقلاب استحسان الملك، وخضعت إسبانيا من ذلك الوقت إلى حكم ديكتاتوري عسكري لمدة سبع سنوات، فُرضت خلالها الاحكام للعرفية، وحلّ البرلمان، وفُرضت للقيود على الحريات، ووضعت للصحافة تحت رقابة شديدة، ونفي زعماء للمعارضة.

وقام نظام ريفيرا بأعمال لصالح إسبانيا، مثل إخماد الثورة في الريف المراكشي في عام ١٩٢٥ بدعم من فرنسا، ومد سكك حديدية، وشق الطرق، وبناء مشاريع، وزيادة الإنتاج الصناعي، ولكن هذا لم يمنع من ظهور معارضة ضده، بل ضد الملكية الإسبانية عامة، وقد نجح الملك الفونسو في جعل ريفيرا أداة بيده.

وبدأت مشاعر للسخط والغضب في عام ١٩٢٨ في أوساط الشعب الإسباني، مع اضطرابات خطيرة ضد الحكومة، وانتشر التمرد في صفوف الجيش، ونظم طلاب للجامعات والأعمال مظاهرات ضد الحكومة، ثم ان إسبانيا تعاني منذ عام ١٩٣٠ من أزمة اقتصادية عالمية، وظهرت مشكلة البطالة، وأدى سوء سياسة ريفيرا المالية إلى هبوط قيمة العملة الإسبانية، وهي اللبيزيتا، وأخيراً تخلى الجيش عن مساندته لريفيرا، مما أضعف مركزه، وحمله على الاستقالة في عام ١٩٣٠.

واضطّر الملك إلى تقديم عدد من للتنازلات كإعادة العمل بالدستور، وقد صدر عام ١٨٧٦: وكإجابة مطالب الجامعات والأماندة بالعفو عن السجناء السياسيين، وإجراء لانتخابات عامة لتأسيس برلمان جديد في إسبانيا، وفي إبريل/ نيسان ١٩٣١ جرت لانتخابات عامة في إسبانيا، أسفرت عن فوز المرشحين للجمهوريين في المدن الإسبانية، واحتشدت جموع من الجمهوريين في شوارع مدريد للإعراب عن سعادتهم

بالفوز، وقرر الملك للتنازل عن العرش تقديراً للصراع، وغادر إسبانيا في طريقه إلى فرنسا، حيث عاش منفياً حتى وفاته عام ١٩٤١، وتشكلت حكومة مؤقتة في إسبانيا، وتأسس برلمان جديد أعلن في التاسع من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣١ عن إقامة جمهورية في إسبانيا.

١- إسبانيا للجمهورية:

ولجأت الجمهورية الجديدة لمشكلات خطيرة، من بينها مطالبة كاتولينا والباسك في شمال شرق وشمال إسبانيا بالاستقلال. واشتدّاد معارضة الكنيسة الكاثوليكية للجمهورية، لا سيما أن الأخيرة كانت تبادل مشاعر العداء للكنيسة، وتحاول أن تقلل من نفوذها، ولم تبدّ الجمهورية لرتباحاً من الجيش؛ بسبب تدخله في السياسة والخشية من أن يقوم بانقلاب آخر على غرار انقلاب عام ١٩٢٣.

وعانت الجمهورية من مشكلات اقتصادية، فهبطت أسعار الحاصلات الزراعية، وانخفضت صادرات إسبانيا من النبيذ وزيت الزيتون، وتناقصت مساحة الأراضي المزروعة، وتعرض الفلاحون للبطالة، أما الصناعة فقد هبط إنتاج الحديد إلى الثلث، وهما لتخفيض لتنتاج للفولاذ إلى النصف، وانخفضت الأجور، وتدهورت معيشة السكان.

وحاولت حكومة مانويل ازنا M. Azana التي تشكلت في أواخر عام ١٩٣١ - وكان يسيطر عليها الاشتراكيون والراديكاليون من الطبقة الوسطى - لمعالجة تلك المشاكل، ومنحت مقاطعة كاتلونيا قرراً من الاستقلال الذاتي، واتخذت سلسلة من الإجراءات ضد الكنيسة، كفصلها عن الدولة، وتأميم أملاكها، والتوقف عن رفع الرواقب إلى رجال الدين، وإلغاء المدارس التابعة للكنيسة، واتخذت إجراءات ضد لليهود، وأقنعت الحكومة على اتخاذ إجراءات لصالح للفلاحين والعمال، كما بذلت محاولات زيادة أجور العمال، وتسريح أعداد كبيرة من ضباط الجيش.

لثارت الإجراءات السابقة الغضب الشديد في لوسطا المحافظين من أنصار الكنيسة ورجال الجيش، وملكي الأراضي وأصحاب للصناعات، وواجهها المحافظون، وبرزت مخاوف من احتمال قيام ثورة اشتراكية، وفي عام ١٩٣٢ حاولت مجموعة من

ضباط الجيش القيام بانقلاب ضد حكومة أرنا، لكن المحاولة أبطت بسهولة؛ بالنظر إلى أن أكثرية الجيش حافظت على ولائها للحكومة، وقد تأسس حزب محافظ جديد في إسبانيا، وهو حزب سيدا للدفاع عن مصالح الكنيسة وملاك الأراضي.

واجهت حكومة أرنا معارضة من قبل القوضويين والنفابيين اليساريين والذين مارسوا نفوذاً كبيراً على اتحاد للتجار، ورغبوا في اتباع أسلوب الإضراب العام واسقاط للنظام الرأسمالي، ونددوا بالاشتراكيين لتعاونهم مع الطبقة الوسطى، وقادوا الاضرابات والاعتقالات وحولت الفوضى، ووصلت إلى ذروتها في مطلع عام ١٩٣٣ عندما أقيمت قوات حكومية على إشعال النار في منازل القرى القريبة من (قانس) ميناء في جنوب إسبانيا، وتسبب في مقتل للبعض، ووقف معاندة الطبقة العاملة للحكومة، وسحب الاشتراكيين تأييدهم لها أيضاً، واضطر أرنا إلى الاستقالة.

وفي انتخابات نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٣٣ فازت الأحزاب المحافظة بأكثرية الأصوات، وأصبح حزب سيدا الكاثوليكي الجديد أقوى تلك الأحزاب، وقد ألغت الحكومة المحافظة الجديدة معظم الإصلاحات التي كانت قد قامت بها حكومة أرنا، وتدخلت في شؤون حكومة كاتلونيا الجديدة، ورفضت إعطاء الباسك حكماً ذاتياً على الرغم من أن سكان هذه المقاطعة كانوا قد صوتوا إلى جانب المحافظين، وأثار سخط اليساريين، ودفعهم إلى تشكيل جبهة شعبية، ومن جهة أخرى اتسع نطاق العنف والاضطرابات، وهاجم القوضويون السكك وطرق النقل، وقتل للعديد من السكان، وأعلن الاضراب العام في عام ١٩٣٤.

استقر رأي رئيس الجمهورية زامورا على إجراء انتخابات جديدة في عام ١٩٣٦، على أمل إيجاد مخرج لحالة الفوضى التي تزدت فيها البلاد، إلا أن النتائج جاءت سلبية وعكسية؛ إذ أخفق المحافظون واليساريون في الفوز بالأغلبية الساحقة، ولكن الحكومة تشكلت برئاسة أرنا، وازدادت الصراعات بين القوى السياسية، وتفتت الاعتداءات والحولت، وأخفقت الحكومة في إعادة النظام إلى وضعه الطبيعي.

ووصل الوضع إلى مرحلة التوتر في الثالث عشر من يوليو/ تموز ١٩٣٦، حيث قتل أحد زعماء المحافظين، وهو كالفو سوتيلو على أيدي الشرطة، وكان سوتيلو

قد دأب على مهاجمة الحكومة، وأثار الحادث استياء المحافظين، وحملهم على الاعتقاد بإعادة الوضع إلى نصابه في إقامة ديكتاتورية عسكرية.

وأعدوا انقلاباً عسكرياً بمشاركة عدد من الجنرالات العسكرية، وبعض القوى المحافظة، مثل حزب فالانج، وهو حزب فاشيستي تأسس حديثاً، واستغل الانقلابيون حادثة مقتل سونيلو نريعة، وبدلوا ثورة ضد الحكومة، وكان من المقرر أن يتولى الجنرال جوزيه سانجور قيادتها، فغادر للبرتغال حيث كان منفياً فيها، وفي طريقه إلى إسبانيا قتل في حادث طائرة كان يستقلها، وقد نصب الجنرال فرانكو رئيس الأركان العامة للجيش الإسباني حتى عام ١٩٣٦، حيث جردته الحكومة من منصبه، ونفته إلى جزر الكناري في شمال غرب أفريقيا، ونصب نفسه قائداً للثورة^(٣٢).

٢- الحرب الأهلية الإسبانية ونور فرانكو:

أعلن فرانكو الثورة ضد الحكومة في الثامن عشر من يوليو/ تموز ١٩٣٦ بعد أن غادر منفاه في الكناري باتجاه الريف لمغربي، حيث انضمت إليه الفرقة الأجنبية الإسبانية التي ترابط هناك، ونجح فرانكو في تجنيد المغاربة للقتال معه بعد أن وعدهم بالاستجابة لمطالبهم الوطنية، وبعد أن أخضع فرانكو منطقة الريف، تحرك باتجاه إسبانيا ومعه خصوم الحكومة من منتسبي الجيش وأعدوان الكنيسة والملكية، والفاشست وكبار ملاك الأراضي ورجال الأعمال، وسُمّوا بالوطنيين.

أما الحكومة فقد أيدتها فئات يسارية من اشتراكيين وشيوعيين وفوضويين ومقاطعة الباسك، الذين دعموا الحكومة لأنها وعدتهم بالحكم الذاتي، وفريق من الأسبان ممن نقموا على فرانكو لتجنيد المغاربة للقتال ضدهم، وأصبح هؤلاء يُعرفون بالجمهوريين، وحقق فرانكو انتصارات عدة في الأيام الأولى للحرب، واحتل شمال إسبانيا، وهدد مدريد، واضطرت الحكومة إلى الانتقال إلى مدينة فالنسيا على الساحل الشرقي في إسبانيا.

ولتخذ فرانكو من مدينة برغوس في الشمال من مدريد مقراً له، وأعلن نفسه رئيساً للدولة الإسبانية مطلع أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٦، ولكن النزاع بين الطرفين لم يحسم مع الدعم السوفيتي للحكومة الإسبانية، وأمدت الحرب، وطلب كل من

الطرفين المساعدة الأجنبية لكسب الحرب لصالحه، واستجابت القوى لذلك، وتحولت الحرب الأهلية إلى حرب أوروبية دولية.

تدخلت عدة دول أجنبية في الحرب الأهلية الإسبانية، وقف بعضها مع فرانكو، ووقف الآخر مع الحكومة، وكل دولة ترمي لتحقيق مصالحها من خلال التدخل بالحرب، أما فرانكو فقد حصل على مساعدات من إيطاليا وألمانيا والبرتغال.

أما إيطاليا فقد ساندت فرانكو على أساس تأسيس نفوذ لها في إسبانيا، سيما وأنه كان قد تأسس حزب فاشستي فيها، واستهدفت من مساعدة فرانكو الحصول على بعض القواعد البحرية والجوية، ولا سيما في جزر البليار التي تستطيع من خلالها تهديد النفوذ الفرنسي في حوض المتوسط الغربي، وتعزيز النفوذ الإيطالي فيه؛ وصولاً إلى جعل المتوسط بحيرة إيطالية.

واعترفت إيطاليا بحكومة فرانكو في نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٣٦، وأمدتها بمساعدات ضخمة للرجال والأسلحة، وقُدر عدد الإيطاليين الذين أسهموا في الحرب الأهلية الإسبانية بما يتراوح بين (٦٠-١٠٠) ألف مقاتل، فضلاً عن الطائرات والمدافع والبنائق والدبابات والفواصات والطائرات الإيطالية التي تهاجم السفن التي تحمل إمدادات إلى الجمهوريين، وأشار وزير الخارجية الإيطالي الكونت سيانو بأن للتدخل الإيطالي في إسبانيا كلف ٧٠٠ مليون دولار.

أما ألمانيا فقد حاولت أن تستغل للحرب الأهلية الإسبانية في توسيع الخلاف بين إيطاليا وفرنسا، وسعت إلى عقد تحالف مع إسبانيا من شأنه أن يثير قلق فرنسا، ويضطرها في حالة نشوب للحرب بينها وبين ألمانيا، إلى الإبقاء على بعض من قلاعتها على الحدود الإسبانية، وحاولت ألمانيا استخدام إسبانيا مبدئياً لاختبار كفاءة أسلحتها، ولا سيما سلاح الجو، وكانت تأمل في الحصول على بعض المولد الأولية من إسبانيا، كالنحاس والحجري والحديد والمنظف، وكان هتلر يريد إطالة أمد الحرب؛ كي تضعف إيطاليا، وتقل قدرتها على مواجهة ألمانيا إذا ما أرادت ضم فرنسا إليها، وقد اعترفت ألمانيا أيضاً بحكومة فرانكو في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٣٦، وأمدتها بما يقارب خمسين ألف مقاتل والطائرات والدبابات، وقدم هتلر مساعدات إلى فرانكو بمبلغ

لما موقف البرتغال فقد انحازت إلى فرانكو لأن نظامها كانت استبدادياً، ولأنها كانت تعادي الشيوعية، وسمح لكتاتورها بالازار باستخدام أراضيها في نقل الإمدادات إلى قوات فرانكو.

لما الجمهوريون فقد حصلوا على مساعدات من قبل الاتحاد السوفيتي، للوقوف إلى جانب الشيوعيين الذين يشكلون ركائز الجمهوريين، وانتصارهم سوف يزيد من نفوذ الشيوعيين في إسبانيا، ويؤدي إلى حصول السوفييت على موطئ قدم لهم في إسبانيا، وقد يؤدي ذلك إلى توسيع الهوة بين فرنسا وبريطانيا من جهة، وبين ألمانيا وإيطاليا من جهة أخرى، وذلك ما جعل الاتحاد السوفيتي يرغب في إطالة أمد الحرب الأهلية الإسبانية أكثر من رغبته في أن ينتصر الجمهوريون فيها.

لما فرنسا فقد كانت تعارض للتدخل الاجنبي في الحرب، ولم ترغب في أن يحقق فرانكو انتصاراً على الجمهوريين، لأن من شأن ذلك أن يمكن إيطاليا حليفة فرانكو من الحصول على بعض المواقع في إسبانيا، مما يؤدي إلى أحداث تغييرات في حوض المتوسط الغربي، الأمر الذي عارضته فرنسا بشدة، ولا سيما أن الرأي العام الفرنسي انقسم على نفسه بصدد الموقف الواجب اتخاذه حيال طرفي الحرب، ومارس اليساريون ضغطاً على الحكومة لحملها على دعم الجمهوريين بالسلاح فيما عارض اليمينيون ذلك الموقف.

واضطرت حكومة الجبهة الشعبية برئاسة ليون بلوم - تحت تأثير الخوف من تفاقم الخلافات داخل فرنسا، واحتمال حدوث مجابهة بين فرنسا وإيطاليا وألمانيا - إلى التعامل مع الحرب الأهلية الإسبانية بحذر ودون التدخل فيها، رغم أن ذلك لم يمنعها من السماح للمتطوعين بالانحاق بقوات الجمهوريين.

أما بريطانيا فكان موقفها يشبه إلى حد بعيد موقف فرنسا، إذ أنها كانت تعارض للتدخل الاجنبي في الحرب الأهلية، كما كانت تعارض حصول إيطاليا وألمانيا على أية مكاسب في حوض المتوسط الغربي، خشية أن يؤدي ذلك إلى تهديد المواصلات البريطانية المارة عبر مضيق جبل طارق، وشهدت بريطانيا اختلافات تجاه

الموقف الواجب لتباعه إزاء طرفي الحرب، فقد اتخذ حزباً المحافظين والاحرار للذين كانا يتقاسمان السلطة في بريطانيا آنذاك موقفاً مغايراً، فبينما كان المحافظون يميلون إلى تأييد قوات فرانكو كان العمال يدعون إلى مساندة الجمهوريين، واتفقوا في النهاية على حل وسط يقدم حزب العمال بموجبه دعماً للجمهوريين فيما يقدم حزب المحافظين للمساعدة إلى قوات فرانكو.

ثم إن الحوادث التي كانت تقوم بها الطائرات والغواصات الإيطالية ضد السفن التي تنقل الإمدادات إلى الجمهوريين أخذت تتصاعد منذ مطلع عام ١٩٣٧، ودعا ذلك بريطانيا وفرنسا إلى توجيه دعوة في سبتمبر/ أيلول ١٩٣٧ إلى دول البحر الأسود والبحر المتوسط لاتخاذ إجراءات مشتركة ضد ذلك النشاط، ووافقت الدول على هذه الدعوة، وعقدت مؤتمراً في مدينة ليون قرب جنيف، واتفق خلاله على اتخاذ كل ما يضمن سلامة الملاحة في المتوسط، وتدمير الغواصات والطائرات التي تواصل أعمال القرصنة فيه، وتم تنفيذ تلك الإجراءات على الفور، وتوقفت أعمال القرصنة.

لقد استمرت الحرب الأهلية الإسبانية ثلاث سنوات، وانتهت بانتصار فرانكو وانحلال الجمهوريين في مارس/ آذار ١٩٣٩، واتخذ فرانكو لنفسه لقب كوايديللو للقائد، ولقام نظاماً سياسياً للحكم لاشعبي، استمر حتى وفاته في عام ١٩٧٥، واتسم بالقسوة والقمع، وكلفت للحرب الأهلية الإسبانية خسائر في الأرواح بلغت (١,٥) مليون رجل، عدا عن الدمار الذي لحق بالمدن الإسبانية، ولعل لانتصار فرانكو في هذه الحرب كان سببه المساعدات الضخمة التي تلقاها من إيطاليا وألمانيا، مما رجع كفته في الحرب، ومن ثم براعة فرانكو في توحيد الفصائل من رجال الجيش ومؤيدي الكنيسة والملكيين والفاشيين، فيما كان الجمهوريون يفتقرون إلى الوحدة.

٣- موقف عصبة الأمم:

كاد موقف عصبة الأمم من الحرب الأهلية الإسبانية يكون معديماً، حيث لم تقم العصبة بواجباتها للمقاومة عليها، فقد شكلت لجنة دولية محلها، وتشكلت من فرنسا وبريطانيا في سبتمبر/ أيلول ١٩٣٦، ومعها انضمت ألمانيا وإيطاليا والاتحاد السوفيتي، ومهمتها أن تحول دون للتدخل في الحرب الأهلية الإسبانية، ولم تنفع شكاوى الحكومة

الإسبانية المرفوعة للعصبة في حل الأزمة، حيث إن اللجنة الدولية هي التي هيمنت على القرار دون العصبة فيما يخص الحرب الأهلية الإسبانية، وظلت المرارة في نفس الحكومة من موقف العصبة، والتي أكدت هذه الحرب عدم قدرتها على إدارة الأزمات الدولية، بل فشلها في تحقيق أدوارها المنوطة بها^(٢٢).

الفصل السابع

الآزمات الأوروبية (١٩٣٥-١٩٣٩)

والتمهيد لنشوب الحرب

العالمية الثانية

الكتاب الأول - مقدمة

ولاً: إعادة تنظيم التجنيد لألمانيا

تم في السابع عشر من أبريل/ نيسان ١٩٣٤ إعادة تسليح ألمانيا فعلياً، وبدلت الحكومة الألمانية توجه اهتماماتها نحو التسليح، وكان هتلر قد أعلن بأنه يأمل في عودة المسار إلى الرايخ لاصلاح العلاقات بين فرنسا وألمانيا، والعمل معاً لإنقاذ أوروبا. وكان هتلر ينتظر الفرصة لإعلان إعادة تسليح ألمانيا، وفي الرابع من مارس/ آذار ١٩٣٧ ظهر في لندن (كتاب أبيض) موقع من ماكسويل، يبرر فيه زيادة النفقات العسكرية البريطانية بإعادة التسليح الألماني، فاستكثرت الصحافة الألمانية ذلك، وفي فرنسا تقدمت الحكومة بمشروع قانون عسكري يجعل مدة الخدمة العسكرية الفعلية سنتين، وتم التصويت على القانون في مجلس النواب.

كان ردّ هتلر سريعاً في السادس عشر من مارس/ آذار، وأعلن إعادة الخدمة العسكرية الإجبارية في ألمانيا، وتشببت (٣٦) فرقة عسكرية في الجيش الألماني لقوله بفشل نزع السلاح وقيام الدول الأوروبية بإعادة التسليح، وقدمت فرنسا احتجاجاً على هذا التطور وخرق معاهدة فرساي، ثم إن الحكومة البريطانية احتجت على ذلك، وأمرت مندوبها جون سيمون بمتابعة مساعيه في ألمانيا.

أما الحكومة الإيطالية فقد احتجت أيضاً، وفي الثالث والعشرين من مارس/ آذار اجتمع لاقال ولين وسوفييتي في باريس، وتم الاتفاق على أن يقوم سيمون بصحبة لودن لرؤية هتلر للبحث معه حول الأمر، ثم يذهب لعواصم أخرى لأوروبية، ثم يلتقي مندوبي الدول للثلاث في ستريا.

إلا أن هتلر أعلن يوم الخامس والعشرين منه في لقائه مع سيمون أن إعادة التسليح كانت مفروضة على ألمانيا، وأنه يرفض المشاركة في أي ميثاق شرقي ما بقلته مرتبطاً بميثاق لوكارنو، وأعلن عزمه على تكوين أسطول ألماني بقدر بثلاث الأسطول البريطاني.

ثانياً: الضمانات ضد ألمانيا

منذ مطلع عام ١٩٣٥ بادر الإيطاليون لاجراء محادثات عسكرية مع فرنسا، ولتنته باتفاق عرف بـ(غاملان - بادولير) كان يمكن أن يؤدي إلى تحالف حقيقي،

وتم الاتفاق على وضع معاهدات دولية رداً على التسلح الألماني، وهي الاتفاق الفرنسي - الإنكليزي - الإيطالي في ستريسا في الحادي عشر من أبريل/ نيسان، والمعاهدة الفرنسية - السوفيتية في الثاني من مايو/ أيار، والمعاهدة السوفيتية - التشيكية في السادس عشر من مايو/ أيار.

عقد مؤتمر ستريسا في الحادي عشر من أبريل/ نيسان، ومثل إيطاليا موسوليني، وبريطانيا ماكدونالد وجون سيمون، وفرنسا غلاندين ولافال، وبنت قرارات المؤتمر تؤكد على وجوب وجود مصلحة مشتركة ضد ألمانيا، وأكدت الدول الثلاث على التزامها بمعاهدة لوكارنو، وسلامة واستقلال دولة النمسا، ولم يتطرقوا لمناقشة قضية الحبشة والاطماع الإيطالية فيها، وأبدى موسوليني شكوكه حول فائدة المؤتمر، وبعد أيام أدان مجلس عصبة الأمم بخرق معاهدة فرساي، ونشر بياناً يدين الموقف الألماني، لأنه يهدد السلام في أوروبا^(٢١).

الميثاق الفرنسي - السوفيتي:

بعد الرفض الألماني والبولندي للمشاركة في ميثاق الشرق، قرر لافال إقامة معاهدة تحالف فرنسية - سوفيتية تشارك فيها يوغسلافيا، إلا أنه كان في الواقع أقل استعداداً لتحويلها إلى أداة فاعلة، وهذا ما ظهر في البروتوكول الموقع في الخامس من ديسمبر/ كانون أول ١٩٣٤ في جنيف بين لافال ولينينوف، وأبدى الجانبان أهمية الصداقة الفرنسية - السوفيتية، وبعد مفاوضات بين لافال ولينينوف أعلنت في الثامن عشر من نيسان/ أبريل تشيكوسلوفاكيا توقيع اتفاق مماثل مع الاتحاد السوفيتي، ووقع في باريس بين لافال وبوتكين في الثاني من مايو/ أيار ١٩٣٥، وكانت المعاهدة للفرنسية - السوفيتية تنص على أنه في حالة التهديد بالعدوان من دولة أوروبية للاتحاد السوفيتي أو فرنسا، فإن البلدين يتشاوران من أجل تقوية المادة العاشرة من ميثاق عصبة الأمم في السماح للمجلس بعمل أكثر سرعة وفاعلية، وإذا ما قررت العصبة فرض عقوبات ضد بلد أوروبي، عضو أو غير عضو في العصبة متهم بالعدوان ضد إحدى الدولتين المتعاقبتين، فإن القوى الأخرى تقدم لها كل المساعدة، وإذا لم يتوصل مجلس العصبة لاتخاذ قرار بالاجتماع فإن القوة الأخرى تقدم للمساعدة والعون فوراً.

وقام بيار لافال بزيارة إلى موسكو في (١٢-١٥) مايو/ أيار، ونُشر بيان يعلن فيه ستالين تأييده لتكثيف تدابير فرنسا الدفاعية، وهذا بهدف لوضع حد لموقف الحزب الشيوعي الفرنسي المعادي للعسكرية.

الميثاق السوفيتي - التشيكوي:

تم توقيع المعاهدة السوفيتية - التشيكوسلوفاكية في السادس عشر من مايو/ أيار في مدينة براغ من قبل بينيس والوزير السوفيتي والكسندروفسكي، وهي معاهدة تنسب الميثاق الفرنسي - السوفيتي، إلا أن البروتوكول الملحق نصّ على أن تدابير المساعدة المتبادلة لا تدخل حيز التطبيق في حالة العدوان، إلا إذا وقعت فرنسا على مساعدتها للدولة المعتدى عليها، وهكذا كانت مسؤولية فرنسا مزدوجة في حالة الهجوم على تشيكوسلوفاكيا.

في يونيو/ حزيران ١٩٢٥ ذهب بينيس إلى موسكو ليؤكد على ثقته بالاتحاد السوفيتي.

إن أهمية المعاهدين قد سهلت لفرنسا داخليا مهمة الحكومة فيها، حيث أن ألمانيا أبدت استياءها من المعاهدة، وأنه يتناقض مع لوكارون، وقعت في الخامس والعشرين من أيار/ مايو مذكرة ألمانية إلى فرنسا لدعم هذه التوجه.

أما بالنسبة لباريس وموسكو، فإن الاتفاقية لم تكن تقيم حقيقة علاقات الصداقة والثقة، وكان لا بد من اتفاق عسكري بينهما، وتم تبادل البعثات العسكرية، وإجراء مناورات عسكرية شاركت فيها جيوشكوسلوفاكيا.

ثالثاً: إعادة تسليح رينانيا

رأينا كيف كان موقف ألمانيا من المعاهدة الفرنسية - السوفيتية الموقعة في الثاني من مايو/ أيار ١٩٢٥، وأعلن هتلر في خطابه في الحادي والعشرين منه أمام الرايخستاغ أن للتحالف الفرنسي - السوفيتي كان خرقاً لمعاهدة لوكارنو، إلا أن ألمانيا ستستخدم هذه المعاهدة طالما أن الموقعين عليها سيأخذون الموقف نفسه، ثم وجهت الخارجية الألمانية مذكرة إلى فرنسا تقول فيها أن للمعاهدة الفرنسية - الروسية متناقضة مع معاهدة عام ١٩٢٥ التي أكدت على عدم الاعتداء بين ألمانيا وفرنسا، وأن

للميثاق الفرنسي - السوفيتي بحسب رأي الألمان يدخل باستثناء جديد على لوكارنو وهو أنه في حالة اعتداء ألمانيا ضد الاتحاد السوفيتي فإن فرنسا مستقومة بالتدخل، ثم ردت فرنسا بدحض المذكرة الألمانية.

يبدو أن هتلر كان يرى أن إلغاء معاهدة لوكارنو مساوٍ لإمكانية إعادة احتلال رينانيا عسكرياً، إلا أنه لم يكن على عجلة في هذا الأمر؛ خوفاً من رد فعل فرنسي قوي، أو تدخل بريطاني مع عدم استكمال بناء القوات الألمانية بشكل كامل.

ومع هذا فإن الحكومة الفرنسية كانت مصممة على تصديق الميثاق الفرنسي - السوفيتي، وأبلغ فرانسوا - بونيمه أثناء زيارته لهتلر هذا الأمر، وبأنه سيُطرح على البرلمان الفرنسي، فأجاب هتلر أنه سيكون خطأ كبيراً؛ لأنه سيُجمع وصول حكومة شيوعية إلى السلطة في فرنسا، وهنا قام السفير الفرنسي بإبلاغ لافال أن هتلر ينوي الانتقال إلى العمل الجدي، واقترح عليه للمبادرة لاعطاء حق إرسال حاميات إلى رينانيا شرط عدم بناء تحصينات فيها، أو إخبار الحكومة الألمانية بنية فرنسا التصدي بقوة لإعادة احتلال رينانيا، إلا أن لافال لم يكن على استعداد لاتخاذ قرار من هذا النوع في واقع الحال.

وانتقلت القضية إلى مناقشات حول التصديق على المعاهدة، وقام وزير الخارجية الفرنسي الجديد بياراتيان فلاندين بالحديث أمام البرلمان في الخامس والعشرين من فبراير/ شباط، لتأكيد توافق الميثاق الفرنسي - السوفيتي مع معاهدة لوكارنو، واقترح على هتلر لاثبات حسن النوايا الفرنسية طرح هذه المشكلة أمام المحكمة الدولية للعدل في لاهاي.

وتم في السابع والعشرين منه التصديق على المعاهدة بـ (٣٥٣) صوتاً ضد (١٦٤) صوتاً، وبموافقة لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ في الخامس من مارس/ آذار.

لا بد من الإشارة أن إعادة احتلال المنطقة المنزوعة للسلاح كانت قيد الدراسة منذ التاسع والعشرين من يونيو/ حزيران ١٩٣٥، وكان هتلر يفكر بالتنفيذ في فبراير/ شباط ١٩٣٦، ثم أجل ذلك بعض الوقت، وفي الثاني من مارس/ آذار وقعت القيادة

الألمانية أوامر للقوات، وفي السادس منه قدم الجنرالات الألمان اعتراضات جديدة لهتلر بأنه إذا ما تدخل الفرنسيون، فإنهم سيكونون الأقوى، لكن هتلر تصرف عكس ذلك بسحب قواته في حال التدخل الفرنسي، وفي السادس منه استدعى الرايخستاغ لاجتماع في السابع منه، حيث قام وزير الخارجية الألماني فون نورث بطلب من سفراء الدول الأخرى الموقعة على لوكارنو، وسلمهم مذكرة إلغاء المعاهدة، وخطب هتلر أمام الرايخستاغ قائلاً: إن فرنسا ردت على عروض الصداقة والضمانات السلمية التي تتوقف ألمانيا عن تكرارها بحلف عسكري مع الاتحاد السوفيتي موجه بشكل خاص ضد ألمانيا، الأمر الذي يشكل خرقاً للميثاق الريناني، وإن معاهدة لوكارنو لضاعف معناها كلياً، وتوقفت عن العمل فعلياً، ولذا فإن ألمانيا لم تعد تُعد نفسها مرتبطة بهذا الميثاق الملغى.

وكانت مذكرة ألمانيا تقترح بدء المفاوضات مع فرنسا وبلجيكا من أجل توقيع ميثاق عدم اعتداء جديدة لمدة ٢٥ سنة، وضمانه لندن وروما وتوقيع ميثاق جوي، واقترح هتلر على جيران ألمانيا الشرقيين معاهدات معاملة للميثاق الألماني - البولوني في عام ١٩٣٤، وأشار إلى إمكانية عودة ألمانيا إلى عصبة الأمم بعد إصلاحها. أرسل هتلر ما أسماه (فرق رمزية) ألمانية، وهي تتألف من ١٩ كتيبة، و١٢ بطارية مدفعية، أي حوالي ثلاثين ألف جندي، واستقبلها الناس بحماس، ثم في التاسع والعشرين من مارس/ آذار أقر استفتاء شعبي عمل هتلر به - ٤٤ مليون صوت، أي ٩٩% من المقترعين.

أما رد فعل الدول الأوروبية من إلغاء معاهدة لوكارنو، فقد قدم السوفييت دعمهم للحكومة الفرنسية التي أبدت موقفاً متشدداً، وصدقت في السادس والعشرين من مارس/ آذار اللجنة التنفيذية المركزية في الاتحاد السوفيتي على الميثاق الفرنسي - السوفيتي، وهذا لم يمنع من عقد اتفاق تجاري بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي في السابع والعشرين من أبريل/ نيسان. واحتج مجلس الوزراء في الثامن من مارس/ آذار ليؤكد عدم استعداد فرنسا لأن ترى ستراسبورغ معرضة للمدفعية الألمانية، إلا أن الحكومة اكتفت بإعطاء الأوامر لقواتها بدعم خط ماجينو، مع صدور تصريحات من قادة

عسكريين بضرورة أخذ الحيطة والاستعدادات لمواجهة ألمانيا.

أما بريطانيا فقد لقي لنتوني لندن خطاباً في مجلس العموم، أشار إلى أن احتلال رينانيا من الجيش الألماني هو ضربة قاسية وموجهة نحو قسمة المعاهدات، ولكنه أكد أن عمل ألمانيا الحالي لا ينطوي على تهديد بالعنوان، وبذل جهوداً كبيراً لرد الألمان عن القيام بعمل عسكري ضد ألمانيا، ونفس الشيء من قبل رئيس الوزراء البلجيكي (فان زيلاند)، أما بولندا فقد أعلنت استعدادها في السابع من مارس/ آذار للمساهمة في القتال إلى جانب فرنسا، ثم بعد يومين غيّرت رأيها، ووقفت إلى جانب ألمانيا.

أما مجلس عصبة الأمم فقد اجتمع في الرابع عشر منه في لندن، وأعلن صراحة أن ألمانيا أخلت بواجباتها الدولية، واقترحت للدول الأوروبية الرئيسة أن تعرض محكمة لاهاي في قضية التوافق بين لوكارنو والميثاق الفرنسي - السوفياتي، وطلبت من الألمان تحديد عدد قواتهم في رينانيا، وتثبيت منطقة محايدة من ٢٠ كم بإشراف قوات دولية.

إلا أن هتلر رفض هذه المقترحات المهيئة وبشدة، وتراجعت للحكومة البريطانية، ورأى بالدوين أن المفيد هو دعوة السفير فون رينتروب للتشاور على مائدة الغداء، أما موسوليني فقد فهم رسالة هتلر في وجوده في رينانيا، فزاد للحاميات الإيطالية على حدود البرينز، ورفض اقتراحت عصبة الأمم في لندن، أما هتلر فوجد الفرصة مناسبة ليقتراح في الأول من أبريل/ نيسان مشروعاً للسلام بطور المذكورة الألمانية للمؤرخة في السابع من مارس/ آذار، وهذا المشروع هو أن تبرهن ألمانيا على طيب إرادتها خلال أربعة أشهر بعدم زيادة قواتها في رينانيا، ثم أن توقع ألمانيا وفرنسا وبلجيكا ميثاقاً بعدم الاعتداء لمدة (٢٥) عاماً وميثاقاً جويّاً، وأن توقع ألمانيا موافق مع جيرانها في الشرق والجنوب الشرقي، وأن تعود أخيراً إلى عصبة الأمم.

وكذلك اقترح هتلر تخفيف الدعاية الوطنية، وجعل الحرب أكثر إنسانية عن طرق منع استخدام الغازات السامة، والقنابل المحرقة، وتحريم قصف المدن.

إلا أن فرنسا كانت قد أعلنت أنها لن تقاوض على شيء قبل جلاء ألمانيا عن

رينانيا، ولجابت على المقترحات الألمانية بمشروع سلام يركز على عصبة الأمم والأمن الجماعي والتفاهم الإقليمي على أن تتألف لجنة أوروبية تمتلك قوة دولية، لكن ألمانيا رفضت هذه المقترحات، وانتهت المناقشة.

وجرت الانتخابات الفرنسية في السادس والعشرين من مايو/ أيار، وأدت إلى نجاح الجبهة الشعبية، أي أن للقضايا الداخلية عادت إلى دائرة الاهتمام في فرنسا، وهكذا نجحت للخطة الألمانية في رينانيا، كما نجحت في الحبشة الخطة الإيطالية من قبل^(٣٥).

رابعاً: محور روما - برلين

شهد النصف الثاني من عام ١٩٣٦ تعزيز للموقف الألماني الدبلوماسي، وضعف موقف الدول الغربية مع حفاظ الولايات المتحدة على حيادها، إن أول ما حدث في هذا الاتجاه كان توقيع الاتفاق للنمساوي - الألماني في الحادي عشر من يوليو/ تموز ١٩٣٦.

كان موسوليني يحافظ على علاقات جيدة مع المستشار شوشينغ، واستمر في رعاية حزب ستاهمبرغ، وبدأ الدكتور فونو مدير الجريدة الكاثوليكية (ايشمبوست) محادثات من أجل اتفاق صحفي يتحول إلى سياسي نمساوي - ألماني.

وقام شوشينغ بزيارة إلى موسوليني، وعرض عليه معاهدة بين فينا وبرلين، ولم يتعرض موسوليني لعجزه عن الدفاع عن النمسا، وأنه من الأفضل تأييد توقيع معاهدة استقلال للنمسا، وتم في الحادي عشر من يوليو/ تموز توقيع اتفاق نمساوي-ألماني، تضمن:

١- اعتراف لألمانيا بسيادة النمسا الكاملة.

٢- تعهد ألمانيا والنمسا بعدم التدخل في شؤون بعضهما الداخلية.

٣- أن تأخذ السياسة النمساوية تجاه الرايخ بعين الاعتبار أن النمسا دولة ألمانية، وإن هذا لا يضر ببروتوكولات ورما للموقعة في عام ١٩٣٤ من جانب النمسا مع إيطاليا وهنغاريا.

كانت المعاهدة انتصاراً سياسياً لألمانيا، وتم للعفو عن عدد كبير من النازيين

النمساويين، وتوزيع الصحف الألمانية في النمسا، واستطاعت ان تنتشر فيها دعاية عنصرية، بينما لم يكن للصحف النمساوية أي تأثير في ألمانيا.

لما انتجح الألماني الآخر، فكان إعلان الحياد البلجيكي، ففي السادس من مارس/ آذار ١٩٣٦ عشية احتلال رينانيا تماماً وبواسطة رسائل فرنسية - بلجيكية أعلن ان معاهدة السابع من سبتمبر/ أيلول ١٩٢٠ قد ألغيت، وان للصلات بين البلدين ان تستمر إلا في إطار معاهدة لوكارنو، وكانت فرنسا وبريطانيا وبلجيكا قد جرت محاولة منها لإقامة تعاون بين دول لوكارنو، وقامت الدول الثلاث بدعوة ألمانيا وإيطاليا إلى مؤتمر لدراسة قضية الأمن، ليس في أوروبا الغربية فقط بل الشرقية أيضاً، وقبلت إيطاليا وألمانيا بدافع من فرنسا في الحادي والثلاثين من يوليو/ تموز عقد حوار لو مؤتمر خماسي مع عدم مناقشة شؤون أوروبا الشرقية، إلا ان ألمانيا اقترحت تراجع فرنسا مسبقاً عن الاتفاق الفرنسي - السوفيتي، إلا ان الحكومة الفرنسية رفضت ذلك، مما أدى إلى تأجيل انعقاد المؤتمر.

ثم قررت الحكومة البلجيكية فك تحالفها مع فرنسا وإنكثرتا والتراجع عن تعهداتها بدعم من فرنسا وبريطانيا ضد أي اعتداء ألماني، وممارسة سياسة محايدة ومستقلة، وصيغت سياسة بلجيكية حول الالتزامات الوحيدة التي تعترف بها بلجيكا، هي ميثاق عصبة الأمم، وأكدت بريطانيا سلامة واستقلال بلجيكا والدفاع عنها ضد أي اعتداء خارجي، وأكدت فرنسا نفس الموقف بالتعاون مع بريطانيا، وفي الثلاثين من يناير/ كانون الثاني ١٩٣٧ أعلن هتلر أمام الرايخستاغ بأنه على استعداد للاعتراف ببلجيكا والأراضي المنخفضة كمحايدة لا يمكن المساس بها، ثم في الثالث عشر من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٧ صدرت إرادة ألمانية بالاعتراف بسلامة الأراضي البلجيكية والأراضي المنخفضة.

ان أخطار عامي (١٩٣٥-١٩٣٦) كان تشكيل محور (روما برلين)، وكان موسوليني يتجه للتقارب مع ألمانيا، وعين صهره الكونت شباتو وزيراً للخارجية، وهو المؤيد للتحالف مع ألمانيا، ولكن هتلر كان يتردد بالتقارب مع إيطاليا، ويجهد للحصول على صداقة بريطانيا، ووصل لويد جورج للقاء هتلر في صيف عام ١٩٣٦، ولقي

حفاوة كبيرة، وارسل هتلر في الوقت نفسه مبعوثاً إلى موسوليني لزيارة ألمانيا، وإقامة تعاون ألماني - إيطالي، ووعد موسوليني بإطلاع الألمان على الملف البريطاني الذي لطلع عليه، وفيه يبين له الإنكليز الخطر الألماني، وذهب الوفد بدل موسوليني إلى برلين والتقى الألمان، وقرر الطرفان الاعتراف بحكومة الجنرال فرانكو.

وسلم الوفد لهتلر الملف والوثائق البريطانية للمزعومة، فثار هتلر غضباً على غير الإنكليز، وطلب بتفاهم أكبر مع الفاشية، وأعلن أنه مستعد للحرب في عام ١٩٣٩ ، بعد أن اعد الخدمة العسكرية، وأعلن موسوليني في الأول من نوفمبر/ تشرين الثاني أمام الشعب أنه على استعداد للتفاهم مع ألمانيا لإقامة محور برلين - روما تستطيع الالتقاء حوله كل الدول الأوروبية.

وفي (٨-١٢) نوفمبر منه التقى وزراء خارجية إيطاليا وهنغاريا والنمسا، ووقعوا في فيينا بروتوكولاً سرياً، ينص على حياد الدول الثلاث في حالة قيام الحرب من قبل أحدها، وهكذا قويت شوكة ألمانيا نهاية عام ١٩٣٦ مع الحلف الإيطالي.

خامساً: الأزمة التشيكوسلوفاكية

في اجتماع عقد في الخامس من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٣٧ قام هتلر بطرح قضية إلحاق ألمان تشيكوسلوفاكيا بالرأبغ، وعددهم ثلاثة ملايين و ٢٠٠ ألف شخص، كانوا يسكنون منطقة السوديت، ولم يلحقوا بالإمبراطورية الألمانية قبل عام ١٩١٨، وكانوا معترجين بالتشيك، ويعيشون في سلم وود معهم، وبنت الجمهورية للتشيكوسلوفاكية تحصينات هامة فيها، وكانت الأقلية الألمانية هذه مقسمة إلى عدة أحزاب، ولكن منذ عام ١٩٣٥ حصل في الانتخابات حزب السوديت الألماني - الذي يقوده كوراد هانلاين، وهو أهم الأحزاب الألمانية في تلك المنطقة - على أغلبية ٧٠ % من أصوات الناخبين الألمان السوديت في مايو/ أيار ١٩٣٥.

في سبتمبر/ أيلول ١٩٣٧ لم تكن مطالب حزب السوديت الألماني تتعدى الدستور التشيكوسلوفاكي، وحل الأوضاع الخاصة التي كان السوديت يعانون من الظلم فيها، وكان الحزب على علاقة مع النازية، وكانت تشيكوسلوفاكيا تستفيد من معاهدتي تحالف مع فرنسا بمعاهدات عام ١٩٢٤، ولوكارنو ١٩٢٥، وتقرر بموجب الأولى التي

وقعت بنفس فترة معاهدة لوكارنو، تقديم مساعدة فعلية في حالة عدوان غير مبرر من قبل ألمانيا، ومع الاتحاد السوفيتي بتحالف في السادس عشر من مايو/ أيار ١٩٣٥ التي لا تكون المساعدة فعلية بموجبها، إلا إذا قامت فرنسا بتنفيذ تعهداتها، أما للتقاهم الذي يضم رومانيا ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا، فلم يكن موجهاً إلا ضد هنغاريا، ولا يطبق على حالة للعنوان الألماني.

ولدى نشوب أزمة (الانشلوس) إلى إعلان ألمانيا في الحادي والعشرين من مارس/ آذار بإبلاغ السفراء أن الضمانات التي قدمت من قبل لا تتضمن أبداً سلامة الأراضي التشيكوسلوفاكية، ووجه هانلاين نداء إلى الألمان للسوديت طلب فيه للوقوف إلى جانبه، وطالب مساعدة لرست كونديت أمام مجلس النواب للتشيك مطالباً بالاستقلال الذاتي لألمان السوديت.

ولم تبدأ الأزمة إلا في أبريل/ نيسان، حيث اجتمع في الرابع والعشرين مؤتمر لحزب السوديت الألماني في كارلسبارد، وعمل هانلاين على تبني برنامج أكد على إعادة المساواة الكاملة بين المجموعات الوطنية الألمانية والشعب التشيك، وإقامة حكومة مستقلة في منطقة السوديت، وإلغاء تشريع يحافظ على ألمان السوديت الذين يعيشون خارج المنطقة هذه، وإصلاح الأضرار التي نزلت بهم منذ عام ١٩١٨، وإطلاق حرية للمشاركة بالعقيدة النازية، وتعيين موظفين من أصحاب اللغة الألمانية في السوديت.

علماً أن هتلر قد وضع خططاً لمهاجمة تشيكوسلوفاكيا بعد مناقشات دبلوماسية تؤدي إلى أزمة مع هجمة صحفية عنيفة من الألمان تجاه التشيك. أما فرنسا - منذ أبريل/ نيسان ١٩٣٨ - فكانت تحت رئاسة حكومة إدوارد دالادييه، وتؤيد سياسة المقاومة، وبدعم هذا التوجه الإنكليز والفرنسيون من رجال الدولة، وإن من الأفضل السير نحو المفاوضات.

في هذه الأوضاع انفجرت أزمة مايو/ أيار ١٩٣٨ مع الهياج بالقراب إجراء الانتخابات البلدية، وقامت الحكومة التشيكية بتعبئة بعض احتياطها، ومعها نوعيات أخرى بحجة وجود القوات الألمانية على الحدود، ورفضت فرنسا هذا الأمر، في وقت

كان السوفييت يدعمون التوجه التشيكي، وتدخل الإنكليز لدى الألمان والتشييك ورفضوا نشوب أي حرب أوروبية لا يعرف متى تنتهي بسبب تشيكوسلوفاكيا.

وفي النهاية لم يتحرك هتلر، وتم تأجيل العمل للعسكري، إلا أن هتلر ظل غاضباً من هذا الموقف، وظهر أن فرنسا ستكون مجبرة على التدخل وحدها بعد حياذ بريطانيا، وازداد التوتر في الأول من سبتمبر/ أيلول بشكل ملحوظ، وكلفت الحكومة البريطانية للسيد نيفيل هندرسون بالطلب إلى فون رينتروب لإعطاء تفسيرات حول التدابير العسكرية التي اتخذتها ألمانيا، ولم يحصل على أية نتيجة.

لما الحكومة التشيكية فقد قلبت للتازلات، وقدمت برنامجاً إلى السوويت مع الهيجان في مناطق منها، أثارها حزب السوويت الألماني طبقاً لتوجهات الألمانية، وأكدت السوويت أن حكومة براغ لم تعد سيده الموقف، وظلت للمفاوضات قائمة، وقبلت الاكتراحات الحكومية كقاعدة للمفاوضات، وعاد بعض للهدوء.

في الثاني عشر من سبتمبر/ أيلول ألقى هتلر خطاباً عنيفاً أمام حشد من الناس أعلن أن الألمان السوويت كانوا مضطهدين بتأمر من الحكومة التشيكية، وإذا لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم، فإن ألمانيا ستقوم بذلك، وأن قدرات الرايخ تزداد قوة، وأكد حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها، مع استمرار الاضطرابات في إقليم السوويت، وفشلت المحاولة وإعادة الحكومة التشيكية للهدوء والنظام إلى بلاد السوويت، وأعلن هتلر في الخامس عشر من سبتمبر/ أيلول ضم السوويت إلى الرايخ بشكل علني.

ووجه الفرنسيون والإنكليز إنذاراً حقيقياً إلى التشييك بأنهم إذا أراحوا المقاومة فإنهم لن يدعموهم، وقامت مظاهرات في براغ ضد الحكومة وفرنسا التي خانت تحالفها، وقدم رئيس الوزراء هودزاستقلته.

وأعلنت في الثالث والعشرين من سبتمبر/ أيلول التعبئة العامة في تشيكوسلوفاكيا، ووصلت الأزمة إلى مرحلة خطيرة، وبعد ثلاثة أيام ألقى هتلر خطاباً عنيفاً، وقال إن صبره قد بلغ نهايته، وأعلن أنه سيقوم بالتعبئة في الثامن والعشرين منه، وبدا أن العالم يتجه نحو للحرب.

وحاول تسمبرلين القيام بجهد أخير، فأرسل إلى هتلر وموسوليني بقتراح عقد مؤتمر بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا، مع اقتراح الرئيس الأمريكي روزفلت عقد اجتماع بينهما أيضاً في لاهاي لحل الأزمة سلمياً، وأخيراً لقتراح موسوليني مؤتمر حدد موقعه هتلر في ميونيخ، ولم تدفع له تشيكوسلوفاكيا.

عقد المؤتمر في ميونيخ في التاسع والعشرين منه، بحضور دالادييه وموسوليني وهتلر وتشمبرلين، وتم توقيع اتفاق رباعي في اليوم التالي، وحقق هتلر نصراً كبيراً، ولم يقدم تنازلات كبيرة سوى القبول بجلاء التشيك كلياً عن بلاد السويد حتى العاشر من أكتوبر/ تشرين الأول بدل الأول منه، وإن يأخذوا معهم جزءاً من أموالهم، وإن تقوم لجنة دولية بتخطيط الحدود، وتعيين المناطق الخاضعة للاستفتاء، وتضم ممثلين عن الموقعين الأربعة وعن تشيكوسلوفاكيا، وإن من حق التشيك الاختيار وخلال ستة أشهر، وأعلنت بريطانيا وفرنسا أنهما مستعدتان لضمان الحدود الجديدة للدولة التشيكية، ضد أي عدوان غير مبرر، في حين تعهدت ألمانيا وإيطاليا بشكل غامض بنفس الأمر عند حل مشكلة الاكليات البولندية الهنغارية.

كان المؤتمر قد ضحى بسلامة تشيكوسلوفاكيا من أجل سياسة التمهنة وقضية السلام، وهو من صنع تشمبرلين واقتناع إلى حد ما من دالادييه، واستبدال هتلر استخدام القوة بحل قانوني دون استشارة للدولة المعنية - تشيكوسلوفاكيا بالأمر، ولكن هذا وهم؛ لأن هتلر لم يكن مستعداً لاحترام تعهده ومعاهده مع الدول الأوروبية، وتم توقيع معاهدة في الثلاثين من سبتمبر/ أيلول بين تشمبرلين - وهتلر بعدم الاعتداء، ثم أعقبه في السادس من سبتمبر/ كانون الأول مثله بين فرنسا وألمانيا للحفاظ على الأمن والسلام في أوروبا، وحل المشكلات التي تطرأ بالمستقبل عن طريق المفاوضات.

كانت المرحلة بين ميونيخ والخامس عشر من مارس/ آذار ١٩٣٩ قد شهدت تفتيت تشيكوسلوفاكيا، والحققت ألمانيا بها منطقة السويدية، وقد تبنت اللجنة الدولية لتخطيط الحدود المطالب الألمانية، ولم يتم أي استفتاء، وأخذت هنغاريا وبولندا حصتهما من تشيكوسلوفاكيا، وقامت القوات البولندية باحتجاز (الأولزا) في الثاني من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٨، ودخلت (تسومز)، وتم تثبيت الحدود نهائياً، وتنازلت

تشيكوسلوفاكيا.

لما هنغاريا حصلت على أرض معاحتها ١٢ ألف كم، تضم مليون نسمة في جنوب سلوفاكيا، وتكونت من جهة أخرى حكومة مستقلة دخل جيسكوسلوفاكيا، وحصلت روثينيا على استقلالها الذاتي، وصديق مجلس النواب التشيكي على قانون الاستقلال الإداري السلوفاكي الروثيني.

لم يبق سوى تصفية ألمانيا لقضية تشيكيا بشكل نهائي، وفي العاشر من مارس/ آذار لقل هاشا حكومة تيسو السلوفاكية؛ بحجة أنها كانت تعمل ضد وحدة البلاد، وأعلنت الأحكام العرفية، فوجه تيسو نداء إلى هتلر، وذهب إلى برلين في الثالث عشر منه، وأجبر هتلر هاشا على دعوة لنديت للمجلس التمثيلي للسلوفاكي، وطالب ٤٠ صوتاً من ٦٣ باستقلال سلوفاكيا بالكامل، ثم استدعى هتلر هاشا إلى برلين وهدده بقوة، فقبل معاهدة لوضع بلاده تحت حماية ألمانيا، علماً أن قوات ألمانيا قد دخلت بوهيميا ومورافيا، واحتلت براغ في الخامس عشر من آذار، ودخل هتلر براغ، وأعلن أنها أرض تشكل الامتداد الحيوي لألمانيا منذ القدم، وإن مورافيا وبوهيميا تعودان إلى ألمانيا من الآن وصاعداً.

وأعلنت سلوفاكيا بنفس اليوم استقلالها، وبعد يوم وضعت نفسها تحت حماية ألمانيا، ودخلت القوات الهنغارية روثينيا، ودخل حرس الحدود إلى سلوفاكيا على الحدود مع بولندا، ولأول مرة قام هتلر بضم أرض غير ألمانية إليه، ثم بعد إنذار شديد قررت - في الثاني والعشرين منه - ليتوانيا للتخلي عن ميميل إلى ألمانيا، وفي الثالث والعشرين منه وقّع اتفاق اقتصادي ألماني روماني أسامه استثمار مناجم البترول لشركات مختلفة ألمانية رومانية^(٣٦).

سائلاً: الأزمة البولندية

في نوفمبر عام ١٩٣٨ وقعت حوادث في المناطق البولندية التي تعيش فيها أقلية ألمانية، وهاجر العديد من البولنديين نوي اللغة الألمانية، وطرد الألمان خمسة عشر ألف يهودي من الرعايا البولنديين، وكانت قضية دانترينغ قد طرحت من قبل

ألمانيا، واقترح فون رينتروب عودة دانتريغ الحرة إلى ألمانيا، وبناء خط حديدي، وطريق بري يتمتع بالحصانة الأرضية على الممر الأوروبي، وعلى هذا الأساس فإن بولندا تستخدم مرفأ دانتريغ الحر، ويكون لها خط حديد متمتع بالحصانة للوصول إلى هذا المرفأ الحر، على أن تقوم للدولتان بضمان حدودهما المشتركة، وأن تمتد معاهدة عدم الاعتداء إلى (٢٥) عاماً بدلاً من (١٠) أعوام.

إلا أن خطوة تحسين العلاقات البولندية - الألمانية لم تمنح مقاطعة أو إقليم دانتريغ للفرصة بالانضمام إلى ألمانيا، ورفضت بولندا هذا الأمر، في الوقت الذي كانت فيه تتقرب من الاتحاد السوفيتي، واقترح كريس بوفسكي للسفير البولندي في موسكو اتفاقية لتحسين العلاقات بين البلدين، وتحققت في الرابع والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٣٨، وليؤكد فيه الطرفان من جديد على ميثاق عدم الاعتداء في عام ١٩٣٢، وبعثان تأييدهما لزيادة التبادل التجاري، وأعقبها سلسلة اتفاقيات تجارية وقعت في العاشر من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٣٩.

في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٨ ذهب رينتروب إلى وارشو كأول وزير خارجية ألماني يزور بولندا، واحتفل هناك بذكرى معاهدة كانون الثاني/ يناير عام ١٩٣٤، وحاول جذب وارشو للتعاون والتحالف ضد السوفييت بهدف غزو أوكرانيا، واصطدم برفض دبلوماسي، وفي خطاب ألقاه في الثلاثين من الشهر نفسه احتفل هتلر بالصدقة الألمانية للبولندية، واستقبل السفير البولندي في بلاده بعد فترة قصيرة.

إلا أن التطورات التي صاحبت تجزئة جيوكوسلوفاكيا وضم رينانيا إلى هنغاريا وميميل إلى ألمانيا، أوجدت لبولندا أخطاراً جديدة، حيث أكد رينتروب أثناء محادثاته مع ليبسكي على ضرورة انضمام بولندا بحلف مع ألمانيا ضد الاتحاد السوفيتي مع المطالب حول دانتريغ، وأبقت بولندا تشدداً حول الإقليم وصل إلى حالة للتهديد بالحرب دفاعاً عنه.

وفي الحادي والثلاثين من مارس/ آذار أعلن تشمبرلين عن ضمانات أعطيت لبولندا بعد مشاورات مع فرنسا وبولندا، مع تأكيد الاستقلال البولندي، وإن الحكومة

البريطانية تعتبر من حق بولندا الدفاع عن نفسها، وستدعمها حكومة الجلالة بكافة الوسائل، ثم أعلنت في الثالث عشر من أبريل/ نيسان للحكومة الفرنسية تأكيد التحالف للفرنسي - البولندي ضد كل تهديد مباشر أو غير مباشر تتعرض له، ويضر بمصالحها الحيوية، ونحوأت العلاقات البريطانية - البولندية إلى معاهدة تحالف، رأت فيها ألمانيا تهديداً لمعاهدة عدم الاعتداء عام ١٩٣٤ بين البلدين.

كانت فرنسا وبريطانيا ترين أن التهديد الألماني لبولندا يهدد السيطرة على اقتصاديات دول جنوب شرقي أوروبا (يوغسلافيا، رومانيا، بلغاريا، تركيا)، وأن ألمانيا تسعى عبر الاتفاقات التجارية لتحقيق هذا الأمر، وحاول الرئيس الأمريكي روزفلت لعب دور الحكم بين الفرقاء، ولكن هتلر وجد في التحركات الفرنسية والبريطانية - وخاصة في التقارب وعقد اتفاقيات مع تركيا وقبلها مع بولندا - سبباً في تدمره، فقام بإلغاء الاتفاق البحري الألماني - البريطاني في عام ١٩٣٥، والتصريح الألماني - البولندي عام ١٩٣٤، واتهم الإنكليز باتخاذ موقف معادي من ألمانيا، ورفضت مبادرات روزفلت، وقدم مذكرة سلمت إلى بولندا بضم دلتزيغ وإقامة طرق حديدية عبر الممر البولندي، وتم توقيع أمر في الثالث من إبريل/ نيسان للجيش الألماني بالتأهب لمهاجمة بولندا مطلع سبتمبر/ أيلول، وفي الثامن والعشرين من إبريل/ نيسان قامت الحكومة البريطانية بدفع مجلس العموم للموافقة على الخدمة العسكرية الإجبارية.

في مايو/ أيار ١٩٣٩ قرر موسوليني - في ضوء القلق من الاستعدادات الألمانية ضد بولندا - أن يسرع في عقد معاهدة، وتم لقاء وزير خارجية إيطاليا وألمانيا شيانو وريبنتروب في السادس من مايو/ أيار، وألح الألمان على قضية دلتزيغ، وشدد الإيطاليون رفضهم للدخول في الحرب فوراً؛ إذ كان موسوليني يعتقد أن عليه التركيز على ساحات أثيوبيا واللبانيا، وبناء ست مدمرت، وتجديد المدفعية، وإرجاع مليون إيطالي يعملون في فرنسا، ونقل صناعة سهل البو إلى الجنوب قبل الدخول في أية حرب إلى جانب ألمانيا.

وأخيراً تم توقيع اتفاق بين الألمان والبولنديين في برلين سمي (الميثاق الفولادي) وهي معاهدة دفاعية تؤكد على وقف للبلدين إلى جانب بعضهما بحراً وجواً وبراً ضد أي اعتداء أو تهديد خارجي، وتكثيف التعاون العسكري بينهما، وتنسيق الدعاية بحسب اتفاق سري.

ثم تم إنهاء مشكلة التيرول الجنوبية، وأدى الاتفاق الإيطالي - الألماني في يوليو/ تموز ١٩٣٩ إلى أن للتيروليين الجنوبيين من ذوي اللغة الألمانية لهم الخيار بين الجنسية الإيطالية أو الهجرة إلى ألمانيا، ووقع الاتفاق في الحادي والعشرين من أكتوبر/ تشرين الأول، ورحل العديد منهم بعد سنوات، وذهبوا إلى ألمانيا، وكان اتفاق إيطاليا - ألمانيا يعطي الأخيرة منطقة حرة في تريستا، ويضمن لها امتيازات كبيرة.

وكان هتلر يريد توسيع نظامه عن طريق توقيع ميثاق عدم اعتداء مع عدة دول، كالنرويج والسويد وفنلندا الذين رفضوا ذلك، عدا الدانمارك التي قبلت في الحادي والثلاثين من مايو/ أيار، ثم لتوانيا واستونيا في السابع من يونيو/ حزيران.

لما الاتحاد السوفيتي فقد عبر على لسان مانويلسكي أمام مؤتمر الحزب الشيوعي الروسي في الحادي عشر من مارس/ آذار بأن مخطط البرجوازية الرجعية للبريطانية هو التضحية بالدول الصغيرة في الجنوب الشرقي الأوروبي لمصلحة الفاشية الألمانية، بحيث تتوجه ألمانيا ضد الاتحاد السوفيتي في الشرق لتحاول بواسطة الحرب الفورية تأخير تطور الاشتراكية ولننتصر الشيوعية في الاتحاد السوفيتي.

رغم ذلك كان السوفييت يتجهون نحو الدول الغربية للديمقراطية، واحتجوا ضد احتلال برلين لبراغ، وتم تبادل وجهات النظر بين لندن وموسكو، وأتفق فيه على عقد مؤتمر لبريطانيا وفرنسا وبولندا ورومانيا وتركيا والاتحاد السوفيتي، إلا أنه رغم المفاوضات العسيرة وتبادل الرسائل والمذكرات لعدة شهور، والزيارات المتبادلة لم يتم التوصل إلى أي اتفاق سوفييتي - بريطاني سياسياً أو عسكرياً نظراً لتضارب مواقف الدول من صيغة أي اتفاق مقترح.

وأخيراً تكللت الجهود الفرنسية - البريطانية بالفضل مع السوفييت عندما وصل فون ريبنتروب إلى موسكو في الثالث والعشرين أغسطس/ آب ليوقع معاهدة عدم

اعتداء مع الاتحاد السوفيتي، وأصبحت معاهدة ١٩٣٥ الفرنسية - السوفيتية ملغاة،
ورأى للروس أن هذه المعاهدة ليست ذات قيمة منذ توقيع معاهدة عدم الاعتداء
الفرنسي - الألماني عام ١٩٣٨^(٣٧).

الفصل الثامن

انتهاء الحرب العالمية الثانية

(١٩٣٩-١٩٤٥)



أولاً: الجبهة البولندية

شهدت المرحلة الممتدة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤١ تطور انتصارات ألمانيا في أوروبا، حيث هُزمت - واحدة بعد الأخرى - كل من بولندا والنرويج وفرنسا واليونان ويوغسلافيا، ثم جاءت المرحلة الثانية بتدخل الاتحاد السوفيتي (١٢ يونيو/ حزيران ١٩٤١) واليابان والولايات المتحدة (٧ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤١)، وبقيت للحرب في المرحلة الأولى أوروبية للطابع.

لم تقاوم بولندا فترة طويلة على صعيد العمليات العسكرية، فهاجم الألمان كان سرياً وصاعقاً، من حيث الأساليب والخطط والوسائل العسكرية من طائرات ودبابات، وكان السوفيت قد دخلوا الأراضي البولندية في الثالث من سبتمبر/ أيلول، حيث كان الاتحاد السوفيتي قد بدأ حملة تعبئة قبل ذلك متذرعاً بدخول فرنسا وبريطانيا الحرب، وقامت حملة صحفية شديدة حول المعاملة السيئة للأقليات الروسية البيضاء والأوكرانية بطريقة تبرر التدخل، ثم انتظر السوفييت توقيع هدنة مع اليابان في السادس عشر من سبتمبر/ أيلول، وبعد أن تدرعت بتفتيت بولندا داخلياً الأمر الذي يلغي الاتفاقيات الموقعة بين الاتحاد السوفيتي وبولندا، أعلنت الحكومة السوفيتية أنها أمرت قواتها باجتياز الحدود من أجل حماية الأقليات الأوكرانية والروسية البيضاء، واتصل بنيتروب هاتغيا مع بشيانو ليخبره أن للتدخل السوفيتي كان على أساس خطة موضوعة مسبقاً، وفي الثامن عشر منه أكد البيان الألماني - للسوفيتي على التقارب في وجهات النظر، وإعادة النظام إلى بولندا بسبب فقدان الاستقرار، وتفكك الدولة البولندية وعزمها مساعدة للشعب البولندي، ولكن لا يبدو أن الألمان قد نظروا بعين الرضى للعملية السوفيتية، لا سيما أنهم لم يلقوا مقاومة تذكر في بولندا، وتقدموا بسرعة، ولم يتحملوا لخسائر الكبيرة.

في الثاني والعشرين من سبتمبر/ أيلول - وبعد أيام من المفاوضات - تم تثبيت خط الحدود بين منطقتي الاحتلال عند لتهار بيسا وناروف وبوج وفيستول وسان، وكانت فرسوفيا واقعة في المنطقة الألمانية، بينما براغا على ضفة فيستول اليمنى خاضعة للروس، وتخلّى سباليين عن فكرة المحافظة على دولة بولندية مصغرة،

وغادر دينتروب إلى موسكو في السابع والعشرين من سبتمبر/ أيلول، حيث وقعت معاهدة المانية - سوفيتية جديدة وبروتوكولاً سرياً وانتقلت لتوانيا إلى الاتحاد السوفيتي، وبدلت محادثات اقتصادية واسعة، انتهت بتوقيع اتفاق اقتصادي تأخر كثيراً إلى الحادي عشر من فبراير/ شباط ١٩٤٠ بسبب الاختلاف على إرسال السلاح إلى فنلندا، لم يتأخر السوفيت من الاستفادة من توقيع الاتفاقات هذه، وانشغوا استونيا بعدم احترام حيادها الذاتي، وقام قادة الدول الثلاث بالذهاب إلى موسكو، ووقعوا اتفاقية عدم اعتداء مع الاتحاد السوفيتي استونيا في الثامن والعشرين من سبتمبر/ أيلول، لتوانيا في الخامس من أكتوبر/ تشرين الأول، وتنازلت استونيا ولتوانيا للاتحاد السوفيتي عن قواعد بحرية وجوية، وقامت الدول الثلاث للسوفيت حق الابقاء على القوات المسلحة على أراضيها، وكان الكثير من سكان الدول البلطيقية يتكلمون باللغة الألمانية، ونص اتفاق سري ألماني - سوفيتي في الثامن والعشرين من سبتمبر/ أيلول على أن بإمكان الألمان في منطقة النفوذ السوفيتي الهجرة إلى ألمانيا أو بولندا التي يحتلها الألمان، ويستطيع الروس البيض والأوكرانيون في المنطقة الألمانية للرحيل إلى الاتحاد السوفيتي، وعدد الألمان حوالي (٤٢٧) ألف نسمة.

لم يكن من إيطاليا والدول الغربية إلا للنظر بدهشة حيال هذه التطورات، فإيطاليا كانت تخشى من المعاملة للمحافظة للكاتوليك البولنديين من قبل الروس البلاشفة، وكان موسوليني يخاف من الاختراق السوفيتي في أن يمتد إلى البلقان التي بعدها منطقة نفوذ إيطالية.

أما فرنسا وبريطانيا فقد استقانا من هذا الوضع في تقنيات الميثاق للفولاذي، وكان موسوليني يؤيد للوقوف إلى جانب هتلر في الحرب، ولكنه يفضل الحياد إلى حين دخول للحرب، رغم قلقه من اللطلب الذي تقدم به الألمان الهنغاريون للسماح لهم باستخدام خط حديدي هنغاري لإحاطة بولندا من الخلف، ورفض الهنغاريون هذا اللطلب، إلا أن الألمان لم يرغبوا في ترك حليفهم الإيطالي وحده، وأخيراً وصل ميثاقو إلى برلين، والتقى هتلر الذي كان مسترخياً وهائناً، وعرض عليه دخول إيطاليا - بشكل مستتر - الحرب، وأكد أن إيطاليا يجب أن تكون سيادة البحر المتوسط المطلقة^(٣٨).

ثانياً: الحرب في بدايتها (١٩٣٩-١٩٤٠)

منذ هزيمة بولندا وحتى مايو/ أيار ١٩٤٠ كانت الحرب على الجبهة الغربية مقبولة ومعتدلة، وفي هذه الأوضاع بحلول هتلر السلام بحيث يكرس انتصاراته، وأعلن أنه على استعداد لعرض أهدافه من الحرب، ولا يريد شيئاً من فرنسا أو إنكلترا، أي أن السلام هو الاعتراف بإنجازات هتلر الحربية، وردّ دالاديه بأن فرنسا حملت السلاح وستبقى تحمله ولن تلتقي، علماً أن لويد جورج كان يؤيد هتلر واقتراحاته، وأثار الهجوم الألماني جدلاً كبيراً في أوروبا، في حين اختار تشمبرلين رفض أفكار هتلر وعدم قبوله الغفران للمعتدي.

من جهة أخرى لم تنجح الولايات المتحدة في الوساطة بين الطرفين، واستمر هتلر في سياسته ببدء الحملة العسكرية على الجبهة الغربية في فترة قريبة، وأصدر أوامره إلى قواته في التاسع من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٩، حيث حشدت (٩٠) فرقة عسكرية ألمانية على طول الحدود البلجيكية الهولندية، البلدين المحايدين، ورغم الوساطة التي قام بها ملوك ورؤساء فنلندا ورومانيا واليابا، إلا أن هتلر رفض، ورفض رؤساء بريطانيا وفرنسا للوساطة، وطلبت الأولى على لسان الملك جورج السادس أن تقوم ألمانيا بتحديد مقترحات دقيقة، مما عرفل آمال الألمان في حرب سريعة وقصيرة المدى، وحتى أبريل/ نيسان ظلت الحرب محصورة بانتظار طويل على الجبهة الغربية للوحيدة المستمرة، كان الوضع متوتراً في الدول الاسكندنافية، وخاصة فنلندا، وكانت تعد من جانب الروس كجزء من منطقة النفوذ السوفيتي، وكانت معاهدة عدم الاعتداء للروسية - الفنلندية في عام ١٩٣٢ قد جددت عام ١٩٣٤، ثم نهاية عام ١٩٤٥، ورغم ذلك حاولت موسكو في مفاوضات مع فنلندا أن تحصل على امتيازات في الدول البلطيقية، ولكن الحكومة الفنلندية رفضت للمطالب الروسية في الثالث عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني، وهذه المطالب هي:

١- التنازل عن قاعدة هانكو ضد جزر خليج فنلندا.

٢- التراجع عن الحدود حتى مسافة ٧٠ كم من ليننغراد.

وفي الثالث والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني فسخ الاتحاد السوفيتي ميثاق

عدم الاعتداء المعقود في عام ١٩٣٢، وقطع العلاقات الدبلوماسية في اليوم التالي، ورغم مساعي الرئيس روزفلت من أجل الحل السلمي، إلا أن الجيش الأحمر اجتأح في الثلاثين من نوفمبر/ تشرين الثاني الأراضي الفنلندية، وفي الأول من ديسمبر/ كانون الأول تكونت حكومة شيوعية فنلندية بدعم سوفيتي باسم الجمهورية الشعبية الفنلندية برئاسة لوتوكومينين، وفي الرابع عشر منه قررت عصبة الأمم طرد الاتحاد السوفيتي من عضويتها، ووقفت الدول الاسكندنافية على الحياد في الخامس والعشرين من فبراير/ شباط ١٩٤٠، وملعت وصول المساعدات إلى فنلندا عدا السلاح من إيطاليا، ووافق هتلر على تزويد الفولصات الروسية في خليج بوتني، وبعد اجتياح سوفيتي توقف شحن الأسلحة لفنلندا.

والواقع أن الانتصار السوفيتي لبعد كل محاولة للسلام، وبموجب معاهدة موسكو في الثاني عشر من مارس/ آذار ١٩٤٠ تنازلت فنلندا للاتحاد السوفيتي نهائياً عن كاريلي وفيبورغ مع تأجير هالكو لمدة ثلاثين عاماً مقابل تعويض يساوي ٨ ملايين مارك فنلندي.

أما حرب النرويج، فهي تتبع من حرب روسيا - فنلندا، فألمانيا كانت تشتري كميات كبيرة من تربة الحديد السويدي، وتنقله عبر نارفيك للنرويجي، وكان الاستيلاء على هذا الميناء يعني قطع طريق الحديد، وكان البريطاني كوساك قد سيطر في السادس عشر من فبراير/ شباط ١٩٤٠ في المياه الإقليمية للنرويجية على باخرة ألمانية ليحرر البحارة الإنكليز السجناء، وقد أثار الحادث ألمانيا ضد الحكومة للنرويجية، بل حتى الإنكليز أنفسهم لحتجو عليها، ثم قدمت فرنسا وبريطانيا مذكرة إلى النرويج لوضع اللغام في المياه الإقليمية لمنع مرور السفن الألمانية، وفي التاسع من أبريل/ نيسان قامت ألمانيا بغزو الدانمارك، واحتلتها دون مقاومة، ووضعته تحت الحماية المسلحة، وكونت في النرويج حكومة موالية لألمانيا برئاسة قائد فاشستي هو كيسلغ وحجة ألمانيا واهية جداً، وكان هتلر قد أمر بهذه الحملة منذ مارس/ آذار ١٩٤٠ وانتهت بنصر ألماني سريع، ومغادرة ملك النرويج هاكسون الصابع إلى لندن في العاشر من يونيو/ حزيران.

وعصمت بريطانيا إلى احتلال أيسلندا في العاشر من مايو/ أيار بموافقة واشنطن، وهاجمت ألمانيا بلجيكا وهولندا بحجة الحفاظ على حيادهما، وكان ذلك ضربة قاصمة للحلفاء، وبنفس اليوم خلف ونستون تشرشل تسمبرلين في الحكومة البريطانية بسبب انتقادات وجهت له لهزائم النرويج.

وفي العاشر من مايو/ أيار قام هتلر بإطلاق هجومه ضد هولندا وبلجيكا وفرنسا، وفي المرحلة الأولى من (١٠-١٩) مايو/ أيار أحرز الألمان انتصارات حاسمة، وهُزِمَ الهولنديون في الخامس عشر منه، واخترقت المدرعات الفرنسية بقيادة الجنرال غارديان منطقة الأردين بين (١٤-١٦) مايو/ أيار، وكانت مفاجئة كبيرة للحلفاء، وصرح الجنرال غاملان بأن باريس ممكن أن تسقط في المساء، ولكن الألمان فضلوا السير غرباً ليصلوا إلى ابفيل في التاسع عشر من مايو/ أيار، وكانت السرعة كبيرة للاختراق الألماني نتيجة الاستخدام الألماني الكثيف للدبابات والطائرات التي قصت على المدرعات الفرنسية أثناء عملية إنزالها، وبقيت القوات الفرنسية تعتمد نظاماً دفاعياً تقليدياً.

حاول ويغان تنظيم الدفاع عن السوم والأسن، حيث واجهت (٥٠) فرقة فرنسية حوالي (١٥٠) فرقة ألمانية، لإيقاف الهجوم الألماني بشكل مؤقت، وبدأت المعركة في الخامس من يونيو/ حزيران، وانهارت جبهة السوم في اليوم التالي، وجبهة الأسن في اليوم الذي بعده، وغادرت الحكومة باريس في العاشر منه في يوم دخول إيطاليا للحرب.

طلب المجلس الأعلى الفرنسي في جلسته في السادس عشر من مايو/ أيار من إنكلترا النجدة، وقام تشرشل بتقديم وعد بإرسال النجدة من عشرة أسراب طائرات، لكنه علم من الجنرال غاملان أن القوات الفرنسية لم يكن لديها احتياطي عام، ولذلك طلب لرجاع للقوات الإنكليزية والتريث، وفي الحادي والثلاثين من مايو/ أيار في عملية دنكرك عاد تشرشل إلى باريس بصحبة أتلي Attlee ومعه ديل وسبيرز، وأعطى وعداً للفرنسيين بأنه في حال سقوط أحد البلدين فإن الآخر لن يتخلى عنه، وتأكد القرار الإنكليزي بمتابعة المعركة بأي ثمن كان، وفي الرابع من يونيو/ حزيران ألقى تشرشل

خطاباً في البرلمان قال فيه: "إننا لن نستسلم أبداً"، وأرسل بعد يومين فرقتين عسكريتين إلى فرنسا، وتم تغيير في الوزارة الفرنسية برحيل دالانبيه، وحل رليند في منصب الشؤون الخارجية^(٣٩).

ثالثاً: دخول إيطاليا الحرب

كان هتلر قد طالب بدخول إيطاليا للحرب بشدة في رسالة طويلة وجهها إلى موسوليني في الثامن من مارس/ آذار ١٩٤٠، ثم تم لقاء بين الرجلين في الثامن منه، وأكد موسوليني أن دخول إيطاليا للحرب بظل محتملاً، لكنه يحتاج إلى اللحظة المناسبة، ثم في رسالة من موسوليني إلى هتلر في الخامس والعشرين من مايو/ أيار ١٩٤٠ أعلن موسوليني أن إيطاليا ستدخل الحرب بعد الخامس من يونيو/ حزيران من العام نفسه، وسارعت الحكومة الفرنسية للتي سمعت هذه الأنباء إلى تقديم تنازلات لإيطاليا في محاولة لإبعادها عن الحرب، وتم فيها التنازل عن أراضٍ في أفريقيا الاستوائية الفرنسية، وجنوب ليبيا، وخليج غينيا، وتعديل نظام تونس السياسي، وتنازل فرنسا عن جانبها في الصومال لصالح إيطاليا، وعن خط حديد أديس أبابا أيضاً.

إلا أن الحكومة البريطانية عبرت عن عدم رضاها عن هذه التنازلات، وأكدت لفرنسا أن موسوليني سيأخذها حجة لطلب المزيد من التنازلات، وأنه لن يتخلى أبداً عن حليفه الألماني، وأمام رد الفعل البريطاني هذا تم التخلي عن مشروع تقديم تنازلات لإيطاليا، وكان موسوليني قد وجه رسالة إلى هتلر يعلن له فيها عن دخول إيطاليا للحرب في الخامس من يونيو/ حزيران ١٩٤٠، ثم اتفقا على يوم الحادي عشر منه، وتم ذلك في العاشر منه، حيث أعلن الجنرال الإسباني فرانكو الاحتلال المؤقت لمنطقة طنجة الدولية.

وفي هذا الوقت كان الجيش الفرنسي قد هُزم وتفكك، ورغم اللقاءات الرسمية العليا بين الحلفاء لمحاولة تدارك الأوضاع العسكرية المتفاقمة، رفض البلدان عقد هدنة أو صلح منفصل، وكان ويستون تشرشل قد ذكر في مذكراته أنه أمام مجلس الحلفاء الأعلى فقد أكد: "إذا كانت فرنسا ترى من الملائم في محنتها الحالية استسلام جيشها، فلا تتردد في ذلك احتراماً لنا، لأنه مهما فعلتم سنظل نتابع للقتال دائماً، وإن للندن

مستعدة للقتال إلى ما لانهاية ولسحق الهتلرية النازية، وانها تتمنى بقاء فرنسا إلى جانبها في الحرب، وطالب راينو ان تدعم حكومة الرئيس الأمريكي روزفلت فرنسا، فأكد له الأخير في الثالث عشر من يونيو/ حزيران ان بلاده سوف تشجع فرنسا على مواصلة القتال، ثم جدد راينو في رسالة أخرى ضرورة دخول الولايات المتحدة الحرب من أجل حماية الحضارة الغربية، وان مصير العالم سيتغير عند دخول الولايات المتحدة للحرب إلى جانب الحلفاء، ولكن جواب روزفلت كان ودياً من جهة، ولكنه سلبي من جهة أخرى مع تأكيد على استقلال ووحدة فرنسا، والدعم بالأسلحة والتموين من قبل واشنطن، ولكن تعهداتها يجب ان لا تقم على أنها للتزام عسكري، وان للكونغرس وحده الذي يستطيع اتخاذ مثل هذه التعهدات.

في هذه الأجواء من عدم الثقة بين الحلفاء قررت حكومة بيتان الفرنسية تقديم طلب للهدنة إلى ألمانيا، وجرت المفاوضات بشأنها في السابع عشر من يونيو/ حزيران، وبعد أيام قليلة أراد هتلر ان يتشاور فيها مع موسوليني، وتم اللقاء بينهما في (١٨-١٩ منه)، وكان موسوليني الذي لم يحقق نجاحات عسكرية يسعى لانتزاع شروط قاسية من فرنسا، باحتلال الأراضي الفرنسية كلها، واستسلام الاسطول، ولأخذ نيس وكورسيكا وشاطئ الصومال الفرنسي، وتونس، والحلول مكان الإنكليز في مصر والسودان، ومكان الفرنسيين في مراكش، ولكن أولاً لا بد من إجبار بريطانيا على الصلح، ويرى بضرورة منع الأسطول الفرنسي ان يكون إلى جانب الأسطول البريطاني، ولكن هتلر المنتصر في الحرب آنذاك ظل أكثر اعتدالاً في شروطه وهو يريد هدنتين بين فرنسا وكلاً من ألمانيا وإيطاليا.

الحكومة الفرنسية من جانبها عينت الجنرال هونتز جبر لرئاسة وفد الهدنة، وكلفته بعدم تقديم أية تنازلات لتسليم وحدة بحرية فرنسية إلى دول المحور، ولا أي جزء من الأراضي الفرنسية وإمبراطوريتها، وان هذا هو للشرط الأساسي للهدنة.

وفي العشرين من يونيو/ حزيران دخل الوفد الفرنسي الأراضي الحربية الألمانية، والتقى هتلر شخصياً في اليوم التالي، ووضع اللوم في قيام الحرب على ألمانيا، ثم أشار إلى ضرورة إظهار الهدنة وكأنها اتفاق بين جنود قاتلوا بإخلاص، ثم

انسحبوا ليتولى للقادة فرض شروط الهدنة، وبعد تقديم الشروط القاسية من الألمان، عرض الأمر على القيادة العسكرية، ثم مجلس الوزراء، والذي أوصى بالمفاوض الفرنسي بعدم عقد أي اتفاق مع المحور فيه احتلال لباريس أو التنازل عن الأسطول للفرنسي، والمناقشة حول الجنود الألماني والأجانب لدى الفرنسيين، وتسليم الرعايا الألمان اللاجئين في فرنسا، ثم أعلن أن الألمان رفضوا هذه الملاحظات، وتقرر قيام لجنة الهدنة لدراسة وضع الأسطول، أي فرض الإرادة بالقوة، ووفق مجلس الوزراء، وتم توقيع الهدنة مع ألمانيا.

ثم استكمالاً لهذه الهدنة الفرنسية - الألمانية كان لا بد من قيام أخرى فرنسية - إيطالية، بدأت المفاوضات حولها في الثالث والعشرين من يونيو/ حزيران على متن طائرات ألمانية حملت الوفد إلى لقاء الطليان، وقعت الهدنة في اليوم التالي، ونقلت حيز التنفيذ بعد تبليغ الألمان بها أي في اليوم التالي.

وكانت شروط الهدنة للفرنسية - الألمانية تنص على ما يأتي:

- ١- إنهاء التعبئة العسكرية.
- ٢- إلقاء السلاح في المناطق المحتلة.
- ٣- تجميع السلاح تحت إشراف الألمان والإيطاليين في المناطق غير المحتلة.
- ٤- تسليم التحصينات العسكرية ونزع الألغام، ومنع السفن من الخروج من المرفأ، ومنع للطائرات من الإقلاع، وأجهزة الراديو من البث.
- ٥- أما لشروط السياسية، فهي خلق منطقة محتلة على طول شاطئ الأطلسي.
- ٦- يسمح للحكومة بالبقاء في المناطق غير المحتلة وباريس، وسيكون الألمان في المناطق المحتلة على أن تتحمل الحكومة الفرنسية نفقات قوات الاحتلال.
- ٧- يبقى الأسرى الفرنسيون سجناء حتى السلام النهائي، بينما يتم تسليم الأسرى الألمان فوراً.
- ٨- على الحكومة الفرنسية تسليم كل الرعايا الألمان الموجودين في فرنسا أو في الأملاك الفرنسية بناء على طلب الحكومة الألمانية.
- ٩- يبقى جزء من الأسطول تحت تصرف الحكومة للفرنسية لحماية الإمبراطورية،

على أن يجمع الباقي في المرفأ التي مستحد له، وإن يكون خالياً من القوات ومنزوع السلاح تحت إشراف لأمانيا وإيطاليا.

١٠- تعلن الحكومة الألمانية أنه ليس في نيتها استخدام الاسطول الحربي الفرنسي الموجود تحت الإشراف الألماني في المرفأ، ماعدا للوحدات الضرورية لمراقبة الشواطئ ونزع الألغام في زمن الحرب، وإن يتم استدعاء كل السفن في فرنسا عدا التي ستدافع عن الإمبراطورية.

أما الهدنة مع إيطاليا فإن شروطها لم تختلف عن الألمانية، وهي:

١- نزع السلاح من منطقة عرضها (٥٠) كم على الحدود الفرنسية - الإيطالية في تولون وبنزرت وأجاكسيو ومرسي الكبيرة وأخرى في الجزائر وتونس.

٢- يتم احتلال الأراضي فعلياً.

٣- تمنح إيطاليا حرية استخدام مرفأ جيبوتي وخط حديد أديس أبابا^(١٠).

رابعاً: بريطانيا في مواجهة المحور

بقيت بريطانيا وحدها بعد توقيع الهدنة في مواجهة المحور، مع للمساندة المتواضعة من بلجيكا وهولندا والنرويج، مع قوة للجنرال ديغول للداعمة لها والمقاومة للاحتلال الألماني، فضلاً عن الدعم السياسي والمعنوي من الولايات المتحدة.

كان من نتيجة هذه الهزيمة لفرنسا وإلى حد ما لبريطانيا، أن استغل الاتحاد السوفيتي في عهد ستالين للفرصة، وجدد طموحاته في ضم الدول البلطيقية، وتقارب مع يوغسلافيا المهددة من موسوليني بالضم والاحتياح، وحاولت موسكو التنسيق مع إيطاليا على أن يكون لها وجود في البحر الأسود، مقابل هيمنة إيطالية في البحر المتوسط، في حين سعت لندن لكسب السوفييت إلى جانب الحلفاء، ولكنها ظلت محاولات فاشلة مع رغبة السوفييت في التنسيق مع المحور لتحقيق أطماعهم في البلطيق والمياه الدافئة.

في الرابع عشر من يونيو/ حزيران ١٩٤٠ تم توجيه إنذارات إلى ليتوانيا، واستونيا الخاضعة للقوات الروسية، بحجة أن شعوبها تعمل على تهديد الجيش الأحمر، وتم تشكيل حكومات فيها غير شيوعية بشكل كامل، ثم جرت انتخابات فيها في يوليو/

تموز، ترشح فيها شيوعيون ومؤيدون لهم، وطالبت البرلمانات الجديدة بالدخول للفوري لدول البلطيق في الاتحاد السوفيتي، وعقدت دورة خاصة لمجلس السوفيت الأعلى بين (٨-١ أغسطس/ آب) وافقت على قبول ليتوانيا واستونيا وليتوانيا أعضاء في الاتحاد السوفيتي كجمهوريات اشتراكية شيوعية سوفيتية جديدة.

ثم اتجه السوفييت لضم بيسارابيا وبوكوفين، واحتج الألمان على ان الأخيرة منطقة لم تكن أساساً ملكاً للروس قبل ذلك، ثم صرح مولوتوف في السادس والعشرين من يونيو/ حزيران انه سيكتفي ببوكوفين الشمالية، التي كان سكانها عبر التاريخ مرتبطين بأوكرانيا السوفيتية، ولتعويض الأضرار الكبيرة التي لحقت بالاتحاد السوفيتي من جراء الاحتلال للروماني بيسارابيا.

وأخيراً اضطرت رومانيا إلى القبول، وفي الثاني من أغسطس/ آب تكونت جمهورية اشتراكية سوفيتية في مولدافيا، ثم رد الألمان فوراً بإرسال بعثة عسكرية إلى رومانيا لتأكيد الاحتلال لها، وبعد سنة زاد سكان الاتحاد السوفيتي إلى (٢٣) مليوناً، منهم مليون في بولندا، و(١٠) في رومانيا ودول البلطيق.

وفي السادس من سبتمبر/ أيلول تخلى الملك كارول ملك رومانيا عن العرش لمصلحة ابنه ميشال، وبعد أسبوع وقع اتفاق في فينا ألغى لجنة الدانوب الدولية، التي أنشئت عام ١٩٢٢، واستبدلت بمجلس الدانوب النهري، ويضم ألمانيا وإيطاليا وبلغاريا ورومانيا وهنغاريا ويوغسلافيا وجيكوسلوفاكيا، واستبعد فرنسا وبريطانيا.

وأخيراً وبحجة حماية آبار النفط من التخريب البريطاني، أمر هتلر الجيش الألماني باحتلال رومانيا في الحادي عشر من أكتوبر/ تشرين الأول.

ان التغيير الذي حصل في الخارطة الأوروبية من قبل ألمانيا عن طريق توقيع اتفاق ثلاثي في السابع والعشرين من سبتمبر/ أيلول، كان بعد تعكر علاقات ألمانيا مع الاتحاد السوفيتي جراء تحكيم فينا الثاني، واحتج مولوتوف على التدخل الألماني في رومانيا، وطالب الألمان بالدعم للحصول على بوكوفين الجنوبية، في الوقت الذي كان هتلر يفكر جدياً في يوليو/ تموز ١٩٤٠ بالهجوم على الاتحاد السوفيتي واعداد خطة (برباروسا)، ولكنه سعى لاختفاء خططه نحو الشرق عن السوفييت، وفي السابع

والعشرين من سبتمبر/ أيلول وقّعت ألمانيا وإيطاليا واليابان للميثاق الثلاثي في برلين، وهو تحالف سياسي عسكري لقتصادي في حالة تعرضت إحدى الدول للاعتداء من دولة غير داخلية في الحرب تقف الدول الأخرى إلى جانبها، ونصت المادة الخامسة من الميثاق على أن لا يؤثر توقيع الميثاق على العلاقات بين الدول للموقعة عليه والاتحاد السوفيتي.

وحاول هتلر وموسوليني جر إسبانيا للدخول في هذا الميثاق الثلاثي، وكان فرانكو قد أعرب بغموض عن رغبته في ذلك، إلا أنه حقيقة كان يميل إلى تجنب بلاده للمنهكة بالحرب الأهلية والخراب لية محاولة لدخول حرب قد تجر عليها للويلات، وطالب بطرح شروط مسبقة من تمكين إسبانيا من ضم جبل طارق ومراكش الفرنسية ومقاطعة وهران وغيرها في غينيا وريودي لور، وتقديم مساعدات اقتصادية.

أما موقف بريطانيا، فإنها كانت تدعم فرنسا من خلال الجنرال ديغول في هذه المرحلة من الحرب، والفرنسيين الأحرار للحصول على تأييد أملاك ومستعمرات فرنسا الإفريقية، وقد أنشأ ديغول في الثلاثين من يوليو/ تموز (مجلس دفاع فرنسا في ما وراء البحار)، ودعمه تشرشل، وخضعت عدة مستعمرات لسلطته كتشاد والكاميرون وتاهيتي ومدن هندية وكاليدونيا الجديدة والغابون وبقية فرنسا الأفريقية للشرقية.

لما هتلر فإنه لم يفقد الأمل في جذب إسبانيا إلى دول الميثاق الثلاثي، وكشف عن ذلك أثناء مقابله موسوليني في الرابع من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٠، وكان هتلر يريد تكوين إمبراطورية ألمانية في أفريقيا الغربية بضم مراكش والدار البيضاء ومعها أغادير، أما موسوليني فطالب بنيس وكورسكا وتونس وجيبوتي، وأبدى طموحه لمهاجمة اليونان، ورفض المساعدة التي عرضها عليه هتلر في مواجهته مع الحلفاء، وقد التقى هتلر بفرانكو في هانداي في الثالث والعشرين منه، ووُقّع اتفاق غامض، لكتفى هتلر فيه بالوعد بدخول إسبانيا للحرب ومشاركتها في الميثاق الثلاثي دون تحديد تاريخ معين، وفي الثامن والعشرون منه التقى هتلر مع موسوليني في فلورنسا، حيث كان الأخير قد فشل في هجومه في سيدي برلاني ضد الإنكليز في مصر على الجبهة الأفريقية الشمالية.

إلا أن الطرفين لم يوافقا على دخول إسبانيا الميثاق الثلاثي، وحسب اعتقادهما أن الأسبان لا يعون حجمهم وإمكاناتهم، ويتطلعون للعب دور أكبر من ذلك، ولم يتم إلا لهغاريا في العشرين من نوفمبر/ تشرين الأول، ثم رومانيا بعد ثلاثة أيام وسلوفاكيا أيضاً لدخول الميثاق الثلاثي، وأصبحت الدول الثلاث تابعة للمحور.

أما على صعيد العلاقات الفرنسية - البريطانية، فقد فشلت المحاولات المتكررة لتحسينها في ظل حكومة فيش المتحالفة مع هتلر والمحور، وفي الجولة الثالثة من المفاوضات بين الطرفين - التي قادها السكرتير العام لوزارة الإعلام الفرنسية جاك شوفالييه في محاولة للحصول من لندن على حرية إدخال المنتجات النفطية وزيت التشحيم إلى فرنسا - وكان الإنكليز مستعدين لأي شيء تجاه فرنسا، وتم التوصل إلى مذكرة تقاهم من شوفالييه ولوفان وبيار ديبوي، وتأييد من المارشال وحملها معه في السابع من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٠ إلى لندن، وتفق فيها على المحافظة على حد من (البرودة المصطنعة)، وتثبيت الوضع الراهن للمستعمرات الفرنسية، وعدم تسليم الأسطول أو المستعمرات إلى المحور، وأن يتم رفع الحصار عن بعض المنتجات كالنفط والزيوت.

وفي الواقع تم تطبيق هذا الاتفاق لبعض الوقت، ورفع الحصار نوعاً ما، ونمت - على أية حال - المفاوضات بمعزل عن الفرنسيين الأحرار وديغول. وفي ظل قطع العلاقات الدبلوماسية الفرنسية - البريطانية، قرر روزفلت بالاتفاق مع تشرشل إرسال سفير إلى فيشي، ووصل في التاسع من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٠، وكان هدف روزفلت ممارسة الضغوط على بيتان لمنعه من التنازل عن قواعد للألمان والإيطاليين في الإمبراطورية الفرنسية، وتشجيع عودة الأراضي للفرنسية في مأجوراء البحار إلى المعركة.

وتم توقيع اتفاقيات (ويغان - مورفي) بين القنصل العام الأمريكي في الجزائر روبرت مورفي والجنرال ويغان للقائد العام للقوات الفرنسية في أفريقيا الشمالية، وكانت شروطها تقتصر على الوعد بإرسال بضائع ضرورية لأفريقيا الشمالية من الولايات المتحدة وبموافقة الإنكليز، وإن يراقب القناصل الأمريكيون استخدام هذه

المنتجات التي يجب ان لا ترسل إلى الوطن الأم، ووعدها من جهة بالوقوف بكل السبل ضد أي هجوم ضد أفريقيا الشمالية من أي جهة كان.

كان الأميرال دارلان يحتقر البريطانيين، ويؤيد الألمان؛ لانهم حسب اعتقاده سيربحون الحرب، وسيقيمون نظاماً جديداً في أوروبا، وخاصة مع الهزائم البريطانية في ربيع عام ١٩٤١، وكان يرغب في الحصول على مساعدة ألمانية لإعادة تسليح السفن الفرنسية، ووضع من جانبه شاحنات فرنسية تحت تصرف للقائد الألماني رومل، وسمح بأن تقوم للطائرات الألمانية للذهاب إلى العراق بإجراء توقف في سوريا، من أجل التزود بالوقود وتقديم السلاح للثوار في العراق ضد بريطانيا.

في (١١-١٢ مايو/ أيار ١٩٤١) التقى دارلان بهتلر في برشتسغادن الألمانية وناقشا مرحلة ما بعد الحرب، وفكر هتلر بإعطاء فرنسا - إذا ما تعاونت مع ألمانيا - منطقة فالونيا وسويسرا الرومانية مقابل الألزاس واللورين، والاحتفاظ بالإمبراطورية الفرنسية الاستعمارية، عدا مراكش وتونس، والحصول على تعويضات أخرى على حساب بريطانيا، ولكن هذا ظل غامضاً دون أن يتحقق جدياً.

وفي الثامن والعشرين منه وقع دارلان في باريس ثلاثة بروتوكولات: الأول يشير إلى ما ذكرناه حول سوريا، والثاني يضع بتصرف الألمان بنزرت وخط حديدها مع قابس، وتقوم السفن الحربية الفرنسية بدعم الجنرال رومل بالتموين في ليبيا ليقف إلى جانب الطليان، أما الثالث فكان يسمح للغواصات الألمانية بالتموين في دكا، وبقي للتصديق على هذه البروتوكولات، واستدعى لهذا الغرض بيتان كلاً من ويغان وبولسون وشخصيات أخرى، حيث انتقدوا مشروع دارلان بعنف ورفض تسليم للقواعد، وأيده بيتان، مما اضطر دارلان للتنازل والانسحاب عما طرحه، وأدى اندلاع للحرب ضد الاتحاد السوفيتي إلى تحويل الانتباه الألماني عن هذه القضية^(١١).

خامساً: الهجوم على اليونان ويوغسلافيا

كان موسوليني يرغب في استثمار دخول ألمانيا للحرب إلى أقصى درجة، وراح يخطط في صيف عام ١٩٤٠ لمهاجمة اليونان ويوغسلافيا، ولكنه تخلى عن المشروع تحت الضغط الألماني، ورغم ذلك ظل موسوليني يعتقد ان يديه مطلقة في

اليونان على الأكل، وغداة احتلال ألمانيا لرومانيا أعلن موسوليني قوله بالزجاج: "إن هتلر يضعني دائماً تجاه الأمر الواقع، وسوف أرد له بالضربة هذه المرة؛ لأنه سيعلم من خلال الصحف بأنني احتلت اليونان، وهكذا سيقام التوازن بيننا".

وقامت للقوات الإيطالية بالفعل بمهاجمة اليونان في الثامن والعشرين من أكتوبر/ تشرين الأول بناء على أوامر من موسوليني رغم معارضة رئيس هيئة الأركان بادوجيلو، ولكن بعد ثمانية أيام استعاد اليونان المبادرة من الطليان، وكان هذا بداية سلسلة هزائم إيطالية في الشهور الثلاثة التالية، مع نجاح الهجوم البريطاني على ليبيا (٩ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٠ - يناير/ كانون ثاني ١٩٤١ وما بعده)، واحتلال الإنكليز أفريقيا الشرقية الإيطالية، وعجز موسوليني عن أن يقيم توازناً مع الألمان، واضطراره لطلب نجدة هتلر ومساعدته.

منذ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٠، كان هتلر يسعى لتعزيز الميثاق الثلاثي عن طريق إدخال الاتحاد السوفيتي، ولإبقاء البلقان منطقة ذات نفوذ إيطالي - ألماني، مع إلغاء القيود حول الموانئ وحرية التجارة عبر الدردنيل، وضمان الوضع الراهن في تركيا، ويريد هتلر فوق ذلك منع الاتحاد السوفيتي من الانضمام إلى أوروبا عبر التوسع العسكري أو الوصول إلى البلقان أو فنلندا، وسعى هتلر إلى بناء ميثاق رباعي على أساس نظام مناطق النفوذ، فالألمان والطليان لهم أفريقيا الشمالية، والشرقية والوسطى، واليابان لها آسيا الشرقية، وللاتحاد السوفيتي الخليج العربي وإيران والهند، وبهذا يتم عزل بريطانيا وردع الولايات المتحدة.

في الثالث عشر من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٠ أرسل ديبنتروب رسالة إلى ستالين اقترح فيها اتفاقاً كبيراً على أساس المصالح المتبادلة، ودعا مولوتوف لزيارة برلين، ثم أن يذهب هو بعد ذلك إلى موسكو، وأجاب ستالين عليه في الحادي والعشرين منه بشكل إيجابي لإقامة مصالح ثابتة ومشتركة بين البلدين.

ووصل مولوتوف إلى برلين في الثاني عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني، وللتقى ديبنتروب ثم هتلر، واقترح ديبنتروب على مولوتوف توقيع معاهدة للمشاركة في الاتفاق الثلاثي وملحقين مبررين: الأول لتثبيت القسامة مناطق النفوذ على أسس ثابتة،

والثاني يعترف للاتحاد السوفيتي بحرية المرور عبر المضائق، ولكن مولوتوف لم يوافق على هذه المقترحات، وغادر برلين في الرابع عشر منه، وفي الخامس والعشرون منه سلم السفير الألماني في موسكو مقترحات حكومته لتوقيع هذا الاتفاق:

١- يقبل الاتحاد السوفيتي المشاركة في الاتفاق الثلاثي حسب شروط محددة.
٢- يقبل الملحق الأول الذي اقترحه ديبنتر وبالمثل والمتعلق بالمدى في جنوب باطوم وباتكو وبتجاه الخليج العربي.

٣- يقترح في الملحق الثاني تبديله، بحيث يستطيع الاتحاد السوفيتي إنشاء قاعدة برية وبحرية في المضائق، على أن يطلب من تركيا للمشاركة في الميثاق الرباعي، وأن لا تكون سلامتها الإقليمية مضمونة إلا إذا قبلت ذلك.

٤- اقترح السوفييت ملاحق، وهي أن تسحب ألمانيا قواتها فوراً من فنلندا، وأن تتخلى اليابان عن امتيازات الفحم والنفط في شمال سخالين، وأن يتم إقامة ميثاق مساعدة متبادلة بين الاتحاد السوفيتي وبلغاريا، وهو ضروري من الناحية السياسية، وأن لا يضر هذا الميثاق بالنظام الداخلي أو بسيادة واستقلال ألمانيا، ويفكر الاتحاد السوفيتي في أن يبقى بحزم وكفاءة كقوة لوروبية في البلطيق أو البلقان، إلا أن ألمانيا ترد على هذه المقترحات السوفيتية رغم إلحاح السوفييت عليها، ويبدو أن السبب عدم قناعتها بها وصعوبة تحقيقها.

وهذا يفسر أن هتلر قد حسم في عام ١٩٤٠ المسألة بين هجوم فوري على بريطانيا والذي بدأ صعباً بعد الفضل في المعركة الجوية التي استمرت الصيف كله، وبين عملية عسكرية بجتاح بها الاتحاد السوفيتي، وبعدها ضرورة لتحقيق مشروع في (المجال الحيوي) لألمانيا، وقد اختار في نهاية عام ١٩٤٠ للحل الثاني، واتخذ الإجراءات لخطه ببروسا ضد الاتحاد السوفيتي.

لما بخصوص بلغاريا، فقد ظهرت مناهضة دبلوماسية ألمانية - سوفيتية، ومنذ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٠ اقترح مولوتوف على الوزير البلغاري في موسكو ضملائه، وعرض الاتحاد السوفيتي ميثاق مساعدة متبادلة على صوفيا، ورفضت الأخيرة ذلك؛ بحجة أنها لا تريد إقلاق ألمانيا، وفي فبراير/ شباط ١٩٤١ نجح

ديينتروب بالحصول على قرار مشاركة بلغاريا في الميثاق الثلاثي، ووقع في الأول من مارس/ آذار، ودخلت في نفس اليوم للقوات الألمانية إلى بلغاريا رغم الاعتراضات السوفيتية.

لما بالنسبة ليوغسلافيا، فكان هتلر على وشك توقيع اتفاق مماثل مع حكومة تيزلفكو فيتش، وفي الخامس والعشرين من مارس/ آذار ١٩٤١ وافقت يوغسلافيا على المشاركة في الميثاق، ولكن بعد يومين حدث تطور مفاجئ، حيث قام الشاب بطرس الثاني القاصر على يد موالين بجر السلطة له من الأمير بول، وتشكيل حكومة وطنية اتحادية برئاسة سيموفيتش، وكان انقلاباً عسكرياً موالياً لبريطانيا، تدعمه قوى صربية ديمقراطية، وهنا قرر هتلر الغاضب من هذا الحدث أن يهاجم يوغسلافيا، ودخلت قواته يوغسلافيا واليونان في السادس من إبريل/ نيسان ١٩٤١، ووقع في اليوم نفسه ستالين مع الوزير لليوغسلافي في موسكو ميثاق صداقة وعدم اعتداء، وفي الثامن عشر منه توقفت المعارك في يوغسلافيا بعد الانتصار الألماني للنهائي، وفي السابع والعشرين منه دخلت للقوات الألمانية إلى أثينا، وبعد ثلاثة أيام شكّل الألمان حكومة تابعة لهم بقيادة الجنرال تسولا كوجلو.

وبدأ من العاشر من إبريل/ نيسان ١٩٤١، أعلنت كرواتيا استقلالها، وعيّن أنتي بافليتش رئيساً للدولة الجديدة، ونضم كرواتيا زغرب، والبوسنة والهرسك، أما حدود هذه الدولة ففي الشمال قامت ألمانيا بضم سلوفينيا الشمالية، وإيطاليا ضمت سلوفينيا الجنوبية، وطالب الطليان بكل دلماسيا في الغرب، من فيوم إلى كاتارو، مع إبقاء منفذ بحري للكروات في مقابل فيوم، وفي الجنوب منطقة دوبرفنيك، واستأجر زارلو سيبنيك وجزر دلماسيا وخليج كاتا لمدة (٢٥) عاماً، وبعد إقامة للمونتجبرو في حدود عام ١٩١٤ على أن تكون مستقلة وخاضعة لإيطاليا.

لما هنغاريا فكانت قد دخلت في حرب ضد يوغسلافيا في العاشر من إبريل/ نيسان ١٩٤١، وضمت باتشاك و مناطق على الضفة اليسرى لنهر الدانوب، وبقيت البلديات تحت الإدارة الألمانية، وصربيا مستقلة، ولكن في إطار صربيا القديمة، وضمت الأخيرة مقدونيا و تراسيا وما عدا سالونيك التي بقيت لليونان.

أما لبلانيا فقد تلقت جزءاً من مقدونيا الغربية، وكوسوفو، ووقعت معاهدة ضمان وتعاون بين إيطاليا وكرواتيا ضمنّت إيطاليا بموجبها سلامة كرواتيا الإقليمية، وقبلت كرواتيا بالسماح للقوات الإيطالية بالمرور عبر أراضيها، وتعهّدت بعدم إقامة بحرية عسكرية، وفي الخامس عشر من يونيو/ حزيران شاركت كرواتيا بالميثاق الثلاثي^(١٢).

سياًساً: الهجوم على الاتحاد السوفيتي

في (١٢-١٣) نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٠ جرت مقابلة - كما أشرنا سابقاً - بين مولوتوف وديينتروب في برلين، وفيه ظهر توجه ألماني يتخلى عن فكرة الإنزال في بريطانيا، وينص على زيادة النظم الألماني - الإيطالي في البحر المتوسط، ولدى فشل محادثات مولوتوف وديينتروب إلى أن يفكر هتلر جدياً بمهاجمة السوفيت. إلا أن أسباب هذا للتحويل لا يعود إلى كراهيته الشديدة للشيوعية، بل كان يرغب في القضاء على المنافس السوفيتي للغامض، ولا سيما أن الحرب ضد بريطانيا كانت تبدو طويلة، وتهدف سياسة الهجوم على الاتحاد السوفيتي إلى تأكيد فلسفة هتلر العسكرية في الإحراق والضم التي يفرضها المجال الحيوي، وفي الخامس من ديسمبر/ كانون الأول أمر بالتحضير لهذا الهجوم لتاريخ الخامس عشر من مايو/ أيار ١٩٤١ باسم خطة بربروسا، ومنذ ذلك الوقت انشغل الألمان من المسؤولين العسكريين بالأعداد للعملية، وإخفاء التحركات نحو الشرق عن الحلفاء والسوفييت خاصة، وفي موعد آخر ثبت تاريخ الثاني والعشرون من يونيو/ حزيران نقطة للانطلاق؛ إذ كان هتلر مصمماً على الانتهاء من ستالين، وعهد إلى الفرد روزنبرغ أن يهيئ التنظيم السياسي للأراضي التي ستحتل من الاتحاد السوفيتي، وفي الثلاثين من إبريل/ نيسان عيّن روزنبرغ مفوضاً في (الإشراف المركزي لشؤون الشرق الأوروبي).

في مايو ويونيو كانت الأخبار تصل واشنطن ولندن بأن موعد الهجوم الألماني على الاتحاد السوفيتي بات وشيكاً، وحصل ستالين من جهته على حياد اليابان في الحرب، وحاول بالأساس تجنب وقوعها، حيث قال مخاطباً السفير الألماني في موسكو في الثالث عشر من إبريل/ نيسان ١٩٤١ في وداع مولوتوف: "إن علينا أن نبقى

أصدقاء، وعليك ان تقوم بكل ما في وسعك من أجل هذا، وقد قبل السوفييت الادعاءات الألمانية حول الحدود الروسية - الألمانية في بولندا في الخامس والعشرين من إبريل/ نيسان، واعترفوا بحكومة رشيد علي الكيلاني المدعومة من ألمانيا في العراق في الثالث من مايو/ أيار، وتم طرد السفراء: البلجيكي واليوغسلافي والدروبيجي من الاتحاد السوفيتي، وعين سفيراً لدى المارشال بيتان، واستمر التعاون الاقتصادي مع ألمانيا، وحتى اليوم الأخير كانت المنتجات متبادلة بين البلدين.

وفي الواقع فعلى الرغم من كل هذه التدابير التي قام بها ستالين للتقرب مع الألمان، وفي الثاني من يونيو/ حزيران ١٩٤١ للنقى هتلر بموسوليني في رينر وأعطى في اليوم نفسه الأمر للسفن الألمانية الموجودة في المرافئ الروسية بمغادرتها فوراً، وتم تدعيم القوات الألمانية في فنلندا ورومانيا، وضاعف الإنكليز والأمريكان من تحذيراتهم للسوفييت الذين اتخذوا تدابير عسكرية للتهدة من جهة والدفاع من جهة أخرى.

وفي الثاني والعشرين منه هاجمت صباحاً القوات الألمانية الأراضي السوفيتية، وأعلن هتلر في الرسالة التي كتبها إلى موسوليني: "إن هذا أهم قرار في حياتي".

وقد برز العدوان بالتهديد الذي تشكله القوات السوفيتية بالنسبة لألمانيا، ودعاية الكومنترن الشيوعية، وتوقيع معاهدة الصداقة السوفيتية - اليوغسلافية في الخامس من إبريل/ نيسان، وبدأت الحرب البرية التي اعتقد هتلر انها ستكون سريعة وخاطفة، وسينتصر فيها، وقذف بقوات ألمانية كبيرة في حرب استنزاف دخلت الأراضي السوفيتية الشاسعة والصعبة جغرافياً ومناخياً، بحيث لقيت الخسائر والهزيمة التي كسرت ظهر الألمان وقبانتهم.

وقرر هتلر ان يستبق الهجوم للروسي الذي تخيله بهجوم خاطف، وخالف قائده للعسكريين، وعلى رأسهم (رونشتد)، إلا ان هتلر لم يصغ للاعتراضات، ووضع خطة تستهدف للقوات الروسية أينما كانت لقطع خط تراجعها نحو الشرق.

ولاستطاع الألمان بيومين تحطيم (٢٠٠٠) طائرة روسية على الأرض وفي

المطارات، واتجهت ثلاثة طوابير من ثلاثة ملايين جندي نحو موسكو وليننجراد وكيبين، ولكنسحوا للوسائل الدفاعية أمامهم، وفي أوائل الشتاء كانت القوات الألمانية تحاصر ليننجراد، وبسبب الصمود للروسي والمقاومة المصلحة تم إيقاف تقدم الألمان نحو المدينة.

وخسر الروس ما لا يقل عن مليون قتيل وأسير، وواصلت القوات السير نحو موسكو، وزحفت أخرى جنوباً إلى لبيف، وتقدمت إلى خاركوف وآبار النفط في القوقاز، وفي خريف عام ١٩٤١ كان موقف الروس صعباً وخطيراً، ولكن المقاومة الشعبية والجيش الأحمر غيراً موازين القوى، واستطاع الجنرال زوكوف أن يطرد الألمان من موسكو وروستوف، وفي هذه الأثناء كانت القوات الألمانية عاجزة عن تحقيق أهدافها، وظل الموقف راكداً حتى لشتاء القارس الذي كان العامل الحاسم في كسر شوكة الألمان، وأثر على وسائل النقل والإمدادات والخطوط العسكرية، ووقف الألمان عاجزين أمام زوكوف الذي يقود المعركة ضدها شمال وجنوب موسكو.

وقد التقى تشرشل مع روزفلت في أول لقاء زمن الحرب على ظهر السفينة الحربية الأمريكية لوجنسا في آب/ أغسطس ١٩٤١، واتفقا على إمداد الروس بالمساعدة الممكنة لاستكمال الصمود، وأرسلت لندن للمعدات، ووصلت في منتصف عام ١٩٤١ أكثر من ٢٤٠٠ دبابة، و١٨٠٠ طائرة بريطانية، و٢٠٠٠ دبابة مع ١٣٠٠ طائرة أمريكية على أساس أن تصل للروس لمواجهة هتلر في عام ١٩٤٢^(١٢).

سابعاً: الميثاق الأطلنطي والهجوم على اليابان

لم يكن متالين مقتنعاً بما يقدمه الحلفاء لروسيا، وخاصة أنهم لم يعدوا بشيء بخصوص المطالب السوفييتية في الحدود البولندية، وأعلن روزفلت وتشرشل في ميثاق الأطلنطي في الثاني عشر من أغسطس/ آب مبدأ عدم السماح لأي دولة بالتوسع أثناء الحرب، وإن لا تجري تغييرات في الحدود بغير موافقة الشعوب المعنية، وإن كل شعب حر في اختيار حكومته التي يرضى عنها، وتكفل له العيش للرخيد بسلام وأمن، وإيجاد خطط لتحسين الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد الحرب، ونزع سلاح المعتدين، وتشجيع العمليات للكفيلة بتخفيف الأعباء عن التسلح وغيرها التي تنقل

على الشعوب، ويجب تحقيق السلام بدلاً عنها ورفع مستوى العيش والضمان الاجتماعي.

ومع توقيع الولايات المتحدة على بنود هذا الميثاق فقد ظلت غير راضية في دخول الحرب بشكل فعلي، ولكن تحرش الغواصات الألمانية بإحدى المدمرات الأمريكية جعل روزفلت يعلن أن السفن والطائرات الأمريكية سوف تضرب الغواصات الألمانية أو الإيطالية التي تظهر في مناطق للدوريات الأمريكية، والتي تمتد حينذاك إلى إسبانيا.

إلا أن حادثاً أجبر الأمريكيين على دخول الحرب إلى جانب الحلفاء، وهو العدوان الجوي الياباني على ميناء بيرل هاربور الأمريكي، ففي سبتمبر/ أيلول ١٩٤٠ وقعت اليابان وألمانيا وإيطاليا على ميثاق بنص على أن تساعد كل منها الأخرى بكافة الوسائل السياسية والاقتصادية والعسكرية إذا هاجمتها دولة غير مشتركة آنذاك في الحرب الأوروبية، أو في الصراع في الشرق الأقصى، وكان هدف هذا الميثاق تحذير للولايات المتحدة من مساعدة الدول الغربية، وفي الوقت نفسه فإنه لا يجبر اليابان على مساعدة ألمانيا في حالة عدولها على الاتحاد السوفيتي.

وفي أبريل/ نيسان ١٩٤١ وقع اليابانيون والروس ميثاقاً بوقوف كل من حكومتهما على الحياد، إذا دخلت أحدهما الحرب مع دولة أو دول أخرى. ولذلك لم تمد اليابان يدها لمساعدة مباشرة لألمانيا في عملياتها العسكرية، وبعد مرور سنة أشهر قدمت لها مساعدة غير مباشرة عندما بدت هجومها على أملاك واشنطن ولندن في المحيط الهادي، وشغلتها عن مساعدة الاتحاد السوفيتي.

ولا بد من الإشارة إلى أن اليابان زالت من أطماعها للتوسعية منذ قيام الحرب في أوروبا، وسقوط هولندا وفرنسا وإنهاء بريطانيا، وحاولت أن تضع يدها على الأملاك الفرنسية والهولندية والبريطانية في المحيط الهادي، وكسب حقوق خاصة في شبه الجزيرة الصينية، وملحت حكومة فيش اليابانيين قواعد جوية في تونكين، ولزلت قواتها في أراضي الهند الصينية وسيام، وتحركت نحو بورما والأملاك الهولندية في إندونيسيا والقاعدة البريطانية في سنغافورة.

وأغضبت هذه التحركات الولايات المتحدة التي كانت تعارض الأطماع اليابانية منذ الثلاثينيات، ودعمت حكومة تشانج كان شيك في الصين، وخاصة عندما وقع العدوان الياباني على الصين عام ١٩٣٧، ولكنها لم تتخذ خطوات فاعلة إلى جانب حلفائها الغربيين في هذه المنطقة، وفضلت الضغط الاقتصادي كخطر للتعامل التجاري مع اليابان، وتجميد أموالها في الولايات المتحدة، ولكنها لم تكن سياسة نافعة مع اليابانيين، ومضوا في رسم سياستهم للتوسعية ضد الأوروبيين في الشرق الأقصى.

واستمرت الاتصالات الدبلوماسية بين اليابان والولايات المتحدة منذ عام ١٩٤١، ولكنها لم تقص إلى شيء، بل إلى عدم ثقة أحدهما بالآخر، وتعارض مصالحهما على الدول، فالولايات المتحدة تصر على عودة سياسة الباب المفتوح إلى الصين، وعودة الأمور في الشرق الأقصى إلى ما كانت عليه قبل عام ١٩٣١، ووقف التوسع الياباني.

وفي مارس/ آذار ١٩٤١ أبلغ للرئيس روزفلت السفير الياباني ان القيام بأي عدوان جديد من قبل اليابان قد يدفع واشنطن إلى دخول الحرب ضدها، ولكن لم يجد هذا التهديد، فالفرصة باتت مواتية أمام اليابان للتحرك في الشرق الأقصى، وما إن وصل الأمر إلى أكتوبر/ تشرين الأول حتى كانت اليابان قد ابتلعت الهند الصينية الفرنسية.

وفي خضم المفاوضات الأمريكية - اليابانية استهدفت الطائرات اليابانية للقاذفة حاملة الطائرات في صبيحة السابع من ديسمبر/ كانون الأول عام ١٩٤١، وألحقت بالأسطول الأمريكي في القاعدة البحرية في بيرل هاربور ضربة قاصمة، وأغرقت قطعة حربية كبيرة، وحطمت عدة سفن حربية، وقتلت ٢٣٤٣ شخصاً، وجرح ١٢٠٠ آخرين، وخسرت واشنطن أقوى قطعها البحرية، وانتهى تفوقها البحري في المحيط الهادي، وأعلنت بعدها اليابان للحرب على بريطانيا أيضاً.

وراصلت القوة الجوية اليابانية ضرباتها، وأغرقت أيضاً البحرية اليابانية بارجتين حربيين بريطانيين كبيرتين، وفي العاشر من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤١ تمكنت القوات اليابانية من غزو الملايو، واستولت على سنغافورة في الخامس عشر

من فبراير/ شباط ١٩٤٢ بعد استسلام الحامية فيها، وغزت بورما وطهرتها من القوات البريطانية والصينية، ولقّمت اليابان فيها حكومة موالية لها، وحطم الأسطول الياباني في بحر جاوه قوة بحرية للحلفاء، مكونة من خمس بولارج، وست مدمرات، وفتحت الطريق لغزو جميع جزر الهند الشرقية الهولندية.

وتم طرد القوات الأمريكية من الفلبين بعد استسلام حاميتها، وبان من المؤكد عجز الحلفاء عن مجابهة اليابانيين في الشرق الأقصى، وبلغت القوات اليابانية مناطق على خليج البنغال، وأصبحت الفرصة سانحة أمام اليابان - نظراً لتفوقها البحري في المحيط الهادي وبحر شرقي آسيا - في أن تحتل الممتلكات الأمريكية والهولندية، فاستسلمت هونج كونج أواخر عام ١٩٤١، وجزر الهند الشرقية الهولندية في مارس/ آذار ١٩٤٢، واستولت القوات اليابانية على ملايو، وكوالامبور، وجوهور، وانصحبت القوات البريطانية منها، وتقدمت إلى بورما، وهزمت القوات اليابانية الحلفاء تحت قيادة صينية بقيادة تشنج كاي تشيك^(١٤).

ثامناً: المعارك في الهادي ومستلّين وشمال أفريقيا

بدأت نقطة التحول في الحرب لصالح الحلفاء في نهاية عام ١٩٤٢ عندما تسلم الحلفاء المبادرة والتغيير على حساب دول المحور، بحيث تحول الحلفاء للهجوم في الشرق الأقصى شمال أفريقيا.

بدأ التنسيق الأمريكي - البريطاني، وتجلّى في التعاون قبل دخول واشنطن الحرب رسمياً، حيث اجتمع روزفلت وتشرشل في يونيو/ حزيران ١٩٤١، وقرروا مد يد العون للروس حتى يصمدوا أمام ألمانيا النازية، وصدر تصريح الأطنطي في الرابع عشر من أغسطس/ آب ١٩٤١، حيث أشار إلى أن للطرفين لا يريدان أي توسع إقليمي أو إجراء تغييرات إقليمية مع رغبات شعوب المنطقة المعنية، واحترام حق الشعوب في اختيار حكائها وضمان المساواة بين الدول جميعاً في التجارة العالمية، وتحقيق التعاون الاقتصادي والاجتماعي، وخلق عالم يعيش على أساس عدم للخوف أو الفقر، ورغم أن هذه المبادئ لم تطبق أو تحترم بعد نهاية الحرب، إلا أنها أعادت الثقة للشعوب المتطلعة للحرية.

وكان لا بد للولايات المتحدة ان تقسم جهودها في الحرب على جبهة المحيط الهادي ضد اليابان ومساعدة حلفائها في أوروبا، ولكن معظم جهودها انصببت تجاه اليابان، وتمكنوا خلال عام ١٩٤٢ من توجيه ضربات قاصمة لليابانيين، أولها هجوم للطائرات الأمريكية على الأسطول الياباني في بحر كورال بين أستراليا وجزر سليمان، وإغراق ١٤ قطعة بحرية، مما اضطر اليابانيين إلى التراجع نحو الشمال وزوال الخطر عن جنوب شرق أستراليا، وفُزَم اليابانيون أيضاً عندما حاولوا الاستيلاء على مدواي الواقعة في المحيط الهادي لجعلها قاعدة للهجوم على جزر هاواي، وفي مايو/ أيار ١٩٤٢ تجمع الأسطول الياباني من (٢٠٠) قطعة بحرية، و(٧٠٠) طائرة في مدواي، وفي الرابع من يونيو/ حزيران بدأت الهجمات، واستطاعت البحرية الأمريكية وطائراتها إسقاط (٤٠) طائرة، وأصبحت أخرى، وأخذ سلاح الجو الأمريكي يضرب الأسطول الياباني لأربعة أيام متتالية، وخسرت اليابان للكثير من طائراتها وقطعها للبحرية.

إلا ان هذه الهزيمة لم تكن حاسمة، وظل الأمل لدى اليابانيين في غزو أستراليا، علماً ان الأمريكيين كانوا أكثر قدرة وتوقفاً في هذا الوقت، وقد هزموا لليابانيين في بورت مورسبي في غينيا الجديدة، واستمر النقم الأمريكي في المحيط الهادي يسير سريعاً حتى قضى بشكل نهائي على أحلام اليابانيين في منتصف عام ١٩٤٣ في إقامة إمبراطورية واسعة تحكم المحيط الهادي، وتم للحلفاء السيطرة على المنطقة الواسعة جنوب غربي المحيط الهادي.

كان النصر هو حليف ألمانيا الهتيرية طوال السنوات الثلاث الأولى من الحرب، ثم بدأ التحول منذ خريف عام ١٩٤٢ إثر الهزائم المتعاقبة، وأثر هذا في وقف تحرك ألمانيا نحو موسكو، وإلحاق الهزيمة بموسوليني في البحر المتوسط، وفي نهاية عام ١٩٤٢ كان السوفييت صامدين في ستالينجراد، والبريطانيون يزحفون نحو مصر، وملاها إلى الغرب في شمال أفريقيا، والأمريكيون ينزلون في المنطقة هذه أيضاً، وبدأت العمليات أكثر تنسيقاً، وتلحق الهزائم بالاعداء وان النصر بات بيد الحلفاء على حساب المحور.

أما هتلر فكان مصمماً على كسب معركة ستالينجراد، في حين أن ستالين كان أشد منه تصميماً على دحر القوات الألمانية مهما كانت التضحيات، وأقدم هتلر على تغيير قائده للعسكريين لضمان عدم معارضتهم لخطته ضد السوفييت، وجاء بالشباب من القادة المؤمنين بالنازية وأفكارها.

وكانت الخطة الجديدة في الميدان السوفيتي هي تركيز القوات الألمانية في جبهة واحدة في الجنوب حيث، يضطر هتلر إلى استخدامها بعد أن ظن أنها الوحيدة للقادرة على تحقيق النصر له، وفي الشمال والوسط نضل للقوات الرابطة هناك تحتفظ بالأرض التي استولت عليها، وكان الألمان قد فشلوا في الاستيلاء على موسكو، واضطروا أن ينسحبوا منها، ولكنهم كانوا لا يزالون يقبضون على ليننجراد بقوة.

وفي الشتاء ومع نهايته بدأ لهتلر أن الوقت قد حان لكي يضرب ضربته التي خطط لها بالهجوم من أوكرانيا على ستالينجراد والفلوجا وبحر قزوين، وبذلك يقسم الاتحاد السوفيتي إلى قسمين، وأنه بالاستيلاء على القوقاز يحرم للجيش الأحمر من أهم مورد للزيت، ويحل مشكلة الإمدادات والوقود.

وكانت الدبابات الألمانية قد تقدمت خلال الصيف إلى سيفاستوبول في القرم وروستوف، وما لبثت للقوات الألمانية أن أصبحت على مقربة من آبار البترول في منطقة غروزني شمال القوقاز (عاصمة الشيشان الآن)، ووصلت إلى ساحل بحر قزوين، وبدأت معركة ستالينجراد في الوقت نفسه في الثاني والعشرين من أغسطس/ آب.

وهذه المدينة تقع على نهر الفولجا، وهي ثالث مدينة يقسمها للروس بعد موسكو وليننجراد، والقرب المدن الروسية إلى قلب ستالين، حيث كان بعدها رمزاً لقوته، وقد تمكن الألمان من الوصول إلى ضواحي تلك المدينة في منتصف سبتمبر/ أيلول، وبدأ الصراع الشعبي المسلح في مواجهة الغزاة في واحدة من أشهر معارك للحرب العالمية الثانية، بل للمعارك في التاريخ العالمي، وتمكن الألمان من الاستيلاء عليها؛ لكي يسهل عليهم العودة إلى موسكو من الجنوب الشرقي، والاستيلاء عليها هي الأخرى، وقطع المورد للنفطي للروس، فيسهل على جيوشهم في الجنوب أن تتقدم

لاكتساح الجنوب، وانضمام جيوش رومل لو نحتت نحو القاهرة في مصر.

إلا ان متالين كان مصمماً على الاستماتة في الدفاع عن ستالينجراد، وفي الربع والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٢ بدأت المعارك الفاصلة حولها بين الألمان للغزاة والروس للمدافعين بضرلوة عن بلادهم وأرضهم، وكان الجيش الألماني للسامس بقيادة للمارشال فردريك باولس ومعه ٣٠٠ ألف جندي قد حطموا المدينة، إلا ان الهجمات الروسية المضادة استمرت خمسة أشهر قضت على انتصارات الألمان، وفي الحادي والثلاثين من يناير/ كانون الثاني ١٩٤٣ أسر للقائد الألماني باولس، وكُسر جيشه، واستسلم أكثر من تسعين ألف ألماني، وانتهت أعظم معركة تاريخية، وكانت نقطة تحول أساسية في مجرى الحرب لصالح الحلفاء.

وكانت بداية عام ١٩٤٣ نقطة تحول خطيرة، فقد سجل للجيش الأحمر أعظم لانتصاراته، وحرر المدن الواحدة تلو الأخرى، وانسحب الألمان من القوقاز، وزداد حماس الشعب السوفيتي في القتال والدفاع من خندق إلى آخر، وكان للنهر في ستالينجراد أثره للبالغ في مكانة متالين الشعبية، وأصبح باسم المجلس الأعلى للدفاع (مارشال) للبلاد، ثم جاء زوكوف بطل معركة موسكو الذي أنقذ المدينة من الألمان.

أما في شمال أفريقيا، فالوقت الذي انقلب موزين للقوى في الشرق الأقصى بانتصار الأمريكيين في معارك المحيط الهادي وتكبيد اليابانيين الخسائر الجسيمة فإن هذا الوقت - مهماً على جبهة شمال أفريقيا وأوروبا.

كان رومل للقائد الألماني قد حقق انتصارات كامحة في شمال أفريقيا، حيث بدأ عملياته ضد للقوات البريطانية في تلك للمنطقة منذ وصوله في أبريل/ نيسان ١٩٤١، وطارد تلك للقوات حتى الأراضي المصرية، وعزل طبرق بما فيها من قوات استرالية، إلا ان رومل رغم ذلك كان مستاء من هتلر؛ لانه لم يحقق له ما أراده من الإمدادات والمعدات والتأمين؛ لكي يتم نجاح للحملة بدخول مصر نفسها، وكانت خطته ترمي إلى للتقدم نحو للبصرة في العراق لقطع أية إمدادات أمريكية تصل إلى الروس عبر الخليج العربي.

إلا ان هتلر كان منشغلاً بحملته على الاتحاد السوفيتي، ولم يستطيع توفير

امدادات إلى رومل، وكان هذا لصالح الحلفاء على جبهة شمال أفريقيا ونجاحهم في
دحر رومل والطليلان عن أفريقيا، فقد تقرر ان تقوم الولايات المتحدة وبريطانيا بعمل
مشترك في أفريقيا لغزو المناطق الفرنسية في شمال أفريقيا، وعيّن الجنرال ازنهور
لقيادة العمليات الحربية، والجنرال إلكسندر قائد لمنطقة الشرق الاوسط والجنرال
مونتغمري لقيادة الجيش الثامن.

وكان الجيش الثامن بقيادة الجنرال لوكنالك قد نجح في ديسمبر/ كانون الأول
١٩٤١ في القيام بعمليات حربية مضادة رد بها رومل وقواته نحو الغرب، وحرر
طبرق رغم شراسه وعبقريه رومل والمقاومة الشديدة التي أبداهما، ولم يستسلم، وقام في
ربيع عام ١٩٤٢ بعملية اكتساح نحو الحدود المصرية في مايو/ أيار ١٩٤٢ بعد ان
لجأ سبيدي براني ومرسي مطروح، ووصل إلى العلمين على بعد ستين كم من
الإسكندرية.

إلا ان هذا النجاح الكبير كلفه الكثير مع توقف الإمدادات الألمانية عن شمال
أفريقيا، وكان سلاح الجو البريطاني قد أنهكت دباباته على طول الطريق من القصف
والتعطيل، ولم يؤد طلبه المستمر بالإمدادات من هتلر إلى أية فائدة، ولم تكن سوى
وعود لم تتحقق.

وهنا استعد الجيش الثامن، وبدأ مونتغمري في مساء الثالث والعشرين من
أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٢ في اختراق الدفاعات الألمانية، وأحبط للهجمات المضادة
التي قام بها رومل، ودخل طبرق في الثاني عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني، وبعد
ثلاثة أسابيع ارتد رومل بسرعة، وتوقف الجيش الثامن قليلاً عند بنغازي في ليبيا ليعيد
ترتيب أوضاعه، وبعدها لكتفح قوات رومل وسقطت العجيلة، وفي مطلع عام ١٩٤٣
دخل الإنكليز طرابلس، وتقهقر رومل إلى الغرب ما وراء الحدود التونسية، تاركاً ليبيا
تحت قبضة القوات البريطانية.

وكانت للقوات الأمريكية - البريطانية على متن الأساطيل تنزل في الثامن من
نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٢ بقرب الدار البيضاء وهران والجزائر العاصمة،
وسقطت بسرعة دون مقاومة تذكر.

وفي الرابع والعشرين من يناير/ كانون الثاني ١٩٤٣ دعا روزفلت في الدار البيضاء دول المحور للتسليم دون قيد أو شرط، واجتمع هناك مع تشرشل لاستعراض الموقف العسكري وجبهات القتال، والاتفاق على استمرار المعارك على كافة الصعد البحرية والجوية والبرية، في الوقت الذي دعا هتلر قواته في جبهة شمال أفريقيا للقتال وعدم الاستسلام.

أما على جبهات الشرق الأقصى، فكان الحلفاء يسعون إلى تحقيق الانتصارات أسوة بالجبهات الأخرى، وكانت الخطوة الأساس هي تحرير الصين والفلبين والمناطق الأخرى التي احتلها اليابانيون، وكان السوفييت يحثون حلفاءهم على فتح جبهة جديدة بقصد مشاغلة الألمان، إلا أن الإنكليز والأمريكان كانوا حريصين على تعزيز الموقف السوفيتي في مواجهة الألمان.

كانت بولندا من أكثر الدول التي عانت من الحرب في أوروبا، فقد طرد السوفييت من المنطقة البولندية التي سيطروا عليها في يونيو/ حزيران ١٩٤١ حوالي مليون ونصف المليون نسمة من البولنديين، ونفّوهم إلى سيبيريا في مناطق العمل، وانتزع الألمان أيضاً مثل هذا العدد من البولنديين في المناطق التي احتلوها، وأرسلوهم إلى ألمانيا للعمل في السخرة، أما ما تبقى من السكان في بولندا فكانوا يعاملون كعبيد للاحتلال الألماني، حيث صودرت أراضيهم وأموالهم، وقُتل عدد كبير منهم في معسكرات الاعتقال والمجاعة، وصل هذا العدد إلى أكثر من مئة ملايين بولندي، إلا أن البولنديين وعلى الرغم من كل ما عانوه فإنهم لم يستسلموا، وظهرت حركات مقاومة ضد الاحتلال تلقت تعليمات من الحكومة البولندية.

وإلى التقارب السوفيتي - البريطاني إلى جعل البولنديين يعدون الاتحاد السوفيتي مع الحلفاء الغربيين ضد المحور، وبدأوا في ربيع عام ١٩٤٢ يقاتلون ضد الألمان، وأصبح جومالكا زعيم المقاومة المسلحة وهو شيوعي، ولكنه ليس صنيعة للسوفيت، بل كان مستقلاً ووطنياً خالصاً.

لما تمسك بولندا التي تعرض شعبها للبطش النازي، فلم تتوقف عن المقاومة والكفاح ضد الاحتلال رغم الظلم والقسوة والعنف، وخاصة بعد مقتل الحاكم النازي

رينهارت هيدريش في مايو/ أيار ١٩٤٢، وكان هذا الحادث قد ألهب مشاعر الشعب
بئر حملة للمجازر النازية ضدهم.

لما في يوغسلافيا، فقد شكّل الألمان فيها حكومة عميلة في كرواتيا وصربيا،
ورغم ذلك قاومت عدة جماعات للوجود والاحتلال النازي، وأهمها اليوغسلاف
الشيوعيون أكبر القوى اليوغسلافية للمقاومة تحت زعامة القيادي جوزيف بروسيتي
(الرئيس اليوغسلافي فيما بعد)، الذي كانت له صلات مع الاتحاد السوفيتي، إلا أن
المقاومة اليوغسلافية كانت مجزأة وغير موحدة من صرب وكروات.

أما في فرنسا الخاضعة للاحتلال النازي، فحاول الألمان تخفيف الضغط على
الفرنسيين، ورغم أن نفقات الاحتلال كانت تكلف الفرنسيين أكثر من نصف نفقات
الاحتلال الألماني لأوروبا، واستطاع لافات أن يسلم الألمان الذين كانوا يطالبون
بتسخير العمال الفرنسيين في العمل بدلاً من الألمان الذين يجندون في جبهات القتال،
ولا سيما بعد منتصف عام ١٩٤١ لتعويض الخسائر في جيوشهم، وقد استغل
الشيوعيون الفرنسيون تلك الفرصة لتقوية المقاومة بضم العمال الساخطين إلى
حركتهم، وكونوا (الجبهة الوطنية) من فئات وطنية يمينية ويسارية، ولكن ديفول كان
حريصاً على منع هذه الجبهة من السيطرة على المقاومة الفرنسية حتى لا تسيطر على
البلاد بعد الحرب، ونجح في عام ١ٹ٤٢ في أن يضم جماعات المقاومة تحت سيطرة
المجلس الوطني لحركات المقاومة الموحد.

وبدأت المقاومة الفرنسية في الدخول تعمل ضد الاحتلال وضد العملاء
الفرنسيين الذين يتعاونون مع النازيين، وقد بيتان ولافال ثقة للفرنسيين عندما أدخلوا
في الحكومة وزراء عملاء للألمان في مطلع عام ١٩٤٤، وكان ديفول رئيساً آنذاك
للجنة التحرير الوطني في الجزائر، ويتحدث باسم الفرنسيين الذين يعارضون حكومة
فيش في الداخل والخارج.

أما في الاتحاد السوفيتي، فقد ظهرت حركة مقاومة ضد الألمان، وبدأت في
أوكرانيا عند عمل الألمان على جمع الناس للعمل في السخرة لمصالحهم الخاصة،
واضمت المقاومة منذ عام ١٩٤٢ عندما دعا ستالين للناس الخاضعين للاحتلال الألماني

إلى بدء حرب عصابات مسلحة، وتكونت جماعات فدائية بين ١٩٤٢-١٩٤٣، وشكلوا تهديداً مستمراً للقوات الألمانية الكبيرة داخل الأراضي السوفيتية.

ثم ان هناك من الروس من كان يعارض ستالين نفسه، ولكن سياسة البطش التي اتبعتها الألمان وحدث للشعب الروسي، وقد لقي أربعة ملايين روسي حتفهم على أيدي الألمان، وحوالي خمسة ملايين بسبب مذبح مروعة لثناء الاحتلال، وبسبب السياسة الصناعية والزراعية للألمان التي أضرت بالروس، وشكلت كلها حركات مقاومة شعبية ضدهم.

لما في الشرق الأقصى لقد حاول اليابانيون إقامة حكم ديكتاتوري لهم في جنوب شرقي آسيا، واكتشف السكان ان اليابانيين جاءوا من أجل مصالحهم الخاصة، ولأن ذلك المقاومة ضد اليابان وحرب العصابات بين السكان والمستعمرين الجدد، وتزعّم الشيوعيون هذه الحركات؛ لأنهم كرهوا للتعامل مع اليابانيين وأطماعهم في آسيا، واعتنق أفكارهم العديد من السكان بسبب البطش الياباني وسوء المعاملة.

في الهند الصينية (فيتنام) أسس للزعيم هو شي منه، وهو شيوعي قديم حركة فيتنامية للمقاومة، بقودها عدد من الزعماء الشيوعيين، ومعظمهم من الشيوعيين الصينيين، وظهرت حركات مقاومة أخرى في الفلبين وبورما، وإندونيسيا بزعامة أحمد سوكارنو، وكلها تسعى لضرب الوجود الياباني وإنهاء للسياسة الاستعمارية لليابانيين في آسيا^(١٠).

تاسعاً: الحلفاء يهاجمون إيطاليا وألمانيا

كان البريطانيون بقيادة مونتغمري قائد للجيش الثامن قد هزموا الألمان في معركة (العلمين) الشهيرة، وتابعوا سيرهم إلى طرابلس، وفي نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٢ نزلت ثلاث فرق مشتركة أمريكية - بريطانية في مدن مغربية سبق ان ذكرناها، وكانت جيوش المحور في معقلها الأخير في تونس.

وفي مارس/ آذار ١٩٤٣ بدأ ايزنهاور الهجوم من الغرب، وقوات مونتغمري من الشرق، وقاتل الألمان باستماتة في الدفاع، إلا ان الجيوش الحليفة تغلبت عليهم، واستسلم حوالي ١٦٠ ألفاً من الإيطاليين والألمان كأسرى حرب.

كانت جزيرة صقلية هي الخطوة التالية للحلفاء، ورأى تشرشل وروزفلت أن تطهير البحر المتوسط من المحور له أهمية في خطط الحرب، وتقرر إنشاء لجنائهما في الدار البيضاء احتلال صقلية الإيطالية، وفتح جبهة إيطاليا قبل جبهة فرنسا، وانطلاقاً من صقلية، وبدأ الهجوم على الأخيرة في العاشر من يوليو/ تموز ١٩٤٣، وشارك في الإنزال الأمريكي - البريطاني أكثر من ١٦٠ ألف جندي جواً وبحراً، وتدفقت القوات نحو الداخل بعد قتال عنيف، مع تدهور الحالة المعنوية للجنود الإيطاليين، وكان موسوليني من الناحية الواقعية قد انتهى بعده الزعيم والقائد بعد الخسائر التي منيت بها إيطاليا، وسقطت بالرمو عاصمة صقلية، واشتد السخط في صفوف النخبة للمدنية والعسكرية الإيطالية، وطالبوا الملك أن يضع حداً لموسوليني، واستجاب لهم الملك، وعين بدلاً منه المارشال بادوجليو، وكان همه الأول إقناع إيطاليا من الحرب بأقل الخسائر الممكنة، واستعادة السلم والامن للشعب الإيطالي.

إلا أن تحية موسوليني لم تنقذ إيطاليا، لأن الحلفاء كانوا يريدون استسلام إيطاليا دون قيد أو شرط قبل أن يوقعوا الهدنة مع الحكومة الجديدة، وحاول بادوجليو أن يضع شروطاً للتسليم، وأن يفتح الألمان بذلك، ولكنه فشل، واضطر في النهاية إلى التسليم للحلفاء، ونفع هذا هتتر إلى إرسال قواته عبر ممر برنزا ليمنع إيطاليا من خيانتها.

في الثاني من سبتمبر/ أيلول انزل البريطانيون قواتهم في كالابريا جنوب إيطاليا، وهاجم الأمريكيون سالرنو جنوب نابولي، وأعلنت الهدنة، إلا أن الألمان اندفعوا نحو روما، واستولوا عليها، وهرب الملك وبادوجليو، واحتل الألمان شمال ووسط إيطاليا، في حين سيطر الحلفاء على جنوب إيطاليا.

وظلت إيطاليا لعام ونصف منقسمة إلى قسمين، واستطاع الألمان خطف موسوليني من سجنه في الثاني عشر من سبتمبر/ أيلول ١٩٤٣، ووضعوه على رأس حكومة ضعيفة تابعة للألمان أنفسهم، ولم تلق تلك الحكومة إلا لحتقار الشعب الإيطالي، وانتشرت المقاومة ضد الألمان وموسوليني.

وأجبر للوجود الأجنبي للحلفاء في إيطاليا أن يبقى هنتر نحو (٢٥) فرقة ألمانية كانت الجبهة للروسية بأشد الحاجة لهم، ورغم بطء التقدم للحلفاء نحو الشمال، والخسائر التي تعرضوا لها، فقد استطاعوا دخول روما في الرابع من يونيو/ حزيران ١٩٤٤، وتنازل الملك فيكتور عمانوئيل لابنه امبرتو لإنقاذ العرش والأسرة المالكة التي تعاونت عبره مع الفاشية، وسقطت حكومة بادوجيلو، وتولى ليفانو بونومي الوزارة الجديدة على أساس مناهضة للفاشية وإقامة حكم ديمقراطي، ثم دخل الحلفاء فلورنسا بعد شهرين، وتأسس جيش إيطالي جديد يقاوم مع الإنكليز والأمريكيين والفرنسيين لتحرير إيطاليا من الفاشية والنازية.

٢- فرنسا:

كان تحرير إيطاليا على طريق تحرير الدول الأوروبية من الاحتلال الألماني، وتلى ذلك إنزال القوات المتحالفة على أرض نورمانديا في جنوب فرنسا، واحتشدت في جنوب إنكلترا العديد من القوات، وبتسيق من أيزنهاور مع عمليات يقوم بها الروس، وتم مرافقة الهجوم في الصيف بهجوم الجيش الأحمر في الاتحاد السوفيتي، وعلى الجبهتين، واستكملت الاستعدادات العسكرية بنحو مليون ونصف المليون جندي وأساطيل بحرية وجوية، وبدأ نزول القوات في السادس من يونيو/ حزيران، ولم تكن العملية سهلة مع وجود للمقاومة الألمانية، واعتقد رومل أن طريق الغزو هو عبر كاليه للقريبة من الساحل الإنكليزي، فوضع قواته هناك حتى داهمته الحملة من داخل النورمندي، وعندما حاول تحريك القوات ضد أعدائه كان الوقت قد فات، ودارت معارك ضارية قبل أن ينجح الحلفاء في الاستيلاء على (كان)، وانهزم الألمان عنها بعد دفاع شديد حولها.

وتقدم الحلفاء إلى شربورج، واستسلم الجنود الألمان لول الأمر، ولكن الأوامر صدرت لهم بالقتال حتى الموت، وأخيراً دخلت للدبابات للحليفة شربورج، وأسر العديد من الجنود، وفي الخامس عشر من أغسطس/ آب جرت حملة أخرى على ساحل الريفيرا من ثلاث فرق أمريكية، وسبع فرق فرنسية، وهدفها إنهاء تحرير فرنسا، والقضاء على الألمان في الجنوب، والاتصال مع جيوش الحلفاء عند اللورمندي.

واستمرت القوت في هجومها السريع لدخل البلاد، واحتلت مدن في الشمال، واصبحت على مقربة من باريس ولحاطت بها، وعندها اشتعلت الثورة في داخل باريس والمدن الفرنسية، وحمل الفرنسيون السلاح ضد الألمان، وجرى حرب شوارع لعدة أيام، رغم المقاومة الألمانية في غرب نهر السين ضد الحلفاء، وفي الخامس والعشرين من أغسطس/ آب ١٩٤٤ سلمت الحامية الألمانية في باريس، ودخل ديغول لتسلم السلطة، واعترفت واشنطن ولندن بحكومته، ونال ثقة الشعب الفرنسي.

وفي هذه الأثناء، أصبح هتلر يواجه الحلفاء على أربع جبهات، قوات الحلفاء بقيادة ايزنهاور تزحف شمالاً لتحرير بلجيكا وهولندا ولكسمبورغ وألمانيا نفسها، وقوات الجنرال ويلسن تزحف نحو الشمال للاتصال مع ايزنهاور، والجيش السوفيتية التي حررت روسيا تحاول تخليص البلاد المجاورة من الاحتلال النازي، ودخلت بولندا ورومانيا وبلغاريا ويوغسلافيا، واخيراً القوت الجوية التي تهاجم ألمانيا وتصفها بشدة وعنف.

٣- ألمانيا:

هكذا تجسدت الهزيمة أمام الألمان، ورغم ذلك رفض هتلر ان يعترف بها، على الرغم من نجاح الحلفاء حتى نهاية عام ١٩٤٤ من طرد للقوات الألمانية من بلجيكا وهولندا ولكسمبرغ وفنلندا وروخيا ولاتفيا ولختونيا ورومانيا وبلغاريا واليونان ويوغسلافيا وبولندا والباثيا ومعظم الأراضي الفرنسية وإيطاليا وليتوانيا.

وكانت المدن وخطوط المواصلات والعمليات العسكرية تتعرض في كل وقت للقصف الجوي من الحلفاء، ولم يبقَ من القادة الألمان سوى للبرت سبير الذي أراد إعادة الجبهة الاقتصادية، وتسخير موارد البلاد لخدمة الحرب، ورئيس للجوستانو (الامن المرمي) هملر الذي طارد أعداء النازية في الداخل بقسوة، ورجل الإعلام جوزيف جيبيلز صاحب الدعاية النازية في ان النصر سيكون لألمانيا رغم كل الهزائم التي لحقت بها.

أكد للألمان ان حملة الحلفاء التي نزلت في فرنسا حسب الدعاية الألمانية سوف تتدحر وتقتل، ولما نجح الحلفاء في حملة النورماندي تجلى للألمان عدم صحة

للدعاية الألمانية، وتصدى بعض المعارضين لمحاولة قتل هتلر ومعاونيه، ووضعوا قنبلة في معقله، ولكن هتلر نجا بأعجوبة، بينما قتل من حوله، واستمر أكثر تصميمًا على القتال والانتقام من معارضيه وأعدم عددًا كبيراً منهم ممن لُصق به.

وكان من ضمن هؤلاء ثعلب الصحراء رومل وعدد من كبار الضباط، وتأكد لكل خصوم هتلر أن فشل المحاولة بقتله تعني أنه لن يستسلم حتى يقتل في الحرب أو تنهزم ألمانيا بشكل كامل.

٤- بولندا ورومانيا:

كان الجيش الأحمر قد بدأ الهجوم في صيف ١٩٤٤ بعد أن حرر القرم ولوكرانيا، وبدأ للتقدم على جبهة طولها ٨٠٠ ميل، ووصل إلى حدود بروسيا الشرقية، واخترق الحدود البولندية وحتى مشارف وارشو.

حاول البولنديون الدفاع عن بلادهم، وبدلوا قتال الألمان في شوارع وارشو، وعبرَ الروس نهر القستولا، ولم يساعدوا المقاتلين البولنديين الذين كانوا يقاتلون الألمان، وحاول تشرشل وروزفلت أن يحضوا ستالين على تقديم الدعم للمقاتلين البولنديين، إلا أنه لم يستجب لهم، وسقط معظم البولنديين في مواجهة الألمان.

ويبدو أن جعة ستالين كانت أن البولنديين اخطأوا التوقيت في إعلان الثورة ضد الألمان قبل أن يستكمل الجيش الأحمر استعداداته للتقدم ومساعدتهم، ولكن يرى المؤرخون أن ستالين كانت له أهداف أخرى حقيقية، فإنه كان يفضل ترك البولنديين يلاقون الموت على يد الألمان، وأن لا تقوم الحركة الوطنية عندهم بتحرير البلاد، وأن تنتهي على يد الألمان لكي يأمن شرهم فيما بعد.

وعندما حان الوقت المناسب للروس، عبر الجيش الأحمر الحدود البولندية لولخز يوليو/ تموز، وعمد ستالين إلى إقامة حكومة بولندية في (لوبلن)، وإلى جانبها لجنة للتحرير الوطني التي يسيطر عليها شيوعيون بولنديون، ولما دخل الروس وارشو أصبح هؤلاء لهم الفرصة في السلطة بعد انتهاء حركات المقاومة العفائية الأخرى على يد الألمان من قبل.

وفي صيف عام ١٩٤٤ تقدم الروس نحو مدخل الدانوب عند رومانيا، واقدم

للملك ميشيل على أخذ زمام الأمور بيديه، وفتح للباب أمام الروس ولرئد الألمان عن البلقان، ودخل البلغار إلى جانب الروس، وبدأ الألمان بالجلء عن اليونان، واسرع البريطانيون إلى هناك، واقنعوا للمقاومة فيها بقبول عودة حكومة المنفى وتقلد زمام السلطة.

أما يوغسلافيا فقد ضاعف تيتو من هجماته على القوات الألمانية المنسحبة، وتقدم إلى الجبال والسهول في صربيا، وتمكن في أكتوبر/ تشرين الأول من دخول بلغراد منتصراً، وقضى تيتو على الصرب من انصار النازية والكروات، واستخدم العون السوفيتي في أواخر حرب التحرير، ولكنه ظل على حزمه في موقفه المخالف للسوفيت على طول الخط.

أما في هنغاريا فلم تكن مهمة السوفيت سهلة، ولقوا مقاومة شديدة من الألمان حتى نهاية الشتاء، وعالت القوات الروسية لاكتساح بولندا نهائياً، وأصبح لساليين ما أراد، وهو السيطرة السوفيتية على البلقان.

في هذا الوقت تبين لسترنل خطورة التفوق السوفيتي في البلقان، وسعى للقاء ساليين في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٤، وطلب إليه التوصل لاتفاق بينهما على توزيع مناطق النفوذ بين بريطانيا والاتحاد السوفيتي في منطقة البلقان.

وتم تقسيم النفوذ بينهما على أساس مقترح تشرشل الذي وافق عليه ساليين، وهو أن يكون للاتحاد السوفيتي حصص كبيرة في رومانيا وبلغاريا، ويكون لبريطانيا حصص في اليونان، أما هنغاريا ويوغسلافيا فيكون للتوزيع فيها مناصفة بين اللبلدين.

وفي الواقع لقي هذا الاتفاق انتقاداً من واشنطن التي كانت نصر على عدم عقد للصفاة أثناء الحرب، وتجاهل الطرفان البريطاني والسوفيتي مصالح الدول نفسها، مثل بولندا واليونان التي لن تستقر على أساس تقسيمات للطرفين في هذا الاتفاق^(١).

عاشراً: نهاية الحرب

كانت معظم قوات الحلفاء ترتبط على الحدود الفرنسية - الألمانية، وانقسمت قوات ليزنهاور إلى ثلاث مجموعات في الشمال الغربي، وجيش مونتغمري المؤلف من بريطانيين وكنديين، وفي الوسط ثلاثة جيوش أمريكية تحت قيادة الجنرال برانلي، وفي

الجنوب والشرق جيشان، أحدهما أمريكي تحت قيادة للجنرال باتش، والثاني جيش فرنسي يقوده الضابط دي لائر تاسيني، وهكذا كانت للقوات الأمريكية تمثل الأغلبية في مهاجمة للقوات الألمانية، إذ كان عددها يصل إلى نصف القوات للمهاجمة، أما النصف الآخر فيكون من إنكليز وفرنسيين.

حاول الحلفاء في السابع عشر من سبتمبر/ أيلول ١٩٤٤ تحطيم خط للدفاع الألماني، وانزال المظلات وراء نهر الراين في القمشل، ولكنها محاولة فشلت، وقام ليزنهاور بمحاولة أخرى في منتصف ديسمبر/ كانون الأول لتقويض الدفاعات الغربية، ولكنه لم يستطع تحقيق أهدافه، وفي هذه الاثناء قام القائد الألماني رونشتد بالتغلغل في الخطوط للحليفة بطول (٦٠) ميلاً، والاستيلاء على قاعدة بحرية في لنتورب، وبدأ الهجوم في غابات الأردنس، وهي المنطقة التي استطاع منها الألمان تحطيم خطوط الدفاع للفرنسية.

ونجح في بداية الأمر في تحطيم الصفوف الأمريكية التي تراجعت إلى بلجيكا ولكسمبورغ، واستدعى ليزنهاور قوات احتياطية من الجنوب، وإلى أن وصل الأسبوع الثالث من يناير/ كانون الثاني ١٩٤٥ حتى تشكلت القوات الأمريكية لوقف الهجوم الألماني، وكانت معارك عنيفة وضارية بين الطرفين، وبدأت صعوبة تحقيق النصر السريع والحاسم على الألمان في هذه الجبهة، في حين كان الجيش الأحمر الروسي يقوم بالهجوم على بولندا، ويستولي على عاصمتها وارشو مطلع عام ١٩٤٥، ويتقدم ٣٠٠ ميل داخل الأراضي الألمانية، ولحتل بروسيا الشرقية وسيليزيا العليا، وهرب أمامه الألمان، واستمر في التغلغل في الأراضي الألمانية إلى أن وصل إلى نهر الأودر على بعد (٤٠) ميلاً من برلين العاصمة.

والتقى الثلاثة الكبار في الرابع من فبراير/ شباط ١٩٤٥ للمرة الثانية في (بالطا) في شبه جزيرة القرم، وهم روزفلت وتشرشل وستالين، وخيم على اللقاء للمرارة من قبل تشرشل وروزفلت للنجاح للروسي ضد الألمان، في حين لهم لم يستطيعوا تحقيق شيء على الجبهة الغربية.

وبعد أشهر من انتهاء مؤتمر بالطا بدأ عهد جديد بهزيمة لألمانيا وانتصار

الحلفاء عليها، وبدأ الهجوم في الثالث والعشرين من فبراير/ شباط ١٩٤٥ نحو الراين، وانتشرت جيوش الحلفاء لاحتلال المناطق الصناعية الغنية والمدن المهمة على الراين، وتقدمت قوات ليزنهاور، ثم تبعها القوات البريطانية التي توجهت شمالاً نحو الحدود الدانمركية وبحر البلطيق تحت قيادة مونتغمري، والقوات الفرنسية التي توجهت نحو الجنوب الشرقي للاستيلاء على شتوتغرات، وتمكنت القوات الأمريكية من تحطيم القوات الألمانية المقاومة في الردهر، ووقع في الأسر ربع مليون جندي ألماني، وتحرك الأمريكيون لبشطروا ألمانيا إلى شطرين، وفي الحادي عشر من إبريل/ نيسان وصلوا نهر الألب على مشارف برلين.

وبدأت في هذه الأثناء مرحلة الهجوم الأخيرة على شمال إيطاليا، واختبرّت القوات الحليفة للدفاعات الألمانية في الجبال، ثم توجهت نحو السهول الإيطالية الشمالية، ورغم مقاومة الطليان الوطنيين ضد الحكم الفاشي فقد لعبت دوراً في تسهيل الاندفاع من قبل الحلفاء، وفي أبريل/ نيسان تحررت كل إيطاليا، ولقي الألمان أسلحتهم، وهرب موسوليني إلى الحدود السويسرية، إلا أن وحدة إيطالية من وحدات المقاومة المناهضة للفاشية اكتشفت شخصيته قرب بحيرة (كومو)، وقبضت عليه، واعدمته بالرصاص في الثامن والعشرين من إبريل/ نيسان ١٩٤٥.

لما في الشرق فقد وجه للجيش الأحمر هجوماً جديداً نحو الجنوب، ونجح القائد الروسي مالبولوفسكي في كسب معركة (بودابست) عندما توقفت المقاومة الألمانية في هنغاريا، وأصبح الطريق ممهداً نحو فينا التي سقطت بأيدي السوفييت.

وكان القائد الروسي زوكوف يستعد للهجوم على برلين، بينما كان هتلر يسعى لحماية المدينة مع جنوده، وعدم الاستسلام نهائياً، هذا مع الغارات الجوية العنيفة مع الحلفاء بين (١٩٤٣-١٩٤٥)، وأصبحت مدينة أشباح وركام وخراب، وقد عبر الأمريكيون نهر الراين على مقربة من برلين، والقوات السوفييتية عند نهر الأودر، وتنتظر برلين في هذه الأثناء مصيرها، وفي الثاني عشر من إبريل/ نيسان مات الرئيس روزفلت، وبعد أربع أيام بدأ القائد الروسي زوكوف بالهجوم على برلين من الجبهة الشرقية، وبعد أيام أحيطت المدينة من كل الجوانب، ودخلت الدبابات السوفييتية

قلب برلين، وأدرك هتلر ان النهاية قد حانت، ولم يبق معه سوى وزير للدعاية جوزيف جوبلز وصديقه ايفا براندن التي عقد قرانه عليها قبل ساعات من نهايته، وفتح معها في مخبأ داخل المستشارية، وأحرقت جثته في الثلاثين من أبريل/ نيسان ١٩٤٥، وفتح جوبلز.

وكان هتلر قد عين قبل ذلك الاميرال دونيتر خليفة من بعده، فوجد الأخير أنه لا بد من الاتصال مع الحلفاء للاستسلام، وتم ذلك في السابع من مايو/ أيار ١٩٤٥ دون قيد أو شرط في مقر قيادة ايزنهاور أمام السوفييت والأمريكيين والبريطانيين، ثم أصر السوفييت على ان تجري مراسم الاستسلام في برلين في مقر للقيادة السوفيتية. وهكذا سقط الرايخ الثالث بهزيمة قاسية، وانتهت الحرب الضارية، بعد ان خلفت (٥٠) مليون نسمة، وأكثر من (٨٠) مليون جريح ومفقود وخسر العالم (١٣٨٤) مليون دولار، ولقيت (٥٩) دولة في العالم أثراً من هذه الحرب مباشرة أو بصورة غير مباشرة.

معركة اليابان:

بعد العدوان الجوي الياباني على بيرل هاربر، اندفع اليابانيون بكل قوتهم يهاجمون في المحيط، وبين (١٩٤١-١٩٤٢) هاجموا القواعد البحرية الغربية، وسقطت ماليزيا وبورما وتيمور وجاوه، وأصبحت استراليا والهند والصين مهددة بالغزو، ولكن قوات التحالف قضت في مايو/ أيار ١٩٤٢ على آمال اليابانيين في غزو استراليا بعد انتصارهم في معركة بحر كودال، وبعد شهر انهزموا في جزيرة ميداوي، وبعدها انتصر الصينيون على الجيش الياباني في إقليم كنجستن.

واستطاعت اليابان في مدة قصيرة ان تحكم إمبراطورية برقع سكان العالم، ولم يكن أمام الحلفاء من فرصة لترك لليابان تتمتع بهذه السيطرة، وفكروا بهجوم واسع بدون له العدة، وتم تحديد الهجوم في المحيط الهادي في السابع من أغسطس/ آب ١٩٤٢ عبر القوات البحرية الأمريكية التي استطاعت بسرعة ان تستولي على قواعد حيوية في غينيا الجديدة، وزال للخطر عن استراليا وعن الملاحة في بحر الكورال،

وخسر اليابانيون العديد من السفن في المنطقة والجنود والطائرات.

وتوقف الهجوم الأمريكي مع استكمال الاستعدادات للبحرية والجوية، مما يضمن لها التفوق في المحيط الهادي، ووضع الحلفاء خطة لطرد اليابانيين من المحيط الهادي، وتحول في عام ١٩٤٣ المد نحو المحيط الهادي، واستولت القوات الأمريكية على جزر جلبرت، وفي مطلع عام ١٩٤٤ هاجمت جزر مارشال، ودخلت كواجالين وماريانا، رغم الخسائر الأمريكية للفادحة، وفي أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٤ نزل الجنرال دوجلاس آرثر في جزيرة ليتي، وانحدر الأسطول اليابالي الذي حاول التدخل لمنع الأمريكيين من الوصول إلى الجزيرة.

ولأخذ سلاح الجو الأمريكي بثمن غارات على الجزر ماريانا وعلى اليابان نفسها، وانقسمت إلى قسمين، ولكن اليابانيين صمموا على المقاومة إلى النهاية، وتحطمت قوة اليابان للبحرية في عام ١٩٤٥ مع الحصار وقطع خطوط الملاحة عنها، وخسر اليابانيون قواعدهم العسكرية في المحيط الهادي، وقتل مئات الألوف من قواتهم، وخسروا في بورما خمسين ألف جندي، ومُنِعوا من الحصول على الإمدادات من جزر الهند وآسيا، أو إيصالها إلى قواتهم في الصين، وفقدت القوات اليابانية القدرة على السيطرة.

وقبل أن تستسلم ألمانيا في عام ١٩٤٥ قرر الحلفاء وضع خطة للقيام بعملية حربية ضد اليابان، وعلموا أنهم سيقاقلون حتى آخر رجل كما حصل في لويكناوا وسيبان، ولحق بالحلفاء من جرائها خسائر جسيمة، وإن هذا النوع من القتال والدفاع سيكلف الحلفاء الكثير من الوقت قد يمتد إلى سنتين أخريين، ولذلك كان على الحلفاء الاستعداد الكامل لنجاح عملية الغزو، وفكروا بتعبئة (٣٠٠٠) سفينة، ومليون مقاتل والآلاف من قاذفات القنابل.

إلا أن هزيمة واستسلام ألمانيا تبعها نعب والهاك اليابان وعدم قدرتها على القتال، مع نقص الإمدادات والتموين، وأدرك اليابانيون عدم قدرتهم على مجارة الحلفاء لا سيما بعد تسليم ألمانيا، وتفرغهم للمحيط الهادي، مع تهيز الاتحاد السوفيتي

لجبهة آسيا واليابان، وبدأ القادة اليابانيون يفكرون في الشروط التي يمكن أن تحقق لهم الاستسلام.

في هذا الوقت كان الرئيس الأمريكي هاري ترومان يشعر أن الحرب مع اليابان قد تطول وتكلف بلاده الشيء الكثير بشرياً ومادياً، ولذلك أمر باستخدام القنبلة الذرية، وفي السادس من أغسطس/ آب ألقت الطائرات الأمريكية أول قنبلة ذرية على هيروشيما، وأدت لكارثة بشرية، ودمرت ثلاثة أرباع المدينة، وقتلت أكثر من سبعين ألف شخص عدا الآلاف من المشوهين.

وبعد يومين أعلنت موسكو الحرب على اليابان، والتحمت منشوريا، وفي التاسع منه أُلقيت القنبلة الذرية الثانية على مدينة ناكازاكي اليابانية، وسقط آلاف الناس، وتضخ الحكومة اليابانية عدم جدوى للمقاومة، وقرر مجلس الوزراء في العاشر منه إعلان الاستسلام دون قيد أو شرط، وقعت الحكومة شروط الحلفاء في طوكيو في الرابع عشر منه على ظهر السفينة الأمريكية ميسوري في الثاني من سبتمبر/ أيلول ١٩٤٥، ونزلت القوات الأمريكية في الأراضي اليابانية واحتلتها.

وتم توقيع وثيقة الاستسلام من قبل اليابان أمام الحلفاء، تم فيها حل للجيش الياباني، وتقديم المسؤولين أمام محاكم جرائم الحرب، وحل القيادة العسكرية ووقف الصناعة العسكرية، ونجريد الإمبراطور هيروهيتو من سلطاته ومظاهر التقديس، وخضعت اليابان لحكومة معتلة جديدة، ومستور حديث ونمط من الحياة مغاير (٤٧).

خلاي عشر: ترتيبات ما بعد نهاية الحرب

انتهى الرايخ الألماني الثالث بسقوط هتلر عام ١٩٤٥ ونهاية الحرب العالمية الثانية في أوروبا، ونهاية الصراع العسكري أيضاً، ولحقت لألمانيا خسائر كبيرة بالمدن والمزارع، والمصانع، وكذلك الدول الأوروبية الأخرى، ولحقت خسائر في خطوط المواصلات والجسور والمدن الصناعية، وخلفت الحرب مشكلات اجتماعية كبيرة من مشردين وأسرى وعاطلين عن العمل لا بد أن يعودوا إلى المصانع والمعامل. وكذلك أحدثت الحرب تغيرات أساسية في الوضع الدولي، فنظام الحكومات

الأوروبية للقديم قد قضى عليه منذ الحرب العالمية الأولى وما تلاها في الثانية، ولانتهت فرنسا وبريطانيا كدولتين كبيرتين، وبسبب الضعف في النفوذ البريطاني في العالم، ولم يعد لبريطانيا القدرة على إدارة سياستها التقليدية التي تقوم على توازن القوى، وظهرت بدلاً عنها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي الدولتان للوحيدتان في رسم السياسة العالمية، والمتنافستان على السيطرة على العالم، وتم دخول مرحلة جديدة من النظم العسكرية والأسلحة الحديثة، وأحدثت ثورة في الأفكار القديمة في الجغرافيا العسكرية والصناعات العسكرية، وخاصة مع ظهور الأسلحة غير التقليدية والنووية خاصة، وانتعاش الروح القومية في آسيا وأفريقيا ومطالب تقرير المصير وإنهاء الاستعمار وتغيير الأوضاع السياسية والاقتصادية.

وقد وضع ساسة الدول الكبرى الثلاث (الولايات المتحدة، وبريطانيا، الاتحاد السوفيتي) قبيل نهاية الحرب سياسة مؤقتة للسلام، واجتمعوا في طهران في (الثامن والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني - الأول من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٣) لوضع للخطط التي تكفل سبل الانتصار في المعركة، وإنشاء منظمة دولية أممية قريباً، ثم عادوا واجتمعوا في فبراير/ شباط ١٩٤٥ في بالطا في للقرم، واتفقوا على أن الشعوب المحررة في أوروبا ينبغي أن تقيم لنفسها ديمقراطيات تختارها بإرادتها، وإعادة حقوق العميلة وحق تقرير المصير لهذه الشعوب الخاضعة لسنوات لألمانيا واليابان، إلا أن الواقع لم يؤكد هذه الخطوات، حيث أن الطرفين الأمريكي والسوفيتي انتفلا في إقامة تحالفات: الأول في غرب أوروبا، والثاني في شرقها، وقسمت ألمانيا بعد الاحتلال، ودفعت تعويضات كبيرة أجبرت عليها من قبل الحلفاء.

وفي المؤتمر الأخير في بوتسدام (١٧ يوليو - ٢ أغسطس ١٩٤٥) جدد فيه الحلفاء إقرار الشروط التي ستطبق على ألمانيا، وتجريدها من السلاح بصورة كاملة، وللغضاء على النزعة العسكرية فيها، وحل الحزب النازي وغيره من الأحزاب المشابهة له في ألمانيا، ومحاكمة مجرمي الحرب، وفرض تعويضات عسيرة عليها، وإنشاء مجلس لوزراء الخارجية تكون مهمته وضع معاهدات السلام، والتوصل لعقد

معاهدات السلام محدودة ومؤقتة.

معاهدات السلام:

لم يستطع الحلفاء أن يضعوا أسس حكم مستقرة في الدول التي كانت خاضعة لهتلر، وتحطمت للحكومات التي تعاونت مع النازية، ولم يعد هناك إلا قوات سوفيتية انتشرت في عواصم أوروبية.

وكانت الدول المنهزمة بحاجة إلى حكومات وساسة يسدون الفراغ الذي تجلى بعد الحرب، وكان الأمر بيد الحلفاء الذين كان هدفهم الأساس تكوين حكومات عسكرية تدبر البلاد التي انقسمت إلى مناطق احتلال سوفيتية وأمريكية وفرنسية وبريطانية، وكان من الصعوبة إقامة نظام حكم يصلح لهذه البلاد لو تلك في ظل ظروف صعبة، مع وجود حكام عسكريين وقادة شرطة وموظفي كمارك وغيرهم لهم مصالح مع الأنظمة السابقة، وكان المهم للسلطات المحتلة هو العمل على حفظ النظام ووضع الأسس لإعادة الحياة وتوفير الغذاء والطاقة والطرق والمياه وسكن للمشردين والمهاجرين، ونجح العسكريون إلى حد ما في إنجاز ذلك.

وقد تشكلت في عام ١٩٤٥ حكومات مؤقتة كانت أدوات بيد سلطات الاحتلال، تؤدي دور الوساطة بين السلطات المحتلة وشعوبهم التي تنتظر لهم نظرة بئسة كعملاء للمحتلين، ولكنهم كانوا - أي للحكام - غير قادرين على إدارة الأزمات بين السلطة والشعب، وفضل الحكام إطاعة السلطات على حساب الشعب من أجل بقائهم في مناصبهم والتمتع بامتيازاتهم.

وتأسست في مناطق الاحتلال السوفيتي حكومات شرعية في بلغاريا ويوغسلافيا، وحصلت على تأييد من الحكومة السوفيتية، أما الدول التي رفضت الشيوعية كالإيونان والنمسا فكانت تتطلع للدول الغربية الديمقراطية، وأصبحت مصائر الدول ومستقبلها بيد الدول الكبرى، مع الخلاف السياسي والأيديولوجي بين الاتجاهين للمشرقي السوفيتي والغربي الأمريكي البريطاني في رسم وتطبيق السياسة الخاصة بهم. وكان الأقطاب الثلاثة روزفلت وتشورشل وستالين قد تفاهموا خلال سنوات

الحرب عبر المؤتمرات التي عقدها على وضع أسس وقواعد عامة للسلام في العالم بعد نهاية الحرب.

وبعد وفاة روزفلت منتصف عام ١٩٤٥ جاء ترومان للرئاسة الأمريكية وكلمنت إيتلي زعيم حزب العمال بدلاً من تشرشل رئيساً للوزارة للبريطانية، ولكن رغم التغييرات إلا أن الخطط العامة والأهداف بقيت قائمة في واشنطن ولندن، وأعلن ترومان وإيتلي وستالين في الثاني من أغسطس/ آب ١٩٤٥ اتفاقهم على إنشاء مجلس لوزراء الخارجية يُعقد إليه مهمة وضع معاهدات للسلام، وبحضره وزراء خارجية الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفيتي وفرنسا والصين، إلا أن مندوبي الدول للثلاث هم أصحاب الحل والعقد دون سواهم.

وعقد أول اجتماع لمجلس وزراء الخارجية في لندن من (١١ سبتمبر - ٣ أكتوبر ١٩٤٥)، ولكنه كان فاشلاً لاختلاف الدول الثلاث، ثم عقد المؤتمر الثاني في موسكو مايو/ أيار ١٩٤٦، وبعد أسبوع منه أعلن المؤتمر عن الاتفاق على عقد مؤتمر للسلام، تمثل فيه ٢١ دولة، ووُضعت أسس حكم لعدد من الدول الآسيوية ورومانيا وبلغاريا، وانسحاب القوات من الصين، ووُضعت صيغ للمعاهدات الخاصة بالدول الأوروبية.

وتبعه اجتماع للوزراء الأربعة في باريس (٢٥ أبريل - ١٦ مايو ١٩٤٦)، ومثلت فرنسا في هذا الاجتماع، ونجحت الخلافات بين أعضاء المجلس بأجلى مظاهرها حول توزيع المستعمرات الإيطالية ومصير تريست وموقف الحلفاء تجاه حكومة فرانكو إسبانيا، وحرية الانتخابات في بلغاريا ورومانيا.

ومع اقتراب موعد عقد مؤتمر السلام في التاسع والعشرين من يوليو/ تموز بتمثيل (٢١) دولة جعل أعضاء وزراء الخارجية يحاولون للتوصل إلى اتفاق بينهم على وضع صيغ مبدئية للمعاهدات التي ستعرض في المؤتمر، وقد عرضت على مؤتمر السلام الذي مثلت به (استراليا، بلجيكا، البرازيل، كندا، الصين، تشيكوسلوفاكيا لثيوبيا، فرنسا، اليونان، الهند، هولندا، نيوزلندا، والنرويج، بولندا، أوكرانيا، الاتحاد

المصوفيتي، جنوب أفريقيا، بريطانيا، أمريكا، روسيا البيضاء، يوغسلافيا)، وعرض المؤتمر في الثلاثين من يوليو/ تموز التسويات التي وضعها مجلس الوزراء للخارجية لكل من إيطاليا وفنلندا وهنغاريا ورومانيا وبلغاريا، وهي تسويات مفروضة قبلتها الدول للضعفة.

بعد انتهاء مؤتمر باريس في الخامس عشر من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٦، لم تكن القرارات التي تمت نهائية، وظهر الخلاف واضحاً بين كتلتي الشرق والغرب، وظهر انقسام بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية، وبعد انتهاء المؤتمر أعيدت للمعاهدات الخمس إلى مجلس وزراء الخارجية، وتقرر أن يجتمع للمجلس في نيويورك في الرابع من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٦، وظلت الولايات المتحدة على موقفها من معارضة السياسة المصوفيتية، مما جعل الروس يقتنعون بأن الخير لهم في السعي إلى تخفيف التوتر والوصول إلى حل يرضي عنها حلفاءها الغربيين، ولكن ظلت الثقة في أزمة بين الكتلتين.

أما بالنسبة لألمانيا، فقد اهتم الحلفاء بمصيرها، وتوصلوا إلى اتفاق مؤقت في تقسيم ألمانيا، وتم ذلك في مؤتمر بالطا عام ١٩٤٥، وعندما انتهت الحرب نهائياً جاء الاتفاق مع عهد ترومان في بوتسدام، واتفقت الأطراف الثلاثة على أن تمتد الحدود الشرقية لألمانيا على طول الخط من نهرى الأودر والنيس، وتستولي روسيا على نصف بروميا الشرقية، وتستولي بولندا على دالتزج وسيليزيا العليا والسفلى وبراندنبرج الشرقية، ومعظم أراضي بوميرانيا والنصف الجنوبي من بروميا الشرقية، وتعاد أرض الموديت إلى تشيكوسلوفاكيا، أما في الغرب فقد أعيدت الألزاس واللورين إلى فرنسا والميدي ويوبن إلى بلجيكا.

واتجه الحلفاء إلى ألمانيا، حيث قسموها إلى أربع مناطق احتلال حسب الاحتلال الأجنبي، البريطانيون في الشمال، والأمريكيون في الجنوب، والمصوفييت في الشرق، والفرنسيون في الغرب، أما برلين فقد لتق الحلفاء على تقسيمها إلى أربع مناطق احتلال، إلا أن تقسيم ألمانيا إلى أربع مناطق احتلال لم يقع الحلفاء، وفضلوا

إقامة إدارة واحدة، وتم تقسيمها إلى غربية تسيطر عليها الدول الغربية، وشرقية خاضعة للسوفييت، لكن للروس لم يوافقوا على ذلك، خوفاً من غضب الألمان في الشرق لعدم معاملتهم مثل الألمان في الغرب على أساس الوحدة، ووافقوا على الاشتراك في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٦ في مناقشة المشروعات التي ترمي إلى إيجاد وحدة اقتصادية تشمل مناطق الاحتلال.

وكانت سياسة الحلفاء ترمي إلى نزع سلاح ألمانيا، وإشعار الألمان بسخط للعالم من النازية، وسياستها العسكرية، وإعادة بناء النظام السياسي والاقتصادي للرايخ الألماني، ومسألة التعويضات الألمانية، ثم محاكمة (٢٢) من زعماء النازية باسم مجرمي الحرب، أمام محكمة نورمبرغ عقدت جلساتها (١٩٤٥-١٩٤٦) حكم على (١٢) منهم بالإعدام، وعلى (٧) بالسجن، وأُفرج عن ثلاثة.

ومار كل قسم من ألمانيا في اتجاه خاص، تبعاً لعلاقة ألمانيا بالحلفاء للغربيين، وعلاقة ألمانيا الشرقية بالاتحاد السوفيتي، وانتُخب في سبتمبر/ أيلول ١٩٤٩ الدكتور تيودور هيس أول رئيس لجمهورية ألمانيا الاتحادية، وضمت نصف مساحة ألمانيا قبل الحرب، وثلاثة أرباع السكان، وبون عاصمة لها، وأُنتِى البرلمان الاتحادي بموجب دستور جديد وضع على أسس دستور فايمار.

يقضي الدستور الجديد بأن يكون رئيس الجمهورية محايداً في السياسة الوطنية، دون اتجاه حزبي، بل مراعاة للمصلحة العليا، وأصبح لا حق له في تحديد السياسة للدولة.

وتعمد واضعو الدستور الحد من سلطات الرئيس، كي لا يستغلها في منصبه وسلطاته، وأصبح للرئيس رمزاً للدولة، وعليه أن يصدق للمعاهدات والاتفاقيات للحكومية، والتشاور مع السياسة لإقامة الوزارة، وهو قائد الجيش، وله حق إعلان الحرب، وعقد الصلح، وحل البرلمان في دستور فايمار السابق، أما في الدستور الجديد فقد قُلَّ من سلطات الرئيس، فأصبح مجرد رمز للدولة، وتاركاً أعباء الحكم للوزارة

ورئيس الوزراء، أي المستشار المسؤول أمام البرلمان عن سياسته الداخلية والخارجية^(٤٨).

الفصل التاسع

هيئة الأمر المنهية

أولاً: أهداف ومبادئ الأمم المتحدة

كان فشل عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى - وخاصة للدول الكبرى، في مواجهة الأنظمة الشمولية النازية والفاشية - يتطلب إعادة النظر في طبيعة التنظيم الدولي في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية لتلافي العيوب التي ظهرت، واستغلال التجارب لبناء عالم أكثر عدلاً وطمناً واستقراراً، وقد عرفت هذه المنظمة أو التنظيم الجديد باسم الأمم المتحدة United Nations.

وكانت مشاورات قد جرت قبل هذه الفترة بين الدول الكبرى وفي تون الحرب العالمية الثانية خاصة بين واشنطن وموسكو ولندن وبكين حول شكل التنظيم الجديد لهذه المنظمة ومسؤولياتها وأهدافها ومبادئها.

وحدث ذلك في عدة مؤتمرات دولية عقدت في واشنطن في يناير/ كانون الثاني ١٩٤٢، ومؤتمر دومايتون لركس الذي عقد عام ١٩٤٤، ومؤتمر بالطا في عام ١٩٤٥، وأخيراً مؤتمر سان فرانسيسكو، والدول التي شاركت في المؤتمر الأخير هي التي أعلنت الحرب على ألمانيا واليابان قبل مارس/ آذار ١٩٤٢، ووقعت تصريح الأمم المتحدة الذي صدر في يناير/ كانون الثاني ١٩٤٢.

وانتهت المفاوضات التي جرت في هذا المؤتمر إلى الموافقة على ميثاق للمنظمة الدولية الجديدة في السادس والعشرين من يونيو/ حزيران ١٩٤٥، ودخل حيز التنفيذ في الرابع والعشرين من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٥.

تتولى ميثاق الأمم المتحدة شرح المبادئ والأهداف التي تقوم عليها المنظمة، وهي:

١ - حفظ الأمن والسلام:

يمثل هدف حفظ السلام والأمن الدوليين المسؤولية الأولى للمنظمة الدولية، وورد في الفقرة الأولى من المادة الأولى من الميثاق، وبعبارة الأسس التي يتم فيها ذلك من طرق وأساليب وأدوات، وفي مقدمتها اتخاذ التدابير المشتركة الفعالة لمنع ما يهدد السلام، وقمع أعمال العدوان وحل الخلافات والنزاعات الدولية بالوسائل السلمية؛ وفقاً لمبادئ الدول وللقانون الدولي.

وبين الميثاق الأولوية التي يجب أن يحظى بها هدف المحافظة على السلم

والأمن الدوليين على سواء من الأهداف، وهو نابع من الإدراك الكامل للدول التي شاركت في تصميم وبناء للمنظمة الدولية، وتحديد الإطار العام لها في علم ما بعد الحرب من أن تحقق الأهداف الأخرى، وخاصة ما يتعلق بها من دعم لمكانات للتعاون الدولي في مختلف مجالاته، وأنه مرهون بقدرة المنظمة على صيانة السلم والأمن الدوليين بشكل فعال.

٢- تنمية العلاقات الدولية بين الدول:

إن موضوع تنمية العلاقات الدولية بين الدول هدف حيوي من أهداف الأمم المتحدة حسب للفقرة الثانية من المادة الأولى من الميثاق، وأشارت الفقرة إلى الأسس التي يمكن أن تبنى عليها تنمية العلاقات الدولية بين الدول، ومنها أن تكون العلاقات قائمة على احترام المبدأ الذي يقضي بالنسوية في الحقوق بين الشعوب، وبأن يكون لكل منها حق تقرير المصير واتخاذ التدابير الأخرى الملائمة لتعزيز السلم العالمي.

وكان تبنى هذا الميثاق لحق احترام تقرير المصير يشير إلى تصور سياسي عام، مضمونه أن تجاهل مبدأ حق تقرير المصير، وممارسة بعض الدول للتسلط وللتحكم على دول أخرى ضد إرادتها وسيادتها ومصالحها، كان لا بد أن يقود إلى وضع من التوتر والصراع الدولي يعرقل عمل المنظمة الدولية في صيانة الأمن والسلم الدوليين واحترام حق تقرير المصير.

٣- تحقيق التعاون الدولي في القضايا الاقتصادية والإنسانية:

نص ميثاق الأمم المتحدة على أن من الأهداف الرئيسية للمنظمة الدولية تحقيق التعاون الدولي وحل المسائل العالقة ذات الصلة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإنسانية، واحترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للناس جميعاً بدون تمييز بالجنس أو اللغة أو الدين. وذلك لأن دعم التعاون بين الدول في المجالات الاقتصادية والاجتماعية يخلق الترابط في المصالح، ويهيئ الأسس الأفضل للتقارب والتعاون بين الدول، وهو يدعم لوضع السلام الدولي.

وإن التخلص من مظاهر التمييز العنصري أو الديني إنما يزيل مصدراً آخر من مصادر التوتر والنزاع أياً كان دافعه، ويزيد من فرص للتقارب والتفاهم بين الدول.

٤- الأمم المتحدة وتنسيق الاعمال بين الأعضاء من أجل الغايات المشتركة:

نصّت الفقرة الرابعة من المادة الاولى من الميثاق على جعل الأمم المتحدة للمحور الأساسي في التنسيق الضروري في اتجاهات الدول وتوجيهها بالشكل الذي يساعد على تحقيقها لمسؤولياتها في خدمة للمجتمع الدولي كله، وأقر الميثاق بالدور الهام الذي تؤديه الأمم المتحدة في التقريب بين سياسات الدول، كأداة لدعم العلم العالمي، بدلاً من أن تُترك هذه للسياسات بلا ضوابط حيث أن الافتقار لهذا الأمر كان من أبرز أسباب تعميق الخلافات والتناقضات في المجتمع الدولي، والدفع به إلى كوارث الحروب المحلية أو الإقليمية أو العالمية.

لما المبادئ التي حددها ميثاق الأمم المتحدة لتحكم علاقات الدول الأعضاء في للمنظمة الدولية، فهي:

أ- المساواة في السيادة بين الدول الأعضاء في الأمم المتحدة: اهتم الميثاق بالمساواة للقانونية، وليست للسياسية بين الدول الاعضاء في الأمم المتحدة، حيث أن التفاوت في توزيع إمكانيات القوة الدولية وقدراتها يجعل لبعض الدول مقدرة على التأثير السياسي أكثر بكثير مما يمكن أن يتوفر لدولة أخرى، فالعلاقات السياسية هي علاقات قوة، على أن المساواة في السيادة بالعمك الذي نص عليه الميثاق كانت تتكون من عدة عناصر بلورتها مناقشات سان فرانسيسكو، وهي المساواة بين الدول قانوناً، وتمتع الدول بالحقوق الكامنة في السيادة للتامة، واحترام شخصية الدول واستقلالها السياسي، وسلامة وحدة أراضيها والتزام الدول بتنفيذ تعهداتها الدولية بإخلاص.

ب- تنفيذ للتعهدات ميثاق الأمم المتحدة بنية حسنة، على أساس أنه بدون استعداد الدول لمراعاة تعهداتها حسب الميثاق والعمل على تنفيذها بحسن نية، فإنه يصبح خارج مقدرة المنظمة وطاقاتها أن توفر لأعضائها كافة الحقوق والمزايا التي تقتدرن بعضويتهم فيها.

ج- العمل والالتزام بحل النزاعات الدولية بالوسائل السلمية، على اعتبار أن مثل هذا الالتزام يزيل التهديد للرئيس الذي يتعرض له السلم الدولي، والذي ينتج عنه لجوء الدول إلى حل خلافاتها بالعنف والقوة المسلحة.

د- الامتناع عن التهديد باستعمال القوة أو استخدامها ضد سلامة الأراضي أو

الاستقلال السياسي لأية دولة، أو على أي وجه آخر لا يتفق مع أهدافها - أي الأمم المتحدة -، ومثل هذا المبدأ يعد أساس تطبيق نظام الأمن الجماعي تطبيقاً فاعلاً، وبدون هذا الامتناع تصبح للتعهدات الدولية في الأمن الجماعي أمراً لا قيمة له.

هـ- يقدم جميع الاعضاء في الأمم المتحدة كل ما في وسعهم من عون إلى للمنظمة الدولية في أي عمل تتخذه وفق ميثاقها، وعليهم ان يمتنعوا عن مساعدة أي دولة تتخذ الأمم المتحدة إزاءها عملاً من أعمال المنع أو القمع، وهذا من شأنه ان يشكل ركيزة حيوية أخرى من ركائز التطبيق للفعال لنظام الأمن الجماعي؛ لانه بدون وضع الجانب الضروري من إمكانيات هذه الدول تحت تصرف المنظمة الدولية ومشاركتهم الإيجابية في التدابير المشتركة التي تتخذ في مواجهة العدوان، فإنه يصبح من الصعب على الأمم المتحدة ان تؤدي مسؤولياتها إزاء حفظ السلام الدولي مثلما أكدته ميثاقها.

و- تعمل الأمم المتحدة على ان تيسر للدول غير الاعضاء فيها على المبادئ التي تضمنها للميثاق بقدر ما تقتضيه ضرورة حفظ السلام والأمن الدوليين، وأعاد الميثاق للتأكيد على هذا المبدأ في المادة (٣٥) بأن كل دولة ليست عضواً في الأمم المتحدة عليها ان تنبه مجلس الأمن أو الجمعية العامة إلى أي نزاع تكون طرفاً فيه إذا كانت تقبل مقدماً - في شأن هذا النزاع - الالتزامات حول الحل السلمي المنصوص عليه في الميثاق.

ز- منع الأمم المتحدة من التدخل في الشؤون الداخلية للدول، وانه ليس هناك ما يقتضي الاعضاء ان يعرضوا مثل هذه المسائل الداخلية لان تحل بحكم الميثاق، وان كان ذلك لا يخل بحق المنظمة الدولية في تطبيق تدابير القمع حسب الفصل السابع من الميثاق^(١٩).

ثانياً: العضوية

تنقسم العضوية في الأمم المتحدة إلى نوعين: عضوية أصلية، وعضوية بالانضمام، وان كانت عملية الفصل بينهما عملية شكلية، ولا ترتب أي آثار قانونية أو سياسية لهذه الفئة أو تلك من الأعضاء.

والدول الأصلية هي التي حددتها المادة الرابعة من الميثاق، وهي للدول التي اشتركت في مؤتمر الأمم المتحدة لوضع نظام الهيئة الدولية المنعقد في سان فرانسيسكو، والدول التي وقعت تصريح الأمم المتحدة الصادر في الأول من يناير/

كانون الثاني ١٩٤٢، ثم وقعت ميثاق سان فرانسيسكو وصنفت عليه، أما للعضوية بالانضمام فهي حق لجميع الدول الأخرى المحبة للسلام في العالم، والتي تأخذ نفسها بالالتزامات التي يتضمنها الميثاق والتي ترى الأمم المتحدة لها قدرة على تنفيذها.

لما إجراءات الانضمام فهي أن تقدم للدولة التي ترغب في الانضمام للأمم المتحدة طلباً بذلك إلى الأمين العام للمنظمة الدولية، ويكون مصحوباً بإعلانها قبول الالتزام بميثاق الأمم المتحدة، ويقوم الأمين العام بإحالة الطلب إلى مجلس الأمن لبحثه وإصدار توصية بشأنه إلى الجمعية العامة، ويشترط أن توافق على هذه التوصية للصادرة عن مجلس الأمن للدول الخمس الكبرى، ويصدر قرار للجمعية الخاص بقبول الأعضاء الجدد بأغلبية الثلثين، وإن اشترك كل من مجلس الأمن والجمعية العامة في عملية قبول الأعضاء الجدد يؤدي إلى إمكانية عدم قبول العضو الجديد إذا ما اعترضت على قبوله إحدى الدول الخمس الكبار في مجلس الأمن، وهي (الولايات المتحدة، الاتحاد السوفيتي، الصين، بريطانيا، وفرنسا)، حتى ولو كانت أغلبية أعضاء الأمم المتحدة توافق على هذا القبول، وذلك لأن قرار الجمعية بقبول العضو الجديد لا يمكن صدوره إلا بناء على توصية من مجلس الأمن.

أما بالنسبة للإيقاف، فقد نصت المادة الخامسة من الميثاق على أنه يجوز للجمعية العامة أن توقف أي عضو اتخذ مجلس الأمن قبله عملاً من أعمال القمع أو المنع عن مباشرة حقوق العضوية ومزاياها، ويكون الإيقاف بقرار من الجمعية العامة بناء على توصية مجلس الأمن، ويرفع الإيقاف، ويمكن للعضو ممارسة حقوق العضوية ومزاياها بقرار من مجلس الأمن.

أما الفصل من الأمم المتحدة، فتتص المادة السادسة من الميثاق على أنه يجوز للجمعية العامة أن تقص عضو من الأعضاء إذا انتهك مبادئ الميثاق، ويكون قرار الجمعية في هذا الشأن مبنياً على توصية من المجلس.

أما الانسحاب من المنظمة الدولية، فقد عارض البعض الاعتراف بحق الدول الأعضاء في الانسحاب من الأمم المتحدة؛ استناداً إلى أن الميثاق لم ينص على حق الانسحاب، ولم ينظمه كما أن السماح به يؤدي إلى إضعاف الأمم المتحدة، ولكن

الاتجاه الأوسع كان يرى أنه رغم أن الميثاق لم ينص على موضوع الانسحاب، إلا أنه من الواجب أن يحتفظ الأعضاء في الأمم المتحدة لأنفسهم بهذا الحق؛ نظراً لأن الأمم المتحدة منظمة اختيارية انضمت إليها بإرادتها، ويحتفظ أعضاؤها بسيادتهم التي لم ينتزعها منهم الميثاق.

وأشار تقرير لجنة الصياغة في مؤتمر سان فرانسيسكو إلى حالات جواز الانسحاب من الأمم المتحدة في بعض الظروف، كأن تضحى الأمم المتحدة بالقانون والعدل للمحافظة على السلام، وأن تعجز الأمم المتحدة عن حفظ السلام، وأن تتغير حقوق والتزامات الأعضاء بسبب تعديل أدخل على الميثاق لم يشاركوا في الموافقة عليه، وأن يكون التعديل الذي أقرته الأكثرية المطلوبة في الجمعية أو المؤتمر العام لم يحصل على تصديق العدد اللازم من الدول لكي يصبح نافذاً، ويرتّب على انسحاب العضو من الأمم المتحدة تحلله من التزامات الميثاق إلا تلك التي تسري في مواجهة الدول غير الأعضاء^(٥٠)

ثالثاً: الأجهزة والمنظمات

وفقاً للمادة السابعة من الميثاق، فإن الأمم المتحدة تتكون من ستة أجهزة رئيسية، هي: الجمعية العامة، مجلس الأمن، المجلس الاقتصادي والاجتماعي، مجلس الوصاية، محكمة العدل الدولية، والامانة العامة لو جهاز السكرتارية، ويظهر أن الأمم المتحدة جهاز أكثر تعقيداً من عصبة الأمم التي كانت تقوم على الجمعية ومجلس العصبة والسكرتاريا.

١ - الجمعية العامة General Assembly:

تعدّ الجمعية العامة للجهاز الرئيس للأمم المتحدة، وتُمثّل فيه جميع الدول الأعضاء، وتجتمع الجمعية بانتظام مرة كل عام، ولها حق المناقشة، وإصدار التوصيات في جميع الأمور التي تدخل في نطاق الميثاق، كما أن لها حق مناقشة سلطات ومهام جميع الأجهزة الأخرى للأمم المتحدة، وتعدّ الدراسات والتوصيات، وتقديمها للدول الأعضاء والأجهزة الأخرى للمنظمة على سبيل تدعيم التعاون الدولي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، ويمكن للجمعية العامة أن تنظر في المبادئ العامة للتعاون من أجل الحفاظ على السلم، ومن ضمنها تلك التي تحكم بنزع السلاح وتنظيم

التسلح، ومناقشة أي مسألة تتعلق بصيانة السلم، سواء معروضة بواسطة دولة من الدول الأعضاء، أو بواسطة مجلس الأمن، أو بواسطة دولة غير عضو تحت شروط معينة.

ويقتضي الميثاق بأنه عندما يباشر مجلس الأمن بصدد نزاع أو موقف ما في إطار الوظائف التي رسمت في الميثاق، فليس للجمعية العامة أن تقدم أية توصية في شأن هذا النزاع أو للموقف، إلا إذا طلب ذلك منها مجلس الأمن.

ونظراً لسلطة الجمعية العامة في مناقشة جميع الأمور في ضوء الميثاق، فقد كفل لها ذلك المركز الرئيس في المنظمة، وتقوم جميع الأجهزة بتقديم تقارير سنوية وأخرى خاصة لتتظر فيها الجمعية، وتتولى الأخيرة لانتخاب الأعضاء للعشرة غير الدائمين في مجلس الأمن، وجميع الأعضاء السبعة والعشرين في المجلس الاقتصادي والاجتماعي والأعضاء المنتخبين في مجلس الوصاية، وتقوم الجمعية ومجلس الأمن كل على حدة بانتخاب قضاة محكمة العدل الدولية، وبناء على توصية مجلس الأمن، تتولى الجمعية قبول الأعضاء الجدد وتعيين الأمن العام للمنظمة.

ثم إن الجمعية هي التي تبحث ميزانية النفقات، ويمكن لها أن تدعو الحكومات إلى تقديم المساهمة الاختيارية، وعن طريق مثل هذه المساهمة يتم تمويل عمليات المساعدة للأطراف المعروفة باسم برنامج الأمم المتحدة للتنمية، والمساعدة على دعم عمل مختلف الوكالات الإنسانية، مثل صندوق الأمم المتحدة للطفولة.

وقد جاء قرار توصية الاتحاد من أجل السلام في عام ١٩٥٠ والتي كان الهدف منها تمكين للجمعية العامة من التوصل إلى قرار بشأن الموضوعات العاجلة التي قد تتطلب تنفيذ بعض التدابير أو تطبيق بعض الجزاءات، وذلك في حالة تعذر الاتفاق على إصدار مثل هذه القرارات في مجلس الأمن بسبب استخدام الفيتو، إلا أنه لا بد من الإشارة إلى أن الجزاءات التي توقع في الجمعية العامة تنفيذاً لتوصية الاتحاد من أجل السلام تنفذ بطريقة اختيارية، لأن سلطة للجمعية العامة هي سلطة اقتراح، وليست سلطة إصدار قرارات ملزمة.

وبقيت مسألة واحدة، وهي أن لكل دولة من الدول الأعضاء في الجمعية العامة صوت واحد، وإن كان لكل منها الحق في إيفاد ما يصل إلى خمسة مندوبين لحضور

جلسات الجمعية، وتصدر الأخيرة قراراتها بشأن المسائل العادية بالأغلبية البسيطة لأصوات الحاضرين المشتركين في التصويت، ولكنها تصدر قراراتها في المسائل الهامة بأغلبية الثلثين، ومن المسائل هذه:

أ- للتوصيات المتعلقة بصيانة السلم والأمن الدوليين.
ب- للتوصيات التي تصدرها الجمعية العامة بشأن الترشيح للعضوية غير الدائمة في مجلس الأمن، والترشيح لعضوية المجلس الاقتصادي والاجتماعي وعضوية مجلس الوصاية.

ج- التوصيات الخاصة بقبول عضوية الدول الجديدة في الأمم المتحدة.
د- وقف الحقوق والامتيازات المرتبطة بعضوية للدول في الأمم المتحدة.
هـ- طرد للدول التي تنتهك الميثاق وتخل بشروط عضويتها في المنظمة الدولية.
و- المسائل المتعلقة بعمل مجلس الوصاية والمسائل المتعلقة بالميزانية.

٢- مجلس الأمن Security Council:

يعد مجلس الأمن للجهاز الذي عهدت إليه الدول الاعضاء بالمسؤوليات لرئيسية لحفظ السلام والامن. وهو يؤدي مهامه نيابة عن الدول الاعضاء التي وافقت على قبول قراراته وعلى تنفيذها.

وبموجب النصوص الأصلية للميثاق كان مجلس الأمن يتكون من (١١) عضواً، منهم خمسة أعضاء دائمون (الولايات المتحدة، الاتحاد السوفيتي، فرنسا، بريطانيا، الصين)، وستة غير دائمين تنتخبهم الجمعية العامة لمدة سنتين، ولا يصح إعادة انتخاب أحدهم مرتين متتاليتين، ويراعى في انتخابهم مدى للمشاركة التي يقومون بتقديمها في مجال حفظ للسلام الدولي، واشترط الميثاق أيضاً مراعاة مبدأ عدالة التوزيع الجغرافي في عملية الاختيار، ومنذ عام ١٩٦٥ تغير تكوين مجلس الامن، وأصبح (١٥) عضواً، وارتفع بذلك عدد الاعضاء غير الدائمين من ستة إلى عشرة أعضاء.

أما إجراءات التصويت في مجلس الأمن، فقد أشارت إليها المادة (٢٧) من الميثاق التي فرقت بين التصويت حول المسائل الإجرائية، والتصويت حول المسائل الموضوعية، ففي الاولى تصدر القرارات بموافقة (٩) أعضاء من المجلس، وليس

ضرورياً ان تشمل هذه الأغلبية على أصوات الدول الخمس الكبار ذات المقاعد الدائمة، أما الثانية فتصدر القرارات بأغلبية الأصوات (٩) أصوات بشرط ان تتضمن أصوات الدول الدائمة، ولذلك يمكن لاية دولة كبرى ان تعطل إصدار أي قرار إذا ما اتخذت منه موقف المعارضة، وهذا ما يعرف بحق النقض الفيتو Veto.

ومن هنا يتم منذ البداية تقرير طبيعة المشكلة المطروحة أمام مجلس الأمن، هل هي إجرائية لم موضوعية، مما يعطي للدول ذات المقاعد الدائمة حق استعمال الفيتو، وفي هذه الحالات وللخروج من هذا المأزق الذي ينقسم به مجلس الأمن يمكن للمجلس ان يحول الأمر إلى جهاز أو هيئة أخرى والأخذ برأيها فيما إذا كان الأمر بعد إجرائياً لم موضوعياً.

وقد حدث في مؤتمر سان فرانسيسكو للموافقة على ميثاق الأمم المتحدة ان أصدرت الدول الكبرى بياناً يشتمل على بعض نماذج لما يمكن عدّه أموراً ذات صفة إجرائية، وما يمكن عدّه موضوعياً منها، ولكن هذه النماذج والأمثلة لم تنجح في صلب الميثاق، وعلى ذلك بقيت المشكلة قائمة، وترتب عليها ان استخدام حق الفيتو بطريقة متكررة من قبل بعض الدول ذات المقاعد الدائمة تسبب في شل مجلس الأمن في كثير من المواقف.

ولهذا السبب أدخلت بعض التعديلات على استخدام حق الفيتو نتيجة الممارسة، وليس نتيجة تعديل رسمي لميثاق سان فرانسيسكو، ومن أمثلة هذا التعديل ان امتناع إحدى الدول ذات المقاعد الدائمة عن التصويت على مشروع قرار معين لا يعد فيتو، وبذلك فإنه لا يؤثر على إصدار القرار فيما إذا وافقت الدول الأخرى الدائمة في المجلس، ثم إن المجلس يستطيع ان يمرر ما يراه ضرورياً من التوصيات في غياب إحدى الدول الدائمة، أو بمعنى آخر فإن وجودها واشتراكها في عملية التصويت لم يعد شرطاً ضرورياً لضمان قانونية التصويت.

هذا فضلاً عن وضع قيد آخر على استخدام الفيتو ورد في المادة (٢٧) من الميثاق، ونضمن انه لا يمكن لإحدى الدول الدائمة ان تمارس هذا الحق في الحالات التي تكون فيها طرفاً في نزاع ينظره المجلس، والحالات التي يحال فيها النزاع إلى

إحدى المنظمات الإقليمية.

لما مسؤوليات مجلس الأمن فهو يناقش ويبحث في أي نزاع أو حالة تؤدي إلى مواجهة بين دولتين أو أكثر، وتعرض عليه للنزاعات والمواقف عن طريق أحد أعضائه لو أي عضو في الأمم المتحدة، والجمعية العامة أو الأمين العام، بل حتى في ظروف معينة عن طريق دولة ليست منتسبة لعضوية المنظمة الدولية، كما أن للمجلس الحق في التوصية بطريقة التمسوية السلمية ووسائلها، وبالشروط القطعية للتسوية في حالات معينة.

وفي حالة وقوع تهديد للسلم الدولي أو إخلال به أو قيام عمل عدواني فالمجلس يتخذ الإجراءات للتنفيذية التي من شأنها إعادة السلام إلى نصابه، وهذه الإجراءات تشمل وقف المواصلات وقطع العلاقات الاقتصادية والدبلوماسية، واستخدام القوات العسكرية إذا تطلب الأمر، وتتعهد جميع الدول بموجب الميثاق أن تضع تحت تصرف مجلس الأمن - بناء على طلبه وبموجب اتفاقيات خاصة - ما يلزم من القوات المسلحة والمساعدات والتسهيلات اللازمة لحفظ السلم والأمن الدوليين.

وفي ظل الحاجة للحفاظ على السلم الدولي استدعي أن يبقى مجلس الأمن في حالة انعقاد دائم، وله أن يعقد اجتماعات خارج المقر للرئيس للمنظمة إذا رأى ذلك ضرورياً.

هذا، وأن جميع القرارات السياسية الهامة في الأمم المتحدة تدخل في اهتمامات مجلس الأمن بشكل أو بآخر، كما أن بحث عضوية الدول في المنظمة الدولية، أو إيقاف هذه العضوية أو إنهاؤها يتقرر في الجمعية العامة بناء على التوصيات التي يصدرها مجلس الأمن في هذا الخصوص، وأن مجلس الأمن هو السلطة التي تملك حق إرجاع كافة الحقوق والامتيازات للدول التي يتقرر إلغاء الحكم بإيقاف عضويتها، وهو الذي يصدر التوصية الخاصة بتعيين السكرتير العام للأمم المتحدة، وفضلاً عن هذا وذلك فإن مجلس الأمن يتمتع بسلطات هامة في تعديل الميثاق وقضايا أخرى.

٣- المجلس الاقتصادي والاجتماعي Economic and Social Council:

يعمل المجلس الاقتصادي والاجتماعي تحت إشراف الجمعية العامة من أجل بناء عالم أكثر رخاءً واستقراراً وعدلاً وأماناً اجتماعياً، وهو الجهاز الذي يوجه وينسق

العمل الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة.

ويهتم هذا المجلس بموضوعات عدة، منها التخطيط للتنمية الاقتصادية والمساعدة المالية والفنية للدول الأقل تقدماً، أو الأكثر فقراً، والمشكلات السكانية، وحقوق الإنسان، والمعمونة لأطفال العالم، واستخدام الموارد للطبيعة، وتحسين الظروف المعيشية عامة. ويستعين المجلس بالتقارير والأبحاث والدراسات في إصدار توصياته في هذه الأمور وغيرها والتي تدخل في نطاق اختصاصاته، كما أنه يتولى اعداد مشروعات الاتفاقات للعرض على الجمعية العامة، ويدعو لقمع مؤتمرات دولية إذا دعت الحاجة. ويقوم المجلس بتشكيل للجان لمعالجة قضايا خاصة، وهذه للجان والهيئات تنظر في موضوعات معينة لتقديم المشورة الفنية للمجلس خلال أعماله، وتوجد أيضاً أربع لجان اقتصادية إقليمية ترسل تقاريرها للمجلس، وهي: لجنة أوروبا، ولجنة آسيا، ولجنة الشرق الأقصى، ولجنة أمريكا اللاتينية، ولجنة إفريقيا، ومكتب الأمم المتحدة الاقتصادي والاجتماعي في بيروت.

ولعل من أهم واجبات المجلس الاقتصادي والاجتماعي إقامة الصلة بين الأمم المتحدة والوكالات الدولية المتخصصة، وذلك في إطار اتفاقيات خاصة، وهو يتولى التنسيق بين مختلف نشاطاتها، ويشترك ممثلو الوكالات المتخصصة في إجراءات للمجلس، ولكن دون أن يكون لهم حق التصويت، فضلاً عن أن المجلس يقوم بالتشاور مع عدد من المنظمات غير الحكومية التي تعمل في نطاق نشاطه، مثل الوكالات الفنية المتخصصة التي يشرف عليها المجلس، كمنظمة العمل الدولية، ومنظمة الزراعة والأغذية، ومنظمة اليونسكو، ومنظمة الصحة العالمية، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي للإنشاء والتعمير وسواها.

أما عن تكوين المجلس، فإنه يضم أصلاً (١٨) عضواً، ولكن عدد الأعضاء ازداد فأصبح (٢٧) عضواً وفقاً للتعديلات التي أدخلت على الميثاق منذ أغسطس/ آب ١٩٦٥، وأعضاؤه يُنتخبون من الجمعية العامة على أساس دوري، ويعقد المجلس اجتماعاته لممارسة مهامه وواجباته كلما دعت الحاجة لذلك، ويعقد المجلس عادة دورتين في السنة، ويصدر قراراته بأغلبية الحاضرين المشتركين في التصويت.

٤ - مجلس الوصاية Trusteeship Council:

نص الميثاق على إنشاء نظام للوصاية لإدارة الأقاليم التي يشملها هذا النظام والإشراف عليها، وهناك اتفاقية للوصاية خاصة بكل إقليم بوضع في ظل هذا النظام توافق على نصها للدول التي يعينها الأمر بصورة مباشرة، وتقرها الجمعية العامة أو مجلس الأمن في حالة الأقاليم التي تعد مناطق ذات أهمية استراتيجية.

ومن هنا فإن مجلس الوصاية يقوم بمعاونة الجمعية العامة في الإشراف على إدارة الأقاليم المضمولة بالوصاية، ويؤدي نفس المهمة لمجلس الأمن بالنسبة للمناطق الاستراتيجية، ويتكون مجلس الوصاية طبقاً للميثاق من:

أ- الدول الأعضاء التي تشرف على مناطق تحت الوصاية.

ب- الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن الذين لا يديرون مناطق تحت الوصاية.

ج- أي عدد من الأعضاء تنتخبهم الجمعية العامة لمدة ثلاث سنوات؛ لكي يحققوا التوازن الضروري بين الأعضاء الذين يتولون الوصاية ولولئك الذين لا يمارسونها.

أما السلطات التي يمارسها مجلس الوصاية تحت إشراف الجمعية، فإنها تنلخص في دراسة التقارير السنوية التي تتولى تقديمها إلى المجلس الدول التي تمارس مسؤوليات الوصاية على الأقاليم التي يشملها هذا النظام، وتتلقى الشكاوى والعرائض من الأقاليم الخاضعة للوصاية، وتقوم بدراساتها بالتشاور مع الدول القائمة بالوصاية، ولا تُشترط شروط خاصة فيمن يقدمون هذه العرائض من شعوب العالم ذات الأقاليم الخاضعة للوصاية.

كما تقوم بالعمل على تنظيم زيارات دورية لهذه الأقاليم بالاتفاق مع الدول الوصية، واتخاذ الإجراءات والترتيبات المتعلقة بأوضاع هذه المناطق تمثيلاً مع الاتفاقات التي تنظم العلاقة بين الدول المضمولة بالوصاية وبين السلطات القائمة بالإدارة.

وفي هذا الإطار يقوم مجلس الوصاية بتقديم تقارير سنوية للجمعية العامة، ولتعرف على ما إذا كانت أوضاعهم تؤهلهم للحصول على الاستقلال السيادي^(٥١).

٥ - محكمة العدل الدولية International Court of Justice:

تعد محكمة العدل الدولية الجهاز القضائي للرئيس للأمم المتحدة، وتقوم

للمحكمة وفقاً لنظام أساسي يعد جزءاً من الميثاق، ومن ثم فإن لكل دولة منتسبة لعضوية الأمم المتحدة حق اللجوء إليها مباشرة، وقد تعهدت كل دولة من الدول الأعضاء بأن تخضع لاحكام المحكمة في أية قضية تكون طرفاً فيها.

وتشمل ولاية هذه المحكمة جميع القضايا التي يرفعها المتقاضون إليها، والمسائل المنصوص عليها بصفة خاصة في الميثاق أو في المعاهدات والاتفاقيات المعمول بها، وتتولى هذه المحكمة أيضاً وظيفة عامة أخرى غير الفصل في المنازعات القضائية، وهي تقديم الآراء والاستشارات في الشؤون القانونية التي تحيلها إليها الجمعية العامة أو مجلس الأمن أو الأجهزة والوكالات المتخصصة الأخرى التي تسمح للجمعية العامة لها بذلك.

وتتكون المحكمة من خمسة عشر قاضياً، يتم اختيارهم على اساس ترشيحهم واقتراح اسمائهم ليس من قبل حكوماتهم، وإنما جماعات وطنية في الدول مثل المحافل القانونية والقضائية والجامعات والمراكز والهيئات الأكاديمية، ويقوم السكرتير العام للأمم المتحدة بتقديم قائمة المرشحين إلى الجمعية العامة ومجلس الأمن للاقتراع عليها، ومن يحصل على أغلبية الأصوات المطلوبة يتم لنتخابه لعضوية المحكمة، وتكون مدة العضوية في المحكمة تسع سنوات، ويتم لنتخاب ثلث الأعضاء مرة كل ثلاث سنوات.

٦- الأمانة العامة The Secretariat:

يعد الجهاز المهم الآخر في الأمم المتحدة هو للسكرتاريا أو الأمانة العامة، والذي يقوم بالمهام الإدارية للمنظمة الدولية، ويتولى رئاسة هذا الجهاز الأمين العام الذي تقوم الجمعية العامة بتعيينه وفقاً لتوصية مجلس الأمن، وهو بوضعه هذا يعد الإداري الاول في المنظمة الدولية.

أما عن مهام ومسؤوليات الأمين العام للأمم المتحدة، فهي انه يقوم بتقديم تقرير سنوي للجمعية العامة، يُضمّنه كل ما يتعلق بنشاط المنظمة الدولية خلال عام، كما انه هو الذي يلفت نظر مجلس الأمن إلى الأمور التي قد تشتمل على تهديد للسلام الدولي.

والأمين العام حين يمارس مسؤولياته فإنه يُحظر عليه تلقي تعليمات من أية حكومة أو دولة أو هيئة خارجة عن الأمم المتحدة، ويمتد هذا الخطر إلى كل موظفي

جهاز الامانة العامة، وذلك لكي لا يحدث تعارض بين مسؤولياتهم كموظفين دوليين وبين التعليمات التي يتلقونها من هذه المصادر الخارجية.

وتتعهد الدول الاعضاء في الأمم المتحدة باحترام الصفة الدولية للأمم المتحدة والجهاز الذي يعاونها، وان تمتنع عن القيام بأية محاولات للتأثير عليهم خلال ممارستهم لمسؤولياتهم تجاه المنظمة الدولية.

رابعاً: الإنجازات والصعوبات

بالتأكيد فإن الأمم المتحدة بعدّها منظمة دولية ظهرت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية من أجل السلام والأمن الدوليين، قد حققت الكثير من الإنجازات للبارزة والتي من أهمها ما يأتي:

١- حفظ السلم والأمن:

على الرغم من اندلاع الحرب والأزمات العسكرية والمشكلات الحدودية في العالم بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى الرغم من أن الأمم المتحدة وقفت أمام هذه المحن مكثوفة الأيدي بسبب تصادم استراتيجيات الدول الكبرى وتعارض مصالحها، إلا أن الأمم المتحدة استطاعت أن تثبت وجودها في بعض القضايا والصراعات المحلية والإقليمية.

ومنها الجهود الكبيرة التي بذلتها الأمم المتحدة خلال أزمة السويس عام ١٩٥٦ في الشرق الأوسط، وتمكنت أن تنشئ قوة طوارئ دولية تابعة لها لأول مرة، وأن ترأب بواسطتها الإشراف على تنفيذ ترتيبات وقف إطلاق النار، وتحقيق انسحاب للقوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية من مصر، وظلت هذه القوات تعمل كعازل بين الأطراف المتحاربة في الشرق الأوسط، وحتى قبل اندلاع حرب حزيران ١٩٦٧ مباشرة، عندما طلبت مصر انسحابها من أراضيها، وقد أعيدت القوات مرة أخرى بعد حرب تشرين الأول ١٩٧٣.

وقد نفذت الأمم المتحدة مهام مشابهة لعمليات حفظ السلام في أقاليم أخرى، مثل أزمة الكونغو، والحرب الأهلية في قبرص، وأزمة الدومنيكان عام ١٩٦٥، ووقف القتال في كشمير بين الهند وباكستان، وفي جنوب لبنان مع إسرائيل، وفي التسعينات في عدة أزمات دولية، مثل البوسنة والهرسك، وأفغانستان، والحدود بين العراق والكويت وغيرها.

٢- نزع السلاح ومراقبة التسلح:

لما في مجال نزع السلاح والرقابة على التسلح، فقد استطاعت الأمم المتحدة أن تضع الدول الأعضاء في إطار التوقيع على معاهدة عام ١٩٦٣ في موسكو لحظر إجراء للتجارب النووية في الجو وفي الفضاء الخارجي وتحت الماء، ومعاهدة حظر لتأجير وتخزين الأسلحة النووية في أمريكا للاتينية في مكسيكو سيتي في عام ١٩٦٧، ومعاهدة للفضاء الخارجي الموقعة عام ١٩٦٦، والتي دعت إلى فرض حظر على وضع الأسلحة النووية في الفضاء الخارجي، وتحريم ادعاءات السيادة القومية على الفضاء.

هذا فضلاً عن معاهدة حظر لتنتشر الأسلحة النووية التي وقعت في حزيران ١٩٦٨، ومعاهدة قاع للبحار التي حظرت تخزين الأسلحة النووية الموقعة عام ١٩٧١، واتفاقية تحريم إنتاج واستخدام أسلحة الحرب الكيميائية والبيولوجية في عام ١٩٧٢، وغيرها.

وبذلت المنظمة الأممية جهوداً كبيرة في مجال الاستخدام السلمي للطاقة الذرية في عقد للمؤتمرات الدولية وبحث الجوانب الفنية حولها، وتقوم وكالات متخصصة تابعة للأمم المتحدة، مثل الوكالة الدولية للطاقة الذرية بإجراء دراسات لمختلف الأمور الخاصة بالطاقة النووية، واستخدامها بصورة إنشائية تفيد الصناعة والزراعة والصحة العامة، واستخدام النظائر المشعة في العلاج الطبي وغيرها من الأغراض السلمية.

٣- التنمية الاقتصادية:

وتقوم الأمم المتحدة في المجالات التنموية الاقتصادية الدولية بجهود كبيرة، فقررت في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٦١ تكريم عقد الستينات من القرن العشرين؛ بعقد الأمم المتحدة العشري الأول للتنمية، ودعت جميع الدول إلى للتكاتف في بذل الجهود من أجل التقدم والنمو في الدول النامية.

وتقوم المنظمة الدولية أيضاً بتشجيع الخطط القومية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية عن طريق توفير الخدمات الإدارية والاحصائية الأساسية التي يعتمد عليها تنفيذ برامج التنمية القومية وتقديم المساعدات الضرورية لحكومات الدول النامية بما يعينها على مواجهة مشاكلها السكانية التي تؤثر على تقدمها الاجتماعي والاقتصادي،

ومساعدة الدول النامية في استغلال مواردها الطبيعية لأغراض التنمية، وكمصدر للدخل القومي، وتشجيع البحوث المبدئية الموجهة والهادفة في مجالات تنمية المجتمعات بالريف، والإسكان والإصلاح الزراعي، ونشر التعليم، والخدمات الاجتماعية، وتحسين ظروف العمل، وتحسين الصحة، وتوفير الغذاء، والوقاية ضد الجريمة والانحراف، وغيرها.

وفي هذا الإطار عقدت مؤتمرات دولية لدعم التنمية الاقتصادية في الدول النامية حسب الجهود المشتركة، فعقد في عام ١٩٦٤ في جنيف مؤتمر الأمم المتحدة الأول للتجارة والتنمية، واتخذ التوصيات لمساعدة الدول النامية على زيادة وتثبيت مكاسبها من السلع الأولية وزيادة صادراتها لمساعدة نفسها مالياً، وتوفير ما تحتاجه من أموال للبرامج التنموية فيها، ثم عقد المؤتمر الثاني في نيونلهي مطلع عام ١٩٦٨، وأعطى اهتماماً خاصاً بمسائل مثل المعاملة التفضيلية للصادرات الدول النامية الصناعية، ووسائل تحسين شروط المعونة لها، وزيادة المبادلات التجارية فيما بينها، وعقدت منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية مؤتمر الأمم المتحدة الدولي للتنمية الصناعية في أثلينا في نهاية عام ١٩٦٧، للبحث في إمكانية تنمية التصنيع وتنسيق نشاطات أعضاء الأمم المتحدة.

وهناك برنامج للغذاء العالمي الذي أنشئ عام ١٩٦٣، ويقوم هذا البرنامج على استخدام فائض الإنتاج الزراعي، وما يحصل عليه مولا للغذاء والأموال والخدمات لتعزيز التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ويضاف إلى هذا الاهتمام المتزايد الذي أولته الأمم المتحدة لحماية البيئة الإنسانية من أخطار التلوث، وكانت البداية في مؤتمر استوكهولم لحماية البيئة الإنسانية، والذي انعقد في يونيو/حزيران ١٩٧٢.

ثم اتخذت الأمم المتحدة قراراً في الجمعية العامة في الحادي عشر من ديسمبر/كانون الأول ١٩٦٨ بتشكيل لجنة من (٤٢) دولة لبحث مسألة الاستفادة من الثروات المدفونة في قاع البحار، ولبحث جميع الجوانب القانونية والفنية والاقتصادية للحيلولة دون استغلال الأقلية لقاع البحار على حساب مصالح الأغلبية، وضمان مشاركة الجميع خاصة الدول النامية في مثل هذه الثروات.

وأقامت عام ١٩٦٥ معهداً للتدريب والبحوث لتدريب الموظفين في الدول
للنامية، خاصة على الخدمات الإدارية القومية، وفي مجال الأمم المتحدة، واعداد
البحوث الخاصة بمشكلات الأمم المتحدة في مجال نقل التكنولوجيا إلى الدول النامية،
ومشكلات الدول الصغيرة والهجرة العاملة نحو الدول الغنية.

٤- تصفية الاستعمار:

حققت الأمم المتحدة تقدماً كبيراً في هذا المجال، فبالنسبة للأقاليم التي شملها
نظام الأمم المتحدة للوصاية نجد أنها كانت أحد عشر إقليماً: أربعة في غرب إفريقيا،
وثلاثة في شرقها، وأربعة في المحيط الهادي، وثالث - في ظل مجالس الوصاية - كل
هذه الأقاليم - باستثناء جزر الباسفيك الذي تديره واشنطن - استقلالها، أو انضمت إلى
دول مستقلة، ويتم ذلك عقب إجراء الأمم المتحدة للاستفتاء.

وأقرت الأمم المتحدة باباً للأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي اشتمل على
تحديد للمبادئ الواجب توفرها في إدارتها، ومنها أن تتال مصالح سكان هذه الأقاليم
أقصى رعاية، وطلب من الدول التي تصرف عليها أن تقبل الالتزام بأن تبدل من أجلهم
كل ما تستطيع، وأن تسير بهم نحو الاستقلال، وحصل عدد كبير من هذه الأقاليم غير
للمتمتعة بالحكم الذاتي على الاستقلال التام، وما يزال البعض الآخر، يخضع لسلطات
استبدادية، ولعل تجربة ناميبيا خير مثال للنجاح في إنهاء الحكم العنصري لنظام جنوب
أفريقيا، وتحقيق الاستقلال الوطني بعد كفاح مرير لعدة عقود.

والجدير بالذكر أن الأمم المتحدة قد أعلنت في مجال تصفية الاستعمار الإعلان
العالمي كوثيقة تاريخية دولية، ففي الرابع عشر من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٦٠
أقرت الجمعية العامة بالاجماع على منح الاستقلال الكامل لكل الأقطار والشعوب التي
لا تزال تحت الاستعمار، وبضرورة تصفية الاستعمار بكل أشكاله ومظاهره بصورة
عاجلة وبدون قيد أو شرط، وأعلنت للجمعية العامة أن إخضاع الشعوب للسيطرة
الأجنبية يشتمل على إنكار الحقوق الأساسية للإنسان، وأنه سيجري فوراً في الأقاليم
التي تحت الوصاية أو غير المتمتعة بالحكم الذاتي، والأقاليم الأخرى التي لم تحصل
على الاستقلال نقل السلطات إلى الشعوب دون شروط أو تحفظات؛ وفقاً لإرادتها التي

تعرب عنها بحرية تامة، وبلا تمييز عنصري، أو عقدي، أو ديني؛ حتى يتاح لها ان تتمتع بكامل الاستقلال والحرية.

وعينت الجمعية العامة في عام ١٩٦١ لجنة من (١٧) عضواً، ثم أصبحوا (٢٤) عضواً، ومهمتها ان تراجع باستمرار ما ينادي به الإعلان، وان تتقدم بما تراه ضرورياً من توصيات، وأجرت هذه اللجنة دراسة متصلة للأوضاع السائدة في (٥٥) اقليماً، وكونت صورة كاملة، ولأخذت التقارير والمعلومات من الأمانة العامة للأمم المتحدة، ومن الدول التي تدير شؤون الأقاليم، وتلقت الالتماسات من هذه الأقاليم، واستمعت إلى التماسات الأشخاص، وقامت بإيفاد بعض الجماعات للزيارة، وجمع المعلومات عن الأقاليم، وعقدت اللقاءات الدورية للبحث في هذه الأمور.

٥- حقوق الإنسان:

من أهداف الأمم المتحدة تشجيع احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية دون تفرقة بسبب العنصر أو الجنس أو اللغة أو الدين.

وكان الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أعلنه الجمعية العامة للأمم المتحدة في العاشر من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٨، وأدرجت الحقوق الواردة في الإعلان في اتفاقيتين دوليتين هما: الاتفاق بشأن الحقوق المدنية والسياسية، والاتفاق بشأن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكانت للجمعية العامة قد تبنتهما بالاجماع في عام ١٩٦٦، وتلتزم جميع الحكومات التي تصدق على اتفاقيتهما التزاماً قانونياً بتطبيق كافة حقوق الإنسان المدرجة في الوثيقتين.

وسمي عام ١٩٦٨ بالعام الدولي لحقوق الإنسان، وانهقد المؤتمر الدولي لحقوق الإنسان في طهران لاستعراض التقدم الذي حصل في المستويات الدولية والإقليمية منذ إصدار الإعلان العالمي.

وطالبت الأمم المتحدة من الدول الأعضاء ان تبادر إلى اتخاذ كافة الإجراءات التي تكفل إنهاء سياسات الاضطهاد العنصري سواء بشكل فردي ام جماعي.

٦- دعم مبادئ وأحكام القانون الدولي:

قامت الأمم المتحدة بنشاطات هامة لدعم أحكام القانون الدولي، فأصدرت عدة

لتفاهيات ومعاهدات دولية لتنظيم للقواعد القانونية التي يجب مراعاتها في العلاقات الدولية، ووجهت اهتمامها للمسائل المتعلقة في صياغة مواد القانون الدولي، وتنهض بها لجنة القانون الدولي التي أنشأتها الجمعية العامة عام ١٩٤٧، وتتألف من (٢٥) عضواً من أقطاب القانون الدولي في العالم، وتقوم بتحضير المشاريع والاتفاقات لعرضها على الجمعية العامة.

وأقر مؤتمر الأمم المتحدة عام ١٩٥٨ أربع اتفاقيات خاصة بالوضع العام لأعالي البحار، والمياه الإقليمية والمناطق المتاخمة لها، وحقوق صيد الأسماك، والاستغلال لموارد المحيط للقاري.

وعرضت في مؤتمر الأمم المتحدة في فيينا عامي ١٩٦١-١٩٦٢ مشاريع الاتفاقيات التي أعنتها لجنة القانون الدولي في مجال العلاقات الدبلوماسية والقنصلية، ووافق المؤتمران على اتفاقية فيينا بشأن العلاقات الدبلوماسية والعلاقات القنصلية، واستكملت اللجنة عملها في سلسلة مشروعات المواد للقانونية الخاصة بقانون المعاهدات الذي تم الانتهاء منه في المؤتمر الذي عقد في فيينا عام ١٩٦٩.

وعلى الرغم من الإنجازات التي حققتها الأمم المتحدة في مختلف المجالات إلا أنها تعرضت لصعوبات كثيرة وصلت إلى حد الأزمة الحرجة التي كانت تعصف بالأمم المتحدة، ولعل من أبرز هذه الصعوبات:

١- المشكلات المالية التي جاءت بسبب عمليات حفظ للسلام التي تقوم بها الأمم المتحدة في مناطق العالم المختلفة، ويتم فيها إنشاء قوات طوارئ دولية تقوم المنظمة الدولية بتحمل نفقاتها وفترات زمنية طويلة، وشكلت عبئاً على ميزانية المنظمة ولزمت مالية مع رفض بعض الدول دفع نصيبها من نفقات القوات الدولية.

٢- المشكلات المترتبة على عدم وجود تعريف محدد للعدوان مع تخفيه وراء مصميات مختلفة كالتهريب والضغط النفسي والحرب الدعائية والتحريض للحركات السياسية، ومشكلات الحدود، أو الانقلابات العسكرية، والتشهير، والتشكيك لإضعاف ثقة الدولة هذه أو تلك، وزعزعة استقرارها وفقدانها لمكانتها الدولية.

فطالبت الدول بتحديد مفهوم العدوان لمساعد على تسوية الخلافات، ويمنح

الأمم المتحدة للفترة على التصرف تجاهه، ووفق القواعد والمعاهدات والمواثيق الأممية، وإزاء هذا الإصرار قامت الأمم المتحدة بإنشاء لجنة خاصة من (٣٥) دولة أسندت إليها مسؤولية وضع تعريف محدد للعدوان، وعرض النتائج التي تنتهي إليها على الجمعية العامة لإقرارها، وانتهت للجنة من عملها، وأقرت الجمعية العامة في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٧٤ توصية تحديد للعدوان في إطار ما يأتي:

أ- العدوان هو استخدام القوة المسلحة بواسطة دولة ضد السيادة الوطنية أو للسلامة الإقليمية أو الاستقلال السياسي لدولة أخرى.

ب- إن المبادأة باستخدام القوة المسلحة من جانب إحدى الدول بما يتعارض مع الميثاق يوفر الدليل على وقوع عمل من أعمال العدوان.

ج- ثم إن قيام دولة من الدول بأفعال معينة هي عدوان حتى لو لم يسبقها إعلان الحرب، مثل الغزو أو هجوم القوات المسلحة لإحدى الدول ضد إقليم أو دولة أخرى، والحصار المصلح على موانئ أو سواحل دولة من قبل دولة أخرى، وسماح إحدى الدول لدولة أخرى بأن تستخدم إقليمها لممارسة العدوان ضد دولة ثالثة، وقيام إحدى الدول بطريقة مباشرة بإرسال عصابات مسلحة أو مرتقة للقيام بالتخريب ضد دولة أخرى، شريطة أن تكون هذه الأعمال من التهديد والخطورة بحيث ينطبق عليها وصف العدوان، وأنه لا يجوز الالتجاء إلى أية أعذار سياسية أو اقتصادية أو عسكرية لتبرير العدوان. ورغم هذا التحديد لمفهوم العدوان إلا أن الأمم المتحدة ظلت تواجه التحدي حول ضرورة وجود تعريف شامل وواقعي للعدوان.

٣- المشكلات الناجمة عن الفجوة الواسعة بين الدول الغنية والدول النامية، وهي أكبر تحديات أمام الأمم المتحدة، وخاصة اقتصادياً وتكنولوجياً، مما يولد عدم الثقة والتوتر في العلاقات بين الطرفين.

٤- إن الأمم المتحدة لا زالت بعيدة عن كونها سلطة عالمية فوق السيادة القومية للدول، وهو ما يدفع الدول للخروج عن قراراتها، مثل رفض إسرائيل الانسحاب من الأراضي العربية التي احتلت عام ١٩٦٧، تنفيذاً لقرارات الأمم المتحدة بهذا الشأن.

٥- إن الأمم المتحدة تعاني من عدم التجانس السياسي والفكري بين الدول المنضوية

في إطارها، بين شرقية وشيوعية، وغربية ورأسمالية، ويدخل في إطار للتكتل والصراع السياسي والفكري والقطبية، مما يعرقل حل المشكلات الدولية.

٦- السماح للدول الصغيرة بعرض وجهات نظرها في الأمم المتحدة؛ لأنها الأقل تمثيلاً في أجهزتها، وبالتالي تهمين الدول الكبرى على سياسات وقرارات المنظمة.

٧- عدم وجود قوة عسكرية فاعلية دائمة تحت تصرف مجلس الأمن لتنفيذ الأمن الجماعي بفقد للقرارات الدولية قوتها ضد الدول المعنوية، ويجعلها مجرد توصيات.

٨- إن سقوط الاتحاد السوفيتي والكتلة الاشتراكية وانتهاء الحرب الباردة أدى إلى ظهور للولايات المتحدة بمظهر القطب الواحد المهيمن على العالم، وتبلور ذلك بعد حرب الخليج الأولى ١٩٩٠-١٩٩١، حيث هاجمت قوات الحلفاء العراق لطرده من الكويت عقب غزوه في الثاني من أغسطس/ آب ١٩٩٠، وظهر للنظام العالمي الجديد في عهد الرئيس الأمريكي جورج بوش (١٩٨٩-١٩٩٣)، ثم هيمنة للولايات المتحدة على سياسات وقرارات الأمم المتحدة مع عدم وجود قوة عالمية تستطيع أن تردعها، وقد قامت العدوان على يوغسلافيا عام ١٩٨٩ دون شرعية دولية من الأمم المتحدة ومعارضة سوفيتية وصلت إلى حد التهديد بالفتنة، ولكن واشنطن دخلت بعمل انفرادي، وضربت بلغراد بقوة عسكرية كبيرة، وتبعها العدوان على العراق دون مظلة دولية في حرب الخليج الثاني عام ٢٠٠٣، رغم معارضة أغلب الدول الأعضاء في مجلس الأمن، وعندما فشلت واشنطن في الحصول على الأغلبية في المجلس، اعتمدت على لندن ومدريد في إطار لفراد دولي للعدوان لمدة ثلاثة أسابيع على العراق براً وبحراً وجواً، واحتلت البلاد، وأسقطت نظام الحكم للرئيس صدام حسين، وكسرت هيبة ومكانة الأمم المتحدة، وجعلتها في الحضيض^(٥٢).

الفصل العاشر

عصر الأزمات الدولية والعالم

الكتاب (١٩٥٧-١٩٧٨)

أولاً: أزمة برلين (١٩٥٨-١٩٦١)

شهدت أوروبا بشكل خاص قيام العديد من الأزمات في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وفي الخمسينات والستينات على وجه التحديد؛ بسبب دخول للعالم مرحلة جديدة من المنافسة الأيديولوجية العسكرية بين المعسكرين الشرقي السوفيتي والغربي الأمريكي.

ومن هذه الأزمات الأوروبية أزمة برلين (١٩٥٨-١٩٦١)، وكان نظام برلين الذي يعود إلى عام ١٩٤٥ ينص على وجود ثلاث مناطق احتلال غربية، ومنطقة سوفيتية في هذه العاصمة، وكانت للمناطق الثلاث للغربية تشكل في قلب الجمهورية الديمقراطية الألمانية الشيوعية نفسها طوقاً غربياً، وتتأقضا واضحا بين المستوى المعيشي العالي في الاقتصاد الليبرالي، واللبؤس في ظل النظام الشيوعي، وكانت المقارنة على أرض الواقع؛ حيث يلجأ سكان الديمقراطية إلى برلين الغربية من حين لآخر.

وتحديداً في (١٩٥٢-١٩٦١) قام حوالي ٢٢٤٥٠٠٠ لاجئ من الديمقراطية إلى الغربية الاتحادية، وهبط عدد سكان الأولى من ١٨٢٩٢٠٠٠ شخص عام ١٩٤٩ إلى ١٧٢٨٩٠٠٠ شخص في عام ١٩٥٩، وكان للكثير من هؤلاء المهاجرين من النساء والأطفال في سن العمل يحلمون بمستوى أعلى من الحياة.

وفي السابح والعشرين من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٨ أعلن والتر لولبرينخت الزعيم الرئيس في ألمانيا الديمقراطية أن الغربيين كانوا قد خرفوا اتفاقيات بوتسدام بتسليحهم جمهورية ألمانيا الغربية، وأنه بسبب هذا لم يعد لهم حق للبقاء في برلين التي يجب أن تصبح بعد توحيدها عاصمة لألمانيا الشيوعية.

وانفجرت الأوضاع عندما اتخذ خروشوف موقفاً في العاشر من نوفمبر/ تشرين الثاني في موسكو إلى جانب ألمانيا الشرقية، وصرح أنه حان الوقت لوضع حد لنظام الاحتلال في برلين، وأن على الدول الغربية التعامل مباشرة مع ألمانيا الديمقراطية؛ إذ إن هؤلاء لم يكونوا قد اعترفوا بوجود هذه الدولة، وأكد خروشوف أنه إذا رفضوا التفاوض مع الممثلين الشرقيين الألمان، واستخدموا القوة في دخول برلين

الشرقية "فإننا سنعتبر أن المقصود بذلك هو شن هجوم ضد الاتحاد السوفيتي وضد حلف نرصوريا".

وكان السوفييت قد صرحوا بأنهم سيجروا مفاوضات مع ألمانيا الديمقراطية لتحويل السلطات إليهم، وعدّوا أن عودة برلين الغربية إلى ألمانيا الديمقراطية هي الحل الأمثل، ولكن من المحتمل أن لا يقبل الغربيون بذلك، فإن موسكو تقترح تحويل برلين الغربية إلى وحدة سياسية مستقلة، ومدينة حرة لا بحق للألمانيين للتدخل فيها، ومدينة منزوعة السلاح تحت إشراف الأمم المتحدة، على أن يسمح اتفاق موقع مع ألمانيا الديمقراطية بالاتصال الخارجي الحر مع برلين الغربية.

فأخذت الأزمة تتجه إلى منحى خطير، وأنه خلال ستة أشهر إذا لم يتم للتوصل إلى مدينة برلين حرة فإن موسكو ستوقع سلاماً منفصلاً مع ألمانيا الديمقراطية.

وسرعان ما عد الغربيون خاصة (واشنطن - لندن - باريس) أن هذه الأزمة أكثر جدية وخطراً، لأنه إذا حصل وإن نفذ للسوفييت تهديدهم بعد ستة أشهر فإن ألمانيا الغربية ستجد نفسها مجبرة إما على التفاوض حول منفذ برلين عبر ألمانيا الديمقراطية وهذا يعني الاعتراف بها، وإما على استخدام القوة لضمان المرور، ومعنى هذا أن الاتحاد السوفيتي سيتدخل عسكرياً إلى جانب حليفه، وستشب حرب كونية نووية.

وكان لدى الغربيين موقفان: الأول بريطاني يعتقد أنه من الممكن للقيام بتبازلات عدة تؤدي إلى بخروشوف إلى التخفيف من حدة الإنذار، أما الثاني فيرى فيه ديفول وأليناور بأنه يجب للتفاوض مع لغة التهديد والإنذار، أما للولايات المتحدة فقد تردت بين الموقفين المذكورين، ولم تكن تسمح بنشوب حرب نووية تحصد الملايين من الأرباح من أجل أرض صغيرة في برلين الغربية، وأخيراً في انتخابات البلدية في الخامس من ديسمبر/ كانون الأول من عام ١٩٥٨، فإن الحزب الموحد لأفكار خروشوف هو الحزب الاشتراكي الموحد الموالي للشيوعيين لم يحصل إلا على ١,٩% من الأصوات.

ومن أجل التخفيف من الأزمة تم الاتفاق على عقد اجتماع بين السوفييت

والحلفاء الغربيين للتفاوض حول المشكلة في جنيف بين غروميكو من الاتحاد السوفيتي، وكوف دي مورفيل من فرنسا، وهارتر من الولايات المتحدة، وسلوين لويد من بريطانيا، وهم وزراء الخارجية في دولهم، مع حضور مرافقين من ألمانيا الاتحادية وألمانيا الديمقراطية، وفي أثناء المؤتمر توفي الرئيس الأمريكي فوستر دالاس في الرابع والعشرين من مايو / أيار ١٩٥٩ بسبب معاناة من مرض السرطان، وتوقف المؤتمر مؤقتاً، ولم يؤد إلى التوصل لنتيجة تذكر لأن اقتراحات الطرفين كانت متناقضة فالغربيون كانوا يقترحون توحيد ألمانيا بواسطة انتخابات حرة في حين كان السوفييت يريدون أن يتم ذلك عن طريق المفاوضات من دولة لدولة بين الألمانيتين، ورغم عدم التوصل لحلول جوهرية، إلا أن النتيجة كانت هي أن السوفييت بدأوا بلسيان فترة الستة أشهر أو الصلح المنفرد مع ألمانيا الديمقراطية، واستأنف المؤتمر في الثالث عشر من يوليو/ تموز ١٩٥٩، ولكن دون نجاح يُذكر أيضاً، ولكن أوعزت واشنطن لخروشوف بزيارتها في محاولة لإيجاد صيغة من التفاهم.

وصل خروشوف إلى الولايات المتحدة في سبتمبر/ أيلول ١٩٥٩، وقبل يومين من وصوله كان صاروخ سوفيتي قد وصل القمر، ووضع عليه العلم والشمعارات السوفيتية، وأعلن خروشوف ضرورة تفاهم البلدين لتجنب العالم للدمار والفوضى، والتقى ليومين مع الرئيس الأمريكي إيزنهاور في كامب ديفيد، وأوصل إليه الأخير فكرة أن نظام برلين الغربية لم يكن متكاملًا، وعند عودة خروشوف إلى بلاده صرح أن إيزنهاور كان رئيساً كبيراً، ودعا إلى أن تحيا للصدقة السوفيتية - الأمريكية.

وكان من بين القرارات التي اتخذها للرجلان الدعوة في مطلع عام ١٩٦٠ لعقد مؤتمر جديد يحضره ماكيلان من بريطانيا وديغول من فرنسا، واختيار باريس مقراً له بعد تردد من الأخيرة، وتحفظ على عقد المؤتمر لاعتقادها بعدم تحقيقه أية نجاحات، وتم عقد المؤتمر في السادس عشر من مايو/ أيار ١٩٦٠ حضره خروشوف، وبنيت ملامح فشل المؤتمر مع تصريح خروشوف إلى ديغول بأنه يريد من إيزنهاور أن يعتذر عن قيام للطائرات الأمريكية بالنجس فوق الأراضي السوفيتية، وعندما اجتمع الأربعة الكبار في قصر الأليزية جدد خروشوف طلبه بالاعتذار والوعد بأن لا

يتكرر التحليق من هذا النوع ثانية، وتوجه لايزنهاور بعبارات قاسية، واقترح تأجيل المؤتمر لعدة أشهر قادمة، واكتفى الأخير بالوعد بإيقاف التحليق طيلة فترة رئاسته، ورغم جهود ديمول التوفيقية بينهما، إلا أن المؤتمر فشل قبل أن يبدأ فعلياً.

ويبدو أن خروشوف اختلق قصة طائرات التجسس (بوه) لإفشال المؤتمر أو الحصول على تنازلات من الأمريكيين، وعندما فشل في ذلك لم يكن مستعداً لاستكمال أعمال المؤتمر والتوصل إلى أي اتفاق مع واشنطن.

وعاد الوضع للتوتر من جديد، وجدد خروشوف الحديث عن عقد معاهدة منفصلة بين الاتحاد السوفيتي وألمانيا الديمقراطية، وحضر اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك في سبتمبر/ أيلول ١٩٦٠، وألقى خطاباً عنيفاً ضد الولايات المتحدة والتي رأى بأنها تحل أسلوب اللصوصية والفدر محل القانون الدولي، وعندما تحدث للمندوب الأمريكي وأيده للمندوب الفلبيني حول حرية الشعوب - وخاصة التي تعيش تحت أنظمة حديدية شمولية - فإن خروشوف احتج بشدة وخلع حذاءه وضربه على الطاولة التي أمامه، أمام دهشة كبيرة من المشاركين في الجمعية العامة، ولكنه أكد عدم رغبته في دخول الحرب ضد الولايات المتحدة.

ولثناء ذلك تم إيجاد حل لمشكلة برلين، وبضغط من زعيم ألمانيا الديمقراطية والتر لولبريخت على أكثر ترجيح، وفي ليلة (١٢-١٣ أغسطس/ آب ١٩٦١) تمت إزالة الخط بين القطاع السوفيتي والقطاعات الغربية الثلاثة، وبدأت السلطات الألمانية الشرقية ببناء جدار تعلوه الأسلاك الشائكة، وبالتأكيد كان هذا عملاً استعراضياً بالأساس، ومساساً بالحرية الفردية، التي أنت لتمزيق العائلات بين القسمين الشرقي والغربي، ومن الناحية العملية كان جدار برلين يعني استحالة ذهاب سكان الشرقية إلى ألمانيا الغربية وإيقاف الضخ السكاني، والحق ضرراً بالاقتصاد الألماني الشرقي، وأوقفت الهجرة مع بقاء حالات تسلل قد تلاقي للنجاح أو القتل.

ومنذ هذا التاريخ الثالث عشر من أغسطس/ آب ١٩٦١ قرر أعضاء حلف فرسوفيا الموافقة على قرار جمهورية ألمانيا الديمقراطية، وتم بذلك تجاهل الاقتراح السوفيتي السابق لعام ١٩٥٨ لتغيير نظام ألمانيا الغربية، وبالإمكان القول إن لزمة

برلين قد انتهت عام ١٩٦١ عامة (٥٣).

ثانياً: أزمة كوبا

من أبرز الأزمات التي أثرت على علاقات الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كانت قضية كوبا، فالثورة الكوبية التي قامت من أجل الاستقلال سوف تشكل بالتدريج - وفي منطقة النفوذ الأمريكي - دولة اشتراكية ستقيم معها واشنطن حالة من العداء وللقطبة الدبلوماسية حتى الوقت الحاضر.

واجهت كوبا الجزيرة الصغيرة والمستعمرة الإسبانية القديمة والمستقلة منذ عام ١٨٩٨ عبر تاريخها آثار النفوذ السياسي الاقتصادي للأمريكتين، فهؤلاء احتفظوا فيها بقاعدة غوانتانامو، ومارسوا الحماية الحقيقية على هذه الجزيرة بين (١٩٠٣-١٩٣٤)، وكانت تبعية كوبا الاقتصادية وثيقة تجاه واشنطن.

كما أن كوبا كانت إحدى الدول الأمريكية اللاتينية الأقل فقراً، ويعمل ٤٣% من السكان في الزراعة، وتنتشر فيها البطالة.

وفي عام ١٩٥٩ كان مليار دولار في التوظيف الأمريكي في كوبا، ويسيطر الأمريكيون على ٤٠% من إنتاج السكر الذي يمثل ٨٠% من الصادرات للكوبية، ويملكون نصف أسهم سكك الحديد والكهرباء والتلفون، فأصبحت كوبا تحت رحمة واشنطن، بمقدورها أن تهددها بالانهيار والنفوضى الاقتصادية إذا ما توقفت عن استيراد السكر فحسب، وقيل في عام ١٩٦٠ أن مغير الولايات المتحدة في كوبا أقوى من الرئيس الكوبي بكثير.

وبين (١٩٣٤-١٩٥٨) كانت الحياة السياسية في كوبا قد طبعت بشخصية الكولونيل باتيسيا، وهو من التيار المحافظ، وكان رئيساً بين (١٩٤٠-١٩٤٤)، ثم عاد للسلطة عام ١٩٥٢ عن طريق انقلاب عسكري، وأقام ديكتاتورية عسكرية حتى عام ١٩٥٨، وتركت سلطته القوية آلافاً من الضحايا وروحاً من الاستياء في صفوف السكان من حكم باتيسيا، ومن واشنطن أيضاً التي كانت متهمة بحمايته.

في عام ١٩٥٢ قام انقلاب ضد حكم باتيسيا من قبل محام شاب، هو فيدل كاسترو (الرئيس الكوبي الحالي) بإطلاق ثورة مسلحة ضد النظام، وفي السادس

والعشرين من يوليو/ تموز ١٩٥٣ قام كاسترو مع مؤيديه وبعض الطلاب بشن هجوم مسلح على ثكنة عسكرية في مونكادا، لكنه فشل، واشتد القمع في البلاد، أما كاسترو الذي أعفي عنه في مايو/ أيار ١٩٥٥، فقد لجأ إلى المكسيك، وقام بتطويع المئات، من بينهم تقي غوفارا، وأعطى لحركته اسم حركة ٢٦ تموز تاريخ الهجوم الفاشل السابق للذكر.

وفي الثاني من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٥٦ - ومع الضربات من مؤيديه - نزل كاسترو إلى شواطئ كوبا، وفشلت الحركة، وهرب كاسترو إلى جبل للسيريا مايمسترا، وطور خلال سنتين حركته في هذه المنطقة، وفي عام ١٩٥٨ توقفت واشنطن عن إرسال الأسلحة إلى باتيستا، على أساس أنه من الأفضل لها أن لا تكون سمعتها مع أنظمة ديكتاتورية في أمريكا اللاتينية.

وفي أواخر عام ١٩٥٨ شن كاسترو وانصاره هجوماً ما لبث أن نجح؛ إذ سرعان ما تفكك جيش باتيستا، وفي مطلع عام ١٩٥٩ هرب باتيستا من هافانا، وقام كاسترو بتسمية مانويل لونيستا - وهو قاضي سابق - رئيساً لكوبا، وقرر الاضراب العام واستمر الكفاح المسلح، وبعد أسبوع دخل هافانا، واعتزلت واشنطن مباشرة بالنظام الجديد، وكان بداية نظام كاسترو الذي استمر حتى الوقت الحاضر.

كان كاسترو يرغب في التخلص من السيطرة الاقتصادية الأمريكية، ولم يكن ماركسياً في البداية، ولم يرغب بقطع الصلات مع واشنطن نهائياً، ولكنه سمح للحزب الشيوعي الكوبي بالعمل وقمع أنصار باتيستا بقوة، ومورست ضغوط شديدة على الرئيس إيزنهاور لاتخاذ إجراءات انتقامية ضد كاسترو، لا سيما مع تهديد الرساميل الأمريكية من قبل النظام الجديد في كوبا.

في أبريل/ نيسان ١٩٥٩ قام كاسترو بزيارة واشنطن، ولم يستقبله الرئيس إيزنهاور، وأعلن كاسترو احترامه للحريات العامة، وضمن الاستثمارات الأمريكية، ولكن لن تكون هناك انتخابات قبل البرنامج الثوري.

إلا أن موقفه المتروك والمعتدل هذا لم يلب للمساعدات الأمريكية للمادية، وعدم حصوله عليها، فد حوله نحو الموقف الجذري، وفي السابع عشر من مايو/ أيار ١٩٥٩

أعلن الإصلاح الزراعي باقتسام الأراضي بما فيها للعائدة لشركات أمريكية كبرى، ثم لكتشف البوليس الكوبي مؤامرة من قبل قائد للجيش الكوبي الذي هرب إلى الولايات المتحدة، حيث رفض التسلل الشيوعي إلى الجيش الكوبي، وصرح أمام مجلس الشيوخ الأمريكي بأن كوبا في طريقها لأن تصبح تابعاً سوفيتياً.

وبدأ التوتر بين واشنطن وهافانا منذ هذا الوقت، واتهم كاسترو واشنطن بتجميع غارات للكوبيين من فلوريدا باتجاه بلاده، وبدأ التقارب مع موسكو، ووقع اتفاقاً تجارياً، وشجع الحركات الثورية في أمريكا الوسطى، وأخذ يتوجه نحو الماركسية منذ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٩، وأبعد العناصر للمعتلة من السلطة، وزاد من صلاحيات أخيه رؤول وتشي غيفارا رجل حرب العصابات، وهاجم واشنطن بعنف في خطباته، ووقع في الثالث عشر من فبراير/ شباط ١٩٦٠ اتفاقاً تجارياً مع الاتحاد السوفيتي لشراء الأخير خمسة ملايين طن من السكر الكوبي خلال خمس سنوات، وصانر المؤسسات الأمريكية منذ آذار/ مارس من العام نفسه، واتخذت واشنطن إجراءات ضده مثل وقف استيراد السكر، وتدريب اللاجئين الكوبيين لقلب نظام حكم كاسترو، وقطع المساعدات المالية الأمريكية عن هافانا، وأعلنت كوبا في الثامن من مايو/ أيار ١٩٦٠ علاقاتها الدبلوماسية مع موسكو، وصرحت الأخيرة أن لها علاقات صداقة حميمة مع كوبا، بل لها تفكر في استخدام كل قواتها العسكرية إذا ما تعرضت كوبا للتهديد الخارجي، وأعلن غيفارا عام ١٩٦٠ أن كوبا أصبحت من الآن جزءاً من المعسكر الاشتراكي إلى جانب الاتحاد السوفيتي والصين.

ثم قام كاسترو بتغيير تفكيره لأن يكون شيوعياً، ودعم حركة العصابات في أمريكا اللاتينية، ثم ردت واشنطن بالحظر الشامل على التجارة مع كوبا، وأخيراً في مطلع عام ١٩٦١ قامت بقطع علاقاتها الدبلوماسية والقنصلية مع كوبا.

قضية خليج الخنازير:

وصل الرئيس الديمقراطي الجديد جون كينيدي إلى السلطة في الحادي والعشرين من يناير/ كانون الثاني ١٩٦١، وأعلن أنه لم يعد معادياً لكوبا في مسألة التدخل العسكري، وسمح بمتابعة جهود المخابرات والتحقيقات الفيدرالية لمساعدة

المعارضين الكوبيين للتحضير للحملة على كوبا.

ولم تتردد (CIA) وكالة للمخابرات المركزية الأمريكية في ضم المؤيدين لباتيسستا والليبراليين ورجال العصابات، وأعطى كيندي موافقته النهائية على مشروع (CIA) حاول ابعاد أنصار باتيسستا، وشكل مجلساً ثورياً كوبياً، برئاسة خوسيه ميروكا ردونا لإقامة نظام ليبرالي معتدل ومعاد للشيوعية، وتم تثبيت عملية الإنزال في خليج الخنازير المفصول عن الايسكامبري بحوالي (٨٠) كم من المستنقعات.

بدأت العملية في الخامس عشر من أبريل/ نيسان ١٩٦١ بقصف جوي مكثف من طائرات (B٢٦)، وكان الهدف هو القضاء على الطيران الكوبي، وبعد يومين تم الإنزال في خليج الخنازير، وكانت كارثة كبيرة، وتم إيقاف اللاجئين الكوبيين على الشواطئ، وخرج الفلاحون للقتال ضد الأمريكيين على العكس مما توقعوا، ووقع أكثر الغزاة أسرى لدى القوات الكوبية، ولكن لم يكن ثمة تدخل أمريكي مباشر، بل إن للطائرات الأمريكية قامت بحماية الغزاة اللاجئين الكوبيين، وكان العالم يدرك أن واشنطن وراء كل هذا، مع الفضل الكبير الذي منيت به، ومرعان ما استبدل آلن دالاس مدير الـ (CIA) المسؤول الأول عن هذه العملية، وتشدد كاسترو في مواقفه من إدانة الدول الأمريكية اللاتينية، وأعلن في الأول من مايو/ أيار أن كوبا ستبني قريباً مستوراً اشتراكياً، وفي السادس والعشرين من يوليو/ تموز أسس حزباً وحيداً من اندماج الشيوعيين وحركة السادس والعشرين من يوليو/ تموز وبعض المجموعات الثورية الأخرى، وفي الثاني من ديسمبر/ كانون الأول أعلن في خطابه أنه ارتبط نهائياً بالماركسية اللينينية.

بعد هذه الأزمة أمن كاسترو بوجود التهديد الأمريكي بالغزو لبلاده، مع استمرار الطائرات الأمريكية بالتجسس على كوبا، والسماح للاجئين الكوبيين بالتطوع في الجيش الأمريكي، والمناورات الأمريكية الكبرى في الكاريبي، واستمرار الصحف الأمريكية في حملاتها ضد كوبا بلهجة وخطاب عدائي شديد، وهكذا طالب كاسترو بحماية سوفيتية أكثر فاعلية، وقام رلوزول وغيفارا في صيف عام ١٩٦٢ بزيارة موسكو، وطلب منها اتخاذ إجراءات توضع كوبا بمعزل عن العدوان الأمريكي، وقد

ولفّق خروشوف على ذلك.

وقد أعلم كيندي بالموقف السوفيتي الجديد، وبينت الصور وجود منصات إطلاق صواريخ قيد الإنشاء على الأراضي الكوبية، وأعلن في الثاني من سبتمبر/أيلول ١٩٦٢ في بيان سوفيتي - كوبي أن موسكو سوف تقدم الأسلحة والمدرّبين والعسكريين لكوبا، مع تأكيد خروشوف على عدم اللجوء إلى أي عمل عدائي ضد واشنطن.

وجد للرئيس كيندي نفسه أمام اتخاذ قرار حاسم ومصيري بين (١٦-٢٢) أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٢، وبعد مشاورات طويلة مع مستشاريه ووزرائه، وطرح كل السيناريوهات المتوقعة في المواجهة مع السوفيت بشأن أزمة الصواريخ السوفيتية على الأراضي الكوبية، تقرر أخيراً طلب الولايات المتحدة من الاتحاد السوفيتي سحب الأسلحة الهجومية السوفيتية من كوبا، ودعّم هذا الحل أعضاء مجلس الأمن القومي ومدير الـ (CIA) جورج ماك كون، ووزيرا العدل والخزانة، ومستشارو البيت الأبيض والرؤساء الأمريكيون (هوفر وترومان وإيزنهاور).

وفي الثاني والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٢ لقي كيندي مساءً خطاباً تلفزيونياً، أكد فيه استعداده لمواجهة هذه الأزمة الخطيرة، وبفرض الحصار والإكذار، وأبلغ موسكو ولندن وباريس بهذا القرار، ومنظمة الدول الأمريكية والأمم المتحدة، وأشارت استطلاعات الرأي إلى أن ٨٤% من الأمريكيين يؤيدون سياسة الحصار ويساندون كيندي.

لما خروشوف فكان مدركاً للقوة الذرية الأمريكية، وتأثر بالقرار الأمريكي الأطلسي بالعودة، واقترح خروشوف عبر وسيط غير رسمي في السادس والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٢ تسوية الأزمة على أساس الشروط التالية:

- ١- سحب الاتحاد السوفيتي صواريخه تحت إشراف مراقبين من الأمم المتحدة، ويتعهد بعدم إدخالها مرة جديدة إلى الأراضي الكوبية.
- ٢- يتعهد الأمريكيون بعدم غزو كوبا.

وأبلغ خروشوف كيندي في رسالة أخرى أن الهدف الوحيد من إرسال هذه

للسواريخ هو حماية كوبا، فوافق الأخير على تسوية النزاع على أساس مقترحات خروشوف، ثم أعلن الأخير موافقته على ما جاء من موقف كيندي.

وهكذا تخلص العالم من شبح حرب نارية كونية، علماً بأن كاسترو لاحتج على هذه التسوية، وقال إن الدولتين ومعها للقوى الكبرى اتفقت ووقعت على شيء يتعلق ببلد صغير، دون أن يستشار بالأمر، وعدّ أن خروشوف قد الحقّ به الإهانة، لذا رفض دخول المراقبين من الأمم المتحدة إلى بلاده، لأنه سيكون إذلالاً حسب اعتقاده، وقدم لفتراحيته من أجل كسب تعاونه، وهي وقف الحصار الاقتصادي، ووقف نشاطات الإنزال المظلي التخريبية، ووقف إرسال الأسلحة والجواسيس، ووقف هجمات القرصنة التي تقوم بها الطائرات الأمريكية، ووقف عمليات انتهاك المجال الجوي للكوبي من الطائرات الأمريكية، وانسحاب الأمريكيين من غوانتانامو.

لكن كيندي رفض هذه الشروط، ووجد خروشوف نفسه في موقف حرج، وبعد مفاوضات طويلة بين الوفد السوفيتي وكاسترو في هافانا، وافق الأخير على تفكيك (٤٢) صاروخاً ومنصة إطلاق سوفيتية، ورحيل طائرات الإليوشن ٢٨، ووافق على التفتيش على الأرض من قبل المراقبين الدوليين مع بقاء الضغوط والتهديدات الأمريكية عليه، ولكن للتوتر ظل بين موسكو، وهافانا ومنذ ذلك الوقت بدأ كاسترو يتعد تدريجياً عن الماركسية السوفيتية نحو الشيوعية الصينية.

وهكذا فإن أزمة السواريخ في خليج الخنازير هي أكثر المراحل أهمية في التاريخ الأوروبي والدولي منذ عام ١٩٤٥، ولم يشهد العالم أزمة على هذا الشكل بعد ذلك^(٥١).

ثلاثاً: الديغولية وإضعاف المعسكر الغربي

واجهت أوروبا مصاعب أخرى في عقد الستينات، ففي فرنسا تصاعد دور الجنرال ديغول بعد حرب الجزائر خاصة من عام ١٩٥٨ والتي قادت ديغول إلى السلطة كرئيس لمجلس الوزراء في الأول من يونيو/حزيران ١٩٥٨، ومن ثم كرئيس للجمهورية نهاية عام ١٩٥٨، وترافق هذا مع أحداث الثورة في الجزائر للعاصمة في الثالث عشر من مايو/أيار ١٩٥٨، حيث ثار العنكان الفرنسيون من أصل أوروبي ضد

الحكومة المتهمة بأنها تريد التخلي عن الجزائر، وأسهم هؤلاء الثائرون في استقدام ديغول إلى السلطة، وتجنب البلاد شبح الانهيار، وإعادة الجيش إلى الطاعة، وسيكون بمقدور هذا الرجل أن يطور سياسة فرنسا للخارجية؛ ليجعل منها بلداً رئيسياً في الساحة الأوروبية والدولية.

واجه ديغول منذ عام ١٩٥٨ مسألة السوق الأوروبية المشتركة، وكان خصماً عنيداً للتكامل الأوروبي على صعيد السياسة الأوروبية، إلا أنه أثبت العكس من ذلك والتقى للمستشار الألماني كونراد ديناور في سبتمبر/ أيلول ١٩٥٨، واتفق معه على الدفاع عن السوق المشتركة ضد التهديد الذي تمثلته لقرارات بريطانيا في إقامة منطقة تجارية للتبادل الحرّ التجاري تضم كل الدول الأوروبية الغربية، وبفضل جهود ديغول، وأديناور تمّ التخلي عن المقترحات البريطانية، واكتفوا بإقامة منطقة صغيرة للتبادل الحرّ تضم بريطانيا، مع سويسرا، النمسا، البرتغال، الدانمارك، النرويج، السويد، وفنلندا.

ومن جانب آخر طلب ديغول من الرئيس ليزنهاور استبدال قيادة الأطلسي الأمريكية للصرفة، بقيادة ثلاثية من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، ولكن ليزنهاور كان معانياً لهذا للرأي، فضلاً عن رفض بريطانيا؛ لأنها ستخسر الحليف الأمريكي الاستراتيجي، ورفض ألمانيا وإيطاليا؛ لأنه سيحرمهما من البقاء في السلطة العليا، فشلت محاولة ديغول ولو مؤقتاً.

كان الجنرال ديغول يسعى إلى إنهاء الشقاق في الشعب الفرنسي وتوحيده، ويرفض على الصعيد الأوروبي إنشاء أوروبا المتكاملة، فتحرّم الأطراف الداخلة فيها من استقلالها، ويريداً فيدرالية - أي أوروبا - كدول تتشاور فيما بينها من أجل سياسة خارجية موحدة ومشتركة، تقوم أساساً على التعاون الفرنسي - الألماني، وبدأ مع المستشار ليزنهاور مفاوضات من أجل معاهدة تعاون فرنسية - ألمانية وقعت في الثاني والعشرين من يناير/ كانون الثاني ١٩٦٣، نصّت على لقاءات منتظمة بين رؤساء الحكومات والدول الخارجية وكل الوزراء؛ لتنمية العلاقات بين البلدين.

أما خارجياً فيرى ديفول ضرورة تطوير أوروبا سياسة خارجية مشتركة تعطىها استقلالاً عن واشنطن، ويحرر الأوروبيون من الهيمنة الأمريكية، وخاصة فرنسا، وأعلن عام ١٩٦٣ في إحدى المؤتمرات الصحفية عن معارضته الشاملة لمشروع الرئيس كينيدي لتوحيد القوى الاستراتيجية في حلف الأطلسي بطريقة ما تحت قيادة أمريكية، وأكد أن فرنسا تريد امتلاك دفاعها الوطني الخاص، وامتلاك قوة ذرية خاصة بها، مع التنسيق بذلك مع حلفائها.

إلا أن شركاء فرنسا الخمسة ردوا بسخط على فيتو الجنرال ديفول، لأن ألمانيا وهولندا لهما مصالح تجارية مع إنكلترا، ويريدون دخولها السوق المشتركة، وإيطاليا تخشى من التقارب الألماني - الفرنسي أن يمارس الهيمنة على أوروبا، ويفضلون عليها الهيمنة الأمريكية؛ لأنها قوة عسكرية واقتصادية كبرى تستحق ذلك.

وأدت أزمة السوق الأوروبية المشتركة إلى توجيه انذارين فرنسيين أدبا إلى المقاطعة لأعمال السوق، وأخيراً تم قبول الخمسة الشركاء لعقد تسوية لإعادة فرنسا إلى الجماعة، وخففت الحكومة الفرنسية من حدتها بعد إعادة انتخاب الجنرال ديفول لرئاسة الجمهورية في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٦٥، ورجعت فرنسا للمشاركة في اجتماعات السوق الأوروبية المشتركة، وظلت الأجواء متوترة رغم هذه العودة، وتم بعض التقدم في التوقيع في بروكسل في الثامن من أبريل/ نيسان ١٩٦٥ على معاهدة تنص على دمج (الجماعة الأوروبية للفحم والفلاد) و(الذرة الأوروبية) و(السوق المشتركة)، ثم إلغاء حقوق الكمارك في الأول من يوليو/ تموز ١٩٦٨ بين الدول الست، وتخفيض حدة للتعرفة الخارجية بين الدول، وأصبحت السوق الأوروبية منطقة تبادل حر داخلي، لكن بعيدة عن تحقيق هدفها على المستوى الاقتصادي؛ لأن التعاون لم يكن شاملاً أو سريعاً في الكثير من القضايا حتى الكمارك نفسها، والضرائب والتصنيع والرقابة وغيرها.

لما الأزمة الأخرى التي واجهتها فرنسا للديغولية فهي أزمة منظمة الأطلسي، فقد رفضت فرنسا بقوة للقوة النووية المتعددة الجهات التي اقترحها الأمريكيون،

وأصبح ليندون جونسون رئيساً للولايات المتحدة بعد اغتيال كينيدي، وكان جونسون قليل الاهتمام بالشؤون الأوروبية واهتمامه الأساسي بحرب فيتنام، ولهذا اتخذ ديغول سلسلة إجراءات ومبادرات للاستقلال تجاه الولايات المتحدة، أحدثت استياء في داخلها ولبعض شركاتها (أي شركاء فرنسا)، مثل ألمانيا، وتعرض للمستشار ليناور بسبب تقاربه مع فرنسا إلى العداء، وكان عليه أن يقدم استقالته، وخلفه وزير اقتصاده لودينج لرهارد في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٦٢، وأصبح التقارب واضحاً مع واشنطن على حساب باريس.

أما سياسة فرنسا للابتعاد عن الهيمنة الأمريكية فكانت في سلسلة من الإجراءات، وهي الاعتراف بالصين الشعبية في يناير/ كانون الثاني ١٩٦٤، وقطع العلاقات مع فورموزا الصينية التي تؤيدها واشنطن.

ثم زار ديغول بعد شهرين المكسيك، ولقي استقبلاً حافلاً عده الأمريكيون تخطاً في شؤون القارة اللاتينية، ثم في الشهر التالي طالبت فرنسا في مؤتمر دول جنوب شرق آسيا بتحييد فيتنام الجنوبية، وبهذا كانت مناقضة للسياسة الأمريكية.

ثم إن ديغول كان قد رسم منذ سنوات سياسة التقارب مع أوروبا الشرقية، وأشار إلى إمكانية خلق أوروبا من الأطلسي إلى الأورال في مستقبل غير محدد، وأكد في منتصف عام ١٩٦٤ مقولته الشهيرة: "إن توزيع الكون بين المعسكرين اللذين تقودهما واشنطن وموسكو يستجيب لكل فلك للوضع الحقيقي .. فإن على أوروبا السعي لأن تكون أوروبية".

ثم قرر ديغول الانسحاب الفرنسي للعسكري من منظمة حلف الأطلسي، واستعادة فرنسا كامل أراضيها وممارسة سيادتها للشاملة، وإن توقف مشاركتها في القيادة المتكاملة، وإن لا تضع أي قوة تحت منظمة الأطلسي، أي إن فرنسا تظل حليفة لواشنطن وميثاق حلف الأطلسي، لكنها ترفض للتكامل في السلام للناتو الذي انشئ عام ١٩٥٠ بالنسبة لجيوش الدول للقارية الداخلة في التحالف.

وكان هذا القرار الفرنسي له تبعات ومشكلات أوروبية - أوروبية، هي:

١- يفرض إجلاء القواعد الأمريكية والكندية من فرنسا.

٢- يشير إلى أن طائرات حلف الأطلسي لن يكون باستطاعتها التحليق فوق الأراضي الفرنسية.

٣- يجب إجلاء كل مصادر التموين وطرق المواصلات وأنابيب البترول ومخزونات للعتاد وغيرها من الأراضي الفرنسية لو عبرها لدول أخرى.

٤- من الناحية النفسية يبدو أن هذه الخطوة إضعاف للحلف، وتؤدي إلى انهياره.

٥- توفقت القوات الفرنسية المرابطة في ألمانيا عن تلقي مساعدات للحلف منذ الأول من يوليو/ تموز ١٩٦٦.

٦- توفقت القوات الفرنسية الجوية والبحرية عن ذلك، وسحبت اعداد للموظفين للفرنسيين الملحقين بالقيادة للحليفة المتكاملة.

٧- تم نقل القيادة العليا للحليفة في أوروبا وقيادة وسط أوروبا ومعهد دفاع منظمة الأطلسي من الأراضي الفرنسية عام ١٩٦٧، وبالفعل نقلت القيادة العامة للحلف إلى بروكسل، ومعهد للدفاع إلى روما.

٨- مغادرة جميع القواعد والمنشآت الأمريكية والكندية من الأراضي الفرنسية في الأول من أبريل/ نيسان ١٩٦٧.

٩- أعلنت الحكومة الفرنسية في الثالث من يوليو/ أيار ١٩٦٦ أن إجازات تحليق للطائرات التابعة للحلفاء فوق الأراضي الفرنسية قد توفقت على أساس قاعدة سنوية، وسيتم ذلك على أساس شهري، وباخطار مسبق قبل شهر منها.

ثم ازداد التوتر الفرنسي - الأمريكي مع رحلتين لديغول، الأولى إلى موسكو في (٢٠ يونيو- ١ يوليو ١٩٦٦)، وكان يعد التقارب مع الدول الشرقية ممكناً، وأعلن في الزيارة بيان ختامي حول إنشاء لجنة مختلطة فرنسية سوفيتية للتعاون الاقتصادي والعلمي وإطلاق كوكب اصطناعي فرنسي بدعم سوفيتي.

أما الرحلة الثالثة (٢٥ أغسطس - ١٢ سبتمبر ١٩٦٠) إلى جيبوتي وأنغوييا وكمبوديا، وألقى في الأخيرة بتصريحات حول حرب فيتنام عدها الأمريكيون مهينة،

وألقي ديغول مسؤولية الحرب على الأمريكيين، واتهم سبب التدخل العسكري في فيتنام.

ثم في حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ ازداد التوتر بين واشنطن وباريس مع تأييد ديغول للحرب، واتهمه الأمريكيون بالانحياز إلى جانب السوفييت بهذا الشكل، وبدأ أن فرنسا في الشرق الأوسط وفيتنام تبتعد عن الولايات المتحدة. وقام ديغول بزيارة كندا في نهاية عام ١٩٦٧، وحصل من الحكومة الكندية على السماح بالتوقف أولاً في كيبيك ومونتريال، حيث تعود اللغة الفرنسية، وأشاد بالروابط الثقافية للفرنسية - الكندية وسط استقبال شعبي كبير، وأكد في خطبه على دعمه لاستقلال كيبيك وللفرنسية الأم بين شعوبها، مما أثار استياء الحكومة الكندية والولايات المتحدة أيضاً.

وحاول الجنرال ديغول منذ عام ١٩٦٥ الهجوم على النظام النقدي العالمي، وأراد دعم الفرنك الفرنسي مقابل الدولار في التعاملات النقدية، وسعى في الرابع من فبراير/ شباط ١٩٦٥ إلى أن يعلن في مؤتمر صحفي عن أن حد للتبادل الذهبي يجب أن يتغير لصالح العملات الأوروبية التي حددت الآن حسب رأيه، ولا قيمة لأن يكون لهذه المكانة السامية كعملة دولية بعد الآن، وسارعت فرنسا لتمويل احتياطياتها من الدول إلى ذهب، وارتفع ثمن الذهب إلى الدولار، ونتج ارتباك نقدي عالمي، إلا أن الحقيقة أن نضال الفرنك أمام الدولار كان ضعيفاً، ولحقت بفرنسا أزمة مالية عام ١٩٦٨، وانخفضت فجأة قيمة الفرنك الحقيقية، ثم قرر ديغول فجأة أن الفرنك لن يتحرك، واتخذ سياسة نقدية، وتم تقديم مساعدة من الحلفاء لفرنسا، وأوضح ديغول في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٩ أنه بحاجة إلى دعم أمريكي من أجل مساعدة الفرنك الفرنسي.

ثم أخيراً استقال ديغول بعد استفتاء السابع والعشرين من أبريل/ نيسان ١٩٦٩ وخلفه جورج بومبيدو.

في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تبتعد عن خطر المواجهة، وكأنها تضعف من تلاحم حلف الأطلسي، فإن المعسكر الاشتراكي عرف هو الآخر أيضاً مواقف مشابهة. وكانت سياسة خروشوف الخارجية قد أدت إلى أزمات، ولم تكن المشكلات الزراعية قد حلت في البلاد، وكان خروشوف عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، ورئيساً لمجلس الوزراء، وله قيادة الحكومة والحزب، وكانت اللجنة المركزية تتمنى أن يتقدم خروشوف باستقالته ليبقى على رأس الحكومة.

وبعد أن أوحى برحيله فإن خروشوف بقي، وهذا ما فسر ثورة الكرملين عليه في الخامس عشر من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٦٤، ويبدو أن الانتقال الأساسي الذي يوجه له هو عدم اهتمامه بمسائل العقيدة والمصلحة التي يعلّقها على صناعة للمواد الاستهلاكية على حساب الصناعات الثقيلة، وسمح سقوطه بالعودة إلى القيادة الجماعية للفعالية.

وفي البداية ظهر خمسة رجال هم بريجنيف، وأصبح أميناً عاماً للحزب، وميكويان وكوسيجين نواب الرئيس، وسوسلوف وبودغورني، ثم أصبح كوسيجين رئيساً للحكومة، وبريجنيف رئيساً للحزب، ولعب بودغورني دور رئيس الدولة، أي الصوفيات الأعلى، أما ميكويان نفسه فلم يلبث أن اعتزل، وفي المؤتمر الثالث والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي في إبريل/ نيسان ١٩٦٦ بدا وكأن القيادة تعود إلى بريجنيف وكوسيجين وحدهما، وكان تيار الثنائي يؤيد لدفع الانفراج، وتيار الأول يؤيد لسياسة أكثر تشدداً، وكان مدعوماً من المؤسسة العسكرية، أما كوسيجين فكان يؤيد أكثر من بريجنيف للقضاء على المساكنة، وقام بريجنيف بمحاكمة وتوقيف للكتاب والمتقنين، وثبت في العالم كله الرأي للقاتل أن الاتحاد السوفييتي يبقى نظاماً توتاليتارياً يحرم مكانه من الحريات الأساسية للمواطن، وأخيراً نجحت أفكار بريجنيف على كوسيجين منذ مطلع عام ١٩٧٠، وانعكس الرفض في تحرير حياة السوفييت، والذي

يميز السياسة الداخلية للاتحاد السوفيتي عن العلاقات مع الديمقراطيات الشعبية في أوروبا الشرقية.

وقد برزت المشكلات أمام المعسكر السوفيتي في اجتماع أغسطس/ آب ١٩٦١ (المجلس للمعونة الاقتصادية المتبادلة) الكوميكون، فخروشوف المشغول بالمنافسة الاقتصادية مع الدول الرأسمالية كان قد توصل إلى فكرة الاختصاص في المهمات بين مختلف الدول الاشتراكية، علماً أنه يعاكس فكرة الاستقلال الوطني نفسها. ويقوّي هذا الاختصاص من صلاحيات أكبر للشركاء الاتحاد السوفيتي، ولا يتلّقى مع مصالح مختلفة لأعضاء المنظمة، وعلى الصعيد الصناعي كانت رومانيا إحدى الدول الشرقية الأقل تطوراً، فإنتاجها الصناعي للفرد الواحد في عالم ١٩٦٢ لم يصل إلا إلى ثلث الإنتاج في ألمانيا الديمقراطية، ودخلها الوطني للفرد الواحد لم يكن يمثل سوى ٤٥% من دخل تشيكوسلوفاكيا.

وتبين ان للجنة المركزية للحزب الشيوعي الروماني كانت قد أعلنت تأييدها للاستقلال الاقتصادي، وثم للسيادة الوطنية، ونجح الرومانيون في عام ١٩٦٣ في لاجتماعات الكوميكون من تحقيق أهدافهم.

ثم قررت رومانيا الحيلاد الكلي بين بكين وموسكو، وكثفت تجارتها مع الصين، وأعادت العلاقات مع ألبانيا حليفة الصين، ووقف الرومانيون ضد فكرة عقد مؤتمر دولي للأحزاب الشيوعية الموالية للروس، يكون هدفه إدانة الصين، ثم نشرت اللجنة المركزية للرومانية في أبريل/ نيسان ١٩٦٤ إعلاناً حقيقياً لاستقلال رومانيا، بأن من حق السيادة لكل دولة اشتراكية إقامة واختيار وتغيير أشكال وطرق بنائها الاشتراكي، ولا يوجد حزب لب أو لين أو حزب أعلى أو حزب أدنى، بل ثمة فقط عائلة كبرى للأحزاب الشيوعية والعمالية ذات حقوق متساوية.

وهكذا ابتعد المسؤولون الرومانيون تدريجياً عن الاتحاد السوفيتي، وفي سبتمبر/ أيلول ١٩٦٣، أغلقت رومانيا مؤسسة مكسيم غوركي، أي المركز الثقافي للسوفيتي الرئيس في رومانيا، ولم يعد تعليم الروسية إجبارياً، وعاد الرومانيون للكلام

عن بشاريبا التي ضمها السوفييت عام ١٩٤٠، وتوقف تصويت رومانيا في الأمم المتحدة عن ان يكون مرتبطاً بتصويت الاتحاد السوفيتي، وقام شاوسكو الأمين العام للحزب ورئيس الحكومة بإعادة طرح قضية وحدة للمعسكر الاشتراكي باسم المصلحة الوطنية، ورفض الرومانيون المشاركة في الاجتياح السوفيتي لجيكوسلوفاكيا في أغسطس/ آب ١٩٦٨ إلى جانب الدول الأعضاء في حلف ولرشو، بل وجهوا لوماً وانتقاداً للسوفييت، ودلت رومانيا على قدرتها على الاستقلال عندما استقبلت لأول مرة في مايو/ أيار ١٩٦٨ أول رئيس غربي هو الجنرال ديفول، ثم الرئيس الأمريكي نيكسون في أغسطس/ آب ١٩٦٩.

٢- الصين:

بدأ الخصام بين الاتحاد السوفيتي والصين عام ١٩٦٣، وسوف يتفاقم فيما بعد، ولم يؤد سقوط خروشوف إلى أي تهدئة عام ١٩٦٤، وراح الصينيون يتكلمون عن مجموعة بريجنيف وكوسيفين المنحرفة، وأنهم القيصرية الجدد، واستمر هذا الصراع من أجل السيطرة على الأحزاب الشيوعية في العالم، ولكن مع نجاح واضح للسوفييت، باعتبار ان معظم الأحزاب الشيوعية بقيت مؤيدة للاتحاد السوفيتي.

إلا ان الملفت للظن هو تعدد مشكلات الحدود (١٩٦١-١٩٦٢) بين مقاطعة سين كيانغ الشرقية والاتحاد السوفيتي، وحاول خمسون ألفاً من أصحاب الجنسية الصينية الانتقال إلى الاتحاد السوفيتي، وأغلق الصينيون الحدود، وقمعهم وثار المسلمون الصينيون في وادي الابللي الذي ينحدر نحو الاتحاد السوفيتي، وبدأ من عام ١٩٦٣ بروز مطالب صينية رسمية ضد (معاهدات أيفون وبكين)، المفروضة على الصين من روسيا للقيصرية في القرن التاسع عشر، ثم ندد ماونسي تونغ في العاشر من يوليو/ تموز ١٩٦٤ بتعديلات السوفييت الإقليمية منذ مئة عام تقريباً، وإن منطقة شرقي بحرية للباركال أصبحت أرضاً روسية، وثم منذ ذلك الوقت فإن فلاديفو ستوك وخابا روفسك والكانشاك وغيرها أصبحت مناطق سوفييتية.

ونشر الصينيون في عام ١٩٦٤ خارطة الأقاليم الصينية التي استولى عليها

الإمبراليون، ومنها أراضي الشرق الأقصى السوفيتي في شمال شرق الصين التي استولوا عليها، وقسم كبير من الجمهوريات السوفيتية في كازاخستان وكورخيري وطاجكستان.

لما بالنسبة السوفيت، فإن هذه المكاسب لم يكونوا على استعداد للتنازل عنها، وإن أغلبية سكان المناطق هذه من الروس، وأكد بودغورني في عام ١٩٦٦ على حصانة حدود الاتحاد السوفيتي.

وعندما اندلعت عام ١٩٦٦ للثورة الثقافية على يد ماوتسي تونغ في الصين لم تعد علاقات مع السوفيت، وأعلن مسؤول صيني أن مليوناً ونصف المليون من الكيلومترات المربعة من الأراضي الصينية قد سرقها الروس في القرن التاسع عشر، وأكثر من خمسة آلاف جاثت حدود قد افتعل من الروس بين (١٩٣٠-١٩٦٨)، وأرسلت تعزيزات روسية إلى الشرق الأقصى، وصلت إلى (١٢) فرقة أولية، و(٥) فرق احتياطية. ثم في عام ١٩٦٧ وجه للصينيون المشتائم إلى السفير السوفيتي، ونظم الطلاب الصينيون في موسكو هجناً، واضطرت الشرطة لقمعهم، وفي عام ١٩٦٩ وعلى طول الحدود من نهر أوموري راغد الأمور قام حرس الحدود والقوات النظامية في البلدين باشتباكات عدة عن طريق احتلال وإعادة احتلال جزيرة غير ذات أهمية في البحر، وبسببها الروس دلمانسكي، وأكد كل من البلدين أنها تعود إليه، وأرسلت إليها قوات عسكرية، وتصاعدت اللهجة العظيمة بينهما، ولانتهت بمفاوضات نهاية العام، وبدا وكان النزاع بين السوفيت والصينيين داخل المعسكر الاشتراكي، واختفت الفكرة للقاتلة إن التناقض غير قائم بين الدول الاشتراكية، وكان المصلحة الوطنية التي نادى بها ديفول تتفوق على الانتماء الأيدلوجي.

٣- تشيكوسلوفاكيا:

كانت تشيكوسلوفاكيا تُعدّ من أكثر الدول التابعة وفاءً لروسيا الستالينية، وكان النظام التشيكي الوحيد بين الدول الأوروبية الشرقية الذي دخلت في النفوذ السوفيتي، وعرف من قبل ديمقراطية برلمانية حقيقية وحرية مضمونة، وبقي الحنين لهذا النظام

حيًا فيها، رغم أن غالبية السكان لم تكن راغبة في العودة إلى النظام الرأسمالي، وقد ضمن الأمين العام للحزب الستاليني القديم نوفوتني في عام ١٩٦٢ بعض التحرر، وفتح الباب قليلاً، إلا أن عام ١٩٦٧ شهد اتجاهات مغايرة، وأثناء مؤتمر الكتاب في الثامن والعشرين من يونيو/ حزيران ١٩٦٧ في براغ انتقد البعض سياسة الحكومة، ونكروا بالحرية وللديمقراطية التي كانت تتمتع بها تشيكوسلوفاكيا قبل الحرب، أي معارضة المتقنين لمواضيع معينة في السياسة الداخلية، ولم ينجح نوفوتني في كسر معارضة الكتاب، وحصل - أكثر من هذا - انقسام على صعيد اللجنة المركزية للحزب، وفي أواخر عام ١٩٦٧ بين الليبراليين والمناهضين لهم، وكان الليبراليون بقيادة سكرتير الحزب دوبشيك.

امتدت الحركة التي أطلقها المتقنون إلى الطلاب وأوساط أخرى بعد ذلك، مثل العمال، واستقال نوفوتني من الحزب، وخلفه دوبشيك في الخامس من يناير/ كانون الثاني ١٩٦٨، وبقي نوفوتني رئيساً للبلاد، لكنه أجبر على الاستقالة في مارس/ آذار واستبدل بالجنرال لونييك مفهوبودا، وكان دوبشيك مقتنعاً بإمكانية عدم قيام نظام اشتراكي في أجواء الحرية، الأمر الذي كان يسير ضد السلطة الديكتاتورية وضد العقيدة الموحدة في الاتحاد السوفيتي، وعرضت العقيدة الجديدة في وسط أبريل/ نيسان ١٩٦٨ في برنامج عمل الحزب، ووافق الحزب على قيام أحزاب أخرى غير شيوعية، وتحرير الإعلام، وإلغاء الرقابة على الصحافة، وحرية حق السفر إلى الخارج، وأعيد اعتبار ضحايا للنصف، وتم تعويضهم مالياً ومطوياً.

وكانت للظاهرة التشيكية تختلف كلياً عن الظاهرة الهنغارية عام ١٩٥٦ وللرومانية كذلك، فقد شهدت هنغاريا إقصاء تدريجياً للشيوعيين، في حين أن للقادة الشيوعيين التشيكوسلوفاكيين كانوا يقودون بأنفسهم الصراع من أجل التحرر، وفي رومانيا كان المقصود تحرير الدولة من الوصاية السوفيتية، إلا أن تحرراً آخر لم يكن مسموحاً به في الداخل، في حين أن تشيكوسلوفاكيا - وبتحرر من الداخل وعلى أساس الاعتماد على الذات - كانت تعلن عن ولايتها الكامل لحلف فرسوفيا.

أما رد فعل السوفييت فكانت للتجربة التشيكية خطيرة بالنسبة لهم، لأنها قد تتحول إلى عدوى لشعوب شرقية لأوروبية أخرى، وهذا ما حصل بالفعل، فقام طلاب في يونيو ١٩٦٨ في فرسوفيا وأستاذة وكتاب بولنديون معجبون بها بمظاهرات، وسُمّي (ربيع براغ)، فعلى غرار ما حدث في الجامعات الفرنسية، بدأ هؤلاء بالمظاهرات التي وصلت إلى أحداث دامية بين الشرطة والطلاب في فرسوفيا، وأعلن المتقنون والطلاب التشيكيون تضامنهم مع ضحايا القمع في بولندا، وكان من الصعب بالنسبة للسوفييت قيام بلد اشتراكي يتمتع بالحريات لداخلية بوجه نظام قائم على الإجبار لدى جيران مثل الاتحاد السوفيتي وألمانيا للديمقراطية.

وكانت ثمة ظاهرة معارضة للعقيدة الشيوعية والمصالح الوطنية السوفيتية، ثم إن الاتجاه المتشدد في الاتحاد السوفيتي بقيادة بريجنيف انتصر أكثر على اتجاه كومسين الذي كان نفوذه من خلال المؤسسة العسكرية بشكل بارز، وكان المارشال وزير للدفاع غريشكو مؤيداً للقضاء على الظاهرة التشيكية، واعتقد السوفييت أن باستطاعتهم التصرف بالطريقة نفسها مع هنغاريا في عام ١٩٥٦، أي إيجاد شيوعيين أصوليين يمكن أن يحلوا محل الشيوعيين الليبراليين في فريق دوشيك، ثم قاموا بتشديد مواقفهم في يوليو/ تموز ١٩٦٨ على أساس وجود تهديد من ألمانيا الغربية قائم، لذا فإنه يجب أن تكون دول حلف فرسوفيا قلابة في كل مناسبة على استخدام الأراضي التشيكية من أجل الحفاظ عليها.

ويجب أن نشير أنه قبل وصول الليبراليين إلى السلطة كان السوفييت قد تسللوا إلى الشرطة والجيش والجاوسمية في تشيكوسلوفاكيا، ومنذ ربيع براغ تم استبعاد هؤلاء للعملاء، وفي الحادي والعشرين من أغسطس/ آب قام الجيش الأحمر وقوات أربع دول في حلف فرسوفيا (بولندا، هنغاريا، ألمانيا الشرقية، بلغاريا) بعملية اجتياح للأراضي التشيكية، وتم احتلال مركز اللجنة المركزية، ولوقف الروس دوشيك وقادة آخرين، ورفض الرئيس التشيكي سفوبودا أن يقوموا بعزل هؤلاء، لأنه من صلاحياته وحده، وعلى عكس ما توقع السوفييت - عندما اجتمعت اللجنة المركزية - استبدل

المولون السوفييت، واعلنت اللجنة تأييدها لدوبشنيك وبرنامج عمل الحزب، ورفضت كل عودة إلى الأوضاع السائدة من قبل، أي يناير/ كانون الثاني ١٩٦٨، ورفض الإعلاميون ان يكونوا تحت رحمة المحتلين، وظلت أجهزة الأمن وفيّة لمسؤولي الحزب، وعقد مؤتمر استثنائي سري للحزب في براغ، وأخيراً في الثاني والعشرين من أغسطس/ آب عاد بريجنيف إلى الواقع، واستنتج ان الوضع في تشيكوسلوفاكيا أكثر خطورة مما كان بظن، وكان لا بد من للتفاوض.

ولفتحت للمفاوضات في الثالث والعشرين من أغسطس/ آب في موسكو مع الجنرال سفوبودا ومع دوبشنيك وجماعته الذين أطلق سراحهم لهذا الهدف، واضطر السوفييت للتنازل جزئياً، وقبلوا بموجب اتفاقية موسكو في الخامس والعشرين منه بالإبقاء على الفريق الليبرالي، إلا ان هذا الأخير اضطر إلى التنازل والوعد بوضع أكثر ليبرالية، ووعد المسؤولون التشيكيون باتخاذ اجراءات تشجع على تقوية الاشتراكية وحكم للعمل من أجل مراقبة وسائل الإعلام كي تقوم هذه الأخيرة بخدمة قضية الاشتراكية بكل طاقاتها، وهذا يشير إلى إعادة فرض بعض المراقبة على الأقل، وكان هناك تفكير للجلاء تدريجياً في المستقبل عن تشيكوسلوفاكيا من جانب السوفييت وحلفائهم بمجرد ان يتم استبعاد التهديد المخيم على الاشتراكية في تشيكوسلوفاكيا.

وفي الثامن عشر من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٦٨ تم التوقيع على معاهدة من أجل البقاء المؤقت للقوات السوفيتية، وكان على الجمعية التشيكية المصانقة عليه، وبقي للمسؤولون الليبراليون في مناصبهم، ولكنهم كانوا مجبرين - بسبب التهديد الخارجي واحتلال القوات الأجنبية لأراضيهم - على تخفيف ليبراليتهم كثيراً.

إلا ان التأثير المتنامي للعسكريين في حكومة موسكو - ولا سيما المارشال غروشكو الذي يدعم بريجنيف - أدى إلى تطور جديد في أبريل/ نيسان ١٩٦٩ على أساس إشاعة بالتحضير لانقلاب عسكري موالي للسوفييت، وان نفوذ الرئيس سفوبودا وحده هو الذي أحبطه، ونجم عن ذلك هيجان اتخذ طابعاً جنونياً أثناء حادث عرضي عندما انتصر فريق التزلج التشيكي على السوفيتي، فقامت مظاهرات حاشدة في كافة

أرجاء البلاد، متخذة إطاراً مناهضاً للسوفييت، ولكن هذه المرة تحت تأثير المارشال غريشكو، ولأن الجنرال سفوبودا كان يريد احتمالاً تجنب الأسوأ، قررت اللجنة المركزية استبدال دوشينيك في مركز السكرتير الأول بسلوفاكي آخر هو ليبرالي اسمه هوساك، ويسمى لسياسة تسوية مع السوفييت، وبعد شهر استبدل قادة آخرون تدريجياً، وعاد إلى السلطة فريق مؤيد لإعادة القمع والضدة بدل الحرية، وأغلقت الحدود التي كانت قد فتحت أمام التشيكوسلوفاكيين من قبل.

كان تأثير التحرك السوفيتي كبيراً ليس على مستوى تشيكوسلوفاكيا فحسب، بل على الصعيد الغربي، حيث عبرت الدول الغربية عن استنكارها، وكذلك فعلت عدة أحزاب شيوعية إيطالية ورومانية ويوغسلافية، ووقف للحزب الشيوعي للفرنسي ضد للتدخل السوفيتي العسكري، وهذا ما شكل تغييراً كبيراً بالمقارنة مع ولاء هذا الحزب منذ أربعة عقود من الزمن^(٥٥).

٤ - بولندا وهنغاريا:

واجه الاتحاد السوفيتي أيضاً تحديات لا تختلف عن مواها في رومانيا وتشيكوسلوفاكيا، وهذه المرة من بولندا وهنغاريا في محاولة لإصلاح لوضاعها الداخلية، وتغيير وتطوير للأسس التقليدية للحياة الاقتصادية، والتي ستعكس على مجمل الأوضاع السياسية والاجتماعية.

ففي هنغاريا اتبع النظام - للذي وصل إلى السلطة عقب أحداث عام ١٩٥٦ - سياسة خارجية مطلقة التأييد للاتحاد السوفيتي في الشؤون الخارجية، وهو الموقف الذي أتاح لقيادته أن تتبع سياسة اقتصادية تجرب فيها أساليب جديدة لإدارة اقتصادها، وهي سياسة (ديناميكية اقتصادية جديدة) تقوم على تنظيم الاقتصاد الاشتراكي عكس النموذج السوفيتي من خلال مركز وسلطة اتخاذ القرارات حول الإنتاج والاستثمار، وتحديد الأسعار، وأسندت هذه الوظائف في هنغاريا إلى مديري المشروعات الذين أعطى لهم الحق في وضع خططهم الخاصة بشكل يستجيب مع الامكانيات الانتاجية المحلية وتحديد الأسعار وفقاً لمتطلبات الأسعار.

إلا ان نتائج هذه السياسة الاقتصادية الجديدة تعود إلى الالتحاق بركب الغرب من قروض وتكنولوجيا وآلات، مما يساهم في إضعاف الدور السوفيتي على اقتصاديات هنغاريا، ثم أثرها الأيدلوجي في دور موسكو في التجربة والتطبيق في العالم الاشتراكي، ثم يؤثر في النهاية على سلطة الحزب الشيوعي وقياداته المولدة لموسكو وطموحاتها السياسية والاقتصادية من مهنيين ومتقنين ومدراء، ولهذا وجد النظام في هنغاريا نفسه مجبراً - حتى لا يعزل الأساس الشيوعي للمجتمع عن أكثر العناصر الحيوية فيه - على التوسع في الحريات المدنية، ولتأاح بحذر للفرص أمام الجماعات ذات المصالح الخاصة للاشتراك في العملية السياسية.

إلا ان المأزق الذي تفرضه هذه السياسات هو تأثيرها على حل العلاقة بين المجتمع الهنغاري والسلطة والنفوذ الأيدلوجي الشيوعي السوفيتي، وسوف يُنظر السلطة السوفيتية على أنها سلطة غير شرعية من جانب الطبقات، وإذا ما تم استخدام لغة للقوة ضدها فإنها سوف تحول الرعب الستاليني إلى تدمير لشرعية السلطة، ويُبعد النظام عن الاتحاد السوفيتي.

أما بولندا فإن عناصر وامكانيات بروز توترات وفوضى في نطاق العلاقات مع الاتحاد السوفيتي ليست أقل من ذلك، فقد تقبل خروشوف عام ١٩٥٦ مجيء جومولكا كعنصر معروف بقوميته لامتناس أحداث العام ذلك، إلا ان تطور الرجل كان عكسياً، فقد بدأ مقبولاً للعناصر القومية في عام ١٩٥٦، وانتهى مرفوضاً منها في نهاية الستينات من مزارعين ومتقنين ورجال كنيسة، ومن العمال الذي يفترض ان النظام يمثلهم، وكان هذا من جراء القلاقل التي وقعت في بولندا في نهاية عام ١٩٧٠، ولدت إلى خلق جومولكا، ومجيء جيرك في ديسمبر/ كانون أول ١٩٧٠.

هذا وكانت عوامل التغيير في المجتمع البولندي - ضد الوضع الراهن - في ثلاث جهات في مجال الحريات المدنية، للتخطيط الاقتصادي وقيامه على النموذج السوفيتي، ثم الاعتماد على الاتحاد السوفيتي في الأمور الاقتصادية، كل هذه الضغوط كانت تحمل راية للقومية البولندية، وأصبح أي نظام يتجاهلها يخاطر بأنه سيُبعد نظاماً

غير وطني.

أما ما يطالب له البولنديون فهو الاشتراك الكامل في العالم المعاصر من خلال احترام الذات، بحيث إن الاستجابة لهذا المطلب القومي ربما تنفع من جديد إلى تجديد الهزات والمشاعر القومية، وانعكس هذا في تأييد بولندا لسياسة الوفاق بين الشرق والغرب، حيث تشعر قيادتها أن هذا الإطار من العلاقة يعطيها مجالاً أوسع للارتباط والتعامل مع واشنطن والغرب، بحيث لا يؤثر غضب موسكو.

إن الاستنتاجات التي يمكن للتوصل إليها من أزمة المعسكر الاشتراكي الشيوعي، وعلاقة موسكو مع دول أوروبا الشرقية قد جعل موسكو تستخدم رنود فعل عنيفة لمواجهة الحقوق من هذه الدول، وأسفرت عن عدم استقرار في أوروبا، جعل البعض يعتقد أن الاجراء العسكري السوفيتي ضد براغ قد منع حرباً عالمية، لأن شرق أوروبا ظل مركزاً لعدم الاستقرار والاضطراب وقيلام الحريين العالميتين الأولى والثانية.

ثم إن الانقسام داخل المعسكر السوفيتي قد جعل العداء بين موسكو وحلفائها أكثر من عدائها لواشنطن نفسها، وأصبحت الصين تنظر إلى موسكو باعتبارها أكثر خطراً من الولايات المتحدة.

وأشارت هذه الأحداث إلى أن الاتحاد السوفيتي سيظل ينظر إلى أي علاقة أقل من الولاء من جانب دول في شرق أوروبا كتهديد لأمنه العسكري والسياسي، وإن للضعف الاقتصادي والسياسي لدول شرق أوروبا المصحوب بالخوف من عودة ظهور للخطر الألماني سوف يسمح للاتحاد السوفيتي بالاحتفاظ بعلاقاته المتميزة مع هذه الدول، وإن الاتحاد السوفيتي لن يتردد - وحسب ما أثبتته الأحداث - من استخدام للقوة العسكرية إذا ما رأى أن في ذلك ضرورة للحفاظ على أمنه الاستراتيجي والأيدلوجي في شرق أوروبا.

خامساً: ألمانيا الغربية والسياسة الجديدة

قام التحالف الذي شكل الحكومة الائتلافية في ألمانيا الغربية بإعادة للنظر في عدة قضايا بعد تطور مفاهيم الوفاق بين موسكو وواشنطن لثر الأزمة الكوبية عام

١٩٦٢، وكان مجيء حكومة ائتلافية بديلة لإعادة للنظر في مفهوم للوفاق هذا، فإذا كان الاعتقاد الذي ساد السياسة الألمانية قد اعتُبر أن إعادة توحيد ألمانيا هو حجر الأساس في الوفاق، فإنها الآن قد غيّرت من أولوياتها على أساس أن لا تحمل سياسة الوفاق في أوروبا شروطاً مسبقة، وبدأ الإدراك بتعمق بأن مشكلة ألمانيا لا يمكن أن تُحلّ في مناخ للحرب الباردة.

لما الانفصال الثنائي فهو التخلي عن نظرية هالشتين، وتعديل المبدأ الذي كان يحول دون إقامة علاقات دبلوماسية مع الدول غير الاتحاد السوفيتي التي تقيم علاقات مع ألمانيا الديمقراطية، ولهذا سمحت بقيام علاقات مع لقطار حلف وارثو، أما النظرية فإنه سيظل محتفظاً بها مع الدول غير الشيوعية.

وهكذا أقامت حكومة بون علاقات دبلوماسية مع رومانيا مطلع عام ١٩٦٧ وجست نبض براغ وبودابست وصوفيا.

إلا أن تطور السياسة الخارجية الألمانية كان العنصر الحاسم، وبلغ هذا التطور مداه في انتخابات سبتمبر/ أيلول ١٩٦٩، حيث تولى للحزب الديمقراطي الاشتراكي للحكم للمرة الأولى منذ جمهورية فايمار، ولتُبنت سياسة ألمانيا نحو الشرق لها المصدر الذي انطلقت منه للتطورات التي تلت، لا في ألمانيا الغربية وعلاقتها مع أوروبا الشرقية وألمانيا الديمقراطية والاتحاد السوفيتي فحسب، بل وفي علاقات الشرق والغرب عامة، وارتبطت هذه السياسة بمجيء للمستشار الألماني ويلي براندت إلى الحكم عام ١٩٦٩، وترافق مع التقارب الفرنسي والسوفيتي والسحاب فرنسا من حلف الناتو، وتورط واشنطن في فيتنام والعزلة التي عانتها، مما دفع حكومة التحالف التي جاءت إلى الحكم للبدء في أن تتخلى عن السياسات الجامدة الموالية للحزب وسياسات أديلر المعادية للسوفييت، إلا أن ما قامت به حكومة براندت هو تطوير هذا المفهوم ووضعه في إطار متكامل.

وفي خطاب براندت أمام البرلمان في الثامن والعشرين من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٦٩ عرض مناقشة قضايا خلافية أساسية على أساس المساواة التي تؤدي إلى

عقد اتفاق مع ألمانيا الشرقية، وأقر بوجود دولتين ألمانيتين، وأصر على أن حكومته لن تقبل لبدأ دولة أجنبية في ألمانيا الديمقراطية، وأن علاقة خاصة يجب أن تصاغ بين الدولتين الألمانيتين، وعرض التفاوض لعقد معاهدات عدم استعمال للقوة مع دول شرق أوروبا بما فيها ألمانيا الديمقراطية، وإقامة حكومة جديدة بخطوات أكثر فاعلية وإيجابية، وعلى أثر دعوة سوفيتية لعقد مؤتمر الأمن الأوروبي والتي صدرت عن وزراء خارجية حلف واثو في الحادي والثلاثين من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٦٩ ليست بون الدعوة أكثر من أي عاصمة أوروبية أخرى، وأعلن برلنت أن حكومته وبلاده لن تعارض في اعتراف دولة نالئة بألمانيا الديمقراطية.

وهكذا وفي خريف عام ١٩٦٩ بدأت بون تقيم اتصالاتها مع موسكو على أساس سياسة (Ostpolitik)، والهدف العام منها هو أن تقيم بون صلات مع للشرق مثلها مثل بقية الدول الأخرى، وبالفعل نشأت اتصالات بين وزير الخارجية السوفيتي وبين ليجور بار للذي عينته حكومة بون لكي يتولى مع جروميكو، ثم تولى التفاوض بعد هذا عن ألمانيا الغربية والفرشيل وزير خارجيتها على أسس، هي:

أ- إن العلاقات السوفيتية - الألمانية يجب أن تقوم على أساس نبذ استعمال للقوة، وعلى نموذج علاقات ألمانيا للفيدرالية مع القوى الغربية للثلاث.

ب- إن حكومة بون تقترض أن محادثات القوى الأربع حول برلين سوف تضمن العلاقة الوثيقة لغرب برلين مع حكومة بون والاتصالات للمنظمة إلى برلين.

ج- إن الاتفاقيات المقترحة مع الاتحاد السوفيتي وبولندا وألمانيا للشرقية وغيرها من دول حلف وارشو يجب أن تساهم في للوفاق، وأن يُنظر إليها كوحدة واحدة.

وقد وقعت بالفعل في الثاني عشر من أغسطس/ آب ١٩٧٠ الاتفاقية بين

ألمانيا والاتحاد السوفيتي، ونصت على ما يلي:

أ- أن جمهورية ألمانيا الاتحادية والاتحاد السوفيتي تعتبران أن من الأهداف العامة لسياستهما صيانة السلام للعالمي وللوصول إلى للوفاق، وهما تؤكدان سعيهما نحو تطبيع للموقف في أوروبا وتطوير العلاقات السلمية بين جميع للدول الأوروبية، وهما

تقومان بذلك انطلاقاً من الوضع الفعلي للقائم في المنطقة.

ب- وفقاً للأهداف والمبادئ السابقة فإن جمهورية ألمانيا الاتحادية والاتحاد السوفيتي تشتركان في الاقتناع بأن للسلام يمكن ان يتحقق في أوروبا ما لم يضمن أحد الحدود القائمة، ولذلك فهما تتعهدان باحترام - وبلا تحفظ - للتكامل الإقليمي لكل دول أوروبا في نطاق حدودها الراهنة، وهما تعلنان انه ليس لهما مطالب إقليمية ضد أي أحد أو لهما مطالبان بذلك في المستقبل، وسوف تعدان اليوم وفي المستقبل ان حدود كل من أوروبا لا يمكن انتهاكها، وبالوضع الذي كانت عليه يوم توقيع الاتفاقية الحالية، بما في هذا الخط الانديس الذي يشكل الحدود الغربية لبولندا، والحدود بين ألمانيا الغربية وألمانيا الديمقراطية.

وأكدت بون في رسائل موجهة إلى حكومات موسكو وواشنطن ان الاتفاقيات هذه لن تؤثر على أية دولة كبرى أخرى، ولقد هذا إعلان صدر عن وزير الخارجية السوفيتي، ثم ردت الحكومة الأمريكية - في مذكرة في الحادي عشر من أغسطس/ آب عام ١٩٧٠ موجهة إلى حكومة ألمانيا الفيدرالية - بتأكيدا وفهما للاتفاقية التي ستعقدها مع الاتحاد السوفيتي، وان حكومة الولايات المتحدة تعد أيضاً ان حقوق ومسؤوليات للقوى الأربع - فيما يتعلق ببرلين وألمانيا ككل، والتي قررتها نتائج الحرب الثانية، والتي انعكست في اتفاقية لندن في الرابع عشر من نوفمبر/ تشرين الأول ١٩٤٤ والإعلان الرباعي في الخامس من يونيو/ حزيران ١٩٤٥، والاتفاقيات التي عقدت خلال وبعد الحرب - لا يمكن ان تتأثر باتفاقية ثنائية بين ألمانيا الاتحادية والاتحاد السوفيتي في هذه المعاهدة الحالية.

وعكست المذكرة هذه تخوف واشنطن من هذه المعاهدة؛ لانها تمثل نصراً سوفيتياً؛ لانها كانت الاوضاع الإقليمية التي نجمت عن الحرب الثانية، ومن الاحتمال أيضاً ان تؤدي سياسة الاتجاه شرقاً بوجه عام إلى التأثير على وحدة الناتو بتشجيع للدول الأوروبية على السلوك المستقل عن واشنطن في علاقتها بموسكو، وهو ما سوف يؤدي إلى تقليل سلطة واشنطن في مفاوضاتها مع موسكو.

إلا إن ما أنقذ سياسة التوجه شرقاً والمعاهدة أيضاً من أن تكون في صالح جالب واحد فحسب، هو جعلها الاتفاق الرباعي حول المرور إلى برلين الذي عقد في سبتمبر/ أيلول ١٩٧١ شرطاً أولياً للتصديق على المعاهدة للصوفيتية الألمانية، وهو ما تم في الثاني والعشرين من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٧٢.

وعلى الرغم من الادفات من قبل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي حول تصرفات كل منهما في مناطق مصالحها الحيوية، فإن الأزمات التي واجهت للكتلتين الشرقية والغربية في تشيكوسلوفاكيا أو ألمانيا الغربية أو كوبا وغيرها أظهرت حقيقة أن شرق أوروبا منطقة النفوذ الحيوية للاتحاد السوفيتي، وأن أمريكا اللاتينية منطقة نفوذ الولايات المتحدة، وأنهما تمثلان منطقتين عازلتين لابعاد أي حرب في حدود القوتين، وبذلك تم تجنب حدوث مواجهة مباشرة أو شبح حرب كونية ثالثة بين القطبين للكبيرين طوال العقود المنصرمة إبان الحرب العالمية الثانية^(٥٦).

الفصل الثاني عشر

الأحلاف الدولية والحرب

الباردة وتأثيراتها على القارة

الأوروبية



أولاً: ماهية الحرب الباردة والأحلاف الدولية

يُعد استخدام مصطلح الحرب الباردة إلى فترات بعيدة، حيث كانت تُوصف بها العلاقات الإسلامية - المسيحية في أيام الحروب الصليبية من الخلافات والتوترات والتعاضد للطق والحروب، وغيرها من سمات الصراع.

ثم أصبح هذا المصطلح يشير في العصر الراهن إلى حالة عدم الوفاق التي نشأت بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وكذلك لصراع بين الكتلتين الشرقية الاشتراكية والغربية الرأسمالية.

إن وصول الشيوعية إلى روسيا في عام ١٩١٧ قد وطّد النفور بين الشرق والغرب، لأن دول الغرب التي تسمى نفسها ديمقراطية صارت دولاً استعمارية رأسمالية، ولهدلت أفكارها الليبرالية بمعالجة تشير إلى أن كل شيء من أجل جمع المال، ولذلك أعلنت حرباً شعواء على الاشتراكية في كل مكان، وزاد من إحقاد الرأسمالية على الشيوعية وعلى الاتحاد السوفيتي، إعلان الأخير للحرب علانية على الاستعمار، وتحريض شعوب العالم الثالث على النضال والمقاومة والقتال ضده، ونشر الكثير من المؤامرات والاتفاقيات السرية التي خططت لها ووضعتها الدول الاستعمارية من أجل فضحها، وقد هزت الوضع الراهن وكيانه للقيام.

ولذلك لم تعترف الدول الغربية الأوروبية بحكومة لينين، ووقفت جماهير كبيرة إلى جانب الديكتاتوريات اليمينية التي حملت راية محو الشيوعية من العالم، ورفعت راية رأس المال والاستعمار والعنصرية، وبذلك ولجأت الأنظمة الشمولية في أوروبا كالنازية والفاشية هيمنة الدول الغربية للرأسمالية، وأعلنوا العداء لها في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين.

وحيث جاءت الحرب العالمية الثانية وفقت الدول الشمولية (المحور) مع روسيا الشيوعية ضد الدول الرأسمالية، وفي ظل الصراع العسكري الشرير خلال سنوات الحرب كان للزعماء من الطرفين ينتظرون حل ولنتهاء الصراع، وخاصة الدول الغربية للرأسمالية التي تطمح إلى القضاء على التحدي النازي والفاشي والياباني، وأن

تخرج بقوة الهيمنة على العالم، ولكن عندما لاحت نهاية هذه الأنظمة الديكتاتورية ظهرت المنافسة سياسياً وعسكرياً فيما بينهم، وحاول الأمريكيون أن يسلعوا في تحرير الأجزاء الأكبر من أوروبا قبل أن يسلع السوفييت القادمون من الشرق إلى ذلك، وخاصة شرق أوروبا المجال الأكثر اهتماماً بالنسبة لهم.

وبرزت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية دولة واحدة أكثر نفوذاً وسطوة هي الولايات المتحدة الأمريكية، واستغلت من كونها دخلت الحرب في وقت متأخر من جهة، واستغلت من غنائمها وإنجازاتها الكبيرة، وكانت الأقل تضرراً من ويلات الحرب ومصائبها.

لما الاتحاد السوفيتي فخرج من الحرب بالدرجة الثانية مقارنة بالولايات المتحدة من اللواحي العسكرية والاقتصادية وغيرها.

وسمّعت واشنطن إلى بسط هيمنتها ونفوذها السياسي الاقتصادي والعسكري على العالم بما فيها مناطق النفوذ السوفيتية التقليدية في شرق أوروبا، وبرزت وكأنها وريثة للدول الغربية الأوروبية التقليدية السابقة (فرنسا وبريطانيا)، وراحت تفرض نفوذها على مناطق مختلفة من العالم من آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط خاصة، سواء عبر للقوات العسكرية، أو التهديد السياسي، أو الأحلاف والمساعدات الاقتصادية، وباستخدام كافة نفوذها وطاقاتها كطريقة للهيمنة على مختلف الدول بحجة تطويق للخطر الشيوعي.

لما الاتحاد السوفيتي فحاول جاهداً مواجهة هذا التطويق الأمريكي، وإقامة حلف مواجه لرد التيار الأمريكي عبر مساندته للثورات الوطنية والتحريرية في العالم الثالث سياسياً وعسكرياً ومعنوياً كحد أننى، وحدثت مواجهات في أكثر من مكان في الصين، وكوبا، وكوريا، وهايتام، وكلها وقف السوفييت إلى جانب الأنظمة الشيوعية فيها، ودعموها بحيث وصلت إلى حد المواجهة المباشرة مع الولايات المتحدة والتي أُنذرت بقيام حرب كونية ثلاثة.

١- مبدأ ترومان:

كان هذا أول إعلان أمريكي في الثاني عشر من مارس/ آذار ١٩٤٧

يدعو إلى إنقاذ العالم من الشيوعية ومخاطرها، وفيه وعد للرئيس الأمريكي هاري ترومان بمساعدة ودعم واشنطن لأي نظام حكم يطلب تلك المساعدة ضد التوسع السوفيتي، أو محاولة الانقلاب ضده من قبل الشيوعيين هناك، وأعلن ترومان أمام الكونغرس الأمريكي أنه يجب أن تكون سياسة الولايات المتحدة مساندة للشعوب الحرة في محاربة لقلبات مسلحة في داخل أراضيها، ودعمها ضد أية ضغوط عليها من الخارج، وأقر الكونغرس دعم لليونان وتركيا مالياً بمبلغ قدره (٤٠٠) مليون دولار لمحاربة الأحزاب اليمينية في اليونان والحزب الشيوعي هناك، وتدعم تركيا ضد الضغط السوفيتي عليها.

كانت اليونان دولة ملكية قبل الحرب العالمية الثانية، وحاول موسوليني أن يحتلها في بدء الحرب ولم ينجح، ولما احتل هتلر للبلقان احتل أيضاً اليونان فيها، وتعاونت الأحزاب اليمينية اليونانية مع الحكم النازي هناك، وتشكلت في اليونان بعد احتلالها (جبهة التحرير الوطنية) لتحارب الاحتلال النازي، وترغم هذه الاشتراكيون والشيوعيون اليونانيون، واستهدفهم الاضطهاد النازي.

عندما خرجت الجيوش الألمانية من اليونان عام ١٩٤٤ حررت الجبهة الوطنية أكثر من ثلثي البلاد، وبدأ الجيش البريطاني ينزل في شواطئ اليونان الجنوبية، وبدعم الأحزاب اليمينية ضد جبهة التحرير، ونشبت بين الفريقين حرب أهلية طالت حتى عام ١٩٤٩، وبجهود كبيرة من الجيش البريطاني وبمساعدة الولايات المتحدة للمادية والعسكرية بعد مبدأ ترومان للمذكور ربحت الأحزاب اليمينية، وأُنقذت بلاد اليونان من جبهة تحريرها.

وظلت اليونان ملكية حتى الانقلاب العسكري الذي صار هناك عام ١٩٦٧، وكل المؤشرات تدل على أن الولايات المتحدة دبرت مثل هذا الانقلاب، وأصبحت اليونان بعد هذا الانقلاب ديكتاتورية عسكرية تدعمها واشنطن، حتى تأمر بعض الضباط الذين حكموها مع ضباط في قبرص لعمل انقلاب على للنظام الجمهوري هناك الذي كان يرأسه رئيس أساقفة قبرص مكاريوس، وحدث الانقلاب في عام ١٩٧٤ في قبرص، وكان من أسباب التخلص من مكاريوس هو رفضه للوحدة مع اليونان ورفضه

الأحلاف الأمريكية؛ إذ كان مكاريوس ممن دعم حركة عدم الانحياز، وكان رفضه للوحدة مع اليونان لأن ذلك سيثير الأقلية التركية عليه، ويعطي تركيا العذر لتتدخل عسكرياً في الجزيرة، وهذا جرى بعد فترة قصيرة من الانقلاب؛ إذ نزل الجيش التركي على الشواطئ الشمالية من الجزيرة، واحتل الجزء الأفضل منها، ورفض الخروج منها.

وبعد احتلال تركيا شمال قبرص حدث انقلاب على حكومة الضباط في اليونان، وعادت البلاد للحكم الجمهوري.

أما تركيا فقد ظلت على الحياد في الحرب العالمية الثانية، وكانت قد تعهت في مجتمع منترو في سويسرا عام ١٩٣٦ - الذي حضرته معظم الدول البحرية - بأن لا تسمح في حالة حرب تكون فيها تركيا على الحياد بدخول سفن دول متحاربة في المضائق التركية للبسفور والدردنيل.

ولما جاءت الحرب العالمية الثانية وأصبح الجيش الألماني على حدود تركيا بعد احتلال البلقان أخذت تركيا بالسماح سراً لسفن ألمانية حربية بالدخول للبحر الأسود، واحتجت موسكو لاسطنبول، ولم يجد احتجاجها نفعاً، ولما بدلت ألمانيا بخسائر المعارك في الحرب توقفت تركيا عن نقض تعهدها، وأوقفت المرور السري للسفن الألمانية عبر المضائق.

أعلنت تركيا في الثاني من أغسطس/ آب ١٩٤٤ الحرب على ألمانيا، ولما انتهت الحرب طالب متالين من تركيا تفسير موقفها هذا، وإن يتم تعديل اتفاق منترو ليضمن للاتحاد السوفيتي ما لم تنفذه تركيا من قبل، وكل هذه التطورات حفزت ترومان لما سمي بإنقاذ تركيا من الضغط السوفيتي^(٥٧).

٢- مشروع مارشال:

عانت أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية من مشكلات اقتصادية وبنية وكماد، وأصاب القلق الإدارة الأمريكية؛ لأن الحرب قد تزيد لمبة العاطلين عن العمل والذين سينضمون إلى الأحزاب اليسارية الشيوعية في أوروبا، ولذلك قام وزير الخارجية الأمريكي جورج مارشال - وفي خطاب له في جامعة هارفارد الأمريكية في الخامس

من يونيو/ حزيران ١٩٤٧ بإعلان ما سمي مشروع مارشال، قال فيه: إن الولايات المتحدة مستعدة لتقديم المساعدات المالية لكل دول أوروبا، بما فيها الاتحاد السوفيتي لتمكّنها من الانتعاش الاقتصادي بعد ويلات الحرب.

وسمي مشروع مارشال رسمياً (مشروع إنعاش أوروبا)، وأضاف مارشال: "إن سياستنا هذه ليست موجهة ضد أحد أو ضد أي نظام، بل موجهة ضد الجوع والفقر والفوضى".

وبعد هذا الخطاب طالب لرست بيغن وزير خارجية بريطانيا بعقد مؤتمر أوروبي طارئ لمناقشة مشروع مارشال، وحضر الاجتماع كل دول أوروبا الغربية التي حررها الجيش الأمريكي، علماً بأن دول أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي رفضوا حضور المؤتمر.

وشكلت دول أوروبا الغربية في الثاني عشر من يونيو/ حزيران ١٩٤٧ لجنة سموها (لجنة التعاون الأوروبي الاقتصادي)، وتشرف بعد ذلك على كيفية استثمار المساعدات الاقتصادية الأمريكية التي وصلت بين (١٩٤٨-١٩٥٠) حوالي (١٢) بليون دولار، ونشأت بذلك فكرة وحدة أوروبا الغربية الاقتصادية، أو ما سمي بـ(السوق المشترك) بعد عام ١٩٥٢.

استمر للتقارب بين دول أوروبا الغربية، وبتشجيع من قبل واشنطن بتأسيس لجنة للتعاون، ثم اتحدت دول الأراضي المنخفضة في اتحاد كمركي، ثم بدأت فرنسا وبريطانيا تتشاور حول فكرة تأسيس برلمان لأوروبا الغربية، وفي مايو/ أيار ١٩٤٩ أقرت تلك الدول دستوراً ما يسمى (مجلس أوروبا)، وبدلت وحدة أوروبا الغربية سياسياً.

وبدأت هذه الوحدة بتشجيع من الولايات المتحدة عندما تحالفت بريطانيا وفرنسا في مارس/ آذار ١٩٤٧ في حلف دنكرك الذي أقر أن تكون مدة فاعليته خمسين سنة، وبعد عام من ذلك أضالفت للدولتان إلى حلفهما هذا الدول الثلاث السابقة، وسمي الحلف بمعاهدة بروكسل، ونصّت هذه على أنها معاهدة تضامن اقتصادي اجتماعي ثنائي عسكري ضد أي اعتداء على أحدهم من أي طرف آخر، وكانت تلك

نفس الدول التي اجتمعت في هيج الهولندية في يوليو/ تموز ١٩٤٨، ولخنت تدرس موضوع برلمان لأوروبا الغربية، وأخيراً أسسته تحت اسم مجلس أوروبا في مايو/ أيار ١٩٤٩.

وفي يونيو/ حزيران ١٩٤٨ قام الشيخ في الكونغرس الأمريكي آرثر فاندنبرغ - وهو من زعماء الشيوخ الجمهوريين، وفي قرار أقره الكونغرس سمي باسمه (قرار فاندنبرغ) - بحثاً للولايات المتحدة على التزعم في ضم أوروبا الغربية في حلف عسكري شمال الأطلسي، ومما سرّع في تأسيس ذلك الحلف هو ما جرى في برلين بعد ذلك.

ثانياً: حصار برلين وحلف الناتو

اتفق الحلفاء في مؤتمر يالطا في فبراير/ شباط ١٩٤٥ بأن تقسم ألمانيا المقبلة على الهزيمة إلى أربعة أجزاء، يحتل كلاً منها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي، وإن بظل الوضع في ألمانيا حتى يتفق الأربعة على كيفية توحيدها ثانية، وعرض ستالين - ليهبرهن على حسن نيته وتضامنه معهم - أن تقسم برلين إلى أربعة أجزاء مثلها مثل ألمانيا، وتحتل كل دولة منهم جزءاً منها، علماً أن برلين تقع في الشرق من ألمانيا، ولا بد أن يكون للسوفييت حصة فيها.

وبعد نهاية الحرب بدأ الحلفاء السابقون يتناقشون في مستقبل توحيد ألمانيا، واقترح السوفييت على الحلفاء تأسيس نظام ألماني جديد صاحب سلطة مركزية قوية، وصممت بريطانيا والولايات المتحدة على تأسيس نظام فدرالي تكون السلطة فيه موزعة بين الحكومة المركزية في العاصمة، وبين الولايات الألمانية، وأن يكون لكل ولاية حكومة مصغرة تشارك السلطة المركزية في إدارة الحياة السياسية الألمانية.

وقد صمم السوفييت على أن تبقى الحدود الشرقية لألمانيا على ما عُلّت عليه بعد الحرب وبقدرة الاحتلال السوفيتي، وسكنت واشنطن على تعديل تلك الحدود لصالح ألمانيا.

ولما لم يتفق الشرق والغرب على كيفية توحيد ألمانيا، والنظام المستقبلي لها،

لو على قضية حدودها قامت بريطانيا وفرنسا وعلى رأسها الولايات المتحدة ووجدوا في عام ١٩٤٨ ثلاثة أجزاء، وسموا هذه ألمانيا الغربية، وعلى ضوء ما قامت به هذه الدول للثلاث، أعلن الاتحاد السوفيتي استقلال ألمانيا الشرقية، وأغلق جيشه في يونيو/ حزيران ١٩٤٨ الطريق الذي يؤدي لبرلين من ألمانيا الغربية، ويمر بأكثر من (١٠٠) ميل داخل حدود ألمانيا الشرقية بقصد طرد البقايا من قوات الدول الثلاث التي تربط في مناطق احتلالها في برلين.

جاء الرد الأمريكي بأمر الرئيس ترومان بمد برلين الغربية من الفضاء وبواسطة قطار جوي من طائرات الحلفاء للحربية، وهي تحلق في لجواء أوروبا الشرقية، وظلت هذه الإمدادات لبرلين لمدة سنة تقريباً حتى مايو/ أيار ١٩٤٩، وبعد ذلك فك السوفييت الحصار عن برلين، وعادت الأمور إلى ما كانت من قبل.

أدت حادثة حصار برلين إلى أن تسرعت واشنطن وحلفاؤها بتأسيس حلف شمال الأطلسي، وقد تأسس في الرابع من إبريل/ نيسان ١٩٤٩، وضم (١٢) دولة غربية، وهي (الولايات المتحدة - بريطانيا - فرنسا - هولندا - بلجيكا - للنرويج - والدنمارك - ولكسمبورغ - والسويد - وإيطاليا - للبرتغال - كندا)، وانضمت للحلف عام ١٩٥٢ اليونان وتركيا، وفي عام ١٩٥٥ انضمت له ألمانيا الغربية، وتأسس للحلف جيش أوروبي مختلط بدعم مالي وعسكري من واشنطن أكثر من بقية الأعضاء، وصار مقر رئاسته باريس، واستخدم الحلف القوة العسكرية بصفة استعمارية على دول العالم الثالث، كما حصل من فرنسا في الهند الصينية بالخمسينات، وضد تونس والمغرب والجزائر، وأفريقيا، واستعملت بريطانيا الناتو ضد الشعوب الأخرى التي احتلتها في الشرق الأوسط وأفريقيا^(٥٨).

ثلاثاً: للصين وحلبة الصراع الدولي

كانت الصين في حالة حرب أهلية بين الجيش غير النظامي الشيوعي بقيادة ماوتسي تونغ من الداخل في شمال البلاد، وبين الجيش النظامي وحكومة تشانج كاي شيك التي أخذت من مدينة شن كن في داخل وسط البلاد عاصمة لها أيام احتلال اليابانيين للعاصمة (بيكينج)، ولقد أضاع النظام الأخير الكثير من هيئته واحترام الشعب

الصيني له لهما لهزائمه أمام اليابانيين باستمرار ولفساد، ومقارنة بذلك ارتفع رصيد ماوتسي تونغ وجيشه غير النظامي وموقفه ضد اليابانيين وحسن معاملته لشعبه.

وعندما انتهت الحرب مع اليابان، ورحلت جيوشها عن الصين، عانت للحرب الأهلية الصينية، وأرسل للرئيس ترومان وزير خارجيته جورج مارشال إلى الصين بهدف دعم حكومة تشانج كاي تشيك معنوياً وعسكرياً، وتشجيعها لعمل الإصلاحات اللازمة في البلاد وتوزيع الأراضي لملايين المزارعين الذين لا يملكونها، وبالطبع بأخذها من الإقطاعيين في البلاد، لإعادة بعض الشعبوية لنظام تشانج.

وقد نجح ماوتسي تونغ في الحرب، ودخل للعاصمة في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٩، وأعلن قيام جمهورية الصين الشعبية، وعندما أصبحت البلاد شيوعية ولد ذلك للقلق لدى واشنطن، وخاصة أن ماو أخذ يزود حتى على موسكو بتطرفه، والادعاء أنه هو وحكومته في الصين هم حملة المذهب الشيوعي الماركسي.

ولما تدخلت للجيش للصينية في الحرب الكورية، وبفقت أمامها الجيش الأمريكي الكوري الجنوبي بعد أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٠، وصلت الأمور لدرجة تفكير واشنطن بضرب بكين بقنبلة نووية.

انتهت الحرب الكورية بالرجوع إلى ما كان عليه الوضع قبل الحرب، وانقسمت كوريا على خط ٣٨، غير أن التدخل الصيني من جهة ورد فعل واشنطن حالاً دون الوصول إلى كوريا، بل تم الامتداد إلى فيتنام، إذ شجعت بكين معنوياً وعسكرياً حكومة (هوشي منه) وجيشه غير النظامي في حربه مع جارتها فيتنام ضد الاستعمار الفرنسي المدعوم من واشنطن، خاصة مع استعمال فرنسا أسلحة الذخائر التي كانت تأخذها من واشنطن، ولما خرجت فرنسا من فيتنام عام ١٩٥٤ بدأ الجيش الأمريكي بأخذ مكان الجيش للفرنسي في حرب (هوشي منه)، وظلت للصين تمد فيتنام - ولكن بشكل محدود - بالمساعدات ضد الجيش الأمريكي، وزاد ذلك من عداة الولايات المتحدة للصين الشعبية.

وفي إبريل/ نيسان ١٩٥٥ عقد أول مؤتمر كبير لدول العالم الثالث في العصر

الحديث في مدينة باندونغ في اندونيسيا، وتصدرت الصين ذلك المؤتمر، وصارت من زعمائه، ولم يُدْعَ للمؤتمر الاتحاد السوفيتي، ولم يقبلوا ان تكون الصين في صدارة المؤتمر، ولم تُدْعَ له موسكو، والمؤتمر هو لعدم الانحياز أي لا للكتلة الشرقية أو الكتلة الغربية الرأسمالية.

رابعاً: الأحلاف وتأثيراتها الدولية والأوروبية

اتجهت الولايات المتحدة نحو الأحلاف في ظل الشيوعية المنتشرة من الاتحاد السوفيتي، إلى كوريا، إلى فيتنام، إلى الصين، وصولاً إلى كوبا ودول أوروبا الشرقية، واتبعت واشنطن سياسة الكبح أي كبح الشيوعية، وتشكل في يوليو/ تموز ١٩٥١ حلف ضمّ استراليا ونيوزلندا والولايات المتحدة، سمي لنزوم نصّ على ان أي اعتداء على أحدهما هو اعتداء على الكل.

لما جاء جول فوستر دلاس وزيراً للخارجية الأمريكية - في عهد الرئيس ايزنهاور، وبعد عام ١٩٥٢ - أصبح هناك جنون للأحلاف في واشنطن، وأخذ دلاس في عقد الأحلاف مع الكثير من الدول الصديقة، وكانوا ممن استجدوا المساعدات للمادية والعسكرية الأمريكية، لا ليستعملوها في كبح الشيوعية للعالمية، بل ليستعملوها من أجل دعم تسليحي لمركبي لهم في حروبهم الإقليمية، أو معارضتهم في الداخل، وأصبحت الأهداف الأمريكية بذلك تحوي طغاة وحكاماً مستبدين، دخلوا في حروب لصالح الولايات المتحدة ومصالحها.

وانتقل دلاس في آسيا والشرق الأوسط في الخمسينات من أجل البحث عن أصدقاء في أحلاف، وفي سبتمبر/ أيلول ١٩٥٤ استطاع ان يضم في حلف جنوب شرقي آسيا للباكستان وتايلاند والفلبين، ومعهم الولايات المتحدة وبريطانيا.

فالكل كانت له مصالح في هذا الحلف، الباكستان لانها تقاتل الهند وتريد من يقف إلى جانبها، فانتطرت عام ١٩٧١ إلى بلدين، واستقل أحدهما باسم بنغلادش عام ١٩٧١، ثم اخيراً انسحبت الباكستان من الحلف في الثامن من سبتمبر / أيلول ١٩٧٣، ثم تبعها فرنسا في الثلاثين من يونيو/ حزيران ١٩٧٤، ثم اتفق الباقون على حل

الحلف في الخامس والعشرين من سبتمبر/ أيلول ١٩٧٥.

وينطبق القول على تايلاند والفلبين أيضاً في مصالحها مع واشنطن ضد خصومها في المنطقة، وخاصة الصين وفيتنام واليابان ودول شبه القارة للصينية الهندية.

أما فرنسا وبريطانيا فقد انضمت لحلف جنوب شرقي آسيا للحفاظ على ما تبقى للدولتين من نفوذ استعماري - بعد عام ١٩٥٤ - هناك، فقد كانت فرنسا قد هُزمت في معركة ديانا بين تو أملم فيتنام عام ١٩٥٤، وبريطانيا حاربت الشيوعيين في ملايا عام ١٩٥٥ باستخدام أسلحة اللاتو، ونجحت في ذلك، ثم أعطت البلاد الاستقلال عام ١٩٥٧ بعد أن أمنت مولدها من المطاط والقصدير وغيرها، حيث خرجت بريطانيا من كل القارة الآسيوية إلا من الجنوبية الشرقية أي الخليج العربي.

أما الجهود في الشرق الأوسط فقد أثمرت عن نجاح دلاس في عقد (حلف بغداد)، ضم تركيا وباكستان والعراق عام ١٩٥٥، ثم إيران بدعم من الولايات المتحدة وبريطانيا، وكان هدف الحلف فرض الهيمنة الغربية على المنطقة، ومنع تغفل الشيوعية إليها، إلا أن الحلف في واقع الحال كان حبراً على ورق، ثم قامت الثورة في العراق عام ١٩٥٨، وخرج زعماء البلاد من حلف بغداد، وكان هذا يعني موته.

وعقدت الولايات المتحدة في الخمسينات وما بعدها تحالفات ثنائية مع اليابان وحكومة شانج كاي تشيك والفلبين وإيران وباكستان وكوريا الجنوبية وأستراليا وغيرها، وأسست عام ١٩٤٨ (حلف جمعية الدول الأمريكية)، والهدف منه هو محاربة الشيوعية في أمريكا الوسطى والجنوبية وإبقاء الهيمنة الأمريكية على ما هي عليه في أمريكا اللاتينية كلها، وبواسطة هذا الحلف تدخلت الولايات المتحدة عام ١٩٥٤ في غواتيمالا، وفي عام ١٩٥٨ في كوبا، وفي عام ١٩٧٣ في شيلي وغيرها من الدول، وكل ذلك باسم محاربة الشيوعية، وتدخلت واشنطن عام ١٩٧٣ في شيلي لدعم الجيش من أجل قتل الرئيس سلفادور آلندي على أساس أنه اشتراكي.

كان رد فعل السوفييت لكل تلك التحالف الأمريكية أن أسس (حلف وارشو)

في مايو/ أيار ١٩٥٥، وضم ثماني دول شيوعية، وهي الاتحاد السوفيتي، وبولندا، وبلغاريا، وهنغاريا، وتشيكوسلوفاكيا، وألبانيا وألمانيا الشرقية ورومانيا^(٥٩).

الفصل الثاني عشر

أوروبا وإنحلال النظام العالمي

(١٩٥٨-١٩٩١)

أولاً: نهاية الحرب الباردة

طُرأت تحولات جديدة بنّت من توازن النظام الدولي بعد انهيار النظام الاشتراكي ودخول العالم في سياق مرحلة انتقالية سمّتها الأساسية هي العولمة الاقتصادية والسياسية والثقافية من دون أن تكون هناك ضوابط معينة.

فلوّل مرة نشهد انهيار نظام سياسي واقتصادي بشكل ملموس وثقائياً، فقد عرف العالم منذ قرون بعيدة للحروب وأعمال العنف من الثورة الفرنسية والحرب العالمية الأولى مروراً بالحرب العالمية الثانية.

وكان سقوط النظام الاشتراكي - سواء في الاتحاد السوفيتي أو دول أوروبا الشرقية في مطلع التسعينات من القرن العشرين - مفاجأة مذهلة، بعد أن توقع الكثير من السياسيين والمفكرين انهيار النظام للرأسمالي الغربي لعوامل عدة ذاتية وموضوعية، وقد وصف المحللون والمراقبون الحدث بأنه الزلزال، وأنه شكّل سابقة لم تحدث من قبل في سقوط إمبراطورية كبيرة.

إن ما تم من تحولات رئيسية عجلت في سقوط الاتحاد السوفيتي وانهيار النظام الاشتراكي، خاصة بعد وصول ميخائيل غورباتشوف إلى الحكم في موسكو عام ١٩٨٥، فعلى صعيد المعطيات السياسية فقد استطاعت الدول الغربية أن تستغل جيداً مضامين اتفاقيات هلسنكي عام ١٩٧٥، وأصبحت أداة رئيسة في تهديد استقرار النظام الاشتراكي من خلال فقرة خاصة بحقوق الإنسان.

وركزت هذه الاتفاقية على حرية تنقل الأفراد والأفكار، مما دفع إلى خلق العديد من الهيئات والتجمعات التي انطلقت من روح هلسنكي لتطالب بالتغيرات السياسية في دول أوروبا الشرقية، ورافقت تلك الحملات الإعلامية التي قام بها بعض الأشخاص على أثر كشف الـ(غولاغ) حول غياب دور القانون وسياسات الاعتقال الإداري وغيرها.

واستندت الدول الغربية في سياساتها مع الاتحاد السوفيتي على أسلوب للربط الذي وضع أسسه نيكسون وكيسنجر، وأصبح وسيلة للتعامل في قضايا حقوق الإنسان والتي ترتبط دوماً بالقضايا السياسية والدولية.

ولم يستطع الاتحاد السوفيتي في واقع الحال ان يتجاوز الأزمات التي واجهها - بعده طليعة الثورة الاشتراكية في العالم - في الشرق الأوسط سواء لتحالف الأمريكي- الإسرائيلي أو للفشل في أفغانستان، ثم التحولات في أوروبا الغربية التي طرأت على استراتيجيات الأحزاب الشيوعية، وعدم تردها في انتقاد سياسات الـ(غولاغ).

أما في الاقتصاد، فبعد خروشوف خلال الخمسينات باللجنة الاشتراكية، وكذا عبي ان تأمين الحاجات الأساسية سيتم عاجلاً في الدول الاشتراكية، ولكن للنظام الاقتصادي في هذه الدول لم يستطع ان يتكيف مع التطورات للتقنية، وفشلت الليبروقراطية في استيعاب هذه التطورات واستغلالها في ميادين الإنتاج الرئيسية، وبعد ان كان الاتحاد السوفيتي بلداً مصدراً للحبوب تحول إلى أكبر مستورد للقمح في العالم، ورغم امتلاكه الاحتياطات الكبيرة من المواد الأولية النفط والغاز الطبيعي وغيرها، فإن للقطاع الصناعي لم يتجاوز حدود الصناعات الثقيلة.

وشكلت التطورات للبرلينية الجديدة في بريطانيا والولايات المتحدة في عهد تاتشر وريغان والتوجه للمتزايد نحو التخصص عناصر أخرى مضافة للنظام الاقتصادي السوفيتي، كشفت عن عدم قدرته على منافسة النظام للرأسمالي.

ثم ان سياسة سباق التسلح التي انتهجتها إدارة الرئيس ريغان بعد اعتماد برنامج حرب اللجوم شكلت العامل الحاسم في سلطة العجز الاقتصادي الناجم عن المدفوعات العسكرية^(١٠).

١- فشل البريسترويكا:

لم تؤد سياسات الإصلاح التي انتهجها الرئيس غورباتشوف ما بين (١٩٨٥-١٩٩١) إلى تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، فقد تضمنت سياسة البروسترويكا Proestroika محاولة إصلاح جذري للبنية الاقتصادية من خلال للتخلي التدريجي عن سياسة الاقتصاد الموجه، وإعطاء استقلال أكبر للقطاع الخاص، وصدرت عدة قوانين تؤكد على أهمية تأمين حاجات الأفراد الأساسية من خلال تشجيع للمبادرة الفردية، وتحقيق الإصلاح الزراعي، ودعم للمؤسسات الاقتصادية، وأن يتم

الإعلان عن الرغبة في إحلال التعاون الاقتصادي مع الغرب، وإحياء المشاريع المشابهة لمشروع مارشال في ظل البيت الأوروبي المشترك.

وأعلن غورباتشوف عن اعتماد سياسة للـGlasnost أي للشفافية التي تسمح باتخاذ إجراءات للتحرر السياسي، وتفتح المجال أمام مقرطة المجتمع السوفيتي.

وجرت لأول مرة في تاريخ البلاد انتخابات حرة لأعضاء المجالس التمثيلية ولرئيس الاتحاد السوفيتي، وفي الخامس عشر من مارس/ آذار ١٩٩٠ تم إلغاء الدور للقائد للحزب الشيوعي.

إلا أن هذه الإصلاحات رغم قطيعتها مع للنظام السائد سابقاً، لم تستطع أن تدفع إلى تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، حيث أن سياسة للشفافية كان لها الدور العكسي، إذ أنها كشفت عن سوء الإدارة للبيروقراطية المهيمنة على الإصلاحات، وادى تراجع الانتاجية إلى تدهور للوضع الاقتصادي، وتفاقم للعجز العام، وارتفاع أسعار للمواد الغذائية والسلع بعد تحريرها، مما دفع البرلمان في صيف عام ١٩٩١ إلى التراجع عن مواقفه المؤيدة لسياسة غورباتشوف.

٢- انهيار المصكر الاشتراكي:

تحوّلت سياسة غورباتشوف الإصلاحية داخل الاتحاد السوفيتي إلى تمتع دول أوروبا الاشتراكية بحقها في اختيار النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي يريده، وتم من خلال التخلي عن مذهب بريجنيف حول السيادة المحددة، حيث أعلن غورباتشوف في مطلع عام ١٩٨٧ (أنه من الضروري أن نجد كل دولة للحلول التي تلائمها)، وفي عام ١٩٨٨ تم الإعلان من مقر الأمم المتحدة بأن حرية الخيار يجب أن تكون مكفولة للجميع، وفي يوليو/ تموز ١٩٨٩ أعلن البيان الختامي لحلف وارشو أن من حق كل شعب اختيار النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي يريده، وليس هناك نموذج موحد لتنظيم المجتمع ولا نموذج عالمي للاشتراكية، وليس لأي دولة الحق بأن تكون الحكم.

كانت دول أوروبا الاشتراكية تواجه المعاناة الاقتصادية والاجتماعية نفسها،

مثل الاتحاد السوفيتي، مهدت حركة إصلاح جذرية شكلت فيها بولندا للمحرك الأساس، حيث نجحت نقابة التضامن في أول انتخابات حرة للبرلمان البولندي في يونيو/ حزيران ١٩٨٩، وتوافق مع انتقال الآلاف من الألمان الشرقيين إلى ألمانيا الغربية في ظل موافقة هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا، مما عجل في انهيار حائط برلين في التاسع من نوفمبر/ تشرين الثاني، وتم ذلك بعد تدفق مكثف لسكان ألمانيا الشرقية للانتقال إلى الغرب من خلال الأراضي المجرية والتشيكية، مما دفع حكومة ألمانيا الشرقية إلى إغلاق حدودها مع الدولتين، فنتج عنه تضرر شعبي ومظاهرات صاخبة في برلين وليبزيك، وغيرها أدت إلى إعلان المسؤولين الألمان الشرقيين عن موافقة حكومتهم على إعطاء تأشيرات دخول إلى ألمانيا الغربية، مما دفع جموع الناس إلى تهديم حائط برلين، وشكل ذلك الضربة النهائية لنظام الستار أو الجدار الحديدي الذي كان يقسم ألمانيا وأوروبا إلى شرقية وغربية، والذي كان يمثل حدود التماس بين الشرق والغرب في الحرب الباردة.

استمرت الأحداث في دول أوروبا الشرقية كافة، حيث أجريت الانتخابات وتم اختيار مجالس تمثيلية جديدة، وتم التخلي عن الدور القائد للحزب الشيوعي، وفي صيف عام ١٩٩٠ استُكمِلت مراحل الوحدة الألمانية بعد إعلان الاتحاد السوفيتي عن قبوله بمبدأ انسحاب قواته من ألمانيا الشرقية، وكلفت حوالي ثلاثة ملايين جندي.

وفي الأول من يوليو/ تموز ١٩٩٠ تم إعلان الوحدة النقدية، وفي التاسع عشر من أغسطس/ آب ١٩٩٠ أعلنت حكومة ألمانيا الديمقراطية قبول دستور جمهورية ألمانيا الغربية الاتحادية.

وفي الثاني عشر من سبتمبر/ أيلول ١٩٩٠ تم توقيع المعاهدة المعروفة بـ(٢+٤) من قبل الدول الأربع التي كانت تحتل ألمانيا بعد الحرب، فضلاً عن ألمانيا وبولندا، والتي أعفت ألمانيا من مسؤولياتها الدولية، واعترفت بسيادتها على كامل الأراضي الألمانية، وتم إعلان للوحدة الألمانية في الثالث من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٠.

وفي الحادي والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٠ كرّس مؤتمر الأمن

والتعاون في أوروبا للوحدة الألمانية، وأعلن عن (شرعة باريس من أجل أوروبا جديدة)، وهو مطلب سوفيتي كان يهدف من وراءه غورباتشوف إلى إبقاء الأمور على ما وصلت إليه بعد إعلان نهاية للصراع بين الشرق والغرب والتوجه نحو بناء أوروبا. ولكن حركة للتغيير استمرت في دوراتها، وتم الإعلان عن حل حلف ولارشو في الخامس والعشرين من فبراير/ شباط ١٩٩١، وانفتحت الأبواب أمام توجه البعض نحو حلف الأطلسي، ولم تُجدِ نفعاً محاولات الكوميكون أن تتحول إلى سوق مشتركة مماثلة لما يشهده الاتحاد الأوروبي، حيث فضلت الدول الأعضاء في الكوميكون وضع حد لوجوده في الخامس والعشرين من يوليو/ تموز ١٩٩١^(١١).

٣- نهاية الاتحاد للسوفيتي:

انطلقت الثورة التي أعلنها غورباتشوف من موسكو لتتجول في دول أوروبا الشرقية بسرعة مذهلة، ومع استمرار الأوضاع الاقتصادية المتفاقمة، أدت حرية الصحافة إلى وعي متزايد بهشاشة البنى التحتية وعدم قدرتها على مواكبة الإصلاحات. وتحولت الشغافية الجديدة إلى سلاح ضد غورباتشوف ومعاونيه، ورغم إعلان الاتحاد للسوفيتي عن رغبته بالانضمام إلى صندوق النقد الدولي فإن الدول الغربية تلكأت في تقديم المساعدات باستثناء ألمانيا التي كانت تدفع فاتورة تعجيل انسحاب القوات العسكرية من ألمانيا الشرقية.

وانتقلت حالة النفقة من المواطنين إلى القوى المهيمنة داخل المجتمع للسوفيتي، وخاصة العسكريين والصناعيين الذين تراجعوا عن تأييد برامج غورباتشوف، وأبدوا محاولة الانقلاب الفاشلة في الثامن عشر من أغسطس/ آب ١٩٩١ التي أدت إلى منعطف جديد في وحدة الاتحاد السوفيتي.

إن محاولة الانقلاب التي قامت بها مجموعة من العسكريين والسياسيين لخائفين على مستقبل الاتحاد السوفيتي تمت عشية للتصويت على معاهدة الاتحاد الجديد المقترحة في العشرين من أغسطس/ آب ١٩٩١ من قبل غورباتشوف، وكان قد تأكد بعد انعقاد مؤتمر الحزب الشيوعي لـ (٢٨) أن وحدة الاتحاد السوفيتي تحتم الأخذ بعين الاعتبار خصوصيات الجمهوريات المتعددة، فقد تم الاتفاق في هذا المؤتمر على

للفدرالية التي تتمثل بأن تحل للرئاسة مكان المكتب السياسي، ونتج عنه أن مجمل الأحزاب اعتنقت برامج للحركات الوطنية التي ظهرت في الجمهوريات، وبدأت تركز على متابعة تطبيق قراراتها، ورأت معظم الجمهوريات أن استقلالها قد يسمح لها بمعالجة أفضل للآزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وبدأت الدعوة إلى الاستقلال من قبل دول البلطيق استونيا وليتوانيا ولاتفيا، وهي آخر الجمهوريات التي ضُمَّت إلى الاتحاد من قبل ستالين بعد اتفاق عام ١٩٣٩ مع هتلر، ثم بموجبه تقسيم بولندا بين الدولتين والموافقة على حرية تصرف الاتحاد السوفيتي في دول البلطيق، وعندما تم الاستفتاء حول مستقبل الاتحاد في السابع عشر من مارس/ آذار ١٩٩١ امتنعت هذه الدول عن المشاركة، فضلاً عن جمهوريات أرمينيا وجورجيا ومولدافيا.

وقد ظهر بوضوح أن عزلة السوفييت هي التي شجعت الجمهوريات الأخرى على الاستقلال، وتعزز ذلك من خلال سياسات يلتسن بعد انتخابه رئيساً لروسيا الاتحادية في يوليو/ تموز ١٩٩١، حيث استمر في الدفاع عن اللبريسنرويك كما يعبر عنها غورباتشوف، ولكن على مستوى روسيا فحسب، وبعد تصدي يلتسن للانقلاب الفاشل منع غورباتشوف من إلجاز مشروع الاتحاد الجديد، واستلم السلطة السياسية والاقتصادية، وبأشر بسياسة إصلاح ليبرالية، وأقام علاقات مميزة مع الدول السلافية الأخرى أوكرانيا وروسيا البيضاء، أدت إلى إنشاء تجمع جديد في الثامن من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩١، وإعلان مشترك عن موت الاتحاد السوفيتي كشخص في القانون الدولي وكواقع بيوبوليتيكي.

لم يكن أمام كازاخستان وجمهوريات آسيا الوسطى إلا الانضمام إلى (جماعة الدول المستقلة) التي أعلن عن إنشائها في اجتماع (ألما أتا ALMA ATA) عاصمة كازاخستان في الحادي والعشرين من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩١، والتي ضمت كافة جمهوريات الاتحاد السوفيتي باستثناء دول البلطيق الثلاث وجورجيا، وكان واضحاً أن التنظيم الجديد يهدف إلى تصفية تركة الاتحاد السوفيتي، ورأى بعض الكتاب الروس أن انهيار الاتحاد السوفيتي لم يكن معبراً عن إرادة شعبية، وأنه مأساة، بحيث أن غورباتشوف وجد أنه لا يمثل أحداً بعد انهيار الحزب والاتحاد، فاعلم على الاستقالة في

الخامس والعشرين من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩١.

وانتهى رمز الاتحاد السوفيتي الأخير الذي تحول من دولة عظمى واحدة إلى خمس عشرة دولة أصبحت أعضاء في هيئة الأمم المتحدة منذ مارس/ آذار ١٩٩٢ وورثت روسيا حق التمتع بمقعد الدولة الدائم في مجلس الأمن الدولي، والأسلحة النووية والاستراتيجية السوفيتية.

وبانتهاء الاتحاد السوفيتي انتهت كافة معالم الحرب الباردة بين الشرق والغرب، واختفت القطبية المزدوجة، وظهرت معالم للنظام الجديد ذي القطبية الأمريكية الواحدة، ولقد العالم للتوازن الدولي.

ثانياً: فشل النظام العالمي الجديد

إن للنظام العالمي الجديد الذي يشهده العالم بعد انهيار نظام ثنائية القطبية سيتأرجح بين الآليات السابقة في محاولة ضبط العلاقة بين الشرق والغرب من خلال الردع النووي والتمايز في غلبة العامل السياسي والاستراتيجي في توجيه السياسات الدولية، وبين معطيات جديدة سيتم التعبير عنها من خلال منطلقات مختلفة في إطار سمي (النظام الدولي الجديد).

١ - معطيات النظام الدولي الجديد:

برزت معطيات ومضامين تزامنت مع التطورات الجديدة التي أصبحت تعرفها السياسة الدولية بعد مجيء غورباتشوف إلى الحكم في الاتحاد السوفيتي، واعتماد سياسات جديدة تتمثل في سياسة الانفتاح وإعادة البناء؛ سبيلاً للخروج من مأزق السباق إلى التسلح الذي وضعته في إطاره الإدارة الأمريكية، وجاءت المضامين الجديدة لتعد أن الاستمرار في السباق على التسلح هو أمر خطير وكارثي، وأن الطريق الوحيد للحفاظ على الأمن هو من خلال العمل على تغيير للوضع الدولي والوصول إلى عالم خال من السلاح النووي وكافة أشكال العنف والإكراه.

وفي ظل هذه السياسة السوفيتية الجديدة عقد مؤتمر القمة في ريكيافيك ١٩٨٦ وواشنطن ١٩٨٧، ووضعاً عملياً نهاية الحرب الباردة، حيث إن التطورات اللاحقة هي نتمة ونتيجة لما تم الاتفاق عليه، وظهر ذلك من خلال اتفاقيتين رئيسيتين حول الحد من

المسابق على التسلح في المجالين النووي والاسلحة التقليدية:

أ- اتفاقية F.N.I في السابع من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٧ حول الاسلحة النووية المتوسطة المدى، والتي وضعت حدًا للخلاف حول الصواريخ الأوروبية، وتم الاتفاق على إلزائها كلياً من قبل الطرفين.

ب- اتفاقية القوات التقليدية للمسلحة في أوروبا في عام ١٩٩٠، والتي تتضمن سحب العديد من القوات العسكرية من الدول الأوروبية.

ج- اتفاقية ستارت START ١٩٩١ التي تتضمن أكبر تخفيض للترسانة النووية لدى القوتين للمحاورتين.

إن هذه المعطيات كان من شأنها أن تدفع إلى خلق أجواء دولية جديدة تبشر بمبادئ جديدة يمكن الاعتماد عليها في آليات عمل النظام الدولي، وقد تبلورت هذه المبادئ من خلال ثلاثة أطراف رئيسية، هي: غورباتشوف رئيس الاتحاد السوفيتي، وبوش رئيس الولايات المتحدة، وبطرس غالي الأمين العام للأمم المتحدة.

بعد غورباتشوف أول من أطلق للنظام العالمي الجديد في خطابه أمام الجمعية العامة في عام ١٩٨٨ مؤكداً على دور الأمم المتحدة كإطار وحيد لحل المنازعات الدولية، وضرورة احترام مبادئ وفواعد الشرعية الدولية، وتركيز غورباتشوف على أن التخلي عن سياسة مسابق التسلح ينبغي أن يقبله تعاون فعال لمواجهة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، وكان ذلك يعطي توفير من يسمح بإجراح سياسة للبريسترويكا في كافة الدول الاشتراكية، ومشاركة هذه الدول في بناء البيت الأوروبي المشترك مع كل الالتزامات، بحيث تستمر المسيرة للتخلي عن الاشتراكية بشكل تدريجي ودخول نظام السوق.

ولقد غورباتشوف لاحقاً أن النظام العالمي الجديد يقوم على سيادة القانون الدولي واحترام حقوق الإنسان.

وللتزم الاتحاد السوفيتي بما أعلنه من مبادئ عامة، حيث جرى سحب القوات السوفيتية من أفغانستان، وانسحاب القوات الكوبية للحليفة من أنغولا، وبرزت في إطار الأمم المتحدة أجواء جديدة توحى بعودة الأمم المتحدة لاعتماد نظام أمن جماعي للحفاظ

على الأمن والسلم الدوليين.

وقد جرى الإعلان عن هذا الموضوع خلال التهيئة التي قامت بها واشنطن لحشد أكبر دعم لسياستها تجاه أحداث الخليج العربي بعد أحداث الكويت على العراق من أغسطس/ آب ١٩٩٠، وبعد لتنصير بوش في الحرب على العراق، وأعلن أمام الكونغرس الأمريكي في السادس من مارس/ آذار ١٩٩١ قوله: "إن الأمل بسلام دائم دغدغ النفوس مرتين خلال هذا القرن، وإثر فظائع حربين عالميتين، ثم بدأ السلام بعد هاتين المرتين، وكأنه حلم بعيد ليس بمتناول الإنسان... الآن يمكننا أن نرى عالماً جديداً ينبثق أمام أعيننا...."، ورأت دول العالم الثالث إلى حد كبير أن الإعلان عن النظام الاقتصادي الدولي الجديد في السبعينات لم يحقق أهدافه، واعتقدت أن الولايات المتحدة بعد انتصارها على الشيوعية متلجأ إلى سياسات جديدة تضمن احترام العدالة والمساواة الفعلية والإنصاف في العلاقات الدولية، مع ظهور تشكيك وعدم ثقة بالإعلان الأمريكي من أكثر من طرف عالمي.

لما طرح الأمين العام للأمم المتحدة بطرس غالي، فلم يبق محصوراً في المجال السياسي الأمني كما ظهر من الطرح الأمريكي، ولكنه أضاف الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والانسانية والبيئية، وورد ذلك في الخطتين اللتين صدرتا عن الأمم المتحدة، الأولى تحت عنوان (خطة السلام الدبلوماسية الوقائية وصنع السلام وحفظ السلام)، والثانية (خطة للتنمية)، وتم تعريف الدبلوماسية الوقائية بأنها ترمي إلى منع نشوء المنازعات بين الأطراف ومنع تصاعد المنازعات عند وقوعها.

أما صنع السلام فهو العمل الرامي إلى التوفيق بين الأطراف المتعادية لا سيما عن طريق الوسائل السلمية، أما حفظ للسلام فهو في نفس الوقت تابعة للأمم المتحدة كسبيل لصنع السلم، ووسيلة لتوسيع إمكانيات منع نشوب المنازعات، وعلى أساس الإسهام في التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتعزيز الثقة.

ويتم تحقيق نظام الأمن الجماعي من خلال إحياء لجنة أركان الحرب التي نصت عليها المادة (٤٧) من ميثاق الأمم المتحدة، ووضع وحدات دائمة تحت تصرف المنظمة الدولية. وبرز اتجاه بأن يكون هناك نظام تدخل سريع يتفق مع المادتين ٤٣،

و ٤٥ من الميثاق، وطرح امكانية تعديل المادة الثانية حول مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول من أجل إمكانية تبرير ما أصبح يعرف بحق التدخل الإنساني، وهذا طرح إنشكالية جديدة ينبغي معالجتها في دور الجمعية العامة عام ١٩٩٩ بعد أحداث كوسوفو في يوغسلافيا والمذابح التي حصلت في رواندا عام ١٩٩٥.

اما خطة التنمية فإنها محاولة طرح جديدة، نَعُدُّ أن غياب السلام يسهم في السباق على التسلح، واستمرار التحالف، ولكن غياب التنمية يسهم بدوره في التوتر الدولي، وفي الاحساس بالحاجة إلى القوة العسكرية، ومن ثم ازدياد حالة التوتر، ويتم التأكيد على أهمية عد التنمية قضية عالمية رئيسية، تعني كافة الأمم الغنية والفقيرة على السواء، وتعد خطة للتنمية هي أساس حق من حقوق الإنسان، وهي صمام الأمان للسلام، وتبرز من خلالها الرؤية الجديدة التي تعد الأمم المتحدة أنها في حالة تبلور، والتي تبرز بأن السلام أساس للتنمية والاقتصاد المحرك للتقدم والبيئة كأساس للاستدامة التنموية والعدالة كدعامة للمجتمع والديمقراطية وأسلوب جديد للحكم.

٢- أوام النظام الدولي الجديد:

رغم النجاحات التي تم تحقيقها في بعض المجالات السياسية والأمنية بعد نهاية الحرب الباردة والصراع بين الشرق والغرب، فإن للنظام العالمي أو الدولي الجديد برز على أنه وهم لا يعبر إلا عن آمنيات وطموحات الذين يدعون إليه، حيث لم تلعب الأمم المتحدة الدور الجديد المنوط بها، ولم يتم الأخذ بالإصلاحات التي تؤدي إلى تقليل للهوة بين الشرق والغرب وتعزيز فرص التنمية والبناء.

فمنذ عام ١٩٨٥ نجد أن عالمية المجتمع الدولي مستوذي إلى عولمة القضايا الدولية، وطرح قضايا مهمة على بساط البحث ومحاولة إيجاد حلول لها على الصعيد العالمي، وعقد مؤتمرات دولية عدة تنظمها الأمم المتحدة حول البيئة والتنمية الاجتماعية والسكان والمرأة.

ولكن الأهم كان في مجال إنهاء مجموعة من النزاعات الدولية العالقة، وهو ما عزز مجال الأمن باستعادة الدور الذي نص عليه ميثاق الأمم المتحدة في مجال الأمن الجماعي. وتم بين ١٩٨٨-١٩٩٣ إرسال (١٤) قوة حفظ سلام إلى الدول في آسيا

وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وهو عدد يتجاوز ما تم تحقيقه خلال أربعين عاماً من عمر الأمم المتحدة.

وارتفع عدد أهل القبعات للزرقاء من (١٠) إلى (٧٠) ألفاً، وتم التوصل إلى حلول الأزمات كالحرب العراقية الإيرانية والانسحاب السوفيتي من أفغانستان، ووقف المساعدات العسكرية إلى الأطراف المتصارعة في أنغولا وزامبيا، والمساعدة في التحول الديمقراطي في دول أمريكا الوسطى.

وبدا الاهتمام بتطبيق الدبلوماسية الوقائية، وأُرسل مراقبون إلى أفريقيا الجنوبية عام ١٩٩٢، ولقشيء صندوق خاص لدعم إجراءات تعزيز تجنّب النزاعات في أفريقيا الوسطى، وفي عام ١٩٩٥ أرسلت قوات من القبعات الزرق إلى مقدونيا في يوغسلافيا السابقة.

أما سياسة صنع السلام التي يمكن تحقيقها من خلال اللجوء إلى محكمة العدل الدولية، أو من خلال تطبيق عقوبات اقتصادية بموجب المادة (٤١) من الميثاق، أو اللجوء إلى الأعمال القسرية بموجب المادة (٤٢)، فقد مثلت عملية الأمم المتحدة في الصومال أحد نماذجها، وأرسل (٢٩) ألفاً بهدف صنع السلام، وتأمين المساعدات الإنسانية، وإعادة بناء مؤسسات الدولة، وتأمين المصالحة الوطنية.

أما النوع الجديد من التطور في نشاط الأمم المتحدة فهو يبرز في سياسات بناء السلام، والذي يعده البعض بأنه يمثل الجيل الثالث من عمليات حفظ السلام، ويتضمن المساعدة في إعادة بناء دول كانت ضحية أزمات، ومنع نزع الأسلحة والمساعدة للاجئين، والقيام بأعمال نزع الألغام، والدور الذي يمكن أن يتحقق في إعادة بناء مؤسسات الدولة وتأمين الخدمات العامة، واحترام حقوق الإنسان، مثلما تمت هذه العمليات في ناميبيا وأنغولا وكامبوديا والسلفادور وموزمبيق وهايتي وليبيريا.

النموذج الآخر للتدخل العسكري لدول كبرى في إعلان الحرب على دولة من العالم الثالث، وعدّها للبعض بديلة للنظام الدولي الجديد، حيث أنه كان يتعذر القيام بحملة عسكرية مماثلة قبل انهيار النظام الاشتراكي، وأدت هذه الحرب إلى إخراج القوات العراقية من الكويت، وصدر عن الأمم المتحدة (١٢) قراراً في إطار الفصل

السابع في غالبيتها، وبموجب القرار رقم ٦٧٨ للمصادر في التاسع والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٠ الذي سمح باستعمال جميع الوسائل اللازمة لدعم وتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٦٦٠، وتم تعبئة (٧٥٠) ألف جندي تحت قيادة أمريكية وبمشاركة وحدات (٣١) دولة أجنبية وعربية.

تمت هذه الحرب بإذن من الأمم المتحدة، وليس تحت إشرافها المباشر، وهو ما أشار إلى أن مرحلة تنفيذ للقرارات الدولية قد بدأت، وأنه لن يكون هناك معايير مختلفة في معالجة القضايا الدولية، ثم إن واشنطن فرضت إرادتها كنموذج للنظام الدولي الجديد الذي بدأت ترسم ملامحه، فهو يمثل التحرر النهائي من عقدة فيتنام، وضمان الوصول إلى أكبر مصادر الاحتياطي للنفطي العالمي، ومنع العراق لو أي دولة في العالم الثالث من امتلاك التكنولوجيا أو الأسلحة ذات الدمار الشامل ودخول حلقة الدول المتقدمة.

إلا أن هذا الاجتماع الدولي حول العراق لم يستمر طويلاً، فتسارعت الأحداث، وبرزت قضايا جديدة لم تكن متوقعة، وإن انهيار نظام التوازن بين الشرق والغرب عجل في تعجير النزاعات القومية والعرقية والطائفية، التي لم تستطع الأمم المتحدة مواجهتها، وهذا هو حال يوغسلافيا بنشوء دول جديدة من اثنيات وعرقية.

وتم تقسيم يوغسلافيا إلى دول عدة بعد موت تيتو وبعد انتخابات نجحت فيها الأحزاب القومية، وشكل ذلك مفاجأة كبرى في قلب أوروبا، ولجأت دول الاتحاد الأوروبي إلى الاعتراف بسلوفاكيا وكرواتيا عام ١٩٩٢ بعد اعتراف ألمانيا بسرعة بالدولتين في سبتمبر/ أيلول ١٩٩١، وانطلقت الصراعات بين الأقليات الصربية والكرواتية في كرواتيا، والصرب والكروات والمسلمين في البوسنة والهرسك، واستمرت الحرب الأهلية أربع سنوات ونصف السنة ذهب ضحيتها (٢٦٠) ألف شخص و٢ مليون مهاجر، مع أعمال تطهير عرقي وجرائم حرب لم يعرف مثلها العالم منذ الحرب العالمية الثانية.

ولم تستطع الأمم المتحدة أن تقوم بدور عسكري، واكتفت بالمساعدات الإنسانية، ولم تنجح الدول الأوروبية أيضاً في إيجاد حل أوروبي لها، وتم اللجوء إلى

حلف للناتو، حيث أن واشنطن هي المفتاح له.

واستمر فشل الأمم المتحدة مع أزمة كوسوفو عام ١٩٩٩، حيث جرى تدخل
غربي ضد يوغسلافيا (صربيا)، وتم من قبل الناتو بقيادة للولايات المتحدة دون موافقة
من مجلس الأمن أو الأمم المتحدة، وبرهن على ضياع آليات تنظيم العلاقات
الدولية^(٦٦).

الهوامش

- ١- عبد الحميد البطريق، التيارات السياسية المعاصرة ١٨١٥-١٩٦٠، دار للنهضة العربية، بيروت، ١٩٧٤، ص ١٥٦-١٥٨.
- ٢- المرجع نفسه، ص ١٥٨-١٦٣.
- ٣- المرجع نفسه، ص ١٦٣-١٦٥.
- ٤- المرجع نفسه، ص ١٦٦-١٧٠.
- ٥- المرجع نفسه، ص ١٧٠-١٧٢.
- ٦- المرجع نفسه، ص ١٧٢-١٧٥.
- ٧- المرجع نفسه، ص ١٧٥-١٧٧.
- ٨- المرجع نفسه، ص ١٧٩-١٨٢.
- ٩- المرجع نفسه، ص ١٨٣-١٨٧.
- ١٠- المرجع نفسه، ص ١٨٧-١٩٠.
- ١١- المرجع نفسه، ص ١٩١-١٩٣.
- ١٢- المرجع نفسه، ص ١٩٣-١٩٩.
- ١٣- المرجع نفسه، ص ٢٠٠-٢٠٢.
- ١٤- المرجع نفسه، ص ٢٠٢-٢٠٤.
- ١٥- المرجع نفسه، ص ٢٠٤-٢٠٧.
- ١٦- اسماعيل صبري مقلد، العلاقات السياسية الدولية دراسة في الأصول والنظريات، ط٢، جامعة الكويت، ١٩٧٩، ص ٦٦٩-٦٧٢.
- ١٧- المرجع نفسه، ص ٦٧٢-٦٧٤.
- ١٨- المرجع نفسه، ص ٦٧٢-٦٧٦.
- ١٩- المرجع نفسه، ص ٦٧٦-٦٨١.
- ٢٠- المرجع نفسه، ص ٦٨١-٦٨٤.
- ٢١- المرجع نفسه، ص ٦٨٤-٦٨٦.
- ٢٢- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص ٢٨٧-٢٣٢.

- ٢٣- المرجع نفسه، ص ٢٣٣-٢٣٧.
- ٢٤- المرجع نفسه، ص ٢٣٧-٢٤٩.
- ٢٥- المرجع نفسه، ص ٢٥٠-٢٥٦.
- ٢٦- أحمد الأصبحي، تطور الفكر السياسي رواده، لتجاهاته، اشكالياته، الجزء الثالث، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٩، ص ١٤٩٦-١٤٩٩.
- ٢٧- المرجع نفسه، ص ١٤٩٩-١٥٠٦.
- ٢٨- المرجع نفسه، ص ١٥٠٧-١٥١٢.
- ٢٩- المرجع نفسه، ص ١٥١٣-١٥٢٠.
- ٣٠- خليل علي مراد وآخرون، دراسات في التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، جامعة الموصل، ١٩٨٦، ص ٣٢٩-٣٣١.
- ٣١- المرجع نفسه، ص ٣٣٢-٣٣٩.
- ٣٢- المرجع نفسه، ص ٣٤٢-٣٤٥.
- ٣٣- المرجع نفسه، ص ٣٤٦-٣٥١.
- ٣٤- ج.ب. ديروزيل، التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين، ج ١، (١٩١٩-١٩٤٥)، ترجمة خضر خضر، دار المنصور، ط ١، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٢٧-٢٢٩.
- ٣٥- المرجع نفسه، ص ٢٣٠-٢٤٩.
- ٣٦- المرجع نفسه، ص ٢٥٧-٢٩٣.
- ٣٧- المرجع نفسه، ص ٢٩٥-٣١٠.
- ٣٨- المرجع نفسه، ص ٣٢٣-٣٢٦.
- ٣٩- المرجع نفسه، ص ٣٢٧-٢٢٤.
- ٤٠- المرجع نفسه، ص ٣٣٥-٣٤٩.
- ٤١- المرجع نفسه، ص ٣٥٠-٣٦٤.
- ٤٢- المرجع نفسه، ص ٣٦٥-٣٧٢.
- ٤٣- المرجع نفسه، ص ٣٧٢-٣٨٢.
- ٤٤- عبد الحميد البطريق، المرجع نفسه، ص ٣٩٠-٣٩٧.

- ٤٥- المرجع نفسه، ص ٣٩٧-٤١٠.
- ٤٦- المرجع نفسه، ص ٤١٠-٤٢١.
- ٤٧- المرجع نفسه، ص ٤٢١-٤٣٢.
- ٤٨- المرجع نفسه، ص ٤٣٥-٤٤٨.
- ٤٩- اسماعيل صبري مقلد، المرجع نفسه، ص ٦٨٦-٦٩١.
- ٥٠- المرجع نفسه، ص ٦٩٣-٦٩٤.
- ٥١- المرجع نفسه، ص ٦٩٤-٧٠٢.
- ٥٢- المرجع نفسه، ص ٧٠٣-٧١٥.
- ٥٣- ديروزيل، المرجع السابق، ج ٢، (١٩٤٥-١٩٧٨) ص ٢٧٧-٢٨٤.
- ٥٤- المرجع نفسه، ص ٢٨٥-٣٠٥.
- ٥٥- المرجع نفسه، ص ٣٤٣-٣٧٩.
- ٥٦- السيد أمين شلبي، الوفاق الأمريكي- السوفييتي (١٩٦٣-١٩٧٦) الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨١، ص ١٠٠-١٤٣.
- ٥٧- فايز صلاح أبو جابر، التاريخ السياسي الحديث والعلاقات الدولية المعاصرة، دار البشير للنشر والتوزيع، ص ١، ١٩٨٩، ص ٣٠٧-٣٦٤.
- ٥٨- المرجع نفسه، ص ٣١٤-٣٢٠.
- ٥٩- المرجع نفسه، ص ٣٢٠-٣٢٢.
- ٦٠- ريمون حداد، العلاقات الدولية نظرية العلاقات الدولية، اشخاص العلاقات الدولية، نظام لم فوضى في ظل العولمة، تقديم للشاذلي القليبي، ط ١، دار الحقيقة، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١٣٥-١٣٨.
- ٦١- المرجع نفسه، ص ١٣٨-١٤٢.
- ٦٢- المرجع نفسه، ص ١٤٣-١٥٢.

المصادر والمراجع

- أحمد محمد الأصبحي، تطور الفكر السياسي: رواه، اتجاهاته، إشكالياته، للجزء الثالث، بيروت، ١٩٩٩.
- إسماعيل صبري مقلد، العلاقات السياسية الدولية، دراسة في الأصول والنظريات، الطبعة الثانية، الكويت ١٩٧٩.
- خليل علي مراد وآخرون، دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الموصل، ١٩٨٦.
- بيروزيل. ج. ب.: التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين، للجزء الأول، (١٩١٩-١٩٤٥) ترجمة خضر خضر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٥.
- _____: التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين، الجزء الثاني، (١٩٤٥-١٩٧٨) ترجمة خضر خضر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٥.
- ريمون حداد: العلاقات الدولية، نظرية العلاقات الدولية، أشخاص العلاقات الدولية، نظام أم فوضى في ظل العولمة، تقديم لثانلي القليبي، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٠.
- السيد أمين شلبي: للوفائق الأمريكي السوفيتي (١٩٦٣-١٩٧٦)، للقاهرة، ١٩٨١.
- عبد الحميد البطريق: للتيارات السياسية المعاصرة ١٨١٥-١٩٦٠، بيروت، ١٩٧٤.
- فايز صالح أبو جابر: التاريخ السياسي الحديث والعلاقات الدولية المعاصرة، الطبعة الأولى، عمان - بيروت ١٩٨٩.

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الأول: قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)	٩٢٧
أولاً: شرارة اندلاع الحرب	٩٢٨
ثانياً: الحملة العسكرية ١٩١٤	٩٣٠
ثالثاً: إيطاليا وروسيا والموقف من الحرب	٩٣٢
رابعاً: دخول الولايات المتحدة للحرب	٩٣٥
خامساً: الجبهات الحربية الأخرى	٩٣٧
الفصل الثاني: مؤتمر الصلح في فرساي عام ١٩١٩	٩٤٣
أولاً: تشكيلات المؤتمر	٩٤٤
ثانياً: معاهدة فرساي مع ألمانيا	٩٤٧
ثالثاً: المعاهدات الأخرى	٩٥٠
أ- معاهدة سان جرمان	٩٥٠
ب- معاهدة تريانون	٩٥١
ج- معاهدة نايجي	٩٥٢
د- معاهدة سيفر	٩٥٣
رابعاً: ظهور الدول القومية الحديثة	٩٥٥
١- فنلندا	٩٥٥
٢- بولندا	٩٥٥
٣- يوغسلافيا	٩٥٦
٤- رومانيا	٩٥٧
٥- تشيكوسلوفاكيا	٩٥٨
نتائج مؤتمر الصلح	٩٥٩
الفصل الثالث: التنظيم الدولي بعد الحرب: قيام عصبة الأمم	٩٦١
تمهيد	٩٦٢
أولاً: ميثاق العصبة وعضويتها	٩٦٣
ثانياً: أجهزة العصبة	٩٦٤
١- الجمعية	٩٦٥
٢- المجلس	٩٦٦

٢- الفاشية- الدولة و النظرية

ثانياً: الأسس الفكرية للنازية

١- من هو هتلر

٢- الفكر النازي

الفصل السادس: الأنظمة الشمولية بين الحربين العالميتين (١٩١٩-

١٩٣٩) والأزمات الدولية

ثانياً: الضمانات ضد ألمانيا
ثالثاً: إعادة تسليح رينانيا
رابعاً: محور روما - برلين
خامساً: الأزمة التشيكوسلوفاكية
سادساً: الأزمة البولندية
الفصل الثامن: قدلاع الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)
أولاً: الجبهة البولندية
ثانياً: الحرب في بدايتها ١٩٣٩-١٩٤٠
ثالثاً: دخول إيطاليا الحرب
رابعاً: بريطانيا في مواجهة المحور
خامساً: الهجوم على اليونان ويوغسلافيا
سادساً: الهجوم على الاتحاد السوفيتي
سابعاً: ميثاق الأطلسنطي والهجوم على اليونان
ثامناً: المعارك في الهادي وستالينجراد وشمال أفريقيا
تسعاً: الحلفاء يهاجمون إيطاليا وألمانيا
١- إيطاليا
٢- فرنسا
٣- ألمانيا
٤- بولندا ورومانيا
عاشراً: نهاية الحرب
حادي عشر: ترتيبات ما بعد نهاية الحرب
الفصل التاسع: هيئة الأمم المتحدة
أولاً: أهداف ومبادئ الأمم المتحدة
ثانياً: العضوية
ثالثاً: الأجهزة والمنظمات
١- الجمعية العامة
٢- مجلس الأمن
٣- المجلس الاقتصادي والاجتماعي
٤- مجلس الوصاية
٥- محكمة العدل الدولية
٦- الأملة للعلمة

ثانيا: لزمة كوبا

ثالثا: للدخول والضعاف المعسكر الغربي

رابعا: اضعاف المعسكر السوفيتي

١- رومانيا

٢- الصين

٣- تشيكوسلوفاكيا

٤- بولندا وهنغاريا

خامسا: ألمانيا الغربية والسلمة الجديدة

الفصل الحادي عشر: الأحلاف الدولية والحرب الباردة

للقارة الأوروبية



دار اسامة

للنشر والتوزيع



الأردن
 المبيعات: تلفاكس: ٤٦٤٧٤٤٧ - تلفون: ٤٦٩٢٣٠٤
 الإدارة: تلفون: ٥٦٥٨٢٥٣ - فاكس: ٥٦٥٨٢٥٤
 الأردن - عمان - ص.ب: ١٤١٧٨١

فلسطين
 الخليل/شارع عين سارة-تلفاكس: ٠٩٧٧٢٢١٥٧٠٥